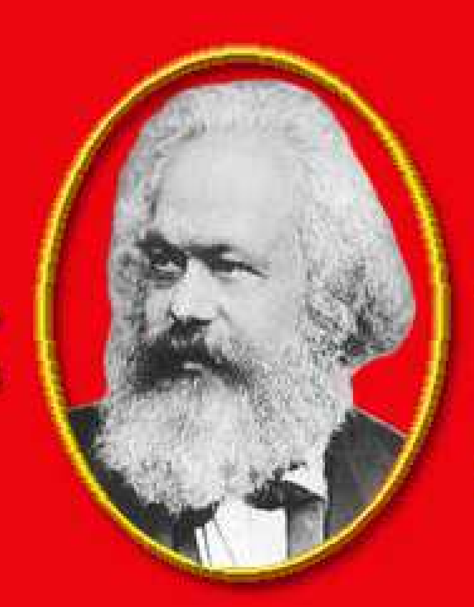
أصول الفلسفة الماركسية

تاليف
جورج بوليتزر
و
جي بيس
موريس كافين



تعريب
شعبان بركات
ليسانسيه في الآداب

الجزء الأول

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

أصول الفلسفة الماركسية

تأليف

جورج بوليتزر

و

جي بيس، موريس كافين

تعريب

شعبان بركات

ليسانسيه في الآداب

منشورات المكتبة العصرية

صيدا – بيروت

مدخل

١ – ما هي الفلسفة؟
٢ – ما الداعي إلى دراسة الفلسفة؟
٣ – ما هي الفلسفة التي ندرسها؟
أ) الفلسفة العلمية: المادية الجدلية
ب) الفلسفة الثورية: فلسفة العمال
٤ – الخلاصة: وحدة النظرية والتطبيق

لا توحي كلمة "الفلسفة" الثقة والاطمئنان، لأول وهلة، في نفوس الكثير من العمال. فهم يعتقدون أن الفيلسوف شخص يعيش في العالم من الخيال. فإذا ما دعونا الناس إلى "التفلسف" رأوا في ذلك دعوة إلى حفلة من حفلات السحر التي نخرج منها وقد أخذت رؤوسنا بالدوران...

هكذا تبدو الفلسفة غالبا: عبارة عن لعب بالأفكار لا صلة له بالواقع، وهو لعب غامض يتقنه بعض المفضلين، وربما كان خطرا على صاحبه، كما أنه لن يفيد منه الذين يعيشون من عرق جبينهم.

ولقد حارب قبلنا الفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت هذا اللعب الغامض الخطر الذي انتهت إليه الفلسفة على يد البعض فوصف أشباه الفلاسفة بقوله:

"... يسمح لهم غموض المبادىء التي يستخدمونها بالحديث عن كل شيء بجرأة نادرة كما لو كانوا على علم تام بها، فإذا بهم يدافعون عن كل ما يقولونه

بصددها ضد أمهر أعدائهم وأدقهم دون أن يجدوا السبيل إلى إقناعهم، فهم بذلك يشبهون ذلك الأعمى الذي جاء ينازع رجلا يرى في داخل قبر مظلم"[1].

ولسنا نريد هنا أن ندخل بالقارىء إلى "قبر مظلم" لأننا نعلم أن الظلمة مواتية للحوادث السيئة. إذ أن هناك فلسفة غامضة مضرة، كما أن هناك أيضاً، كما يريد ديكارت، فلسفة واضحة مفيدة، تلك التي تحدث عنها جوركي بقوله:

"من الخطأ الاعتقاد باني أسخر من الفلسفة. بل أنا حزب لفلسفة تنبعث من الأرض ومن أطوار العمل، فتقوم بدراسة الطبيعة وتسخر قواها في سبيل خدمة الإنسان. وأنا اعتقد بأن الفكر مرتبط أشد الارتباط بالعمل، ولست نصير الفكر بينما نحن لا نحرك ساكنا نجلس أو نرقد بدون عمل[2]."

ويهدف هذا المدخل لأصول الفلسفة الماركسية إلى تحديد الفلسفة عامة، وما الداعي إلى دراستها، وما هي الفلسفة التي يجب أن ندرسها.

---

1 راجع ديكارت: "مقالة عن المنهج" (١٦٣٧) ص ١٠١ المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥٠.

2 راجع جوركي "le philistin et les anecdotes" (1931) في "البرجوازيون الصغار" مطبوعات النقد الجديد باريس ١٩٤٩.

١ – ما هي الفلسفة؟

فهم قدماء الاغريق ــ وكان بينهم أعظم من عرف التاريخ من مفكرين ــ من الفلسفة حب المعرفة. ذاك هو المعنى الدقيق لكلمة "فيلوسوفيا" *(philosophia)* التي اشتقت منها كلمة "فلسفة" *(philosophie)*

وتعني كلمة معرفة "معرفة العالم والإنسان". تتيح لنا هذه المعرفة إقامة بعض قواعد الفعل، كما تتيح لنا تحديد موقفنا من الحياة. وكان *الحكيم* هو من يسير في سلوكه حسب هذه القواعد التي تقوم على معرفة العالم والإنسان.

ولقد استمرت كلمة *"فلسفة"* منذ ذلك العصر لأن الحاجة كانت ماسة إليها. وكثيرا ما تدل على معان مختلفة نظرا لاختلاف وجهات النظر إلى العالم. بيد أن معناها الدائم هو أنها:

"نظرة عامة إلى العالم، تمدنا بقاعدة للسلوك".

وسوف نستشهد بمثال من تاريخ بلادنا، على هذا التعريف.

كان الفلاسفة البورجوازيون في فرنسا يعتقدون في القرن الثامن عشر، كما كانوا يعلمون الناس، اعتمادا على العلوم، أن العالم يمكن معرفته، وكانوا يستنتجون من ذلك أنه يمكن تحويله من أجل خير الإنسان.

وكان الكثيرون يعتقدون، ومن بينهم كوندوسيه مؤلف كتاب:

عرض تاريخي لتقدم الفكر الإنساني (١٧٩٤).

أن الإنسان يمكن إصلاحه وأن المجتمع يمكن أن يصبح أفضل مما هو عليه الآن.

فما كاد القرن ينقضي حتى أخذ الفلاسفة البورجوازيون يعلمون، على العكس من ذلك، انه لا يمكن معرفة العالم وأنه لا يمكن إدراك "حقيقة الأشياء" ولن ندركها قط. ومن هنا كان من العبث محاولة تحويل العالم. وإذا كنا نستطيع التأثير في الطبيعة، فأن هذا التأثير سطحي، لأننا لن ندرك "حقيقة الأشياء". وأما

الإنسان... فهو كما كان في الماضي وسيظل كذلك. إذ أن هناك "طبيعة إنسانية" يستحيل علينا سبر غورها. "فما الفائدة إذن من الجهد لتحسين المجتمع؟

***

نرى من ذلك أن *نظرتنا إلى العالم* (أي الفلسفة) مسألة ذات أهمية. لأن تعارض نظرتين يؤدي إلى نتائج *عملية* متعارضة.

وهكذا أراد فلاسفة القرن الثامن عشر تغيير المجتمع لأنهم يعبرون عن مصالح البرجوازية ومطامحها. كانت البرجوازية آنذاك طبقة ثورية تناضل ضد الاقطاع. أما فلاسفة القرن التاسع عشر فهم يعبرون (سواء علموا ذلك أم لم يعلموه) عن مصالح هذه الطبقة بعد أن تخلت عن ثورتها وأصبحت محافظة، فآلت إليها السلطة وأصبحت تخشى صعود طبقة العمال الثورية.

فهي ترى أن لا شيء يجب تغييره في مجتمع يحتفظ لها بنصيب الأسد. ولقد قام الفلاسفة *بتبرير* مثل هذه المصالح حينما شغلوا الناس عن كل محاولة تهدف لتغيير المجتمع. مثال ذلك الوضعيون (les positivistes) وزعيمهم أوجوست كومت الذي يرى فيه الكثيرون "مصلحا اجتماعيا". بينما كان يعتقد بأن حكم البرجوازية أبدي، كما أن فلسفته الاجتماعية تتجاهل قوى الإنتاج وعلائق هذا الإنتاج[3]. وهذا مما أدى بها إلى العجز. وأما التلفيقيون (les electiques) وزعيمهم فيكتور كوزين فقد كانوا فلاسفة البرجوازية الرسميين، وبرروا اضطهاد طبقة العمال، ولا سيما مجازر حزيران ١٨٤٨، باسم "الحق" و "الجمال" و "الخير" و "العدالة" الخ. وأما فلسفة برجسون، الذي رفعته البرجوازية في سنوات ١٩٠٠، أي في عصر الأمبراطورية، فقد أجهد نفسه ليشغل الإنسان عن واقعه العياني، وعن التأثير في العالم، وعن النضال لتغيير المجتمع، فإذا به

---

3 راجع فيما يتعلق بقوى الإنتاج الدرس الخامس عشر من هذا الكتاب،

ينادي أن على الإنسان أن يكرس نفسه "لذاته الداخلية" و "حياته الداخلية". وما سوى ذلك لا أهمية له. وهكذا يستطيع مستغلو عمل غيرهم أن يناموا مطمئنين.

شهدت البرجوازية الفرنسية فلسفتين مختلفتين في عصرين متتاليين. لأن هذه الطبقة بعد أن كانت ثورية في القرن الثامن عشر أصبحت مناهضة للثورة في القرن التاسع عشر. وليس هناك أروع من مقارنة النصين التاليين. يرجع النص الأول لعام ١٧٨٩، وهي سنة ثورة البرجوازية. كتبه برجوازي ثائر هو كميل دي مولين الذي حيا العهد الجديد بقوله:

"طوبى لهذه الثورة المحظوظة. ليست هناك قوة على الأرض تستطيع أن تحول دون هذا البعث الجديد. هو ثمرة الفلسفة والحرية والوطنية. فإذا بنا لا نعرف التقهقر والاستسلام[٤]*.*

وهاك النص الآخر، فهو يرجع لعام ١٨٤٨، وقد كتبه السيد تيير السياسي البرجوازي يدافع فيه عن مصالح طبقته التي كانت تتولى الحكم ضد طبقة العمال:

"آه لو أن الحالة تعود إلى سابق عهدها. لن أقف في وجه تطور مدارس أطفال الشعب لو قام عليها خوري الضيعة أو مساعده وأني أطالب بتغيير هؤلاء المعلمين العلمانيين الذين يبعث العدد الكبير منهم على الكراهية، أطالب بأن يشرف على المدارس اخواننا الرهبان (les fretes) بالرغم من أنني أسأت الظن بهم سابقاً فأنا أريد أن أزيد من قوة تأثير الكهنوت، كما أطالب بأن يزداد تأثير الخوري أكثر مما هو الآن لأنني اعتمد كثيرا عليه لنشر تعاليم هذه الفلسفة الصالحة التي تعلم الإنسان أنه خلق ليتألم، وليس لنشر تعاليم الفلسفة الأخرى التي تعلم الإنسان عكس ذلك وتقول له: "تمتع بالحياة لأنك خلقت لتنعم بنصيبك

---

4 ذكره البرسوبو ل: ١٧٨٩ " سنة الحرية الأولى" الطبعة الثانية ص ٦٣. المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥٠.

من السعادة حتى إذا لم تنله فأضرب الغني الذي تأبى عليك أنانيته نصيبك من السعادة لأنك بأخذك من الغني ما يفيض عنه تؤمن سعادتك وسعادة جميع الذين يقاسون نفس حالتك[5]

يهتم تيير كما نرى بالفلسفة فما الدافع إلى هذا الاهتمام؟ لأن للفلسفة *طابعا طبقيا*. ولا يجهل الفلاسفة ذلك. غير أن كل *نظرة للعالم* تحتوي على معنى تطبيقي فهي تفيد بعض الطبقات كما أنها تسيء إلى طبقات أخرى. وسنرى بأن الماركسية فلسفة طبقية أيضاً.

بينما كان يرى كميل دي مولين البرجوازي الثائر في الفلسفة سلاحا لخدمة الثورة، إذا بتيير المحافظ يرى فيها سلاحا لمقاومة الإصلاح الاجتماعي، لأن الفلسفة الصالحة "هي التي تدعو العمال إلى الخضوع والاستسلام". ذلك هو تفكير من سيصوب رصاص البنادق إلى صدور رجال الكومون (les communards)

***

5 ذكره جورج كوتيو: مسألة التعليم في عام ١٨٤٨ وقانون فللو، ص ١٨٩. مطبوعات " الامس واليوم".

٢ – ما الداعي إلى دراسة الفلسفة؟

يتهم اليوم خلفاء السيد تيير، في فرنسا وفي الولايات المتحدة، الماركسيين أمام الرأي العام. وهم لا يسعون فقط للقضاء على الماركسيين بل على الفلسفة الماركسية أيضا، كما حاول السيد تيير أن يقضي، في قتله لرجال الكومون، على أفكارهم التي تدعو إلى التقدم الاجتماعي. ولهذا كان واجب العمال واضحا. وهو معارضة الفلسفة التي تخدم المستغلين بفلسفة تساعد على النضال ضدهم. وستبدو لنا أهمية مثل هذه الفلسفة إذا دخلنا ميدان الوقائع.

تدل هذه الوقائع على الوضع الصعب الذي تفرضه سياسة البرجوازية، وهي الطبقة المسيطرة اليوم، على مجموع العمال في بلادنا من بطالة وحياة صعبة وسد أبواب العمل في وجه الشبان والاستهانة بالقوانين الاجتماعية وحق الإضراب والحريات الديمقراطية والاضطهاد والاعتداء المسلح (لاسيما اعتداء ١٤ تموز سنة ١٩٥٣ في باريس)، واستعمار البلاد على أيدي الأميركان، وإعلان حرب الفيتنام الدامية الباهظة، وإعادة تأسيس الطيران الألماني الحربي الخ... ولهذا كان السؤال الذي يتردد على السنة العمال هو التالي: ما السبيل إلى التخلص من كل هذا؟ كما أصبحت الحاجة لمعرفة *سبب* ذلك ملحة عامة حادة. ما سبب خطر الحرب؟ ما سبب الفاشية؟ ما سبب الفقر؟ ذلك لأن عمال بلادنا يريدون *فهم* سبب كل ما يجري حولهم ليعملوا *على تغييره.*

يتضح إذن أنه إذا كانت الفلسفة نظرة للعالم لها نتائجها العملية فأنه يهم العمال الذين يريدون تغيير العالم أن تكون لهم نظرة *صادقة* للعالم. كما أنه يجب التصويب بدقة لكي نصيب الهدف.

فلنفرض أن جميع العمال يعتقدون أنه يمكن معرفة الواقع فإذا بهم عزل أمام الحرب، والبطالة، والجوع، عاجزون عن فهم كل ما يحدث لهم فيرضون به

على أنه مصيبة قدرت عليهم. *وهذا ما كانت تسعى إليه* البرجوازية. ولهذا فهي لا تألو جهدا في استخدام كل وسيلة لاشاعة هذه النظرة للعالم التي تخدم مصالحها. وهذا ما يفسر لنا كثرة انتشار مثل هذه الأفكار: "سيكون هناك دائماً أغنياء وفقراء" أو "المجتمع فاسد وسيظل كذلك. فعلى كل منا أن يهتم بنفسه! أقض على غيرك أن كنت لا تريد أن يقضي الغير عليك. واسع أيها العامل إلى كسب مودة صاحب العمل على حساب رفاقك في العمل، وهذا أفضل من أن تتحد معهم للدفاع المشترك عن أجوركم. فعليك أيها العامل أن تصبح عشيق صاحب العمل فتضحك لك الحياة. مهما حل بالآخرين"

نجد هذه الأفكار بكثرة في *المختار (من ريددز دايجست)* وفي صحافة العشق والغرام. وهي بمثابة السم الذي تحاول البرجوازية أن تفسد به ضمير العمال والذي يجب عليهم أن يحذروه.

نلقى هذا السم في صور متعددة. وهكذا يشتري العمال الذين لا يزالون يقرأون جريدة *(Franc–Tireur)* سما بخمسة عشر فرنكا كل يوم على غير علم منهم، لأن هذه الجريدة تضج من *سوء الحال* ولكنها لا تقول *السبب* الذي جعل الأحوال تسوء، وهي تسعى إلى الحيلولة دون اتحاد العمال أو القضاء على هذا الاتحاد الذي هو الوسيلة الوحيدة للخروج من هذه "الحال".

تتعلق جميع هذه الأفكار *بالنظرة إلى العالم* أي بالفلسفة فنحن أما أن نأخذ المجتمع على علاته فنخضع للاستغلال وأما أن نبني لأنفسنا مكانا تحت الشمس.

وهاك ما كتبته جريدة *(super–boy)* وهي إحدى الجرائد الكثيرة التي تخصصها البرجوازية لأطفال العمال.

"هل كتب علينا ان نبحث دائما عن سبب حدوث ما يحدث لنا وكيفية حدوثه؟ فنحن نقاسي الظلم كل يوم ونرى القوة تعلو على الحق"

يعلم الأطفال هذا النص البطش واحتقار الإنسان، وهذا ما يخدم حاجات البرجوازية المعتدية التي تعتبر حرب الغزو والاعتداء النشاط الطبيعي للإنسان.

ونذكر هنا ما قاله لينين عام ١٩٢٠ في المؤتمر الثالث لاتحاد الشباب الشيوعي في روسيا فلقد وصف المجتمع الرأسمالي بقوله:

قام المجتمع القديم على المبدأ التالي: أما أن تسلب جارك وأما أن يسلبك جارك، أما أن تعمل لمصلحة الغير وأما أن يعمل الغير لمصلحتك، إما أن تكون مالكا للعبيد وإما أن تكون عبدا. ولهذا ندرك أن الأناسي الذين ينشأون في مثل هذا المجتمع يرضعون مع لبن أمهاتهم نفسية النخاس أو العبد، وعاداته وأفكاره أو المالك الصغير، أو المستخدم البسيط، أو الموظف الحقير، أو المثقف أي نفسية الإنسان الذي لا يفكر ألا بامتلاك ما يحتاج إليه دون أن يعبأ بالآخرين.

فإذا كنت استغل قطعة الأرض الصغيرة التي أملكها فليس علي أن أهتم بمصير الآخرين، حتى إذا ما حلت المجاعة بهم بعتهم قمحي بثمن باهظ.

وإذا كنت أمارس الطب أو الهندسة أو كنت معلما في مدرسة أو مستخدما. فمالي وللآخرين؟ إذ ربما احتفظت بمركزي ونجحت في الانضمام إلى زمرة البرجوازية عن طريق مداهنة ذوي السلطان والفوز برضاهم[6].

يجب علينا أن نحارب هذه الفلسفة القديمة، العزيزة على قلب البرجوازية الحاكمة، في نفوسنا وخارج هذه النفوس لأنها لا تعتمد فقط على التقاليد والأوهام القديمة، بل على الصحافة والمذياع والخيالة فنلبي نداء باربوس الذي قال بصدد هذا النضال ضد الأفكار القديمة السامة:

Recommence-toi, sil le faut
ec une magnifique honnetete ?[7]

يجب علينا أن نعمل على تكوين أفكار جديدة تحمل في طياتها الثقة وتخلو من اليأس، تدعو إلى النضال ولا تشير بالاستسلام. وليست تلك مسألة ثانوية بالنسبة

---

6 راجع لينين: مختارات، ج ٢، ص ٨١٥ مطبوعات اللغات الأجنبية موسكو ١٩٤٧ . ل. القسم الثاني ص ٨٩٧، موسكو ١٩٥٣.

7 راجع هنري باربوس: أقوال مناضل. ص١٠ فلاماريون.

للعمال، بل هي مسألة حياة أو موت لأنهم لن يتحرروا من الاضطهاد الطبقي إلا إذا كانت لديهم فكرة عن العالم تمكنهم من تغييره فعلا.

وهكذا يروي لنا جوركي في *"الأم"* كيف أن امرأة عجوزا، أيام القيصرية في روسيا، كانت تعيش مستسلمة يائسة فإذا بها تنقلب ثائرة لأنها فهمت بفضل أبنها، وهو بطل مناضل من أبطال الاشتراكية، مصدر آلام الشعب وأدركت إنه يمكن القضاء على هذه الآلام.

ولهذا لن تكون دراسة الفلسفة جهدا لا طائل تحته للذين يأبون الاستسلام، لأن النظرة الموضوعية للعالم هي التي تمدهم بأسباب هذا النضال.

وليس هناك من نضال مظفر بدون فلسفة صادقة. ويعتقد البعض أنه يكفي للنجاح توفر شروط النجاح. وهذا خطأ لأنه يجب أيضاً *معرفة* أن هذه الشروط متوفرة. وكلما تعقدت الأشياء كلما زادت أهمية معرفة معالجتها.

تصح هذه الملاحظات بصدد النضال الثوري من أجل الاشتراكية والشيوعية ولهذا قال لينين: *"ليس من حركة ثورية بدون فلسفة ثورية"*.

كما تصح أيضا في النضال من أجل أهداف أخرى كالنضال من أجل الحريات الديمقراطية، من أجل الخبز أو من أجل السلام.

يجب علينا اذن أن ندرس الفلسفة لضرورة عملية. فلنر الآن عن قرب ما هي هذه الفلسفة التي تتيح لنا فهم العالم والنضال من أجل تغييره.

٣ – ما هي الفلسفة التي ندرسها؟

أ) – الفلسفة العلمية: المادية الجدلية

إذا أردنا تغيير الواقع سواء كان الطبيعة أو المجتمع فإنه يجب علينا أن نعرف هذا الواقع. يعرف الإنسان العالم بواسطة العلوم المختلفة، ولا توافق العمال في نضالهم أجل حياة أفضل إلا نظرة علمية للعالم. هذه النظرة العلمية هي الفلسفة الماركسية أو *المادية الجدلية.*

ويتبادر هنا إلى ذهننا سؤال وهو: ما الفرق بين "العلم" و "الفلسفة" أو ليست الفلسفة مماثلة للعلم؟ لا تنفصل الفلسفة الماركسية عن العلوم ولكنها تتميز عنها. إذ أن غرض كل من علوم الفيزياء والبيولوجيا والنفس هو دراسة القوانين المتعلقة بجزء معين من الواقع. أما المادية الجدلية فهي تهدف لغرضين:

ـ تدرس المادية الجدلية أعم قوانين الكون، وهي القوانين التي تشترك فيها جميع جوانب الواقع من طبيعة فيزيائية وفكر مارة بالطبيعة الحية وبالمجتمع، وسوف ندرس في الدروس المقبلة هذه القوانين. غير أن ماركس وانجلز، وهما مؤسسا المادية الجدلية، لم يبدعا الجدلية من خيالهما. بل إن تقدم العلم هو الذي أتاح لهما اكتشاف أعم القوانين التي تشترك فيها جميع العلوم وصياغتها وهي القوانين التي تعرضها الفلسفة[٨].

ـ كما أن الفلسفة الماركسية *نظرة علمية للعالم*، وهي النظرة الوحيدة العلمية أي التي تتفق وتعاليم العلوم. فما هي هذه التعاليم؟ تعلمنا العلوم أن الكون حقيقة مادية، وأن الإنسان ليس غريبا على هذه الحقيقة، وأنه يمكنه معرفتها، ومن ثم تغييرها كما تدل على ذلك النتائج العملية التي توصلت إليها مختلف العلوم.

---

8 راجع حول تكوين النظرية الماركسية الدرس الأول والدرس الرابع عشر.

وسنبدأ دراسة المادية الفلسفية في الدرس الثامن حتى الدرس الحادي عشر. وليست المادية الماركسية مماثلة للعلوم لأنها لا تهدف جانبا معينا من جوانب الواقع كما تفعل العلوم بل هي تسعى لفهم العالم بجعله في نظرة تقبلها العلوم جمعاء ولو لم يكن العلماء ماركسيين.

يقول انجلز: *"تعني النظرة المادية للعالم النظرة إلى الطبيعة كما هي، بدون أي إضافة خارجية*[9]*"*.

يدرس كل علم *جانبا* من "الطبيعة كما هي". أما الفلسفة الماركسية فهي "النظرة العامة للطبيعة كما هي" فهي بهذا *فلسفة علمية* بالرغم من أنها لا تماثل العلوم.

قلنا أن المادية الجدلية لا تماثل العلوم. ولكننا وجدنا أيضاً أن العلوم جدلية *بالضرورة،* لأنها لا يمكن أن تتكون إذا ما تجاهلت أعم القوانين في الكون. كما أنها مادية لأن موضوعها الكون المادي.

وبهذا تنفصل المادية الجدلية عن العلوم. ولا تتقدم ألا باعتمادها على هذه العلوم، كما أنها تعين العلوم كما سنرى ذلك. وتقوم مهمتها على نقد النظريات غير العلمية عن العالم، والفلسفات المعارضة للجدلية وللمادية.

كما توسع *المادية التاريخية* ميدان مبادىء المادية الجدلية فتشمل المجتمع، وسندرس ذلك ابتداء من الدرس الواحد والعشرين.

وتكون المادية الجدلية التاريخية *الأساس النظري للاشتراكية العلمية،* أو الشيوعية.

ولقد اختصر ستالين كل ذلك فكتب يقول:

---

9 ف. انجلز: ل. فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، ذكره ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص ١٠، المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٠.

"الماركسية هي العلم الذي يقوم بدراسة قوانين تطــور الطبيعــة والمجتمــع، وهــي العلم الذي يدرس ثورة الطبقات المضطهدة المستغلة، كمــا أنهــا العلــم الــذي يصــف لنا انتصار الاشتراكية في جميــع البلــدان، وأخيــرا هــي العلــم الــذي يعلمنــا بنــاء المجتمع الشيوعي[10]".

ب)– الفلسفة الثورية: فلسفة العمال

لما كانت الفلسفة الماركسية فلسفة علمية فأنها بــذلك فلســفة العمــال فهــي فلســفة حزب العمال وفلســفة الطبقــة الثوريــة التــي يقــوم دورهــا التــاريخي علــى قهــر البرجوازية والقضاء على رأس المال وبناء المجتمع الاشتراكي.

وسوف نعود في الدرس الرابع عشر للحديث عــن أهميــة الرابطــة التــي تــربط العمال بالماركسية. ولكن يجــب أن نوضــح ذلــك منــذ الآن. إذا كــان العمــال قــد انضموا إلى الفلسفة الماركسية، وإذا كانوا قد تمثلوا هــذه الفلســفة وغــذوها فمــا ذلــك إلا لأن نضالهم من أجل تغيير المجتمع الذي هم ضحيته قد أوجــب علــيهم *فهــم* هــذا المجتمع ودرسه دراسة علمية. وتحــاول البرجوازيــة، للــدفاع عــن مصــالحها فــي كونها طبقة محظوظة، أن تنسي النــاس أن ســيطرتها ترتكــز علــى اســتغلال قــوى العمل. فهي تنكر واقع الاستغلال الرأســمالي، لأن الاعتــراف بهــذا الواقــع لا يتفــق *ومصالحها كطبقة مســتغلة*. ولهــذا نــرى البرجوازيــة تضــرب صــفحا عــن هــذه الحقيقة.

يختلف عن ذلك مركز العمال. إذ أن مصــلحتهم، كطبقــة مســتغَلة تريــد تحطــيم قيد الاستغلال، في أن ينظروا للعالم وجهــا لوجــه. وتحتــاج الطبقــة المســتغِلة إلــى الكذب لدوام الاستغلال، بينما تحتــاج الطبقــة الثــائرة إلــى الحقيقــة للقضــاء علــى

---

10 ستالين: "حول الماركسية وفقه اللغة" في "آخر مؤلفات" ص ٥٩ المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥٣.

الاستغلال. فهي بحاجة لنظرة صادقة عن العالم تساعدها على اتمام مهمتها الثورية على أكمل وجه. هذه النظرة إلى العالم وجها لوجه هي المادية. كما أن النظرة إلى العالم في تطوره الواقعي هي المادية (لأن الجدلية تقوم بدراسة القوانين التي تفسر تطور المجتمع).

نستطيع القول إذن أنه لما كانت المادية الجدلية فلسفة علمية فقد أصبحت بذلك فلسفة الطبقة الثائرة، فلسفة الطبقة التي تقوم مصلحتها على فهم المجتمع للتخلص من الاستغلال وبهذا تكون الماركسية فلسفة العمال العلمية.

كتب أ. جدانوف يقول:

"أدى ظهور الماركسية كفلسفة علمية لطبقة العمال إلى انتهاء عصر الفلسفة القديمة حين كانت الفلسفة شغل المتوحدين داخل مدارس تتألف من عدد صغير من الفلاسفة والصحابة الذين كانوا يعيشون بعيدين عن العالم الخارجي وقد انفصلوا عن حياة الشعب وأصبحوا كالأغراب بالنسبة إليه.

"إذ ليست الماركسية مدرسة فلسفية من هذا النوع. بل هي تبدو، على العكس، تجاوزا للفلسفة القديمة بعد أن كانت هذه مقتصرة على بعض المختارين ضمن ارستقراطية فكرية، كما أنها بداية مرحلة جديدة تصبح فيها الفلسفة سلاحا علميا في أيدي الطبقات الكادحة التي تناضل من أجل تحريرها[11]"

تلك هي الفلسفة التي سندرسها لأنها، لما كانت فلسفة علمية، فأنها تحمل إلى العمال الضياء الذي ينير أمامهم سبل النضال. تحمل إلى العمال كافة وليس فقط إلى "البروليتاريا" لأن من يعملون بايديهم وتفكيرهم حلفاء "للبروليتاريا" يتفقون معها في المصلحة ضد البرجوازية الرأسمالية. ولهذا كانت دراسة الماركسية، وهي فلسفة العمال العلمية، واجبا على كل من يريدون القضاء على الأكاذيب

---

11 أ. جدانوف: حول الأدب والفلسفة والموسيقى، ص ٤٤ – ٤٥ مطبوعات مجلة النقد الجديد، باريس ١٩٥٠.

التي تنتشر في ظلال البرجوازية. والفلسفة الماركسية، كأي علم، في تناول كل إنسان مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها: وهكذا يمكن للبرجوازي أن يكون ماركسيا إذا أنضم إلى جانب العمال وأخذ بوجهة نظرهم.

غير أن الرابطة التي تربط الماركسية بالعمال تساعدنا على فهم كون الفلسفة الماركسية فلسفة حزب. لأنه لا يمكن للعمال أن يقهروا البرجوازية بدون حزب ثوري مطلع على قوانين المجتمعات. ولقد عبر عن تلك الفكرة كل من ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي، كما قال لينين:

"كان ماركس وأنجلز في الفلسفة حزبيين[١٢]*"*

وكذلك كان شأن أفضل رفاقهما ولا سيما لينين وستالين.

12 لينين: المادية والنزعة النقدية التجريبية، ص ٣١٢، المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٨.

٤ – الخلاصة: وحدة النظرية والتطبيق

ليست دراسة الفلسفة الماركسية بالنسبة للعمال وخاصة البروليتاريا ضربا من الترف بل هي *واجب طبقي*. فإذا ما تقاعسنا عن تادية هذا الواجب تركنا المجال واسعا لنظريات غير العلمية الرجعية التي تخدم الاضطهاد البرجوازي وحرمنا الحركة العمالية من رائدها الذي يدلها على الطريق السوي.

تخشى البرجوازية من فلسفة العمال وتحاربها بجميع الوسائل. ولهذا فقد طمست خلال عشرات السنين النظرية الماركسية فأبعدتها عن الجامعات. حتى إذا ما عظم تأثير المادية الجدلية، كلما ازدادت سلطة الطبقة العاملة، كان لا بد من اصطناع الحيلة، فإذا بالدعاة البرجوازيين يغيرون من لهجتهم فيقولون: "لقد كانت الماركسية صالحة في العهود الغابرة أما الآن فقد أصبحت *بالية*" ومن هنا نشأت مختلف المحاولات لتجاوز الماركسية. غير أن هذه المحاولات العديدة تمر بمرحلة تمهيدية تقوم على تشويه أسس الماركسية الفلسفية والمادية الجدلية.

ولقد وجدت البرجوازية نصيرا لها في هذا العمل عند زعماء الديمقراطية الاجتماعية العالمية. ولا سيما مساعدة ليون بلوم في بلادنا فهو ينكر في كتابه "على مستوى الإنسان" *(A l'Echelle humaine) (1946)* ضرورة اعتماد الاشتراكية على فلسفة مادية بالرغم من تعاليم ماركس الدائمة بهذا الصدد. كما أن زعماء الاشتراكية العالمية يلجأون إلى كنف الدين في قولهم:

"ليست الماركسية والمادية الجدلية والتاريخية ضروريتين للاشتراكية فأن الدين له نفس الشأن[١٣]"

---

13 نظم الاشتراكية العالمية الجديدة.

وسنرى أن مثل هــذه المحــاولات تــؤدي إلــى الحيلولــة دون النضــال الطبقــي وتقف في وجه الثورة.

غير أن كــل هــذا لا يمكــن أن يغيــر مــن حقيقــة الماديــة الجدليــة والماديــة التاريخية. فالوقــائع هــي الوقــائع. وإذا بنــا نشــهد اليــوم تتــاحر مختلــف الــدول الرأسمالية بالرغم من تحالفها ضد بــلاد الاشــتراكية. ويعتــرف الرأســماليون أنفســهم بهذا الوضع. ولقد تنبأ به ستالين ووصفه فــي آخــر كتــاب لــه *"مشــاكل الاشــتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي"* ذلــك الكتــاب الــذي يعــرض للفلســفة الماركســية وينميها.

أن انتصار الاشــتراكية وقيــام الشــيوعية فــي روســيا وازدهــار الــديمقراطيات الشعبية، وتقدم الأحزاب العمالية الماركسية اللينينية لأسطع دليــل علــى قــوة الفلســفة الماركسية. أما الفلسفات البرجوازية فهــي لا تســتطيع ســوى تســجيل ازديــاد أزمــة الرأسمالية العامة فتحاول تبريرها دون أن تستطيع تفسيرها.

وهناك مع ذلك مسألة لا يجب على من يدرس الفلســفة الماركســية إغفالهــا وهــي أنه لما كانت الماركسية فلسفة علمية لطبقة البروليتاريــا الثــائرة فانهــا *لا تفصــل قــط الناحية النظرية* عن الناحية العملية. فقد كان ماركس وأنجلــز ورفاقهمــا رجــال فكــر وعمل في نفس الوقت. ولقد أغنت الماركسية هــذه العلاقــة العضــوية بــين الفلســفة والتطبيق فإذا بكل مرحلة من مراحل الحركــة الثوريــة تمهــد الســبيل لتطــور جديــد في الفلسفة الماركسية. ولا نستطيع تمثــل مبــادىء الماركســية إذا لــم نشــارك فــي العمل الثوري الذي يظهر خصبها.

ليست الفلسفة الماركسية اللينينية عقيدة بل هي رائد للفعل[١٤].

---

14 تاريخ الحزب الشيوعي في روسيا، ص ٣٩٤. مطبوعات اللغات الأجنبية موسكو١٩٤٩.

القسم الأول

دراسة المنهج الجدلي الماركسي

الدرس الأول

المنهج الجدلي

سميت المادية بالجدلية لأن طريقتها في اعتبار الظواهر الطبيعة ومنهجها في البحث والمعرفة جدليان، كما أن تفسيرها لظواهر الطبيعة ونظرتها إلى هذه الظواهر ماديان[١٥].

١ ـ ما هو المنهج؟

نعني "بالمنهج" الطريق الذي يؤدي بنا إلى الهدف. ولقد درس كبار الفلاسفة أمثال ديكارت وسبينوزا وهجل قضايا المنهج لأهتمامهم بأكتشاف أكثر الوسائل عقلانية لبلوغ الحقيقة. ويريد الماركسيون أن ينظروا إلى الواقع وجها لوجه

15 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص ٣ المطبوعات الاجتماعية ١٩٥٠.

فيتخطوا المظاهر المباشرة. ولهــذا كــان للمــنهج أهميــة كبــرى عنــدهم. ذلــك لأن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد الذي يتيح لهــم تكــوين هــذه النظــرة العلميــة إلــى العالم والتي هي ضرورية لأتمام عملية التغيير الثورية.

والجدلية هي ذلك المنهج وهي المنهج الوحيد الذي يوافــق *النظــرة العلميــة* إلــى العالم.

وسنخصص الدرس الستة التاليــة مــن هــذا البحــث لدراســة المــنهج الجــدلي. ولكن يجب أن نعد أنفسنا لذلك بالقاء نظرة عابرة علــى ذلــك. وســوف يســهل هــذه النظرة المقارنة بين المنهج الجدلي (وهو مــنهج علمــي) وبــين المــنهج الميتــافيزيقي (وهو منهج مناقض للعلم).

٢ ــ المنهج المتافيزيقي

أ) ـ صفاته

اشترينا زوجا من الأحذية الصفراء. وبعد مدة من الــزمن تبلــى فنصــلحها ومــع ذلك نقول بأننا نلبس أحذية صفراء دون أن ندرك أنها *لــم تعــد نفــس الأحذيــة التــي اشتريناها سابقا*، ولكننا نهمل الإشارة إلى ما أصابها مــن تغييــر فنعتبرهــا وكأنهــا لا تزال على حالها.

سيساعدنا هذا المثال على فهم ماهية المنهج الميتافيزيقي.

يعتبر مثل هذا المنهج، حسب قول انجلــز، الأشــياء "وكأنهــا تامــة الصــنع[١٦]" لا تتغير، لا تتأثر بأسباب التغير.

---

16 انجلز: لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ص ٣٥. المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٤٦، في "ماركس – انجلز: دراسات فلسفية، ص ٣٤٦ المطبوعات الاجتماعية ١٩٥١".

ولنشر إلى أن كلمة "ميتافيزيقية" مشتقة من *"ميتا"* اليونانية وهي تعني *"ما وراء"* و *"فيزيقيا"* وهي تعني علم الطبيعة. وموضوع الميتافيزيقيا (ولا سيما عند ارسطو) هو دراسة الكائن الذي يوجد وراء الطبيعة. وبينما الطبيعة متغيرة، فأن الكائن الذي يوجد وراء الطبيعة ابدي لا يتغير. يسميه البعض الله، ويسميه الآخرون المطلق.. الخ.

ويعتقد الماديون، الذين لا يعتمدون على العلم فقط، أن هذا الكائن خيالي (راجع الدرس التاسع). ولما كان قدماء الأغريق لم يصلوا إلى تفسير الحركة فقد اضطر بعض فلاسفتهم أن يقيموا، وراء الطبيعة المتغيرة، مبدأ أبديا.

فإذا ما تحدثنا عن *منهج ميتافيزيقي* أردنا بذلك منهجا يجهل حقيقة الحركة والتغير. ولهذا كان عدم رؤيتي لتغير حذائي موقفا ميتافيزيقيا. تجهل الميتافيزيقيا الحركة وتقول بالسكون والتماثل وشعارها "لا جديد تحت الشمس". كما أن القول بأن الرأسمالية أبدية وأن مصائب الرأسمالية وعيوبها (من أفساد وأنانية وقسوة) التي تولدها في الناس مخلدة ضرب من التفكير الميتافيزيقي. لأن الميتافيزيقي يتمثل في خاطره إنسانا أبديا لا يتغير.

لماذا ؟ لأنه يفصل الإنسان عن بيئته وعن مجتمعه. فهو يقول: "يوجد من جهة الإنسان، ومن جهة ثانية المجتمع. فإذا ما قضينا على المجتمع الرأسمالي ليحل محله مجتمع اشتراكي ظل الإنسان مع ذلك إنسانا". نقع هنا على صفة ثانية من صفات الميتافيزيقيا: فهي تفصل بصورة اعتباطية بين ما هو في الواقع لا انفصال بينه. فالإنسان ثمرة لتاريخ المجتمعات. وهو ليس كذلك خارج المجتمع بل بتأثيره. وهكذا يفصل المنهج الميتافيزيقي ما هو متصل في الواقع. ويقوم بتصنيف جميع الأشياء تصنيفا نهائيا. فهو يقول مثلاً: "السياسة من جهة والنقابة من جهة". ولا شك أن السياسة والنقابة شيئان، غير أن التجربة والحياة تبرهن لنا على أنه لا يمكن فصل السياسة عن النقابة، لأن ما يحدث في النقابة يؤثر في

السياسة، كما أن النشاط السياسي (كالدولة، والأحزاب، والانتخابات) يؤثر في النقابة.

تؤدي هذه التجزئة بالميتافيزيقي إلى أن يفكر في كل مناسبة بهذا الشكل: يكون الشيء هذا أو ذاك، فهو لا يمكنه *أن يكون في نفس الوقت* هذا أو ذاك" مثال: ليست الديمقراطية هي الدكتاتورية، وليست الدكتاتورية هي الديمقراطية فالدولة إذن إما أن *تكون* ديمقراطية وأما أن *تكون* دكتاتورية. ولكن ما الذي تعلمنا أياه الحياة ؟ تعلمنا الحياة أن *الدولة يمكن أن تكون*، في نفس الوقت، دكتاتورية وديمقراطية. فالدولة البرجوازية، في الولايات المتحدة مثلا، ديمقراطية بالنسبة لأقلية من كبار الممولين الذين يتمتعون بجميع الحقوق وكل السلطات. وهي دكتاتورية بالنسبة للأغلبية الساحقة من أوساط الناس الذين لا يتمتعون إلا بحقوق وهمية. أما الدولة الشعبية، في الصين مثلا، فهي دكتاتورية بالنسبة لأعداء الشعب وبالنسبة للأقلية المستغلة التي طردتها الثورة من الحكم، وهي ديمقراطية بالنسبة للأغلبية المطلقة من العمال الذين تحرروا من الاضطهاد.

ولما كان الميتافيزيقي يحدد الأشياء تحديداً نهائياً ويحرص على أن يعزلها بعضها عن بعض، فأنه مضطر إلى أن يناقض بعضها بالبعض على أنها متنافرة لا يمكن التوحيد بينها. فهو يعتقد أنه لا يمكن أن يوجد متناقضان في نفس الوقت، فهو يقول إن الكائن إما أن يكون حيا وإما أن يكون ميتا، ولا يمكن أن يتصور أن كائنا ما يمكن أن يكون حيا وميتا في نفس الوقت. ومع ذلك تحل في الجسد الإنساني. في كل لحظة. خلايا جديدة محل الخلايا الميتة. وتقوم حياة الجسم على هذا النضال المستمر بين الأضداد.

يمتاز المنهج الميتافيزيقي *إذن برفضه للتغير وفصله بين ما لا يمكن فصله وإهماله للأضداد.* وسوف ندرس كل ذلك بتفصيل في الدروس المقبلة. فنقارن بين هذه الصفات والصفات التي يمتاز بها المنهج الجدلي. ولكن يمكننا منذ الآن

أن نحس بالأخطار التي يمكن أن يؤدي إليها المنهج الميتافيزيقي في البحث عن الحقيقة والتأثير في العالم. لأن الميتافيزيقيا يفوتها جوهر الواقع الذي هو تغير مستمر وتحول دائم: فهي لا تريد أن ترى إلا جانبا واحدا من هذا الواقع الغني وأن ترد الكل إلى أحد أجزائه فترد الغابة بأكملها إلى إحدى شجراتها. فهي لا تتخذ صورة الواقع كما تفعل الجدلية بل تريد أن تحمل الواقع الحي على أن يتخذ صورة قوالبها الميتة. وهي مهمة مصيرها إلى الفشل.

تروي خرافة يونانية قديمة مساوىء قاطع الطريق بروكست الذي كان يرقد ضحاياه على سرير ضيق. فإذا كانت الضحية أضخم من السرير قطع رجليها، وإذا كانت ضئيلة مدد أعضاءها... وهكذا تفعل الميتافيزيقا بالوقائع غير أن الوقائع عنيدة لا تستسلم.

***

ب) – معناه التاريخي

قبل أن نتعلم رسم الأشياء المتحركة يجب علينا أن نتعلم رسم الأشياء الثابتة. وهذا هو شأن تاريخ الإنسانية. فلقد أدى لها المنهج الميتافيزيقي خدمات جلى حين لم يكن باستطاعتها تكوين منهج جدلي.

كان للمنهج القديم في البحث والتفكير، والذي يسميه هجل المنهج "الميتافيزيقي"، والذي كان يفضل دراسة الأشياء على أنها ثابتة والذي لا تزال بقاياه تراود العقول، كان لهذا المنهج ضرورته التاريخية. إذ كان يجب دراسة الأشياء به أولا، قبل دراسة ما يعتريه من تغيرات وتحولات كان يجب معرفة ماهية هذا الشيء أو ذاك قبل ملاحظة ما يعتريه من تحول. وكذلك كان شأن العلوم الطبيعية ولقد كانت الميتافيزيقا القديمة، التي كانت تعتبر الأشياء أبدية لا

تتغير، ثمرة علم الطبيعة الذي كان يدرس الأشياء الميتة والحية على أنها لا تتغير[17].

ولم يكن باستطاعة علم الطبيعة آنذاك أن يفعل غير ما فعل. إذ كان يجب معرفة الأنواع الحية، أولا، والتمييز بينها بعناية، وتصنيفها لمعرفة أن النبات ليس حيوانا وأن الحيوان ليس نباتا. كما كان يجب في علم الفيزياء فصل الحرارة عن النور والكثافة.. الخ، خوفا من الخلط بينها والتكرس لدراسة أبسط الظواهر. وهكذا لم يستطع العلم، مدة طويلة من الزمن، تحليل الحركة، أيام جاليلي وديكارت بل أكتفى بأبسط صور الحركة وهي تغيير المكان.

غير أن تقدم العلوم حمل العلماء على الخروج عن نطاق الميتافيزيقا الضيق.

حتى إذا ما تقدمت دراسة الطبيعة وأمكن الانتقال لدراسة التغييرات التي تخضع لها الأشياء ضمن الطبيعة بصورة منظمة أزفت ساعة أفول الميتافيزيقا القديمة[18].

٣ – المنهج الجدلي

أ) – صفاته

تنظر الجدلية إلى الأشياء والمعاني في ترابطها بعضها بالبعض وما يقوم بينها من علاقة متبادلة، وتأثير كل منها في الآخر. وما ينتج عن ذلك من تغيير كما تنظر إليها عند ولادتها ونموها وانحطاطها[19].

وهكذا تتعارض الجدلية في كل ناحية مع الميتافيزيقا. وليس ذلك لأن الجدلية لا تقبل أي سكون أو فصل بين مختلف جوانب الواقع بل هي ترى في السكون

---

17 انجلز: لودفيج ورباخ، ص ٣٥، دراسات فلسفية. ص ٤٦.

18 انجلز: لودفيج فورباخ، ص ٣٥، ودراسات فلسفية ص ٤٦.

19 انجلز: ضد دورنج . ص ٣٩٢. المطبوعات الاجتماعية ١٩٥٠.

جانبا نسبيا من الواقع. بينما الحركة مطلقة. وهي تعتبر أيضاً أن كل فصل أو تمييز هو نسبي لأن كل شيء يحدث في الواقع بطريقة أو أخرى. وأن كل شيء يؤثر في الآخر. وسندرس قوانين الجدلية في الدروس الستة المقبلة.

وهكذا لما كانت الجدلية تهتم بالحركة في كل أشكالها وليس فقط بالتغيير المكاني بل بتغييرات الحالات كتحول الماء السائل إلى بخار فإنها تفسر الحركة عن طريق *نضال الأضداد*. ذلك أهم قانون في الجدلية، وسوف نخصص له الدرس الخامس والسادس والسابع.

يقوم الميتافيزيقي بعزل الأضداد بعضها عن بعض، وينظر إليها على أنها متنافرة بصورة منظمة. أما الجدلي فهو يكتشف بأنه لا يمكن أن يوجد بعضها دون البعض، وأن كل حركة وكل تحول إنما يفسره ما ينشأ بينها من نضال. ولقد أشرنا، في المسألة الثانية من هذا الدرس، إلى أن حياة الجسد هي نتيجة نضال مستمر بين قوى الحياة وقوى الموت، وأنها انتصار تنتزعه الحياة من براثن الموت.

إذ أن كل كائن عضوي هو في كل لحظة، ذاته وليس بذاته، فهو، في كل لحظة. يتمثل مواد غريبة ويفرز مواد أخرى، تموت في كل لحظة، خلايا من جسده بينما تتكون أخرى. فإذا بماهية هذا الجسد تتجدد في مدة قصيرة، وقد حل محلها ذرات مادية أخرى، بمعنى أن كل كائن عضوي هو دائما ذاته وليس بذاته.

حتى إذا ما تأملنا الأشياء جيدا وجدنا أن قطبي التناقض لا يمكن الفصل بينهما بالرغم من تناقضهما، وأن كلا منهما يتداخل في الآخر، وهكذا فأن السبب والنتيجة هما تصوران لا قيمة لهما ألا إذا طبقناهما على حالة معينة، حتى إذا ما اعتبرنا هذه الحالة المعينة في علاقتها بمجموع العالم انحلا في نظرتنا إلى

التفاعل الشامل المتبادل حيث تتبدل الأسباب والنتائج باستمرار فيصبح ما كان نتيجة هنا سببا هناك وهكذا دواليك[٢٠].

وهكذا شأن المجتمع أيضا. وسنرى بأن نضال الأضداد يظهر في المجتمع في صورة نضال الطبقات. كما أن نضال الأضداد يثير الفكر. (راجع الدرس السادس، المسألة ٣)

ب) – تكوينه التاريخي

يعود الفضل إلى الفلاسفة اليونان في البدء بتكوين الجدلية. فقد تصوروا الطبيعة ككل. وكان هر قليط يعلم الناس أن هذا الكل يتحول، فكان يقول لا ندخل قط في نفس النهر مرتين. كما يحتل نضال الأضداد عندهم مكانة كبيرة ولا سيما عند أفلاطون الذي يشير إلى خصب هذا النضال، إذ أن الأضداد يولد كل منها الآخر[٢١]. وكلمة "الجدلية" مشتقة من الكلمة اليونانية "*dia legein*" وتعني "جادل" فهي تعبر عن صراع الأفكار المتناقضة.

ونجد عند أكبر مفكري العصر الحديث ولا سيما عند ديكارت وسبينورزا أمثلة رائعة على التفكير الجدلي. أعجب هيجل بالثورة البرجوازية التي أتنصرت في فرنسا وقضت على المجتمع الإقطاعي الذي خيل إليه أنه أبدي لا يزول، فإذا بهيجل يقوم بثورة مماثلة في الأفكار. فينزل الميتافيزيقا وحقائقها الخالدة عن

---

20 انجلز: ضد دورنج، ص ٥٤ هاك مثالين بسيطين على هذا التفاعل حيث يصبح السبب نتيجة والنتيجة سببا: تكون مياه البحار والأنهار بتبخرها الغيوم التي تتساقط بدورها أمطارا تسقط على الأرض. كذلك يحتاج الدم الذي يدفعه القلب إلى الرئتين اللتين تمدانه بالأوكسجين كما أن الرئتين لا تعملان بدون الدورة الدموية.

21 نجد أروع مثال على الجدلية الأفلاطونية في أحدى محاوراته الشهيرة، وهي محاورة سهلة أعني: فيدون (le phedon)

عرشها السامي، وإذا بالحقيقة، عنده، ليست مجموعة من المبادىء الجاهزة، بل هي عملية تاريخية، تبدأ بالمعرفة البدائية لتنتهي بالمعرفة السامية. وهي تتبع في ذلك حركة العلم نفسه الذي لا يتطور إلا إذا عمد إلى نقد نتائجه باستمرار، وتجاوز هذه النتائج. وهكذا نرى أن الدافع لكل تحول هو نضال الأضداد.

ومع ذلك كان هيجل مثاليا، أي أن طبيعة التاريخ الإنساني، بالنسبة إليه لم تكن سوى تجلي الفكرة الأزلية وهكذا تظل جدلية هيجل جدلية روحية صرفة.

ولقد رأى ماركس، وكان زميلاً لهيجل في أول الأمر، في الجدلية المنهج العلمي الوحيد. غير أنه عرف أيضاً، كمادي، أن يعيد الجدلية إلى مكانها الحقيقي. فرفض القول بالنظرة المثالية للعالم التي ترى في الكون المادي ثمرة للفكرة، وأدرك أن *قوانين الجدلية* هي *قوانين العالم المادي*، وأنه إذا كان الفكر جدليا فلأن الناس ليسوا غرباء في هذا العالم بل هم جزء منه.

كتب انجلز، وهو صديق ماركس ومساعده، يقول: *"ليست الجدلية، عند هيجل – التي تتجلى في الطبيعة والتاريخ في صورة ترابط التقدم السببي الذي نجده منذ البداية حتى النهاية خلال جميع الحركات المتعرجة الالتواءات الموقتة – ليست هذه الجدلية سوى صورة لحركة الفكرة الذاتية التي تستمر منذ الأزل حيث لا ندري مستقلة عن كل ذهن إنساني مفكر. فكان لا بد من تجنب هذا الانقلاب الفكري فنظرنا إلى أفكار الذهن نظرة مادية على أنها انعكاس للأشياء بدلا من أن ننظر إلى الأشياء على أنها انعكاس لدرجة معينة من درجات الفكرة المطلقة وهكذا أصبحت الجدلية معرفة قوانين الحركة العامة في العالم الخارجي أم في التفكير الإنساني. وهما طائفتان من القوانين المتماثلة في الأصل المختلفة في الشكل بمعنى أن الذهن الإنساني يمكن أن يطبقها عن وعي وإدراك بينما هي لا تطبق في الطبيعة أو التاريخ الإنساني الا بصورة غير واعية في شكل الضرورة الخارجية وسط العديد من الصدف الظاهرة. فإذا بجدلية الفكر ليست سوى*

انعكاس بسيط واع لحركة العالم الحقيقي الجدلية. وإذا بجدلية هيجل ترفع رأسها فتقف على رجليها بعد أن كانت تقف على رأسها[22]

رفض ماركس أذن القشور المثالية في فلسفة هيجل واحتفظ "باللباب العقلي" أي احتفظ بالجدلية. وهو يقول ذلك بنفسه بوضوح في المقدمة الثانية "لرأس المال" (كانون الثاني ١٨٧٣).

لا يختلف منهجي الجدلي في الأساس عن منهج هيجل فقط، بل هو نقيضه تماما. إذ يعتقد هيجل أن حركة الفكر التي يجسدها باسم الفكرة هي مبدعة الواقع الذي ليس هو سوى الصورة الظاهرية للفكرة. أما أنا فاعتقد. على العكس، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس حركة الواقع وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان[23]*" .*

كيف وصل ماركس وانجلز إلى هذا الانقلاب الخطير؟ نجد الجواب على ذلك في مؤلفاتهما. إذ أن ازدهار علوم الطبيعة في القرن الثامن عشر. وفي السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، هو الذي أدى بهما إلى القول بأن للجدلية أساسا موضوعياً.

وكان للاكتشافات الثلاثة التالية أثر كبير في ذلك.

١) اكتشاف الخلية الحية التي تتطور عنها الأجسام المعقدة.

٢) اكتشاف تحول الطاقة من حرارة وكهرباء ومغناطيس وطاقة كيمائية، الخ. في صور مختلفة نوعيا لحقيقة مادية واحدة.

٣) نظرية التحول عند داروين. فلقد أظهرت هذا النظرية اعتمادا على علم الحفريات (paleontologie) وعلم تربية الحيوان، أن جميع الكائنات الحية (ومنها الإنسان) هي ثمرات التطور الطبيعي *(داروين أصل الأنواع، ١٨٥٩)*

---

22 انجلز: لودفيج فورباخ . ص ٣٣ – ٣٤. دراسات فلسفية ص ٤٤.

23 ماركس: رأس المال، الكتاب الأول. ج ١ و ص ٢٩. مطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٨ تعنى كلمة "demiurge" هنا "المبدع" كما يعني التعبير (la forme phenomenale) "الظاهر الخارجي الذي ترتديه الفكرة" (الفكرة عند هيجل هي جوهر الأشياء).

ولقد أوضحت هذه الاكتشافات، كما أوضحت جميع العلوم في ذلك العصر (كفرضية كانت ولا بلاس التي تفسر النظام الشمسي بأنه قد تولد من (nebuleuse) أو نشوء علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) الذي يعيد بناء تاريخ الكرة الأرضية، الطابع الجدلي في الطبيعة على أنها وحدة لكل شاسع. في صيرورة دائمة. يتطور حسب قوانين ضرورية ولا يكف عن توليد المظاهر الجديدة وما النوع الإنساني والمجتمع سوى لحظة من هذه الصيرورة الشاملة.

انتهى ماركس وانجلز إلى القول بأنه يجب الاستغناء عن المنهج الميتافيزيقي لفهم هذه الحقيقة الجدلية، ذلك المنهج الذي يقضي على وحدة العالم ويجمد حركته. فكان لا بد من منهج جدلي، وقد أعاد هيجل الاعتبار إلى هذا المنهج ولكن لم يستطيع اكتشاف الأسس الموضوعية له.

لم يأت، إذن، ماركس وانجلز بالمنهج الجدلي من الخارج بصورة اعتباطية، بل استقياه من العلوم نفسها التي تتخذ الطبيعة موضوعا لها والطبيعة جدلية في ذاتها[٢٤].

ولهذا ظل كل من ماركس وانجلز، طيلة حياتهما: على اتصال دائم بتقدم العلوم وقد ازداد المنهج الجدلي في دقته كلما ازدادت معرفة العالم اتساعا وعمقا: كرس انجلز، بالاتفاق مع ماركس (الذي ألف *رأس المال*) سنوات طويلة لدراسة الفلسفة وعلوم الطبيعة دراسة دقيقة كما كتب عامي ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ كتابه "ضد

---

24 لم يستطع الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر(كديدرو، ودولباخ وهلفيتوس) الذين يرى فيهم ماركس اساتذته المباشرين ويؤمن بنظرتهم المادية للعالم، اكتشاف المنهج الجدلي. لماذا؟ لأن العلم في القرن الثامن عشر لم يتح لهم مثل هذا الأكتشاف. فقد كانت علوم المادة الحية لا تزال في المهد. ولقد رأينا الدور الكبير الذي قامت به في تكوين المادية الجدلية بادخالها فكرة التطور. وهي فكرة جدلية رائعة. (تقول بتطور نوع عن آخر).

وكان العلم السائد في القرن الثامن عشر هو علم الميكانيكا العقلية (نيوتن) الذي لا يعرف الا بأبسط صورة للحركة وهي تغيير المكان، فكان العالم آنئذ أشبه ببندول ساعة الحائط الذي يتأرجح دائما.

لهذا السبب سميت المادية في القرن الثامن عشر مادية ميكانيكية وهي بهذا مادية ميتافيزيقية لأنها لا تدرك التغير ولا تعرف نزاع الأضداد. وسنعود لبحث الميكانيكية (الميتافيزيقية) في الدرس التاسع.

دورنج[٢٥]*" (Anti Duhring)*. وبدأ بكتابه مؤلف ضخم عن "جدلية الطبيعة[٢٦]" الذي خلف لنا منه عددا من الفصول، وهو كتاب يفصل القول في حالة العلوم في عصره على ضوء *المنهج الجدلي*.

كان لا بد من أن يفوز المنهج الجدلي برضا عدد من العلماء الذين اعتنقوا الماركسية. وأشهر هؤلاء في فرنسا الفيزيائي العظيم بول لانجفين الذي كان أيضا مواطنا كبيرا ووطنيا رائعا.

برهن المنهج الجدلي على خصبه عند ماركس وانجلز نفسيهما. فلقد حل كل من ماركس وانجلز، وكانا ثائرين ومفكرين في نفس الوقت، لأنهما كانا جدليين، المشكلة التي لم ينجح سابقوهما في وضعها. فلقد طبقا الجدلية المادية على التاريخ الإنساني *فأسسا علم المجتمعات* (الذي يقوم على فلسفة المادية التاريخية). وسنرى كيف حدث هذا الاكتشاف الأساسي (الدرس الرابع عشر). وبهذا وضعا الأساس العلمي للاشتراكية.

ولهذا أعلنت البرجوازية، خدمة لمصلحتها الطبقية، الحرب على الجدلية *لأن الجدلية فضيحة بالنسبة للطبقات المسيطرة ومفكريها، ولأن النظرة الموضوعية للأشياء الموجودة تتضمن أيضا ادراك زوال هذه الطبقات وفنائها الضروري. لأن هذه الجدلية تدرك الحركة ولا يمكن لأي شيء أن يفرض عليها هذه الحركة إذ هي جدلية نقدية ثورية*[٢٧].

ولهذا لجأت البرجوازية إلى الميتافيزيقا، وسوف نبرهن على ذلك.

---

25 ف، إنجلز: ضد دورنخ (م. أ. دورنخ قلب الأوضاع العلمية) المطبوعات الاجتماعية.

26 ف. انجلز: جدلية الطبيعة. المطبوعات الاجتماعية. باريس ١٩٥٢. تسهل دراسة هذا الكتاب بعد قراءة محاضرة جورج كونيو عن "جدلية الطبيعة" أثر عبقري لفردريك انجلز. المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥٢.

27 ماركس: رأس المال، الكتاب الأول، ج أ، ص ٢٩. المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٨.

٤ – المنطق الشكلي والمنهج الجدلي

ليس هناك من فائدة في أن نتتبع هذا الدرس الأول بعض الملاحظات عن المنطق. فلقد رأينا (مسألة ٢، ب) أن العلوم في، أول الأمر، لم تكن تستطيع إلا أن تستخدم المنهج الميتافيزيقي. ولقد وضع الفلاسفة اليونان (ولا سيما ارسطو) بعد أن عمموا هذا المنهج، عددا من القواعد الشاملة، التي يجب على الفكر اتباعها في كل آن لتجنب الخطأ. واتخذت هذه القواعد اسم *المنطق*. ويقوم موضوع المنطق على دراسة المبادىء والقواعد التي يجب على الفكر إتباعها في بحثه عن الحقيقة. وليست هذه المبادىء والقواعد من وضع الخيال بل استنبطها الإنسان في اتصاله المستمر بالطبيعة: لأن الطبيعة هي التي جعلت الإنسان "منطقيا" وعلمته أنه لا يمكننا أن نفعل أي شيء!

وهاك القواعد الثلاث الرئيسية في المنطق التقليدي الذي يسمى بالمنطق الشكلي:

١) *مبدأ التماثل (Le principe didentite)*؛ كل شيء مماثل لنفسه. فالنبات نبات دائما والحيوان حيوان . والحياة هي الحياة والموت هو الموت. ولقد صاغ المنطقيون هذا لمبدأ في قولهم أ = أ.

٢) *مبدأ عدم التناقض (Le principe de non-contradiction)*؛ لا يمكن أن يكون الشيء نفسه ومناقضا لنفسه في نفس الوقت. وهكذا ليس النبات حيوانا، وليس الحيوان نباتا، كما أن الحياة ليست الموت، والموت ليس الحياة. فيقول المنطقيون: "ليس "أ" *مناقضا* لـ "أ".

٣) *مبدأ الثالث المستحيل: (Le principe du tiers exclu)*؛ بين إمكانيتين متناقضتين، لا مجال لإمكانية ثالثة. فالكائن إما أن يكون حيوانا أو نباتا ولا مجال لإمكانية ثالثة. ولهذا يجب أن نختار بين الموت والحياة، ولا مجال لإمكانية ثالثة. فإذا كان "أ" و "غير أ" متناقضين فالشيء أما أن يكون "أ" أو *مناقضا* لـ"أ"

فهل لهذا المنطق من قيمة؟ أجل. لأنه يصور لنا تجربة تراكمت خلال عدد من القرون. ولكنها *غير كافية* إذا ما أردنا أن نتعمق في البحث، لأنه يبدو لنا عندئذ أن هناك كائنات حية لا يمكن تصنيفها ضمن طوائف الحيوان والنبات لأنها كلا الاثنين معا. كما أنه ليس هناك من حياة مطلقة أو موت مطلق، إذ يتجدد كل كائن حي في نضال مستمر ضد الموت، كما أن الموت يحمل في أحشائه عناصر حياة جديدة (ليس الموت زوال الحياة بل هو تحلل جسم). وإذا كان المنطق القديم له قيمة إلى حد ما، فهو يعجز عن سبرغور الواقع. حتى إذا ما حاولنا أن نحمله على أن يعطينا أكثر مما يمكنه إعطاؤه وجدنا أنفسنا في ميدان *الميتافيزيقا*. وليس المنطق التقليدي خاطئا في ذاته. بل هو يؤدي إلى الخطأ إذا ما حاولنا أن نطبقه خارج حدوده.

صحيح أن الحيوان ليس نباتا، وكذلك *صحيح* أنه يجب، حسب مبدأ عدم التناقض، تجنب الخلط بين الأشياء لأن الجدل ليس هو الخلط بين الأشياء. بل يقول الجدل أنه *صحيح أيضاً* أن الحيوان والنبات مظهران للواقع لا يمكن الفصل بينهما حتى أن بعض الكائنات تجمع بينهما (وحدة الأضداد).

ويكفي المنطق الشكلي الذي نشأ في فجر العلوم للاستخدام اليومي فهو يعيننا على التصنيف والتميز. حتى إذا ما حاولنا التعمق في التحليل ظهر نقصه. فلماذا ؟ لأن الواقع متحرك، ولهذا لا يسمح منطق التماثل (أ = أ) للأفكار أن تصور الواقع في حركته. ولأن هذه *الحركة*، من ناحية ثانية هي ثمرة *تناقضات*، كما سنرى، غير أن منطق التماثل لا يسمح بتصور وحدة المتناقضات والانتقال من النقض إلى النقيض.

لا يدرك المنطق الشكلي سوى المظهر المباشر للواقع. أما المنهج الجدلي فهو يسعى لأدراك جميع *مظاهر* الواقع.

ويسمى تطبيق المنهج الجدلي على قوانين الفكر *المنطق الجدلي*.

الدرس الثانـي

ميزة الجدلية الأولى

الترابط

قانون التفاعل والترابط الشامل

١ – مثال

يشارك صاحبنا فلان في النضال من أجل السلام، ويجمع التواقيع على نداء ستوكهولم، ويقوم بتعليق الإعلانات من أجل مؤتمر الشعوب، ويأخذ بالنقاش مع صديقه في العمل أو مع شخص غريب حول حل المشكلة الألمانية حلا سلميا أو حول ضرورة إيقاف الحرب في الفيتنام، كما أنه يدعو ساكني الحي إلى اجتماع في بيته لتأليف اتحاد وطني من أجل السلام.

وسوف يقول البعض: "وماذا يعتقد هذا المسكين أنه يفعل؟" أنه لا شك يضيع وقته وجهده". يبدو عمل هذا الرجل، لأول وهلة، عبثا لا طائل تحته. فهو ليس وزيرا، ولا نائبا ولا قائدا في الجيش ولا صاحب مصرف أو سياسيا. إذن؟

وهو مع ذلك محق في عمله. لماذا؟ لأنه *ليس وحيدا*. ومهما كان شخصه متواضعا فأن لمحاولاته هذه قيمتها وتأثيرها لأنها ليست محاولات فريدة. بل عمله جزء من عمل كبير هو نضال الشعوب العالمي من أجل السلام. إذ هناك ملايين الرجال الذين يعملون مثله، في نفس الاتجاه ضد نفس القوى. *فهناك ارتباط* شامل بين جميع هذه المحاولات التي تكون حلقات صغيرة في نفس السلسلة. كما أن هناك *تفاعلا متبادلا* بين جميع هذه المحاولات، لأن كلا منها تساعد الأخرى بما تضربه من مثل وما تكسبه من خبرة أثناء فشلها وانتصارها. حتى إذا قام جميع هؤلاء الرجال بالمقارنة بين محاولاتهم اكتشفوا أنهم لم يكونوا فيها فريدين بالرغم من اعتقادهم ذلك. *كل شيء أذن مرتبط بالأخر*.

(Tout se tient) هذا مثال بسيط استقيناه من الواقع. وهكذا نرى أن قانون الجدلية الأول هو الذي يسمح، لوحده، بتأويل هذا المثال بصورة صحيحة. وبهذا تتعارض الجدلية مع الميتافيزيقا تعارضا أساسيا. ولن يفكر إلا ميتافيزيقي مثل هذا التفكير فيقول: "ما الفائدة من كل هذا الجهد، من صعود الطوابق ومناقشة الناس؟ لأن مصير السلم ليس بأيدي الناس العاديين" لأن الميتافيزيقي يفصل ما هو في الواقع غير منفصل. تكلم في تشرين الأول سنة ١٩٥٢، في مؤتمر آسيا والباسفيك من أجل السلام، عالم، هو جون هنتون، وكان قد شارك، في لوس آلموس، في صنع القنبلة الذرية الأولى فقال:

"لمست بيدي أول قنبلة ذرية ألقيت على ناجازاكي. وأنني لأشعر الآن بالجرم الذي ارتكبته، كما أشعر بالخزي لأنني قمت بدور مهم في إعداد هذا الجرم ضد الإنسانية. ولكن كيف حدث أني رضيت القيام بهذه المهمة؟ ذلك لأنني كنت أومن بفلسفة "العلم من أجل العلم" الخاطئة. هذه الفلسفة هي السم الذي يقضي على العلم الحديث. ولقد كان من نتيجة الخطأ الذي يقوم على فصل العلم عن الحياة الاجتماعية والكائنات البشرية أني انتهيت إلى العمل في صنع القنبلة الذرية خلال الحرب. إذ كنا نعتقد أننا، كعلماء، يجب علينا أن نكرس جهودنا من أجل "العلم

الصرف" وأن على المهندسين ورجال السياسة إتمام الباقي. وأني لأخجل من القول بأنني انتظرت فظائع ضرب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية لكي اخرج من برجي العاجي وأدرك أنه ليس هناك من "علم صرف" وأن لا معنى للعلم إلا بقدر خدمته لمصالح الإنسانية جمعاء. وأني لا توجه اليوم إلى العلماء الذين يعملون الآن، في الولايات المتحدة وفي اليابان في صنع الأسلحة الذرية والميكروبية قائلا: "فكروا فيما تفعلون!"

ولا يعتقد الميتافيزيقي أن ما يفعله مرتبط بما يفعله الآخرون. ذلك شأن العالم الذري الذي خيل إليه أنه يتصرف حسب "روح العلم" وكان موقفه، في الواقع، موقفا *مناقضا للعلم* لأنه لم يتساءل عن الظروف الموضوعية لنشاطه المهني وعن طريقة استخدام عمله.

وهذا موقف شائع جدا. وهو موقف الرياضي الذي يردد في كل مناسبة "الرياضة هي الرياضة، والسياسة هي السياسة. أنا لا أتدخل في السياسة" ولا شك أن الرياضة والسياسة شيئان منفصلان. ولكن من الخطأ القول بأن ليس بينهما أية علاقة إذ كيف يمكن للرياضي أن يشتري أدواته الرياضية إذا انخفضت قدرته الشرائية. أو توقف عن العمل؟ وكيف يمكن بناء الملاعب وأحواض السباحة إذا التهمت ميزانية الحرب الاعتمادات الضرورية للرياضة؟ وهكذا ترى أن الرياضة ترتبط ببعض الشروط التي يجهلها الميتافيزيقي ويكتشفها الجدلي، لأنه لا رياضة بدون اعتمادات، ولا اعتمادات بدون سياسة سلمية، فلا تنفصل الرياضة إذن عن السياسة. ولا يخدم الرياضي، الذي يجهل هذا الارتباط، قضية الرياضة بل هو يحرم نفسه من الوسائل للدفاع عنها. لماذا؟ لأنه إذا ما جهل أن *كل شيء مرتبط بالآخر* فانه لن يناضل ضد سياسة الحرب. حتى يحين الوقت الذي يفقد فيه الرياضة وذلك إما لأن خراب البلاد قد قضى على معدات الرياضة وإما لأن الحرب قد وقعت.

٢ – ميزة الجدلية الأولى

لا تنظر الجدلية، على عكس الميتافيزيقا، إلى الطبيعة على أنها عبارة عن مجموعة من الأشياء والظواهر[٢٨] المنفصل بعضها عن البعض بل على أنها كل موحد منسجم حيث تتصل الأشياء والظواهر اتصالاً عضويا ويرتبط كل منها بالآخر.

لهذا يرى المنهج الجدلي أنه لا يمكن تفسير أية ظاهرة طبيعية إذا نظرنا إليها على حدة خارج الظواهر المحيطة بها، لأنه يمكن تحويل أية ظاهرة في أي مجال من الطبيعة إلى شيء لا معنى له إذا ما نظرنا إليها في منأى عن الظروف المحيطة بها وفصلناها عن هذه الظروف ، كما أنه، على العكس، يمكن فهم أية ظاهرة وتفسيرها إذا نظرنا إليها من خلال علاقتها بالظواهر المحيطة التي ترتبط بها.

تدل الميزة الأولى للجدلية على طابعها العام، وتتحقق هذه الميزة بصورة شاملة في الطبيعة وفي المجتمع.

٣ – في الطبيعة

تفصل الميتافيزيقا المادة الخام عن المادة الحية وعن الفكر. لأن الميتافيزيقا تعتبر أن هذه مبادىء ثلاثة منعزل كل منها عن الآخر.

ولكن هل يوجد الفكر في الذهن؟ وهل يوجد بدون الجسد؟ كما أن علم النفس (وهو علم يدرس النشاط الفكري) يستحيل إذا ما جهلنا علم وظائف الأعضاء (وهو علم وظائف الكائن الحي) كما أن هذا العلم وثيق الاتصال بالبيولوجيا (علم

---

28 نعني بالظاهرة كل مجلى لقوانين الطبيعة (كسقوط الحجر أو غليان الماء) أو لقوانين المجتمع (كالازمة الاقتصادية).

الحياة عامة). وكذلك تستعصي الحياة على الفهم إذا جهلنا العمليات الكيمائية كما أن الكيمياء[٢٩] تكتشف تركيب الجسيمات (molecules) الذري، ودراسة الذرة خاصة بالفيزياء. فإذا ما أردنا اكتشاف أصل هذه العناصر التي تدرسها الفيزياء، أفلا يؤدي بنا الأمر إلى علوم الأرض التي تظهر لنا طريقة تكوينها؟ ومن ثم ننتقل إلى النظام الشمسي (علم الفلك) الذي تكون الأرض جزءا منه؟

وهكذا نرى أنه بينما تقف الميتافيزيقا في وجه التقدم إذا بالجدلية تعتمد على العلم في وجودها. ولا شك أن هناك فروقا بين العلوم، إذ تدرس علوم الكيمياء والحياة ووظائف الأعضاء والنفس ميادين *مختلفة* سوف نعود إليها فيما بعد. ولكن هذه العلوم تكون، مع ذلك وحدة أساسية تعكس لنا وحدة الكون. لأن الواقع كل. هذا ما تعبر عنه الميزة الأولى للجدلية.

ولا شك أنه من المفيد توضيح *التفاعل والترابط بين الأشياء* بواسطة الأمثلة.

أمامنا رقاص معدني. فهل يمكننا أن ننظر إليه في منأي عن الكون المحيط به. كلا لأن هناك رجالا قاموا بصنعه (المجتمع) من معدن استخرجوه من الأرض (الطبيعة). ولنتأمل هذا الرقص جيدا. فهو في سكونه ليس مستقلاً عن الظروف المحيطة: كالثقل والحرارة والصدأ إذ يمكن لهذه الظروف أن تؤثر فيه ليس فقط في وضعه بل في طبيعته (الصدأ). ولندل قطعة من القصدير فإذا بقوة تؤثر على الرقاص وإذا به يتمدد وإذا بشكله يتغير إلى حدا ما، فيؤثر الوزن في الرقاص ويؤثر الرقاص في الوزن لأن بينهما تفاعلاً متبادلا، وأكثر من هذا أن الرقاص مكون من جسيمات ترتبط فيما بينها بتأثير قوة جاذبة فإذا ما بلغ الرقاص وزنا معينا عجز عن التمدد وانكسر فتنقطع العلاقة بين بعض

---

29 لسنا ندعي بأن الحياة عبارة عن عمليات كيمائية، لأن مثل هذا القول مناقض للجدلية. وسوف نعود لمعالجة هذه المسألة فيما بعد. كما أننا لا نقول بأن التفكير هو مظهر من مظاهر وظائف الأعضاء. بل نحن نقول: لا تفكير ألا عند الكائن الحي، وليس من كائن حي وليس من جسم بدون الكون الفيزيائي الكيمائي.

الجسيمات. حتى إذا ما سخنا الرقاص تغيرت العلاقات بين الجسيمات بطريقة أخرى (التمدد). نقول إذن ان الرقاص مكون بطبيعته وتغيراته من *تفاعل* ملايين الجسيمات التي يتكون منها. كما أن هذا التفاعل *مشروط* هو نفسه بعلائق الرقاص (في مجموعه) بالوسط المحيط به. لأن الرقاص والوسط هما كل واحد، يقوم بينهما *فعل متبادل*. فإذا ما جهلنا هذا الفعل أصبح صدأ الرقاص وانقطاعه واقعتين لا معنى لهما. ولقد علق ستالين على ميزة الجدلية الأولى بقوله: "*لهذا يرى المنهج الجدلي انه لا يمكن فهم أية ظاهرة طبيعية إذا ما نظرنا إليها على حدة. خارج الظواهر المحيطة بها*"[30].

ومن ابلغ الأمثلة على التفاعل الرباط الذي يربط بين الكائنات الحية وبين ظروف حياتها و "بيئتها". فنرى النبتة، مثلا، تمتص الأكسجين من الهواء وتدفع بغاز الكربون وبخار الماء. وهذا التفاعل يغير كلا من النبتة والبيئة. وتستخدم النبتة الطاقة التي يمدها بها نور الشمس فتقوم، بواسطة عناصر كيمائية تمتصها من الأرض، بتركيب للمواد العضوية يسمح لها بالنمو. فهي في نموها تغير الأرض أيضا كما تغير ظروف نمو نوعها في المستقبل. وهذا يعني أن النبتة لا توجد إلا متحدة مع وسطها الذي تنمو فيه. وهذا التفاعل بينهما هو أساس كل نظرية علمية عن الكائنات الحية لأنها الشرط العام لوجودهما. إذ يعكس نمو الكائنات الحية تغير الوسط الذي تعيش فيه وهذا هو مبدأ العلم عند ميتشورين وسبب نجاحه. فلقد عرف ميتشورين، بعد أن فهم أن الحي والوسط كل لا يتجزأ، كيف يغير الأنواع بتغيير بيئتها.

كما أنه لم يكن باستطاعة عالم وظائف الأعضاء الكبير بافلوف أن يؤسس علم نشاط الأعصاب لو أنه جهل الاتحاد الوثيق بين الجسم والبيئة. ويجري هذا

---

30 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص٤ لم نعرب النص بأكمله لأن المؤلف قد أورده كاملا فيما سبق. (المعرب).

التفاعل بينهما في القشرة الدماغية (Cortex) ولهذا كان مجموع الجسد تحت تأثير القشرة الدماغية، كما أن هذه القشرة الدماغية تتأثر بدورها بالإثارات الماضية والحاضرة التي تصدر عن الوسط الخارجي (وعن الجسم). وهكذا تتعلق جميع الظواهر التي تحدث في الجسد *(كالمرض مثلا)* بنشاط الأعصاب الذي يشرف على مختلف الوظائف، والذي يتأثر بالظروف المسيطرة في البيئة الطبيعة وفي المجتمع.

ولقد كان هذا المبدأ في وحدة تفاعل الظواهر ضروريا لتقدم جميع العلوم. ويمكننا أن نعدد الأمثلة عليه ولنكتف هنا باكتشاف الضبط الجوي على يد توريشلي (١٦٤٤).

فنحن إذا قلبنا أنبوبا مملوءا بالزئبق على وعاء مملوء بالزئبق أيضا، رأينا أن الزئبق لا يهبط في الأنبوب إلى ما تحت ارتفاع معين ويظل على ارتفاع أعلى من مستوى الزئبق في الوعاء.

ونحن طالما عزلنا هذه الظاهرة عن ظروفها لم نفهمها ولكن إذا لاحظنا، على العكس، أن سطح الزئبق (في الوعاء) الذي غمسنا فيه الأنبوب ليس منعزلا بل هو على اتصال بالجو، وأن هناك تفاعلا بين ما يجري في الأنبوب والظروف المحيطة تبين لنا تفسير ذلك: يظل الزئبق معلقا في الأنبوب لأن الهواء يضغط (الضغط الجوي) على صفحة الزئبق الذي يحتويه الوعاء ولذا قال توريشلي يجب أن ننظر إلى الوعاء كما لو كان في قعر محيط من الهواء

ولن نستطيع القيام باكتشافات علمية إذا ما اعتدينا على القانون الأول في الجدلية، فعزلنا الظاهرة التي ندرسها عن ظروفها المحيطة بها.

٤ – في المجتمع

تقوم الميتافيزيقيا بعزل الظواهر الاجتماعية كلا منها عن الاخرى فتعزل الواقع الاقتصادي عن الحياة الاجتماعية وتعزل الحياة السياسية عنهما. كما أنها

تدخل الحواجز داخل كل من هذه الميادين. وهذا يؤدي إلى القول بأن "إعدام آل روزنبرج الأبرياء على يد الحكومة الأميركية غباوة لا معنى لها". ويرد الجدلي على ذلك بقوله: "لهذا الإعدام مغزى فهو يعكس سياسة الزعماء الأميركيين *بأجمعها*، وهي سياسة حرب تحتاج إلى الأكاذيب وإلى الذعر".

ولا يفهم الميتافيزيقي تاريخ المجتمعات بل هو عبارة عن خليط من العوارض (أي الظواهر التي لاسبب لها) ومن الصدف العابثة حتى أن هناك فلاسفة يؤكدون (ومنهم البير كامو) أن جوهر العالم هو العبث (L'absurde) هذه الفلسفة مفيدة لصانعي الكوارث. أما الجدلي فهو يعلم أن كل شيء في الطبيعة مرتبط بعضه ببعض. فإذا ما انهارت المدارس فليس ذلك لعجز الحاكمين بل لأن سياسة الحرب *تتطلب* تضحية أبنية المدارس. ولقد لاحظ (أراجون) أن الاستعداد للموت يقصر الحياة "كل شيء يتعلق بظروف المكان والزمان". وتستطيع الجدلية أن تفهم الظواهر الاجتماعية وتفسرها لأنها تصلها بالظروف التاريخية التي تولدت عنها والتي تتفاعل معها. أما الميتافيزيقي فهو يعيش في التجريد، ولا يعبأ بظروف المكان والزمان.

وهكذا يعتقد البعض، بنية حسنة، أنه كان بإمكان العمال الفرنسيين في سنة ١٩٤٤، بقيادة الحزب الشيوعي، الاستيلاء على الحكم، وأن تقاعسه عن ذلك "فوت عليه الفرصة". وهذا تقدير مغر لأول وهلة ولكنه تقدير خاطىء. لماذا؟ لأنه يفصل جانبا لا معنى له الا في علاقته بالمجموع.

الخطأ أنما هو في معرفة طابع حركة المقاومة وهدفها. ولا شك أن القوة الأساسية كانت الطبقة العاملة التي يقودها الحزب الثوري الا وهو الحزب الشيوعي. غير أنه لم يكن هدف حركة المقاومة القيام بثورة عمالية، بل كان هدفها تحرير البلاد والقضاء على الفاشية. ولقد وحد هذا الهدف الفرنسيين في جميع الطبقات (حتى أنه قسم البرجوازية على نفسها وانفضت طائفة منها عن حكومة فيشي). وهكذا اتخذت حركة المقاومة صورا شتى من نضال مسلح،

واضرابات العمال، ومظاهرات النساء في الشوارع، ورفض الفلاحين تسليم المحصول، ونسف لجهاز حكومة فيشي الاضطهادي على يد الموظفين، ونضال الشبان ضد الخدمة الإجبارية في ألمانيا والمعلمين والعلماء ضد الهتلرية المضللة. *فكانت حركة المقاومة عملا قوميا عظيما*. ذلك هو طابعها الأساسي. ويرجع الفضل للشيوعيين الفرنسيين في أنهم فهموا الوضع بمجمله، فعملوا على تكوين جبهة وطنية واسعة للنضال ضد هتلر ومعاونيه، ولم يسمحوا بأن تصبح حركة المقاومة حزبا منفصلا عن جماهير الشعب الفرنسي. وهكذا أمكنت الثورة الوطنية عام ١٩٤٤ ضد العدو الذي أصبح وحيداً آنذاك.

ماذا كان يحدث لو أن طبقة العمال حاولت، في تلك الأيام، "القيام بثورة" وتأسيس الاشتراكية؟، لو أن الشيوعيين في سنة ١٩٤٤، *بينما كانت الحرب ضد هتلر لا تزال مستمرة*، قالوا: "لم يعد هدفنا تحرير فرنسا و العالم من النازيين بل القيام بالثورة العمالية"، لو فعلوا ذلك لرأوا ملايين الفرنسيين من مختلف الطبقات، المستعدين للنضال من أجل تحرير البلاد، ينفضون عن طبقة العمال لأنهم غير مستعدين لمساعدة حركة ثورية، فيا له من عيد للهتلريين وأعوانهم من البرجوازية الفيشية الرجعية! وهكذا تصبح طبقة العمال وحيدة في الميدان فتفقد قيادة حركة المقاومة، تلك القيادة التي بذلت من أجلها أغلى التضحيات. ويخلو طريق الدكتاتورية أمام ديغول بمساعدة الجيش الأميركي. وذلك لأن الجيش الأميركي، وهذه هي المسألة الثانية التي يجب توضيحها، لم يهبط أرض فرنسا إلا لأن الانتصارات الروسية قد جعلت الجبهة الثانية أمرا لا مفر منه في أوروبا. كان غرض الزعماء الأميركان حرمان الشيوعية من الاستفادة من انهزام هتلر في البلاد المحتلة. فإذا ما اندفعت الطبقة العاملة، متجاهلة هذه الأوضاع الموضعية، للاستيلاء على الحكم لكان مصير شعبنا القتل، *ولاتخذ*

الجيش الأميركي صفة الجيش المحتل كما *يفعل اليوم*، ولقضى على الثورة *بمساعدة النازيين* العائدين كما عادوا إلى أورادور.[31]

ألم يكن أمل ألمانيا الهتلرية والبرجوازية الألمانية (كآل كروب الذين أطلق الأميركان سراحهم) زوال التفاهم بين الكبار الثلاثة؟ وهكذا عاد تحالف ميونيخ بين البرجوازية والرجعيين ضد بلد الاشتراكية، ضد الاتحاد السوفياتي الذي قام بدور كبير في تحرير الشعوب. فإذا بجميع الفوائد والجهود والآلام التي عانيناها خلال أربعة أعوام يمحوها دم الشعب الفرنسي.

بينما كانت المطالبة بالقضاء على الفاشية وإقامة جمهورية ديمقراطية برجوازية تتفق ومجموع "الظروف المحيطة" وهذا ما فعله الشيوعيون. وكان ذلك مطلبا في مستوى جماهير الشعب الفرنسي، يمكن تحقيقه بصورة تدريجية لأنه كان يمثل خطوة كبرى إلى الأمام. وذلك لأن طبقة العمال تجد في الجمهورية الديمقراطية البرجوازية *أفضل الظروف لنضالها الطبقي*. ويفسر لنا هذا ازدهار حركة العمال الفرنسية في الأشهر التي تلت التحرير، وقد حمل هذا الازدهار الشيوعيين إلى الحكم وعاد على شعبنا ببعث اقتصاده وارتفاع مستوى المعيشة والضمان الاجتماعي وتأميم الصناعات وإيجاد مجالس الإدارات وبدستور ديمقراطي، وورقة الانتخاب، وإعطاء المرآة حق التمثيل في المجلس، وقانون الموظفين. الخ.. وهكذا وجدت الطبقة العمالية نفسها في عام ١٩٤٧ في أفضل الظروف النضالية لمجابهة قوى الرجعية في هجومها المعاكس.

كما أتاح استمرار تفاهم الكبار الثلاثة، على المستوى العالمي، ضد ألمانيا الهتلرية، *والقضاء* على الطيران الألماني(Wehrmacht)، كما أنه أمكن من تكوين الأمم المتحدة وعقد اتفاق بوتسدام، فأصبح ذلك فيما بعد حجر عثرة في وجه النزعة الإمبراطورية الأميركية. كما سهل مهمة الديمقراطيين *الشعبيين*

31 أوراد ور: قرية فرنسية هدمها الألمان وقتلوا جميع سكانها. (المعرب).

الشبان في أوروبا، وهذه مسألة مهمة جدا. ولو أن الشيوعيين الفرنسيين اتبعوا سياسة خرقاء عام ١٩٤٤ لكان من الصعب الحصول على هذه الانتصارات. ولقد اضعفت هذه الانتصارات الرأسمالية العالمية. ولهذا يجب *النظر إلى الحركة العمالية في بلد ما في نفسها بل في علاقتها بالمجموع.*

لا نستطيع تحليل العديد من الأمثلة الأخرى التي تدل على ضرورة النظر إلى الحوادث في ترابطها وكليتها وأن لا نفصل الواقعة عن "ظروفها" المحيطة، ولنكتف بالمثل التالي:

أن المطالبة بجمهورية ديمقراطية برجوازية ضد البرجوازية الفاشية هي مطلب يتفق تماما ووضع الحركة العمالية الفرنسية اليوم. وهي مطالبة بامكانها أن تضمن أكبر تجمع للشعب حول طبقة العمال ضد العدو الرئيسي وهو البرجوازية الرجعية التي لا أمل لها، كي تعيش، الا في القضاء على شرعيتها الخاصة. غير أن المطالبة بنفس الشيء في الاتحاد السوفياتي لا معنى لها. لماذا؟ لأنه إذا كانت الديمقراطية البرجوازية تعتبر تقدما على الفاشية، فأن الجمهورية الاشتراكية السوفياتية (التي تضمن للعمال ملكية وسائل الإنتاج) تعد أيضا تقدما باهرا على الجمهورية البرجوازية. وهكذا يصبح ما كان خطوة إلى الأمام، بالنسبة لشعبنا، خطوة إلى الوراء بالنسبة للاتحاد السوفياتي.

يجهل الميتافيزيقي أوضاع الزمن والمكان، ولهذا يفصل الديمقراطية عن ظروفها، كما لا يميز بين ديمقراطية برجوازية وديمقراطية سوفياتية. وبما أنه لا يعرف سوى الديمقراطية البرجوازية فهو يماثل بينها وبين الديمقراطية، فيأخذ على الاتحاد السوفياتي بأنه ليس "ديمقراطية".

وهذا حق، فليس الاتحاد السوفياتي ديمقراطية برجوازية لأنه قضى على الاستغلال الرأسمالي وأوجد ديمقراطية جديدة تجعل السلطة كلها بيد العمال.

ومجمل القول أن الميتافيزيقي *يفصل ويجرد* الصورة السياسة عن مجموع الظروف التاريخية التي أوجدتها والتي تفسرها بينما الجدلي يعود إلى الأخذ بهذه الظروف.

٥ – الخلاصة

ليست الطبيعة وليس المجتمع خليطاً يستعصي على الفهم بل ان جميع *جوانب الواقع تترابط فيما بينها بروابط ضرورية متبادلة.*

ولهذا القانون أهمية *عملية*. يجب إذن أن ننظر إلى وضع أو حادثة أو مهمة نظرة تحيط بالظروف التي تولد هذه الأشياء وتفسرها، كما يجب الاهتمام دائما بما هو ممكن وما هو غير ممكن.

إذ لا يجب أن نجعل من رغباتنا حقيقة واقعة، ويجب على الثوري أن يدرك الوقائع في حقيقتها. وهكذا أعتقد أننا نتخذ قرارا معينا في ظرف معين حتى إذا ما تغير الظرف اتخذنا قرارا مختلفا عن الاخر الذي اتخذناه أولا. فنحن نتراجع إذا لم تعد ظروف النجاح كافية، كما نسير رأسا إلى القتال إذا أملنا بالنصر بهذا الهجوم. وعلى كل لا يمكن أن نرتبط بصيغة أو قرار لأننا لا يمكننا أن نعرض حركتنا للخطر[٣٢]

وما تجاهل ظروف العمل الا نزعة عقيدية متطرفة (dogmatique) إذ بينما مصلحة العمال في احترام هذا القانون الأولي للجدلية فأن البرجوازية تود أن تنسيهم اياه لأن مصلحتها تتعارض وهذا القانون. فهي تجيب على الذين ينددون بالظلم الاجتماعي "هذا نقص موقت!" كما أنها تصور الأزمات الاقتصادية على

32 م. توريز: "حديث في المؤتمر الثالث لاتحاد عمال ما تحت الأرض" (١٩٢٤) ورد في "أبن الشعب" ص ٤٣. المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٤٩.

أنها "ظواهر سطحية عابرة". ويجيب العلم الجدلي على ذلك بأن الظلم الاجتماعي والأزمات الاقتصادية هي نتائج *حتمية* للرأسمالية.

يقدس الفلاسفة البرجوازيون الميتافيزيقا لأنها تتيح تجزأة الواقع وتشويهه لمصلحة الطبقة المستغلة. حتى إذا بلغ التفكير الواقع في كليته اعترض هؤلاء الفلاسفة قائلين بأن ذلك لم يعد "تفلسفا". لأن الفلسفة عندهم ملف تحتفظ فيه كل فكرة بمكانها: فهنا الفكر وهناك المادة، هنا "الإنسان" وهناك المجتمع، الخ...

أما الجدلية فهي تعلمنا أن كل شيء مترابط مع الآخر وأن ليس هناك من جهد ضائع لتحقيق هدف معين. وهكذا يعلم المناضل من أجل السلام أن الحرب ليست ضربة لازب لأن كل عمل يقوم به لمنعها هو عمل له قيمته، يمهد السبيل لانتصار السلام.

ولهذا يدرك المناضل الثوري، وقد تسلح بالجدلية، مسؤولياته. فهو لا يترك شيئا للصدف بل يقدر كل جهد قدره.

ويتيح لنا هذا الفهم للواقع أن ننظر بعيدا. كما يمدنا بالشجاعة التي لا تقهر حتى أن الفيلسوف الجدلي ف. فلدمان استطاع أن يصرخ في وجه الجنود الألمان الذين رموه بالرصاص قبل أن يخر صريعا: "يا لكم من أغبياء. أني أناضل من أجلكم!".

وقوله حق، لأنه كان يناضل من أجل الشعب الألماني كما ناضل من أجل الشعب الفرنسي، لأن مصير *كل منهما مرتبط بالآخر*.

الدرس الثالث

ميزة الجدلية الثانية

كل شيء يتحول

قانون التحول الشامل أو النمو المستمر

١ – مثال

يروي الفيلسوف فونتونيل قصة وردة كانت تعتقد بأن البستاني مخلد. لماذا؟ لأن الوردة لا تذكر أنها رأت غيره في البستان. وهكذا يفكر الميتافيزيقي فهو ينكر التغير. ومع ذلك تعلمنا التجربة أن كل بستاني هالك كما تهلك الورود. ولا شك أن هناك أشياء تتغير بصورة أبطأ من الوردة، فيستنتج الميتافيزيقي من ذلك أنها خالدة لا تتغير، فيجعل من ثباتها الظاهري شيئا مطلقا، فهو لا يرى من الأشياء الا جانبها الذي تبدو فيه أنها لا تتغير. فتظل الوردة وردة ويظل البستاني بستانيا. أما الجدلية فهي لا تكتفي بالظاهر بل تدرك الأشياء في حركتها، فلقد

كانت الوردة برعما قبل أن تصبح وردة فإذا ما نمت تغيرت من ساعة لأخرى بالرغم من أن العين لا ترى شيئا من هذا التغيير، كما أنها ستفقد أوراقها حتما وستتولد وردات أخرى محلها تتفتح بدورها هي أيضاً.

نستطيع أن نجد في حياتنا اليومية ألف مثال على أن كل شيء يتحرك ويتحول.

تبدو هذه التفاحة ثابتة لا تتحرك فوق الطاولة. ومع ذلك سيقول الجدلي: "مع أن هذه التفاحة تبدو ثابتة فهي متحركة وهي لن تكون في عشرة أيام ما هي عليه الآن. كانت زهرة قبل أن تصبح تفاحة خضراء، كما أنها ستتحلل مع الزمن وتتساقط بذورها التي إذا ما زرعها البستاني نشأت منها شجرة تحمل عدة تفاحات. كان لدينا في البدء تفاحة واحدة ولدينا الآن العديد من التفاحات. وهكذا يصبح القول بأن الكون لا يعيد نفسه بالرغم من جميع المظاهر.

ومع ذلك يتكلم الكثير من الناس كما تكلمت وردة فونتونيل فيقولون "ليس من جديد تحت الشمس"، ولسوف يكون هناك دائما أغنياء وفقراء" "كما سيكون هناك دائما مستغِلون ومستَغلون" "وأن الحرب أبدية" الخ... ولا شيء أمر إلى الاضلال من هذه الحكمة الواهية، ولا شيء أشد خطر منها، فهي تدعو إلى السلبية والعجز والاستسلام. أما الجدلية فهي تعلم، على العكس، أن التغير صفة لازمة للأشياء تلك هي الميزة الثانية للجدلية التي تقول بأن التغير يشمل الكون وأن النمو مستمر.

٢ – ميزة الجدلية الثانية

لا تنظر الجدلية، على عكس الميتافيزيقا، إلى الطبيعة على أنها حالة من الهدوء والثبات، والركود وعدم التغير، بل تنظر إليها على أنها حالة من الحركة والتغير الدائمين، والتجدد والنمو المستمرين، حيث يولد كل شيء بينما ينحل شيء آخر ويزول.

ولهذا تريد الجدلية أن لا ينظر إلى الظواهر فقط بالنسبة لعلاقاتها وترابطها بعضها بالبعض بل ينظر إليها أيضاً بالنسبة لحركتها وتغيرها ونموها في ظهورها واختفائها[٣٣].

ولقد رأينا أن كل شيء مترابط: وتلك هي ميزة الجدلية الأولى. ولكن هذا الواقع المتوحد هو حركة أيضا. فليست الحركة مظهرا ثانويا من الواقع وليس هناك الطبيعة *يضاف* إليها الحركة، أو المجتمع *يضاف* إليه الحركة بل أن الواقع هو الحركة. تلك هي حال الطبيعة والمجتمع.

٣ – في الطبيعة

تشمل الحركة بالمعنى العام، كشكل من أشكال *وجود المادة وصفة من صفاتها*، جميع *التغيرات وما يحدث في الكون* من مجرد تغيير المكان حتى *التفكير نفسه*[٣٤].

والحركة عند ديكارت هي فقط *تغيير المكان* كالمركب الذي يتحرك أو التفاحة التي تتدحرج على الطاولة. تلك هي الحركة الميكانيكية الآلية. ولكن حقيقة الحركة لا تقتصر على ذلك. فالسيارة تسير بسرعة ستين كيلو مترا في الساعة وهذه حركة آلية (ميكانيكية) ولكن السيارة التي تتحرك تتحول ببطء؛ إذ يبلى محركها آلاتها ودواليبها كما أنها من ناحية ثانية تتأثر بالمطر والشمس. الخ.. وكل هذه أنواع من الحركة. وهكذا ليست السيارة التي قطعت ألف كيلو متر كأول أمرها، بالرغم من أننا نقول بأنها "نفس السيارة" إذ سوف يأتي وقت

---

33 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية ص ٤٠٥

34 انجلز: جدلية الطبيعة، ص ٧٥. المطبوعات الاجتماعية.

تجدد فيه قطعها ويعاد إصلاح هيكلها، الخ... حتى تصبح هذه السيارة لا تصلح للاستعمال.

وكذلك شأن الطبيعة إذ نجد للحركة فيها أوجها متعددة، *كتغيير المكان وتحول* الطبيعة وكذلك تحول صفات الأشياء (ككهربة جسم من الأجسام أو نمو النباتات وتحول الماء إلى بخار، والكهولة).

كانت الحركة عند نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧) العالم الإنجليزي الكبير عبارة عن حركة آلية (ميكانيكية) هي تغير المكان. وهكذا كان الكون أشبه بساعة حائط كبيرة تعيد باستمرار نفس الحركة؛ ولهذا كان يعتبر مدارات الكواكب خالدة. ولقد أدى تقدم العلوم منذ القرن الثامن عشر إلى غنى فكرة الحركة، وقد بدأ ذلك أولا *بتحويل الطاقة* في مطلع القرن التاسع عشر.

ولنعد إلى مثال السيارة التي تسير فهي إذا ما انطلقت مسرعة في سيرها ارتطمت بشجرة واشتعلت فيها النار. فهل زالت المادة، كلا. إذ أن السيارة المشتعلة هي حقيقة واقعة مادية كالسيارة التي كانت تسرع في سيرها، فهي مظهر جديد للمادة وصفة جديدة لها. لأن المادة لا تزول بل هي تتغير وتتحول، وما تحولاتها هذه سوى تحولات الحركة التي تكون مع المادة شيئا واحدا. فالمادة حركة والحركة مادة، وتعلمنا الفيزياء الحديثة أن *الطاقة تتحول* لأن الطاقة، وهي كمية من الحركة، تبقى بالرغم من تحولها واتخاذها أشكالا متنوعة.

أما في مثال السيارة التي التهب زيتها بتأثير الضغط فقد تحولت الآن الطاقة الكيميائية، التي كانت تتحول في المحرك إلى طاقة حركية، إلى حرارة (طاقة حرارية). ويمكن للطاقة الحرارية، بدورها، أن تتحول إلى طاقة حركية فتتحول بذلك حرارة القاطرة إلى حركة تدفع القاطرة

ويمكن للطاقة الآلية أن تتحول إلى طاقة كهربائية فيدير السيل المحرك الكهربائي الذي ينتج الطاقة الكهربائية، كما تتحول الطاقة الكهربائية (التيار) إلى طاقة ميكانيكية تدير المحركات أو أن الطاقة الكهربائية تتحول إلى طاقة حرارية

فتمدنا بالتدفئة الكهربائية. كما أن الطاقة الكهربائيــة تمــدنا بالطاقــة الكيمائيــة فيقــوم التيار الكهربائي، في بعض الحــالات، بتحليــل المــاء إلــى أوكســجين وهيــدروجين. وكذلك يمكن للطاقة الكيمائية، بــدورها، أن تتحــول إلــى طاقــة كهربائيــة (البطاريــة الكهربائية) أو إلى طاقة حرارية (حرق الفحم في الموقد).

وما هذه التحولات الا صور للمادة المتحركة: وهي كمــا نــرى أشــد غنــى مــن الانتقال البسيط أو تغيير المحل وأن كانت تحتوي عليهما[٣٥].

وهناك عدا اكتشاف فكرة تحول الطاقة اكتشاف فكرة التطــور التــي أغنــت فكــرة الحركة كثيراً.

وقد بدأ ذلك بتطور الكون الفيزيائي أولا؛ فقد اكتشــف كــل مــن كانــت ولابــلاس منذ نهاية القرن الثامن عشر أن الكون له تاريخ. وهو بدلا مــن أن يعيــد نفســه، كمــا كان يعتقد نيوتن، يتغير ويتحول وما النجــوم (ومنهــا الشــمس) والكواكــب، (ومنهــا الأرض) سوى ثمرة تطــور هائــل لا يــزال مســتمرا. ولا يكفــي القــول إذن، مــع نيوتن، أن أجزاء الكون تنتقل بل يجب القول بأنها تتحول.

وهكذا يكون للأرض، وهي جزء صغير من الكــون، تــاريخ طويــل (مــا يقــارب الخمسة مليارات من السنين) يدرسه علم طبقات الأرض (geologie)

وكذلك فأن النجوم تتكون وتنمو وتموت. فقــد اكتشــف العــالم الفلكــي الفيزيــائي أمبر تسموميان أن هناك نجوما تولد باستمرار.

ولما كان الكون يتوالد باستمرار فهو ليس بحاجة "لمحــرك أول" كمــا كــان يعتقــد نيوتن. بل يحمل في أحشائه إمكانياته الخاصة فــي الحركــة والتحــول، فهــو حركــة ذاته.

---

35 يقول انجلز: "تحتوي كل حركة على حركة ميكانيكية (آلية) (جدلية الطبيعة ص٢٧٥. المطبوعات الاجتماعية) وهكذا فأن التفاعل الكيمائي يستخدم الذرات التي تكون الجسيمات المادية وهذه الذرات متحركة. كما يحدث في الذرات. داخل النواة، تحركات سريعة تدرسها الفيزياء الذرية. وكذلك لا تنفصل الطاقة الكهربائية عن تنقل الأليكترونات وهي جسيمات صغيرة جداً.

أما *المادة الحية* فهي تخضع أيضا لعملية تطور مستمرة. فلقد تكونت، ابتداء من أول مراحل الحياة الفقيرة، أنواع النبات والحيوان. ولذا لم يعد بالإمكان الاعتقاد بالخرافة التي نشرها الدين منذ مئات السنين بأن الله خلق الأنواع مرة واحدة فهي لا تتغير. وبرهن العلم بفضل داروين (في القرن التاسع عشر) أن هذا العديد من الأنواع الحية قد تولد عن عدد صغير من الكائنات البسيطة والعلقات ذات الخلية الواحدة (الخلية هي الوحدة التي ينتج عنها بالتعدد والاختلاف النبات والحيوان[٣٦]) ولقد تكونت هذه العلقات من مضغة البومينية لا شكل لها تغيرت الأنواع ولا تزال تتغير بتأثير التفاعل بينها وبين البيئة[٣٧]. ويخضع الجنس البشري لقانون التطور العظيم.

فلقد نشأ عن الحيوانات الأولى مختلف أنواع الحيوانات وفصائلها حتى انتهى بها الأمر إلى الحيوانات التي يبلغ فيها النظام العصبي أكمل نموه وهي الحيوانات الفقرية؛ ومن ثم أدركت الطبيعة ذاتها في الإنسان[٣٨].

وهكذا تكون الطبيعة – سواء كانت فيزيائية أم حيَّة– عبارة عن حركة. وذلك لأن الحركة هي الصورة التي توجد عليها المادة. *ولهذا لم توجد قط مادة بدون حركة ولا يمكن أن توجد قبل هذه المادة. فالحركة موجودة في فضاء الكون وفي الحركة الميكانيكية، واهتزازات الجسيمات في صورة حرارة أو تيار كهربائي أو مغناطيسي، وكذلك نجد الحركة في التحليلات والتركيبات الكيمائية، وفي الحياة العضوية؛ إذ تشارك كل ذرة من المادة في الكون، في كل لحظة، بصورة من صور الحركة هذه أو بعدة صور في نفس الوقت.. ولهذا لا يمكن تصور المادة بدون الحركة كما لا يمكن تصور الحركة بدون مادة[٣٩].*

---

36 انجلز: لودفيج فورباخ، ص ٣٦، دراسات.. ص ٤٧

37 تدل أبحاث ميتشورين ورفاقه وتجاربه أنه يمكن في بعض الظروف تحويل نوع إلى نوع آخر.

38 انجلز: جدلية الطبيعة، ص٤١. المطبوعات الاجتماعية.

39 انجلز: ضد دورنج، ص ٩٢. المطبوعات الاجتماعية.

وهكذا فان موضوع العلم يظل واحدا وهو الحركة سواء كان علم فلك أو فيزياء، أو كيمياء، أو علم حياة (بيولوجيا).

ولكن ربما قال قائل: "فلماذا، إذن، لا يؤمن جميع العلماء بالمادية الجدلية؟".

كل باحث جدلي في *تجربته* العيانية؛ فهو لا يستطيع فهم الواقع الا إذا أدركه في حركته. ولكن هذا الباحث الجدلي في التطبيق، يصبح غير جدلي إذا ما فكر في العالم أو إذا ما فكر في تأثيره على العالم لماذا؟ لأنه يعود فيخضع عندئذ لتأثير *نظرة ميتافيزيقية عن العالم* كالدين أو الفلسفة التي تعلمها في المدرسة. وتعتمد هذه النظرة على السنة القديمة وهي خليط من المعتقدات الذائعة التي تؤثر في العالم دون أن يشعر ولو خيل إليه بأنه "حر في تفكيره". وهكذا نجد أن أحد الفيزيائيين لا يحتاج إلى فكرة الله في دراسته التجريبية للذرات ثم إذا به يعود إلى هذه الفكرة عند مخرج مختبره، لأن هذه العقيدة، بالنسبة إليه، لا مجال للشك فيها: كما نجد بيولوجيا آخر خبيرا بدراسة الأجسام الصغيرة.(micro-orgamismes) تتملكه الحيرة كالطفل أمام أقل مشكلة سياسية. هذا البيولوجي وذاك الفيزيائي كلاهما فريسة لتناقض بين الناحية العملية التطبيقية عند العالم وبين نظرتهما إلى العالم. فالناحية العملية جدلية (لأنها لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا كانت جدلية) بينما لا تزال نظرتهما للعالم ميتافيزيقية، ولا تستطيع إلا المادية الجدلية التغلب على هذا التناقض. فهي تمد العالم بنظرة موضوعية عن الكون (الطبيعة والمجتمع) على أنه كل دائم الصيرورة؛ وبهذا يتيح للعالم أن يجعل الناحية العملية عنده في كل مترابط الأجزاء.

٤ – في المجتمع

إذا كان حقا أن العالم يتحرك وينمو باستمرار، وإذا كان حقا أن زوال القديم وظهور الجديد قانون عام للتطور والنمو، فأنه من الواضح إذن أنه ليس هناك من نظام اجتماعي "أبدي" أو "مبادىء خالدة" للملكية الخاصة والاستغلال؛ كما أنه ليس هناك من "أفكار خالدة" عن خضوع الفلاحين للملاكين والعمال للرأسماليين.

ولهذا يمكن استبدال النظام الرأسمالي بنظام اشتراكي كما أن النظام الرأسمالي حل محل النظام الإقطاعي في زمانه[40].

وهذه نتيجة جوهرية للصفة الثانية في الجدلية، تقول بأنه ليس هناك من مجتمع أبدي لا يتغير، على عكس ما تقوله الميتافيزيقا، إذ يعتقد الميتافيزيقي أن المجتمع لا يتغير ولا يمكنه أن يتغير لأنه يمثل على الأرض مشروعا إلهيا خالدا "فلقد أراد الله هذا النظام الاجتماعي" ولهذا كانت ملكية وسائل الإنتاج الخاصة مقدسة؛ كما كان الذين يثورون على هذه الحقيقة المقدسة مخطئون باسم "الأخلاق" وما عليهم إلا التكفير عن خطيئتهم! فالله هو "حامي" الملاكين وهو المهيمن على "الأعمال الحرة". فإذا ما حدث بعض التغير فما ذلك سوى حادث سيء لا خطر له بل هو حادث عابر، يمكن بعده ــ بل يجب ــ العودة إلى الحالة السابقة "السوية" وبهذا يصبح للحملة ضد الاتحاد السوفياتي ما يبررها: إذ يجب إعادة "الضالين" إلى الحظيرة الرأسمالية "الخالدة".

وقد لجأت الميتافيزيقا، بعد طردها من ميدان علوم الطبيعة، إلى ميدان علوم الإنسان والمجتمع.

---

40 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص٨.

لأنه لو قلنا بأنه يمكن تغيير الطبيعة؛ فأن الإنسان خالد لا يتغير هناك "طبيعة إنسانية" خالدة بعيوبها التي لا تزول. فما الفائدة إذن من القول بإصلاح المجتمع؟ يا له من وهم خلب...

تلك هي عقيدة الخطيئة الأصلية التي يعظ بها الناس فرنسوا مورياك على صفحات *الفيجارو*. وهي نظرة خاصة بالمفكر المسيحي. كما تنتشر في بعض الأوساط البرجوازية المتوسطة التي لا تؤمن بالله أو الشيطان فيخيل إليها أنها فوق كل معتقد بال، وهم إذا كانوا لا يذهبون إلى الكنيسة فأنهم يؤمنون بالنظرة الميتافيزيقية التي تجمد الإنسان والتي خلفها لهم الدين منذ آلاف السنين. فإذا بمحرر في جريدة تصدر للمعلمين من الشبان يكتب عن نقص الجنس البشري الأصلي فيتحدث عن "كيس الجلد" الذي نلزمه طيلة حياتنا. فيا لها من "طبيعة إنسانية" شقية ترتكب جميع المخازي!

وهذا القول في صالح المستغلين "للجنس البشري". وإذا كان هناك من يشكو من هؤلاء المستغلين، فليعلم إذن "أن الإنسان خلق هكذا" وأنه لا سبيل لتغييره.

وهكذا أصبح اضطهاد الناس وشقاء الفقراء وإعلان الحرب له ما يبرره على مر القرون. إذ يعيد المجتمع ذاته لما لا نهاية لأن الإنسان يظل كما كان. (نلاحظ هنا أن مثل هذه النظرة ترى في الإنسان كائنا بذاته بينما الإنسان في جوهره كائن اجتماعي) ولما كان هذا الإنسان فاسدا كان لا بد من أن يكون المجتمع مرذولا؛ ولا شك أن الدين يقول بأنه يمكننا، لا بل يجب علينا، أن ننقذ أرواح الأفراد. اما فيما يتعلق بالمجتمع فان هذه مسألة أخرى لأنه يجب الامتناع عن أي تحسين لحاله لأنه لا خلاص للإنسان على وجه الأرض.

ولنلاحظ هنا أن هذه الميتافيزيقا المثقلة بعبء السنين هي التي تبرر كل ما يقوم به زعماء الديمقراطية الاشتراكية ضد الإتحاد السوفياتي. ولقد قال ستالين في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٤.

"تقوم عظمة لينين، قبل كل شيء، على أنه اثبت في الواقع، بتأسيسه لجمهورية السوفيات، إلى الجماهير المضطهدة في العالم أجمع، أن الأمل في الخلاص لم ينقض، وأن سيطرة كبار الملاكين والرأسماليين ليست خالدة، وأنه يمكن أقامة حكومة العمال بواسطة جهود العمال أنفسهم، وأنه يجب إقامة هذه الحكومة على الأرض وليس في السماء. وهكذا أشعل لينين في قلوب العمال والفلاحين في العالم أجمع جذوة الأمل في التحرر. وهذا ما يفسر أن اسم لينين قد أصبح أعز اسم على قلوب الجماهير الكادحة المستغَلة".

وهذا ما لا يرضاه بلوم صنيع البرجوازية داخل الحركة العمالية.

وتعتمد النزعة المناهضة للسوفيات، عند الزعماء الاشتراكين، على فلسفة يائسة. فإذا بلينين وستالين والشعب الروسي مجرمون لأنهم أرادوا، لا بل نجحوا في القضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وإذا بليون بلوم وجي موليه يكثران من الخطب حول "النزعة الاشتراكية المحررة" بيد أنهم لا يعتقدون ما يقولون. فلقد روضتهم البرجوازية الرجعية المعتدية فرسخت فيهم عقلية الفاشلين المغلوبين. ولهذا نرى بلوم في كتابه "على مستوى الإنسان" يعلن تضامنه مع الفاتيكان، كما يعلن الحرب على الشيوعيين، محاولا إقصاءهم عن الأمة القومية. لماذا؟ لأن الشيوعيين يشهدون بأفعالهم عن أيمانهم بتغيير المجتمع كما يرون في الاتحاد السوفياتي المثل الذي يجب أن يحتذيه جميع العمال.

وهذا ما لا يرضى به صنائع البرجوازية، فيعملون جاهدين لأبعاد العمال عن الاتحاد السوفياتي الذي يدلهم على طريق الإصلاح. ولهذا لا يتراجع هؤلاء أمام أية نميمة للتدليل على أنه لم يتغير شيء في الاتحاد السوفياتي، ويصحب ذلك بالضرورة مراقبة كل أدب، يصدر عن الاتحاد السوفياتي، يظهر حقيقة ما غيرته الثورة ومنعه.

وهكذا تبدو فلسفة الاشتراكية الديمقراطية فلسفة ميتافيزيقية صرفة، تقوم على محاربة الحماسة والتضليل وتثبيط همم المناضلين، ولا ادل على ذلك من الجريدة

اليومية (Franc-Tireur) أو المجلة الهزلية (Le canard enchaine) إذ نرى أن الفكرة السائدة فيهما في الجد أو السخرية في الخداع أو السباب هي أن لا جدوى من النضال ضد الرأسمالية، والحال سيظل كما كان. لأن "أكلة الخوارنة" هؤلاء يفكرون بعقلية دينية ولأنهم مقتنعون بعجز الإنسان الأساسي، ولما كانوا هم مفلسين فقد جعلوا التاريخ يفلس أيضاً معهم. ولهذا ظهر الرياء في سخريتهم التي تنم على اليأس والقنوط.

وذلك لأن التغير ليس من صميم حقيقة المجتمع والطبيعة فقط بل أن المجتمع يتطور بصورة أسرع من تطور الكون الطبيعي؛ فلقد توالت على الإنسانية منذ انحلال المجتمع البدائي أربعة أشكال من المجتمعات وهي: مجتمع الرقيق، المجتمع الإقطاعي، المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي وكان المجتمع الإقطاعي يعتقد بأنه أبدي كما كان رجال الدين يرون فيه عملا من أعمال الله، كما يجعل اليوم الكردينال سبيلمان من شركات الاحتكار الأميركية إرادة الله. ومع ذلك حل محل المجتمع الإقطاعي المجتمع الرأسمالي، كما حل محل المجتمع الرأسمالي المجتمع الاشتراكي، كما يستعد الاتحاد السوفياتي إلى الانتقال لمرحلة أسمى هي مرحلة الشيوعية.

لما كان الإنسان كائنا اجتماعيا فليس هناك من إنسان خالد. أو لم يمت الإنسان الإقطاعي عند مطلع العصور الحديثة في شخص دون كيخوت؟ أما ما يدعي بالأنانية الأصيلة فقد ظهرت مع تقسيم المجتمعات إلى طبقات، فكانت "عبادة الذات" المشهورة التي تقول بأن "الأنا فوق كل شيء" ثمرة البرجوازية السائدة التي تجعل من المجتمع مأسدة يتصارع الناس فيها لتحقيق أغراضهم بواسطة الخداع والقوة وأن اضطروا لبناء صرح سعادتهم على شقاء الضعفاء! ومع ذلك ينشأ في المجتمع الرأسمالي نفسه انموذج *إنسان جديد* لا يرى سعادته الا ضمن سعادة المجتمع، ويجد أسمى نعيمه في النضال من أجل الإنسانية جمعاء ويتحمل في سبيل ذلك أعظم التضحيات. وهكذا تشارك هذه الأم العاملة

في شركة رينو بالإضراب من أجل زيادة الأجور مع علمها بأن الجوع سيحل بأطفالها طيلة أيام الإضراب. كما يرفض عمال مرفأ روان، تضامنا مع عمال العالم، سبعة عشر مرة تفريغ الاسلحة المخصصة لمحاربة السوفيات مؤثرين ألم الجوع والحرمان[41].

ليس هناك إذن، إنسان خالد، كما أنه لم يكن هناك خطيئة أصيلة. ولهذا فأن جميع الذين يناضلون، اليوم ضد الرأسمالية يعملون *في نفس الوقت على تغيير أنفسهم*. وتزداد إنسانيتهم بقدر محاربتهم لنظام غير إنساني، لأن الحقيقة الإنسانية، ككل حقيقة، *جدلية*. فقد ارتفع الإنسان، عن مستوى الحيوان، بنضال استمر آلاف السنين ضد الطبيعة، وليس هذا النضال في آخر مراحله *بل هو لا يزال في أول مراحله* كما يقول بولس لانجفين، وليس تاريخ هذا النضال منفصلا عن تاريخ المجتمعات؛ فإذا بنا نعثر هنا، من خلال القانون الثاني للجدلية القائل بأن كل شيء يتغير، على القانون الأول القائل بأن كل شيء مترابط مع غيره إذ لا يمكن فهم الوعي الفردي خارج المجتمع. ولهذا يمكن للإنسان، في بعض الظروف، التقهقر إلى الوراء. إذ تحاول البرجوازية الرجعية، محافظة منها على مصالحها، أن تعود القهقرى بعجلة التاريخ فتظهر الفاشية: فاشية ايزنهور وماك كارتي أو فاشية هتلر. ولكن هذه الفاشية تنحط بالإنسان لأن رجال شرطة هتلر (s.s) الذين اضطهدوا المشردين قد اضطهدوا في نفس الوقت الإنسانية التي لا تزال ترقد في أنفسهم، فهم إذ ما داسوا إنسانية الغير بأرجلهم أنما يدوسونها في أنفسهم أيضا. وليس جانب الصلاح في الإنسان عطية من الله بل هو كسب ناله على مر الأيام. وهذا الكسب هو ما تعرضه البرجوازية، كل يوم للخطر. فإذا بالقنبلة الذرية تسيطر على تفكيرها وإذا بالدولار يحتل ضميرها. ولهذا حق

---

41 راجع حول هذا الموضوع قصص أندريه ستيل الرائعة: الصدمة الأولى (Le premier choc)، طلقة المدفع (Le coup du canon)، باريس معنا (Paris avec nous)، اتحاد الناشرين الفرنسيين.

للمحامي عمانوئيل بلوش أن يهتف مساء تنفيذ حكم الإعدام بآل روزنبرج: *"أن الذين يحكموننا هم حيوانات!"*.

فكيف لا نعارض قسوة طبقة فاسدة بالرحمة التي تخيم على الإنسانية في المجتمع الاشتراكي؟ تبدو لنا هنا قوة المادة الجدلية التي تضيء طريق الشيوعية وحقيقتها. فلقد دلت أعمال رجال السوفيات الذين تحرروا من الاستغلال على حقيقة التأوهات عن خلود الشقاء. ولهذا ليس هدف قانون الجزاء السوفياتي تأديب المجرم بل تغيير حاله عن طريق العمل الاشتراكي. تحيق بالمجرم في النظام الرأسمالي لطخة عار لا تمحي حتى بعد انقضاء مدة سجنه أما في الاتحاد السوفياتي فلقد وجد الشواذ من الشبان الذين قام على إصلاحهم ماكارانكاو "طريق الحياة" كما أصبح المجرمون واللصوص مواطنين شرفاء قد تخلصوا من أوزار الماضي، وليس من الصدفة أن زال شذوذ الشبان في الاتحاد السوفياتي بينما هو يزداد في المجتمع الرأسمالي يوما بعد يوم.

فلقد ماتت في المجتمع الاشتراكي فكرة القضاء المحتوم.

ونجد اليوم دليلا رائعا على ذلك عند الأطباء السوفيات زملاء بافلوف. فلقد كان قول التوراة عن المرأة "سوف تلدين في الألم" يحيق بالأجيال المتتابعة. فإذا بالولادة لم تعد ألما مضنيا في روسيا بفضل دراسة عمل المراكز العصبية دراسة جدلية وتوضيح مشكلة الألم. هكذا تزعزعت الفكرة القديمة القائلة بأن الألم قانون الولادة وأنه "ضريبة" "الخطيئة الأصلية" و "متعة الجسد". وسوف تنمو الفكرة الجديدة وتنتقل من جيل لجيل بينما تنحل الفكرة القديمة عن الولادة في الألم لتزول إلى الأبد. أما أن يرجع الفضل في مثل هذا الاكتشاف الرائع للأطباء

السوفيات فليس هذا من قبيل الصدفة. لأنه عمل علماء جدليين يعتقدون أن ليس في الكائن الإنساني أي عيب أبدي[٤٢].

٥ – الخلاصة

أن الاقتصار على جانب واحد من الواقع والاكتفاء بلحظة واحدة من مراحل التطور وكذلك الاعتقاد بأن الماضي لا حاجة به للمستقبل كل ذلك دليل على جهل جدلية الواقع. كما أن من يحكم على أميركا اعتمادا على شخصية الشيخ ماك كارتي فيعتقد بأن مستقبل أميركا سوف يكون صورة مطابقة لما جرى في التاسع عشر من حزيران سنة ١٩٥٣ (حين نفذ حكم الإعدام بآل روزنبرج) يخطىء خطأ فاحشا. ذلك لأن مستقبل الولايات المتحدة هو بالأحرى من صنع القوى الجديدة التي يحاول المدافعون عن القديم القضاء عليها. ولقد كتب ستالين يقول: "أن أهم شيء هو ما يتطور". إذ مهما كانت ضئيلة جرثومة هذا التطور فإنها تحتوي مع ذلك على الحياة، وهذه الحياة هي ما يجب الحفاظ عليه بجميع الوسائل، لأنها تستحق كل عناية. وهكذا فأن نضال أيتيل وجولويوس روزنبرج ضد الجريمة سوف ينتصر بالرغم من أن الجريمة قد اضرت بهما. وكما أن تباشير الصباح تشير بمولد النهار فأن أمثولة آل روزنبرج تبشر بميلاد أميركا عادلة مسالمة. كما قالت ايتيل روزنبرج لأولادها:

"لسوف يكون العالم يا بني سعيدا مخصبا فوق قبرينا"[٤٣].

---

42 تمثل لنا أفضل القصص والشرطة السوفياتية بصورة ملموسة قوى التحول التي تعمل عند الإنسان بفضل الاشتراكية، كشريط "الفارس ذو النجمة الذهبية" "Le chevalier a l etoile dor" وقصة أجايف: "بعيدا عن موسكو"Loin de Moscou وقصة ج. نيقولايف " الحصاد" "La Moisson" . اتحاد الناشرين الفرنسيين.

43 راجع "قصيدة ايتيل روزنبرج لأولادها". في "رسائل منزل الموت" جاليمار.

أما أولئك الذين قضوا عليهما أملا في إيقاف عجلة التاريخ فلقد حاق بهم الموت أكثر من الأموات.

ينقص الميتافيزيقي الاحساس بالتغير والإحساس *بالجديد*. وهذه هي ميزة *الجدلي* في كل حين والتي تهب الماركسي *قوته المبدعة* الخلاقة. إذ ليست الماركسية عبارة عن مجموعة من "الوصفات" التي تصلح لكل مكان وزمان بل هي علم التغير والتحول الذي يزداد مع التجربة. ولا يأبه الميتافيزيقي بما يتغير فهو يعتقد بأنه قد حدثت حربان عالميتان، ولهذا فلسوف تتبعهما حرب ثالثة" وإذا كان كل شيء يتغير حوله فأنه لا يرى هذا التغير. ولما كانت البرجوازية تحلم بالبقاء فهي تخشى الجدلية التي تدل على أن سيطرة البرجوازية آخذة بالأفول وأن بدت وطيدة الأركان لمن لا يتعمق الأشياء فيحسب ضربات المطارق دليلا على القوة. ولهذا كتب ستالين معلقا على الميزة الثانية للجدلية:

"يجب أن لا نعتمد في عملنا على الطبقات الاجتماعية التي لا تتطور وأن كانت تمثل في الوقت الحاضر القوة السائدة، بل على الطبقات الاجتماعية التي تنمو وتتطور لأن المستقبل لها وأن كانت لا تمثل في الوقت الحاضر القوى السائدة[44]*.*

لأن الموقف العلمي لا يقوم على الاكتفاء بما نشاهده أمام أنظارنا بل في فهم ما يموت *وما يولد* وأن نهتم أكثر ما نهتم *بما يولد*. وأما المساواة في الاهتمام بهما فأن في ذلك مساً بالواقع وتشويها له لأن الواقع حركة دائمة. ولهذا كان الماركسيون ذوي نظر للمستقبل لأنهم ينظرون لكل واقع حسب صيرورته ولهذا "كشف" الماركسيون بجدليتهم الصحيحة، منذ البداية، كل ما يتضمنه مشروع مارشال[45] بينما كان الزعماء الاشتراكيون يرحبون بالمشروع على أنه رخاء وازدهار.

---

44 ستالين: المادة الجدلية والمادة التاريخية. ص ٩.

45 م. توريز في اللجنة المركزية في أسي – مولينو، حزيران ١٩٥٣.

ينقد ستالين في كتابه *"مشــاكل الاشــتراكية الاقتصــادية فــي الاتحــاد الســوفياتي"* الذين " لا يرون الا الظــواهر الخارجيــة ولا يغوصــون إلــى الأعمــاق" والــذين " لا يرون القوى الدخيلة، التي وأن كانت تعمــل بصــورة موقتــة وبصــورة خفيــة *فأنهــا تؤثر مع ذلك في تحديد اتجاه الحوادث"*.

وهذه ملاحظة قيمة لنا جميعا ولا ســيما لأوســاط العمــال، لأن مــا يولــد وينمــو هي وحدة العمال التي توطــدت أولا بــين العمــال الشــيوعيين والعمــال الاشــتراكيين ثم اتسعت فإذا بالثقة في الانتصار القريب تفعــم قلــوب الجمــاهير. تلــك هــي القــوة "التي لا تقهر" والتي، إذا ما انقلب النســيم ريحــا عاصــفة، ســتزيل جميــع العقبــات. ذلك لأن النضال لتوحيــد العمــال الــذين تختلــف آراؤهــم وتتحــد مصــالحهم يتفــق وقانون الجدلية الثانية ولقد دل اتساع حركة الإضــرابات عــام ١٩٥٣ علــى اشــتراك جميع طوائف العمال في النضال الايجابي.

ونرى المنشق، على عكس ذلك، *ميتافيزيقيا*. فهــو يــرفض دعــوة زميلــه للعمــل المشترك بحجة أنه اشتراكي أو مسيحي. فهو يجهــل بــذلك قــانون التغيــر والتحــول كما أنه لا يريد أن يرى أن وعي هذا العامل ســوف يتغيــر بتــأثير العمــل المشــترك من أجل تحقيق هدف واحد: ذلك لأن العمل جنبا إلــى جنــب يقضــي علــى الشــكوك والأوهام. أما المنشق فهو يفكر كما لو كان قد علم شــيئا دفعــة واحــدة وهــو ينســى أن الإنسان لا يولد ثوريا بل يصبح ثوريــا. كمــا ينســى أن عليــه أن يــتعلم الشــيء الكثير. والثوري الحقيقي *هو الجدلي الــذي يعمــل علــى تهيئــة الظــروف الملائمــة لتقدم الشيء الجديد*. وكلمــا ازداد عــزم الزعمــاء الاشــتراكيين علــى الحيلولــة دون توحيد جبهة العمال، كلما ازداد عزمه علــى تحقيــق هــذه الوحــدة فــي موقفــه مــن العمال الاشتراكيين.

الدرس الرابع

ميزة الجدلية الثالثة

التحول النوعي

١ – مثال

إذا غليت الماء أخذت حرارته بالارتفاع درجة بعد درجة حتى إذا ما بلغت درجة معينة جعل الماء يتبخر *ويتحول* إلى بخار ماء.

نحن هنا أمام نوعين من التغير إذ أن تغير الحرارة التدريجي هو تغير كمي أي أن *كمية* الحرارة التي يحتوي عليها الماء تزداد، غير أن الماء في وقت ما يفقد *صفته* كسائل ويصبح غازاً دون أن يغير من طبيعته الكيمائية.

وهكذا نسمي *تحولا كميا* مجرد ازدياد الكمية أو نقصانها، كما نسمي *تحولا نوعيا* الانتقال من صفة إلى صفة أخرى أو من حال إلى حال كالانتقال من حالة السيولة إلى حالة الغازية.

دللت دراسة الميزة الثانية للجدلية على أن الواقع تحول مستمر. وسوف تدلل دراسة الميزة الثالثة للجدلية على أن هناك صلة بين التحولات الكمية والتحولات

النوعية. ذلك لأن التحول النوعي (كتحول الماء إلى بخار ماء) ليس من قبيل الصدفة بل هو نتيجة *حتمية* للتحول الكمي أي لازدياد الحرارة التدريجي. حتى إذا ما بلغت الحرارة درجة معينة (١٠٠ درجة) أخذ الماء بالغليان في ظروف الضغط الجوي الطبيعي. فإذا ما تغير الضغط الجوي تغيرت درجة حرارة الغليان حسب ما تقول الميزة الأولى للجدلية بأن كل شيء مرتبط بالآخر. ولكن درجة الغليان تظل واحدة بالنسبة لجسم معين، تحت ضغط جوي معين. ويعني هذا أن التحول الكمي ليس وهماً بل هو حادث موضوعي مادي يتفق والقانون الطبيعي. ولهذا كان حادثا يمكن التنبؤ بوقوعه فيقوم العلم بالبحث عن التحولات الكمية الضرورية لحدوث تحول كمي معين.

ونرى الصلة بين نوعي التحول واضحة في حالة غليان الماء. وتعتبر الجدلية أن هذه الصلة بين التحول الكمي والتحول الكيفي قانون شامل في الطبيعة والمجتمع.

ولقد رأينا في الدرس السابق أن الميتافيزيقا تنكر التحول وأنها إذا ما قالت به فأنها تجعل منه عبارة عن تكرار. وضربنا لذلك مثل ساعة الحائط. فإذا بالكون أشبه بساعة حائط لا يكف فيها الرقاص عن تكرار حركته. فإذا ما طبقنا مثل هذه النظرية على المجتمع أصبح التاريخ الإنساني عبارة عن دورة متكررة لا تتغير. ويعني هذا أن الميتافيزيقا تعجز عن تفسير كل جديد. فإذا فرض هذا الجديد نفسه عليها رأت فيه مظهرا من مظاهر العبث في الطبيعة أو نتيجة لمعجزة إلهية. أما الجدلية، فهي، على العكس، لا تدهش ولا تتولاها الحيرة من ظهور الجديد، لأن هذا الجديد ثمرة ضرورية للكثير من التغيرات الكمية الصغيرة التدريجية التي لا مغزى لها في الظاهر. وهكذا تخلق المادة بحركتها الخاصة الشيء الجديد.

٢ – ميزة الجدلية الثالثة

لا تعتبر الجدلية، على عكس الميتافيزيقا، عملية النمو على أنها مجرد عملية نماء لا تؤدي بها التحولات الكمية إلى تحولات كيفية بل على أنها عملية نمو ينتقل من التحولات الكمية الضئيلة الكامنة إلى تحولات ظاهرة أساسية هي التحولات الكيفية. وليست هذه التحولات الكيفية تدريجية بل هي تحولات سريعة مباغتة، تحدث بواسطة قفزات من حالة لأخرى. وليست هذه التحولات عارضة بل هي ضرورية لأنها ثمرة تحولات كمية تدريجية لا نشعر بها[٤٦].

ولنوضح جيدا بعض جوانب هذا التعريف. قلنا في الفقرة السابقة أن *التحول الكيفي* هو تحول حالة إذ يصبح الماء السائل بخار ماء، أو أن الماء السائل يصبح ماء جامدا (ثلجا). كما تصبح البيضة صوصا والبرعم زهرة، وكذلك يموت الحي ويصبح جثة هامدة.

أما *النمو* فهو يعني أن ما يبدو جديدا قد نما بالتدريج، إذ ليس هناك من معجزة بل اعداد بطيء لا يكشف عنه سوى الجدلية وحدها. ولهذا يقول موريس توريز في كتابه "ابن الشعب" (ص ٢٤٨).

"خرجت الاشتراكية من الرأسمالية كما تخرج الفراشة من الشرنقة".

وأما *القفزات* فهي تعني أنه إذا كان يلزم المرشح ٦٠٢٢٣ صوتا لينتخب نائبا فأن الصوت الأخير هو الذي *يحقق* الانتقال الكيفي الذي يصبح به المرشح نائبا. ومع ذلك فأن هذا التحول السريع المباغت قد أعد بواسطة تجمع الأصوات: صوتا فوق صوت. ذلك هو مثال بسيط للتحول الكيفي.

وكذلك تتفتح الزهرة بعد نضج بطيء، كما أن الثورة التي تندلع في وضح النهار ما هي الا تحول قد اعد بواسطة التطور البطيء.

---

46 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص ٥.

ولا يعني هذا أن جميع التحولات الكيفية تتخذ طابع *الأزمات والانفجارات*. إذ أن هناك حالات يتم فيها الانتقال إلى الصفة الجديدة بواسطة تحولات كيفية تدريجية. فلقد دلل ستالين في بحثه *"حول الماركسية في علم اللغة"* على أن التغيرات التي تطرأ على اللغة تتم بواسطة تحولات كيفية تدريجية.

وكذلك بينما يتم الانتقال الكيفي من المجتمع المنقسم إلى طبقات متنازعة إلى مجتمع اشتراكي عن طريق الانفجار. فأن نمو المجتمع الاشتراكي يتم بواسطة تحولات كيفية تدريجية بعيدة عن الأزمات.

قال ستالين: *"حققنا خلال ثمان إلى عشر سنوات الانتقال بزراعة بلادنا من النظام البرجوازي القائم على استغلال الفلاح إلى نظام الكولخوز الاشتراكي، ولقد قضى هذا التطور على النظام القديم الاقتصادي البرجوازي في القرى وأوجد نظاما جديدا اشتراكيا. ولم تتم هذه التغييرات الأساسية بواسطة الانفجار، أي بالقضاء على السلطة القائمة وإيجاد سلطة جديدة، بل بالانتقال التدريجي من النظام القديم البرجوازي في القرى إلى نظام جديد. ولقد أمكن ذلك لأنها كانت ثورة من عل، ولأن التحول الرئيسي قد تحقق على يد السلطة القائمة بمساعدة جماهير الفلاحين"*[٤٧].

وكذلك فأن الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية هو تحول كيفي يتم بدون *أزمات*، لأن الناس في النظام الاشتراكي، وقد تسلحوا بسلاح الماركسية، هم أسياد مصيرهم، ولأن المجتمع الاشتراكي لا يتكون من طبقات اجتماعية متنازعة.

وهكذا نرى أنه يجب دراسة الطابع النوعي الذي يتخذه التحول في كل حالة. فلا يجب أن نجعل من كل تحول كيفي نوعا من الانفجار. ولكن مهما كانت

---

47 ستالين: "حول الماركسية في علم اللغة" في "أخر مؤلفات" ص ٣٥ – ٣٦. المطبوعات الاجتماعية.

الصورة التي يرتديها التحول الكيفي فليس هناك من تحول كيفي لم يسبقه إعداد له وتحضير.

والشيء الشامل هي الصلة الضرورية بين التحول الكمي والتحول الكيفي.

٣ – في الطبيعة

أمامنا ليتر من الماء. فلنقسمه إلى قسمين متساويين، نجد أن هذه القسمة لم تغير قط من طبيعة الجسم لأن نصف ليتر من الماء ماء أيضا. ونستطيع أن نستمر في التجزئة حتى تصل إلى حجم رأس الإبرة من الماء ومع ذلك يظل هذا الحجم ماء ولا يحدث عن ذلك أي تحول كيفي. ويظل الحال كذلك حتى نصل إلى جزيء الماء[٤٨] فهو يتكون من ذرتين من الهدروجين وذرة من الأكسجين. فهل يمكننا مواصلة التجزئة وتحليل الجزيء؟ أجل. بواسطة طريقة خاصة... ولكن لن يكون لدينا حينئذ ماء بل هيدروجين وأوكسجين. اذ أن الهيدروجين والأوكسيجين اللذين نحصل عليهما بتجزئة جزيء الماء لن يكون لهما صفات الماء. ويعلم كل منا أن الأوكسيجين يشعل اللهيب وأن الماء يطفيء الحرائق.

هذا المثال شاهد على القانون الثالث للجدلية وهو أن التحول الكمي (تجزئة حجم الماء تجزئة تدريجية) يؤدي بالضرورة إلى تحول كيفي (ظهور جسمين مختلفين كيفيا عن الماء).

والطبيعة مفعمة بمثل هذه التحولات.

---

48 يتكون الجسم مهما كان نوعه من جزيئات. الجزيء هو أصغر كمية من مركب كيمائي معين وهو يتكون من ذرات. والذرة هي أصغر جزء من عنصر يمكن أن يكون مركبا. وتحتوي جزيئات جسم بسيط (كالاوكسجين والهيدروجين أو الآزوت) على ذرات متماثلة (من الأوكسجين والهيدروجين أو الآزوت). وتحتوي جزيئات جسم مركب (كالماء والملح والبنزين) على ذرات مختلف الأجسام التي يتركب منها هذا المركب.

ولا يمكن أن تحدث التحولات الكيفية في الطبيعة، بصورة واضحة في كل حالة معينة، الا بإضافة كمية من المادة أو الحركة أو ازالتها (أو من الطاقة كما يقولون)[٤٩].

ويستشهد انجلز نفسه على ذلك بعدد من الأمثلة. *فالأوكسيجين مثلا إذ اتحدت ثلاث ذرات منه بدلا من ذرتين لتكوين جزيء لحصلنا على الأوزون، وهو جسم يختلف عن الأوكسيجين العادي برائحته وتأثيره. وكذلك القول في النسب المختلفة التي يمتزج بها الأوكسيجين مع الأزوت والكبريت فتكون كل نسبة جسماً يختلف عن الأجسام الأخرى! إذ الفرق كبير بين هذين الجسمين $N2O$ و $N2O5$ فالأول غاز بينما الثاني جسم صلب متبلور. ومع ذلك يرجع كل الاختلاف بينهما في أن الجسم الثاني يحتوي على خمسة أضعاف ما يحتويه الأول من الأوكسيجين. ويقوم بينهما ثلاثة أجسام هي: NO_2, N_2O_3, NO, تختلف عن الجسمين الأوليين كما تختلف فيما بينها*[٥٠].

ولقد أتاحت هذه الصلة الضرورية بين الكمية والكيفية لمندلييف أن يقوم بتصنيف العناصر[٥١].

فلقد صنف العناصر حسب أوزانها الذرية المتصاعدة[٥٢]. ويظهر هذا التصنيف *الكمي* للعناصر الذي يبدأ بأخفها (وهو الهيدروجين) وينتهي باثقلها (وهو الأورانيوم)، ما بينها من اختلاف كيفي في الصفات. ولقد وجد في هذا

---

49 انجلز: جدلية الطبيعة، ص ٧٠. المطبوعات الاجتماعية.

50 إنجلز: جدلية الطبيعة، ص ٧٢. المطبوعات الاجتماعية.

51 العنصر هو الجزء المشترك بين جميع أصناف الجسم البسيط والمركبات التي تشتق منه مثال: يوجد الكبريت في جميع أصناف الكبريت ومركبات الكبريت. ويوجد ٩٢ عنصرا طبيعيا، نعثر عليها أثناء التفاعلات الكيمائية بين الأجسام ويحدث في بعض الحالات تحول في العناصر (كالأشعاع الذري).

52 يمثل الوزن الذري لعنصر من العناصر نسبة وزن ذرة هذا العنصر إلى وزن ذرة عنصر نموذج (كالهدروجين أو الأوكسجين).

التصنيف أماكن فارغة مما جعل مندلييف يستنتج أن هناك عناصر جديدة كيفيا يجب اكتشافها في الطبيعة، فوصف مسبقا صفات أحد هذه العناصر الكيمائية، ثم أكتشف هذا العنصر فيما بعد. وهكذا استطعنا بفضل تصنيف مندلييف المنهجي التنبؤ بوجود أكثر من عشرة عناصر كيمائية لم يكن توجد من قبل في الطبيعة تم الحصول عليها صناعيا.

ولقد أتاحت لنا الكيمياء، التي تدرس *لب الذرة*، أن نزداد فهما لأهمية الصلة الضرورية بين الكمية والكيفية، كما أنها وسعت من ميدان معارفنا. وهكذا حقق روذرفورد بتدمير ذرات الأزوت بواسطة ذرات الهليون (وهي جزيئات ذرية تنشأ نتيجة لتحلل ذرة الراديوم) تحويل ذرات الأزوت إلى ذرات الأوكسيجين. وهذا مثال رائع *للتحول الكيفي*. بيد أن دراسة هذا التحول قد دللت على أنه مشروط بتحول كمي، ذلك لأنه لب الأزوت – الذي يحتوي على سبعة بروتونات[٥٣] – يفقد بتأثير الهيليون بروتونا واحدا بينما يأخذ من جهة ثانية بروتونين من لب الهيليون فينتج عن ذلك لب ذو ثمانية بروتونات أي لب الأوكسيجين.

ويمكن لعلوم الحياة أن تمدنا بطائفة من الأمثلة. وذلك لأن نمو الطبيعة الحية لا يشبه مجرد ترداد نفس العمليات. لأن مثل هذه النظرية تحول دون فهم التطور. وتلك هي نظرية علم الولادة (genetique) القديم (ولا سيما عند ويزمان) الذي يقول بأن مستقبل الكائن الحي كان في مادة وراثية (les genes) لا تتغير ولا تتأثر بالبيئة. فيصبح مستحيلا عندئذ فهم ظهور الشيء الجديد. غير أن نمو الطبيعة الحية، في الواقع، يفسره تراكم التحولات الكمية التي تنقلب إلى تحولات كيفية. ولهذا كتب انجلز يقول:

---

53 يكون البروتون والنترون لب الذرة.

"أنه لمن الجنون تفسير ولادة خلية واحدة من المادة الجامدة رأسا بدلا من المضغة (albumine) الحية، أو الاعتقاد بأنه يمكننا، بواسطة قليل من الماء الآسن، حمل الطبيعة على أن تضع في خلال أربع وعشرين ساعة ما قضت ملايين السنين في اعداده"[٥٤].

نفهم الآن كيف أن هذا النمو الكمي والكيفي للطبيعة الحية يستطيع أن يجعلنا نفهم ما نعنيه، في الجدلية، بالانتقال *من البسيط إلى المعقد*، مما هو سفلي إلى ما هو علوي. ذلك لأن الأنواع التي تنشأ عن التطور تتعقد شيئا فشيئا ولهذا تتنوع تكوين الكائنات الحية أكثر فأكثر.

وكذلك تكون من البيضة عدد كبير من الأعضاء المتمايزة كيفيا لكل منهما وظيفته الخاصة. وهكذا ليس نمو الكائن الحي مجرد تكاثر الخلايا، بل هو عملية تمر بالعديد من التحولات الكيفية.

فإذا أخذنا بدراسة الجهاز العصبي وعلم النفس الفينا من جديد قانون العلاقة بين الكمية والكيفية في صور متعددة. *فالاحساس* (sensation) مثلا (كرؤية النور، والإحساس بالحرارة، والسمع واللمس الخ). وهو ظاهرة خاصة بالنظام العصبي، لا يظهر الا إذا بلغت الإثارة – أي تأثير المثير على الجهاز العصبي – مستوى كميا معينا يسمى بالعتبة. وهكذا لا يمكن أن تتحول الأثارة الضوئية إلى إحساس الا إذا استمرت مدة من الزمن بقوة دنيا. وعتبة الإحساس هو الوقت الذي يحدث فيه الانتقال *من كمية المثير إلى كيفية* الرد عليها: أما قبل هذه العتبة فلا يحدث الإحساس لأن المثير ضعيف جدا.

وكذلك يتكون "المفهوم" (Concept) بواسطة تكرار الاستعمال له اعتمادا على الإحساسات.

---

54 جدلية الطبيعة: ص ٣٠٥.

فاستمرار الاستعمال الاجتماعي يؤدي في استعمال الناس إلى تكرار الأشياء التي يدركونها بحواسهم والتي تؤثر فيهم، فيحدث بالنتيجة في ذهن الإنسان قفزة في عملية المعرفة ويخرج المفهوم إلى الوجود[55].

والإحساس هو انعكاس جزئي للواقع، فهو لا يكشف لنا الا عن الجوانب الخارجية. غير أن الناس باستعمالهم الاجتماعي المتكرر وبعملهم، يتعمقون هذا الواقع فيدركون مغزى العمليات الداخلية التي جهلوها آنفا، كما يدركون القوانين التي تفسر الواقع وتتخطى الظاهر. وهذا هو *"المفهوم"* وهو شيء جديد كيفيا بالنسبة للإحساسات بالرغم من أن هذه الإحساسات *ضرورية* لتكوينه. وهكذا لن يقدّر "لمفهوم" الحرارة أن يتكون إذا لم يحس الناس في ظروف عديدة متنوعة بالحرارة. غير أنه وجب استمرار الاستعمال الاجتماعي آلاف السنين قبل الانتقال من الاحساسات إلى المفهوم الحالي للحرارة *كصورة من صور الطاقة*، فأمكن حينئذ تمثيل الصفات الرئيسية للحرارة: فقد تعلم الناس "إشعال النار" واستخدام آثارها الحرارية في مئات الصور لإرضاء حاجاتهم، ثم تعلموا بعد ذلك قياس كمية الحرارة، وتحويل الحرارة إلى عمل والعمل إلى حرارة. الخ...

وكذلك الانتقال من مسح الأراضي، الذي نشأ عن حاجات اجتماعية (قياس الأراضي)، إلى الهندسة (وهي علم الأشكال التجريدية) هو تحول الإحساسات إلى مفاهيم.

وهذا هو الحال فيما يتعلق بمبادىء المنطق التي يعتبرها الميتافيزيقيون أفكار أزلية. مثال ذلك المبدأ الشائع القائل بأن "الكل أكبر من الجزء" وأن الجزء أصغر من الكل" هو، كصورة من صور المنطق، ثمرة جديدة كيفيا لاستعمال وجد في المجتمعات القديمة في أشكال مختلفة كأن تلاحظ، مثلا، أنه يجب كمية من الغذاء لإطعام رجل، أقل مما يجب لاطعام عشرين رجلا.

---

55 ماوتسي تونج: "حول الاستعمال" في "كراسات الشيوعية" رقم ٢ شباط ١٩٥١، ص ٢٤٢.

ولقد كتب لينين يقول في *"كراسات فلسفية":*

"حمل نشاط الإنسان العملي وعيه على تكـرار مختلـف الصـور المنطقيـة حتـى أصبح لهذه الصور قيمة المباديء[٥٦]*"*.

كما يقول:

"يستقر النشاط العملـي للانسـان، بعـد تكـراره مليـارات المـرات، فـي وعـي الإنسان في صور منطقية".

تلك هي الميزة الثالثة للجدلية التـي تـدلنا علـى تفسـير عقلـي *للاختـراع*، إذ أن الميتافيزيفي يعتبر ظهور الأفكـار الجديـدة، كمـا يعتبـر الاختـراع، وحيـا إلهيـا أو مجرد صدفة. أو ليس الاختـراع (فـي الوسـائل الصـناعية، وفـي العلـوم والفنـون وغيرها) تحولا كيفيا يحدث في انعكاس الواقع العقلـي بعـد إعـداد طويـل بواسـطة تراكم التحولات الطفيفـة فـي نشـاط الإنسـان العملـي؟ ولهـذا لا تـتم الاكتشـافات الكبرى الا بعد تحقق الشروط الموضوعية لإمكانية تمامها.

وتدلنا الأمثلة الأخيرة التي اخترناهـا (كالانتقـال مـن الإحسـاس إلـى المفهـوم، والاختراع الذي يؤدي إليه الاستعمال العملي الطويل) علـى جانـب مهـم مـن عمليـة الانتقال من التحول الكمـي إلـى التحـول الكيفـي . ذلـك لأن الانتقـال مـن الحالـة الكيفية القديمة إلى الحالة الكيفية الجديدة هو في الغالـب *تقـدم*. فهـو إذن انتقـال مـن السفلي إلى العلوي. وهذا هو حال الإنسان حين ينتقل مـن الأحسـاس (وهـو صـورة سفلية للمعرفة) إلى المفهوم (وهو صورة عليا للمعرفـة). وكـذلك الشـأن فـي انتقـال الجامد إلى الحي، لأن مثل هذا الانتقال انما هو تقـدم خطيـر. ولهـذا كانـت الحركـة

---

56 المبادىء (axiomes) هي الحقائق العامة الأساسية لعلم الرياضات وترى النزعة المثالية فيها ثمرة من ثمار الفكر، والواقع أنها ككل حقيقة ثمرة كسب طويل الأمد.

التي تؤدي إلى مثل هذه التحولات الكيفية، كما يقول ستالين: "حركة تقدمية صاعدة٥[57]٦".

وسنرى أن ذلك هو الحال أيضا في تطور المجتمعات.

٤ – في المجتمع

رأينا في الدرس السابق أن المجتمع متحرك كالطبيعة. وتقوم هذه الحركة على الانتقال من التحولات الكمية إلى التحولات الكيفية.

ولقد فهم لينين ذلك حينما كان لا يزال طالبا سنة ١٨٨٧ في جامعة كازان ـــ وكان يقوم بمقاومة القيصرية ـــ فأجاب على مفوض الشرطة الذي قال له: "أنكم تنطحون برؤوسكم حائطا لا يتزحزح" ـــ حائطا؟ أجل، ولكنه حائط نخره السوس، وتكفيه دفعة بسيطة حتى ينهار". إذ كانت القيصرية، في الواقع، كالحائط الذي أفسدته الأمطار سنة بعد أخرى، ولقد أدرك لينين أن التحول الكيفي (وهو انهيار القيصرية) قريب.

وهكذا يسبق التحولات الكيفية في المجتمع تحولات كمية بطيئة.

فالثورة (تحول كيفي)، إذن، هي نتيجة تاريخية ضرورية *لتطور بطيء* (تحول كمي). ولقد حدد ستالين بوضوح الجانب الكمي والجانب الكيفي للحركة الاجتماعية حيث يقول :

"يعلمنا المنهج الجدلي أن الحركة تتخذ صورتين: صورة تطورية وصورة ثورية، وتكون الحركة تطورية حين تستمر العناصر التقدمية في عملها اليومي بصورة تلقائية فتحدث في النظام القديم بعض التحولات الكمية الطفيفة. كما تكون الحركة ثورية حين تتحد هذه العناصر تحت لواء فكرة واحدة فتنطلق ضد العدو

---

57 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص ٦.

لتقتلع النظام القديم من جذوره وتحدث في الحياة تحولات كيفية كما تقيم نظاما جديدا محل النظام القديم.

وهكذا يمهد التطور للثورة بينما تقوم الثورة باتمام هذا التطور كما تساعده في عمله المقبل[٥٨].

ويستشهد ستالين على هذا التحليل بحوادث ١٩٠٥. فلقد "قامت طبقة العمال (البروليتاريا) في كانون الأول سنة ١٩٠٥ بمهاجمة مستودعات الأسلحة ثم سارت للقضاء على الرجعية". ولقد سبق هذه الحركة الثورية تطور طويل تم خلال السنوات السابقة "حين كانت البروليتاريا في تطورها العلمي، تقتنع بالاضرابات المتفرقة وايجاد نقابات للعمال صغيرة".

وكذلك سبق الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ نضال طبقي طويل، فإذا بالتحولات الكيفية الهائلة تحدث في فرنسا خلال بضع سنوات (١٧٨٩–١٧٩٠) ولم تكن هذه التحولات ممكنة لولا التحولات الكمية التي تراكمت عبر السنين، أي لولا الهجمات العديدة الجزئية التي شنتها البرجوازية ضد الإقطاعية حتى الهجوم النهائي واستيلاء الرأسماليين على الحكم.

أما فيما يتعلق بالثورة الاشتراكية في تشرين الأول سنة ١٩١٧ فأن *"تاريخ الحزب الشيوعي (البولشفيكي) في الاتحاد السوفياتي"* يطلعنا على الطريقة التي تم بها هذا التحول الكيفي الهائل، وهو أكبر تحول في التاريخ، بواسطة سلسلة من التحولات الكمية، فإذا ما أردنا الاقتصار على الفترة بين ١٩١٤ ــ١٩١٧ فأن الفصلين ٦ و ٧ يدلاننا على تضخم الحركة الشعبية في هذه السنوات الخطيرة حتى استيلاء السوفيات على الحكم.

---

58 ستالين: "الأستبدادية أو الاشتراكية؟ "مؤلفات"؟ ١، ص ٢٥٢ و ٢٥٢ المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥٢. لنذكر بهذا الصدد أشعار اليوار:

لم يكونوا في البدء سوى أفراد معدودين

ثم إذا بهم يصبحون فجأة جماهير عديدين

ويجب أن نلاحظ هنا (كما فعلنا في نهاية المسألة الثالثة من هذا الدرس) أن الانتقال من الحالة الكيفية القديمة إلى الحالة الجديدة يكون *تقدما*. فالحالة الرأسمالية هي أفضل من الحالة الإقطاعية، والحالة الاشتراكية أفضل من الحالة الرأسمالية، إذ أن الثورة تقوم بالانتقال من السفلي إلى العلوي. لماذا؟ لأنها تقوم بالتوفيق بين النظام الاقتصادي للمجتمع وبين متطلبات نمو قوى الانتاج.

من المهم أن لا نفصل بين الجانب الكيفي والجانب الكمي في الحركة الاجتماعية بل يجب النظر إليهما في ترابطهما الضروري. اما النظر إلى جانب دون الآخر فأن ذلك يؤدي إلى ارتكاب خطأ كبير.

وهكذا يؤدي الاقتصار على رؤية جانب التطور في *النزعة الإصلاحية (reformisme)* التي تعتقد بأنه يمكن تحقيق الإصلاحات الاجتماعية بدون الثورة. ونزعة الاصلاح هذه هي نظرية برجوازية لتجريد طبقة العمال من سلاحها، فيخيل إليها أن الرأسمالية يمكن أن تزول بدون نضال. وهكذا تكون النزعة الاصلاحية ضد الثورة لأنها؛ *تدعو إلى ترقيع النظام المنهار للتفريق بين طبقة العمال وإضعافها والإبقاء على سلطة البرجوازية ضد إزالة هذه السلطة بواسطة الثورة*[٥٩].

ويقوم على نشر النزعة الإصلاحية الزعماء الاشتراكيون أمثال جول موش وبلوم الذي صرح بأنه "حامي الرأسمالية الأمين"، وكذلك موقف كوتسكي الذي يعتقد بأن على الرأسمالية الامبرطورية أن تتحول من نفسها إلى اشتراكية. ويعتمد هؤلاء المشوهون للماركسية على ما يدعونه "بالقانون العام للتطور المنسجم" الذي يضرب بالجدلية عرض الحائط. وبهذا يبررون خيانتهم لمصالح طبقة العمال. ويقوم برنامجهم؛ *على محاربة فكرة الثورة أو "الأمل" فيها، لأن*

---

59 لينين: "النزعة الإصلاحية في الاشتراكية الديمقراطية الروسية" في ماركس، انجلز، والماركسية" ص ٢٥١. المطبوعات باللغات الأجنبية، موسكو ١٩٤٧.

هذا الأمل لا يبدو واضحا في نظـر الإصـلاحي، لأنـه لا يـدرك مـدى التناقضـات الاقتصادية والسياسية الحالية، وكذلك على محاربـة كـل نشـاط يقـوم علـى تنظـيم القوى وتهيئة الأفكار من أجل الثورة[٦٠].

وهناك نظرية أخرى مناقضة للجدلية وللثـورة فـي نفـس الوقـت وهـي النزعـة المغامرة (aventurisme) التـي يتصـف بهـا الاسـتبداديون والبلنكيـون[٦١]. وتقـوم هذه النزعة على إنكار ضرورة إعـداد التحـول الكيفـي (الثـورة) بواسـطة التطـور الكمي. وهي نظرية ميتافيزيقية كالسـابقة لأنهـا لا تـرى سـوى جانـب واحـد مـن جوانب الحركة الاجتماعية.

وذلك لأن إرادة الثورة دون إرادة ظروفها يجعـل هـذه الثـورة مسـتحيلة. وهكـذا تتشابه كل من النزعة المغامرة والنزعة الإصلاحية في أصولهما.

غير أن أنصار النزعة المغامرة يوهمون الناس بحـديثهم الـدائم فـي كـل مناسـبة عن العمل ليحولوا بذلك دون العمل الحقيقي. فهـم يحتقـرون، فـي الحقيقـة، الأعمـال المتواضعة والتحولات الكمية البسيطة الضرورية للتحولات الخطيرة.

ينتقد موريس توريز، في الجـزء الرابـع *مـن مؤلفاتـه* (ص ١٢٨)، عـددا مـن السعاة الشيوعيين الـذين ناهضـوا عـام ١٩٢٣ مـذكرة للمطالبـة بحقـوقهم وجههـا زملاؤهم في البرق والبريد إلـى النـواب. فكـانوا يقولـون لـزملائهم: "انضـموا أولا إلى النقابة الموحدة (C. G .T. U) والا ذهبـت مـذكرتكم سـدى". ويفسـر مـوريس توريز ذلك بقوله:

---

60 لينين: "النزعة الإصلاحية في الاشتراكية الديمقراطية الروسية" في، ماركس، انجلز والماركسية ص ٢٦٢.

61 إتباع فرنسوا أوجوست بلنكي وهو اشتراكي ثوري فرنسي، قضى سنوات عديدة في السجن (ولد ١٨٠٥ – توفي ١٨٨١ م).

"لا يجب التقليل من شأن المذكرة ولو عارضناها بحملة عن "العمل الشعبي" ذلك لأن المذكرة صورة، لا شك بدائية، من صور العمل الشعبي. فهي وسيلة للضغط على الموجهة إليه كما أنها عامل تجمع وتنظيم لموقعيها.

وهي، في الحالة التي نحن بصددها، صورة منظمة لاحتجاج المستخدمين ضد دولتهم المستخدمة وضد النواب الذين يملكون قدرا من سلطة الدولة.

كما يمكن للعريضة أن يكون لها تأثير حقيقي على السلطات العامة لو أن العناصر الثورية، بدلا من أن تحاربها، شاركت فيها، فشرحت لرفاقها في العمل أن العريضة ليست سوى وسيلة من وسائل النضال العديدة، وأن هناك وسائل تكملها وتعضدها كالقيام بمظاهرة في الوقت المناسب في الناحية أو المنطقة أو البلاد جميعا فأنها تجعل للتوقيعات وزنا كبيرا.

ويلاحظ موريس توريز أن العريضة،

تساعد على تحقيق الجبهة الموحدة. وذلك عن طريق ما ينشأ من نقاش بين رفاق العمل عند كل توقيع. فيشرح كل واحد رأيه ويعبر عن ميوله. ومع ذلك يعتبر كل واحد أن التعبير الواعي عن أكثرية سعاة البريد الساحقة، لا بل عن السعاة جميعا، سوف يكون له تأثير قوي. ولا شك أن النقابي الموحد قد عبر عن رأيه حول ما يجب عمله عند توقيعه أو حمله الآخرين على التوقيع. فلربما اقترح، مثلا، انتخاب لجان لتقديم العرائض. فلقد وقع على تطبيق القواعد في المستقبل، كما تحدث عن إمكانية القيام بإضراب! فاستمع إليه زميله، أو أعترض عليه، أو طلب إليه المزيد من الايضاح. يكون كل هذا خطوة أولى للتقريب والعمل في سبيل عمل مشترك يؤتي ثماره. فلا يجب إذن الثرثرة بصدد "العمل الشعبي" بل تعلم إثارة أدنى صور الاجتماع الشعبي وتنظيمها ومساعدتها، كي نصل بمساعدة البروليتاريا إلى أسمى صور النضال الطبقي[٦٢].

---

62 موريس توريز: مؤلفات، ل، ٢، ج ٤، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١ المطبوعات الشعبية. باريس ١٩٥١.

لأن العمال يتثقفون خلال هذه الألوان من النضال الجزئي ويكتسبون تجربة لا تقدر. إذ أن العمل اليومي، في سبيل المطالب البسيطة المشتركة، يمهد الطريق لعمل أشد اتساعا وأعظم أهمية، والشرط الأول لإقامة الجبهة الموحدة هو تكوين لجان يتناقش فيها العمال ويقررون متآخين الأهداف والوسائل لتحقيقها. أولا كيف يمكن الوصول لتحولات أساسية إذا لم يتم هذا العمل بصبر وأناة؟ وهكذا استطاع العمال بواسطة جمع ملايين التواقيع حمل رئيس الجمهورية على التوقيع للإفراج عن هنري مارتين[٦٣].

وهكذا يدلل القانون الثالث للجدلية على أهميته العملية وخصبه، كما يوضح لنا الأحوال الحاضرة فيجعلنا نثق وثوقا علميا بأن تحقيق الجبهة المتحدة واجتماع الأمة الفرنسية حول طبقة العمال سيكونان نتيجة *ضرورية* للتحولات الكمية التي تتم خلال صنوف النضال اليومي، بفضل الجهود الصامتة التي يبذلها العمال الواعون في المصانع والمكاتب. وكان اتساع اضرابات آب سنة ١٩٥٣ نتيجة للجهود المحلية المتعددة التي بذلت في كل مكان خلال الشهور السابقة. ولقد عرض مسؤول نقابي، عند اشتداد أضرابات آب، كيف أن بعض العمال، الذين كانوا لعشرة أيام خلت بعيدين عن حركة الإضراب، قد أصبحوا الآن في مقدمة المضربين ثم يردف قائلا: "لا يضيع أي شيء". وهذا حق. إذ لا يضيع أي جهد يبذل في اتجاه التاريخ سواء في الشرح أو التوقيع. ذلك لأن تراكم التحولات الكمية يمهد السبيل للتحولات الكيفية.

ولهذا كان من الخطأ الاعتقاد بأن سياسة السياسيين البرجوازيين الرجعية ستستمر طويلا لأن أغلبية المجلس "إلى جانبهم"، كما أنه من الخطأ القول بأن فرنسا "بلاد قد ولت" وكتب عليها أن تعيش تحت الحماية الأميركية. فلقد أخذت

63 هنري مارتين شيوعي رفض محاربة الوطنيين في الفيتنام فأتهم بالقرار من الجيش فحوكم وسجن من أجل ذلك .(المعرب).

القوى، التي ستقضي على سياسة الخزي والعار، تتجمع من كل جانب. ولسوف تعكس هذه القوى أيضاً مجرى الحوادث وتعيد فرنسا إلى عظمتها الحقيقية. ولسوف تكون للشعب الكلمة الاخيرة. ولذلك لم يكن القول بإمكان سياسة أخرى في فرنسا غير السياسة البرجوازية الرجعية المناهضة للمصالح الوطنية ضربا من الاسترسال وراء الأوهام بل هو حقيقة علمية.

٥ – الخلاصة

يقول ستالين في تعليقه على الميزة الثالثة للجدلية: "يجب أن نكون، كي لا نخطيء في سياستنا، ثوريين لا إصلاحيين" لأن الموقف الثوري هو الموقف الجدلي الوحيد، فهو يعترف بضرورة التحولات الكيفية بصورة موضوعية وهي نتيجة لتطور كمي: أما الميتافيزيقي فهو أما أن ينكر التحولات الكيفية أو يرضى بها دون أن يلم بها بل ينسبها للصدفة أو المعجزة. ويهم البرجوازية مثل هذه الأخطاء، وهي لذلك تعمل على نشرها بكثرة. مثال ذلك أن الصحافة الاخبارية تقدم للجمهور الحوادث السياسية والاجتماعية بدون ذكر علاقاتها الداخلية التي تمهد لها وتفسرها. ومن هنا نشأت الفكرة القائلة *"باستعصاء فهمها"*.

أما الجدلي فهو، على العكس، يدرك حركة الواقع على أنها تجمع بالضرورة بين التحولات الكمية والتحولات الكيفية فيوحد بينهما في نشاطه العملي.

ولا يقوم اليساري، الذي لا يكف عن ترديد الكلمات الثورية، بأي عمل بانتظار اللحظة المناسبة للقيام بالثورة. كما لا يناضل الإصلاحي في سبيل الإصلاحات التي يتمناها لأنه يعتقد أن التطور "الطبيعي" يحول المجتمع. وأما الجدلي فهو الوحيد الذي يدرك أنه يجب النضال للحصول على الإصلاحات، وأنه يجب القيام بهذا النضال لأنه يعلم أن الثورة متصلة بالتطور. والثوريون هم الوحيدون الذين يستطيعون، بمشاركتهم في العمل، أن يجعلوا للإصلاحات مضمونا تقدميا حقا. لأنهم يستطيعون بجدليتهم، أن يجمعوا حولهم، في الأعمال

الصغيرة ثم في الأعمال الكبيرة، العمال الذين خدعتهم النزعة الإصلاحية وأغرتهم الكلمات اليسارية. والجدلي هو الوحيد الذي يدرك قيمة التحولات الكمية التدريجية، كما يدرك تعدد طرق النضال من أجل الاشتراكية حسب الظروف، وأن الثورة عبارة عن عملية تتم في مراحل. ولقد كان زعماء الجدلية الوحيدين الذين يستطيعون قيادة الجماهير الكادحة لتحقيق الجبهة الشعبية وتحرير البلاد من الاحتلال. يقبل الجدلي على أقل عمل إقبال الثوري وليس إقبال الإصلاحي وقد أدرك مغزى كلمات "العالمية" الحقيقي:

"فلنتحد وغدا تصبح الإنسانية عالمية"

ملاحظات

أ) قلنا أن التحولات الكمية الطفيفة تؤدي إلى تحولات كيفية أساسية.

يعني هذا أنه *لا يمكن فصل* الكمية عن الكيفية، والكيفية عن الكمية، وأن الفصل بينهما يصبح أمرا اعتباطيا (كما يفعل مثلا الميتافيزيقي برجسون الذي يرى أن المادة هي كمية صرفة وأن الروح كيفية صرفة). لأن الحقيقة هي كمية وكيفية في نفس الوقت. ويجب أن ندرك جيدا أن *التحول الكيفي هو انتقال من صفة إلى صفة أخرى*. فتصبح الصفة "سائل" صفة "غاز" حين يبلغ السائل درجة معينة من الحرارة.

وكذلك لا يمكن الفصل بين الكمية والكيفية في الرياضيات (التي يريد الميتافيزيقيون أن يجعلوا منها علما للكمية فقط). فجمع إعداد كاملة (٥+٧+٣..) عملية كمية: ولكن لها جانب كيفي، لأن الأعداد الكاملة هي أعداد *من نوع معين*. لها صفة تختلف عن صفة الأعداد الكسرية، والأعداد الجبرية، الخ... وتعدد الأعداد الكيفي كبير إذ لكل نوع صفاته. ولرب قائل يقول أن جمع أعداد كاملة أو كسرية أو جبرية هو جمع على كل حال. أجل. ولكن الجمع يكون في كل حالة جمع صفات مختلفة. وكذلك فأن خمس قبعات أو خمس قاطرات هو جمع

أيضا ولكن الأشياء تختلف نوعيا. ذلك لأن الكمية هي دائما كمية *شيء* ما، فهي كمية لنوع معين.

ب) تتحول الكمية إلى كيفية. *ولكن الكيفية تتغير أيضا كمية*، لأنه لا يمكن الفصل بينهما.

مثال: تعيق علاقات الإنتاج الرأسمالية، في وقت ما، نمو قوى الإنتاج الكمي أو تؤدي إلى تقهقرها. ويتم تحول علاقات الإنتاج كيفيا *بجعل قوى الإنتاج اشتراكية* فتزدهر بذلك من جديد. ونتيجة ذلك أن قوى الإنتاج ستنمو نموا كيفيا كبيرا.

***

الدرس الخامس

ميزة الجدلية الرابعة

نضال الأضداد (١)

١ – نضال الأضداد هو الدافع لكل تغيير

رأينا أن الواقع متحرك، وأن هذه الحركة الشاملة ترتدي صورتين: كمية وكيفية، مرتبطة كل منهما بالأخرى ارتباطا ضروريا. ولكن *لماذا* توجد الحركة؟ وما الدافع للتغيير وتحول الكمية إلى كيفية والانتقال من صفة إلى صفة جديدة؟ يحمل الجواب على هذا السؤال الميزة الرابعة للجدلية. وهي *قانون الجدلية الأساسي* الذي يفسر لنا سبب الحركة. وسوف يظهر مثال ملموس هذا القانون.

ادرس الفلسفة الماركسية، المادية الجدلية. ولا يمكن هذا الا إذا كنت مدركا لجهلي، وأريد أن أتغلب على هذا الجهل وأن اكسب المعرفة. *فالدافع* لدرسي *والشرط الأساسي* لتقدمي في الدرس هو النضال بين جهلي وبين رغبتي في التغلب على هذا الجهل، وهو التناقض بين ادراكي لجهلي ورغبتي في التخلص

من هذا الجهل. وليس هذا النضال بين الأضداد، وهذا التناقض، بخارجين عن الدرس. فإذا كنت أتقدم في درسي فبقدر *استمرار* هذا التناقض. ولا شك أن كل كسب جديد يتخلل درسي هو *حل* لهذا التناقض (أعلم اليوم ما كنت أجهله بالأمس): ولكن يطرأ بعد هذا الكسب تناقض جديد بين ما أعرفه وما أدرك أني أجهله: ينشأ عنه جهد جديد في الدرس وحل جديد يتبعه تقدم جديد. ومن يعتقد أنه يعرف كل شيء لن يتقدم قط لأنه لن يحاول التغلب على جهله. ومبدأ هذه الحركة التي هي الدرس، كما أن الدافع للإنتقال التدريجي من معرفة ضيقة إلى معرفة أوسع، هو النضال بين الأضداد، النضال بين *جهلي* (من جهة) *وبين ادراكي لوجوب التغلب على جهلي* (من جهة ثانية).

٢ – ميزة الجدلية الرابعة

تعتمد الجدلية، على عكس الميتافيزيقا، على القول بأن أشياء الطبيعة وظواهرها تحتوي على تناقضات داخلية، لأنها تحتوي جميعها على جانب سلبي وجانب إيجابي فلها ماض ولها مستقبل؛ وفيها جميعا عناصر تزول أو تنمو، وأن النضال بين هذه الأضداد، بين القديم والحديث، بين ما يموت وما يولد، بين ما يزول وما ينمو ويتطور هو المحتوي الداخلي لعملية التطور وتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية[٦٤].

وسوف تتيح لنا دراسة التناقض، كمبدأ للنمو والتطور، تبين ميزاته الأساسية وهي أن التناقض *داخلي*، *وأنه* مجدد، وأن هناك *وحدة* بين الأضداد.

64 ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص ٧

٣ – ميزات التناقض

أ) التناقض داخلي

رأينا أن الواقع هو حركة، غير أن الحركة هي نتيجة لتناقض ونضال بين الاضداد. هذا التناقض وهذا النضال هما داخليان. أي أنهما ليسا خارجين على الحركة بل هما جوهر هذه الحركة.

فهل هذا القول تأكيد اعتباطي؟ كلا. لأن القليل من التفكير يطلعنا على أنه لولا التناقض في العالم لما تغير العالم *فلو* أن الذرة لم تكن الا بذرة لظلت بذرة دائما. غير أن البذرة *تملك القوة* على التحول لأنها تصير فيما بعد شجرة. وهكذا تخرج الشجرة من البذرة بعد أن تختفي هذه البذرة. كذلك شأن كل واقع، وإذا كان الواقع يتغير فلانه *في جوهره* ذاته وشيئا اخر غير هذه الذات. فلماذا تسير الحياة، بعد أن أعطت ورودها وثمارها، نحو الموت؟ تتحول الحياة إلى موت لأن الحياة تحمل في أحشائها تناقضا داخليا، *ولأن* الحياة نضال يومي ضد الموت (تموت في كل لحظة خلايا بينما تحل محلها خلايا أخرى حتى يتغلب الموت عليها). يعارض الميتافيزيقي الحياة بالموت على أنهما مطلقان دون أن يرى الوحدة التي تجمع بينهما وهي وحدة القوى المتناقضة. ذلك لأن العالم الخالي من كل تناقض انما هو عالم مصيره إلى أن يعيد نفسه دون أن يعرف التجديد. وهكذا يكون التناقض داخل كل تغير.

سبب كل نمو أساسي للأشياء انما لا يكون خارج هذه الأشياء بل داخلها، في طبيعة الأشياء المتناقضة، فلكل شيء ولكل ظاهرة تناقضاتها الداخلية الكائنة فيها. وهذه التناقضات هي التي تولد حركة الأشياء ونموها، وهكذا تكون التناقضات الكامنة في الأشياء والظواهر هي الأسباب الرئيسية لنموها[٦٥].

65 ماوتسي تونج: "حول التناقض" في "كراسات الشيوعية عدد ٧ – ٨ آب سنة ١٩٥٢ – ٧٨١

ولقد قال لينين "النمو هو نضال الاضداد[٦٦]"

أو ليس هذا الرجل الذي يدرس هو جاهل ومحتـاج للمعرفـة فـي نفـس الوقـت؟ فهو يمثل في درسه النضال بـين هـاتين القـوتين المتناقضـتين. ذلـك هـو جـوهر الإنسان الذي يدرس.

واذ ما عدنا إلى العملية التي عرضناها في الـدرس السـابق وهـي تحـول المـاء إلى ثلج أو إلى بخار ماء لرأينا أنه يمكن تفسير مثـل هـذا التحـول بوجـود تنـاقض داخلي: تناقض بين قوى الانسجام بين جزيئات الماء مـن جهـة، وبـين حركـة كـل جزيء الخاصة به من جهة ثانية (وهـي طاقـة تـدفع الجزيئـات إلـى التفـرق)؛ أي التناقض بين قوى الانسجام والتفريق. ولا شـك أن هـذا النضـال لا يبـدو إذا نظرنـا إلى الماء السائل بين درجتي صفر ومئة بل يبدو كل شـيء سـاكنا. وكـل مـا يبـدو هو سكون حالة السائل. غيـر أن المظهـر الخـارجي يخفـي الحقيقـة والجـوهر أي النضال بين قوى الانسجام وقوى التفريـق. وهـذا التنـاقض الـداخلي هـو المحتـوي الحقيقي لحالة السائل. كما أن التناقض *يفسر* لنـا تحـول المـاء المفـاجيء إلـى مـاء جامد أو إلى بخار ماء. ولا يمكن الانتقـال الكيفـي إلـى حالـة جديـدة الا بانتصـار احدى هاتين القوتين على الاخرى. فتنتصر قـوة التفريـق فـي حالـة تحـول السـائل إلى بخار، ولا يقضي هذا الانتصار على القوى المعارضـة بـل يغيـر مـن صـفتها. فتصبح، في حالة التجمـد، حركـة الجزيئـات الجانـب *السـلبي* (أو الثـانوي)؛ وفـي حالة الغاز، تصبح النزعة إلى الأنسجام الجانب *السلبي* (أو الثانوي).

فالماء، مهما كانت حالته الحالية، هو نضـال بـين قـوى متناقضـة وهـي قـوى *داخلية*، وبهذا تفسر تحولات الماء.

هل يعني هذا إن الظروف *الخارجيـة* المحيطـة لا تقـوم بـأي دور؟ كـلا. فلقـد دلتنا دراسة القانون الأول للجدلية (كل شيء مـرتبط بـالأخر) علـى أنـه لا يجـب أن

---

66 لينين: المادية والنزعة التجريبية النقدية.

نعزل الواقع عن ظروفه المحيطة به. ففي حالة الماء، هناك شرط خارجي ضروري لتحويل الحالة وهو هبوط الحرارة أو ارتفاعها إذ أن ارتفاع الحرارة يجعل من الممكن ازدياد طاقة الجزيئات من الحركة أي ازدياد سرعتها. بينما يؤثر انخفاض الحرارة تأثيرا عكسيا. ولكن يجب أن لا ننسى أنه لو لم يكن هناك تناقضات داخلية في داخل الشيء (في الماء مثلا)، كما رأينا ذلك سابقا، فأن الظروف الخارجية تفقد تأثيرها. ولهذا تعتبر الجدلية اكتشاف التناقضات الداخلية الكامنة في العملية التي درسناها، التي تفسر لنا نوعية هذه العملية، شيئا أساسيا. *فالتناقضات الكامنة في الأشياء والظواهر هي السبب الرئيسي لنموها، بينما صلة الشيء أو الظاهرة المتبادلة مع الأشياء أو الظواهر الأخرى وتأثيرها عليها انما هي اسباب ثانوية*[٦٧].

وهذا ما لا يرضاه الذهن الميتافيزيقي، فهو مجبر على تفسير جميع التغييرات بواسطة تدخلات خارجية، لأنه يجهل التناقضات الداخلية التي تكون الواقع وتدفع إلى التغير الكيفي. وذلك أما بواسطة "أسباب" آلهية (الله "خلق" الحياة والفكر والممالك) أو بواسطة أسباب اصطناعية: فهناك رجال مفضلون يملكون قدرة عجيبة تمكنهم من تغيير الأشياء؛ وهؤلاء هم "الدعاة" الذين "يصنعون" الثورة، و "يغرسون بذورها". الخ.. وهكذا يرجع بعض المفكرين الرجعيين ثورة ١٧٨٩ إلى التأثير السيء لبعض الرعاة الأشرار. وكذلك شأن الثورة الاشتراكية التي حدثت في تشرين الأول سنة ١٩١٧؛ بينما تدلل الجدلية ، على العكس، بصورة علمية، أن الثورة، كحل للمشاكل التي تعترض سبيل النمو الاجتماعي لا بد منها إذا كان هناك تناقض *داخلي* يكون هذا المجتمع؛ وهو التناقض بين الطبقات المتنازعة. وما الثورة الا نتيجة هذا التناقض الذي يمر بعدة مراحل؛ ولهذا ليست الثورة من صنع الله أو الشيطان.

---

67 ماوتسي تونج: "حول التناقض" في "كراسات الشيوعية" عدد ٧ – ٨ آب سنة ١٩٥٢ ص ٧٨١

ويجب علينا أن لا ننسى مهمة كـل مـن التناقضـات الداخليـة كأسـباب أساسـية ومهمة الظروف الخارجية كأسباب ثانوية. لأنهـا تفسـر لنـا أن "الثـورة لا تـورَّد" إذ لا يمكن أن يكون التحول الكيفي نتيجة مباشرة لتـدخل خـارجي. ولهـذا غيَّـر وجـود الاتحـاد السـوفياتي وتقدمـه الظـروف العامـة لنضـال البروليتاريـا فـي الـبلاد الرأسـمالية، ولكـن لا يمكـن، لوجـود الاتحـاد السـوفياتي أو تقدمـه، أن يولـد الاشتراكية في الـبلاد الأخـرى. لأن ازديـاد نضـال الطبقـات الخـاص بكـل بلـد رأسمالي وازدياد التناقضات الداخلية التي يمتـاز بهـا كـل بلـد رأسـمالي يمكـن أن يؤديا إلى انقلابات ثورية في هذه الـبلاد. ولهـذا كـان سـتالين يـردد غالبـا، قولـه "سوف يقوم كل بلد، لو أراد، بثورتـه، ولـن تقـوم الثـورة إذا لـم يردهـا". وكـذلك الأمر في لعب الطفل إذ لن تجدي جميع الوسائل لحملـه علـى المشـي إذا لـم يسـمح له نموه الداخلي العضوي بالمشي.

وهكذا نرى أن ميزة التناقض *الداخلية* التي يلح عليهـا سـتالين فـي سـرده للميـزة الرابعة للجدلية لها مغزى عملي كبير.

ب) – *التناقض مجدد*

لو عدنا إلى نص ستالين للقانون لرأينا أنه يعتبـر نضـال الاضـداد "كنضـال بـين القديم والحديث، بين ما يموت وما يولد، بين ما يزول وما ينمو".

ويزداد نضال الأضداد مع الزمن. ولقـد رأينـا (فـي الـدرس الثالـث) أن للعـالم الفيزيائي تاريخه كما للمجتمعات وللطبيعة الحية. وهكـذا تكشـف التحـولات الكيفيـة، في مرحلة معينة من مراحل تاريخهـا، عـن جوانـب جديـدة هـي ثمـرة الانتصـار على القديم. ولا يمكن هذا إلا لأن قـوى التجديـد قـد ازدادت كمـا ازدادت علاقـات الإنتاج المتعلقة بها داخل المجتمع القديم الإقطـاعي وبـالرغم عنـه، فنشـأ عـن ذلـك المجتمع الرأسمالي، وكذلك ينشأ اليافع عن الطفل وبـالرغم عنـه، كمـا ينشـأ البـالغ من اليافع وبالرغم عنه. لا يكفي اذن الاكتفاء بـادراك الطـابع الـداخلي للتنـاقض بـل

يجب أن ندرك أيضا أن هذا التناقض هو *نضال بين القديم والحديث* وأن الحديث يولد من أحشاء القديم، وأنه ينمو بالرغم عنه. وينحل هذا التناقض حين يتغلب الحديث نهائياً على القديم. فيبدو عندئذ طابع التناقضات الداخلية المجدد *وخصبها*. ويصنع المستقبل خلال النضال ضد الماضي، وليس هناك من نصر بدون نضال. يجهل الميتافيزيقي قدرة التناقض المجددة، فهو يعتقد أن التناقض لا يأتي بشيء مفيد. وهو يرى في التناقض ضربا من العبث لأنه ينظر إلى الكون نظرة ثابتة وهو يريد أن يظل الكائن (سواء كان طبيعة أم مجتمعا) على ما هو عليه. ولذلك يسعى لإزالة هذا التناقض. كما يرى الميتافيزيقي في الأزمات الاقتصادية، التي يعتبرها الجدليون دلائل ظاهرة على التناقضات الداخلية الاساسية في الرأسمالية، أمراضا عابرة، كما أنه يرى في نضال الطبقات عارضا مؤسفا سببه اهمال "الدعاة". يعلم الجدلي أنه حيث يوجد التناقض يوجد الخصب والتجديد والأمل في انتصاره. فنضال الطبقات يبشر بميلاد مجتمع جديد. ولهذا يعمل الجدلي على إيجاد الظروف المناسبة لازدياد هذا النضال الخصب؛ فلا تخيفه مقاومة قوى الماضي لأنه يعلم أن قوى المستقبل تظهر في النضال كما يدل عليه تاريخ الحركة العمالية. ولهذا كانت مهمة الاشتراكية الديمقراطية الأساسية الأبتعاد بالقوى الثورية عن النضال عاملة على افساد هذه القوى وتعقيمها. ويحفل تاريخ العلوم والفنون بالأمثلة التي تدل على خصب التناقض. اذ أن الاكتشافات العظيمة انما هي ثمرة لحل التناقض بين النظريات القديمة والوقائع التجريبية الجديدة. مثال: أثارت تجربة توريشلي تناقضا خصبا بين الواقعة المشاهدة (وهي أن الزئبق الموجود في الأنبوب المقلوب على الوعاء يهبط لعلو معين يختلف حسب الارتفاع عن سطح البحر، وفوقه الفراغ) وبين الفكرة القديمة (وهي أن الطبيعة لا تعرف الفراغ). وتعجز الفكرة القديمة عن تفسير كيف أن مستوى الزئبق في الأنبوب يختلف باختلاف الارتفاع عن سطح البحر. ويحل هذا التناقض اكتشاف الضغط الجوي.وكل تغير كيفي هو حل مثمر لتناقض. ويبدو

خصب التناقض في كتب جوركي. فلقد انقلبت *"الأم"* إلى ثورية في نضالها ضد أفكارها البالية كامرأة مستسلمة للاضطهاد. (وهذا تناقض داخلي يزداد بفضل الظروف الخارجية فتقتدي بابنها المناضل الثوري). كما أن *بطرس زالوموف*، المحرض على المظاهرة العمالية في أول أيار سنة ١٩٠٢ في سورموفو، وهو بطل الكتاب، يصرح معتزا إلى المحكمة القيصرية: *لقد آلم العمال الاختلاف بين الحياة التي يطمحون إليها وبين الحياة التي يعيشونها في المجتمع، فأخذوا يبحثون عن الوسائل التي تمكنهم من الخروج من الوضع المقيت الذي قدره لهم ما في النظام الحالي من نقص*[٦٨]*"*.

ويفسر لنا زالوموف كيف استطاع، بواسطة نضاله المستميت للتغلب على هذا التناقض، أن يتحول من عامل يائس إلى *رجل* جديد ثوري. قلنا في مطلع هذا الدرس أن الرجل الذي يدرس العلم يتقدم في دراسته بحل التناقضات التي يثيرها الدرس باستمرار. وكذلك شأن المناضل الثوري الذي يعرف خصب قوة التناقض فانه يسير على هدى قول موريس توريز: "النقد والنقد الذاتي هما خبزنا اليومي": نقد ما يقوم به الرفاق من عمل، ونقد كل منا لما يقوم هو به من عمل (النقد الذاتي). ويعتقد العامل، وقد تأثر بأفكار الاشتراكية الديمقراطية، أن النقد الذاتي هو خزي واستسلام. والصحيح أن النقد الذاتي يعتمد على نظرة علمية للعمل الثوري. إذ يهيء المناضل، بواسطة *النقد الذاتي، الظروف المواتية* للنضال من أجل انتصار الجديد على القديم في وعيه هو وفي نشاطه اليومي. ولهذا كان رفض الانتقاد الذاتي، ليس حفاظا على الكرامة، بل إفسادا لإمكانياتنا في التقدم، وحكما علينا بالتقهقر، وانحطاطا بماهيتنا. لأن ممارسة النقد والنقد الذاتي هي التي كونت الحزب الشيوعي (البولشفيكي) بزعامة لينين وستالين[٦٩]،

---

68 عائلة زالوموف، ص ٢٢١. الناشرون الفرنسيون المتحدون.

69 تاريخ الحزب الشيوعي (البولشفيكي) الروسي. خلاصة. مسألة ٤ ص ٣٩٨ – ٤٠٠

كما أنقذ موريس تـوريز، بواسـطة هـذه الممارسـة، الحـزب الشـيوعي الفرنسـي، خلال سنوات ١٩٣٠، من الهوة التي كاد يتـردى فيهـا علـى يـد جماعـة باربيـه – سيلور[70].

ج) – وحدة الأضداد

لا يوجد تناقض الا بوجود النضـال بـين قـوتين علـى الأقـل. ولهـذا يحتـوي التناقض على طرفين يتعارضان: فهـو *الوحـدة بـين الأضـداد* وهـذه ميـزة ثالثـة للتناقض. فلندرسها بعناية.

لا معنى، في نظر الميتـافيزيقي، للحـديث عـن وحـدة الأضـداد. فهـو يعتبـر، مثلا، العلم، من جهة، والجهل، من جهة ثانية. بينما لاحظنـا أن كـل علـم انمـا هـو نضال ضد الجهل. ولقد لاحظ لينـين "أنـه لا يمكـن اسـتنفاد موضـوع "المعرفـة": *فليس هناك، إذن، علم مطلق*، بل يبقى هنـاك دائمـا شـيء تجـب معرفتـه. وهكـذا يحتوي كل علم على جانب من الجهل. وكذلك *لـيس هنـاك جهـل مطلـق:* ذلـك لأن أجهل الناس له احساسات كما له عادة في الحياة وتجربة أوليـة (والا لمـا تمكـن مـن الحياة). كل ذلك يكون بذرة للمعرفة.

وإذا كانت الأضداد تتحارب فانها لا ينفصـل كـل منهـا عـن الأخـر. ولهـذا لا توجد البرجوازية في ذاتها. بل وجـد أولا، وسـط المجتمـع الإقطـاعي، البرجوازيـة المناضلة ضد الطبقة الإقطاعية. كما وجد، وسـط المجتمـع الرأسـمالي، البرجوازيـة ضد البروليتاريا. إذ لا يمكن وضع الاضداد كل منها علـى حـدة. لأنـه متـى زالـت البروليتاريا كطبقة مستغَلَّة زالت معها البرجوازية كطبقة مستغِلة[71].

70 موريس توريز: أبن الشعب. فصل٢

71 تفيد دراسة الاقتصاد السياسي الماركسي جدا لدراسة وحدة الأضداد لأننا نجد هذه الوحدة في جميع مستويات الاقتصاد. مثال: الصناعة هي وحدة الأضداد فهي جهة قيمة استعمال (كمنتوج للاستهلاك) وهي،

وعدم انفصال الاضداد أمر موضوعي تأباه الميتافيزيقا. ولهذا تشجع البرجوازية النظريات الميتافيزيقية التي تدعي، مثلا، "القضاء على ظروف حياة البروليتاريا" (لا سيما باشتراك العمل مع رأس المال)، مع الاحتفاظ بالبرجوازية! فهل يمكن أن توجد برجوازية رأسمالية بدون وجود بروليتاريا تكدح من أجلها!

لا تفصل الجدلية بين الأضداد ابدا؛ بل هي تنظر إليها في وحدتها التي لا تنفصم. *"لا موت بدون الحياة؛ ولا حياة بدون الموت. لا انخفاض بدون العلو؛ ولا علو بدون الانخفاض. لا سعادة بدون شقاء؛ ولا شقاء بدون السعادة، لا صعوبة بدون سهولة، ولا سهولة بدون الصعوبة. لا زارع بدون ملاك زراعي، ولا بروليتاريا بدون برجوازية. ولا برجوازية بدون بروليتاريا. لا مستعمرات ونصف مستعمرات بدون النير الوطني الاستعماري، ولا نير وطني استعماري بدون المستعمرات، وكذلك الحال مع جميع الأضداد التي تتعارض في ظروف معينة من جهة، وهي من جهة ثانية، مرتبطة بعضها ببعض، فيتداخل بعضها ببعض ويتعلق بعضها بالبعض الآخر"*[٧٢].

تعني هذه الصلة المتبادلة أن الضد أ يؤثر في ضده ب بقدر ما يؤثر الضد ب في ضده أ، وأن الضد ب يؤثر في ضده أ بقدر تأثير أ في ب. وهكذا لا تتراكم الأضداد بعضها فوق بعض بصورة تجعل الواحد منها يغير الآخر الذي يظل بدون تأثير. ولهذا كانت تقوية البرجوازية اضعافا لضدها، وهي البروليتاريا.

من جهة ثانية، قيمة استبدال (كمنتوج للاستبدال). وهاتان القيمتان ضدان لأن المنتوج لا يمكن استبداله إلا إذا كان غير مستهلك، ولأن المنتوج لا يمكن استهلاكه الا إذا كان غير مستبدل. ولقد بسط ماركس بصورة عبقرية جميع نتائج هذا التناقض الداخلي في "رأس المال" الذي هو رائعة من روائع الجدلية. ونلاحظ أن الوحدة هذه تبدو بوضوح في الأزمات التي تصيب الرأسمالية باستمرار: إذ لا تستطيع الجماهير استلاك ما تنتجه لأن هذه المنتوجات، في النظام الرأسمالي، بضائع، فيجب إذن، كي تستطيع استهلاكها، أن تشتري، أي أن تستبدل المنتوج بالمال.

72 ماوتسي تونج: "حول التعارض" في "كراسات الشيوعية" عدد ٧ – ٨ ، آب سنة ١٩٥٢، ص ٨٠٧.

وكذلك فأن أضعاف الفكرة الاشتراكية هو تقدم للفكرة البرجوازية. والعكس بالعكس. من الوهم إذن الاعتقاد بأن البرجوازية، تضعف إذا لم تناضل البروليتاريا ضدها باستمرار، لأنها إذا لم تفعل قويت البرجوازية وضعفت البروليتاريا. ويوضح لنا ماركس أنه إذا لم تنتهز الطبقة العاملة جميع الفرص لتحسين حالها "فأنها تنحط إلى مستوى جماعة من الكائنات المضطهدة الجائعة التي لا خلاص لها من شقائها[٧٣]".

ويصبح لهذا الوحدة بين الاضداد معنى هام حين *تتحول الاضداد بعضها إلى البعض الآخر*، لأن كلا من الأضداد يتحول، في ظروف معينة، إلى ضده: فتصبح البرجوازية، وهي الطبقة السائدة، طبقة مسودة كما تصبح البروليتاريا، وهي الطبقة المسودة، طبقة سائدة. وكذلك يتحول الإنسان الجاهل، الذي يدرس العلم، إلى ضده، أي إلى إنسان عالم، بينما يتحول الإنسان العالم، بدوره، وقد اكتشف أنه لا يعلم كل شيء إلى ضده، إلى إنسان جاهل يرغب في التعلم من جديد.*"لا تموت الوحدة بين الجوانب المتعارضة في ظاهرة موجودة موضوعيا ولا تتحجر بل هي دائما حية، مشروطة متحركة مؤقتة، نسبية. وتتحول جميع الاضداد، في ظروف معينة، كل منها الى الآخر فيكوِّن انعكاس هذا الوضع في تفكير الإنسان النظرة الجدلية المادية الماركسية للعالم، ولا تعتبر الطبقات السائدة الرجعية التي توجد الآن كما وجدت في الماضي، كما لا تعتبر الميتافيزيقا التي تخدم هذه الطبقات، الاضداد حية، مشروطة، متحركة، يتحول كل منها إلى الآخر بل تعتبرها ميتة، متحجرة، وهي تشيع هذه النظرية الخاطئة في كل مكان فتضلل الجماهير الشعبية لتطيل عهد سيطرتها[٧٤]".*

---

73 ماركس: "حول الأجور، والأسعار والرباح" ص ٣٩ المطبوعات الأجتماعية. باريس ١٩٤٨، "حول العمل المأجور ورأس المال" ص ١١٤ المطبوعات الأجتماعية، باريس ١٩٥٢.

74 ماوتسي تونج "حول التعارض" ص ٨٠٩.

ولهذا تعلم البرجوازية الرأسمالية، اليوم، كما علمت الطبقة الإقطاعية في الماضي، أن سيطرتها أبدية، فتلاحق الماركسيين اللينيين الذين، يعملون، حسب ما يقول به العلم الجدلي، تحول الاضداد المتبادل، أي انتصار البروليتاريا المضطهدة الذي لا مفر منه، على الذين يستغلونها.

ومن المهم، مع ذلك، أن لا نجعل لهذا التحول طابعا آليا. فنحن حين نقول بأن الاضداد يتحول كل منها إلى الآخر لا نعني بذلك مجرد تبدل، متى تم الانتقال فيه من ضد إلى ضد، لم يتغير شيء، فتصبح البرجوازية، وهي الطبقة السائدة، طبقة مسودة، وتتحول البروليتاريا، وهي الطبقة المسودة، إلى طبقة سائدة. إذ أن البروليتاريا طبقة تختلف كل الاختلاف عن البرجوازية، لأن هذه البرجوازية مستغلة بينما البروليتاريا، في ممارستها لدكتاتوريتها الطبقية، لا تستغل أي إنسان بل تعمل على توفير ظروف البناء الاشتراكي. أي أن تحول الاضداد المتبادل يوجد حالة كيفية جديدة، لأنه انتقال من السفلي إلى العلوي فهو بذلك تقدم كبير. ويؤدي تحول الاضداد إلى القضاء عليهما معا، لأن الاشتراكية تقضي على البرجوازية كطبقة مستغِلة. كما تقضي على البروليتاريا كطبقة مستغَلة. ثم تظهر تناقضات جديدة يمتاز بها المجتمع الاشتراكي بعد أن يكون التناقض بين البرجوازية والبروليتاريا قد ولى.

ولا معنى لوحدة الاضداد، من جهة ثانية، (وتحولها المتبادل) الا بالنسبة *لنضال الاضداد* الذي هو جوهر هذه الوحدة، فلا يجب إذن محاولة تحقيق هذا التحول المتبادل للاضداد بصورة اعتباطية إذا لم تتحقق ظروف هذا التحول.

ولقد صدق ماوتسي تونج في قوله، في النص السابق، أن الاضداد يتحول كل منها إلى الآخر "في ظروف معينة". فما الذي يحدد هذه الظروف؟ يحددها *النضال* وميزاته الملموسة. وهكذا تتعلق وحدة الاضداد وتحولها بالنضال، فإذا ما انفصمت وحدة ظهرت وحدة جديدة أخرى، ولكن تفسر جميع مراحل هذه العملية بواسطة النضال.

وحدة.. الاضداد مشروطة، وقتية، عابرة، نسبية بينما نضال، الأضداد، في قضاء كل منها على الآخر، مطلق كما هو شأن النمو والحركة[٧٥].

وأن من يجهل أن وحدة الاضداد تقوم وتستمر وتتحل في النضال يتردى في الميتافيزيقا.

75 لينين: كراسات فلسفية (ذكره ماوتسي تونج: "حول التعارض").

الدرس السادس

ميزة الجَدليّة الرّابعَة

نضال الأضدَاد (٢)

١ – شمول التناقض
أ) في الطبيعة
ب) في المجتمع
٢ – بين التعارض والتناقض
٣ – نضال الاضداد محرك للفكر

١ – شمول التنَاقض

يشمل التناقض، وهو الدافع لكل حركة، كل شيء. ويفهم الفلاسفة المثاليون حين نتحدث عن "التناقض" مجرد "نضال بين الأفكار" فهم لا يمكنهم أن يتصوروا التناقض الا بين أفكار متناقضة. وهم بذلك يفهمون من الكلمة معناها العادي ("قول العكس") غير أن تناقض الافكار ليس سوى صورة من صور التناقض، وذلك لأن التناقض حقيقة موضوعية موجودة في العالم فأننا نجده أيضا في "الذات" أي في الإنسان "الذي هو جزء من العالم).

يمكن تفسير كل تطور (طبيعي أو اجتماعي) عن طريق التناقض. ويستمر هذا التناقض استمرار عملية التطور: وان كان لا يظهر للعيان. ولقد رأينا مثال ذلك في الدرس السابق حين تحدثنا عن الماء. ويعلق ماوتسي تونج، فيما يتعلق بالمجتمعات، على خطأ بعض أصحاب النظريات الذين ينتقدهم الفلاسفة السوفيات

إذ يرى هؤلاء *"في بحثهم عن الثورة الفرنسية، أنــه لــم يوجــد تنــاقض فــي الطبقــة الثالثة التي كانت تتكون من العمال والفلاحــين ومــن البرجوازيــة، بــل كــان هنالــك اختلافات. وهذه النظرة ضد الماركسية"*[٧٦].

فهم ينسون أن *"كل اختلاف يرتكز على تنــاقض، وأن الاخــتلاف نفســه تنــاقض. إذ ما كادت البرجوازية والبروليتاريــا يظهــران حتــى ظهــر معهمــا التنــاقض بــين العمل ورأس المال؛ ولم يكن هذا التناقض قد بلغ درجة خطيرة آنذاك"*[٧٧].

ولو أن التناقض لم يكن موجودا منذ بداية التطــور لوجــب تفســير هــذا التطــور بتدخل قوة خارجية عجيبة. غير أننا رأينــا فــي الفصــل الســابق (٣، أ) أن الظــروف الخارجية، وأن كانــت ضــرورية للتطــور، لا يمكنهــا أن تحــل محــل التناقضــات الداخلية. فالتناقض الداخلي مستمر *دائــم* وأن نمــا وتطــور. ولهــذا لا يمكــن دراســة تطور طبيعي أو اجتمــاعي الا بعــد نمــو تناقضــاته الداخليــة نمــوا كافيــا. وهكــذا استحالت دراسة الرأسمالية عام ١٨٢٠ بصورة علمية لأنها لــم تكــن بعــد قــد نمــت جوهرها: فلم يكن بالإمكان أدراك سوى جوانبها الجزئيــة، وهــذا مــا فعلــه الســابقون على ماركس. وكذلك لا يمكن دراسة النبتة الا بعد أن تكون قد تقدمت في النمو.

حتى إذا ما اسرعنا إلى تعميم ما عرفناه عن بداية تطــور معــين كــان ذلــك منــا موقفا ميتافيزيقيا لأن في ذلك اهمالا لجوانب مهمة في التطور.

لنعرض، بعد أن انتهينا الآن من توضيح طــابع الشــمول فــي نضــال الأضــداد، بعض الأمثلة الملموسة.

---

76 ماوتسي تونج: "حول التعارض" ص٧٨٦.

77 نفس المرجع.

أ) ـ في الطَبيعَة

عرضنا في الدرس السابق مثال الماء ورأينا أن نضال الاضداد يفسر تحوله الكيفي من سائل إلى غاز ومن سائل إلى جليد. وتحتوي جميع التطورات الطبيعية على نضال الاضداد. إذ يمكن تفسير الانتقال، وتغيير المحل بواسطة التناقض. فلننظر الآن إلى عربة تسير (أو إلى رجل يمشي). لا يمكن للعربة الانتقال من أ إلى ب ومن ثم من ب إلى ج. الخ. الا شريطة أن تناضل باستمرار ضد الوضع الذي كانت تحتله سابقا. حتى إذا ما كف هذا النضال كف معه السير. يقول المنطقيون أنه كي تؤكد ب يجب ازالة أ، ولكي تؤكد ج يجب إزالة ب وهكذا تخرج ب من النضال ضد أ؛ كما تخرج ج من النضال ضد ب. وهكذا دواليك.

"ولذلك لا يتم مجرد تغيير المحل الآلي الا لأن جسما وجد، في نفس اللحظة، في محل وفي محل اخر في نفس الوقت، في محل واحد وليس فيه. وتقوم الحركة على طريقة حدوث هذا التناقض باستمرار وانحلاله في نفس الوقت"[٧٨].

ونضال الاضداد شامل في العالم الفيزيائي. وهكذا فأن ظاهرة بسيطة كالصدأ الذي يعلو الشوكة هو ثمرة نضال بين الحديد والأوكسجين. وصورة الحركة الأساسية في الطبيعة هي النضال بين الجذب والدفع، حدوث التطور والاستقرار والتحول والفناء في جميع التجمعات المادية سواء كانت التجمعات الكونية البعيدة في النجوم أو النظام الشمسي ــ وكذلك تجمعات المواد الصلبة وقطرات الماء أو الغازات ــ وكذلك تجمعات الجزيئات والذرات أو تجمع قلب هذه الذرات

ولنمثل على ذلك بالنظام الشمسي: لا يمكن أن نفهم حركة الكواكب حول الشمس بدون نضال هذين الصندين وهما: حركة الدوران التي تنزع إلى السقوط بالكوكب على الشمس، وجمود الكوكب الذي ينزع إلى ابعاده عنها.

---

78 انجلز: ضدد دورنج، ص ١٥٢ المطبوعات الاجتماعية.

كذلك شأن الجسم الذي يتمدد أو يتقلص كجسم صلب يذوب أو سائل يتجمد أوسائل يتبخر أو غاز يصبح سائلا: لا يمكن أن توجد جميع هذه التحولات بدون النضال بين الصندين وهما قوى التجميع بين الجزيئات. وهي قوى جاذبة والطاقة الحرارية التي هي دافعة.

وكذلك حال الظواهر الكيماوية التي تمتزج فيها أجسام بسيطة فيما بينها كما تتحل أجسام مركبة إلى عناصر بسيطة. تقوم جميع هذه العمليات على وحدة عمليات متناقضة وهي اتصال الذرات وانحلالها؛ ومن هنا كانت التناقضات الخاصة بالكيمياء. بين الحامض والأس Base، وبين المؤكسد Oxydant والمرجع reducteur بين electrification و Hydrolyse

وكذلك إذا تأملنا الذرة نجد أن التوازن النسبي الذي يحفظ الالكترونات حول النواة ينتج عن النضال بين هذين الضدين وهما: الطاقة الكهربائية الثابتة وهي هنا جاذبة وبين الطاقة الحركية وهي دافعة. وكذلك يعتقد العلم الحديث بوجود ضروب نوعية من الجذب والدفع بين البروتون والنوترون في نواة الذرة.

يعرف كل منا نوعين متضادين من الكهرباء: الايجابية والسلبية، كما يعرف قطبين – شماليا وجنوبيا – للمغناطيس؛ وكذلك ظواهر الجذب أو الدفع بين الأجسام المختلفة في كهربتها أو المتماثلة، وبين القطبين المختلفين أو المتماثلين في المغناطيس.

كما كشفت الفيزياء الحديثة، مؤخرا، أن الجزيئات التي تكون جميع الأشياء المادية، كالاليكترونات في الذرة مثلا، ليست مماثلة ميتافيزيقيا لنفسها. بل هي متناقضة تناقضاً شديدا، ذات طبيعة ثنائية لأنها جسم وموجة في نفس الوقت، إذ

يمكن تشبيهها بالبـذور والأمـواج وهكـذا يبـدو طـابع الأمـواج المـادي كـأمواج الراديو، كما يتضح سر طبيعة النور القديم[٧٩].

أما الطبيعة الحية فهي تنمو حسـب قـانون الأضـداد. ولقـد رأينـا فـي الـدرس السابق أن الحياة نضال مستمر ضد الموت. ولنمثل علـى ذلـك بنـوع مـن الحيـوان أو النبات نجد أن كل فرد من الأفراد التي يتكون منهـا هـذا النـوع يمـوت بـدوره لا محالة. مع ذلك يستمر النوع ويتكـاثر! وهكـذا ينتصـر المـوت علـى الحيـاة فـي الأفراد بينما تنتصر الحياة على الموت في النوع. لما كانـت الحيـاة غـزوا لمـا هـو ليس بحي، يمكننا القول بأن الموت وتحلل الفرد هـو تقهقـر أو عـودة العلـوي إلـى السفلي، والجديد إلى القديم. بينما نمـو النـوع العـام، هـو، علـى العكـس، انتصـار للجديد على القديم وتقدم للسفلي على العلوي. وهكـذا تكـون الحيـاة والمـوت جـانبي تناقض ينشأ وينحـل. تتحـول الطبيعـة فـإذا بهـا نفسـها دائمـا وإذا بهـا متجـددة باستمرار[٨٠].

79 ولهذا كتب بول لانجفين يقول: "يتخلل تاريخ جميع علومنا مثل هذه المظاهر الجدلية.. ويخيل إلي أني لم أفهم جيدا تاريخ الفيزياء الا بعد أن عرفت الأفكار الرئيسية للمادية الجدلية (مجلة "الفكر" عدد ١٢ ص ١٢ سنة ١٩١٧).

80 فليراجع القراء الذين يريدون القيام بدراسة واسعة لنضال الأضداد في الطبيعة كتاب انجلز الرائع: "جدلية الطبيعة" وقد نشرته المطبوعات الاجتماعية. ملاحظة: تنبه عدد من كبار المفكرين منذ القدم إلى القدرة الجدلية التي تظهر في الطبيعة مثل هر قليط اليوناني. كما نجد، فيما بعد، عند ليونار دي فنشي بداية تحليل لهذه الجدلية الطبيعة. يشهد على ذلك هذا المقطع:

"يموت جسم كل شيء باستمرار ويولد بدون انقطاع.. ولكن إذا استعضنا عن كل ما يزول في يوم لتولد بقدر ما استهلك من حياة. كنور السراج يغذيه رطوبة هذا السراج بفضل مزيد من الزيت السريع يصعد من الأسفل يعوض ما استهلك في الاعلى فيتحول النور الساطع إلى دخان حالك. ويستمر هذا الاستهلاك باستمرار الدخان واستمرار هذا الدخان هو نفس استمرار الغذاء فإذا بالنور يموت باكمله ثم يعود فيحيا بأكمله تبعا لحركة نموه".

ولا تستعصي الرياضيات على قانون الاضداد، حتى في ابسط صورها. فعملية الطرح (أ – ب) في مباديء الجبر هي عملية جمع (ب + أ) ولهذا تبدو وحدة الاضداد غريبة للذهن العادي الذي يقول بأن الجمع هو جمع والطرح طرح؟ وهومحق *جزئياً* لأن العملية الجبرية هي نفسها ضدها. ولا يستعصي التفكير الرياضي على قوانين الكون، وهو لا يتقدم الا إذا كان، كالكون، جدليا. ولقد خصص انجلز صفحات رائعة للرياضيات حسب النظرة الجدلية[٨١].

ب) – في المجتمع

يمكن تفسير جميع جوانب الواقع الاجتماعي أيضا بواسطة التناقض. وكذلك تكون المجتمع نفسه. وذلك لأن المجتمع الانساني، كجانب جديد من جوانب الواقع، هو ثمرة نضال بين الطبيعة وأجدادنا القدماء الذين كانوا أقرب إلى القرود العليا منهم إلى أناسي اليوم.

ولقد كان محتوي هذا النضال، ولا يزال، هو العمل الذي يحول الطبيعة والإنسان في نفس الوقت. فكان العمل مصدر المجتمعات لأنه وحد بين أجدادنا في نضالهم من أجل الحياة. كما أن *العمل* هو الذي حقق الانتقال الكيفي من الحيوان إلى الإنسان. ولقد قام ماركس، في كشفه عن الدور الذي يقوم به العمل، كنضال بين الاضداد ينشأ عنه المجتمع، باكتشاف خطير؛ فأسس علم المجتمعات الذي يقوم على نظرية عامة، هي *المادية التاريخية*. ومن المفيد قراءة الفصل الرائع الذي كتبه انجلز في كتابه *"جدلية الطبيعة" وعنوانه "أثر العمل في تحويل القرد إلى إنسان"* للتدليل على هذا التناقض الأساسي في المجتمعات إلا وهو العمل (الذي يوحد بين الطبيعة والإنسان وهما ضدان).

---

81 راجع انجلز: "ضد دورنج" و "جدلية الطبيعة" المطبوعات الاجتماعية.

غير أن التناقض لا يقف عند هذا الحد. بل هو المحرك للتاريخ منذ القبيلة البدائية حتى المجتمع الاشتراكي والشيوعي، ولسوف تقوم الدروس المخصصة للمادية التاريخية بتحليل هذه الحركة بصورة أوضح. فتظهر التناقض الأساسي بين قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الإنتاج القديمة. وكذلك التناقض بين الطبقات، أي *النضال الطبقي*، كالنضال بين الطبقات المستغِلة والطبقات المستغَلة فهو جانب أساسي من قانون الاضداد الكبير. ولقد رفض بلوم، وهو مزور الماركسية، القول بالمادية الجدلية كي يستطيع انكار أثر النضال الطبقي ووجوده (ولا سيما نضال الأضداد).

ولو استشهدنا بنظام اجتماعي معين لرأينا أنه يمكن تفسيره أيضا بواسطة تناقض أساسي وتناقض ثانوي. وهكذا لا وجود للرأسمالية بدون تناقض بين البرجوازية الرأسمالية التي تملك وسائل الإنتاج، وبين البروليتاريا. وليست هذه الرأسمالية جامدة لا تتحرك بل هي تتحول: فتتحول رأسمالية الفترة الأولى، وهي رأسمالية المضاربة، إلى رأسمالية الاحتكار في الفترة التالية: وذلك لأن المضاربة تضمن انتصار أقوى الرأسماليين فينتج عن ذلك رأسمالية الاحتكار، ثم تتحول المضاربة إلى ضدها.

وسنجد تحليلا عميقا للتناقضات التي تتكون منها الرأسمالية في *"رأس المال"* الماركس.

٢ – التعارض والتناقض

هناك سؤال يخطر ببالنا غالبا وهو "أنه لا وجود للرأسمالية بدون تناقض داخلي، لأن الرأسمالية نظام استغلال تتعارض فيه مصالح البرجوازية مع مصالح البروليتاريا بصورة دائمة. ولكن الا تقضي الاشتراكية على كل تناقض؟ " ويجب الإجابة على ذلك: "بأن الاشتراكية لا تخرج على قانون التناقض، وذلك لأنه طالما وجد المجتمع طالما وجدت التناقضات التي تكون هذا المجتمع".

ويقوم الوهم القائل بأن القضاء على الرأسمالية قضاء على التناقض أيضا على خطأ بين التناقض *والتعارض*. إذ أن التناقض ليس سوى حالة خاصة من حالات التعارض: فكل تناقض متعارض وليس كل تعارض متناقضا.

فهناك بعض التعارض بين كمية صغيرة جدا من الأرسنيك وبين الجسد، ولكن اذا ظلت كمية الأرسنيك ضعيفة لم يتطور التعارض إلى تناقض. فإذا ما زدنا هذه الكمية صار التعارض تناقضا مميتا للجسم. وكذلك يوجد نضال *دائم* بين الاضداد في المجتمع الرأسمالي وهما البرجوازية والبروليتاريا.

"حتى إذا ما بلغ ازدياد التعارض (بين هذه الطبقات) درجة معينة "اتخذ صورة تناقض ظاهر يتحول إلى ثورة"[82].

وليس التناقض سوى مرحلة من مراحل التعارض! وهو أخطر هذه المراحل. فالحرب بين الدول الاستعمارية هي أخطر مرحلة من مراحل النضال الدائم بينها. ولهذا يجب النظر إلى التعارض خلال جميع أطواره. فلقد نتج التعارض بين الطبقات، مثلا، عن تقسيم العمل في المجتمع الاول البدائي؛ اذ كان في هذا المجتمع، في تلك المرحلة، *اختلاف* بين ألوان النشاط الاجتماعية (كالصيد البري، والصيد البحري، وتربية الحيوانات) ولقد تطور هذا الاختلاف إلى نضال حين نشأت عنه الطبقات الاجتماعية فأصبح *تناقضا* في فترة الثورة.

ماذا يحدث اذن عند حلول الاشتراكية؟ يزول التناقض بين الطبقات بفضل القضاء على البرجوازية المستغِلة. ومع ذلك تظل الخلافات قائمة، لفترة ما، بين طبقة العمال وطبقة الفلاحين، بين القرية والمدينة، وكذلك بين العمل اليدوي والعمل الفكري. وليست هذه الاختلافات تناقضات بل هي تعارضات يجب التغلب عليها لأن الإنسان، في المجتمع الشيوعي، يمكنه القيام بمختلف ألوان النشاط التي يتقاسمها اليوم أفراد مختلفون، ولان التعارض بين العمل اليدوي

---

82 ماوتسي تونج: "حول التعارض" ٨١٣.

والعمل الفكري ينحل في وحدة أسمى. كما تـوفر الثقافـة العلميـة المتعـددة الظـروف لتحقيق هذه الوحدة التي تجعل من الفرد ممارسا وعالما في نفس الوقت.

وهكذا نـرى نهايـة التنـاقض بـين البرجوازيـة والبروليتاريـا لا يعنـي نهايـة التعارض ولهذا كتب لينين يقول منتقدا بوخارين:

"ليس التناقض والتعارض شيئا واحدا. إذ يـزول الأول بينمـا يسـتمر الثـاني فـي النظام الاشتراكي"[٨٣].

إذ كيف يمكن أن يحدث التقدم بدون التناقض الـذي يـدفع للتقـدم؟ وهكـذا يفسـر لنا ستالين في كتابـه *"مشـاكل الاشـتراكية الاقتصـادية فـي الاتحـاد السـوفياتي"* أن انتقال الاشتراكية التدريجي إلى الشـيوعية لا يمكـن الا بعـد حـل التنـاقض الكـائن (في المجتمع الاشتراكي) بين صـورتين للملكيـة الاشـتراكية: الملكيـة الكولخوزيـة، وهي ملكية اشـتراكية، الملكيـة القوميـة (كالمصـانع مـثلا) وهـي ملكيـة يمتلكهـا المجتمع بأكمله[٨٤].

ومع ذلك لا تتطور التعارضات، فـي المجتمـع الاشـتراكي، إلـى ضـروب مـن النزاع والتناقض لأن مصالح أعضاء هـذا المجتمـع متـرابط بعضـها بـبعض، ولأن هذا المجتمع يدير أموره حزب مسلح بعلم الماركسـي وهـو علـم التعـارض. وهكـذا يتم حل التعارضات بدون نزاع أو ازمـة. كمـا أن هـذه التعارضـات مفيـدة لانهـا تعين المجتمع على التقدم.

وكذلك يكون استخدام النقد والنقد الذاتي في حيـاة السـوفياتيين أروع مثـال علـى تطور التعارضات بدون تناقض. ولقد صرح جورج مـالنكوف فـي المـؤتمر التاسـع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السـوفياتي بقولـه: *يجـب النضـال ضـد الوقـائع*

---

83 ذكره ماوتسي تونج في المرجع السابق.

84 راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في روسيا" في "آخر مؤلفات" ص ١٥٦. المطبوعات الاجتماعية.

السلبية من أجل تقدم قضيتنا، وأن نوجه اهتمام الحزب وجميع السوفياتيين نحو إزالة الاخطاء بواسطة العمل. ويقوم بهذا النقد ملايين العمال *وهم اسياد بلادهم وكلما اتسع النقد في الأساس كلما تم ظهور القوى المبدعة كما تم ظهور طاقة شعبنا المبدعة، وكذلك ازداد تغلغل الشعور في الجماهير الشعبية بأنها سيدة في أوطانها*[٨٥].

ويسرد مالنكوف أمثلة على الاخطاء التي يجب اصلاحها بواسطة هذا النقد كتبذير المواد الاولية في بعض المصالح؛ واضاعة الوقت في بعض الكولخوزات، أو التقليل من شأن الحصار الرأسمالي، أو عدم الأشراف كافيا على المهمات الملقاة على عاتق بعض المنظمات أو بعض المناضلين.

ويقول مالنكوف *أن مهمة الحزب الشيوعي هي إيجاد الظروف التي تساعد كل مواطن سوفياتي شريف على أن ينقد بجرأة وبدون خوف مظاهر النقص في عمل المنظمات والإدارات فيجب أن تصبح المجالس واجتماعات المناضلين والمحاضرات في جميع المنظمات منابر ضخمة لنقد وجود النقص نقدا جزئيا قويا*[٨٦].

هذا النقد مظهر من مظاهر النضال بين الاضداد لانه يتيح القضاء على الاخطاء والبقايا التي تعيق تقدم المجتمع الاشتراكي: وهو نقد أخوي يقوم به أناس لهم نفس المصالح.

وكذلك فان النضال بين الأفكار، داخل الحزب نفسه، هو التعبير عن النضال بين الأضداد. ويساعد هذا النقد الحزبي الماركسي اللينيني الستاليني على تحسين عمله بدون انقطاع، ولا يفضي هذا النضال إلى تناقض. فإذا ما افضى إلى التناقض فمعنى ذلك أن الحزب يناضل ضد أعدائه الذين يعملون لمصلحة

---

85 مالنكوف: تقرير عن نشاط اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص ٧٦.

86 نفس المرجع. ص ٧٦.

البرجوازية كنضال الحزب الشيوعي (البولشفيكي) ضد تروتسكي وبوخارين وبيريا.

٣ – نضَال الأضْداد مُحَرك لِلفكْر

اذا كان قانون تعارض الاضداد يقوم بدور مهم في الطبيعة والمجتمع فانه من السهل التنبؤ بانه لما كان الانسان كائنا طبيعيا واجتماعيا فان فكره يخضع أيضا لقانون الاضداد. ولقد رأينا طابع الفكر الجدلي في الدرس الرابع. وليس هذا بمستغرب. فنحن ننظر إلى الفكر، كماديين، على أنه مرحلة من مراحل التطور العام؛ وهكذا تسيطر قوانين الجدلية على الفكر كما تسيطر على مجموع الواقع. كما أن جدلية الفكر، في جوهرها، من نفس طبيعة جدلية العالم؛ وقانونها الاساسي هو التناقض: ولهذا كتب لينين يقول: *"المعرفة هي الوسيلة التي يقترب بها الفكر دائما من الموضوع. ويجب أن نفهم انعكاس الطبيعة في الفكر الإنساني ليس بصورة "ميتة" ولابصورة "مجردة" أو بدون حركة أو تناقض بل عن طريق عملية الحركة الدائمة وظهور التناقضات وحلها"*[٨٧].

وهكذا يكون الانتقال الكيفي من الاحساس إلى المفهوم Concept (الذي تحدثنا عنه في الدرس الرابع) حركة تتم بواسطة التناقض فيعكس الاحساس جانبا محدودا من الواقع؛ وينكر المفهوم هذا الجانب الخاص ليؤكد *شموله*[٨٨]. فيتجاوز حدود الاحساس ليعبر عن الموضوع *بأكمله*. وهكذا المفهوم نفيا للإحساس (مثال: المفهوم العلمي عن النور كوحدة من الموجة والجسيم ينفي الإحساس بالنور، ذلك الاحساس الذي يكشف لنا عن وجود النور ولا يطلعنا على كنهه. ويؤثر المفهوم

---

87 لينين: كراسات فلسفية.

88 لا يجب أن نفهم كلمة "النفي" بمعنى الإبادة بل بالمعنى الجدلي: "تجاوز". وهكذا يتجاوز المفهوم الشامل الإحساس المحدود مع اعتماده على هذا الإحساس.

بدوره في الاحساس بعد أن تكوَّن بواسطة نفيه للاحساس (عن طريق النضال ضد هذا المستوى السفلي من المعرفة) فيمد الاحساس، بعد نفيه له، بالوسائل ليثبت وجوده بقوة جديدة لأننا ندرك جيدا ما فهمناه[٨٩].

وتدلنا التجربة على أننا لا نستطيع فهم الاشياء المدركة مباشرة بواسطة حواسنا وأن الأشياء يمكن أن تدرك بالاحساس بعد فهمها بصورة أعمق[٩٠].

وهكذا يكون كل من الاحساس والمفهوم والاحساس وحدة من ضدين متفاعلين، يؤكد كل منهما نفسه ضد الاخر بالرغم من أن كلا منهما يقوي الأخر (لأن الاحساس بحاجة للمفهوم لتوضيحه، كما أن المفهوم بحاجة للاحساس الذي يعتمد عليه).

فإذا ما نظرنا إلى مختلف الأطوار التي تكون المفهوم، الفينا فيها قانون الاضداد. وهكذا فأن التحليل والتركيب هما عمليتان ضروريتان في كل فكر، يعتبرهما الميتافيزيقي كل منهما معارض للأخرى. وهما متعارضتان حقا ولكن تعارضهما هو تعارض عمليتين لا يمكن الفصل بينهما لأن كلا من التحليل والتركيب يقوم أحدهما على الأخر. لأن التحليل هو البحث عن أجزاء الكل؛ ولكن الاجزاء انما هي أجزاء من كل، فليس هناك "أجزاء في ذاتها" *فالكل* إذن كائن في الأجزاء؛ وهكذا يحدد كل من التركيب والتحليل الاخر وأن كان كل منهما عكس الاخر.

وكذلك الامر في النظرية والتطبيق فهما قوتان متضادتان متفاعلتان تفاعلا جدليا: تتداخل كل منهما في الاخرى وتبعث كل منهما الخصب في الثانية.

---

89 لهذا يقال عن الثقافة أنها تربي الحساسية.

90 ماوتسي تونج: "حول التجربة" وكراسات الشيوعية، العدد ٢ شباط سنة ١٩٥١، ص ٢٤٣.

ولما كان الفكر جدليا، أمكنه فهم جدلية العالم (الطبيعة والمجتمع). فتنعكس ألوان التناقض في العالم الموضوعي، وإذا بحركة الفكر جدلية هي أيضا، شأنها كشأن جميع مظاهر الواقع.

وهكذا يغيب جوهر الواقع عن الفكر الذي يجهل التناقض، وان مجرد تعريف شيء ضئيل هو تعبير عن تناقض. فاذا قلت: "الوردة زهرة" جعلت من الوردة شيئا اخر غير نفسها فصنفتها في طائفة الازهار. وهذه بداية تفكير جدلي، لانني سوف أصل، عن طريق هذه الوردة، إلى الكون أجمع (وذلك لأننا نفهم أن كل شيء مرتبط بالاخر) ولسوف يكتفي الفكر غير الجدلي بالقول: "الوردة هي الوردة" وهذا لا يطلعنا على شيء من طبيعة صفات الوردة.

ومن المفيد، مع ذلك، التذكير، في بعض الاحيان، بأن الوردة هي وردة وليست عربة ذات مقاعد. وليس المنطق الاولي، غير الجدلي، الذي يعتمد على مبدأ التماثل (أ هي أ وليست أ غير أ) *خاطئا*. بل هو منطق جزئي يعبر عن المظهر المباشر السطحي للاشياء. فهو يقول: "الماء هو الماء"؛ و "البرجوازية هي البرجوازية" أما المنطق الجدلي فهو يدرك، وراء الظاهر الثابت، الحركة الداخلية والتناقض. فهو يكتشف أن الماء يحمل في احشائه ألوان التناقض التي تفسر لنا الانتقال من الماء إلى الهيدروجين والاوكسجين. وكذلك يحدد المنطق الجدلي البرجوازية بمعارضتها للبروليتاريا كما يحددها في تعدد العناصر التي تكونها (فهو يقول: "البرجوازية هي البرجوازية كطبقة مماثلة لنفسها ولكن هناك برجوازية ضد القومية وبرجوازية قومية لهما مصالح متناقضة نوعا ما).

وبعد فأن منطق التماثل المسمى بالمنطق الشكلي أو منطق عدم التناقض *ضروري وان كان غير كاف*. والتنكر لهذا المنطق انما هو تنكر للواقع. مثال: كتب جول موش في موازناته: *"يوجد في النظام الحالي طبقتان: هما الرأسمالية والبروليتاريا"*.

هذا قول لا معنى له. فـإذا كانـت البروليتاريـا *طبقـة* اجتماعيـة؛ فـان الطبقـة المناقضة للبروليتاريا هي طبقة البرجوازيـة وليسـت الرأسـمالية، التـي هـي *نظـام اجتماعي*. اذا أن المؤلف يضع في نفس الطائفـة حقـائق ليسـت مـن نفـس النـوع. فالطبقة الاجتماعية هي طبقة اجتماعيـة والنظـام الاجتمـاعي هـو نظـام اجتمـاعي. والخلط بينهما امتهان للمنطق الأولي الذي يقوم علـى تحديـد الالفـاظ التـي نسـتعملها وبالتالي يكون هذا القول امتهانا للمنطق الجدلي الـذي لا يسـمح بمثـل هـذا الخلـط، بل يعتبر التماثل مظهرا من مظاهر الواقـع لا يمكـن تجاهلـه بـدون تزويـر للواقـع ولا يعارض التناقض الجدلي أي شيء آخر فهـو يـرى أن القـط هـو قـط أولا وأن كان هذا لا يكفي لتحديد ماهية القط.

غير أن قول جول موش هـذا مفيـد لنـا. فهـو يـدل علـى أن رفـض الجدليـة ونضال الاضداد يؤدي إلـى رفـض المنطـق العـادي. ولهـذا يخاصـم المـزورون الرأي السليم بمعاداتهم للعلم لاسباب سياسية.

الدرس السابع

ميزة الجدلية الرابعة

نضال الأضداد (٣)

١ ــ ميزة التناقض الخاصة

لا يجب أن ينسينا شمول التناقضات المطلق ما تمتاز به التناقضات من ثراء لا حد له. ذلك لأن قانون الاضداد تعبير عام عن واقع يرتدي اشكالا متعددة في الواقع. ولا يكتفى الجدلي بتأكيد شمول نضال الاضداد كمبدأ لكل حركة، بل هو يدلل على تخصص هذا القانون حسب مظاهر الواقع المتعددة.

"يجب علينا، حين نعرض لكل شكل خاص من أشكال الحركة، أن نتبين علاقته بمختلف أشكال الحركة الأخرى. الأهم من ذلك، وهو أساس معرفتنا للأشياء، أن نرى ما لكل شكل من أشكال الحركة من ميزة خاصة، أي ما يميزه كيفيا عن سائر أشكال الحركة. وهكذا يمكننا أن نميز ظاهرة عن أخرى. ويحتوي كل شكل من أشكال الحركة على تناقضاته الخاصة به التي تكون طبيعة

الظاهرة التي تميزها عن الظواهر الأخرى. وهذا هو سـبب تنـوع الأشـياء المتعـددة وأساسه، كما هو سبب تنوع الظواهر الموجودة في العالم[91].

ويعني هذا أن تأكيد شـمول نضـال الاضـداد لا يكفـي. لأن العلـم هـو وحـدة النظرية والتطبيق. ولهذا يظهـر قـانون الاضـداد الشـامل بصـورة ملموسـة مـع خواص الحياة نفسها. وهكذا إذا وضعنا البيضـة فـي حـرارة معينـة مكنـا التنـاقض الداخلي الذي تمتاز به البيضة من النمو حتى تتفتح عن "النقف"

((Poussin)). وإذا غلينا ليترا من الماء، بـنفس الكميـة مـن الحـرارة، اختلفـت النتائج عن سابقتها. لكل مظهر من الواقع حركتـه الخاصـة بـه وتناقضـاته المميـزة له.

لا يتغير أي شيء إلى أي شيء آخـر. ولهـذا تتحـول حـرب معينـة إلـى سـلم معين. كما أن نظاما رأسـماليا معينـا لـه خواصـه فـي النمـو يحـل محلـه نظـام اشتراكي له هو أيضا خواصه المميزة. وهكذا يستمر *القديم* فـي الجديـد. ولهـذا كـان من الخطأ القول بأن نظاما اجتماعيا جديدا يقضي قضـاء مبرمـا علـى القـديم؛ ولكـن أليس هناك من مجال للتوفيق بين القـديم والجديـد، لأن الجديـد لا يمكـن أن يسـتقر الا بمعارضته للقديم. ولا يعني "تخطي" الاضداد الجمـع بينهـا، بـل انتصـار أحـدها على الآخر، انتصار الجديد على القديم.

وتفسر لنا طبيعة كل مرحلة مـن مراحـل الحركـة الماديـة تعـدد العلـوم مـن الفيزياء إلى علم الحياة (البيولوجيا) ومن علم الحيـاة إلـى العلـوم الانسـانية. ويجـب على كل علم أن يكشف عن التناقضات الخاصـة بموضـوعه ويفهمهـا. وهكـذا فـان القوانين الخاصة بالكهربـاء؛ والقـوانين الخاصـة بالطاقـة (والكهربـاء صـورة مـن صور الطاقة) لا تكفي لتحديد الكهرباء: بل يجـب القيـام بتحليـل ظـاهرة "الكهربـاء" تحليلا جدليا. ويحدث أن تثير كمية من الكهربـاء بعـض التفـاعلات الكيمائيـة؛ فـإذا

---

91 ماوتسي تونج: "حول التعارض" كراسات الشيوعية، العدد ٨٧ آب ١٩٥٢ ص ٧٨٨.

بنا أمام موضوع جديد له قوانينه الخاصة بـه؛ وكـذلك إذا مـا انتقلنـا مـن الكيميـاء إلى علم الحياة (البيولوجيا). ومن علـم الحيـاة إلـى الاقتصـاد السياسـي الـخ... ولا شك أن جميع مراحل الواقع تكون وحدة ولكن هذه المراحـل تختلـف كـل منهـا عـن الأخرى.

ولا يصدق هذا على مجموع العلوم، بل نلقى، فـي داخـل كـل علـم، الضـرورة لدراسة التناقضات الخاصة به. مثال: هناك حركـات خاصـة بالـذرة إذ حـين ينتقـل الفيزيائي من حركة الأجسام المرئية (كالكلـة التـي تسـقط) إلـى الحركـات الذريـة تبدو له قوانين جديدة هي موضوع علم الميكانيكـا المتموجـة. تتخـذ الجدليـة صـورة موضوعها كي تفهم حركة هذا الموضوع. وهكذا فـان الفـن صـورة مـن النشـاط لا يمكن رده إلى صور النشاط الأخرى، ولا سـيما إلـى العلـم (بـالرغم مـن أن الفـن وسيلة من وسائل المعرفة لأنه يعكس العالم). يوجـد إذن تناقضـات نوعيـة فـي هـذا الميدان كما في الميادين الأخرى؛ فإذا بالفنـان جـدلي بقـدر حلـه لهـذه التناقضـات؛ حتى إذا ما عجز عن حلها لم يكن فنانا. كتب الناقد الكبير بيالنسكي يقول:

"مهما كان الشعر مفعما بالأفكار الجميلة، ومهمـا صـور لنـا كـل العصـر فأنـه ليس شعرا إذا ما خلا من مضمون الشعر ولا يمكـن أن يحتـوي علـى أفكـار جميلـة أو أية مسألة أخرى؛ وكل ما نجده فيه قصد جميل لم يتحقق[٩٢]*"*.

فبينما يعبر العلم عن الواقع بواسـطة الافكـار إذا بالشـعر يعبـر عنـه بواسـطة الصور الخاصة التي تملك قوة كبرى على الإثـارة ولا يمكـن للفـن، أن يبلـغ هدفـه حقا: إلا إذا كان الفنان (الشاعر، الرسـام، الموسـيقي) قـادرا علـى السـيطرة علـى احاسيسه الأولى وعلى تعميم تأثراته؛ حتـى إذا مـا اخطـأ الأثـر الفنـي فـي ايجـاد الصور الخاصة بفكرة الفنان كان فاشلا.

---

92 بيالنسكي. مؤلفات مختارة ج ٣ من الطبعة الروسية ١٩٤٨.

يرجع الفضل للينين في اكتشاف التناقضات *الخاصة* بالرأسمالية في المرحلة الاستعمارية (ولا سيما اختلاف نمو البلاد الرأسمالية الذي ينشأ عنه نزاع قوي للوصول إلى اقتسام جديد للعالم بين المحظوظين وغيرهم) وذلك باعتماده على التحليل الماركسي للرأسمالية. فلقد دلل على أن هذه التناقضات تجعل الحرب لا بد منها وأنه يمكن لحركة البروليتاريا الثورية العالمية، تساندها حركة الشعوب المستعبدة القومية، أن تكسر، في مثل هذه الظروف، قيود الرأسمالية في أضعف موضع فيها.

وهكذا استطاع لينين أن يتنبأ بان الثورة الاشتراكية ستنتصر أولا في بلد أو عدة بلدان.

ويلح ستالين على القول، في كتاب *"مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي"* ــ إذ يبرهن على الطابع الموضوعي لقوانين الاقتصاد ــ على احدى ميزات هذه القوانين وهي أنها ليست دائمة:

"يختص الاقتصاد السياسي بميزة وهي أن قوانينه، على عكس قوانين الطبيعة، ليست دائمة؛ وأن اغلب هذه القوانين يؤثر خلال فترة معينة من التاريخ، ثم تحل محلها قوانين أخرى. ولا تزول هذه القوانين بل تفقد قوتها لظهور ظروف اقتصادية جديدة فتغيب ليحل محلها قوانين جديدة لا تبدعها ارادة الناس بل تنبعث من الظروف الاقتصادية الجديدة[٩٣]" .

وهكذا ظهر قانون القيمة مع ظهور الإنتاج التجاري لأن القيمة هي القانون الخاص بالانتاج التجاري ولسوف تزول بزواله. والقانون الخاص بالرأسمالية هو قانون فائض القيمة لأنه يحدد الميزات الأساسية للانتاج الرأسمالي. ولكن هذا القانون لا يمكن أن يكفي لتحديد المرحلة الحالية في الرأسمالية التي نمت فيها

93 ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي، آخر مؤلفاته، ص ٩٥ – ٩٦ المطبوعات الاجتماعية.

رأسمالية الاحتكار جميع امكاناتها فإذا بهذا القانون عام، فكان أن نص ستالين على القانون الخاص بالرأسمالية الحالية وهو قانون الربح الأقصى[٩٤].

ولا يمكن الا للدراسة الدقيقة للميزات الخاصة بجانب معين من الواقع أن تبتعد بنا على *التعصب الأعمى* الذي يدفعنا إلى تطبيق اطار واحد على أوضاع مختلفة تطبيقا آليا. ولهذا كان لينين ينصح الثوار بأن يكدوا اذهانهم في كل حين. إذ ليس الماركسي الصحيح هو من يعرف عن ظهر قلب مصادر الماركسية الكلاسيكية فيعتقد أنه يحل جميع المشاكل بواسطة بعض حلول نموذجية؛ بل الماركسي الصحيح هو محلل يستطيع استعراض كل مشكلة بصورة ملموسة دون أن يهمل أي عنصر ضروري لحلها. يجب *علينا، كي نعرف حقا أي شيء، أن نلم بجميع جوانبه وأن ندرس جميع علاقاته و "وسائطه". ولن نبلغ ذلك تماما قط، ولكننا إذا أوجبنا على أنفسنا استعراض الأشياء من جميع جوانبها فأننا نحفظ أنفسنا من الأخطاء ومن التحجر*[٩٥].

يكتفي المتعصب بالعموميات. فإذا ما صدر قرار عن نقابة من النقابات، مثلا، لم يعبأ بتطبيقه تطبيقا خاصا على مؤسسته وعلى كل مصنع في هذه المؤسسة كما أنه لا يحسب حسابا للمطالب الخاصة بكل طائفة من العمال.

لهذا التجريد نتائجه الخطيرة لأنه يفصل المناضلين عن جمهرة العمال. وهكذا فأن اقتصار حركة المقاومة الفرنسية على نضال المناضلين الأحرار والانصار المسلح تشويه لها وتنكر لطابع المقاومة الخاص وهو أنها كانت نضال الشعب الفرنسي الوطني بقيادة الطبقة العاملة وحزبها الا وهو الحزب الشيوعي. ومن

94 ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي، "آخر مؤلفات" ص ١٢٨. راجع حول الربح الأقصى الدرس الثامن عشر. المسألة الثانية ب.

95 ستالين: مرة أخرى حول النقابات.

جهل هذا الطابع الخاص للمقاومة عجز عن تقدير مختلف نواحيها تقديرا صحيحا ومنها هذه الناحية المهمة وهي نضال (P.F.T.)[٩٦].

وكذلك، كما يلاحظ ستالين في كتابه *"مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي"* بانه ليس غرض حركة السلم العالمية اقامة الشيوعية. بل أن جوهر هذه الحركة وقانونها الخاص هو توحيد ملايين الناس العاديين من أعداء الشيوعية وأنصارها للمحافظة على السلم؛ وهي لا تهدف في فرنسا إلى القيام بالثورة البروليتاريا بل إلى الانتقال من سياسة الحرب إلى سياسة المفاوضة. التناقض بين "سياسة الحرب وسياسة السلم" يختلف عن التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية" (بالرغم من أن الرأسمالية الاستعمارية مسؤولة عن سياسة الحرب).

يلح ماوتسي تونج في دراسته *"حول التناقض"* على ضرورة حل "التناقضات المختلفة كيفيا" بواسطة "طرق مختلفة كيفيا" فيقول: *"فالتناقض، مثلا، بين البروليتاريا والبرجوازية لا يحل بواسطة الثورة الاشتراكية. لأن التناقض بين الجماهير الشعبية وبين النظام الاقطاعي يحل بواسطة الثورة الديمقراطية. كما يحل التناقض بين المستعمرات وبين الاستعمار بواسطة الحرب القومية الثورية. وكذلك يحل التناقض بين طبقة العمال وطبقة الفلاحين بجعل الزراعة اشتراكية آلية. وتحل التناقضات في داخل الحزب الشيوعي بواسطة النقد والنقد الذاتي. كما تحل التناقضات بين المجتمع والطبقة بواسطة نمو قوى الإنتاج. وهكذا تتغير العمليات فتزول العمليات القديمة والتناقضات القديمة ليحل محلها عمليات جديدة وتناقضات جديدة، كما تتغير الوسائل لحل هذه التناقضات ايضا. ولهذا اختلفت*

---

96 لعله يعني بهذه الأحرف جبهة العمال والفلاحين (المعرب).

التناقضات التي حلتها ثورة شباط وثورة تشرين الأول في روسيا، كما اختلفت الوسائل المستخدمة في هاتين الثورتين لحل التناقضات[٩٧].

لأن حل مختلف التناقضات بطرق مختلفة مبدأ يجب على الماركسيين اللينينيين أن يحافظوا عليه محافظة شديدة[٩٨].

تنتهي هذه الملاحظات، فيما تنتهي إليه من نتائج، عملية، إلى النتائج التالية التي تتعلق بنشاط الحزب الثوري:

أ) لا يمكن للحزب الثوري، حزب ماركس ولينين و ستالين، أن يقوم بوظيفته العلمية في قيادة الحركة الا إذا اجتهد كل مناضل، فيما يخصه، باستعراض المهمات الملقاة على عاتقه وحلها، كما حاولت كل منظمة في الحزب وكل خلية استعراض المهمات الملقاة على عاتقها وحلها (سواء كان في المؤسسة أوالمنطقة أو الحي) فكل مناضل ذهن مفكر، وكل خلية مجموعة تفكر قبل أن تعمل.

ب) لا يمكن للحزب أن يقوم بوظيفته العلمية في الادارة الا إذا أمده كل مناضل بنصيبه وكل خلية بنصيبها من التجربة الخاصة بها فيقوم مجموع الحزب بالتوفيق بين جميع التجارب في منظماته النظامية. ولهذا توجب نظم الحزب

---

97 كان هدف ثورة شباط سنة ١٩١٧ القضاء على القيصرية. وكانت ثورة ديمقراطية برجوازية فطبق لينين والبلشفيك الطريقة الخاصة بهذه المشكلة: فقضوا على القيصرية باتحاد البروليتاريا مع طبقة الفلاحين وعزلوا البرجوازية الملكية التي كانت تحاول كسب الفلاحين إلى جانبها للقضاء على الثورة بالاتفاق مع القيصرية.

وكان هدف ثورة تشرين الأول سنة ١٩١٧ القضاء على البرجوازية الاستعمارية والخروج من الحرب الاستعمارية وتأسيس دكتاتورية البروليتاريا. فكانت بذلك ثورة اشتراكية. ولهذا طبق لينين والبلشفيك الطريقة الخاصة بهذه المشكلة. فقضوا على البرجوازية الاستعمارية بتحالف البروليتاريا مع طبقة الفلاحين المساكين وشلوا بذلك عدم استقرار البرجوازية الصغيرة (من البلشفيك والاشتراكية الثوريين) التي كانت تحاول كسب الفلاحين والعمال إلى جانبها للقضاء على الثورة بالاتفاق مع الاستعمار. راجع حول هذا الموضوع ستالين: "حول مبادىء مذهب لينين" "الستراتيجية والتكنيك".

98 ماوتسي تونج: "حول التناقض" ص ٧٩٠.

الشيوعي في الاتحاد السوفياتي على كل شيوعي أن يقول *الحقيقة* دائما لحزبه[99] لأن تجربة كل مناضل، وكل خلية انما هي شيء لا يستعاض عنه. من ذا الذي يقول للحزب، مثلا، مطالب شباب قرية من القرى إذا جهل الشاب الشيوعي هذه المطالب؟

ج) لا يمكن للحزب أن يقوم بوظيفته العلمية في الادارة إلا اذا أحتفظ اعضاؤه بعلاقة وثيقة مع جماهير العمال فكانوا، حقا، أهلا لتقدير جميع الناس. والا فكيف يمكنهم، بدون هذه العلاقة الدائمة، معرفة مشاكل كل طبقة من السكان، وحل التناقضات الخاصة بفترة معينة من الزمن؟

والحزب الذي يهمل هذه الواجبات أنما يعرض مستقبله للخطر ويفقد قيادة الحركة العمالية.

٢ – العَام والخَاص مُتَلازمَان

الحجنا على القول بضرورة دراسة الطابع الخاص بالتناقضات الملموسة. ومن البديهي أن هذه الدراسة تفقد كل صفة جدلية لها إذا جعلتنا ننسى أن الخاص ليس مطلقا بل هو نسبي وأنه لا معنى له إذا ما فصلناه عن ما هو عام.

مثال: قلنا في الجزء الأول من هذا الدرس أن هناك قانوناً خاصاً بالرأسمالية (قانون فائض القيمة) وقانوناً خاصاً بالرأسمالية الحالية (قانون الفائدة القصوى). ولكن هذا الا يقضي على مفعول قانون أعم وهو القانون الذي ظهر مفعوله منذ وجود المجتمعات الإنسانية ولا يزال يبدو من خلال مختلف النظم الاجتماعية كما يذكر ذلك ستالين في كتابه *"مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي"*: وهو قانون الاتصال بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج (وستكون دراسة هذا

99 انظمة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، المسألة ٣.

القانون موضوع الدرس السادس عشـــر). يتعــرض التحليــل الجــدلي الصـــالح، إذن، لتحليل الطابع الخاص بعملية معينة ولا يمكن هذا الا إذا لم يعــزل هــذه العمليـــة عــن حركة المجموع الذي يتوقف عليه وجودها (راجع الميــزة الاولـــى للجدليـــة). لأن مـــا هو خاص لا تصبح له قيمة ما إلا بالنسبة لما هو عام. وهكذا يكـــون مـــا هـــو خـــاص وما هو عام متلازمين[١٠٠].

لما كان الخاص مرتبطا بالعام، ولما كان مـــاهو خـــاص فـــي التنـــاقض ومـــا هـــو عام متلازمين في كل ظاهرة فأن العام كائن في الخاص. ولهـــذا فـــنحن حـــين نـــدرس ظاهرة معينة يجب علينا اكتشاف هـــذين المظهـــرين وعلاقتهمـــا المتبادلـــة، اكتشـــاف ما هو خاص وما هو عام، ما هو ملازم لظـــاهرة معينـــة والعلاقـــة المتبادلـــة بينهمـــا، اكتشاف العلاقة المتبادلة بـــين ظـــاهرة معينـــة والعلاقـــة المتبادلـــة بينهمـــا، اكتشـــاف العلاقة المتبادلة بين ظاهرة معينـــة والظـــواهر المتعـــددة الأخـــرى الخارجيـــة. يحلـــل ستالين في كتابه الرائع عن "مبادىء مذهب لينين" تناقضـــات الرأســـمالية التـــي بلغـــت أقصى حد لها في ظل الاستعمار، كمـــا يشـــرح الأصـــول التاريخيـــة لمـــذهب لينـــين. وهو يدلل كيف جعلت هذه التناقضـــات الثـــورة البروليتاريـــة مســـألة تطبيـــق عملـــي مباشر وكيف أوجدت الظروف الملائمـــة للوثـــوب المباشـــر علـــى الرأســـمالية. وهـــو يحلل، فوق ذلك، الأسباب التي من أجلهـــا أصـــبحت روســـيا مركـــز مـــذهب لينـــين، وكيف أن روسيا القيصرية كانت آنذاك عقـــدة جميـــع تناقضـــات الرأســـمالية، ولمـــاذا أمكن للبروليتاريا الروسية أن تصبح طليعة البروليتاريا الثورية العالمية.

---

100 يمكن أن نلاحظ أن نفس العملية عامة أو خاصة حسب الحالات. فقانون فائض القيمة خاص بالرأسمالية بينما قانون الاتصال الضروري بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج عام (وهو يصح أيضا على مجتمع الرقيق. مثلا، كما يصح على المجتمع الرأسمالي) بينما قانون فائض القيمة عام بالنسبة للمظاهر الملموسة الخاصة التي يرتديها في مختلف مراحل الرأسمالية فهو بهذا يتصف بشمول أوسع من قانون الربح الأقصى. أما قانون الاتصال الضروري بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج فأنه خاص بالمجتمعات.

وهكذا برهن ستالين، بعد أن حلل ما هو عام في التناقضات الخاصة بالرأسمالية، على أن مذهب لينين هو مذهب ماركس في عصر الاستعمار والثورة البروليتارية، كما شرح، بعد أن حلل ما هو خاص بالتناقضات العامة وما هو خاص برأسمالية روسيا القيصرية، الأسباب التي جعلت روسيا تصبح موطن نظرية الثورة البروليتارية ومحل تطبيقها، وأن هذا الخاص كان يحتوي على ما كان عاما في التناقضات المذكورة.

هذا التحليل الستاليني هو، بالنسبة إلينا، نموذج لمعرفة ما هو خاص وما هو عام في التناقضات والعلاقة المتبادلة بين كل منهما[101].

لا يعرف الميتافيزيقي كيف يبقي على هذه العلاقة بين ما هو خاص وما هو عام بل هو يضحي الخاص في سبيل العام (وهذا ما تفعله نزعة أفلاطون العقلية التجريدية، مثلا، التي تحتقر التجربة العيانية) أو يضحي العام من أجل الخاص. (كالنزعة التجريبية التي ترفض كل فكرة عامة وتقتصر على التجربة المحدودة).

تعتبر نظرية المعرفة الماركسية مثل هذا الموقف موقفا منافيا للجدلية وهو موقف من جانب واحد. وذلك لأن المعرفة تعتمد على الحسي المحدود الذي يعكس وضعا خاصا، ولكنها تصل إلى ما هو عام بواسطة التطبيق العملي لتعود من ثم إلى الحسي وقد اكتسبت قوة جديدة.

لا يملك الفيزيائي مثلا، في أول الأمر، سوى عدد محدود من الوقائع المجربة؛ فيرتفع منها إلى القانون الذي يسمح له اكتشافه بتغيير الواقع تغييرا عميقا بواسطة تجارب جديدة. ومرحلتا المعرفة متلازمتان: فهي تبدأ من الخاص إلى العام ومن العام إلى الخاص وهكذا دواليك. وقد شبه لينين هذه الحركة بالحركة اللولبية (en spirale): نبدأ من التجربة المباشرة الحسية (كشراء بضاعة ما مثلا)، فنحلل عملية الشراء هذه لنكتشف قانون القيمة، *فنعود* من ثم

101 ماوتسي تونج "حول التناقض" ص ٨٩٨.

إلى التجربة العيانية (الحركة اللولبية). ولكننا *نفهم الآن* وقد تسلحنا بقانون القيمة، هذه التجربة التي فاتنا مغزاها العميق في المرحلة الأولى: نستطيع الآن التنبؤ بتطور العملية؛ وأن نهيء الظروف التي تعمل على الحد منها أو اتساعها. الخ.. ونحن لن ندرك العام إذا لم نبدأ بالخاص ولكن ادراك العام يتيح لنا، من جهة ثانية، تعمق الخاص. وهكذا ليست الحركة اللولبية حركة عود على بدء عقيمة بل هي تعمق للواقع. ولهذا فقد اكتشف ماركس، في دراسته للتناقضات الخاصة بالرأسمالية في عصره، قانون الصلة بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج العام. وهكذا أتاح لنا فهم التناقضات الخاصة بالنظم الاجتماعية السابقة على الرأسمالية، لأن هذه التناقضات تتعلق بقانون الترابط العام؛ كما أنه جعل من الممكن دراسة الرأسمالية نفسها دراسة أعمق في حركتها التالية (رأسمالية الاحتكار، والاستعمار).

ويكون الفنان *عظيما* بقدر معرفته التعبير عن العام من خلال الخاص في سعيه لبلوغ ما هو نموذجي. (راجع المسألة من هذا الدرس).

فلقد عبر اليوار عن حزن باريس المحتلة على يد النازيين في هذين البيتين من الشعر من خلال حادثة بسيطة تقع كل يوم:

باريس ترتعد من البرد، باريس تتلوى من الجوع

باريس لم تعد تأكل الكستناء في الشوارع[102]

ونرى في حياة أفضل ما رسمه بلزاك وتولستوي من شخصيات انعكاس الميزات الاساسية لمجتمع عصر كل منهما. وتربط رواية ج. نيقويفا: *"الحصاد"*، بصورة رائعة، تاريخ أشخاصها الشخصي والعائلي بتاريخ كولخوز وتاريخ المجتمع السوفياتي. وتنحل التناقضات الشخصية التي كان يعانيها أبطال الرواية خلال انحلال التناقضات التي كانت تعيق تقدم الكولخوز. وهكذا يضمن كل من

102 مختار من "قصيدة شجاعة" (١٩٤٢) في "لقاء مع الألمان".

فاسيلي وافدويتا انتصار المستقبل على الماضي بنضالهما لضمان انتصار المستقبل على الماضي في الكولخوز.

أوليست هذه الوحدة بين العام والخاص هي ما يمتاز به الأبطال الذين يحبهم الشعب؟ كتب جنود كتيبة، في حزيران عام ١٩١٧ إلى لينين يقولون:

"أيها الرفيق الصديق لينين" تذكر أننا نحن جنود هذه الكتيبة مستعدون للسير وراءك كرجل واحد في كل مكان لأن آراءك هي التعبير الصحيح عن ارادة الفلاحين والعمال".

وتتجسد في ستالين اخص خلائق الإنسان السوفياتي.

ولقد أثار جوليوس واتيل روزنبرج عطف الناس في العالم أجمع لأن ضخامة التضحيات التي رضيا بها (التضحية بشبابهما واولادهما وسعادتهما) دلت على حب الناس الذي لا يقهر للسلام.

٣ – التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي

سوف نرى بوضوح، بعد أن أدركنا قوة الصلة بين الخاص والعام، العلاقات بين التناقض الرئيسي وبين التناقضات الثانوية. وذلك لأن أية عملية ما ليست بسيطة قط لأنها تدين بوجودها الخاص إلى عدد كبير من الشروط الموضوعية التي *تصلها بالمجموع*. ينتج عن ذلك أن كل عملية هي محل *سلسلة من التناقضات*. ومن بين هذه التناقضات، تناقض رئيسي يوجد منذ بداية العملية حتى نهايتها ويحدد وجوده وتطوره طبيعة سير العملية. أما الاخريات فهي تناقضات ثانوية تتعلق بالتناقض الرئيسي.

فما هو، مثلا، التناقض الرئيسي في المجتمع الرأسمالي؟ لا شك أنه التناقض بين البروليتاريا وبين البرجوازية. طالما وجدت الرأسمالية طالما وجد معها هذا التناقض؛ وهو الذي يقرر، في نهاية الأمر، مصير الرأسمالية لأن إنتصار البروليتاريا يؤذن بزوال الرأسمالية. ولكن إذا نظرنا للمجتمع الرأسمالي في

تطوره التاريخي وجدنا فيه تناقضات أخرى ثانوية بالنسبة للتناقض الرئيسي. مثلا: التناقض بين البرجوازية السائدة وبين بقايا الاقطاعية الزائلة؛ والتناقض بين طبقة الفلاحين الكادحة (من صغار الملاكين، والخدم، والمأجورين) وبين البرجوازية، وكذلك التناقض بين البرجوازية والبرجوازية الصغرى والتناقض بين البرجوازية المحتكرة والبرجوازية غير المحتكرة، الخ... وسائر التناقضات التي تنشأ وتنمو في تاريخ الرأسمالية نفسها. ولما كان هذا النمو يتم في الميدان العالمي، وجب اعتبار التناقضات بين مختلف البلاد الرأسمالية كالتناقض بين البرجوازية الاستعمارية والشعوب المستعمرة.

ولا تتراكم هذه التناقضات كل منها فوق الأخر، بل هي تتداخل وتتفاعل حسب قانون الجدلية الأولى. فما تأثير هذا التفاعل؟ تزداد أهمية تناقض ثانوي؛ في بعض الأحوال، فيصبح لفترة معينة، تناقضا رئيسيا بينما يصبح التناقض الرئيسي الأول ثانويا (ولا يعني هذا زوال تأثيره) فليست التناقضات، إذن متحجرة بل هي تتغير.

وهكذا يصبح التناقض بين البرجوازية والبروليتاريا، في البلاد المستعمرة، ثانويا لفترة معينة، بالرغم من خطورته إذ ينحل بانتصار الاشتراكية في هذه البلاد. فيصبح التناقض بين الاستعمار المستعمِر وبين الأمة المستعمَرة (كطبقة العمال، والفلاحين والبرجوازية القومية التي تتحدد في جبهة قومية للنضال من أجل التحرر) رئيسيا.

ولا يقضي هذا على الوان النضال بين الطبقات داخل البلاد المستعمِرة. (لا سيما وأن فريقا من البرجوازية في البلاد المستعمِرة حليف للاستعمار المستعمر). غير أن التناقض الذي يجب حله أولا هو التناقض الذي يثيره الاستعمار ويحله النضال القومي من أجل الاستقلال.

يوضح لنا ستالين في كتابه: *"مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي"* بصورة رائعة مشكلة انتقال التناقضات بصدد المسألة الألمانية التي تهم شعبنا كثيراً[١٠٣].

فهو يذكرنا أولا بأن الرأسمالية تحتوي على تناقضات داخلية خاصة وهي تناقضات موضوعية تظل ما ظلت الرأسمالية. وتدفع هذه التناقضات البرجوازية إلى البحث، في الحرب الأستعمارية، عن حل لمصاعبها.

فينتج عن ذلك، بصورة حتمية، أن مختلف البلاد الرأسمالية بعضها لبعض عدو مبين.

ولهذا كان الاعتقاد، بأن سيطرة الرأسمالية الأميركية على سائر البلاد الرأسمالية يضع حدا للتناقضات الكامنة في الرأسمالية كرأسمالية، وهماً من الأوهام. وليس لأي ميثاق كميثاق الاطلنطيك أو أي تحالف عدائي ضد روسيا أن يقضيا على هذه التناقضات. ويظهر ستالين لنا كيف أن البرجوازية الانجليزية والبرجوازية الفرنسية لا تستطيعان احتمال سيطرة الرأسمالية الاميركية على الاقتصاد في كل من بلديهما إلى ما لا نهاية. وكذلك الحال في البلاد المغلوبة كالمانيا واليابان.

ويمكن لكل واحد منا أن يتحقق، اليوم، إلى أي حد كان ستالين صادقا في قوله.

فلقد ازدادت خطورة التناقضات بين البلاد الرأسمالية (ولا سيما بين الولايات المتحدة وبين بريطانيا العظمى) بصورة هائلة منذ الوقت الذي أصدر فيه ستالين حكمه. (شباط سنة ١٩٥٢ ــ حتى أن فريقا من البرجوازية الانجليزية والفرنسية

---

103 وهذا نص رئيسي: ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" آخر مؤلفات. ص ١٢٢ – ١٢٦.

تفضل الأتفاق مع الاتحاد السوفياتي على القضاء عليه في حرب ضد الاتحاد السوفياتي تحت قيادة أميركة. وهكذا يمكننا فهم أهمية حكم ستالين.

"يقولون أن التناقضات بين الرأسمالية والاشتراكية *أقوى من التناقضات الكائنة بين البلاد الراسمالية. وهذا صحيح من الناحية النظرية، ولا يصح هذا اليوم فقط بل كان هذا صحيحا قبل الحرب العالمية الثانية. وهذا ما أدركه زعماء البلاد الرأسمالية ومع ذلك لم تبدأ الحرب العالمية الثانية بمحاربة الاتحاد السوفياتي. فلماذا؟ لأن الحرب ضد الاتحاد السوفياتي في بلاد الاشتراكية، هي أولا، أخطر بالنسبة للرأسمالية من الحرب بين البلاد الرأسمالية، لأنه إذا كانت الحرب بين البلاد الرأسمالية تثير فقط مشكلة سيطرة بعض البلاد الرأسمالية على الأخرى، فأن الحرب ضد الاتحاد السوفياتي تثير بالضرورة مسألة وجود الرأسمالية نفسها. ولأنه، بالرغم من أن الرأسماليين يثيرون الضجيج حول نزعة الاتحاد السوفياتي العدائية، على سبيل "الدعاية"، فهم لا يؤمنون بهذا هم أنفسهم لأنهم يحسبون حساب سياسة الاتحاد السوفياتي السلمية، ويعرفون أن الاتحاد السوفياتي لن يهاجم البلاد الرأسمالية*[104].

ويستعرض ستالين الحوادث السابقة على الحرب العالمية الأولى، إذ مهما كان عداء البلاد الرأسمالية نحو البلاد الاشتراكية، فأن ألمانيا الاستعمارية (التي جددتها البرجوازية الانجليزية والفرنسية أملا في أطلاق الجحافل الهتلرية ضد الاتحاد السوفياتي) قد وجهت أولى ضرباتها إلى المجموعة الرأسمالية المؤلفة من انجلترا وفرنسا وأميركا. *حتى إذا ما أعلنت ألمانيا الهتلرية الحرب على الاتحاد السوفياتي، اضطرت هذه المجموعة، بدلا من أن تنضم إلى ألمانيا الهتلرية، إلى التحالف مع الاتحاد السوفياتي ضد ألمانيا الهتلرية*[105].

---

104 ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية (في الاتحاد السوفياتي" آخر مؤلفات ص ١٢٤

105 نفس المرجع، ص ١٢٥.

نستخلص من ذلك *أن نضـــال الــبلاد الرأســمالية مـــن أجــل امــتلاك الأســواق، ورغبتها في القضاء علـــى منافســيها كانـــا أقـــوى مـــن التناقضـــات بـــين المعســكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي*[١٠٦].

يجب علينا أن ننتظر مثل هذا الانتقال بين التناقضـــات، فيصـــبح تنـــاقض ثـــانوي، لفترة ما، التناقض الرئيسي وما يتبع من نتائج عملية وهما نتيجتان:

أ) تهدف اعادة تسليح الجــيش الالمـــاني (Wehrmacht) علـــى يـــد القـــواد مـــن مجرمي الحرب، بالاشتراك مع البرجوازية الفرنســية، إلـــى الاعتـــداء علـــى الاتحـــاد السوفياتي. ولكن كمـــا أن هتلـــر احتـــل بـــاريس عـــام ١٩٤٠ قبـــل أن يســـير إلـــى موسكو، وكذلك يستعد مجرمـــو اورادور إلـــى احـــتلال بلادنـــا (فرنســـا) وتخريبهـــا، مرة أخرى، لحل مشاكلهم الاقتصادية.

وليس هناك من مجال للشك فـــي سياســـة ادينـــاور، حـــامي النـــازيين وشـــريكهم، بهذا الصدد. وكذلك يجب فهم ايزنهاور حـــين يصـــرح بقولـــه: *"مـــن مصـــلحتنا، كمـــا أن مهمتنا، اعداد الجيش الألماني ليهجم في الاتجـــاه الـــذي نـــراه، نحـــن الأميـــركيين، ضروريا"*. وأن فرنســـا التـــي انهكتهـــا الحـــرب فـــي الهنـــد الصـــينية وعبـــث بهـــا الاستعمار الأميركي لفريسة أهون علـــى البرجوازيـــة الالمانيـــة أن تلتهمهـــا (بعـــد أن استعادت مكانتها بفضـــل البرجوازيـــة الفرنســـية ؟) مـــن التهـــام الاتحـــاد الســـوفياتي القوي.

ب) تزداد أهمية التناقضات بين الـــبلاد الرأســـمالية بحيـــث يصـــبح مـــن الصـــعب على الاستعمار الأميركي أن يفرض ســـلطته فـــي هـــذه المأســـدة. ومـــا التـــأخر فـــي الموافقة على اتفاقات بون ومعاهدة باريس الا مثال على ذلك.

ولما كانت الدبلوماسية الســـوفياتية تســـيطر تمامـــا علـــى جدليـــة الأضـــداد فانهـــا تستفيد إلى أقصى حد من التناقضـــات بـــين الرأســـماليين (فيعمـــل الاتحـــاد الســـوفياتي

---

106 نفس المرجع، ص ١٢٥.

على نمو تجارته مع انجلترا الرأسمالية). وهكذا يكون التعايش السلمي بين النظم المختلفة ثمرة نضال تقوم فيه التناقضات الداخلية للرأسمالية، وأن كانت ثانوية بالنسبة للتناقض الرئيسي بين الرأسمالية والاشتراكية، بدور مهم.

وإذا ما طبقنا هذه الطريقة في التحليل على فرنسا اليوم لظهرت لنا مجموعة معقدة جدا من التناقضات: كالتناقض بين البروليتاريا والبرجوازية؛ والتناقض بين البرجوازية الصغيرة (في المدن والقرى) والبرجوازية الكبيرة، والتناقض بين طوائف البرجوازية المتعادية؛ الخ.. كما أن هناك التناقض، في الميدان الخارجي، بين الاستعمار الفرنسي والشعوب المستعمرة التي يستغلها؛ والتناقض بين الاستعمار الفرنسي وسائر ضروب الاستعمار (كالاستعمار الأميركي والاستعمار الألماني الجديد).

كذلك التناقض بين الرأسمالية الفرنسية والاشتراكية.

فهل يمكننا أن نجعل جميع هذه التناقضات على مستوى واحد؟ كلا. لأننا إذا نظرنا إلى المجتمع الفرنسي المعاصر في مجموعه وجدنا أن التناقض الرئيسي هو النضال بين البروليتاريا والبرجوازية، ذلك النضال الذي يخترق تاريخ فرنسا ضد انتصار الثورة البرجوازية كخيط أحمر، وسوف تقرر خاتمة هذا النضال مستقبل البلاد بانتصار الاشتراكية. ولقد استعانت البرجوازية الرأسمالية بالاستعمار الأميركي لحمايتها. فتنكرت بذلك لمصالح الأمة. لأن سياستها الطبقية تجعلها تقف في وجه البروليتاريا الثورية ووجه سائر الطبقات، ومنها تلك الطائفة من البرجوازية التي لا تستفيد من سيطرة اميركا. ينتج عن ذلك *أن ينمو التناقض الثانوي* الذي نشأ عن التناقض الرئيسي (وهو وقوف الاستعمار الأميركي والبرجوازية ضد الأمة الفرنسية بقيادة الطبقة العاملة) ولقد ازدادت أهمية التناقض الثانوي *حتى أصبح، لفترة ما، التناقض الرئيسي*. ولهذا فأن المهمة الملقاة على عاتق الشيوعيين، حاليا، وهم طليعة الطبقة العاملة في الأمة،

هي حل هذا التناقض برفع لواء الاستقلال القومي، الذي تدوسه البرجوازية المنحطة بارجلها، في جبهة قومية.

يتضح أن الحزب الثوري الذي لم يتسلح كفاية نظريا لا يمكنه أن يفهم الحركة المتبادلة بين التناقضات ويتنبأ بها. فيصبح عالة على الحوادث.

٤ – المظهر الرئيسي والمظهر الثانوي للتناقض

لا تقوم دراسة الميزة الخاصة بالتناقضات في حركتها على التمييز بين التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية بل هي تؤدي أيضا إلى اظهار أهمية كل من المظهرين النسبية في كل تناقض.

ويحتوي كل تناقض بالضرورة على مظهرين يحدد تناقضهما التطور الذي ندرسه. ولا يجب أن نضع هذين المظهرين ــ أو هذين القطبين ــ في مستوى واحد. ولنمثل على ذلك بالتناقض أ ضد ب و ب ضد أ. إذا كانت أ و ب قوتين متساويتين دائما لم يحدث أي شيء إذ تتعادل القوتان إلى ما لا نهاية وتتوقف كل حركة. هناك دائما، إذن، قوة تتغلب على الأخرى ولو قليلا فينمو بذلك التناقض. نطلق اسم المظهر الرئيسي للتناقض على المظهر الذي يقوم بدور رئيسي، في وقت ما، أي أنه يحدد حركة الاضداد المتنازعة. والمظهر الثاني هو المظهر الثانوي.

ولما كان كل من التناقض الرئيسي والتناقض الثانوي يمكنهما أن يغيرا مكانهما ــ فينتقل التناقض الثانوي ويحتل المكان الرئيسي ــ كذلك فان وضع المظهر الثانوي والمظهر المتبادل في تناقض ما متحرك فيتحول المظهر الرئيسي، في بعض الظروف، إلى مظهر ثانوي كما يتحول المظهر الثانوي إلى مظهر رئيسي.

فالماء الذي تحدثنا عنه في الدرس الرابع محل لتناقض بين قوة الجمع التي تنزع لجمع الجزيئات وقوة التفريق التي تنزع لابعادها. فالمظهر الرئيسي

للتناقض، في حالة تجمد الماء، هو قوة الجمع، بينما المظهر الرئيسي في حالة تحول الماء إلى بخار هو قوة التفريق. أما حالة السيولة فهي حالة توازن غير مستقر بين القوتين.

ولقد كان مظهر التناقض الرئيسي، في فرنسا، في العهد القديم، بين الاقطاعية والرأسمالية هو مظهر "الإقطاعية". ولقد نمت البرجوازية الرأسمالية في نضالها ضد العلاقات القديمة للإنتاج بصورة جعلتها تفرض سيطرة علاقات جديدة رأسمالية. وهكذا أصبحت هذه العلاقات، بعد أن كانت مظهرا ثانويا؛ المظهر الرئيسي.

ملاحظة مهمة

رأينا أن التحول الكيفي يحدث (راجع الدرس الرابع) *حين يتغير وضع كل من مظهري التناقض بصورة جذرية فيصبح المظهر الرئيسي ثانويا، ويصبح المظهر الثانوي رئيسيا، وكذلك تتفرق الوحدة القديمة ليحل محلها وحدة جديدة من الاضداد.*

ولهذا فأن تحديد المظهر الرئيسي أساسي لأن هذا المظهر هو الذي يحدد حركة التناقض. والمظهر الرئيسي للتناقض الرئيسي. تلك هي النقطة الحساسة في التحليل الجدلي. ولا يعني هذا أن المظهر الثانوي لا فائدة منه. لأنه إذا نظرنا إلى النضال بين القديم والحديث لوجدنا الحديث، عند ظهوره، شديد الضعف، فهو ليس سوى المظهر الثانوي للتناقض. ولكن المستقبل له لأنه حديث؛ فسوف يصبح المظهر الرئيسي وسوف يؤدي انتصار إلى تغيير كيفي.

وإذا مادرسنا المادة التاريخية رأينا كيف أن الإنتاج يتطور على أساس تناقض رئيسي بين علاقات الإنتاج وميزة قوى الإنتاج، وكيف أن المظهر الرئيسي لهذا التناقض يكون تارة قوى الانتاج وتارة علاقات الإنتاج (راجع الدرس السادس عشر).

وهناك مثلا اخر:

يكون التطبيق الاجتماعي والنظرية الثورية وحدة من الأضداد يؤثر كل منها في الاخر. والمظهر الفعال، إذا نظرنا إلى العملية خلال فترة طويلة من الزمن، هو التطبيق: ولهذا لم تتكون الماركسية ولم تتقدم الا بفضل نضال البروليتاريا الموضوعي، ولكن يصبح، في فترة معينة، المظهر الثانوي رئيسيا ويصبح للنظرية قيمة خطيرة، وهكذا لو أن الحزب البولشفيكي عام ١٩١٧ لم يكن محقا في تقديره النظري للحالة الموضوعية لما استطاع أن يصدر الاوامر الخاصة بهذه الحالة؛ ولما استطاع تجنيد الجماهير وتنظيمها للقيام بهجومها المظهر، ولاصبح مستقبل الحركة الشيوعية في روسيا مزعزعا لمدة طويلة. ولهذا ليس المظهر النظري مهماً فقط بل هو يصبح المظهر الرئيسي في بعض الأحوال.

فنحن حين نقول مع لينين: *"بأنه لا وجود للحركة الثورية بدون النظرية الثورية"* يقوم كل من ابداع النظرية الثورية واشاعتها بالدور الرئيسي. وهكذا يصبح اعداد التوجيه والمنهج ووضع الخطط واصدار التعليمات لتنفيده شيئا أساسيا عند تنفيذ كل أمر، وتمس الضرورة إلى التوجيه والمنهج والخطط والتعليمات[١٠٧].

وهكذا يتفاعل العامل الموضوعي مع العامل الذاتي ولهذا وجب تقدير أهمية كل منهما النسبية في كل وقت.

فهل تقلل هذه النظريات من قيمة المادية؟ كلا. لأننا نجد عبر مجرى التطور التاريخي، أن المبدأ المادي يحدد المبدأ الروحي، والكائن الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي، كما نجد تأثير المبدأ الروحي على المبدأ المادي، وتأثير الوعي الاجتماعي على الكائن الاجتماعي[١٠٨].

---

107 ماوتسي تونج: "حول التناقض" ص ٨٠٥.

108 نفس المرجع ص ٨٠٥.

ويلاحظ ماوتسي تونج أن ذلك يعني أفضلية المادية الجدلية على المادية الآلية (الميكانيكية) (*الميتافيزيقية* لأن العنصر الرئيسي فيها يظل رئيسيا كما يظل العنصر الثانوي ثانويا مهما تبدلت الظروف والاحوال).

٥ – خلاصَة عَامّة عَن التنَاقض

الجدلية هي دراسة التناقض في جوهر الأشياء نفسها[109].

ويلح لينين على أهمية هذا القانون الرابع العظيمة التي يعتبرها أسس الجدلية. ولهذا يصيب العجز عن فهم هذا القانون الاشتراكية في الصميم. وأشهر مثال على ذلك هو برودون. فلقد صنف ماركس، في *"بيان الحزب الشيوعي"* برودون ضمن الاشتراكية المحافظة أو البرجوازية.

إذ يسعى الاشتراكيون البرجوازيون لتأمين ظروف المجتمع الحديث بدون النضال من أجل ذلك وما يتبع ذلك النضال من أخطار لا مفر منها. فهم يريدون المجتمع الحالي من العناصر التي تبعث فيه الثورة وتؤدي إلى انحلاله، أي أنهم يريدون البرجوازية بدون البروليتاريا[110].

ويعتبر برودون وحدة الاضداد كوحدة بين الصالح والطالح. لهذا يريد أن يزيل الطالح ويحتفظ بالصالح، وهذا نكران للطابع الداخلي للتناقض: لأن التناقض بين البرجوازية والبروليتاريا هو الذي يكون المجتمع الرأسمالي، ولا يمكن للاستغلال الرأسمالي أن يزول الا بزوال هذا التناقض. ولهذا كان *التوفيق بين مصالح* طبقات متناقضة في الاساس ضربا من الوهم. ويعرف ماركس برودون بقوله: *كان يريد التحليق، كرجل علم، فوق البرجوازيين والبروليتاريين؛*

---

109 لينين: كراسات فلسفية.

110 ك. ماركس. ف. انجلز: "بيان الحزب الشيوعي" ص ٥٦ – ٥٧. المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥١.

وهو بهذا ليس سوى ذاك البرجوازي الصغير الذي يتنازعه كل من رأس المال والعمل"[111].

يؤدي هذا الجهل للجدلية ببرودون إلى النزعة الاصلاحية، وإلى إنكار العمل الثوري أي النضال الطبقي. ولهذا لا نعجب من كتابه للإمبراطور نابوليون الثالث (في رسالة ١٨ أيار ١٨٥٠):

"دعوت إلى التوفيق بين الطبقات رمز التوفيق بين العقائد" أو أن يكتب في كراسة ملاحظاته عام١٨٤٧:

"يجب أن أحاول التفاهم مع جريدة (Le Moniteur lndustriel) وهي صحيفة الأسياد، بينما تصبح جريدة "الشعب" صحيفة العمال: كما يصرح بعد انقلاب بادنجيه.

"لويس نابوليون هو، كعمّه، دكتاتور ثوري، مع هذا الفارق وهو أن القنصل الأول ختم الطور الأول للثورة، بينما يفتتح الرئيس الطور الثاني".

ويحاول الزعماء الاشتراكيون كبلوم (مؤلف على "المستوى الإنساني" وجول موش في "موازناته" التي تحدثنا عنها في درس سابق) أن يرقعوا مذهب برودون بحجة احترام "القوانين العامة للتوازن والاستقرار".

وبهذا يفسرون لنا *استسلامهم* أمام البرجوازية وتصرفهم على أنهم "المشرفون الأمناء على الرأسمالية" ويعني "نضالهم" المزعوم على "جبهتين" وتكوينهم "القوة الثالثة" في زعمهم، الاستسلام ووضع البروليتاريا تحت رحمة البرجوازية. ولهذا كانت الاشتراكية الديمقراطية تعني الانتهازية على طول الخط، فوجب على البروليتاريا محاربتها بدون هوادة إذا أرادت قهر عدوها الطبقي.

واشتراكية ماركس وانجلز ولينين وستالين العلمية هي وحدها الاشتراكية الثورية لأنها تقدم نضال الاضداد على كل شيء، وذلك لأنه قانون أساسي

---

111 ماركس: "شقاء الفلسفة" ص ١٠١، المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٧.

للواقع. ولهذا تحارب بدون شفقة "نقيض" البروليتاريا الثورية الا وهي البرجوازية الرجعية كما تحارب زعماء الاشتراكية الديمقراطية الذين يحاولون اخفاء التناقضات ليقضوا على البروليتاريا وهي في خضم المعركة.

ومثال المناضل الجدلي الذي يعرف أفضيلة نضال الأضداد المجددة هو، في فرنسا، موريس توريز. فلقد كتب في "ابن الشعب" يذكر فترة تعليمه كزعيم ثوري، يقول: *"استقر في ذهني فكرة رئيسية لماركس وهي أن الحركة الجدلية تدفع بالثورة ونقيضها في نضال مستمر، فتجعل الثورة نقيضها يستميت في محاربتها، كما أن نقيض الثورة يدفع بالثورة إلى التقدم ويضطرها إلى تأليف حزب ثوري لها*[١١٢]".

ولا تعيننا الجدلية فقط على فهم التناقض الرئيسي الذي يكونه النضال الطبقي (نضال البروليتاريا ضد البرجوازية)، ذلك النضال الذي سيولد الاشتراكية، بل هي تمد البروليتاريا بالوسيلة التي تمكنها من التعرف على القوى الهائلة التي يمكنها الاستعانة بها في محاربة البرجوازية. ذلك لأن ازدياد سياسة البرجوازية الرجعية يثير معارضة طبقة الفلاحين الكادحة والطبقات الوسطى والمثقفين الخ..

كل هذه التناقضات تكشف عنها الجدلية على يد موريس توريز الماهرة وهو صاحب نظرية الجبهة الشعبية لمقاومة البرجوازية الرجعية والجبهة القديمة لاستغلال البلاد.

ولا تبدو جميع التناقضات لأول وهلة. ولهذا يتخطى الجدلي الظاهر إلى الحقيقة ولا يستسلم للجوج الذي يعيق الحركة وهو يريد زيادة سرعتها. كذلك المستخدم الصغير الذي يعطي صوته لحزب ديغول (F.R.P.) ويقرأ جريدة "الفجر"، ويقتات من الشيوعية". هل هو رجعي؟ يعني مثل هذا القول أننا لا نسبر غور الحقيقة، لأنه إذا كان هذا المستخدم يصوت مع حزب ديغول ويقرأ "الفجر"

---

112 موريس توريز: أبن الشعب، ص ٦٥

فذلك لأنه غير راض ويعتقد أنه يجد في حزب ديغول و "الفجر" حلفاء له. يعكس مسلكه اذن بصورة ذاتية التناقضات الموضوعية التي ذهب ضحيتها. ويهتم المناضل الذي يسيطر على النظرية بأن يساعد هذا البرجوازي الصغير المستاء على النظر الصحيح في نفسه، وعلى إدراك التناقضات الموضوعية الكافية في الرأسمالية والتي ذهب ضحيتها فيدرك، حينئذ، أن حل هذه التناقضات لا يمكن أن يأتي الا بواسطة النضال الذي تقوم به البروليتاريا بالتحالف مع جميع العمال، وليس بواسطة حزب ديغول وجريدة "الفجر" اللذين يستميتان في الدفاع عن حرية كبار الرأسماليين بأسم "حرية الصغار".

ملاحظة

لا صلة للبحث عن التناقضات باختلاط الأفكار. إذ لا يجب أن نخلط بين كل شيء بحجة البحث عن وحدة الاضداد. ولهذا فالفكر الذي يناقض نفسه ليس فكرا جدليا. لماذا؟ لأن الفكر الجدلي يدرك التناقض، أما الفكر الذي يناقض نفسه فانه يذهب ضحية هذا التناقض لأنه فكر مشوش.

مثال: ردد بعض الرؤساء البرجوازيين والاشتراكيين الديمقراطيين خلال سنوات القول: "نرغب في المقاومة في الفيتنام وإقرار السلام، ولكننا لا نرغب في مفاوضة "هو شي منه" وهذا تفكير مناقض للجدلية لأنه يدير ظهره للواقع. وذلك لأن إقرار السلم يعني المفاوضة مع العدو، وعدو البرجوازية الاستعمارية في الفيتنام هو "هو شي منه" وليس غيره.

هذا التفكير إذن خاطيء. وإذا بحثنا عن سبب ذلك لوجدنا أن هذا التفكير خاطيء لأنه يكشف عن تناقض موضوعي *يذهب ضحيته من يتحدثون على هذه الوتيرة*: وهو التناقض بين مصالح المستعمرين، الذين يرغبون في استمرار

الحرب، وبين مصالح الشعب الذي يريد السلم (وهذا ما يدفع الاستعماريين إلى الحديث عن السلم)

يمكن لتفكير خاطىء مشوش أن يعبر، إذن، عن واقع موضوعي جدلي. وهكذا ينتقل التحليل الجدلي من التفكير الخاطىء إلى الواقع الذي يخفيه أو يجهله.

القسم الثاني

دراسة المادية

الفلسفية الماركسية

الدّرس الثامِن

مَا هي النظرة الماديَّة للعَالم؟

١ – معنيا كلمة "المادية"
٢ – المادة والروح
٣ – مشكلة الفلسفة الأساسية
٤ – معنيا كلمة "المثالية"
٥ – تتعارض "المادية" مع "المثالية" في التطبيق وفي النظرية
٦ – تمتاز المادية الفلسفية الماركسية بثلاث ميزات أساسية

ليس للجدلية التي درسناها آنفا من معنى إذا ما فصلناها عن عالم الواقع ــ الطبيعة والمجتمع ــ كما دل على ذلك جميع الأمثلة التي استشهدنا بها.

ولقد قلنا، منذ الدرس الأول لنا عن الجدلية، أن الجدلية كامنة في الواقع نفسه، وأن ليس الفكر هو الذي يأتي بها. فإذا كان التفكير الإنساني جدليا فذلك لأن الواقع جدلي قبل هذا التفكير[١١٣].

فالجدلية إذن هي جدلية العالم الواقعي، فإذا ما كان المنهج *جدليا*، في النظرية الماركسية ــ اللينينية فأن النظرة إلى *العالم مادية*. وسنحاول أن نعرض هذه "النظرة إلى العالم" فيما يلي:

---

113 ليس التفكير "الجدلي" الذي لا يعكس التناقضات الكامنة في الأشياء ذاتها سوى شرك وسفسطة. ولهذ يحاول اعداء الماركسية الخلط بين "الجدلية" و "السفسطة".

١ – مَعنَيا كَلمة "الماديَة"

يجب علينا، قبل كل شيء، أن نتجنب الوقوع في خلط كبير، وهو القول بأن الفلسفة الماركسية هي فلسفة مادية. وقد عاد ذلك عليها، منذ ظهورها، بهجوم اعدائها واعداء الماركسية عليها. ولقد لقيت المادية نفس الهجوم منذ القدم عامة. ويقوم هذا الهجوم على تشويه معنى كلمة "المادية" فيختفي معناها الفلسفي الصحيح ليضفي عليها معنى " اخلاقيا" للطعن فيها.

وهكذا تصبح "المادية" هي "اللا أخلاقية" والرغبة الجامحة في المتع واقتصار الإنسان على حاجاته المادية فقط. وليس هذا الطعن جديدا. فلقد استخدمته سابقا، الكنيسة ضد مدرسة ابيقور الفلسفية التي كانت تقول بحق الإنسان في السعادة، وضرورة اشباع الحاجات الأساسية في الطبيعة الإنسانية لتتحقق هذه السعادة.

ولقد شوه رجال الاكليروس والجامعيون، عن عمد، الفلسفة الابيقورية خلال قرون عديدة، وقالوا بأن الماديين هم "أصحاب اللذة" عند ابيقور.

ولو أردنا، في الحقيقة، أن نقتصر على هذا المعنى للمادية لاستطعنا تطبيقه على البرجوازية نفسها وعلى الطبقة المستغِلة، التي تقيم رفاهيتها ومتعتها على شقاء المستغَلين، وليس على طبقة البروليتاريا الثورية.

ولقد رد انجلز على ذلك ردا مفحما في قوله:

"الواقع أننا نتساهل هنا تساهلا لا يغفر نحو الرأي المعادي لكلمة "المادية" الذي صدر في الأصل عن الكهنة. وتعنى كلمة "المادية" عند أصحاب هذا الرأي الانغماس في الملذات الحسية، والتمتع بحياة البذخ والشراهية والبخل، والبحث عن الفائدة، والمضاربة في البورصة، أي جميع العيوب التي ينغمسون هم فيها في الخفاء"[١١٤].

[114] انجلز: لودفيج فورباخ ونهاية الكلاسيكية الألمانية، ص ٣، دراسات فلسفية ص ٣٤

أما المعنى الصحيح لكلمة "المادية" فهو المعنى الفلسفي. وتعنى "المادية" بهذا المعنى *نظرة للعالم*، أي طريقة في فهم ظواهر الطبيعة وتأويلها اعتمادا على مبادىء محددة، وكذلك فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية. تصح "هذه النظرة للعالم" في جميع الظروف فهي أساس عدد من العلوم. وهي بهذا تكون تفسيرا عاما للعالم يجعل للأعمال العالمية أساسا متينا ولهذا فهي تكون نظرية. وموضوع هذا الدرس هو تحديد أساس النظرية المادية.

٢ – المادة والروح

يجب علينا، قبل كل شيء، أن نحدد معنى كلمة "المادة" التي اشتقت منها كلمة "المادية".

يحوي العالم، أي الطبيعة والمجتمع، على عدد هائل متنوع من الظواهر ذات الجوانب المتعددة، ومن بين جميع التمييزات التي يمكن أن نقيمها بين مختلف جوانب الظواهر، تميز أهم منها جميعا، يمكن ادراكه بدون دراسات علمية سابقة.

يعلم كل منا أنه يوجد في الواقع أشياء يمكننا رؤيتها أو لمسها أو قياسها وتسمى بالأشياء *المادية*. وهناك، من جهة ثانية، أشياء لا يمكننا رؤيتها أو لمسها أو قياسها، ولكنها موجودة مع ذلك كأفكارنا، وعواطفنا، ورغباتنا، وذكرياتنا والخ.. ولكي نعبر عن كونها ليست مادية نقول بأنها *فكرية*. وهكذا نقسم الموجودات إلى نوعين: المادية والفكرية. ونستطيع القول، أيضا، بصورة أكثر جدلية، أن للواقع جانبا ماديا وجانبا فكريا.

ويدرك كل منا الفرق بين فكرة النحات عن التمثال الذي سينحته والتمثال بعد الانتهاء من نحته. ويدرك كل منا أيضا، أن شخصا آخر لا يمكن أن يكون *فكرة* عن التمثال الا بعد أن يراها بعينيه. ويمكن، مع ذلك، نقل الأفكار، بواسطة اللغة. فيستطيع هذا الشخص أن يكوِّن فكرة عن التمثال إذا شرح له النحات التمثال

الذي سينحته كأن يكون تمثالا لهنري مارتين، وهكذا يقوم إلى جانب العالم المادي عالم فكري يمثل لنا ذلك العالم المادي ولهذا نسميه "تمثيلا له".

كذلك لا يجب أن نخلط، في ميدان الحياة الاجتماعية، بين الجانب المادي والجانب الفكري. ولهذا فأن طريقة الإنتاج الاشتراكية التي تقوم على امتلاك وسائل الإنتاج حقيقة واقعة في الاتحاد السوفياتي، ومع ذلك فليست فكرة العامل، الذي خدعه زعماء الاشتراكية الفرنسية، عنها كفكرة المناضل الشيوعي الذي يعرف المبدأ الذي تعتمد عليه.

نجد هنا، أيضا، الواقع من ناحية وتصوراتنا لهذا الواقع من ناحية ثانية.

ولم يخف هذا التمييز الأساسي على أي واحد من الناس الذين حاولوا، في مرحلة من مراحل تطور المجتمعات، أن يرسموا لوحة منسجمة عن الكون، وذلك قبل ميلاد العلوم الحقة وبقواهم الخاصة.

ولهذا أفضى بهم الأمر إلى وضع مبدأ "الروح" إلى جانب مبدأ "المادة". وكانت هذه الكلمة تعني، عامة، جميع الأشياء غير المادية، أي ما عدا ظواهر تفكيرنا وما يبدعه خيالنا من كائنات كتلك التي تحفل بها الأحلام. وهكذا نشأ الاعتقاد بوجود الأرواح، ووجود عالم تعيش فيه هذه الأرواح، وأخيرا فكرة وجود روح أعلى تسميه الأديان بالاله.

ندرك إذن أن التمييز بين المادة والروح له أهمية كبرى. ويجب علينا أن نفهم تحديد هذا التمييز في جميع صوره وأشكاله. نجد ذلك مثلا في التمييز بين النفس والجسد في الأديان. ونجد في بعض الأحيان بدلا من الحديث عن "المادة" و "الروح" الحديث عن "الكينونة" l,etre و "الفكر" le peusee أو نجد معارضه "الطبيعة" "بالوعي". وهذا هو نفس التمييز.

٣ – مُشكلَة الفَلسَفَة الأسَاسِيَّة

لا يزال للتحليل السابق قيمته بالرغم مـن تقـدم العلـوم الحديثـة. بـل أن التمييـز بين الطابع المادي والطابع الفكري للواقع ضـروري لتكـوين ثقافـة العـالم الفلسـفية. إذ يجب عليه أن يعرف كيف يميز بين المادة والفكرة التي كونهـا عـن هـذه المـادة، كما أنه يجب على المناضل أن يميز بين رغباته وما هو ممكن حقا.

ولم يدرك الفلاسفة أنفسهم، في أول الأمـر، أن هـذين المبـدأين الأساسـيين همـا الفكرتان العامتان في الفلسفة. ثم أدركوا ذلـك شـيئا فشـيئا خـلال تطـور المعـارف الإنسانية، ويرجع الفضل في ذلـك للفيلسـوف الفرنسـي الكبيـر ديكـارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠). ومع ذلك، لا يزال هناك في أيامنا هذه، أكثـر مـن فيلسـوف مـن فلاسـفة الجامعة البرجوازية، لا يمكنه إدراك هـذا التمييـز الأساسـي فـي عظمتـه وبسـاطته وما يؤدي إليه من نتائج. فهو بهـذا أقـل مـن العامـل المناضـل الـذي تثقـف فـي مدرسة الماركسية.

حتى إذا ما رأينا بوضوح أن العـالم فـي مجموعـة يفسَّـر بمبـدأين فقـط الفينـا أنفسنا لا محالة أمام مشكلة الفلسفة الأساسـية. يمكـن القـول إذن أن معظـم فلاسـفة الجامعة البرجوازية لم يطرقـوا بوضـوح مشـكلة الفلسـفة الأساسـية. وهـم يـأبون التصدي لهذه المشكلة ويحرمون سؤالهم عنها. ويجـب علينـا، مـع ذلـك، أن نلاحـظ أن تاريخ الفلسفة بأجمعه ليس سوى نقاش طويل حول هـذه المشـكلة الأساسـية التـي تعود، بالرغم من تعدد صورها وأشكالها، إلى ما يلي: وهو أنـه إذا كـان هنـاك حقـا مبدآن فقط لتفسير العالم فأي هذين المبدأين يفسر الآخـر؟ وأيهمـا أساسـي أكثـر مـن الآخر؟ أيهما الأصل وأيهما الفرع؟ أيهما خالد لا حد له يتفرع عنه الآخر؟

تلك هي مشكلة الفلسفة الأساسية؟

لا تتطلب مثل تلك المشكلة سوى *جوابين ممكنين*:

أما أن تكون المادة (الكون والطبيعة) خالدة، لا حد لها، أولية يتفرع عنها الروح (الفكر، الوعي). وأما أن تكون الروح (الفكر والوعي)، خالدة لا حد، لها أولية تتفرع عنها المادة (الكون والطبيعة).

ويكون الجواب الأول أساس *المادة الفلسفية*، وأما الجواب الثاني فأننا نلقاه في جميع المذاهب التي تتفرع عن المثالية الفلسفية.

هذان الموقفان الفلسفيان يعارض كل منهما الآخر على طول الخط.

٤ – مَعنَيا كلِمَة "المثَاليَّة"

يجب علينا، قبل أن نستطرد في البحث، أن نحذر الوقوع في الشرك الذي ينصبه لنا أعداء المادية الذين يستبدلون بمعنى كلمة "المثالية" الفلسفي معنى "أخلاقيا".

فالمثل الأعلى، بالمعنى الأخلاقي، هو هدف أسمى نبيل كريم، على عكس الأهداف الأنانية الضيقة المنحطة، الخ.. وتستعمل كلمة "المثالي" خطأ في بعض الأحيان للدلالة على الرجل الذي يكرس نفسه لخدمة قضية ويضحي في سبيل فكرة ممكنة التحقيق أو غير ممكنة. ويريد أعداء المادية أن يقنعوا الناس بأنهم يستطيعون، لوحدهم، التكرس لفكرة والدفاع عن مثل أعلى لأنهم يفسرون العالم بوجود مبدأ سابق على المادة. فيا لها من سفسطائية رائعة!

والحقيقة غير هذا. وذلك لأن المثالية الفلسفية أبعد من أن تستطيع بعث الشهداء، بل هي تستخدم لتغطية أشد الأفعال أجراما. ولهذا شاعت على لسان الخائن بيتان، كما شاعت على ألسنة مجرمي اورادور الذين كانوا يدعون محاربة "البربرية البلشفية"، النميمة القائلة بأن انتصار طبقة العمال الثورية هو انتصار "لروح المتعة" على "روح التضحية".

أما الماديون، فهم لا ينكرون، كما قلنا، وجود الأفكار. وسوف نرى الدور الكبير الذي تقوم به هذه الأفكار في رأيهم. ومن الواضح أنه يوجد مثل أعلى

للعمال. ومثل العمال الثوريين الأعلى ــ وهو أجمل مثل سعى لتحقيقه البشر ــ هو الشيوعية وتحرير الناس وتفتحهم. هذا المثل الأعلى، وهو أسمى مثل وأصعبه، هو أشد المثل العليا نزاهة وتحررا لأن الأمل في "الخلاص" الشخصي عن طريق الآخرة لا وجود له فيه.

لا يعني ذلك أن هؤلاء الثوريين "مثاليون" أو أنهم "مسيحيون على غير علم منهم" كما يقول الذين يرون المثالية في كل من سما بنظره وراء أفق الواقع الرأسمالي الكريه. كما لا يعني ذلك أننا أمام حلم نتحدث عنه دائماً دون العمل على تحقيقه. وأخيراً لا يعني ذلك أننا أمام تعلَّه (alibi) كما يفعل ترومان وايزنهور حين يتعللان بالله والمدنية المسيحية لتبرير المزاجر الرأسمالية في كوريا. إذ أن للعمال الثوريين مثلا أعلى يريدون العمل *لتحقيقه*. ويعتمد هذا التحقيق على نظرة *مادية* للعالم تبتعد به عن النظريات الخالية وعن النفاق.

ولقد ندد انجلز نهائيا بالبرجوازية "المثالية"، التي تعتبر الحديث عن المثل الأعلى تغطية لاستغلالها لطبقة العمال، في قوله: *"يعني البرجوازية بالمثالية الايمان بالفضيلة وبالإنسانية وبوجود "عالم أفضل" عامة يلوح به أمام الآخرين، ولا يؤمن هو به الا ليعينه على اجتياز فترة الأزمة التي تتبع حتما مغالاته المادية المعتادة فإذا به يردد نغمته المفضلة "ما الإنسان؟ أن هو الا نصف حيوان ونصف ملاك[115]!"*.

115 لودفيج فورباخ، ص ٢١، دراسات فلسفية ص ٣٤.

٥ – تتعَارض "المَادية" مَع "المثاليَة" في التَطبيق وَفي النَظريَّة

نستطيع الآن العودة إلى الجوابين اللذين يُذكران عادة للرد على السؤال الرئيسي في الفلسفة. ويتضح أن هذين الجوابين ينفي كل منهما الآخر بصورة مطلقة وأنه لا يمكن الا أن يكون واحد منهما صحيحا. فلماذا لم يعرف الناس، لأول وهلة الجواب الصحيح؟ سوف نرى سبب ذلك فيما بعد، عند حديثنا عن أصول النزعة المثالية.

يكفينا أن نلاحظ الآن أنه، لما كانت النزعة المثالية والنزعة المادية تنفي كل منهما الأخرى، فلا يمكن أن يكون هناك سوى جواب واحد صحيح، فأننا أمام تناقض. وهكذا فأن النزعة المثالية والنزعة المادية تكوِّنان وحدة لا يمكن فصل احداهما عن الأخرى، كما لا يمكن فصل الضد عن ضده. فكل تقدم تحرزه أحداهما هو تأخر بالنسبة للاخري. وهكذا فان تقدم النزعة المادية أنما هو ضربة تنزل بالنزعة المثالية. كما أن كل تأخر يصيب النزعة المادية انما هو تقدم للنزعة المثالية. تعني وحدة الضدين هذه أن النضال بين النزعة المثالية والنزعة المادية لا مفر منه وأنه لا يمكن *التوفيق* بينهما: (راجع الدرس الخامس، ٣، والدرس السابع، الخلاصة العامة).

وهذا مهم لأن بعض الفلاسفة المثاليين يحاولون تشويه الماركسية فيدعون أن المادية الجدلية عبارة عن مركّب (synthese) *يتخطى* التناقض بين المادية والمثالية. ولا يمكن لمثل هذا "المركب" في الحقيقة الا أن يكون ستارا تختفي وراءه المثالية.

صحيح أن ماركس كتب يقول بأن المادية الجدلية ستقضي على التعارض القديم بين المادية والمثالية. وهو يعني بذلك أن المادية الجدلية تسمح بفض النقاش الذي استمر آلاف السنين؛ وذلك بانتصار المادية التي اكتمل نموها وجعلت المثالية تنهزم أمامها انهزاما لا مرد له. يمكن حل التناقض إذن بالنضال

ضد المثالية . وليس بمحاولة التوفيق بينهـا وبـين الماديـة كمـا رأينـا ذلـك فـي دراستنا للجدلية. ولهذا النضـال النظـري أهميـة عمليـة كبـرى. وذلـك لأن هـاتين النظرتين المتعارضتين للعالم تسيطران على مواقف عملية متعارضة.

يمكن تجنب الصاعقة بواسطة طريقتين: امـا باسـتخدام القضـيب المضـاد لهـا أو بإشعال شمعة والتوسل إلى السماء. وتعتمد الطريقة الأولى علـى الفكـرة القائلـة بـأن الصاعقة ظاهرة مادية لها أسبابها المادية المعينـة ويمكـن تفـادي نتائجهـا بواسـطة الوسائل التي تمدنا بها المعرفة العلمية وآلاتهـا وأمـا الطريقـة الثانيـة فهـي تعتمـد على الفكرة القائلة بأن الصاعقة هي قبل كل شيء، مظهـر مـن مظـاهر غضـب الله وقوته، لها أسبابها الخارقة ولهذا يمكن تفاديها بوسـائل سـحرية خارقـة كالشـمعة أو الصلاة، عن طريق تـأثير الـروح الإنسـاني فـي الـروح الإلهـي، وهكـذا، تـؤدي طريقة تصور أسباب الظواهر إلى طريقة تصـور الوسـائل العمليـة المختلفـة وهـي وسائل مادية في الحالة الأولى، روحية فـي الحالـة الثانيـة، وكـذلك تصـور النتـائج العملية المختلفة.

ولهذا التعارض النظري نتائج أخرى *عملية* إذ لـيس مـن الصـعب أن نـدرك أنـه كلما انتشر استعمال القضيب المضاد للصـاعقة كلمـا قـل إشـعال الشـموع وترتيـل الصلوات. ولهذا كانت الكنيسة، التـي رأت زوال نفوذهـا، غيـر راضـية عـن تقـدم العلوم وزوال سرعة التصديق الساذج.

ولا يقل التعارض أيضا فيما يتعلق بظواهر الحيـاة الاجتماعيـة. فلقـد خلَّـف لنـا رابليه وصفاً رائعاً لهذين الموقفين، في الفصـل الـذي عقـده حـول *الحـرب البكـرو كولية* (La guerre Picrocholine) إذ كان معظـم الرهبـان يغلقـون علـى أنفسـهم باب الكنيسة إذ ما هاجم بكـرو كـول[١١٦] picrocole الـدير لنهبـه متضـرعين إلـى

116 شخصية من شخصيات كتاب جرجاتيا GARGANTUA وهو نموذج هزلي للمحارب على مثال بيروس. (المعرب)

الله أن يغفـــر لـــه. ولـــم يشـــذ عـــن ذلـــك ســـوى الراهـــب حنـــا Jean Des Entommeunes الذي كان يتسلح بعصا غليظة صلبة يضـــرب بهـــا ضـــربات قويـــة يفر على صوتها أصحاب بكرو كول بعد اجتياحهم لبساتين الـــدير. وهـــذا دليـــل علـــى أن الهجوم أفضل من الصلاة للتخلص من المعتدي.

ولهذا شارك عدد من الكاثوليك، أثنـــاء المقاومـــة الوطنيـــة للمعتـــدي النـــازي فـــي مختلف صور النضال ضد المحتل. ويلاحـــظ عـــادة أن أصـــحاب الفلســـفات المثاليـــة يتصرفون في الحياة تصرف المـــاديين.ويوضـــح لنـــا هـــذا أخطـــار النزعـــة المثاليـــة العلمية، ذلك لأن نزعة الرهبان، كما صـــورهم رابليـــة، تـــؤدي فـــي الحيـــاة العمليـــة إلى ترك الحقل بين يدي المعتدي. وكـــذلك كانـــت نزعـــة الســـلميين المثاليـــة، الـــذين كانوا يأبون العمل ضد الحرب ويتظاهرون بإيمـــانهم فـــي "حســـن نيـــة" الاســـتعماريين عامة، أمثال هتلر خاصة، أقوال كانت نزعة هـــؤلاء تســـاعد النـــازيين وتؤكـــد القـــول المشين: "العبودية أفضل من الموت".

وكذلك تبعد اليوم النظريـــة المثاليـــة، القائلـــة بـــأن الحـــرب مقـــدرة وأنـــه يجـــب الرضوخ لها كعقاب الهي عن خطايا الأنانية، عددا كبيراً مـــن الكاثوليـــك عـــن ســـاحة النضال من أجل السلام.

ولما كانت النزعة المثالية تؤدي، كمـــا رأينـــا، لمواقـــف عمليـــة تســـاعد أنصـــار الحرب والطبقات المستغِلة عامة (حسب الفكرة المثالية القديمـــة القائلـــة بعـــدم مقاومـــة الشرير) فأننا ندرك بسهولة كيف أن الطبقات المســـتغِلة قـــد اتخـــذت، عبـــر التـــاريخ، جميع الوسائل لتشجيع النزعة المثالية بين الجمـــاهير، والعمـــل علـــى تنميتهـــا والـــدفاع عنها. ولا نزال نذكر كيف هرع حفار القبور بول رينـــو إلـــى كنيســـة نـــوتردام يجـــأر بالدعاء لحماية فرنسا.

ولهذا يهم الطبقات المستغِلة، للمحافظـــة علـــى الأوضـــاع الراهنـــة التـــي تســـتفيد منها، تعليم الناس بأن هذه الأوضاع تجسد "ارادة ســـامية" أنهـــا تمثـــل "العقـــل الكلـــي"

الخ.. ولهذا كان من مصلحتهم نشر النزعة المثالية التي تلقن الجماهير الخضوع والاستسلام.

نرى إذن الأهمية الكبرى العملية لإدراك النظريات المثالية ودراسة النزعة المادية الفلسفية.

٦ – تمتَاز المَادَية الفَلسفِيَّة الماركسِيَّة بثَلاث ميزات أسَاسيِّة

وجدت النزعة المادية، كنظرة للعالم، قبل وجود النزعة الماركسية. وسوف نرى أن النزعة المادية أنما تقوم على اعتبار العالم "كما هو" دون أن تضيف إليه أي عنصر غريب عنه. ولقد اضطر الإنسان إلى الأخذ بهذه الطريقة في النظر للعالم منذ أمد بعيد وفي كل مرة كان يضطره فيها أشباع حاجاته للسيطرة على الطبيعة بالوسائل التقنية الفعالة. ولهذا شجعت الطبقات الصاعدة، عبر التاريخ، التفكير المادي، وذلك لأن مستقبلها كان يعتمد على تقدم الوسائل العملية وازدهار العلم؛ كما أن هذه الطبقات كانت تحارب الفكرة القائلة بأن النظام القديم للأشياء، الذي كانت تسعى لإزالته، انما هو تجسيد لإرادة العناية الألهية. وكانت هذه الطبقات تعتقد أنه لما كان باستطاعة الإنسان أن يحول المادة والطبيعة بعمله فهو يستطيع أيضا أن يحسن مصيره بعمله أيضا.

ولا نستطيع هنا دراسة تاريخ النزعة المادية؛ فلقد كانت أهم عصور الفلسفة المادية هي العصور القديمة اليونانية، حين سيطرت طبقات التجار، التي كانت آنذاك أكثر الطبقات تقدما؛ وكذلك القرن الثامن عشر في فرنسا، حيث وجدت طبقة البرجوازية الثورية؛ وأخيرا العصر الحاضر الذي يمتد من أواسط القرن

التاسع عشر. فظهرت طبقة البروليتاريا الثورية ولا سيما في البلاد التي استولت فيها هذه البروليتاريا على الحكم اعني في الاتحاد السوفياتي[١١٧].

ولسوف ندرس بالتفصيل النزعة المادية الفلسفية الماركسية التي تمثل النزعة المادية في العصر الأخير، وقد بلغت الذروة. كما سنرى في دروس أخرى[١١٨] كيف أن الفلسفة المادية اتخذت طابعها النهائي في مؤلفات ماركس وانجلز العبقرية اللذين وضعا أسسها حوالي أواسط القرن التاسع عشر.

وسنرى أيضا أن النزعة المادية السابقة على الماركسية لم تكن *جدلية* بصورة مذهبية منطقية، ولهذا لم يكن باستطاعتها أن تصور الواقع بكل خواصه، كما لم يكن باستطاعتها أن تكوِّن نظرة نهائية للعالم.

لهذا يجب التمييز بين النزعة المادية الفلسفية الماركسية وبين جميع المذاهب المادية السابقة عليها. وسوف ندرك في الدروس التالية صفات هذه الفلسفة الأساسية. وهي ثلاث صفات تتعارض مع صور النزعة المثالية الفلسفية الرئيسية.

١ – العالم مادي بطبيعته.

٢ – المادة هي المعطى الأول والوعي هو معطى ثانوي مشتق منها.

٣ – يمكن معرفة العالم وقوانينه معرفة تامة.

حتى إذا ما أخذنا بدراسة كل من هذه الصفات وصلنا بين دراسة النزعة المادية وبين النضال ضد النزعة المثالية، ثم وضحنا القول في نتائج النزعة المادية في ميدان الحياة الاجتماعية.

***

---

117 يضاف إلى ذلك الماديين الروس في القرن التاسع عشر الذين كانوا جزءا من البرجوازية الديمقراطية الروسية أنذاك أمثال بلينسكي، وهرزن ونشر نشيفكي ودبروليوبوف

118 راجع الدرس المدخل، والدرس التاسع (المسألة ٣) والدرس الرابع عشر.

الدّرسُ التاسع

ميزة النّزعة المادّية الماركسيَّة الأولى

مَادّية العَالم

١ – المَوقِفُ المِثالي

تقوم أقدم صورة للنزعة المثالية على شرح الظواهر الطبيعية بواسطة فعل قوى غير مادية، واعتبار الطبيعة مزودة "بأرواح" تسيرها.

ويبدو أنه ليس من الصعب محاربة هذه الصورة من النزعة المثالية. فلقد أدى تقدم الإنتاج والوسائل التقنية وتقدم العلم إلى القضاء على هذه الشروح بالتدريج. فإذا بالشعوب المتقدمة تقضي، منذ أمد بعيد، على جنيات النار والماء والهواء، وعلى القوى الغريبة التي يسيطر عليها السحر فتمسي قصص الجنيات حكايات تردد على مسامع الأطفال.

وهكذا ولّى عهد الاعتقاد بوجود "الأرواح" أو "النفوس" ولم نعد نقول بأن "الطبيعة تكره الفراغ" كلما صعد الزئبق في ميزان الطقس (البارومتر) كما لم نعد نقول بأن الأفيون ينوم لأن يملك "فضيلة التنويم" لأن الأطفال وحدهم هم الذين يثورون على الأشياء التي آذتهم كما لو كانت هذه الأشياء تملك ارادة شريرة تدفعها للأذى فإذا بهم أشبه بأولئك الذين يتملكهم الغيظ ضد "الحظ السيء" أو يستخدمون جوالب الحظوظ.

لقد أزال نيوتن من أرجاء الفضاء الملاك الحارس الذي كانت العناية الألهية قد أقامته على كل كوكب ليسيره في فلكه. كما قضى الفلاسفة الديكاريتون، من جانبهم، على الزعم القائل بأن للحيوانات "نفسا" فتساءل ديدرو ساخرا عما إذا كان العضو المبتور من الحيوان لا يزال مركز الحركات العضلية، لأنه يجب أن نتصور وجود "قطعة من النفس" في ذلك العضو لتفسير حركته.

ومع ذلك فانه إذا كانت الفكرة، القائلة بأن كل ظاهرة في الطبيعة تتطلب فعل روح خاص، غريبة عنا اليوم، فأن الفكرة القائلة بأن العالم في مجمله بحاجة، كي يوجد، لروح أسمى شامل لا تزال حتى اليوم حية في الأديان الموحدة[١١٩].

يعترف التوحيد المسيحي مثلا بوجود الواقع المادي في العالم، ولكن هذا الواقع المادي حقيقة ثانوية مخلوقة. أما الكون الحقيقي والواقع النهائي العميق فهو الروح، والله روح صرف شامل. وهاك مثالا لما يسمى *بالمثالية الموضوعية*.

اتخذت هذه النظرة الفلسفية عدة صور وأشكال. إذ ليس الواقع المادي، في نظر أفلاطون، سوى انعكاس للعالم المثالي، عالم الأفكار، حيث يحلق الفكر الصرف الذي لا يحتاج للعالم المادي في وجوده. ولم يكن العالم في نظر السوفسطائيين سوى كائن حي هائل، تحييه نار الهية داخلية، أما هيجل فهو يعتقد

119 الموحدة أي التي تؤمن بوجود أله واحد

أن الطبيعة وتطور المجتمعات الإنسانية ليس سوى الغلاف الخارجي والمظهر المرئي وتجسد الفكر المطلق الشامل الذي يوجد نفسه.

وهكذا نرى أن العالم في نظر جميع هذه الفلسفات مادي *في ظاهره*، أما سبب وجوده الحقيقي فهو في وجود الروح. وهذا الروح *مستقل عن وعينا الإنساني الفردي* ولهذا ضُمت هذه الفلسفات إلى النزعة *المثالية الموضوعية*.

ويمكن أن نشير أيضا إلى أن النزعة المثالية الموضوعية تؤدي غالبا، فيما يتعلق بالإنسان، إلى التمييز بين النفس والجسد فتصل النفس بالعالم الروحي وتصل الجسد بالعالم المادي. تلك هي حال النزعة المثالية المسيحية. وكذلك تسمى النظرية التي تجعل الإنسان مرتبطا بمبدأين النزعة *الثنائية* (dualisme). وتقوم النزعة الثنائية، في العلوم الإنسانية، على النزعة المثالية.

أ) لأنها تفسر الكائن الطبيعي بوجود "نفس" في داخل هذا للكائن.

ب) لأنها تعلق وجود هذه "النفس" على وجود روح أعلى، لأنها لو علقت وجود هذه النفس على وجود مبدأ مادي لما كانت ثنائية بل موحدة.

وهكذا نرى أن النزعة الملحدة الساذجة تنتمي للنزعة الثنائية. فهي تنكر وجود الله ولكنها لا تعتمد على نظرية مادية علمية. بل تتحدث عن "الروح الإنساني" و "الوعي الإنساني" كما لو كان هذا الروح مبدأ مستقلا بذاته، فهي بذلك مدينة للنزعة المثالية، وتلك هي حال فلاسفتنا الجامعيين علمانيين كانوا أم روحيين. ولهذا لا تجزع الكنيسة كثيرا من هؤلاء الملحدين المثاليين: أمثال مين دوبيران(Main de Biran) في عهد نابوليون وبرجسون (Bergson) وفرويد (Freud) أو كامو (Camus) في عهد الاستعمار. لأنها تعرف وتقول بحق أن هؤلاء الفلاسفة ليسوا سوى نعاج ضالة، وكثيرا ما نرى هذه النعاج، تعود إلى الحظيرة، في نهاية المطاف.

إذا كانت النزعة *الموضوعية*، في بعض العصور، قد أدت إلى وجود فلسفات كبرى ذات نواة عقلانية (Rationnel) كالفلسفة الاستعمارية في عصرنا حين

تشعر البرجوازية في رمقها الأخير أنهـا بحاجـة لتضـليل الجمـاهير وإبعادهـا عـن التفسير المادي للعالم بجميع الطرق والوسـائل فـان النزعـة المثاليـة تمسـي نزعـة غير عقلية.

يفسر فرويد، مثلا، الإنسان وظواهر الحياة الاجتماعيـة بوجـود قـوة غيـر ماديـة في الإنسان تظهر في نوازعه الخفية يسميها "اللاوعي". وهكـذا يتـيح فرويـد فرصـة نادرة للمشعوذين لاسـتغلال السـذج مـن النـاس. ذلـك الآن "اللاوعـي" هـو آخـر صورة للاعتقاد بوجود القوى اللامادية في العالم.

ويقضي برجسون من جهته على ماديـة العـالم. ذلـك لأن ماديـة العـالم بالنسـبة إليه أنما هي ثمرة فعل خلاق. وهي في جوهر حيـاة. فكـل مـادة هـي ثمـرة "دفعـة حيوية" هائلة تدفع بالعالم. والحياة نفسها ما هي فـي نظـر برجسـون؟ هـي "الـوعي" والفكر والروح. فهو يقول: "الوعي عامة ملازم لوجود الروح الشامل[١٢٠]".

الوعي هو مبدأ الحياة. وبدلا من أن تكون المادة هـي الأسـاس الضـروري لنمـو الوعي، فأن الوعي، على العكس، هو الذي يفسر لنا نمو المادة حين يتجسد منها.

ذلك هو برجسـون الفيلسـوف "العبقـري" المعاصـر الـذي جعلتـه البرجوازيـة المعاصرة من أعظم الفلاسفة، وتلك هي الفلسفة التـي يـدحض بهـا النزعـة العلميـة المغالية (Scientisme) محاولا التقليل من شأن العلم.

وتتابع النزعة المثالية هجومها في الميدان العلمي فـإذا بنـا نـرى بعـض العلمـاء المثاليين الأميركان يحاولون التدليل "علمياً" على خلـق الكـون، وعلـى عمـر الكـون وعلى الزمن الذي استغرقه هذا الخلق، وأعادة بنـاء النظريـة القديمـة حـول "مـوت العالم" الخ!

وإذا ما تنبهنا أخيرا إلى عودة "العلوم الغيبية" للظهـور مـن جديـد وتلـك النزعـة الروحانية (Spiritisme) التـي شـجعها برجسـون وأنصـار فرويـد للحيلولـة دون

---

120 راجع برجسون: التطور الخلاق، ص ٨٤.

الجهلة والأغبياء والتفسير المـادي للأمـراض الاجتماعيـة التـي يقاسـونها، أدركنـا بوضوح أهمية النظرية الماركسية حول مادية العالم.

٢ – النَظْرَة الماركسيَّة

تقوم النزعة المادية الفلسفية عند مـاركس، علـى عكـس النزعـة المثاليـة التـي تعتبر العالم "تجسيدا" "للفكرة المطلقة" و "الـروح الشـامل" و "الـوعي"، علـى المبـدأ القائل بأن العالم، بطبيعته، مادي، وأن مختلـف ظـواهر الكـون أنمـا هـي جوانـب مختلفة للمادة في حركتها، وأن العلاقات والشروط بين الظـواهر التـي يكشـف عنهـا المنهج الجدلي هي القوانين الضـرورية لنمـو المـادة المتحركـة، وأن العـالم ينمـو حسب قوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأي "روح شامل"[121].

يشير ستالين هنا، في حديثه عن النزعة المثالية، إلى فلسـفة هيجـل الـذي تحـدثنا عنه آنفا. ذلك لأن فلسفة هيجل تمثل آخر فلسـفة مثاليـة فـي تـاريخ الفلسـفة، وهـي تمثل مختصرا منسجما لجميع الميزات التاريخية للنزعـة المثاليـة الموضـوعية، فـي ميدان الطبيعة والمجتمع.

ويلاحظ ستالين أن مختلف ظواهر الكون لا تحـدث بفضـل تـدخل أرواح وقـوى "لا مادية" بل هي جوانب مختلفة *من المادة المتحركة*.

ويشير ستالين كذلك إلى *ضرورة طبيعية* كامنة في المـادة، وهـي أسـاس قـوانين الكون التي يقيمها المنهج الجدلي.

وأخيرا يشير ستالين إلى *خلـود العـالم* وخلـود المـادة المتحركـة التـي تتحـول باستمرار.

---

121 راجع ستالين: بين النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية. ص ١٠

٣ – المَاديَّة وَالحَرَكَة

أن مسألة علاقات المادية بالحركة مسألة خطيرة في تحديد كل من النزعة المثالية والنزعة المادية.

ذلك لأن النزعة المثالية تعتقد أن الحركة والنشاط والقدرة الخلاقة أنما هي من ميزات الروح فقط. وهي ترى أن المادة عبارة عن كتلة جامدة سلبية لا صورة لها. وهي بحاجة لميسم الروح الذي يحييها كي تتخذ صورة معينة. وهكذا ترى النزعة المثالية أن المادة لا يمكن أن *تنتج* أي شيء بنفسها فإذا ما أخذت تتحرك فأن ذلك بفضل الله أو الروح.

ولهذا فأن فصل المادة عن الحركة طابع مميز للفكر الميتافيزيقي. كما أنه منهج ضروري في بداية العلوم كلما كانت المادة الثابتة أسهل في الدراسة من المادة المتحركة.

حتى إذا ما ازدهرت العلوم الحديثة ظلت الفكرة القائلة بأن الحركة قد وهبها الله للمادة عند الخليقة.

وهكذا تخيل نيوتن، وهو الذي طور علم حركة الأجسام السماوية، الكون على أنه ساعة ضخمة محكمة الصنع، ولكنها كانت بحاجة لهزة أولية سيرت آلاتها.

ذلك لأن أول علم أصاب حظاً من الكمال هو علم الميكانيكا أي علم تحركات الأجسام الصلبة في الفضاء، سواء كانت سماوية أم أرضية. ويمكن لأول وهلة أن نفترض في *علم الميكانيكا* أن كمية المادة في جسم من الأجسام تتحرك مستقلة عن السرعة التي يتحرك بها. ويبدو هذا تأكيدا للفكرة الميتافيزيقية القائلة بأن المادة والحركة حقيقتان متميزتان.

أما النزعة المادية فهي تقول، على العكس، بأن الحركة صفة أساسية للمادة و أن المادة *هي حركة*، وتخيل ديمقريط الذرات التي تكون العالم تدفعها حركة خالدة.

ولقد أثرت هذه الأفكار في عصـــر النهضـــة، وقـــام غـــاليلي، فـــي مطلـــع القـــرن السابع، بدراسة سقوط الأجسام دراســـة علميـــة، كمـــا أدى تطـــور الرياضـــيات إلـــى التدليل، لأول مرة، على حركة الجسم الـــذي يهـــوي إلـــى الأرض بصـــورة مرضـــية. وهكذا أدى تقدم العلـــوم إلـــى تقـــدم النزعـــة الماديـــة، وظهـــور الفلاســـفة، ومـــنهم ديكارت، الذين قالوا بأن كل شيء في الطبيعة تفسره قـــوانين حركـــة الأجســـام. فحـــل محل تأثير الفعل الإلهي حتمية صارمة.

يفسر لنا هذا النزعة المادية الفرنسية في القرن السابع عشـــر، وهـــي تمثـــل تقـــدما عظيما بالنسبة لمختلف صور النزعة المثالية الدينيـــة. ومـــع ذلـــك فقـــد كانـــت هـــذه النزعة المادية ناقصة، ذلك لأن علم الميكانيكا، كما رأينـــا، كـــان يســـاعد آنـــذاك علـــى افتراض أن الحركة قد جاءت إلى المادة "منذ بدء الخليقة" ممـــا يتـــرك المجـــال لعـــودة النزعة المثالية الدينية. ومع ذلك فقد دافـــع أقـــوى المفكـــرين، أمثـــال ديـــدرو، بنجـــاح عن الفكرة القائلة بأن الحركة صفة كامنة في المادة.

غير أنه يجب هنا أن نشـــير إلـــى واقـــع تـــاريخي وهـــو أن النـــاس لـــم يكونـــوا يعرفون سوى قوانين الحركة في المكان بصـــورة علميـــة. ولـــم تكـــن صـــور حركـــة المادة الأخرى قد كشفت عن قوانينها، ولم تكن علـــوم الكيميـــاء، والحـــرارة، والحيـــاة قد ظهرت للوجود. ولهذا فسرت جميع الظواهر التي تدرســـها هـــذه العلـــوم بواســـطة أسباب ميكانيكية. فضل العلماء في جهلهم ميزة كل شـــكل مـــن أشـــكال الحركـــة فـــي المادة، ومن هنا نشـــأ اســـم النزعـــة *الماديـــة الميكانيكيـــة* المغاليـــة (Materialisme mecaniste) الذي أطلق على النزعة المادية في ذلـــك العصـــر. ويلاحـــظ انجلـــز أن ذلك يدل على ضيق أفق النزعة المادية السابقة على ماركس.

ولهذا لم تنجح هذه النزعة الماديـــة فـــي تفســـير الأشـــكال العليـــا لحركـــة المـــادة، كالحياة والفكر.

فقد كان الديكارتيون، مـــثلا، يعتقـــدون أن الحيوانـــات لا روح لهـــا، فهـــي أشـــبه بالآلات. فكان أن أخذ العلمـــاء يحـــاولون صـــنع الإنســـان الآلـــة (Robot) لتقليـــدها.

غير أنه من الواضح أن الجسم الحي لا يشبه الآلة مهما كان نصيبها من الدقة والأحكام، وبالرغم من أن "بطة فوكانسون" الشهيرة (Canar de vaucanson) كانت تقوم بجميع وظائف الحياة فأنها كانت تهمل وظيفة التناسل.

وهكذا تشوه النزعة المادية الواقع. كما أنها تجعل من الإنسان ثمرة سلبية للطبيعة لا تأثير له في المادة ولا حول له ولا حرية.

وتعتمد النزعة المثالية في هجماتها في الواقع على النزعة المادية الآلية التي تتيح لها فرصة نادرة لمثل هذه الهجمات فتلح في القول على جوانب الواقع التي تشوهها النزعة المادية الآلية.

ومن هنا كان القول "عن النزعة المادية التي تجعل من الإنسان آلة وإنسانا آليا" حتى إذا ما أخذنا بدراسة صور الحركة المادية الأخرى كالحرارة والكهرباء والمغناطيس والعمليات الكيمائية والحياة لم تعترف النزعة المثالية بهزيمتها. فهي تعلن، معتمدة على القول بأن المادة جامدة، أن الله قد وهب المادة "قوى" كالقوة الكهربائية والقوة المغناطيسية والقوة الكيمائية والحياة والروح وأن المادة لا تستطيع خلق جميع هذه القوى. ذلك هو رأي الفيزيائي الإنجليزي جول (١٨١٨ ــ ١٨٨٩).

ولقد استطاعت النزعة المادية الجدلية أن تفسير هذه الظواهر تفسيراً مرضياً فدلت على أن هذه الظواهر أنما هي صور لحركة المادة، وأن المادة لا تستطيع فقط إحداث الحركة بل تستطيع أيضا إحداث تغييرات نوعية، وأنها تملك ديناميكية داخلية نشيطة وقدرة على الخلق تعتمد على وجود التناقض داخل الأشياء ذاتها.

وصفنا هذه النظرة الجدلية لحركة المادة عند دراستنا للجدلية، ولقد أثبتت العلوم صحة هذه النظرة. ولهذا يؤكد ستالين في النص الذي ذكرناه آنفا أن مادية مختلف ظواهر الكون لا يمكن فهمها علمياً إلا إذا قامت قوانينها على نهجٍ جدلي، والا أتاح العلم الفرصة لكل تفسير مثالي.

والاكتشافات العلمية الكبرى التـي أظهـرت بوضـوح جدليـة الطبيعـة وأتاحـت تجاوز النزعة المادية الآلية وأقامة النزعة المادية الجدلية هي ثلاثة اكتشافات:

أ) اكتشاف *تحول الطاقة* الذي أوجد فكرة التغير النـوعي وأظهـر مختلـف القـوى الفيزيائية على أنها مظاهر لحركة المادة.

ب) اكتشاف *الخلية الحية* الذي كشف سر تكـون الأجسـام الحيـة وأتـاح تصـور الانتقال من الجسم الكيمائي إلى الجسم الحيوي، وإدراك نمو الكائنات الحية.

ج) اكتشاف *تطور الأنواع الحية* الـذي قضـى علـى الحـاجز الميتـافيزيقي بـين مختلف الأنواع، بـين الإنسـان وسـائر أنـواع الطبيعـة، وكـذلك اكتشـاف *نظريـة التطور* عامة التي أظهرت الكون جميعـاً، والمجتمـع الإنسـاني، علـى أنـه تطـور تاريخي طبيعي، فإذا بالمادة تبدو وكأنها تصاعد في نمو تاريخي.

ومع ذلك كـان لا بـد مـن إنتهـاج المـنهج الجـدلي بقـوةٍ لإدراك أهميـة هـذا الاكتشاف وهذا ما فعله ماركس وانجلز.

وهكذا يبدو أن النزعة الجدلية هي الوحـدة التـي اسـتطاعت أن تفسـر الظـواهر العليا كالحياة والفكر تفسيراً طبيعيـاً دون أن تنـزع مـن هـذه الظـواهر أيـة ميـزة خاصة أو تعتمد على مساعدة "مبـدأ حيـوي" أو "روحـي" فمـا هـي تفاصـيل هـذا التفسير؟ يجيب العلم على هذا السؤال، ذلك العلم الـذي تنيـر طريقـه النزعـة الماديـة الجدلية، العلم الذي نادى بـه ميتشـورين وليسـكنوا وأولجـا لبيشنسـكايا وستشـنوف وبافلوف وأمثالهم.

تؤمن النزعة المادية الجدلية بالعلم، بينمـا تسـرع النزعـة المثاليـة إلـى إعـلان عجزها كما لو أنها كانت تنتظـر جوابـا جـاهزا. ولا يطلـب جوابـاً مباشـراً علـى المشاكل التي تقف في وجه العلم إلا الأغبيـاء. ولـيس لـدى العلـم جـواب جـاهز، وأما النزعة المثالية فلديها مثل هذا الجواب وهو القول بوجـود "الـروح". ولكـن هـذا القول ليس سوى كلمة تخفي الجهل وراءهـا. ولمـا كانـت "الـروح" لا تمتـاز بأيـة

صفة من الصفات المادية المعروفة فأنها تسمح "بتفسير" كل ما يتعلق بصفات المادة المجهولة. ولهذا يقول المثالي:

"أنسب كل ما اجهله إلى الروح".

يتصور المثالي، الذي يأخذ على النزعة المادية أنها لم تتطور منذ ألفي سنة(!) وأنها تردد دائما نفس الشيء، المادة بصورة جامدة لا تتغير. حتى إذا ما اكتشف العلم وجها جديدا لحركة المادة الشاملة وضاق مجال "التفسير" المثالي أسرع المثالي إلى القول بأن "المادة" قد زالت وتبخرت الخ. أما الذي تبخر حقيقة فهي الفكرة الضيقة الآلية الميتافيزيقية التي تصورها عن المادة ولا غير. إذ لا يجب أن نخلط بين الأفكار *العلمية* المثالية عن المادة التي تعبر عن حالة معلوماتنا في فترة معينة من الزمن وبين الفكرة *الفلسفية* عن المادة التي تقوم عليها الأبحاث العلمية.

قال انجلز: "يجب على النزعة المادية أن تتخذ طابعاً جديداً مع كل اكتشاف كبير جديد".

نخلص من ذلك إلى القول مع انجلز بأن "الحركة هي صورة الوجود للمادة" وأن منبع الحركة والديناميكية قائم في المادة نفسها.

ولهذا لا تعني النظرة المادية للطبيعة سوى فهم الطبيعة كما هي بدون أي عامل أجنبي[١٢٢].

122 راجع انجلز " شذرة لم تنشر من "فورباخ" في دراسات فلسفية" ص ٦٨، المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥١

٤ – الضَرُورَةُ الطَبيعيَّة

يجب أن نوضح القول من جديد إذ أردنا أن ندرك تماماً فكرة "الحركة الذاتية" للمادة. إذ أن هذه الحركة الذاتية تؤدي لظهور كائنات طبيعية لها صور معينة مما يتيح الفرصة لهجوم جديد تشنه النزعة المثالية.

كيف نفسر مثلا أن قطع الثلج تتبلور دائما بصورة هندسية معينة؟ وكيف أن بيضة الدجاجة تفقس صوصاً وبيضة الطير تفقس طيراً صغيراً بينما هذان الحيوانان لا يوجدان في البيضتين؟ لأن هاتين البيضتين لا تختلفان في *المادة* وإنما في *الصورة* فقط. نرى أن هذا السؤال عام يمكن إثارته في جميع أجزاء العلوم "الوصفية" لأنها تدرس الصورة والأشكال، الأشكال الجغرافية والأشكال المتبلورة والصور النباتية والحيوانية والنحوية ولا تهمل ضروب الحركة والسلوك التي تسمى "بالغرائز" في الحيوانات.

ترد النزعة المثالية على ذلك بقولها أن *صورة* الشيء الطبيعي تتحقق بواسطة المادة، ولكنها موجودة قبل هذا "التحقق"، وأن الصورة هي التي تقرر نمو الكائن الطبيعي، فهي تكون "مصيره" وإذا بالطبيعة تخضع "لمخطط" سابق عليها.

وكذلك "يُوجه" التطور مسبقاً، فهو لا يتقرر بواسطة ظروف حياة الأجسام الحالية بل بواسطة "هدف" تسعى للوصول إليه، فإذا "بالغريزة" عبارة عن مظهر "لقصد" ((Intention الحيوانات الأعمى. وهكذا تكشف الطبيعة عن وجود "عقل" في داخلها. ولكن أين يمكن أن توجد "الصورة" و "المخطط" و "الهدف" و "العقل" إذا كانت سابقة على نمو المادة الناقص؟ لا يمكن أن توجد الا داخل "عقل" سام يتصورها. هذه العقيدة هي عقيدة الغائية (Finalite). ونحن نرى بذلك أن "الغائية" هي نتيجة للنزعة المثالية التي تعتبر العالم تجسيداً لفكرة.

أما جواب النزعة المادية الجدلية فهو يختلف عن ذلك (أما النزعة المادية الآلية فهي تعجز عن الإجابة).

بل تترك المجال واسعاً أمام القول بوجود الغائية. تـــرى النزعـــة الماديـــة الجدليـــة أن *الصـــورة* (La forme) تتعـــين بواســـطة *المحتـــوي* (Le Contenu) الحـــالي أي بواسطة "العلاقات والظـــروف المتبادلـــة بـــين الظـــواهر"، بواســـطة الحالـــة الراهنـــة للمادة وحال التناقضات التي تنمو داخلهـــا والتـــي تـــرتبط بظـــروف البيئـــة المحيطـــة بها. وأفضل دليل على ذلك أنه يمكننا أن نتدخل في نمو صورة معينة.

ولقد برهن علماء الحياة (البيولوجيـــون)، بواســـطة التجربـــة، علـــى العلاقـــة بـــين الصورة والمحتوى. فلو أننا نقلنا جزءاً صغيراً مـــن مـــادة بيضـــة تنمـــو الـــى مكـــان آخر من البيضة لشاهدنا نمو قدم في غير مكانهـــا. وهكـــذا نخلـــق بصـــورة صـــناعية كائناً غريباً ولا تتميز مختلف أجزاء مادة البيضـــة عـــن بعضـــها، خـــلال العمليـــة، الا بصفاتها الكيمائية وبطبيعة المواد التي تتجمع فيها. ويتنـــوع هـــذا المحتـــوى الكيمـــائي بتأثير الظروف الخارجيـــة (كـــالحرارة مـــثلا)، وعلـــى أســـاس تناقضـــاته الداخليـــة. فالذي يعين صورة جسم الحيـــوان هـــي الطبيعـــة الحيويـــة الكيمائيـــة لمـــادة مختلـــف بيوض الأنواع المتعددة. وهكذا نرى أن نمو المحتَوى يســـبق نمـــو "الصـــورة" ولـــيس هناك أي تصوير[١٢٣] ســـابق (Preformation) مثـــالي. ولـــيس هنـــاك أيـــة صـــورة بذاتها (Forme- en-soi) معينة سابقاً. ولـــو كـــان الأمـــر كـــذلك لوجـــب أن يكـــون جميع أفراد نوع ما متشابهين تماماً.

أما النزعة المادية الجدليـــة فهـــي تـــرى أن الصـــورة لا يمكـــن أن توجـــد بـــدون محتوى معين، كما أن المحتوى لا يمكن أن يوجد بدون صورة معينة.

ولا يعني القول بأن المحتـــوى لا يمكـــن أن يوجـــد بـــدون الصـــورة أن الصـــورة هي التي تعينه وتحدده؛ بل هـــو الـــذي يعينهـــا ويحـــددها. يعنـــي ذلـــك أن الصـــورة ليست سابقة في الوجود، ولا هي أزلية بل تتغير حسب التغيـــرات التـــي تطـــرأ علـــى

123 تستعمل كلمة "تصوير" هنا بمعنى "تكوين" كقوله تعالى في القرآن: "وهو الذي يصوركم في الأرحام" (المعرب)

المحتوى. يتغير المحتوى أولا بتغير ظروف البيئة المحيطة بـه. ثـم تتغيـر الصـورة حسب تغير المحتوى، ونمو التناقضات الداخلية في المحتوى. نتج عن ذلك أن الصورة بدلا من أن تسبق النمو في الوجود، تعكسه لنا *فتتأخر بذلك* عن المحتوى.

يسبق المحتوى الصورة خلال النمو وتتأخر الصورة عن المحتوى: ولا يمكن وجود المحتوى بدون الصورة ومع ذلك فأن الصورة لا تتفق تماماً مع المحتوى لتأخرها عنه ولهذا "يضطر" المحتوى الجديد لاتخاذ الصورة القديمة مؤقتا فينشأ عن ذلك النزاع بينهما[١٢٤].

فكيف يحدث في كل حالة وفي كل ميدان من ميادين الطبيعة والمجتمع ظهور صورة جديدة تحت ضغط المحتوى التالي الذي يبحث عن صورة جديدة ويسعى نحوها؟ (ستالين).

على العلوم أن تجيب على ذلك، تلك العلوم التي تضيء النزعة المادية الجدلية الطريق أمامها، والشيء الثابت أن تأخر الصورة عن المحتوى يحدث عدم الانسجام في الطبيعة. وهكذا بدلا من أن تشيع الانسجام في الطبيعة، فأنها مفعمة "بالتناقضات" والعيوب.

نرى أن النزعة المادية الجدلية تقضي على النظرية المثالية في الغائية قضاءً مبرماً. كما أنها ترفض الحتمية الآلية التي تتصور فعل مختلف الظواهر بعضها في البعض بصورة آلية لا تتبدل.

تحمل النزعة المادية الماركسية إلى العلم عقيدة مثمرة تقوم على القول بأن القوانين التي تكتشفها والعلاقات التي تقيمها بواسطة المنهج الجدلي ليست علاقات اعتباطية بل هي قوانين ضرورية للمادية في حركتها.

---

124 راجع ستالين.

يجهل العلم المادي قلق "التجريبيين" الذين يكتفون بمراقبة تتابع الظواهر فيتساءلون دائما إذا كانت الشمس ستشرق غداً!

ويعتمد العلم المادي على الفكرة القائلة بأن القانون العلمي يعبر عن ميزة موضوعية للمادة، كما يعبر عن *حتمية* ظهور ظاهرة معينة خلال *تطور في ظروف معينة*.

ولقد أشار انجلز إلى حتمية ظهور الحياة فوق كوكب معين حين تجتمع الشروط الضرورية، وحتمية ظهور الإنسان خلال تطور الأنواع، ومن ذلك ظهور الإنسان فوق كوكب آخر وفي وقت آخر إذا ما توفرت الظروف الضرورية لظهوره.

هذا ما يجب فهمه من *الضرورة الطبيعية*، ومن *وحدة* الكون *وشمول* قوانين المادة.

ينتج عن ذلك أنه لا يمكننا خلق قوانين الطبيعة أو المجتمع أو القضاء عليها بل كل ما يمكننا هو اكتشافها.

يمكن اكتشاف هذه القوانين ومعرفتها ودراستها والأخذ بها في أفعالنا واستغلالها لخير المجتمع، ولكن لا يمكننا تغييرها أو القضاء عليها. فلا يمكننا إذن خلق قوانين جديدة *للعلم*"[125].

فالنزعة المادية الجدلية إذن هي وحدها التي تمدنا بأساس نظري متين *للتنبؤ العلمي* بظواهر الطبيعة والمجتمع، وتقضي على الشك بنتائج عمل نقوم به على أساس معرفة علمية للواقع. فهي تضمن للإنسان، إذن، أقصى *اليقين* وأقصى *الحرية* إذ تمكنه من العمل باطمئنان ويقين.

---

125 راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في روسيا" آخر مؤلفات ص ٩٤

٥ – المَارْكسِيَّة وَالدّين[126]

يتيح لنا كل ما رأيناه حتى الآن أن نقدر ضعف الصورة الذائعة للنزعة المثالية الموضوعية ألا وهو الدين.

نعرف مثلا أن الدين المسيحي يتطلب تدخل أله خلاق لتفسير العالم. ونرى الآن علام يقوم هذا الطلب:

أ) تعتقد النزعة المثالية أن المادة سلبية جامدة: لهذا وجب أن تتلقى حركتها عن الروح.

ب) تعتقد النزعة المثالية أن المادة لا تملك بنفسها أية ضرورة طبيعية أو أية وحدة. ولهذا وجب أن يقوم روح آخر بالمحافظة على قوانين المادة.

ت) تعتقد النزعة المثالية أن المادة لا تمر بتطور تاريخي في نموها: للعالم إذن بداية كما ستكون له نهاية، ولهذا وجب أن يكون قد خلق على يد كائن أبدي.

أما النزعة المادية فأن نظرتها إلى المادة ونموها الداخلي الضروري يؤدي بها إلى النظرية القائلة بخلود الكون ولا نهائيته في تحوله المستمر، والقول بأن المادة لا تفنى وليست مخلوقة.

ولهذا طالب ديدرو بأن لا يُفسر العالم حتى لا يصعب فهم خلود المادة عن طريق خلود آخر أصعب من الأول.

ولقد زعزعت الاكتشافات العلمية، منذ عهد ديدرو، مكانة القائلين بالخلق. كما وضع الفيلسوف الألماني "كانت"، منذ القرن السابع عشر، فرضيته المشهورة حول تطور النظام الشمسي، ثم دلل عليها فيما بعد لابلاس الفرنسي بصورة علمية ورد على نابوليون، الذي كان يشكو من أنه لا يرى الله. بهدوء قائلا:

---

126 ليس المعرب بحاجة لأن يشير هنا إلى أنه،كمسلم يؤمن بوجود اله خالق قدير لا يشارك الماركسيين في عقيدتهم عن الدين

"سيدي! لست بحاجة إلى هذه الفرضية". كما أن اكتشاف ليل (Lyele) الإنجليزي في ميدان تطور الأرض، ولامارك الفرنسي، ولا سيما دارون في ميدان تطور الأنواع الحية، قد أدت إلى قيام نظرية التطور العامة، وخلقت وراءها النزعة المادية القديمة التي كانت تفتقر إلى هذه النظرية التاريخية عن الكون. وكان ذلك هو النقص *الثاني* فيها الدال على *ضيقها* المحتم[127].

وأخيراً امتدت هذه النظرية التاريخية بفضل اكتشافات ماركس وانجلز في ميدان العلوم الاجتماعية الى جميع ظواهر الحياة الاجتماعية وقضت على النقص *الثالث* في النزعة المادية القديمة التي لم تكن تعتبر المجتمع الإنساني كتطور تاريخي طبيعي.

ولقد كتب لينين يقول: *"أن نظرية الفيلسوف القديم هيرقليط المادية ـ الذي كان يرى أن العالم واحد لم يخلقه آله أو إنسان، كان وسوف يظل شعلة خالدة حية تتوهج وتنطفىء حسب قوانين معينة ـ أنما هي عرض رائع لمبادىء النزعة المادية الجدلية*[128]".

ولقد غير ظهور النزعة المادية الجدلية النقد الديني والفقهي، اذ كان الفلاسفة العقليون فيما مضى ينتقدون الإله المسيحي فيوضحون التناقضات العديدة التي تؤدي إليها تلك الفكرة.

إذا كيف يمكن لروح صرف أن يولِّد المادة؟ وكيف يمكن لكائن لا يخضع للزمن وللصيرورة والتغير، بل يظل سرمدياً في خلوده الأبدي، أن يخلق العالم في لحظة معينة من الزمن؟ وكيف أمكن لكائن "خير" أن يخلق الحيوانات المضرة والهزات الأرضية والأمراض التي يرمز إليها الفرسان الثلاثة السود في النبوءة.

---

127 وكان النقص الأول في النزعة المادية طابعها الآلي. راجع المسألة٣

128 راجع لينين. "كراسات فلسفية".

هل كان بامكان الله القوي الجبار أن يجعل مجموع اثنين مع اثنين خمسة، وأن يمسي الصحيح خطأ؟ وإذا لم يستطع ذلك فهل هو قوي جبار؟ وإذا كان كاملاً فهل يستطع معاقبة الظلم؟ وإذا كان خيراً فهل يمكنه أن لا يكون رؤوفاً ومن ثم ظالماً؟ الخ...

أظهر النقد العقلي بحق جميع المستحيلات التي تحتوي عليها فكرة "الله" وجميع التناقضات التي تكشف عنها، تلك التي يعترف بها علم الكلام ويستعين من أجلها بفكرة "السر" الإلهي الذي لا يمكن للخليقة أن تسبر غوره، كما يستعين بفكرة الشيطان لوضع فكرة الخطيئة الأصلية المزعومة.

أخذ الفلاسفة المثاليون العقليون إذن على أنفسهم أن يعيدوا النظر في فكرة الإله المسيحي فجاءوا بأفكار يستحيل كل منها أكثر من الأخرى وإذا بها تثير صعوبات جديدة كلما خيل إلينا أن الصعوبات السابقة الذكر قد زالت.

أما الماديون السابقون على الماركسيين فقد اصطدموا أيضا بجميع الصعوبات التي اشرنا إليها سابقا: كتفسير الحياة والفكر وتفسير ضرورة العالم وما في الطبيعة والظواهر الاجتماعية، من تناقض، وما عادت به من آلام على الإنسانية كالمرض والموت والجوع والحرب.

ولقد أثارت النزعة المادية الجدلية هذه الصعوبات وفقدت فكرة "الله" كل محتواها: ولم يعد النقاش حول وجود الله أو عدم وجوده، ذلك النقاش الذي أثارته النزعة الإلحادية الساذجة غير الماركسية، يثار كما أشير سابقاً. لقد أصبح الله، كما قال لابلاس، فرضية لا نفع فيها. وحل محل *مشكلة وجود الله مشكلة وجود فكرة الله في رؤوس الناس*. هاتان مشكلتان لا تميز النزعة المثالية الموضوعية بينهما.

ولا شك في أن فكرة الله والعواطف الدينية والديانة موجودة، وهي تتطلب تفسيراً: وبدلا من القول بأن الإنسان كائن "الهي" يجمع في ذاته العنصر الطبيعي والعنصر الإلهي، كما يجمع عنصر الموت والخلود في هذه الحياة وفي الحياة

الأخرى، يجب القــول بــأن "الله" و"الديانــة" همــا ظاهرتــان إنســانيتان لأن العنصــر الإلهي هو من إبداع الإنسان وليس الإنسان هو من إبداع الله.

ولقد قال فولتير في حديثه عن الأديان بأنه "إذا كــان الله قــد خلــق الإنســان فــأن الإنسان قد رد له هذا الجميل". ولقــد بــدأ المــادي الألمــاني فوربــاخ بنقــد الظــاهرة الدينية من زاوية جديدة، ثم جــاءت النزعــة الماركســية بالعناصــر النهائيــة لتفســير الدين وهاك مبادىء هذا التفسير:

١) أن الصــور البدائيــة للديانــة، وكــذلك المراســيم الســحرية والتفســير المثالي البدائي للظواهر الطبيعية والاجتماعية، وكذلك أسمى صور الديانــة التــي تقــوم علــى نظريات فلســفية وأخلاقيــة ومراســيم ســحرية "روحانيــة" كالصــلاة والاضــحيات التصوفية تعبر جميعاً عن معطى معين حقيقي عن الفعــل الإنســاني الا وهــو عجــزه النسبي الكبير في مطلع الإنسانية، وهــو عجــز أمــام الطبيعــة، ذلــك العجــز الــذي يتعلق بنمو الإنتاج الضعيف"[١٢٩]. وهو أيضاً عجــز أمــام الظــواهر الاجتماعيــة الــذي يتعلق بالاضطهاد الطبقي وفقدان الأمل وضعف الوعي الاجتماعي.

يعرف كل واحد منا أن على المراســيم الدينيــة أن تضــمن النجــاح والفــوز "فــي الأعمال" والانتصار على العدو، وأن تعــود بالســعادة الأبديــة، الــخ.. وهكــذا تبــدو الديانة كأنها وسيلة يستخدمها الإنسان لبلــوغ أهدافــه، وهــي مراســيم تتعلــق بجهــل أسباب شفائه وسعيه نحو السعادة.

ولكن إذا كانت الديانة تعكس لنــا معطيــات الحيــاة العمليــة فأنهــا تصــور هــذه المعطيات معكوسة. وهي لا تعكســها حســب المعطيــات الموضــوعية بــل حســب المعطيات الذاتية. فهي تعكــس لنــا رؤى الأحــلام ورغبــات الإنســان الــذي وقــع فريسة للجهل. فيصبح "الله" المنقذ الأسمى، وأكمــل الكمــالات. ولا تعبــر التناقضــات التي وجدناها في فكرة "الله" الا عن التناقضات الداخلية فــي أفكــار "الكمــال المطلــق"

---

129 راجع الدرس السابق، مثال قضيب الصاعقة، الدرس الثامن، المسألة الخامسة.

و "المعرفة المطلقة" و "السعادة المطلقة" التي يصنعها الإنسان لنفسه. وهي أفكار خيالية ميتافيزيقية يعكس *فيها* تناقضات العالم الواقعي والرغبات الخيالية التي تصورها في جهله.

وتختصر فكرة الله جميع التناقضات التي تصبح ميتافيزيقية مطلقة لا يمكن حلها.

فالديانة إذن هي نقيض العلم المادي الجدلي الذي يعكس لنا تناقضات الواقع باخلاص وبدون أية زيادات غريبة خيالية كما قال انجلز:

"تكمن أصول الديانة في النظريات المحدودة الجاهلة التي تنشأ في حالة الهمجية[130]".

٢) يجب مع ذلك أن نقدر أهمية عامل آخر في دراستنا للدين، ذلك لأن الديانة لما كانت تتولد من الجهل فأنها تحل محل التفسيرات العلمية تفسيرات خيالية فتعمل بذلك على ستر الواقع وإسدال الستار على التفسير الموضوعي للظواهر، ولهذا كان الرجل المتدين مناوئاً لمبادىء العلم التي هي عمل الشيطان لأنه حريص على أوهامه. وتستخدم الطبقات المستغلة هذه الخاصية لاهتمامها بإخفاء استغلالها عن أعين الطبقات الكادحة كما أشرنا إلى ذلك في الدرس السابق. فهي بحاجة إلى سلبية هذه الطبقات وجمودها كي يستمر اضطهادها، كما أنها بحاجة لخضوعها وايمانها بالقضاء المحتوم. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية يجب توجيه أمل الجماهير بالسعادة نحو العالم الآخر. وهكذا يعرض الأمل والعزاء بدخول الجنة على أنهما تعويض عما بذلته الطبقات الشعبية من تضحيات على الأرض. فيتحول الاعتقاد بخلود النفس، الذي كان ينظر إليه في القدم على أنه مصيبة مرهقة، إلى أمل بالخلاص في الآخرة.

---

130 لودفيج فورباخ، ص ٥، "دراسات فلسفية" ص ٢٥.

استخدمت الديانة، إذن، منذ أقدم العصور كقـوة فكريـة "للمحافظـة علـى النظـام" وكأفيون للشعب حسب قول ماركس بالرغم من أن الطبقـات الحاكمـة المسـتتيرة لـم تعد تعتقد بأية كلمة من النظريات التـي كانـت تعمـل علـى اسـتمرار تاثيرهـا فـي الطبقات الشعبية.

فكان الكهان في مصر القديمـة "يختلقـون" المعجـزات بتحريـك تماثيـل الآلهـة، كما كان الرومان يؤكدون أن هناك "فـألين لا يمكـن النظـر إليهمـا بـدون الضـحك" كما كان شيشـرون يقـول بـأن الديانـة مفيـدة للنسـاء والعبيـد. وكـذلك اسـتخدام الرجعيون الديانة في النظام القديم للتخفيف من تقدم العلـم فسـعوا إلـى منـع الأبحـاث الطبية كالتشريح والتلقيح كما عملـوا علـى الحكـم علـى غاليلـه لأنـه أدعـى بـأن الأرض ليست مركز العالم، كما أتهم متشـورين فـي القـرن العشـرين فـي روسـيا القيصرية بأنه خارج على الدين أمام شـرطة القياصـرة لأنـه كـان يقـوم "بتطعـيم" الأنواع النباتية!

ولقد وجهت النزعة المادية الفرنسية فـي القـرن الثـامن عشـر ضـربات قاسـية إلى الديانة. ثم عادت الديانة إلـى سـابق عهـدها فـي بلادنـا بفضـل سلسـلة مـن القرارات السياسية الرجعية بعد الثورة وفي خـلال القـرن التاسـع عشـر، ولا سـيما بعد سقوط الإمبراطورية الأولى بعـد حزيـران عـام ١٨٤٨ أثـر كومـون بـاريس. وعلى عهد فيشي وكان إخراج المعجزات المختلفة من وسائل الاستعمار.

ويمثل "كنت" معاصر ثورة ١٧٨٩ الاسـتخدام السياسـي للديانـة، علـى المسـتوى النظري، بالرغم من فشل مضـمون الديانـة الفلسـفي. فهـو يعتقـد أن وجـود الله لا يمكن البرهنة عليه. ومع ذلك يجب "قبـول" هـذا الوجـود لأنـه بـدون هـذه الفكـرة يصبح كل شيء مباحا، فيزول القاضي العـادل الأكبـر، وتـزول الشـرطة السـماوية، كما يزول الثواب والعقـاب، فيتخـاذل الشـرير ويتجـرأ. وهكـذا يتزعـزع النظـام البرجوازي. الله إذن سـلاح الثـورة، ولـيس مـن الضـروري التأكـد نظريـا مـن وجوده، بل يكفي قبول هذا الوجود عمليـاً ونفعيـاً. أليسـت تلـك عـادة البرجوازيـة

الدائمة في المسائل الدينية؟ وهل هناك دليل أروع على فشل النزعة المثالية الدينية النظرية؟

لقد وضع انتصار النزعة الاشتراكية التاريخي حداً لسيطرة الطبقات الرجعية. وهكذا فقدت الديانة قاعدتها الاجتماعية كقوة فكرية في خدمة هذه الطبقات. ولكنها ظلت بعض الوقت في ضمائر الناس.

ولهذا يستمر في النظام الاشتراكي نضال نظري بين العلم والدين، بين الجهل والمعرفة. وهذا النضال جانب من جوانب عملية المعرفة، لأن المعرفة تتقدم بواسطة النضال[١٣١]. ذلك هو مضمون مبدأ حرية الوعي في الاتحاد السوفياتي.

٦ – الخلاصة

نخرج من هذا الدرس بفكرة عن مادية العالم. فالنزعة المادية الجدلية في أيامنا هي النزعة الثورية الوحيدة. فإذا كانت "فكرة الله" أو فكرة "الروح" الخ... ليست سوى فكرة فارغة ورمز للدلالة على جميع ألوان الجهل الماضية للإنسان "فليس هناك أي منقذ أعلى" كما تقول العالمية.

ليس للإنسان ما يرتجيه ألا ما يكسبه بنفسه في هذه الحياة الدنيا، والنزعة المادية تعلمه أن يرى "العالم كما هو"، العالم في وضعه الصحيح وليس بالمقلوب.

وبدلا من أن يقضي النزعة المادية على الإنسان فأنها على العكس تظهر له أن ليس هناك *"مصير" أو "قدر"* وأنه يستطيع، بواسطة المعرفة العلمية للواقع، أن يتمتع بحياة جديدة، وأن يتعرف على السعادة في الحياة.

131 راجع الدرس الحادي عشر، المسألة ٣. والدرس الخامس، المسألة ٣ ب.

وكما كان يقول الفيلسوف المادي اليوناني أبيقور فأن النزعة المادية تحرر المعرفة الإنسانية المضطهدة منذ آلاف السنين لخوفها من الغضب الإلهي والخوف من الدولة و "النظام القائم" اللذين يتمثل فيهما ما يسمى بقوى "العناية الآلهية".

كما أن النزعة المادية تؤدي، كما قال ماركس، إلى الاشتراكية.

وليس هناك من تكفير عن خطيئة، كما أدعى بيتان، كما أنه ليس هناك من قضاء مقدر "مكتوب" وليس هناك أبد خالد سوى المادة المتحركة. وكما أن علم الأمراض يساعد على محاربة هذه الأمراض بمحاربة أسبابها فكذلك معرفة أسباب الحرب تساعد على محاربة الحرب. وكلما كانت معرفتنا أفضل بالأسباب التي تؤدي إلى الحروب حتما كلما ازداد تسلحنا لمحاربتها بصورة فعالة.

الحرب إذن ليست قضاءً لا يمكن الهروب منه. وبدلا من أن تولد النزعة المادية السلبية والاستسلام فأنها دعوة للعمل فهي تتيح لنا معرفة ما هو ممكن، كما تتيح لنا تحديد مقدرة الإنسانية *الفعلية*. هذه هي الحرية فهي ليست أعلانا أجوف بل هي قدرة فعَّالة.

الدّرسُ العَاشِر

ميزَة النزعَة المادّية الماركسيَّة الثانية

المادة سَابقة عَلى الوَعي

١ – حيلة جديدة مثالية
٢ – النظرة الماركسية
أ) موضوعية الكينونة
ب) الوعي انعكاس للكينونة
٣ – الفكر والدماغ
٤ – درجتا المعرفة
٥ – خلاصة

١ ــ حيلَة جَديدَة مثاليَّة

رأينا في الدرس السابق أن نزعة الدين المثالية قد حاربها تطور العلوم منذ عصر النهضة، وأنها تداعت في القرن الثامن عشر تحت ضربات النزعة المادية. فظهرت عندئذ صيغة جديدة للنزعة المثالية لتحل محل النظرة التي أخذت بالأفول.

ونجد هذه الصيغة إلى أيامنا عند عدد من الفلاسفة. وهي من صنع الراهب الإنجليزي باركلي (١٦٨٥ ــ ١٧٥٣).

وتهدف هذه النزعة إلى تقويض الأهمية النظرية للاكتشافات العلمية وذلك بمحاولة البرهنة على أن المبدأ المادي في العالم لا وجود له. ولما لم يعد بالامكان، في ذلك العصر، القضاء على الماديين بالقائهم في النار كما كان الحال أيام "الاضطهاد الديني" فسوف يقضي على المادة نفسها بالسخرية من أنصارها وإظهارهم بمظهر السذج العاجزين عن "التفلسف"؛ ولهذا فسوف يقرر أن المادة وهم، وهكذا يُقضى على هذه الفلسفة التي تدعي الاعتماد على الواقع.

لن يُتفلسف منذ الآن فصاعدا الا حول موضوع "الوعي" وكل ما تجاوز حدود "الوعي" فهو *ليس موضوعا فلسفيا*.

ولم يكن باركلي يخفي الأسباب التي تعلو على الفلسفة والتي تعمل، حسب رأيه، من أجل هذه النظرة. فقد صرح قائلا:

"إذا ما ازيلت المادة من الطبيعة حملت معها الكثير من النظريات الشاكة (أي الملحدة) الكافرة، والكثير من المناقشات والمسائل المتشابكة.. لأن المادة قد شغلت الناس بدون طائل حتى أنه لو بدت الحجج التي نثيرها ضدها غير مقنعة تماما..، فلن يقلل هذا من اقتناعي بأن أصدقاء الحقيقة (أي النظرية الفكرية الإقطاعية). والسلام (أي النظام الإقطاعي) والدين لهم الحق في أن يتمنوا أن يُعترف بهذه الحجج على أنها كافية[١٣٢]*"*.

كما صرح في موضوع آخر: *"إذا قبلت هذه المبادىء ونُظر إليها على أنها صحيحة، قضي بذلك على نزعة الإلحاد ونزعة الشك تماما، وتوضحت المسائل*

---

132 ذكر ذلك لينين في "النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية" ص ١٧. المطبوعات الشعبية، باريس ١٩٤٨. (التعابير بين الهلالين هي من وضعنا ج. ب – م. ك).

الغامضة، وانحلت الصعوبات المعقدة، وعاد الناس الذين كانوا يلهون بالمتناقضات إلى الرأي العام[١٣٣]" .

ولقد هاجم بار كلي، بتأثير جنونه المثالي، جميع الاكتشافات العلمية لا سيما "الحساب المتناهي في الصغر" في الرياضيات قائلا عنها أنها عبث وغير منطقية ومتناقضة.

ودراسة نظرية بار كلي مهمة لأنها تعبر جيدا عن جوهر النزعة المثالية الحديثة. فهي مصدر الرأي الشائع، في الجامعات البرجوازية، القائل بأن الرجل المادي مفكر فج كما أنها مصدر احتقار "الفلاسفة المثاليين للعلوم" و "لرجال العلم".

ولم يخطيء ديدرو، حول أهمية مذهب بار كلي الرجعية، حين قال عنه *"بأنه أصعب الفلاسفة على من يريد محاربته وأن كان أكثرهم عبثا. وهذه لطخة عار للفكر الإنساني والفلسفة"* .

فكيف يعمل بار كلي للوصول إلى هدفه؟ عرف ديدرو النزعة المثالية التي أسسها بار كلي كما يلي:

"المثاليون هم أولئك الفلاسفة الذين لا يعون الا وجودهم والأحاسيس التي تتوالى في داخلهم فلا يعترفون بوجود شيء آخر[١٣٤]" .

يجب إذن البرهنة على أنه لا يوجد شيء عدا وعينا وتصوراتنا وأفكارنا. فليس هناك من واقع "خارجي" وكل شيء عبارة عن تصورات عقلية خاصة بنا. حتى إذا ما قضينا على "الوعي" أو *"الأنا"* واختفى معه كل واقع.

وهكذا لا يمكن أن توجد الكينونة والطبيعة والمادة خارج الوعي، وعيي أنا، ومستقلة عنه. لهذا سُمي هذا الضرب من النزعة المادية *بالنزعة المادية الذاتية*.

---

133 راجع بار كلي: "الحوارات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس المقدمة".

134 راجع ديدرو. ذكره لينين: النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية.

ولنصغ الآن إلى بار كلي لنسمعه يقول: *"ليست المادة ما نعتقده حين نفكر بأنها موجودة خارج تفكيرنا. نعتقد أن الأشياء موجودة لأننا نراها ونلمسها. ونحن نعتقد بأنها موجودة لأنها تمدنا بالأحاسيس."*

ولكن أحاسيسنا ليست سوى أفكار كامنة في أذهاننا. ليست الأشياء التي ندركها بحواسنا إذن، سوى أفكار، ولا يمكن للأفكار أن توجد خارج ذهننا"[١٣٥].

ويقول بار كلي: "ضع يديك في الماء الفاتر، ولتكن احدى يديك حارة والأخرى باردة. ألا يبدو الماء باردا بالنسبة لليد الحارة وحارا بالنسبة لليد الباردة؟ هل يجب إذن القول بأن الماء حار وبارد في نفس الوقت؟ أليس ذلك هو العبث ذاته؟ قل معي إذن الماء بذاته لا يوجد ماديا مستقلا عنا. فهو ليس سوى اسم نطلقه على أحاسيسنا. فالماء لا يوجد الا فينا، في ذهننا. المادة باختصار هي الفكرة التي نكونها عنها، فالمادة هي الفكرة!

وهكذا نرى السفسطة التي يصل بواسطتها بار كلي إلى تحقيق هدفه؛ فهو يستخلص من *تعارض أحاسيسي* ونسبيتها أن المادة غير موجودة، فهو ينسى أن يشير إلى أنه بسبب تعارض احاسيسي استخلص أن الماء فاتر. فإذا كان القمر يبدو تارة هلالا وتارة بدرا كاملا، هل ينتج عن ذلك أن القمر غير موجود في الخارج عنا، بل ينتج عن ذلك أن القمر موجود بأحوال تجعلني أراه بصورة مختلفة حسب كل حالة.

إذا قال لي أحد الناس أنه يرى قطعة من القماش الاحمر صفراء، لا استخلص من ذلك أن تلك القطعة لا توجد الا في ذهن كل منا، بل استخلص من ذلك أن هذا الشخص مصاب بمرض. وإذا بدا لي قضيب مكسورا إذا ما أدخل في الماء لا استخلص من ذلك أن هذه الظاهرة لا توجد ألا في وعيي، بل على

---

135 بار كلي: نفس المرجع.

العكس استخلص من ذلك أن انكسار الأشعة الضوئية في الماء ظاهرة موضوعية مستقلة عني.

وهكذا نرى أيضا علام يعتمد بار كلي في سفسطته: على الطريقة الميتافيزيقية في التفكير التي تزيل التعارض في الظواهر وتأثير الظواهر كل منها على الأخرى . فهو يرى أن التناقض لا يمكن أن يوجد الا في الذهن وليس في الواقع الموضوعي. ولهذا يبدو له أنه إذا كانت أحاسيسي متناقضة فما ذلك الا لأن الشيء الذي تمثله لا يوجد الا في ذهني وهو ليس سوى وهم وخيال كآلهة البحر التي تتكون من جسد أمرأة وذنب سمكة.

وهناك مسألة أخرى: فإذا كانت المادة غير موجودة فمن أين يمكن أن تأتي هذه الأحاسيس التي تنبعث "فينا" في كل لحظة؟ الجواب حاضر: الله هو الذي يرسلها ألينا. وهكذا يعود الراهب راهبا بعد رحلته في عالم "علم نفس الأحاسيس" فتأخذ نزعة باركلي الذاتية بيد النزعة المثالية الموضوعية القديمة التي كانت على وشك الزوال. فقد كان بار كلي يأمل بانقاذه "الإله" "الداخلي" أن ينقذ أيضا "الإله" التقليدي الخالق كما ينقذ اللاهوت بأجمعه.

وهكذا تتضح لنا أقوال بار كلي المشهورة:

"الكينونة أنما هي كينونة مدركة أو مدرَكَة" ولكن لما كنت لا أعرف وجود الآخرين الا بواسطة الأحاسيس التي يمثلها لي "ذهني" ينتج عن ذلك بصورة منطقية أن الناس ليسوا سوى أفكار في ذهني. والخلاصة من ذلك أن الموجود الوحيد في العالم *هو وعي*.

ينكر باركلي أن يكون قد قال بهذه الخلاصة التي تسمى (solipsisme) (وهي الفرضية القائلة بوجود الذات لوحدها). ولكن ليس هناك من وسيلة لابعادها عنه إذا كان يريد أن يكون منطقيا مع نفسه؟ ويجب علينا أن لا نغفل الإشارة إلى أن النزعة المثالية، على عكس النزعة المادية الجدلية، لا يمكنها قط أن تكون منطقية مع نفسها لأنها تتراجع دائما أمام هذه الخلاصة غير المنطقية

ولقد حاولت النزعة المثالية الذاتية، بعد بار كلي، أن تتم بحث بعض التفاصيل وأن توجد ألفاظا جديدة تمعن في الغموض لبعث الحيوية فيها والارتفاع برصيد الفيلسوف المثالي! ولكن الطاحونة كانت تطحن نفس الحب.

يقول لينين: *"لم يأت الفلاسفة المثاليون المحدثون بأية حجة ضد الماديين لا نجدها عند الراهب بار كلي"*[١٣٦].

يدل انتشار "فلسفات الذهن" و "الوعي" التي لا تؤمن بوجود المادة بل تعتبرها نتاجا ذهنيا عل استمرار النزعة المثالية الذاتية على طريقة بار كلي.

وهذه هي فلسفة البرجوازية الرجعية المحببة التي انتشرت في المدارس بعد قيام الكومون في باريس والتي تعبر عن خوف البرجوازية أمام ازدهار النزعة المادية وسط البروليتاريا. فإذا بالفلاسفة البرجوازيين يلبون نداء تيير الذي أرسله منذ عام ١٨٤٨، ويحاولون بكل الوسائل إعادة الاعتبار للدين.

وهكذا يبدو الكون للاشوليه على أنه "فكرة لا تفكر بنفسها معلقة بفكرة تفكر بذاتها" وأما بوترو فهو يعتقد أن: "الله هو هذا الكائن الذي نشعر بفعله الخلاق في أعمق أعماقنا خلال جهودنا للاقتراب منه" ويقول هاملين "الواقع هو نتيجة "تركيب" يقوم به ذهننا".

وأما دوهيم فهو يرى أن النظريات العلمية ليست سوى "رموز" يبدعها الذهن الإنساني. ويقول برنشفيك "الذهن لا يجيب الا على الذهن" وأن تقدم العلوم يرجع لتقدم "الوعي " في الغرب. ولن نتحدث عن الأسياد الأقل شأنا من هؤلاء الفلاسفة.

وفي نفس الوقت تحيط "الفلسفة" نفسها بضرب من الأسرار. فلم تعد كلمة "فلسفة" تستعمل إلا كمرادف للنزعة المثالية الرسمية. حتى أن هناك من يدعي أن الاستعمال الحق لهذه الكلمة ليس في إمكان كل إنسان، إذ يجب إتقان معرفة

136 راجع لينين: النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية ص ٢٦.

تلاوة القداس المثالي. وتتعدد الكتب التي تحمل اسم "المدخل إلى الفلسفة" للرد على أولئك الذين لم تنفعهم حجج المثاليين والقول بأنهم ليسوا بالفلاسفة

ويمثل انتصار هذه "النكسة" الفلسفية فلسفة برجسون زعيم المثاليين البرجوازيين منذ ١٩٠٠ ــ ١٩١٤ وقد تحدثنا عنه في الدرس السابق. وقد اعتمد برجسون على نظرية بار كلي دون أن يعترف بذلك فهو يؤكد في مطلع كتابه *"المادة والذاكرة"* أن العالم يتكون من صور، وأن هذه الصور لا توجد الا في وعينا، وأن الدماغ ليس سوى واحدة من هذه الصور.

نخرج من ذلك أنه بدلا من أن لا يوجد الوعي بدون "الدماغ" فأن الدماغ هو الذي لا يوجد بدون "الوعي" إذ أن الوعي "واقع مستقل" والدماغ هو في خدمة الفكر السابق عليه. فإذا ما أصيب الدماغ ظلت الذاكرة... في "اللاوعي". كما كانت تقول الديانات القديمة هناك روح صاف لا سند عضوي له.

ولقد دلل بوليتزر في الفصل الأخير من كتابه *"نهاية استعراض فلسفي: البرجسونيه"*، على المغزي التاريخي المادي لهذه الفلسفة الروحية.

فلقد قام برجسون عام ١٩١٤ وفلسفته الروحية بخدمة المستعمرين الفرنسيين فإذا به يعرض لنا الشعب الألماني كمادة خالية من الروح بعد أن لجأ الروح إلى ثنايا أعلام الاستعمار الفرنسي! كما نرى هذا "الفيلسوف" وقد تولاه الذعر أمام جروح الرأسمالية المحتضرة يجعل المسؤول عن ذلك النزعة الآلية وكتب يقول: *"يمكن أن يؤدي تطور المدنية المادي، إذا ما اكتفى بنفسه ووضع نفسه في خدمة عواطف منحطة ومطامح شريرة، الى أرذل همجية"*.

وهذه نغمة من النغمات ضد النزعة المادية. وهكذا يقوم برجسون بدوره الفكري إلى جانب الرجعية ليصد الناس عن المشاكل الحقيقية ويقلل من شأن العلم.

وكان هوسرل المثالي يؤكد في نفس العصر في ألمانيا أن الوعي يوجد قبل وجود محتواه ويدعو من أجل ذلك باتباع "منهج فلسفي" يقوم على وضع العالم

ومتناقضاته الموضوعية بين هلالين فبدلا من البحث عن أصل الوعي في الواقع يبحث عن أصل الواقع في الوعي. وتلك محاولة يائسة تعكس لنا قلق البرجوازية أمام عجزها عن السيطرة على تطور العلوم التي تضع باستمرار أمام النزعة المثالية مشاكل جدلية جديدة تستعصي على الحل. يعتقد هوسرل أن الجواب على المشاكل الفلسفية التي تثيرها العلوم يجب أن يكون استقلال وجود المادة أو عدم وجودها.

وآخر بدعة للنزعة المثالية هي وجودية هيديجر الألماني وزملائه الفرنسيين (ومن بينهم جان بول سارتر). "والوجود" الذي تتحدث عنه هذه الفلسفة ليس سوى "الوعي الوجودي". وهذا الوعي هو الواقع الوحيد. أما الكينونة والمعرفة العلمية والمعطيات الموضوعية والأفكار التي تعكسها فهي لا قيمة لها. إذ يجب على الأفكار العقلانية أن تختفي أمام "الوجود".

ولا شك أن هذا "الوجود" يحدده "وضع معين" لأن الإنسان يعيش "في وضع معين" غير أن هذا الوضع لا يحدد وعي الإنسان، بل وعي الإنسان هو الذي يحدد وضعه. لأن كل وضع يرجع في النهاية إلى وعي هذا الوضع: ويمكن في كل لحظة أن يكون لنا الوعي الذي نريده، إذ يمكن *"أن يختار المرء نفسه"*. نستخلص من ذلك أن السجين في خليته أكثر حرية من السنونوة في الربيع لأنها لا "تشعر" شعورا وجوديا بحرمانها من الحرية! وهكذا يسخر الوجود من الكينونة، ومن المعطيات الموضوعية لأنه مستقل عنها. ولا توجد المادة إذا ما استطعت عدم الشعور بوجودها. فإذا لم يختر العالم نفسه عاملا فهو ليس بعامل!

وسواء كانت هذه "الفلسفات" ملحدة أم لم تكن فأنها تساعد على انتشار النزعة العينية لأنها تنكر أن يكون العلم ضروريا لحل المشاكل الاجتماعية، وليست المشكلة إذن هي مشكلة الرأسمالية أو الاشتراكية بل هي معرفة ما إذا كان العامل سيختار نفسه ثورياً أم لا. ولهذا لا تشتد الكنيسة في محاربة هذه الفلسفات أو هي لا تحاربها البتة فتسمح ببقاء فلسفة برجسونية مسيحية وفلسفة وجودية

مسيحية. كما أنها تستخدمها لتتخذ طابعا تقدميا ولتحول المفكرين المسيحيين عن التفكير الفلسفي حول التناقضات الشخصية في العقيدة الدينية أو التفكير بالعلوم والنزعة المادية. أما الاشتراكية الديمقراطية فهي تستغل النزعة المثالية الذاتية لتشويه الماركسية.

٢ – النظرية الماركسية

تعتمد النزعة المادية الفلسفية الماركسية على المبدأ القائل بأن المادة والطبيعة والكينونة هي وقائع مادية موجودة خارج الوعي ومستقلة عنه. وهي بذلك تعارض النزعة المثالية التي تؤكد بأن الوعي وحده موجود حقاً وأن العالم المادي والكينونة والطبيعة لا توجد إلا في وعينا وفي أحاسيسنا وتصورتنا.

كما تقول النزعة المادية أن المادة معطى أولى لأنها مصدر الأحاسيس والتصورات والوعي، بينما الوعي هو معطى ثان، لأنه انعكاس المادة والكينونة، وأن الفكر نتاج المادة متى بلغت هذه المادة في تطورها درجة عالية من الكمال. وأن الفكر بصورة أدق هو ثمرة الدماغ. يقول ستالين: "والدماغ هو عضو الفكر، ولهذا لا يمكن فصل الفكر عن المادة وألا ارتكبنا خطأً جسيمًا"[١٣٧].

وهكذا يضع ستالين فرضيتين أساسيتين عن النظرية الماركسية للمعرفة: الكينونة واقع موضوعي، والوعي هو انعكاس ذاتي لهذا الواقع. وهو يشير من ثم إلى أن النزعة المادية تثير مشكلة مصدر الفكر خلال تطور الكائنات الحية، ومشكلة العلاقات بين الفكر وبين الدماغ. ولا شك أن الدراسة العلمية لهذه المشكلة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى تدقيقات جديدة في نظرية المعرفة. فلنبحث هذه المسائل المختلفة.

137 راجع ستالين: "النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٠ – ١١".

أ) ـ مَوْضُوعيَّة الكَينُونَة

رأينا "في الدروس السابقة أنه لا يجب الخلط بين النظريات العلمية عن المادة ـ تلك النظريات التي تتطور وتتعمق ويزداد غناها كلما ازدادت جدليتها، لأن ميزات المادة لا تنضب[١٣٨] ـ وبين الفكرة الفلسفية عن المادة التي هي أساس كل عمل فلسفي وكل معرفة والتي لا يمكن أن تعتريها الشيخوخة[١٣٩].

ولقد حان الآن الوقت لتحديد المفهوم الفلسفي للمادة: *المادة هي مقولة فلسفية تستخدم للدلالة على الواقع الموضوعي الذي يجده الإنسان في أحاسيسه التي تنسخه*[١٤٠] *وتصوره وتعكسه دون أن يكون وجوده متعلقا بوجودها*.

ويقول لينين في موضوع آخر: *"يوجد الواقع الموضوعي مستقلا عن الوعي الإنساني الذي يعكسه*[١٤١]*"*.

وهكذا لا يُرجع لينين الواقع إلى *ما ندركه عنه* كما كان يفعل باركلي بل هو يفسر ما ندركه من الواقع *بالواقع نفسه*.

تبدو النزعة المثالية كأنها موقف رجل يعتقد أنه وحيد في العالم وأن لا شيء يوجد مستقلا عنه فهو يفسر كل شيء بسذاجة اعتماداً على حالاته النفسية. فإذا بالعالم يصبح *عالمه*.

وهي سذاجة مزدوجة تكتفي بنفسها بصورة عجيبة كما لو أنه لم تكن هناك حاجة للخروج *عن الذات للمعرفة*!. وهو موقف من لديه الجواب على كل سؤال، كما لو كان "حكمة" الشريعة والأنبياء، ذاك يتخذ من وعيه معياراً لكل واقع والذي يحدد للنوع البشري حداً لايتخطاه، هو الحد الذي يقف عنده وعيه. ولقد

---

138 سوف تتضح هذه الفكرة في "الدرس التالي".

139 راجع بهذا الصدد لينين: "النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية صفحات ٢٣٦ – ٢٣٨ – ٢٣٩ – ٢٤٠ وصفحتي ١١٠ – ١١١".

140 نفس المرجع ص ١١.

141 نفس المرجع ص ٢٣٨.

أدى تطور العلوم منذ عدة قرون إلى الكشف عن جوانب للواقع لا مجال للشك فيها، وان القول بأن العالم لا يحتاج إلى وعينا والى رخصة المثاليين في وجوده، يعبر عن نظرة العلوم الدائمة التي تنادي، بهذا الصدد، بنزعة مادية تلقائية بوجود واقع موضوعي خارج عن الوعي. فإذا كان العلم يكتشف باستمرار ميزات جديدة للمادة فما ذلك إلا لأن المادة لا توجد في *داخلنا بل في الخارج*.

وليس هناك من يشك في أن الجراثيم كانت موجودة قبل اكتشافنا لوجود الأمراض التي أتاح اكتشاف جراثيمها وشفاءها.

ولا شك أنه قد مضى زمن لم تتوفر فيه على سطح الأرض جميع الأسباب التي يتطلبها وجود الكائن الحي، ويعترض المثاليون على ذلك بقولهم: "ما معنى الوجود بدون الوعي" إذا كان الوعي هو الذي يتمثل وجود العالم بدون الإنسان وقبل الإنسان؟ ما معنى وجود أميركا قبل أن تراها عين كريستوف كولومبس إذا كان الوعي هو الذي يتخيل هذا الوجود السابق؟ فلا توجد الصحراء القاحلة بدون الوعي لأن الوعي هو الذي يتصورها لنا".

ولقد أجاب لينين، منذ زمن طويل، بأن نظرية المعرفة تقوم على معرفة التمييز بين وجود الإنسان *الواقعي الحاضر* في العالم في ظروف زمانية ومكانية وبين *وجود الفكر الخيالي ووجود الوعي* الملحق عقلياً بتمثل العالم الموجود حقا قبل الإنسان وبدون الإنسان. أن عدم التمييز هذا يدل على انعدام الفلسفة.

وليس هناك من يشك بأن حياة المجتمع المادية توجد مستقلة عن وعي الناس لأنه لا الرأسمالي ولا العامل سيتمنيان الأزمة الاقتصادية التي لا بد من حدوثها.

ويعمل قانون القيمة الذي يقول بأن كمية العمل التي تحتوي عليها بضاعة معينة تبدو بواسطة القيمة، منذ بداية الإنتاج التجاري، بالرغم من أن ريكاردو الاقتصادي لم يكتشفه الا في القرن التاسع عشر.

كما أن النضال بين البرجوازية وطبقة النبلاء هو واقع منذ بداية عهد البرجوازية؛ ومع ذلك لم يكتشف هذه الحقيقة ويعبر عنها المؤرخون البرجوازيون أمثال جيزو ومينيه وتيير الا في القرن الثامن عشر.

ماذا نقول إذن عن مثل هذا التأكيد المثالي: *"كل ما لا تفكر به هو عدم صرف... ليست الطبيعة هي التي تفرض علينا تصور المكان والزمان بل نحن الذين نفرضهما على الطبيعة"*[١٤٢]. سوى أن جهل المفكرين البرجوازيين الأساسي بصدد النزعة المادية الجدلية يسمح لهم بأدعاء مثل هذه الفرضيات.

ولا شك أنه ربما بدا لمن لا يملك المنهج الفلسفي أن الطبيعة، والكينونة والمادة تعكس فكر الإنسان الذي يفرض عليها ضرورياته، مثال ذلك أنه بعد بناء سد من السدود تعكس الطبيعة التخطيط الذي تصوره المهندسون. وهكذا يخضع السيل لإرادة الإنسان. فهل يعني هذا أن قوانين الطبيعة قد انتهكت أو تبدلت أو أزيلت أو أنها لا توجد مستقلة عن الوعي الإنساني وأنها بدون الوعي تزول؟

لقد اتخذت جميع هذه الإجراءات، على العكس من ذلك، على أساس قوانين الطبيعة والقوانين العلمية لأن كل خروج على قوانين الطبيعة والقوانين العلمية يؤدي إلى فشل هذه الإجراءات"[١٤٣].

وهكذا حين نتكلم عن السيطرة على قوى الطبيعة والقوى الاقتصادية لا يعني ذلك أنه يمكن "إزالة" القوانين العلمية أو تكوينها. بل يعني ذلك، على العكس أنه يمكن اكتشاف القوانين ومعرفتها وتمثلها وتعلم تطبيقها على ضوء معرفة الأسباب، واستخدامها لمصلحة المجتمع والحصول عليها بهذه الوسيلة وإخضاعها لسيطرتنا"[١٤٤].

---

142 راجع هـ. بونكارية: قيمة العلم.

143 راجع ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي "المؤلفات الأخيرة ص ٩٥".

144 نفس المرجع في صفحتي ٩٩ – ١٠٠

يسمح لنا كل ذلك بتقدير أهمية الفرضية الماركسية الأساسية التي عرضها ستالين في آخر مؤلف له حول قوانين العلم حيث يقول: *"تنظر الماركسية لقوانين العلم ــ سواء كانت قوانين الطبيعة أم قوانين الاقتصاد السياسي ــ على أنها انعكاس لعمليات موضوعية تجري مستقلة عن الإرادة الإنسانية*[١٤٥]*"* .

ب) – الوَعي انعِكاس للكَيْنُونة

ماذا تعني الفكرة القائلة بأن الوعي انعكاس للكينونة وللواقع الطبيعي والاجتماعي؟

يعني ذلك أن *الثنائية* قد زالت وأن الفكر لا يمكن فصله عن المادة المتحركة: فلا يوجد الوعي خارج المادة مستقلا عنها.

العالم المادي الذي ندركه بحواسنا والذي ننتمي إليه هو الواقع الوحيد[١٤٦]*.*

غير أن ذلك لا يعني قط أن الفكر مادي كالمواد التي تفرزها أعضاؤنا. والاعتقاد بذلك أنما هو خطوة خاطئة نحو الخلط بين النزعة المادية والنزعة المثالية، وإقامة تماثل بين المادة والفكر وبين المادة والوعي. ويؤدي ذلك إلى الوقوع في النزعة *المادية الساذجة*.

لا تعني الفكرة القائلة بأن الوعي صورة من صور الكينونة قط أن الوعي، بطبيعته، هو من المادة أيضا... وتقول النزعة المادية عند ماركس أن الوعي والكينونة والفكرة والمادة أنما هما صورتان مختلفتان لظاهرة واحدة تحمل اسما

---

145 نفس المرجع ص ٩٤.

146 راجع انجلز: لودفيج فورباخ ص١٨، دراسات فلسفية ص ٢٨.

عاما هو أسم الطبيعة أو المجتمع. فالواحد منهما إذن ليس نفيا للآخر[١٤٧]*، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهما لا يكونان نفس الظاهرة*[١٤٨].

وكذلك لا تعني الفرضية الماركسية القائلة أن الوعي سلبي ولا عمل له أن الماركسيين "ينكرون عمل الوعي" الخ... لأن القول بذلك يؤدي إلى الخلط بين الماركسية وبين النظريات الخاطئة التي تقول بها فلسفة "الظاهرية المصاحبية"[١٤٩] كما يؤدي إلى إتباع مزيفي الماركسية. فإذا كان الوعي لا عمل له فلماذا كتب ماركس هذا العدد الضخم من المؤلفات وأسس العالمية الأولى، واستخدم جميع الوسائل لنشر أفكاره؟

تعني الفرضية الماركسية أن لا مصدر لمضمون وعينا الا الخواص الموضوعية التي تبدو في الظروف الخارجية التي نعيش فيها والتي نشعر بها في أحاسيسنا.

فلا توجد تصوراتنا ولا توجد "انيتنا" الا بمقدار وجود الظروف الخارجية التي تولد انفعالات "انيتنا"... لأن الشيء القائم في الخارج سابق على الصورة التي نتصوره بها، وتتأخر هنا أيضا الصورة عن الشيء ومضمونه. فإذا ما نظرت ورأيت شجرة فهذا يعني ببساطة أن الشجرة موجودة قبل أن تنبعث صورة الشجرة في ذهني، وان هذه الشجرة هي التي ولدت فيَّ صورة الشجرة[١٥٠].

فالوعي هو انعكاس لحركة المادة في دماغ الإنسان.

---

147 يلاحظ ستالين هنا أن هذا لا يناقض فرضية النزاع بين الصورة والمضمون (راجع الدرس السابق) لأن النزاع ليس بين الصورة والمضمون عامة بل هو بين الصورة القديمة والمضمون الجديد.

148 راجع ستالين الفوضوية أو الاشتراكية المؤلفات، ج ١ ص ٢٦٥.

149 وهو مذهب يقول بأن العمليات العقلية هي ظواهر مصاحبة للعمليات الدماغية (المعرب).

150 نفس المرجع، ص ٢٦٦.

وتعني الفرضية الماركسية أخيرا ان الوعي سواء من وجهة نظر تاريخ الطبيعة أو المجتمع أم من وجهة نظر تاريخ الفرد وشخصية كل منا أنما هو نتاج تطور تاريخي.

يسبق الوعيَ، وهو عبارة عما يجري في دماغنا، خلال تطور الطبيعة، تغيير مادي مماثل، وهو عبارة مما يجري خارجنا، وسوف يتبع هذا التغيير المادي تغيير فكري مماثل[151].

يسبق التطور الفكري من ناحية الوعي تطور للظروف الخارجية من الناحية المادية فتتغير أولا الظروف الخارجية التي تمثل الناحية المادية ثم يتغير الوعي الذي يمثل الناحية الفكرية[152].

يكوِّن هذا الأمر، الذي يمكن لكل إنسان أن يتأكد منه، البرهان التجريبي للنزعة المادية *وتعلق* الوعي بالنسبة للكينونة كما أنه يبرهن على أن الوعي لا يمكن أن يكون رأساً انعكاساً دقيقاً للواقع كالانعكاس الذي يحدث في المرآة بل هو انعكاس حي متحرك في تطور دائم.

ولا شك أن ذلك لا يبدو لنا لأول وهلة حينما نفكر: إذ يبدو أن الفكر يقوم بذاته بصورة رائعة. ويمكن أن نتخيل، كما كان يقول ديكارت، أنه يكفينا أن نفكر كي نوجد، وأن هذا التفكير لا يحتاج إلى الجسم كي يتم. ولهذا كان الفلاسفة المثاليون سعداء بتفكيرهم حتى أنهم مستعدون للاعتقاد بأن كل موجود أنما هو موجود بفضل تفكيرهم الحر. فهم يجهلون الجذور الطبيعية الاجتماعية للفكر ولذلك يعتقدون أن كل شيء يصدر عن هذا الفكر ولهذا يطأطئون رؤوسهم ساجدين أمام الفكر ويرددون مع بول فاليري:

"كل الكون يتهادى ويرتجف فوق جذعي".

---

151 نفس المرجع ص ٣٦٥ – ٢٦٦

152 نفس المرجع ص ٢٦٢

وهذه محاولة خطرة عابثة ألا وهي الاعتقاد بأن الأفكار تقوم بذاتها وتتطور من نفسها، وأن الوعي عبارة عن إله داخلي جبار. وقد حارب هذا الوهم الفيلسوف المادي الكبير ديدرو، فهو يشبه عملية تكوين النزعة المثالية بأوهام البيان الذي يخيل إليه، وقد وهب الاحساس، أنه وحيد في عصره ويعتقد بأن كل "أنغام الكون" تجري في داخله[١٥٣].

٣ – الفِكْر وَالدّمَاغ

حاربت النزعة المادية باستمرار هذا الوهم. ولقد قال ديدرو بفرضية تدعي أن المادة يمكن أن تفكر. كما كتب ماركس يقول: *"لا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة. لأن هذه المادة هي أساس جميع التغييرات التي تحدث[١٥٤]"*.

كما يقول انجلز من ناحية أخرى:

"مهما بدا لنا وعينا وتفكيرنا أنهما متعاليان فهما ليسا سوى ثمرة عضو مادي ألا وهو الدماغ[١٥٥]".

وكذلك يقول لينين: *يدلنا منظر العالم على كيفية تحرك المادة و "كيفية تفكيرها"[١٥٦]*.

كما يلاحظ أن القول بأن الفكر ليس حركة بل هو "الفكر" هو قول علمي كالقول بأن "الحرارة ليست حركة، بل هي الحرارة".

---

153 راجع ديدرو: حديث مع دالمبير، في لينين: النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية، ص ٢٤ – ٢٥ – ٢٦.

154 ذكره انجلز في "الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية، ص١٧ المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٨".

155 راجع انجلز: لودفيج فورباخ، ص١٨، دراسات فلسفية، ص٢٨.

156 راجع لينين: المؤلفات الكاملة، ج ١٢ ص٣١٠ (الطبعة الروسية).

تدل العلوم الطبيعيــة علــى أن عــدم اكتمــال نمــو الــدماغ عنــد شــخص مــن الأشخاص يكون عائقا مهما أمام نمو الوعي والفكــر: ذلــك هــو شــأن الأغبيــاء. لأن الفكر نتاج تاريخي لتطور الطبيعة وبلوغها درجــة ســامية مــن الكمــال" يتمثــل فــي الأنواع الحية فــي الأعضــاء والحــواس والجهــاز العصــبي ولا ســيما فــي جزئــه الأعلى المركزي الذي يسيطر على الجسم بأكملــه ألا وهــو الــدماغ. فالــدماغ يعكــس في نفس الوقت الظروف التي تحيط بالجسم كما يعكس الظروف الخارجية.

فمن أين يبدأ الــوعي والفكــر؟ يبــدأ مــن *الإحســاس* بتــأثير حاجاتــه الطبيعيــة. فالعمل والتجربة والإنتاج هي التي تثيــر أولــى حركــات الفكــر فــي بــدء الجــنس البشري. ومصدر الأحاسيس هو في المادة التي يشــتغل بهــا الإنســان ولــيس العمــل ثمرة اللعنة كما تقول التوراة: "ستكسب خبزك بعــرق جبينــك" لأن العمــل هــو اتحــاد جوهري بين الإنسان والطبيعة، وهو نضال الإنسان ضد الطبيعــة فــي ســبيل العــيش كما أنه مصدر كل تفكير.

"أن خطأ كل نزعة مادية الأساسي في الماضــي هــو أن الشــيء والواقــع والعــالم الحسي لم يكن يُنظر إليها كنشاط إنساني ملموس في ميدان العمل[١٥٧]".

ولقد دلل انجلز في نص مشهور كيف أن العمل، باكثــاره مــن أحاســيس الإنســان في أول خروجه من الحيوانية، قد نمى يده وبذلك نمى دماغــه ممــا أتــاح لــه القيــام بتقدم عملي جديد. وهكذا اليد، عضو العمل، هي ثمرة العمل[١٥٨].

وتعلمنا العلوم، من ناحية ثانيــة، أنــه إذا ابتعــد فــرد مــن الأفــراد عــن الحيــاة الاجتماعية تعطل تفكيره وتداعت ذاكرته وتخاذلــت ارادتــه فتصــبح لا شــيء. فــإذا لم يعرف قط الحياة الاجتماعية زال خلقه الإنســاني. فلقــد رأينــا اطفــالاً تركــوا فــي الغابات فحضنتهم الذئاب فإذا بهم يتخلقون بأخلاق الذئاب.

---

157 راجع ك. ماركس: لودفيج فورباخ "نظرية حول فورباخ" ص ٥٢، دراسات فلسفية ص٥٧.

158 راجع انجلز: "اثر العمل في تحويل القرد إلى إنسان" جدلية الطبيعة صفحات ٢٦٨ – ٢٧٩

ويلاحظ انجلز أن كل عمل إنساني كان ولا يزال منذ البداية *عملا ضمن المجتمع* والا لما استطاع الإنسان أن ينجو من الأخطار الطبيعية. وهذه الملاحظة مهمة جدا لفهم أصول الفكر والتأمل، لأن العمل يوضح جوانب جديدة للواقع، كما أنه يثير مشاكل جديدة. فهو يكشف عن علاقات موضوعية جديدة لا تكفي الأحاسيس للتعبير عنها، بيد أن العمل يتطلب جهداً مشتركاً وعملا مشتركاً لكي تتوحد جميع الطاقات لجماعة من الناس فتعمل في موضع معين ووقت معين، كتحريك صخرة مثلا. ولكي ندفع الناس إلى العمل حقاً نحتاج إلى *اشارة* وإلى *أمر*: ولكن كلما ازداد تعقد العمل لم يعد الصراخ أو الحركة كافيين ووجب القدرة على شرح العمل الذي يجب القيام به، أي أننا بحاجة إلى إشارات جديدة في نوعها تعبر عن *العلاقات* بين الأحاسيس ألا وهي الكلمات. وهكذا يتخذ العمل طابع تبادل الناس الانفعالات التي يثيرها فيهم. العمل إذن هو الذي أثار الحاجة *للاتصال* فتولد عن ذلك اللغة التي هي عبارة عن اتصال بالآخرين قبل أن تكون تعبيراً[١٥٩].

ويزداد، في نفس الوقت، غنى دماغ الإنسان بعلاقات جديدة. لأن الدماغ نتاج اجتماعي، وأخيراً يعني ظهور الفلسفة ظهور الفكر الصرف والتأمل. وهذه خطوة مهمة. فلا لغة ولا فكر بدون العمل الذي هو نشاط اجتماعي.

يقولون أن الأفكار تأتي إلى ذهن الإنسان قبل أن يعبر عنها في حديثه وأنها تولد بدون واسطة اللغة عارية من غطاء اللغة. ولكن مهما كانت الأفكار التي ترد على ذهن الإنسان فهي لا يمكن أن تولد وتوحد الا معتمدة على اللغة والفاظها وجملها. فليس هناك أفكار خالية من وسائل اللغة ومن "مادتها الطبيعة".

---

159 لا تحتاج الحيوانات التي لا تعمل ولا تحول الواقع ولا أحاسيسها، إلى اللغة. بل تكتفي بالإشارات الصوتية في سلوكها.

"لأن اللغة هي واقع الفكر المباشر" (ماركس) ويظهر واقع الفكر في اللغة. والمثاليون وحدهم يمكنهم التحدث عن فكر منفصل عن "المادة الطبيعية" وهي اللغة، أو عن فكرة بدون لغة[١٦٠].

ولقد اثبتت العلوم الطبيعية صحة هذه النظريات التي قالت بها النزعة المادية الجدلية، كما تنبأ لينين، وذلك في أعمال العالم الفيزيولوجي الكبير بافلوف.

فلقد اكتشف بافلوف أن عمليات النشاط الذهني الأساسية أنما هي انعكاسات مشروطة تثيرها *الأحاسيس* الداخلية أو الخارجية وهي تحدث في ظروف معينة، كما أنه دلل على أن هذه الأحاسيس تستخدم كاشارات لكل نشاط الجسم الحي.

كما اكتشف أن الكلمات ومضمونها ومعانيها يمكن أن تحل محل الأحاسيس التي تبعثها الأشياء التي تدل عليها فتثير بدورها انعكاسات مشروطة وردود فعل عضوية أو لفظية. فتكون بذلك *إشارات للإشارات* أي نظاماً ثانياً للإشارات يقوم على أساس النظام الأول وهو خاص بالإنسان. اللغة إذن هي الشرط لنشاط الإنسان الأسمى، وعمله الاجتماعي، وهي تحمل الفكر المجرد الذي يتجاوز الإحساس الحالي. اللغة هي التي تتيح للإنسان أن يعكس الواقع بأكبر قدر من الدقة.

ولقد برهن بافلوف في الوقت ذاته على أن ما يحدد وعي الإنسان في الأساس ليس هو جسده ولا الظروف الحيوية كما يعتقد الماديون السذج والمحللون النفسيون بل المجتمع الذي يعيش فيه ومعرفته لهذا المجتمع، وهكذا تتعلق الناحية البيولوجية في الإنسان بالناحية الاجتماعية لأن الظروف الاجتماعية للحياة هي التي تحدد الحياة العضوية والحياة الذهنية[١٦١] فالفكر بطبيعته ظاهرة اجتماعية.

---

160 راجع ستالين: "حول الماركسية في علم اللغة" أخر مؤلفات ص ٤٠ – ٤٦.

161 راجع "المدخل إلى مؤلفات بافلوف" مسائل علمية رقم ٤ طبعة: النقد الجديد. محاضرات ألقيت في صف الفلسفة في الجامعة الجديدة.

يحق إذن القول بأن الدماغ هو عضـــو الفكـــر فقـــط وهـــذا لا يخـــالف أبـــدا قـــول الماركسية الأساسي.

"ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بـــل وجـــودهم الاجتمـــاعي هـــو الـــذي يحدد وعيهم"[١٦٢].

٤ – درَجَتَا المَعرفَة

تتيح أبحاث الفيزيولـــوجي بـــافلوف واكتشـــافاته أن نحـــدد بدقـــة الطريقـــة التـــي يتكون بها في الوعي انعكاس الواقع والكينونة أي تكون المعرفة.

لنضرب على ذلك مثلا بسيطا: كيـــف نعلـــم الطفـــل معنـــى الكلمـــات المســـتعملة؟ يجب اطلاعه عدة مرات متتالية على الشيء الذي تعنيـــه الكلمـــة، وفـــي نفـــس الوقـــت يذكر له الاسم ويُحمل على لفظه كلما كان ذلـــك ضـــروريا حتـــى يجمـــع مـــن تلقـــاء نفسه بين الكلمة والشيء، يعـــرف كيـــف يســـتعمل الكلمـــة عنـــد غيـــاب الشـــيء أي بصورة تجريدية.

وهكذا أصبح معنى الكلمة بعد تمثله يمثـــل فكـــرة الشـــيء، وتتكـــون هـــذه الفكـــرة وهذا *المفهوم* على أساس الأحاسيس المتكررة وعلى أســـاس اللغـــة التـــي تشـــير إلـــى هذه الأحاسيس. هناك إذن درجتان للمعرفـــة: *الإحســـاس* المباشـــر، والفكـــرة المجـــردة (أو *المفهوم*) والاحساس بمفرده معرفة أقل كمالاً من الفكـــرة، فطالمـــا لـــم يـــر الطفـــل الا البجعات البيضاء فسوف يعتقد أن البجعة طائر أبيض وهذا خطـــأ نوعـــا مـــا. امـــا عالم الحيوانات الذي يعرف البجعة بتعريفها العلمـــي فســـوف يكـــوّن عنهـــا فكـــرة أدق وأصدق وأكثر مطابقة لها.

---

162 راجع ماركس مشاركة في النقد الاقتصادي السياسي في ماركس انجلز: دراسات فلسفية ص٧٩.

وهكذا نرى أن الفكرة المجردة هي التي تعكس بدقة الواقع. ولكن هذه الفكرة العلمية عن البجعة لم تتكون الا على أساس حصر أنواع البجع التي توجد في الطبيعة أي على أساس الأحاسيس.

أما فيما يتعلق بالأشياء "المجردة" بذاتها كفكرة القرابة مثلا فأن الطفل لا يمكنه تلقيها الا بواسطة الاستعمال الاجتماعي الذي يتكرر غالبا.

ولنضرب على ذلك مثلاً أشد تعقيداً. يرزح التاجر الصغير تحت عبء الضرائب الثقيل. كما تهدد البطالة عامل النسيج وكذلك يربح الموظف الصغير ٢٠٠٠٠ فرنك في الشهر.

لنفرض أن الأول يقرأ جريدة *"الأورور"*. والثاني جريدة *"فرانك تيرور"*. والثالث جريدة *"الفيجارو"*. يجد كل منهم صدى لشقائه في جريدته، فمحرر الجريدة البرجوازي يتألم لمصير الفقراء المحزن.

تعكس هذه الجرائد الوضع إذن في مظاهره الحية ولا تتعدى ذلك. فهي تحذر جيداً من أن *تشرحه وتفسره* فتتهم إسراف الإدارة أو عدد المؤسسات الصغيرة أو عدد الفلاحين.

أما قارىء جريدة *"الأومانيتي"* أو قارىء تقرير وضعه موريس توريز، فلسوف يجد التفسير الذي يضع بيدنا مفتاح جميع *أوجه الوضع*، كتحليل أزمة الرأسمالية وتناقضاتها، وفكرة *قانون الرأسمالية الأساسي الحالي* الذي يعكس الواقع بعمق، والجري وراء الربح الأقصى.

وهكذا تنتقل المعرفة من *الحسي* إلى العقلاني في جميع الميادين. ويرى باركلي أن رؤيتنا للشمس مسطحة حمراء "دليل" على أنها لا توجد إلا في وعينا، أما الماركسية فهي ترى أن ذلك ليس سوى دليل على أن المعرفة الحسية غير كافية لأنها إذا كانت تصلنا بالواقع فانها لا تجعلنا نفهم *ما هو الواقع*.

ولقد علمتنا الجدلية أنه يجب علينا، كي نفهم ظاهرة ما، أن نربطها بظواهر أخرى هي أصلها، وأن ندرك تناقضاتها الداخلية. لأن العلم والمعرفة بواسطة

الأفكار لا يجعلاننا نعرف فقط كيف تكون الشمس حقيقة بل *لماذا نراها* مسطحة حمراء. فالعلم يطلعنا على جوهر الظواهر.

تختلف المعرفة المنطقية عن المعرفة الحسية... وذلك لأن المعرفة الحسية تحيط بجوانب الظاهرة الخاصة وعلاقة الأشياء الخارجية، بينما المعرفة المنطقية تحيط بالأمور المشتركة بين الأشياء، فهي تحيط بمجمل الأشياء وجوهرها وعلاقتها الداخلية فتؤدي إلى اكتشاف التناقضات الداخلية في العالم الذي يحيط بنا، وتتمثل بذلك تطوره والعديد من علاقاته الداخلية[١٦٣].

والانتقال من الدرجة الأولى للمعرفة، وهي درجة الاحساسات والتأثرات والانفعالات، إلى الدرجة الثانية، وهي درجة المفاهيم، أنما هو مثال رائع على الجدلية لأن تجمع الاحساسات *الكمي* هو الذي يحدث *الظاهرة النوعية* الجديدة الا وهو "المفهوم".

الدرجة الأولى للمعرفة هي ما يسمى بالدرجة الانفعالية للمعرفة أي درجة الاحساسات والتأثرات.

ويؤدي استمرار الاستعمال الاجتماعي في تجربة الناس إلى تكرار الأشياء[١٦٤] *التي يدركونها بحواسهم والتي تؤثر فيهم. فيحدث في دماغ الإنسان قفزة في عملية المعرفة: إذ يظهر المفهوم. ويمثل المفهوم بطبيعته تمثل طبيعة الأشياء وما بينها من عناصر مشتركة وعلاقتها الداخلية.*

وهناك اختلاف بين المفهوم والإحساس وهو ليس اختلافاً كمياً بل هو اختلاف نوعي أيضاً[١٦٥].

---

163 راجع ماوتسي تونج: "حول التجربة العلمية" كراسات الشيوعية شباط ١٩٥١ ص ٢٤٣.

164 ليس هذا التكرار اعتباطيا بل هو يتولد عن الضرورة الطبيعية. راجع الدرس السابق، المسألة الرابعة.

165 نفس المرجع ص ٢٤٢.

ويقول لينين: *"المفاهيم هي أسمى ما ينتجه الدماغ، والدماغ نفسه أسمى ما تنتجه المادة*"[١٦٦].

فإذا كان هناك تناقض في أفكار الناس فذلك لأن هناك تناقضاً في الواقع الذي يعكسه تفكيرنا. *وجدلية الأشياء تحدث جدلية الأفكار والعكس ليس صحيحا*"[١٦٧].

ولقد قال ماركس: *ليست حركة الفكر سوى انعكاس لحركة الواقع بعد أن انتقلت إلى دماغ الإنسان*"[١٦٨].

٥ – الخلاصة

ندرك الآن أهمية النظرية الماركسية من الناحية العلمية فيما يتعلق بأسبقية المادة على الوعي.

أولاً: إذا كانت الظروف هي التي تتغير أولا ثم يتغير وعي الناس فلا يجب البحث عن سبب أية عقيدة نظرية أو مثالية في أدمغة الناس أو في مخيلاتهم أو عبقريتهم المبدعة بل في تطور الظروف المادية لأن الفكرة التي تقوم على دراسة هذه الظروف هي الفكرة الصائبة المقبولة.

ثانياً: إذا كان وعي الناس وعواطفهم وأخلاقهم وعاداتهم تحددها الظروف الخارجية، فأنه يصبح من البديهي أن تغيير هذه الظروف وحده يمكن أن يغير وعي الناس. فليس هناك إنسان خالداً أو "طبيعة إنسانية خالدة". ومن الطبيعي إذن أن يكون الإنسان، في نظام يقوم على الملكية الفردية ويحتدم فيه النضال الفردي من أجل الحياة، ذئباً يفترس أخاه الإنسان. كما أنه من المحتم أن تنتصر أفكار

---

166 راجع لينين: كراسات فلسفية.

167 راجع لينين: كراسات فلسفية.

168 "ماركس: الطبعة الثانية الألمانية "رأس المال" ج ١، ص ٢٩. المطبوعات الاجتماعية.

الأخاء بين الناس في نظام تحتدم فيه المنافسة الاشتراكية ويقوم على الملكية الاشتراكية.

الإنسان ليس صالحاً ولا طالحاً بل هو ما تصنع منه الظروف. وتحمل الماركسية جواباً حاسماً على السؤال الذي يردده المفكرون البرجوازيون الا وهو:

هل يجب القول بأن "المؤسسات السيئة" هي التي تجعل الإنسان شريراً أم أن الشر الكامن في الإنسان هو الذي يفسد "المؤسسات"؟ لسنا بصدد "المؤسسات" وأنما نحن بصدد الرأسمالية التي تفسد الإنسان. ولهذا كانت فكرة الثورة عن طريق "الإصلاح الأخلاقي" فكرة كاذبة.

ويمكن أن يتكون إنسان جديد، له وعي جديد اشتراكي في ظروف معاشية جديدة اشتراكية.

فماذا يجب من أجل ذلك؟ الإسراع في إيجاد هذه الظروف الجديدة بتحويل الواقع الاجتماعي والنظام الرأسمالي الظالم. أو كما يقول ماركس: "اذ كانت الظروف تكوِّن الإنسان فيجب تكوين هذه الظروف بصورة إنسانية[١٦٩]".

وهكذا تبدو بوضوح العلاقة بين النزعة المادية وبين الاشتراكية. ولقد بدت لنا هذه العلاقة سابقا عند عدد من الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر، وهكذا اضطر الزعماء الاجتماعيون الديمقراطيون اليمينيون ــ الذين لا يؤمنون بالاشتراكية ــ إلى بذل جهودهم لتشويه الماركسية برفض النزعة المادية، والتجأوا وراء النزعة المثالية الرجعية كما سنرى في دروس أخرى.

أما النزعة المادية فهي تفتح، على العكس، أمام البروليتاريا والإنسانية طريق تحررها المادي والثقافي الا وهو الطريق الثوري.

---

169 راجع ك. ماركس في دراسات فلسفية ص ١١٦. "إضافة إلى تاريخ المادية الفرنسية"

الدّرسُ الحَادي عشر

ميزة النّزعَة الماديّة الماركسيَّة الثالِثة

مَعرفة العَالَم ممكنة

١ – الملجأ الأخير للنزعة المثالية
٢ – النظرية الماركسية
أ) أثر الناحية العلمية
ب) تشويه الفكرة الماركسية عن الناحية العلمية
٣ – الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة
٤ – اتحاد النظرية بالناحية العملية

١ – المَلجَأ الأخِير للنّزعَةِ المثاليَّة

رأينا في الدرس السابق أن ظهور النزعة المثالية الذاتية عند باركلي في القرن الثامن عشر يُفسَّر بضرورة إنقاذ النزعة المثالية الموضوعية للدين بطريق غير مباشر. غير أن فلسفة باركلي كانت عاجزة عن أن تفسر تقدم العلوم الذي حدث في عصرها. مثال ذلك الرياضيات. فقد تجاهلتها فلسفة باركلي وأعلنت أنها عبث لا طائل وراءه. ولقد رأينا أن الفلاسفة المثاليين أمثال باركلي يتحاشون الخوض في المسائل العلمية. غير أن هذا لا يكفي. فلقد بلغ من تطور العلوم، منذ القرن الثامن عشر، ولا سيما بعد أن وضع نيوتن النظرية الميكانيكية العامة عن الكون، أن أصبح وضع باركلي لا يمكن الدفاع عنه، فاضطرت النزعة المثالية إلى أن تبحث لها عن وضع للتراجع فكان لابد من إتاحة الفرصة للدين أن يستمر

وأن يستفيد من الشك، وذلك حسب ادعاء الفلسفة الجديدة في قولها: "تدعي النزعة المادية أن المادة هي الأولى ولا علم لنا بذلك".

وهكذا تحاول هذه الفلسفة أن تبدو " كطريق ثالثة" بين النزعة المثالية الذاتية وبين النزعة المادية، فهي ترفض أن تتخذ موقفاً معيناً بصدد مشكلة الفلسفة الأساسية بقولها أنه لا يمكن اتخاذ موقف معين، فتدعي أنها تتخذ موقفاً "نقدياً" لا موقفاً "عقيدياً".

كانت النزعة المثالية الموضوعية تعلق المادة بفكر عام شامل، بينما كانت النزعة المثالية الذاتية تذيب المادة في وعينا. غير أن النزعة المثالية الموضوعية قد قضت عليها علوم الطبيعة بينما قضت الفيزيولوجيا والعلوم الاجتماعية على النزعة المثالية الذاتية، ثم تأتي فلسفتنا الجديدة التي تقول: "من أين لكم أن تعرفوا أن العلم يجعلنا نعرف الواقع كما هو؟"

لا شك أن العلوم موجودة. ولكن كي نعرف ما إذا كان الواقع الموضوعي هو في مبدئه مادة أو فكر، يجب أن نعرف أولاً ما إذا كان ذهننا *يمكنه معرفة* الواقع الموضوعي في ذاته. وهكذا لا تعلق هذه "الفلسفة الثالثة" المادة بالفكر وهي لا تذيب المادة في الوعي بل هي تفكر كما لو كان كل منهما غريباً عن الآخر، كما لو كانت المادة لا يمكن للفكر أو المعرفة تمثلها، كما لو كانت معرفتنا عاجزة أيضاً عن أن تسبر غور الطبيعة وإمكانيات فكرنا.

وتسمى هذه النزعة، التي تدعي أنه لا يمكن الإجابة على السؤال الأساسي للفلسفة لأننا عاجزون ـ وسنظل كذلك دائما ـ عن معرفة مبادىء الأشياء الأولية، تسمى هذه النزعة *"باللاأدرية" (agnosticisme)* (وتتألف هذه الكلمة من كلمتين يونانيتين تعنيان " العجز عن المعرفة").

رائد هذه الفلسفة في القرن الثامن عشر هو دافيدهيوم الأيقوسي. وممثلها الرئيسي هو عمانويل كنت الألماني (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) وقد عاش في أيام الثورة الفرنسية وتحدثنا عنه سابقا[١٧٠].

ولقد اتخذ، في فرنسا، في القرن التاسع عشر، أوجوست كومت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) موقفاً مشابهاً، وكذلك عدد من المؤلفين الذين تمتزج عندهم اللاأدرية بصورة النزعة المثالية الأخرى.

(لا نجد في الحقيقة عند هؤلاء المؤلفين النزعات الفلسفية في حالتها الصرفة كما نجدها عند مؤسسي المذاهب بل نجد عندهم مزيجاً غير مستقر).

هذا وقد قامت فلسفة كنت بدورها في الحركة العمالية لأن أعداء الماركسية قد اعتمدوا عليها لمحاولة القيام "بإعادة النظر" في الماركسية.

فلنر إذن "حجج" اللاأدرية. كتب هميوم يقول:

"يمكن أن نعتبر أن من البديهي أن الناس يميلون بغريزتهم "الطبيعية... إلى الاعتماد على حواسهم، وأننا نفترض، في أي نقاش، وجود عالم خارجي لا يتعلق وجوده بإرادتنا بل هو موجود حتى ولو فنينا مع جميع الكائنات ذات الحساسية".

وهكذا نرى أنه حتى هيوم يعترف بأن النزعة المادية مما يقول به الرأي العام. *ولكن تزعزع هذا الرأي الأساسي الشامل أشد الفلسفات سطحية، تلك التي تعلمنا أن لا شيء يتمثله الذهن سوى الصورة أو الأدراك. فتبدو الطاولة التي نراها أصغر إذا ابتعدنا عنها، بيد أن الطاولة الحقيقية التي توجد مستقلة عنا لا تتغير. وهكذا لم يدرك ذهننا سوى صورة الطاولة*[١٧١].

---

170 راجع الدرس التاسع: الماركسية والدين، المسألة الخامسة.

171 ذكره لينين: النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية ص ٢٢.

ها نحن أولاء إذن أمام صيحة على طريقة باركلي: فلنذكر مثال الشمس "المسطحة الحمراء" (الدرس السابق) مع فارق واحد وهو أن باركلي كان ينكر وجود المادة المستقل. فهيوم لا ينكر ذلك بل هو يقول بوجود "طاولة حقيقية" توجد مستقلة عنا لا تتغير بينما تتغير احساساتنا، غير أننا لن نعرف قط ما هي هذه الطاولة لأننا لا نعرف منها سوى الصور النسبية التي تنقلها إلينا حواسنا. أما الطاولة نفسها فهي *لا يمكن معرفتها*.

وهكذا يميز هيوم في الواقع بين مستويين: من ناحية الطاولة كما نراها، *الطاولة بالنسبة إلينا* التي تبدو في وعينا على شكل صورة وهي طاولة ذاتية، ومن الناحية الثانية، الطاولة الحقيقية، الطاولة في ذاتها، التي هي خارج وعينا، وهي طاولة موضوعية تكون الواقع ولكنها لا يمكن معرفتها. الخلاصة اننا لن نعرف قط سوى مظاهر الأشياء وسوف نجهل كينونتها، ولهذا لا نستطيع تحديد موقفنا من النزعة المثالية والنزعة والمادية. ذلك لأن المثالي والمادي اللذين يتناقشان باستمرار حول *ماهية الأشياء في ذاتها*، أهي مادة أم فكر، يشبهان رجلين يمشيان على الثلج وقد وضع أحدهما على أنفه نظارات زرقاء بين وضع الاخر نظارات وردية وقد أخذا في النقاش لمعرفة لون الثلج، فالمادي يرى الأهمية في الناحية المادية للأشياء بينما يرى المثالي الأهمية في الناحية الفكرية. أما تحديد ماهية الأشياء في ذاتها فهي خدعة باطلة، لأن كلا منهما "سجين نظرته" وهكذا تقدر أهمية هذه الفلسفة بالنسبة للذين يدعون "البقاء على الحياد" والمحافظة على "التحفظ العلمي".

وسوف يتدخل "كنت" بصدد العلم معتمداً على أفكار هيوم. ولقد اشتهر عن "كنت" أنه فيلسوف صعب جداً[١٧٢]. ونحن نلقى في الواقع، أفكار "كنت" في كل

172 أن نقدنا لفلسفة "كنت" لا ينقص من قدره كعالم في فرضية حول (السديمية) التي أخذ بها لابلاس الفرنسي وطورها. (وهي تقول بأن النظام الشمس نشأ عن سديم غازي) (المعرب).

مكان. ولا سيما الفكرة القائلة بوجود "سر" للأشياء، وأنه يستحيل علينا اكتناء هذا السر. هذا الحياد الخاطىء الذي فرض على المدرسة البرجوازية كما لو كان من الممكن الأخذ بالقسطاس المبين بين الحقيقة والخطأ، بين العلم والجهل، وهذه هي الفكرة القائلة بأنه لا يجب أن يشتد الإنسان في تأكيده، وأن الحق في كل مكان، وأن "لكل إنسان وجهة نظره" الخ...

كل ذلك نموذج صرف للأفكار التي يمكن أن تضلل الجماهير.

يعتمد "كنت" إذن على التمييز بين *الشيء في ذاته* الذي لا تمكن معرفته، وبين الشيء بالنسبة إلينا في ظاهره الذي يتولد عن الأثر الذي يحدثه الشيء في ذاته على أعضاء حواسنا، فنحن لسنا في الأشياء ولن نكون فيها قط. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية تتعدد الظواهر وتختلط وتتناقض. ولهذا فلسوف تكون مهمة العلم هي *تنظيم* هذه الظواهر وتكوين لوحة منسجمة ترضي حاجتنا إلى المنطق. فكيف سيحدث ذلك؟ يقول "كنت" أن الذهن الإنساني هو الذي *يفسر* معطيات الحواس حسب متطلباته الخاصة، وليس *العلم* سوى ثمرة هذا التفسير. وهكذا تكون قوانين العلم ــ التي هي عبارة عن العلاقات بين الظواهر ــ ثمرة الذهن الإنساني فقط. فهي بدلا من أن تعكس قوانين المادة الحقيقية فأنها تعكس "قوانين" الذهن الإنساني ومتطلباته، وهي بدلاً من أن تمثل الحقيقة الموضوعية فأنها لا تمثل سوى حقيقة ذاتية. وهي لا تتعلق، حقاً، بزيد أو عمر من الناس ولكنها تظل مع ذلك، عند "كنت" *متعلقة بالذهن الإنساني* (كما لو كان يمكن أن يكون هناك ذهن الهي يرى العالم بطريقة أخرى).

ما هي نتيجة هذه النظرية؟ يطفو العلم على سطح الأشياء ويجري تطور العلوم الوهمي على ستار يكمن وراءه سر مطلق خالد لا يُسبر غوره. ولهذا لا يجب أن ننسب للعلم أية حقيقة مطلقة. فهو ليس سوى تفسير. وهكذا تفضي فلسفة "كنت" الى *الشك* والجمود حتى في ميدان البحث العلمي النظري.

يفضي الأمر باللاأدريين إلى عدم التمييز بين أخطاء العلم في الماضي وحقائق العلم اليوم. فهم يقولون: "أن ما هو حقيقة اليوم سيصبح خطأ غداً" ثم يخلصون إلى القول بأن العلم اذا أخطأ مرة لا يمكننا معرفة متى لن يخطىء. فهم يخلطون بين ذهن العالم النقدي المنهجي في مختبره وبين ذهن الشك الشامل. فهم يرون أن المعرفة تقيم حاجزاً بيننا وبين العالم. ومن هنا كانت الأقوال التي لا تنتهي والتي نشرتها الجامعة البرجوازية حول *قيمة* العلم و*إفلاس* العلم الخ... فإذا كان العلم لا يبحث الا في المظاهر فأنه في النهاية ليس سوى مظهر علم ومظهر معرفة.

قلنا أن اللاأدرية اتخذت أشكالاً متشابهة يجب علينا معرفتها. فهذه نزعة أوجوست كومت تؤكد أنه يجب على العلم أن يكتفي بادراك العلاقات بين الوقائع دون البحث عن سبب هذه العلاقات، يجب عليه أن يحرم على نفسه البحث عن "سبب" الأشياء وأن لا يسعى للوصول إلى المطلق، لأن كل بحث من هذا النوع وكل نظرية تفسيرية للظواهر توضح جوهرها يرفضها أوجوست كومت لأنها "ميتافيزيقية" مستخدماً هذه الكلمة استخداماً غير شرعي. تلك هي عقيدة الجامعة البرجوازية الرسمية فيما يتعلق بالعلم.

أما النزعة *"الأسمانية"*[١٧٣] ***(Nominalisme)*** التي قال بها، مثلا، هنري بونكاريه فهي ترى أن العلم ليس سوى "لغة" وطريقة لصوغ ما ندركه من الظواهر، وهي ليست قط تفسيرا نهائيا للواقع. حتى أن هنري بونكاريه يشك من جديد بالاكتشاف الكبير القائل بدوران الأرض حول الشمس، ولا يرى في نظرية كوبرنيك سوى "لغة". لا تعطي هذه الفلسفات فكرة خاطئة عن العلم فقط بل تدفع به في طرق يصبح فيها مجدباً، فهي تحرمه من جرأة العلم في عصر النهضة،

---

173 وهي تقول بان المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي وأنها مجرد أسماء ليس غير (المعرب).

وتعمل على جعل العلم مسالما. ولقد كان لجميع هذه النزعات، منذ مئة عام خلف كثير في فرنسا وفي ألمانيا وفي انجلترا وفي أميركا، ونجحت نجاحا باهرا في ميدان العلوم الاجتماعية.

ولنوجز القول الآن في اللا أدرية:

١ـ لا تجابه اللا أدرية العلم وجها لوجه، لأن ذلك لم يعد ممكناً أيام "كنت" و "كومت". كما أنها لا تنكر وجود الواقع الموضوعي، فهي أمام العلم، إذن، مادية، ولكنها تسرع إلى القول بأن العلم ليس كل المعرفة. يسعى اللاأدري إذن إلى التقليل من رصيد العلم. وإلى إخفاء محتواه المادي وقيمته كمعرفة، وإلى الهروب من المادة مع القول بها بصورة لا تجلب المضايقات. يعني ذلك أنها تسعى إلى مصادرته لخدمة النزعة المثالية. ولسوف يُستخدم العلم للتغني بفضائل "الذهن الإنساني". وهذه النزعة المادية، باختصار هي نزعة مخجلة.

وإذا حاول أنصار "كنت" المحدثون في المانيا أحياء أفكار "كنت" من جديد، أو حاول اللاأدريون في انجلترا أحياء أفكار "هيوم" من جديد، فأن ذلك، من الناحية العلمية، تقهقر بالنسبة لدحض هذه الأفكار نظرياً وعلمياً منذ أمد طويل. كما أن ذلك، من الناحية العلمية، طريقة مخجلة لقبول النزعة المادية خفية ونكرانها جهاراً[١٧٤].

٢ـ يتفق هذا الموقف "المتوسط" مع حاجات البرجوازية التي لم يكن يمكنها، في عصر ازدهار الرأسمالية، الاستغناء عن تطور العلوم في خدمة الإنتاج والتي كانت تبحث، في نفس الوقت، عن حل وسط مع الأفكار الإقطاعية ومع الدين لأنها بحاجة إلى توطيد سلطانها، كما كان الحال في فرنسا أيام "كومت"، أو لأنها لم تكن قد تحررت من النظام الإقطاعي، كما كان الحال في ألمانيا أيام "كنت".

---

174 راجع انجلز "لودفيج فورباخ" ص١٧، دراسات فلسفية ص٢٧.

٣ــ ليست اللاأدرية موقفا وسطا الا في الظاهر. فماذا يعني رفض المطلق، مثلاً، في السياسة عند "كومت" من الناحية العملية؟ نجد الجواب على ذلك في قوله المأثور: "لا بعث ولا ثورة"

وهذا قول برجوازي رائع. وإذا كانت اللاأدرية تكتفي بنزعة مادية مخجلة، لا تجرأ على النضال جهاراً مدعية أنه لا يمكن تحديد موقف معين، فأنها بذلك لا تترك المجال على السواء بين الخصمين بل تتركه للأقوى.

فمن هو الأقوى من الناحية العملية؟ لا شك أنها النزعة المثالية كما دلل على ذلك، لينين في *"ما العمل؟"* لأن النزعة المثالية أقدم، كفلسفة رسمية، ولأنها تغري العقول، نظرياً، بالسهولة.

أما النزعة المادية، فهي، على العكس، ليست رسمية، وهي صعبة لأنها عملية كما أنها غير معتادة. يشبه "تجرد" اللاأدرية إذن "عدم التدخل" عند "ليون بلوم" بين الجمهورية الأسبانية والتدخل الفاشيستي. ويعلم "كنت" جيداً أنه إذا تركنا الناس بدون جواب نظري له قيمته فأنهم سوف يسعون نحو الذين يدعون تقديم الجواب، وهم من المثاليين واللاهوتيين، لأن الناس بحاجة لليقين الفلسفي، "فالحياد" اللاأدري ليس إذن سوى رياء.

وسوف نرى، فوق كل ذلك، أن اللاأدرية لها أصول مثالية على المستوى النظري.

٤ــ تؤدي اللاأدرية، أخيرا رأسا إلى التصوف ونزعة *"الإيمانية"* *(fideisme)* وهي عقيدة رجعية تقول بوجود نوع آخر من "المعرفة" يسمو على العقل، ألا وهو الأيمان.

ترفض اللاأدرية جميع محاولات العقائد الدينية للتدليل العقلاني، تلك المحاولات التي قامت بها النزعة المثالية الموضوعية لأنها تعتقد أن معرفة مباديء العالم، سواء كان الله أو المادة، غير ممكنة بواسطة العقل والفلسفة.

والخلاصة أننا لما كنا نجهل الأشياء ولما كان الإنسان محاطا بسر لا يُسبر غوره فلا مانع من أن نصل للحقيقة المثلى بواسطة طرق غير عقلانية أو صوفية. كما أنه لا مانع من أن نتيح للايمان الفرصة وأن نعتقد بأن التصوف هو المعرفة الحقة[١٧٥].

لا تقول اللاأدرية، كما تقول النزعة المثالية الدينية، "الدين هو الحقيقة بصورة فلسفية". بل هي تقول: "ربما لم يكن الدين خطأ، ربما كانت الحقيقة في الدين" وهكذا نرى الفرق، وهو فرق يكفي ليثير عليها صواعق الكنيسة من الناحية النظرية ومساعدتها من الناحية العملية.

نزعة الايمانية المعاصر لا ترفض العلم البتة. وهي لا ترفض سوى "مزاعمه المبالغة" وهو ادعاؤه اكتشاف الحقيقة الموضوعية. وإذا كانت هناك حقيقة موضوعية (كما يعتقد الماديون)، وإذا كانت العلوم الطبيعية، وهي تعكس العالم الخارجي في "التجربة" الإنسانية، الوحيدة التي تستطيع أن تمدنا بالحقيقة الموضوعية لوجب علينا رفض كل نزعة إلى الايمان بصورة مطلقة[١٧٦].

فإذا كانت اللاأدرية تجعل من العلم حقيقة ذاتية فأنها بذلك تترك للايمان الحقيقة الموضوعية. ولقد قال لينين: "إذا كشفتم الغطاء عن اللاأدري الفيتم المثالي". ولما كانت اللاأدرية تبدأ بالنزعة المثالية الذاتية فأنها تفضي إلى النزعة المثالية الموضوعية. لهذا فأن كل ما يتطلبه اللاهوت هو أن نتيح له الفرصة ليجرب حظه. وإذا كانت اللاأدرية والنزعة الموضوعية تحدان من أفق العلماء وتحرمان عليهم كل تعميم نظري واسع النطاق فأنهما تسلمانهم للأختلاقات الخيالية التي يعدها اللاهوت من أجلهم، ويخاطبهم البابا بقوله:

---

175 رأينا (في الدرس التاسع) أن للإيمان، عند "كنت" دورا عمليا ضد الثورة. فهو يقول: أن لفلسفتي هذه الأفضلية وهي في أنها تجعل لكل من العلم والأيمان مكانا فيها.

176 راجع لينين: المؤلفات الكاملة ج ١٣ ص ٩٨ – ٩٩ بالروسية.

"أنكم ترون أن العلم عاجز. والايمان وحده يتيح لنا كشف سر الكون". غير أن النظرية الماركسية عن المعرفة ومنهج النزعة المادية الجدلية، يمكنهما أن ينقذا العلم من هذا "العجز" الذي وضعته فيه النزعة الموضوعية.

٢ ـ النظرية الماركسية

تعتمد النزعة المادية الفلسفية الماركسية على المبدأ القائل بأنه يمكن معرفة العالم ومعرفة قوانينه تماما، وأن معرفتنا لقوانين الطبيعة التي تبرهن على صحتها التجربة والتطبيق العملي هي معرفة صحيحة لها معنى الحقيقة الموضوعية، وأنه ليس في العالم أشياء لا يمكن معرفتها بل هناك أشياء لم تعرف بعد، وأن هذه الأشياء سوف تُكتشف وتُعرف بوسائل العلم والتطبيق العملي. وهذا عكس ما تقول به النزعة المثالية التي لا تؤمن بإمكانية معرفة العالم وقوانينه، كما لا تؤمن بقيمة معارفنا ولا بالحقيقة الموضوعية بل تعتبر العالم مليئا "بأشياء في ذواتها" لا يمكن أن يعرفها العلم[177].

نرى أن ستالين يلح هنا على الدور الرئيسي الذي يقوم به التطبيق *العملي* كوسيلة لاكتشاف الحقيقة، وللتدليل على معارفنا، وكأساس للعلم.

أ) ـ أثر النَاحيَة العمَليَّة

انتقد انجلز في نص مشهور نظرية "كنت" عن "الشيء في ذاته":

وأكبر دحض لهذه الفلسفة ولغيرها من الفلسفات الأخرى هو التطبيق العملي ولا سيما التجربة الصناعية. فإذا استطعنا التدليل على صحة نظرتنا لظاهرة طبيعية بواسطة خلق هذه الظاهرة بأنفسنا وتوليدها بواسطة ظروفها واستخدامها

---

177 راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ٢ ج ص ١٢.

في خدمتنا فأن ذلك يقضي على "الشيء في ذاته" الذي لا يمكن إدراكه كما يقول "كنت".

ولقد ظلت المواد الكيمائية التي تتولد في الأجسام النباتية والحيوانية "أشياء في ذاتها" حتى أخذت الكيمياء العضوية بتحضيرها الواحدة تلو الأخرى، فأصبح "الشيء في ذاته" شيئا من أجلنا كمادة الأليزرن، التي لم نعد نزرعها في الحقول بل نستخرجها بسهولة ورخص من قطران الفحم الحجري.

لقد ظل نظام كوبرنيك الشمسي، خلال ثلاثمئة سنة، فرضية تدور حولها المراهنات ولكنها ظلت فرضية حتى إذا ما حسب لوفيرييه بواسطة الأرقام التي حصل عليها بفضل هذا النظام، ضرورة وجود كوكب مجهول ومكان هذا الكوكب في السماء، ثم اكتشفه جال فيما بعد، دل ذلك على صحة نظام كوبرنيك[١٧٨] .

فلماذا يدحض التحليل العملي الفلسفة اللاأدرية؟ كيف يدحض التطبيق العملي نظرية ما؟ إلا يخرج بنا هذا من ميدان الفلسفة كما يدعي المثاليون؟

فليلاحظ أولا أن وجهة نظرهم هزيلة فهم يدعون أن للعلم قيمة صناعية وأنه يمكن استخدامه، وفي نفس الوقت لا يعترفون للعلم بأية قيمة نظرية. فكيف يوفقون بين هاتين النظرتين للعلم، وماذا يريدون بالقيمة "العملية" للعلم؟

أنهم لا يحرون جوابا على كل ذلك، وإذا كان للتمييز بين الناحية النظرية والناحية العملية من معنى فهو ما يلي:

يعني ذلك التمييز التناقض في النظام الرأسمالي بين العمل الفكري والعمل اليدوي ولا شيء آخر.

فما هي النظرية الماركسية عن الناحية العملية؟ يطلق هذا التعبير:

---

178 راجع انجلز: لودفيج فورباخ، ص١٦ – ١٧، دراسات فلسفية ص٢٧. رأينا سابقا أن بونكريه اللا أدري السابق على انجلز كان يعتبر نظام كوبرنيك فرضية، فهو، قد أهمل التدليل الذي ذكره انجلز.

١ – على العمل، والإنتاج والصناعة.

٢ – على البحث العلمي والتجربة والتدليل التجريبي.

٣ – على التطبيق العملي الاجتماعي وهو أسمى هذه الأنواع. مثال: التطبيق العملي للنضال الطبقي. فالتطبيق العملي إذن هو *نشاط الإنسان الذي يحول الواقع*، وهو يبدأ *بالعمل* المادي *والإحساس*. ويعتبر "كنت" الإحساس مجرد صورة والحساسية سلبية. أما الجدلية فهي ترى أن الإحساس حركة. ولقد رأينا في الدرس السابق أن الإحساس مرتبط بالنشاط العملي.

فالحساسية والنشاط ليسا منفصلين كما يقول "كنت"[١٧٩] كميتافيزيقي.

إذن كان التطبيق العملي هو مصدر الأحاسيس والانفعالات، كما أنه مصدر أول درجة للمعرفة، فهو أيضا *إنتاج للأشياء*. يقول "كنت": "نحن لسنا في الأشياء"، فهو يفصل بصورة ميتافيزيقية بين الموضوع والذات فيحدث بذلك انقطاعا بين الفكر والواقع. ولا شيء أكثر خطأ من ذلك. فنحن في الأشياء *بقدر ما ننتج هذه الأشياء*، لأننا بأنتاجنا لهذه الأشياء نضمنها نشاطنا وتفكيرنا. فإذا كنا نستطيع إنتاج "الاليزارين" فما ذلك ألا لأننا سيطرنا على طبيعته وعرفناها في ذاتها. وتعتقد النزعة المادية أن الوهم القائل بأن "المنتوج الصناعي" لا يساوي "المنتوج الطبيعي" لا أساس له. فإذا كانت نظرتنا لشيء من الأشياء صحيحة صادقة فان نتائج التطبيق العملي ستكون كما ننتظر منها أن تكون فيكون ذلك تدليلا موضوعيا لمعارفنا. لأن كل شيء مرتبط بعملية إنتاجه. والإنسان حين يتدخل في عملية إنتاجه يرتبط بالشيء ذاته ويدخل فيه ويبرهن على صحة نظرته.

---

179 راجع "Im Anfang War die Tat" جوتيه (في البدء كان الفعل) ذكره م توريز، في أين الشعب" ص٦٨.

لما كنا نستعمل هذه الأشياء لخدمتنا معتمدين على الصفات التي نعرفها لها فأننا بذلك نخضعها للتدليل الذي لا يخطيء للبرهنة على صحة مدركاتنا الحسية أو عدم صحتها. فإذا كانت هذه المدركات خاطئة فأن استعمال الشيء الذي أوحت لنا به خاطيء ولهذا وجب أن تفشل محاولتنا.

أما إذا نجحنا في تحقيق هدفنا أي إذا تحققنا أن الشيء ينطبق على تصورنا له وأنه يعطينا ما ننتظره من استعماله فأن ذلك دليل على ادراكنا للشيء وحدوده يتفق مع الواقع الخارجي، أما إذا فشلنا فلن يطول بنا الحال حتى نكتشف سبب فشلنا، وسنجد أن الإدراك الذي كان أساس محاولتنا اما أن يكون هو ناقصاً أو سطحياً وأما أنه الحق بصورة لا يبررها الواقع بمعطيات مدركات أخرى. وهذا ما نسميه تفكيراً متداعياً. فنحن طالما أخذنا أنفسنا بتثقيف حواسنا واستخدامها بصورة صحيحة وطالما حضرنا عملنا في النطاق الذي تحدده مدركاتنا طالما وجدنا أن نتيجة عملنا تبرهن على مطابقة مدركاتنا لطبيعة الأشياء المدركة الموضوعية"[180].

وإذا ما استشهدنا بقول ذكره انجلز وهو: "أن الدليل على صحة البودنج هو أننا نأكله" وكذلك الدليل على أن العلم الحقيقي هو أنه يتيح لنا *تحويل* العالم الطبيعي والاجتماعي. ولهذا كتب ماركس يقول:

"أن معرفة ما إذا كان الفكر الإنساني يمكنه أن يؤدي إلى حقيقة موضوعية ليست مسألة نظرية، بل هي مسألة عملية. لأن على الإنسان أن يبرهن عمليا على الحقيقة، أي على حقيقة فكره وقوته"[181].

وهكذا يمدنا التطبيق العملي *بمعيار* الحقيقة. ولربما تساءل البعض لماذا كان الأمر كذلك؟ ولماذا كان العلم ممكنا، وما هو *أساس* إمكانية العلم، وما هو أساس

---

180 راجع انجلز: "النزعة المادية التاريخية" في دراسات فلسفية ص ٩٣ – ٩٤.

181 راجع ماركس "الفرضية الثانية حول فورباخ" في لودفيج فورباخ، ص٥١، دراسات فلسفية ص ٦٢.

الحقيقة؟ عرفنا الجواب على هذا السؤال في الدرس السابق. فلقد حدثنا "كنت" عن (الذهن الإنساني) وأنه يشك فيما إذا كان هذا الذهن يستطيع معرفة الواقع، فهو يتخيله غريبا على المادة سابقا للتجربة، كما يعتقد أنه لا يتغير وأنه عاجز عن التحول.

وهذا هو موقفه الميتافيزيقي المعارض للجدلية، كما أن هذا يجعلنا ندرك أساس كل نزعة مثالية تعتقد بوجود الذهن وما يتمتع به من حواس لا تتبدل. ولقد رأينا أن النزعة المادية، على العكس من ذلك، تثير مشكلة *أصل* الذهن الإنساني وتحلها وتدلل على أنه ثمرة التطور والتجربة الإنسانية منذ آلاف السنين، كما أنه ثمرة التطبيق العملي. وهكذا يكون الوعي نتاجا اجتماعيا. فإذا كان الوعي يتولد من الطبيعة والمجتمع فهو إذن *ليس غريبا عليهما*، *وهو يستطيع أن يعكس بدقة* قوانين الطبيعة والمجتمع. كما قال لينين:

"أن جدلية الأشياء هي التي تولد جدلية الأفكار وليس العكس".

وهكذا تدلل النزعة المادية على أن الحقيقة هي *الأولى* وأن لم تكن للوهلة الأولى كاملة لأنها ليست سوى انعكاس الواقع في دماغ الإنسان وهذا الانعكاس عملية طبيعية، وهكذا تكون كينونة العالم ماثلة أمامنا دائما. وهذا عكس ما تقوله النزعة المثالية التي تظهر الخطأ شيئا طبيعيا في الإنسان واكتشاف الحقيقة معجزة.

فكيف تفسر النزعة المادية الخطأ في مثل هذه الأحوال؟ ولماذا كانت الحقيقة ممكنة؟ ومن أين جاءت النظريات الخاطئة عن العالم كالنظريات المثالية ولا سيما الأديان؟ يجب علينا، كي نجيب على هذه الأسئلة، أن نذكر أن للأشياء أوجها متعددة تكتشفها حواسنا بالتدريج بفضل تطور نشاطنا العملي، فإذا ما اقتصرنا على وجه من هذه الأوجه عجزنا عن أن نعرف الأشياء معرفة حقة. مثال ذلك أنه لا يمكننا معرفة صورة عصا في الماء بدقة إذا اعتمدنا فقط على ما تشاهده أعيننا. وتلك هي الحال في جميع الأشياء. فالخطأ ليس مطلقا بل هو ينشأ

إذا ما عزلنا لحظة من التطبيق العملي عن جميع اللحظات الأخرى. ولهذا يمكن تصحيحه وإزالته بواسطة هذا التطبيق العملي نفسه.

ولكننا رأينا في الدرس السابق أن للمعرفة درجتين: وهي: الإحسان والإدراك. ويكون الانتقال من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية تعميما وهذا مصدر ثان ممكن للخطأ، لأننا نعمم اعتمادا على أسس غير كافية. تلك هي حال من يراقب مسلك بعض السياسيين البرجوازيين حين يقول: "جميع السياسيين فاسدون". وهذه هي طريقة التفكير الميتافيزيقي التي تجعل للواقع مظهرا *مطلقا*، كما أن هذا نقص التحليل الذي هو مصدر الخطأ. ويجب أن نلاحظ أننا متى عممنا أمكننا التخلي عن الواقع وتشويه صورة هذا الواقع، والخطأ ليس مطلقا بل هو حقيقة مشوهة. وتكمن في عملية المعرفة ذاتها، كما يقول لينين، إمكانية الابتعاد عن الواقع على أجنحة الخيال. ذلك لأن للأفكار قوة خاصة، تدفعنا في تيارها. حتى إذا ما وجدت الأفكار وجدت بذاتها. ويعني هذا أن النشاط الذهني يمكن أن يجري بصورة مستقلة نسبيا فنفصل عن التطبيق العملي الذي يمكنه لوحده أن يتحقق من قيمة التركيبات الفكرية التي تتكون خارج نطاقه. فالتطبيق العملي هنا أيضا هو الوسيلة الوحيدة لجعل الخطأ على قدر الحقيقة والعودة بالفكر إلى "الأرض".

ويجب أن نلاحظ أن بعض ظروف الإنتاج والوجود الاجتماعي لا تساعد على إزالة الخطأ باستمرار. مثال ذلك أن ضعف تطور قوى الإنتاج في بداية المجتمعات لم يكن ليساعد الإنسان على اكتشاف الأسباب الحقيقية للظواهر الطبيعية فكانت تفسر بواسطة أسباب خيالية: ومن هنا نشأت الخرافات والأساطير والمعتقدات الدينية فقد كتب انجلز يقول:

"أن غريزة تشخيص (قوى الطبيعة) التي "أوجدت الآلهة في كل مكان (وهي تعتبر) مرحلة انتقال "ضرورية تفسر شمول الدين[١٨٢]*"*.

ويشجع انقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة تعمل إحداها بينما الأخرى تملك وتدير الإنتاج وتصنع المشاريع ويمكنها أن تقوم ببعض الأعمال الفكرية، يشجع هذا الانقسام انتشار النظريات الفكرية الصرفة. فيبدو أن منتوجات نشاط الإنسان الذهني والأفكار التي يدير بواسطتها الإنتاج والحياة الاجتماعية، يبدو أنها أصل الواقع الحقيقي وأنها مستقلة بذاتها. يكوّن هذا القلب للعلاقة بين الواقع الموضوعي والأفكار ـ وهو لا يمكن حدوثه إلا بواسطة الابتعاد عن الواقع بواسطة الخيال ـ النظرية المثالية للعالم التي تعطي عن الأشياء صورة معكوسة "خيالية" فتمثل بذلك أسمى صورة للخطأ.

وهكذا لا تدحض النزعة المادية النزعة المثالية فقط بل هي تفسر أصل هذه النزعة. كتب لينين يقول أن النزعة المثالية هي تضخم في النمو وهي احدى ميزات المعرفة التي تغرق في المطلق البعيد عن المادة. لا شك أن النزعة المثالية تعكس الواقع ولكنها *تعكسه بالمقلوب* وتجعله يسير على رأسه. ويقول لينين أن المثاليين هم ثمار فجة وطفيليون ينبتون على الشجرة الحية المثمرة للمعرفة الحقة الإنسانية الموضوعية المطلقة. كما كتب ماوتسي تونج يقول: "لا يمكن تصور المعرفة منفصلة عن التطبيق العملي[١٨٣]".

---

182 راجع انجلز: ضد دورنج (Anti-Duhring) ص ٣٠٠، راجع أيضا ما سبق الدرس التاسع المسألة الخامسة.

183 راجع ماوتسي تونج: "حول التطبيق العملي" في كراسات الشيوعية شباط ١٩٥٢. ص ٢٤٥.

ب) ـ تَشويه الفِكرة الماركسيَّة عَن النَاحيَة العَمَليَّة

لقد بلغ من أهمية فكرة الناحية العملية، بعد انتشار الشيوعية، أنه يستحيل أهمالها. ولهذا حاولت البرجوازية الرجعية تبنيها وتشويهها. لأنها أرادت أن تكون لها، هي أيضا، فلسفة تقوم على العمل. وهذه هي العقيدة التي تسمى *بالبرجماتزم*.

ظهرت فلسفة البرجماتزم في الولايات المتحدة الأميركية أيام الغزو الاستعماري وانتشرة في أوربا أنتشاراً كبيراً ولا سيما منذ الحرب العالمية الثانية. وليس من الصعب أن نرى أن البرجماتزم نوع فج من اللاأدرية، فهي تعتقد أن أساس الحقيقة ليس مطابقة الواقع وانعكاس الواقع الصحيح ومراقبته بل هي *الفائدة*. ولكن فائدة من؟ فائدة زيد أو عمر، فائدة البرجوازية أم البروليتاريا؟ إذ أن كل ما هو حقيقي مفيد ما عدا أولئك الذين هم بحاجة للكذب. ولقد أصبح الكذب أفيد للبرجوازية الرجعية والحقيقة وحدها يمكن أن تكون مفيدة للبروليتاريا. أما البرجماتزم فهي تعتقد أن الحقيقة ذاتية وليست موضوعية، فهي لا تعبأ بالحقيقة في ذاتها بل هي فلسفة أشد ضروب الجهل رجعية في الفلسفات المثالية.

تقول فلسفة البرجماتزم: "الدين موجود، وهو مفيد لبعض الناس، إذن هو حقيقي" فهي تعلق الحقيقة بفوائد الطبقة المسيطرة، لأن البرجماتزم فلسفة البرجوازية المتداعية التي تنكر العلم. فهي بهذا تتغنى بأمجاد المكيافيلية.

وهكذا تبرر مصلحة الدولة (كما يقول مكارتي) اغتيال آل روزنبرج. كما تصبح صحيحة أكثر الأشياء تعارضاً إذا كانت تلك مصلحة رأس المال. وهذا يؤدي بنا الى عبادة الفائدة القصوى.

تقول فلسفة البرجماتزم، بما أنها فلسفة تقوم على العمل، بالعمل الناجح مهما كانت المباديء، فهي تعتقد أن الغاية تبرر الوسيلة، فهي بذلك فلسفة المقامرين الفاشيست حسب القول الذائع: "الحقيقة هي ما يفكر به موسوليني هذه اللحظة".

أما فيما يتعلق بالعلم فأن فلسفة البرجماتزم تـوحي بـالتخلي عـن النظريـة وعـن الفكر والتنبؤ. فهي تدعو إلى القيام "بالتجارب" مهمـا كانـت، فـإذا نجحـت كـان بـه وإلا فلا. وهكذا تسمح فلسفة البرجمـاتزم "بالتجـارب" المجرمـة. ولقـد كانـت هـذه "النظرية" المجرمة زاد الأطباء النـازيين الفكـري وزملائهـم اليابـانيين الـذين كـانوا يجرون التجارب على السجناء، كما أنها اليـوم زاد زملائهـم الأميركـان فيمـا يتعلـق بحرب الجراثيم.

وينسب المفكرون البرجوازيون هـذه الفلسـفة إلـى الماركسـيين بينمـا يحـاولون في نفس الوقت "تبرير" ما تقوم به طبقة البرجوازيـة. حتـى يخيـل لمـن يسـمعهم أن الماركسيين يهتمون "بالفعالية" قبـل كـل شـيء فلـيس حقيقيـاً عنـدهم إلا مـا يفيـد أغراض طبقتهم. ويدعي بعض المفكرين نسبة نظريـة "الكـذب الحيـوي"، التـي قـال بها هتلر، إلى الماركسيين.

وأما النظرية الماركسية فهي شيء آخر. فليسـت الفكـرة صـحيحة لأنهـا نافعـة، بل هي، على عكس، مفيدة لأنهـا صـحيحة، وهـي بـذلك فقـط يمكـن تطبيقهـا لأن التطبيق العملي، كما لاحظ ديكـارت[١٨٤] العقلانـي، "يقضـي" علـى الفكـرة الخاطئـة والمنهج الخاطئ.

ويمر الاستعمار الأميركي، كما مـر هتلـر، بـنفس التجربـة كـل يـوم. فليسـت الفكرة خاطئة لأنها فشلت، بل هي فشلت، على العكس، لأنها خاطئة موضوعياً.

أما أن تجعل من الكذب "المفيد" مساوياً للحقيقـة فـأن هـذه خطـة الانتهـازي. ولا يمكن أن يدعو إلى مثل هذا المسلك إلا الوصوليون الـذين لا مبـدأ لهـم والمقـامرون الـذين ولّـدهم عصـر الانحطـاط الاسـتعماري. لأن الماركسـية لا تضـحي قـط بالحقيقة. إذ يعـرف الماركسـيون تحمـل "الفشـل" الظـاهر العـابر والأعـلان عـن الحقيقة العلمية في سبيل التطبيق العملي.

---

184 راجع: حديث حول المنهج. الجزء الأول.

ولقد مر زمن هاجم فيه الشيوعيون لوحدهم في فرنسا مشروع مارشال على أنه ضد المصلحة الوطنية. أما فلسفة البرجماتزم فهي دائما من حيث تهب الريح لأنها لا تبحث إلا عن النجاح المباشر.

غير أن التطبيق العملي قد اتاح التحقق من المعطيات النظرية التي كانت تعتمد عليها مهاجمة مشروع مارشال، وإظهار الحقيقة أمام أعين الشعب، وتوضيح التقديرات المطابقة للواقع والتقديرات المعارضة لهذا الواقع. ولهذا كان التطبيق العملي معيار الحقيقة.

٣ – الحَقيقَة النِسْبيَّة وَالحَقيقَة المطلَقَة

يتيح لنا التطبيق العملي إذن التحقق من صحة الفكرة التي لدينا عن صفات شيء من الأشياء. فماذا يبقى إذن من الشيء في ذاته كما قال "كنت" ؟ لا شيء! تعلم الجدلية، كما يعلم الجدلي هجل، أن التمييز بين صفات شيء من الأشياء وبين الشيء في ذاته عبث لا طائل وراءه، فإذا كنت تعرف جميع صفات الشيء فانك تعرف الشيء ذاته، فهل هذه الصفات مستقلة عنا؟ هذا ما يجب أن نفهمه من مادية العالم. ولكن هذا الواقع الموضوعي لا يستعصي على المعرفة لأننا لا نعرف صفاته، ولهذا كان من العبث القول "خلقك شيء وصفاتك ومساوئك شيء آخر، وأنا أعرف صفاتك ومساوئك ولكني لا اعرف خلقك" لأن "الخلق" هو مجموعة الصفات والمساوىء. كما أن الرسم هو عبارة عن مجموع الرسوم. وأنه لمن العبث القول، بأن هناك فن اللوحات والرسامين والألوان، والأساليب والمدارس ثم هناك فن الرسم في ذاته الذي يخيم عليها ولا تمكن معرفته. إذ ليس هناك جانبان في الشيء. بل هو *كل* تكتشف بالتدريج أوجهه المتعددة عملياً.

ولقد علمتنا الجدلية، فيما يتعلق بصفات الأشياء "المخفية"، بأنها تظهر بواسطة النضال الداخلي للأضداد الذي يتولد عنه التغير. وحالة الشيء " في

ذاته" هي حالة التوازن النسبي الذي يكشف عن تناقض الشيء الداخلي وقت التجمد أو الغليان.

ولهذا لا يمكن أن يوجد أي فرق مبدأي بين الظاهرة والشيء في ذاته. والفرق هو بين ما هو معروف وما لم يعرف بعد[185].

ويصبح الشيء "في ذاته"، بواسطة ازدياد معرفة الواقع، شيئا "من أجلنا" بالتدريج.

وهكذا نرى أنه يوجد، بالنسبة للنظرية المادية الجدلية للمعرفة، *حقيقة مطلقة*، أي مطابقة للواقع بذاته.

وأما الماركسية فهي تحدد الحقيقة، على عكس رأي "كنت" الذي يعتقد بأن الحقيقة هي بالنسبة للذهن الإنساني، بأنها عملية طبيعية. هي انعكاس الواقع الموضوعي في وعي الإنسان.

ولهذا فأن القول بأن الماديين ينكرون وجود الحقيقة، كذب وافتراء.

وإذا ما عدنا إلى مثال "السائل" رأينا أن *التغير* هو الذي يظهر مضمون الظاهرة الداخلي. ولهذا كان من الضروري في بعض الأحيان انتظار بلوغ الظاهرة درجة معينة من النمو والنضج لتظهر حقيقتها بوضوح. لأنه لا يمكن تمييز التناقضات عند بدايتها. وهذا ما يجعل دراسة بداية الكائن الحي، مثلا، صعبة. وكذلك حال الرأسمالية التي تبدو تناقضاتها المعقدة بشكل أوضح في نظر الجماهير وهي في النزع الأخير. ولهذا يقول هيجل الجدلي:

"لا تأخذ بومة منيرفا (وهي مثال العلم والحقيقة) بالطيران إلا عند الأصيل".

يتيح إذن نمو الظواهر نفسها تقدم المعرفة ولهذا يجب أن نعرف كيف نلاحظ بصبر، وأن يُحسب حساب الزمن الضروري لتكوين انعكاس الواقع في الدماغ[186].

---

185 راجع لينين: النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية ص ٨٥.

يجب أن نفكر دائما بصورة جدلية سواء حول نظرية المعرفة أم في جميع ميادين العلم الأخرى، أي أن لا نفترض قط أن وعينا لا يتغير بل يظل كما هو، بل يجب تحليل العملية التي بفضلها تتولد المعرفة من الجهل أو تصبح المعرفة الغامضة الناقصة أكمل وأدق[١٨٧].

هل هناك إذن أشياء لا يمكن معرفتها؟ كلا، بل هناك أشياء لا تزال مجهولة وسوف "تكتشف وتُعرف بواسطة العلم والتطبيق العملي" ذلك لأن تاريخ العلم يؤكد عدم وجود المجهول كما يؤكد تحول المجهول إلى معلوم باستمرار.

كان "كنت" يعتقد أن هناك بعض المشاكل المستعصية على الحل. فكان افقه العلمي محدوداً بحدود العلم في زمانه. مثال ذلك أن الكيمياء العضوية والبيولوجيا لم تكونا موجودتين بعد. ومن ثم اتسع الأفق. أما الذين يلوكون أقوال "كنت" فهم لا يريدون رؤية ذلك.

وهكذا نجد أنه بينما اللاأدرية متشائمة تشكو من عجز "الذهن الإنساني" فإن النزعة المادية *متفائلة* لا ترى أي مشكلة، كمشكلة السرطان مثلا، مستعصيه على الحل.

فليس هناك سوى مجهول مؤقت، ولهذا فأن حيلولة الرأسمالية دون ازدهار العلم يزيد من أجل هذا المجهول المؤقت.

زد على ذلك أن النزعة المادية تتيح لنا وضع *الخطط* لنمو العلم *بالتنبؤ* في الميادين التي تنضج فيها الاكتشافات، واتخاذ الوسائل التي تعجل بذلك. ألم يحدث غالبا في الماضي أن قام بالاكتشافات، في نفس الوقت، علماء يجهل بعضهم بعضا. وهذا دليل رائع على أن المعرفة عملية طبيعية تحدثها الأشياء نفسها فنيا.

---

186 لا يعارض هذا إمكانية الإسراع في عملية المعرفة بواسطة المخيلة والتنبؤ العلمي والفرضية.

187 راجع لينين: النزعة المادية والنزعة التجريبية النقدية ص ٨٥ – ٨٦.

غير أن نمو ظاهرة معينة غير مستقل عـن سـائر الظـواهر. والطبيعـة لا تحـد في المكان والزمان، فهي تبدع باستمرار ولا تكـف عـن الإبـداع. ولهـذا كـان نمـو المعرفة ذاته *لا يحد*. وسوف تظل الأشياء في العالم أكثـر ممـا نجـد فـي معرفتنـا، وكل ما نجهله مرتبط بما نعرفه.

ولهذا لا يمكن للعلم أن يقف عند حد معين. وكل حقيقـة مـن حقائقـه فـي ذاتهـا *نسبية* لأنها *تتعلق بالحقائق الأخرى*. وهكذا اكتشف الـذرة بعـد الجسـيم كمـا اكتشـف الإلكترون بعد الذرة ثم اكتشـف اللـب وسـوف تكتشـف جسـيمات أخـرى. ولـيس هناك مجال للاعتقاد بأنه يمكن استنفاد الواقع، ولهذا قـال لينـين "الإلكتـرون نفسـه لا يمكن استنفاده".

كل هذا لا يقلل من قيمة معارفنا الموضـوعية لأن "فـي النسـبي يكمـن المطلـق" (لينين).

ترى النزعة المادية المحدثـة، أي الماركسـية، أن حـدود مقـدار قـرب معارفنـا من الحقيقة الموضوعية المطلقة نسبية تاريخياً، غيـر أن وجـود هـذه الحقيقـة ذاتهـا لا اعتراض عليه، كما أنه لا اعتراض علـى أننـا نقتـرب منهـا. وهكـذا إذا كانـت أطراف اللوحة نسبية تاريخياً ولكن لا شـك أن هـذه اللوحـة تمثـل مثـالا موجـودا بصورة موضوعية.

وإذا كنا في فترة معينة، وفي ظروف معينـة، قـد تقـدمنا فـي معرفتنـا لطبيعـة الأشياء حتى اكتشفنا الأليزارين فـي قطـران الفحـم الحجـري أو الالكترونـات فـي الذرة فأن هذا الاكتشاف نسبي تاريخياً. غير أن كل اكتشـاف مـن هـذا النـوع تقـدم في "المعرفة الموضوعية المطلقة" وليس هذا أمراً نسبياً قط[١٨٨].

188 راجع لينين: النزعة المادية والنزعة النقدية.

ولهذا فليس هناك نظرية علمية صحيحة تصبح خاطئة أو عديمة الجدوى مع الزمن. بل تحتفظ كل نظرية بقيمتها فإذا ما ظهر نقص النظرية أمكننا التغلب على هذا النقص بواسطة التجربة.

وليس تقدم العلم سباقاً إلى الأصالة والمهارة بل هو تقدم داخل الحقيقة وفي أعماقها.

٤ – إتحَاد النَظريَّة بالنَاحِيَة العَمليَّة

ليست المعرفة، في نظر النزعة المادية عملية "يفسر" بواسطتها الذهن معطيات الحواس، بل هي عملية معقدة يتكون بواسطتها انعكاس الواقع في دماغ الإنسان.

ونعلم أن هذه العملية تتضمن درجتين مختلفتين نوعيا: الدرجة الحسية والدرجة العقلانية أو التطبيق *العملي والنظرية*.

ولقد رأينا أيضاً أن التطبيق العملي هو بداية النظرية ومصدر المعرفة ومعيار حقيقتها. وهكذا يجب على كل نظرية أن ترجع بالضرورة إلى التطبيق العملي لسببين. السبب الأول هو أن النظرية انما وضعت من أجل التطبيق العملي ولم توضع من أجل فضول لا طائل وراءه بتأمل العالم، بل لكي تعمل على تحويل هذا العالم، والسبب الثاني هو أنه لما كان الواقع عبارة عن حركة وتغير مستمر فان النظرية التي تسعى إلى الاكتفاء بذاتها يصيبها العقم، وتمسي عقيدة ميتة، وتتوقف عملية المعرفة إذا لم ترجع باستمرار إلى التطبيق العملي، ويستحيل الحصول على انعكاس صادق للواقع وإصلاح نقص النظرية وتعمق معرفة العالم.

والفلاسفة *التجريبيون* هم أولئك الذين يعتقدون أن المعرفة هي معرفة الدرجة الأولى، معرفة الأحساسات، وأما *الفلاسفة العقلانيون* المثاليون فهم أولئك الذين

يعترفون بعمل الأفكار والمعرفة النظرية ولكنهم يعتقدون مع ذلك أن هذه الأفكار قد هبطت من السماء ولا يمكنها الخروج عن نطاق التطبيق العلمي. وكل من الفريقين يفصل باعتباط بين الدرجتين للمعرفة ولا يدرك وحدتهما.

ندرك أهمية هذه الفرضية في ميدان العمل الثوري لأن كل شخص هنا ــ كما هو الحال في العلوم ــ لا يستطيع أن يختبر كل شيء بنفسه، بل هناك *تجربة اجتماعية* تجمعت على مدى العصور، تقوم النظرية بتنظيمها، ويجب على كل واحد منا تمثلها. إذا كان لا يريد النزول إلى مستوى النظريات التي ظهر خطأها وقامت الحركة العمالية بإصلاحها.

أن كل من يهمل النظرية يغرق في *النزعة العملية* المثالية ويسير في الظلمات، كما أن كل من يهمل التطبيق العملي يجمد في عقيدته فإذا به صاحب عقيدة، أجوف التفكير.

ولا شك أن النظرية تصبح لا موضوع لها إذا لم تتصل بالعمل الثوري، كما أن التطبيق العملي يضل طريقه إذا لم يضيء هذا الطريق النظرية الثورية[١٨٩].

تتيح لنا النظرية الماركسية عن المعرفة أن ندحض الفكرة الخاطئة القائلة بأنه يجب علينا الابتعاد عن التطبيق العملي لنظل *"محايدين" "موضوعيين"*، وهذا ما يسمى بالنزعة الموضوعية البرجوازية التي تشن الحرب ضد الماركسية. وهو أشبه بقولنا أن الفيزيائي الذي قام بالتجارب لا يمكن أن يكون موضوعياً لأنه "ثائر" بتجاربه؟

إذا أردت الحصول على المعارف فيجب عليك المشاركة في التطبيق العملي الذي يحول الواقع، فإذا، ما أردت معرفة طعم اجاصة فيجب عليك أن تضعها في فمك وتقضمها وإذا أردت معرفة تكوين الذرة وطبيعتها وجب عليك القيام بالتجارب الفيزيائية والكيمائية وتغيير بيئة الذرة. وإذا أردت معرفة نظرية الثورة

---

189 راجع ستالين: حول مبادىء فلسفة لينين، ص١٨ المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٥١.

ومناهجها وجب عليك الاشتراك في الثورة. لأن جميع المعارف الحقة انما تتولد عن التجربة المباشرة[190].

لهذا يستحيل تمثل الماركسية تماما إذا ظللنا مكتوفي الأيدي *نتأمل* العمل بدلا من أن نشارك فيه، بالرغم من أدعاء المفكرين البرجوازيين الصغار أنه لا يمكننا الحكم على قيمة الماركسية الا إذا ابتعدنا عن الحركة التي تتكون بواسطتها النظرية وتتحقق صحتها ويزداد غناها. والعمل الثوري وحده هو الذي يتيح لنا اكتشاف *حقيقة* المجتمع الرأسمالي لأنه وحده هو الذي يسعى لتحويل المجتمع وتغيير ظروف هذا المجتمع. والعمل الثوري وحده بحاجة إلى الحقيقة لأننا نسير إلى الفشل بدون النظرية. *ولهذا تقوم النزعة المادية على الروح الحزبي. فهي تضطرنا إلى الأخذ بوجهة نظر فئة اجتماعية معينة للحكم على كل حركة*[191].

هذه الفئة الاجتماعية في أيامنا هي البروليتاريا الثورية.

تُكتشف الحقائق من خلال التطبيق العملي وتتأكد الحقائق وتنمو. لأنه يجب علينا الانتقال من الاحساسات والتصورات الحسية إلى المعرفة العقلانية، ومن المعرفة العقلانية إلى الإرادة الفعالة للتطبيق العملي الثوري، وتحويل العالم الذاتي والموضوعي.

يؤدي التطبيق العملي إلى المعرفة ثم نعود إلى التطبيق ومن ثم إلى المعرفة. وتستمر هذه الحركة بصورة دورية. فيرتفع مضمون كل دورة للعمل والمعرفة، بالنسبة للدورة السابقة، إلى مستوى أرفع وأسمى[192].

من الخطأ إذن اعتبار الماركسية نظرية لا تمثل سوى المغزى "الذاتي" للتاريخ في نظر البروليتاريا (أي تأويلها الذاتي للحوادث) وليست علما من

---

190 راجع ماوتسي تونج: "حول التطبيق العملي" ص ٢٤٤.

191 راجع لينين: المؤلفات، ج ١ ص ٣٨٠ – ٣٨١ الطبعة الروسية و "نظرة عابرة على حياته ومؤلفاته" ص٣١ مطبوعات باللغات الأجنبية موسكو ١٩٤٦.

192 راجع ماوتسي تونج: "حول التطبيق العملي" ص ٢٥٢.

العلوم. والا لما كانت البروليتاريا بحاجة *لتعليم* الماركسية لأنها تمثل وجهة نظرها التلقائية، *ولما* وجب *على* من هم ليسوا من طبقة البروليتاريا أن يتعلموها لأنها لا تمثل وجهة نظرهم! ولكن الماركسية، على العكس، علم يحتاجه الجميع ويجب عليهم تعلمه.

وإذا كان المرء موضوعيا فلا يعني ذلك أن يرفض جميع النظريات، بل يعني ذلك الأخذ بنظرية تتفق وعمليات التطور الاجتماعي الموضوعية. ولا يمكن التحقق من صحة هذا الاتفاق الا بواسطة التطبيق العملي، وهذا التطبيق لا يخلق عملية التطور بل *يساعد عليه*، كما يمكن للعالم في مختبره أن يسعى للإسراع في سير عملية من العمليات وأن كان لا يمكنه أن يقضي على قانون العملية أو يبدعه.

ولهذا لا يجب علينا فقط أن نحارب اللاأدرية نظريا بل يجب القضاء عليها عمليا فنقيم الدليل، بواسطة العمل، على أنه يمكننا التأثير على العالم وأن الماركسية هي *الحقيقة التاريخية*.

مثال ذلك: بينما تقول اللاأدرية عن الحرب: على من تقع خطيئتها؟ لا يمكن معرفة ذلك. فأن عمل الشرفاء من الناس يؤدي بهم إلى اكتشاف *مسببي* الحرب. وهكذا تحققت البروليتاريا، بواسطة التجربة، من قيمة النزعة المادية الماركسية، ومن قيمتها في التنبؤ.

فرأت البروليتاريا أن الشيوعيين لا ذنب لهم إلا أنهم على حق. غير أن من يقول بالتنبؤ الصحيح يقول بالعلم الصحيح.

نرى إذن أن اللاأدرية تخدم مصالح البرجوازية الطبقية. وإذا لم يكن هناك علم اجتماعي لعجزنا عن التنبؤ والعمل ولنعمت البرجوازية بنوم هانيء! لأن اللاأدرية تؤدي بالمستغلين إلى العجز. أما إذا كانت المعرفة العلمية ممكنة فأن المضطهدين والمستغلين يمكنهم الأخذ بها للتوحيد بين التطبيق العلمي والنظرية وجعله منارا يهتدون به في نضالهم.

تولد النزعة المادية الجدلية أمام اللاأدرية، التي تثير الشك والتشاؤم — (وهي من صنع رجال تجاوزتهم الأحداث التي لا يفهمونها فكفروا بكل شيء وأصبحوا مستعدين للإيمان بأي شيء) — تفاؤلاً مقبولا وتسمح بأن ندرك أن الإنسان يمكنه أن يقود مجرى الحوادث. لأن النزعة توحي بثقة لا تحد في قوة الفكر والعمل.

وهكذا تتوضح حقيقة فرضية ماركس القائلة بأن *الفلاسفة لم يقوموا إلا بتفسير العالم بطرق مختلفة بينما الواجب هو تحويل العالم*[١٩٣].

* * *

193 راجع ماركس: الفرضية الحادية عشرة عن فورباخ في "لودفيج فورباخ ص" ص ٥٣، دراسات فلسفية ص ٦٤.

القسم الثالث

النزعة المادية الجدلية

حياة المجتمع الروحية

النزعة المادية الجدلية هي وحدها التي تحمل جواباً علمياً على مشكلة الوعي، كما رأينا في الجزء الثاني. كما أنها تتيح لنا فهم أصل الأفكار وعملها، وفهم النظريات الاجتماعية والآراء السياسية والمؤسسات السياسية التي هي جزء من المجتمع.

ولقد خصص ستالين لهذه المسألة صفحات مهمة من كتابه *"النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية"*.

وتتضمن هذه المسألة جانبين يجب التمييز بينهما بدقة:

١ – *ظهور* مختلف صور الوعي في الحياة الاجتماعية.

٢ – *أهميتها* والدور الذي تقوم به.

ويبحث الدرس الثاني عشر الجانب الأول، بينما يبحث الدرس الثالث عشر الجانب الثاني. وأما الدرس الرابع عشر فهو يدرس أصل الاشتراكية العلمية وأهميتها.

الدّرس الثانـي عشر

حيَاة المجْتمَع الرّوحيَّة

هي انعكاس لحياته المادية

١ – مثَال

نقرأ في بعض نشرات الأونسكو أن السلم لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة "تهدئة العقول"، وأنه يجب، إذا ما أردنا القضاء على الحرب، القضاء عليها في عقول الناس. لأن سبب الحروب ذاتي. أو كما يقول *المحللون النفسيون هناك "غريزة للاعتداء"* تكمن *في وعي كل إنسان* أو ما يسمى "بالكراهية الموروثة".

مثل هذه النظرية، عن أسباب الحرب، هي نظرية مثالية يختلف عنها موقف النزعة المادية الماركسية، فهي تقول أن سبب الحروب يكمن في واقع المجتمعات *الموضوعي*. أصل الحروب في عصر الاستعمار الأزمات الاقتصادية التي تؤدي إلى البحث عن أسواق جديدة بواسطة القوة. وهذا قانون موضوعي وهو قانون الفائدة القصوى الذي يفسر لنا الحروب. أما فيما يتعلق بالأمور *الذاتية* (كفكرة الحرب) (والكراهية وغريزة الاعتداء) فهي تتولد عن التناقضات المادية التي توجد وضعاً موضوعياً للحرب. والواقع الموضوعي هو الذي يفسر لنا ظهور الأمور الذاتية وليس العكس.

يمكننا أن نستشهد بغير ذلك من الأمثلة. ويلاحظ بصورة عامة أن العصور الحالية تظهر تعارضا قويا بين النظرية الفكرية للرأسمالية في النزع الأخير، وهي نظرية فكرية تقوم على العداوات القومية والعنصرية وعلى السلب والحرب[١٩٤]، وبين النظرية الفكرية للاشتراكية المنتصرة، وهي تقوم على التعاون والإخاء بين الأمم والأفراد كما تقوم على السلم. ولقد عبر بول اليوار عن هذا النضال بين النظريات الفكرية المتناقضة في شعر رائع.

يجعلنا الواقع الموضوعي للمجتمعات ندرك، في كلتا الحالتين، ـ حالة الرأسمالية والبرجوازية الكبرى من جهة وحالة الاشتراكية والحركة العمالية من جهة ثانية ـ نضال الأفكار لأن حياة المجتمع الروحية هي انعكاس لحالته المادية.

وتتعدد وجوه حياة المجتمع الروحية من فن وقانون ودين، الخ. ولا يمكننا أن ندرس هذه الوجوه جميعاً بالتفصيل. وإذا رجع القاريء إلى كتاب *"النزعة المادية*

194 وكتب في نشرة يرأسها ايزنهور ورئيس جامعة هارفرد هذه الكلمات: "تزود الحرب الإنسان بشعور سام يحس به المرء حينما يشارك في مجهود مشترك وهو شعور يتعارض تعارضا مطلقا مع شعور الخوف الذليل والطموح البائس للتمتع ببعض الطمأنينة الاجتماعية".

الجدلية والنزعة المادية التاريخية" لوجد ستالين يلح في القول على الأفكار الاجتماعية والنظريات الاجتماعية والآراء السياسية والمؤسسات السياسية وذلك نظراً لأهميتها العملية الكبرى.

الأفكار الاجتماعية: وهي الأفكار التي يكونها الفرد في مجتمع معين حول مكانه في الوجود، وكذلك الأفكار عن الملكية والأفكار الأخلاقية عن العائلة والحب والزواج وتربية الأطفال (أو ما يسميه فلوبير بالأفكار "الموروثة") وكذلك الأفكار التشريعية. مثال ذلك الفكرة البرجوازية القائلة بأن حق الملكية "حق طبيعي" قائم بذاته. وتعبر هذه الفكرة عن الواقع المادي، وهو أن الملكية الخاصة هي أساس المجتمع البرجوازي، ولما كانت ملكية وسائل الإنتاج لا تُمس في نظر البرجوازية المتملكة، كانت فكرة الملكية الخاصة، في رأي الأخلاق البرجوازية، معطى أساسياً.

النظريات الاجتماعية: وهي النظريات التي تجعل من الأفكار الاجتماعية التي أشرنا إليها سابقا مذهبا وعقيدة تجريدية. مثال ذلك نظرية "المدينة" عند أفلاطون، ونظرية الدولة عند هوبس وجان جاك روسو وهيجل ونظريات الخياليين الاجتماعية أمثال بابوف وسان سيمون الخ...

الآراء السياسية: وهي الآراء الملكية أو الجمهورية المحافظة أو المتحررة الفاشية أو الديمقراطية الخ...

والأفكار حول حرية الرأي والاجتماع والتظاهر الخ..

المؤسسات السياسية: أي الدولة ومختلف أجزاء نظام الدولة. وهناك فرضية ماركسية مهمة جدا تعتبر الدولة عنصراً من حياة المجتمع الروحية فهي تعكس حياته المادية.

٢ – التفسيِرَاتُ المثَاليَّة

فلنعد إلى الموقف المثالي الذي بدأنا منـه فهـو أكثـر المواقـف انتشـاراً ويتخـذ وجوهاً
عدة منها:

أ) أقدم النظريات وأشدها غموضا هـي النظريـة الدينيـة اللاهوتيـة. فهـي تـرى في حياة المجتمعات المادية انعكاساً للفكرة الإلهية وتحقيقـاً لمخطـط وضـعته العنايـة الالهية. فالنظام الاجتماعي صادر عن الإرادة الآلهيـة. ولمـا كانـت الطبيعـة والعقـل البشري لا يتغيران فكل تغيير في المجتمع كفـر والحـاد وهـو مـن عمـل الشـيطان لأنه مس لارادة الله، ولهذا كانت كل فكرة تدعو للتغيير آثمـة. وقـد تولـد عـن هـذه النظرة النزعة الأكليركية التي تقول بأن الأكليـروس، وهـو المـؤتمن علـى اسـرار الله، يمكنه أن يضمن النظام "الاجتماعي" وقامت البرجوازيـة الثوريـة بمحاربـة هـذه النظرية التي كانت تلائم تماماً المجتمع الإقطاعي.

ب) ثم تأتي نظرية مثالية جوهرها برجـوازي وقـد توسـع بهـا فلاسـفة القـرن الثامن عشر الفرنسي. فقد قاموا بمحاربة "الحـق الإلهـي" باسـم "الحـق الطبيعـي" و "الديانة الطبيعية" وباسم "العقل". فكانوا يقولون بـأن النظـام الاقطـاعي فوضـى لأنـه لا يتفق ومتطلبات العقل الذي يجد كل إنسان صـورته فـي نفسـه. يجـب إذن تغييـر المجتمع باسم العقل الشـامل الخالـد، فيصـبح النظـام الاجتمـاعي أخيـراً انعكاسـاً للنظام العقلاني.

وهذه النظرية كالسابقة مثالية بـالرغم مـن أنهـا تمثـل خطـوة للإمـام بالنسـبة للنظرية السابقة لأنها تعبر عن أفكـار البرجوازيـة الثوريـة أمـام أفكـار الإقطاعيـة الرجعية. فهي لا تتساءل عن أصل الأفكار بل هي تعتبرها معطـى اوليـاً يتولـد منـه واقع المجتمعات المادي.

يجب أن نلاحظ، مع ذلك، أن فلاسفة القـرن الثـامن عشـر المـاديين – ولا سـيما هلفتيوس أدركوا أن أفكار الإنسان هي ثمرة تربيتـه. كمـا إنهـم ألحـوا علـى القـول

حول تعدد النظريات الفكرية في المجتمعات عبر الزمان والمكان ــ ولكنهم كانوا يجهلون علم المجتمعات الذي سيؤسسه ماركس، ولذلك عجزوا عن الاندفاع في التحليل أكثر مما فعلوا.

ج) يجب أن نعترف لهيجل بمكانة مهمة. فلقد قام في كتابه *"فلسفة التاريخ"* بدراسة العلاقات بين التطور المادي والتطور الروحي في المجتمع. ولما كان مثالياً فلقد أقام "الفكرة" السيدة، في البدء، التي تولد المجتمع ولا تقل في ذلك عن الطبيعة. وما التاريخ إلا عبارة عن تطور الفكرة. وهكذا يصبح تاريخ اليونان القديم عبارة عن تجلي فكرة الجمال. وكذلك يكون سقراط وعيسى المسيح ونابوليون لحظات من لحظات الفكرة.

ولما كان هيجل جدلياً فهو يقوم في بعض الأحيان بتحاليل رائعة. غير أن نزعته المثالية تقضي به إلى أن يجعل للرجال العظام دوراً كبيراً مبالغا فيه فيمسون العوامل الوحيدة للتقدم التاريخي. كان لا بد لهذا الجانب من فلسفة هيجل أن تستغله بوقاحة الفلسفة الفاشية التي تعتقد أن الشعب لا شيء، وأن "السوبرمن" المعصوم هو كل شيء. ولهذا قال أحد المعجبين بالدوتسي "الفاشية هي ما يفكر به موسوليني في هذه اللحظة" كما كان هتلر يقول أمام فرق الصاعقة: "سأفكر من أجلكم".

د) الصورة الأخرى للنزعة المثالية علم الاجتماع الذي وضعه دور كهايم وزملاؤه.

لربما تولت الكثيرين الدهشة إذا قلت لهم بأن علم الاجتماع الذي وضعه دور كهايم مثالي. ألم يهاجم علماء الاجتماع اللاهوت والميتافيزيقا؟ ألم يحاولوا دراسة الوقائع الاجتماعية (كالمؤسسات، والقانون، والعادات) دراسة موضوعية حسب تطورها وهم خالو الذهن من أي رأي سابق بصددها. لا شك أنهم أرادوا ذلك ولكن الفرق الكبير بين الارادة والفعل. إذ أن علماء الاجتماع البرجوازيين، عادة، يفسرون التغيرات المادية بواسطة نمو "الوعي الجماعي" الذي يظل سراً

غامضا في ذاته. فيبدو تاريخ المجتمعات عندئذ كتحقيق مستمر للمطامح الأخلاقية التي تكمن في الوعي الإنساني منذ العصور الأولى. فلماذا يتطور "الوعي الاجتماعي" باتجاه معين ولا يتخذ أتجاها أخر؟ لا أحد يدري. ذلك لأن علماء الاجتماع يجهلون (أو يتجاهلون) الإنتاج، ونضال الطبقات وهما من عوامل التاريخ. بل يفضلون العوم على السطح. فإذا وجد الضمان الجماعي فما ذلك الا لأن "الأفكار تطورت" لأن كل شيء يرجع كما ترى فلسفة ليون برنشفيك إلى "تقدم الوعي".

هـ) يجب أن نشير إلى أن من بين أبطال النزعة المثالية المندفعين في هذا الميدان برودون الذي تحدثنا عنه سابقا[١٩٥] يرى برودون أن تاريخ المجتمعات هو تجسيد مستمر لفكرة العدالة "الكامنة" في "الوعي" منذ بداية الإنسانية. ولهذا كانت علاقات الإنتاج[١٩٦] تحقيقاً "للمقولات الاقتصادية" التي ترقد في "عقل الإنسانية". وهذا الوعي غير المحدث ــ أو "العبقرية الاجتماعية" كما يقول برودون ــ ماثل في التاريخ بأكلمه. فهو يفسر كل شيء ولا شيء يفسره. ولما كان الوعي هو ما هو عليه انتهى الأمر ببرودون إلى إنكار واقع التاريخ نفسه.

ليس من الصحيح القول بأن شيئا من الأشياء يحدث أو أنه ينتج لأن كل شيء موجود في المدنية وفي الكون يفعل منذ القدم. وكذلك شأن الاقتصاد الاجتماعي" ولا شيء جديد تحت الشمس. وهكذا يزول التاريخ بجرة قلم.

نلاحظ أن برودون الذي يثور دائماً ضد الجزويت ورجال اللاهوت باسم الوعي ــ برودون الذي يتبجح بمعارضة "نظام الثورة" (أي نظامة) "بنظام الوحي"، برودون الذي يخيفه تنظيم البروليتاريا الثوري فيتولاه الذعر أمام العمل فيجعل من حزب العمال "كنيسة" كما يفعل اليوم زملاؤه الاشتراكيون

---

195 راجع الدرس السابع: الخلاصات العامة.

196 راجع تعريف هذه الألفاظ في الدرس الخامس عشر.

الديمقراطيون ـ هو نفسه ضحية الأفكار الأكليبركية التي يخيل إليه أنه يحاربها. لأن "الوعي" بالنسبة للبرجوازي الذي يخيل إليه أنه معيار العالم والتاريخ ليس سوى الآله القديم بعد أن أصبح علمانياً بصورة غامضة. وهكذا تكون فلسفة برودون *مثالية* في أصلها.

وقف ماركس في وجه هذه الفلسفة في أحد كتبه الرائعة: *"بؤس الفلسفة"* (١٨٤٧) فكتب يقول: *"لنقل كما يقول السيد برودون أن التاريخ الحقيقي الذي يسير حسب الزمن هو التتابع التاريخي الذي ظهرت فيه الأفكار والمقولات والمبادىء"*[١٩٧].

فلقد كان لكل مبدأ عصره الذي ظهر فيه، فظهر مبدأ السلطة، مثلاً، في القرن الحادي عشر، كما ظهر مبدأ النزعة الفردية في القرن الثامن عشر. وهكذا كان العصر ينتمي للمبدأ وليس المبدأ هو الذي ينتمي للعصر، أي أن المبدأ هو الذي يضع التاريخ وليس التاريخ هو الذي يضع المبدأ. حتى إذا ما تساءلنا، كي ننقذ المبادىء والتاريخ معاً، لماذا ظهر مبدأ ما في القرن الحادي عشر أو في القرن الثامن عشر بدلا من أن يظهر في عصر أخر، اضطرنا ذلك للبحث عن حالة الناس في القرن الحادي عشر وحالتهم في القرن الثامن عشر، وما هي حاجاتهم وقواهم الإنتاجية وطريقتهم في الإنتاج والمواد الأولية لهذا الإنتاج وأخيراً كيف كانت العلاقات بين الناس، تلك العلاقات التي هي ثمرة لهذه الظروف الحياتية.

أليس تعمق جميع هذه المسائل هو صنع للتاريخ الحقيقي للناس في كل عصر وتمثيل هؤلاء الناس على أنهم أبطال مأساتهم وممثلوها في نفس الوقت؟ ولكن حينما ننظر للناس على أنهم ممثلو تاريخهم وأبطال هذا التاريخ نصل من وراء

---

197 راجع برودون: فلسفة البؤس. ج٢ ص ١٠٢، ذكره ماركس في: بؤس الفلسفية، ص٩٣. المطبوعات الاجتماعية.

ذلك إلى نقطة البداية الحقة لأننا تخلينا عن المبادىء الخالدة التي تحدثنا عنها آنفا[198].

ويصح نقد ماركس لبرودون على جميع صور النزعة المثالية التي اشرنا اليها في المقاطع (أ) (ب) (ج) (د) لاننا نجد في جميع هذه الحالات أن الواقع ينظر إليه بالمقلوب حتى يصبح تفسير الأفكار الحسي غير مفهوم. وتدلل النزعة المادية الجدلية، التي تعيد الأشياء إلى أوضاعها الصحيحة، على أن الأفكار الاجتماعية هي انعكاس لتطور التاريخ المادي الموضوعي. لأن النزعة المادية الجدلية وحدها هي التي تقيم دعائم علم النظريات الفكرية.

فالنزعة المثالية تعلن عن الأفكار وتقوم بعرض لها آخذة على "النزعة المادية" "الملعونة" أنها تنكر الأفكار (وسنرى أن هذا غير صحيح) والحقيقة أن النزعة المثالية تتحدث عن الأفكار بقدر جهلها لها، فهي تطلب منها أن تفسر كل شيء وأن ظلت هذه الأفكار غير مفهومة لها.

٣ ـ النظريَّة المَاديّة الجَدليَّة

إذا صح أن الطبيعة والكينونة والعالم المادي هي المعطى الأول بينما الوعي والفكر هما المعطى الثاني المشتق من المعطى الأول، *إذا صح أن العالم المادي هو واقع موضوعي يستقل في وجوده عن وعي الناس، بينما الوعي هو انعكاس لهذا الواقع الموضوعي فأن نتيجة ذلك أن حياة المجتمع المجتمع المادية وكينونته هما أيضا المعطى الأول بينما حياة المجتمع الروحية هي المعطى الثاني المشتق من المعطى الأول، وأن حياة المادية* هي *واقع موضوعي يستقل في وجوده عن*

---

198 راجع ماركس: بؤس الفلسفة ص ٩٢.

إرادة الإنسان، بينما حياة المجتمع الروحية هـي انعكـاس لهـذا الواقـع الموضـوعي ولهذه الكينونة[199].

وهكذا تكون النظرية القائلة بأن حيـاة المجتمـع الروحيـة تعكـس حياتـه الماديـة نتيجة مباشرة للنزعة المادية الفلسفية التي عرضـناها فـي الجـزء الثـاني مـن هـذا الكتاب (ولا سيما في الدرس العاشر).

أ) ـ حَياة المجْتَمع المَادَية وَاقع مَوضُوعي مَوجُود مُستَقلاً عَن الوَعي وَعنْ إرادة الأفراد والإنسَان عَامَّة

سمى بعض المفكرين المثاليين هـذا الواقـع الموضـوعي المسـتقل عـن الـوعي بالقضاء المحتوم ولقد جدد الوجوديون الألفـاظ مـع احتفـاظهم بـنفس الشـيء، فهـم يتحدثون عن "الإنسان ــ الملقى به ــ في العـالم" وعـن "وضـع" الإنسـان. وسـوف نرى في الجزء الرابع من هذا الكتاب المخصص *للنزعـة الماديـة التاريخيـة* أن هـذا الوضع ليس سراً وأنه يمكننا أن ندرسه بصورة علمية.

وسوف ندرك، بدراسة بعض الأمثلة، ما هـو هـذا الواقـع الموضـوعي *المسـتقل عن الوعي*.

حين أخذت البرجوازية الفتية الأوروبية، فـي عصـر الإقطـاع، ببنـاء المصـانع الكبيرة، كانت تجهل نتائج هذا "التجديد" الاجتماعية الـذي سـيؤدي إلـى ثـورة ضـد السلطان الملكي الذي كانت تنعم بعطفه (بعد أن شـجعت الملكيـة المصـانع الجديـدة) كما أدت إلى ثورة ضد طبقة النبلاء التي كانت تحلم بدخولها!

---

199 راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٤. المطبوعات الاجتماعية ١٩٤٥.

حتى إذا ما أدخل الرأسماليون الروس الصناعة الحديثة الضخمة إلى روسيا في عهد القياصرة لم يدركوا أنهم يمهدون بذلك لانتصار الثورة الاجتماعية في المستقبل.

وحينما دخل صانع الأحذية، الذي يتحدث عنه ستالين في كتابه *"فوضوية أم اشتراكية ؟"*، في خدمة ادلخنوف فأنه كان يجهل أن النتيجة البعيدة لهذا القرار، الذي كان يظنه مؤقتا، ستكون انضمامه إلى الأفكار الاشتراكية[٢٠٠].

---

200 هاك المقطع الذي خصصه ستالين عن صانع الأحذية: "لنتخيل صانع أحذية كان يملك مصنعا صغيرا للاحذية حتى إذا ما عجز عن الوقوف في وجه منافسة الملاك الكبار اضطر لإغلاق مصنعه ولنفترض أنه عمل في مصنع للاحذية في تفليس عند ادلخنوف لا ليصبح عاملا باجر دائم بل ليدخر الدراهم ويكون لنفسه رأس مال صغير يستطيع به أن يعود لفتح مصنعه. نرى أن وضع هذا الحذاء هو وضع بروليتاري غير أن وعيه ليس كذلك فهو وعي برجوازي صغير. أو بمعنى أخر أن وضع البرجوازي الصغير لهذا الحذاء قد زال من الوجود وأن كان وعيه كبرجوازي صغير لم يزل بعد فهو متأخر عن وضعه الواقعي.

من البديهي أن الظروف الخارجية ووضع الناس في الحياة الاجتماعية هي التي تتغير أولا ثم يتبع ذلك تغير وعيهم نتيجة لذلك.

ولنعد إلى الحذاء. يريد أن يدخر المال لإعادة فتح مصنعه. يعمل هذا الحذاء العامل أذن فيدرك أنه يصعب عليه جدا أن يدخر المال لأن أجره لا يكاد يكفيه لسد رمقه. كما يلاحظ أن فتح معمل خاص ليس شيئا مغريا اذ يجب عليه أن يفكر بايجار المصنع، وأهواء الزبائن، ونقص المال، ومضاربة أصحاب المصانع الكبار وغيرها من الهموم. أما العامل فهو بعيد نسبياً عن هذه الهموم جميعا فهو لا يهتم للزبون ولا لدفع الا يجار بل هو يسعى في الصباح إلى المصنع ثم يعود في المساء وهو أهدأ ما يكون. حتى إذا ما اقبل يوم السبت وضع "اجرة" في جيبه. تشعر عندئذ أحلام هذا العامل البرجوازية أنها مهيضة الجناح. فتتولد في نفسه، لأول مرة، النزعات البروليتارية.

وتمر الأيام فيدرك الحذاء أن المال ينقصه لتأمين الضروري وأنه بحاجة قصوى إلى زيادة اجره. كما يدرك في نفس الوقت أن رفاقه يتحدثون عن النقابات وعن الأضرابات. فيعي عندئذ أنه يجب عليه النضال ضد أصحاب العمل لتحسين حالته وليس فتح مصنع لنفسه. فينتمي إلى النقابة ويشارك في حركة الإضراب ثم لا يعتم أن يؤمن بالأفكار الاشتراكية.

حينما أقام الاستعماريون الأمريكان، ثم الرأسماليون الغربيون، الحصار الاقتصادي حول الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية عام ١٩٤٧ على أساس مشروع مارشال، لم يخطر ببالهم أنهم يعملون بذلك على تكون سوق عالمي جديد، سوق اشتراكي يقضي على السوق الرأسمالي الوحيد القديم[٢٠١].

ذلك هو القضاء المحتوم الذي يدور حوله الكثير من القصص. يؤدي النضال من أجل ارضاء المصالح المباشرة الى نتائج اجتماعية بعيدة عن إرادة أولئك الذين قاموا بهذا النضال. وليست هذه المصالح المباشرة اعتباطية لأنها صدى للوضع الموضوعي في فترة معينة وفي مجتمع معين وفي طبقة اجتماعية معينة.

وهذا جزء مهم من النزعة المادية التاريخية عبر عنه ماركس بقوله:

يدخل الناس، خلال الإنتاج الاجتماعي لوجودهم، في علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم، وهي علاقات إنتاجية تمثل درجة معينة من نمو قواتهم المادية[٢٠٢].

مثال ذلك أن العلاقات الرأسمالية للإنتاج لم *يخترها* الناس بأنفسهم لأن نمو قوى الإنتاج، وسط المجتمع الإقطاعي، يؤدي بالضرورة إلى تكوين علاقات رأسمالية للإنتاج، وليس غيرها سواء أراد الناس ذلك أم لم يريدوا. وهكذا يُجبر كل جيل جديد على الخضوع لظروف موضوعية. فهل هذا هو القضاء المحتوم؟ كلا. لأننا ــ سنرى ــ أن الدراسة العلمية للعلاقات الموضوعية للإنتاج تسمح لنا بفهم طبيعتها والتنبؤ بتطورها والإسراع بها.

وهكذا افضى تغير وضع الحذاء المادي، في نهاية الأمر، إلى تغير وعيه: تغير أولا وضعه المادي وبعد مدة من الزمن تغير وعيه نتيجة لذلك.

وكذلك شأن الطبقات والمجتمع في مجموعه (ستالين: فوضوية أو اشتراكية) المؤلفات ج١ ص ٢٦٣ – ٢٦٤.

201 راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر المؤلفات ص ١٢٠.

202 راجع ماركس: في دراسات فلسفية لماركس – انجلز ٧٢، ٧٣ المطبوعات الاجتماعية.

أما القول "باستقلال" الذهن، في كل مناسبة، كما يفعل المثاليون، فأن ذلك جهل للظروف الموضوعية التي تفرض نفسها على الذهن *وهو لا يدري منها شيئا*. لأن هذا هو حظ المفكر المثالي التعس. فهو يعتمد على وعيه دون أن يتساءل عن الظروف الموضوعية التي تعمل على وجود هذا الوعي وفعله فيخيل إليه أن الوعي يكتفي بذاته. وهذا وهم تحاربه النزعة المادية. نخلص من الملاحظات التي قدمناها إلى نتيجة مهمة عملية. فلقد برهنا على أن تغييرات مهمة مادية قد تمت عبر التاريخ دون أن يعي الذين شاركوا فيها أو أثاروها نتائجها أو يريدوا هذه النتائج. من الخطأ القول، إذن، بأن الثورة الاشتراكية لن تحدث في بلد إلا إذا آمن جميع العمال سابقا بالنظرية الثورية. لأن ملايين الناس الذين صنعوا بأيديهم، في تشرين الأول سنة ١٩١٧، الثورة لم يكونوا بعيدي النظر كما كان لينين أو البلشفيك وهم طليعة الثورة العلمية. ولكنهم حين قاموا بهذه المهمة التاريخية الكبرى كانوا يعملون على تغيير وعيهم الخاص وانتصار الإنسان الجديد، وهو انتصار تنبأ به ماركس علمياً.

ب) – حَياة المجتمع الرّوحيَّة انعكَاس لواقِع المجْتمع المَوضُوعي

ليست إرادة الناس هي التي تحدد، بصورة اعتباطية، العلاقات الاجتماعية، كما قلنا. بل أن وعي الناس يحدده واقع المجتمع المادي الذي هم أعضاء فيه.

غير أن هذا المجتمع – وسنعود لتفصيل ذلك في الجزء الرابع من هذا الكتاب – لم تولده معجزة. بل هو مجموعة العلاقات التي تكونت لتؤمن للناس نضالا ينتصر على الطبيعة، وهي علاقات يحددها، بالضرورة، مستوى قوى الإنتاج التي يملكها الناس والتي يجب عليهم التلاؤم معها. (لا يمكن أن تكون العلاقات بين الناس منذ عشرة آلاف سنة هي نفس العلاقات التي أوجدتها الصناعة الحديثة الكبرى).

حتى إذا ما أردنا أن ندرك كيف تكون الأفكار الاجتماعية انعكاسا للمجتمع وجب علينا النظر إلى هذا المجموع المعقد.

يدلل التاريخ على أنه كان للناس، في عصور مختلفة، أفكار ورغبات مختلفة فما ذلك إلا لأن الناس كانوا في هذه العصور المختلفة يناضلون ضد الطبيعة بصور مختلفة من أجل معيشتهم، ولهذا ارتدت علاقاتهم الاقتصادية طابعا مختلفا. فلقد جاء زمن كان الناس فيه يناضلون ضد الطبيعة مشتركين على أساس الشيوعية البدائية، فكانت ملكيتهم نفسها، في ذلك الوقت، شيوعية، ولهذا لم يكونوا يميزون بين "ما يخصني" و "ما يخصك" فكان وعيهم شيوعيا. ثم جاء زمن تسرب فيه التمييز بين "ما يخصني" و "ما يخصك" إلى الإنتاج، فاتخذت الملكية من ثمَّ طابعاً خاصاً فردياً. ولهذا تسرب الشعور بالملكية الفردية إلى وعي الناس. وأخيرا أقبل الزمن ــ وهو زماننا ــ الذي اتخذ فيه الإنتاج طابعاً اجتماعياً جديداً. ولهذا لم تعتم الملكية بدورها، أن اتخذت طابعاً اجتماعياً وأخذت الاشتراكية تتسرب شيئاً فشيئا إلى وعي الناس[٢٠٣].

ندرك الآن خطأ النزعة المادية الساذجة، فهي تلاحظ أن ليس هناك فكر بدون دماغ فتستنتج من ذلك أن الأفكار الاجتماعية تقوم على أساس عضوي صرف. فإذا ما غيرنا جسم الإنسان غيرنا بذلك أفكاره السياسية!

تلاحظ النزعة المادية الفلسفية، بحق، أن الدماغ هو عضو التفكير. وأن هذا الدماغ نفسه مرتبط بالظروف الموضوعية التي تعمل على وجود الناس: فهو دماغ كائن *اجتماعي*. أو كما كتب ماركس يقول: "الإنسان في واقعه هو مجموع العلاقات الاجتماعية[٢٠٤]". ينعكس إذن في دماغ المفكر "مجموع العلاقات

203 راجع ستالين: المؤلفات ج١ ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

204 راجع ماركس "النظرية السادسة حول فورباخ" في دراسات فلسفية ص ٦٣.

الاجتماعية" (أما أن الإنسان يجهل ذلك أو أن أحد فلاسفة الجامعات لم يفكر به فهذا لا يغير من *الأمر* شيئا).

والدين أصدق مثال على أن الأفكار انعكاس للواقع.

يقول المثاليون، على غرار اللاهوتيين، أن كل إنسان يجد من تلقاء نفسه في داخله فكرة الله، وأن هذه الفكرة موجودة منذ بداية الإنسانية، وأنها سوف تستمر باستمرارها.

والواقع أن فكرة الله هي ثمرة وضع الناس الموضوعي في المجتمع القديم.

ويقول انجلز أن الدين يولد من نظريات الإنسان المحدودة، وهذه النظريات محدودة بعجز الناس البدائيين المطلق تقريبا أمام الطبيعة المعادية التي كانوا لا يفهمونها. وهي محدودة من ناحية ثانية بتعلقهم الأعمى بالمجتمع الذي لا يفهمونه والذي كان يبدو لهم أنه تعبير عن إرادة سامية. وهكذا كانت الآلهة، وهي الكائنات المهمة الجبارة المسيطرة على الطبيعة والمجتمع، انعكاساً ذاتياً لعجز الناس الموضوعي أمام الطبيعة والمجتمع.

وكان على تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية أن يظهر طابع المعتقدات الدينية الوهمي (الاعتقاد بوجود آلهة متعددة ثم الاعتقاد بوجود آله واحد). ومع ذلك فطالما استمر استغلال الإنسان للانسان استمرت الظروف الموضوعية التي تحمل على الاعتقاد بوجود كائن فوق البشر يوزع السعادة والشقاء على الناس. أو كما يقولون: "الإنسان يرجو ويأمل والله يحكم ويقرر".

ولهذا كان الفلاح في روسيا القديمة، وقد أرهقه الفقر وفقد كل أمل بالمستقبل، يستسلم للإرادة الآلهية. ولقد جاءت الثورة الاشتراكية فوضعت في يد المجتمع السيطرة على قوى الإنتاج ومكنته، في نفس الوقت، من إدارة المجتمع بصورة علمية، كما زادت في سيطرته على الطبيعة. فوجدت عندئذ الظروف الموضوعية لتتمحى من وعي الناس الأفكار الدينية التي ولدتها ظروف موضوعية أخرى.

وكذلك فأن الأفكار الأخلاقية هي انعكاس للعلاقات الاجتماعية الموضوعية وللتطبيق *العملي* الاجتماعي. يرى المثاليون في الأخلاق مجموعة من *المبادىء الخالدة* المستقلة عن الظروف الخارجية فهي تأتينا من عند الله أو يفرضها علينا "الضمير" المعصوم عن الخطأ. ولكن يكفي أن نعلم أن الوصية القائلة "لن تقتل قط" لم توجد وتصبح ذات مغزى ألا بعد أن ظهرت الملكية الخاصة.

وسوف تفقد فكرة السرقة، في المجتمع الشيوعي، كل أساس واقعي لأن أزدياد الخيرات سيبلغ حداً تزول معه الحاجة إلى السرقة. فكيف نتحدث إذن عن أخلاق خالدة؟ تتغير الأخلاق مع المجتمع وبواسطته. ولما كان المجتمع يتطور بواسطة نضال الطبقات فأن هناك نضالاً آخر بين أخلاق الطبقة المسيطرة وأخلاق الطبقة المستغلة (بالفتح)، يسيطر على الأخلاق الأولى روح محافظ أو رجعي، ويسيطر على الأخرى روح ثوري. ولما كانت الطبقة المسيطرة تملك، خلال سنوات طويلة، الوسائل القوية لفرض أفكارها فأن ملايين الناس تقبل أخلاق الطبقة المسيطرة على أنها الأخلاق الوحيدة. ويذهب ضحية هذا الوهم أعضاء الطبقة المسيطرة أنفسهم.

ولنضرب لذلك مثلا: قامت البرجوازية الفرنسية الثائرة في القرن الثامن عشر بهجومها ضد الإقطاع باسم الحرية والعقل والعدالة الخالدة. فكانت تجعل من مصالح، كطبقة ثورية، مصالح *الإنسانية عامة*. وكانت مخلصة في ذلك.

غير أن انتصار الثورة البرجوازية جعل للكلمات معناها الحقيقي والتاريخي. فدللت على أن هذه الأفكار الأخلاقية الشاملة هي التعبير عن المصالح الخاصة بطبقة معينة: الحرية؟ أجل حرية البرجوازية بأن تنتج وتتاجر من أجل أرباحها الطبقية، وأن تحتفظ لنفسها بالسلطة السياسية الخ..

وكانت تأبى هذه البرجوازية، التي قامت بالثورة تحت شعار الحرية، على البروليتاريا حرية تأليف النقابات والنضال عن طريق الاضراب. الخ. فشنقت

"بابوف" باسم الأخلاق الخالـدة لأنـه أراد إلغـاء الملكيـة البرجوازيـة. ولهـذا قـال انجلز:

"نعلم اليوم أن حكم العقل هـذا لـم يكـن سـوى حكـم البرجوازيـة فكريـاً، وأن العدالة الخالدة كما أعلن عنها آنئذ قد تحققت تماماً في العدالة البرجوازية[٢٠٥].

فهل يعني هذا أنه لن يكون هنـاك *فـط* أخـلاق *شـاملة*؟ كـلا. فلسـوف تصـبح الأخلاق عامة بين الناس حين تتحقـق، بصـورة موضـوعية، الظـروف الاجتماعيـة التي تجعل هذه الأخلاق فعالـة ــ أي حـين يلغـي انتشـار الشـيوعية العـالمي كـل تعارض للمصالح بين الناس، كما *يلغي* جميع *الطبقات*.

يفتح نضال البروليتاريـا الثـوري ضـد البرجوازيـة (وضـد أخلاقهـا الشـاملة المزعومة) الطريق أمـام انتصـار أخـلاق شـاملة إنسـانية ولـيس انتصـار فلسـفة المثاليين المشوشة. أفلا يمكننا، اليوم، أن نتوصل لهذه الأخـلاق الشـاملة؟ كـلا. فلقـد تحققت مبادئها التي تدعو للتعـاون الأخـوي، لأول مـرة منـذ المجتمـع الرأسـمالي، في *أخلاق الطبقة الثورية* الا وهي البروليتاريا. ولا سيما فـي الـبلاد التـي انتصـرت فيها الثورة الاشتراكية. فبينمـا أقامـت البرجوازيـة، فـي قضـائها علـى الإقطـاع، استغلالا مكان آخر فلقد قضت البروليتاريـا، بقضـائها علـى الرأسـمالية، علـى كـل استغلال للإنسان بواسطة الإنسان.

لأن القضاء على التناقضات الطبقية يمهـد السـبيل لازدهـار الأخـلاق الشـيوعية الشاملة التي تكون أخلاق طبقة البروليتاريا الثورية أول صورة لها[٢٠٦].

نرى أن تعارض الأفكار الأخلاقيـة عبـر التـاريخ، وبصـورة عامـة، تعـارض الأفكار، يعكس تعارض المصالح في الطبقـات الاجتماعيـة المتنـاحرة. ولهـذا يمكننـا

---

205 راجع انجلز: "ضد دورنج" ص ٣٩٠ المطبوعات الاجتماعية.

206 اقرأ حول هذه المسألة الأساسية فيما يتعلق بالأخلاق لينين: مهمات الأتحادات الشعبية تشرين أول١٩٢٠ في: مؤلفات كاملة ج٢ ص ٨٠٤.

أن نفهم سبب تطــور الأفكــار الاجتماعيــة. فــإذا انتقلــت البرجوازيــة، مــثلا، فــي فرنسا، خلال مئة وستين عاما، من النزعة الشــمولية الأخلاقيــة القائلــة بــأن النــاس جميعا أخوة إلى النزعة العنصرية الفاشية القائمــة علــى كراهيــة اليهــود واضــطهاد العمال الأفريقيين الشماليين، فأن ذلك يفسره تطور هذه الطبقــة *المــادي*. فهــي كانــت تعتقد، حين كانت ثورية كانت ثورية، أنها تستطيع التكلم باســم جميــع النــاس. حتــى إذا ما هددها الخطر بررت ســيطرتها وادعــت صــفاء دمهــا، وهكــذا كــان يفعــل الإقطاعيون!

ج) ـ كيفَ تتولَّد الأفكَار الجَديدَة وَالنظريَّات الاجتماعيَّة الجَدِيدَة

تعتقد النزعة المثالية أن الأفكار تتولــد فــي ذهــن النــاس دون أن يعرفــوا ســببها مستقلة عن ظروف حياتهم. غير أن النزعة المثالية تعجــز عــن الــرد علــى الســؤال التالي: لماذا ظهرت فكرة ما في أيامنا هذه ولم تظهر في القدم؟

لا تعتقد النزعة المادية الجدلية، وهي التي لا تفصــل قــط الأفكــار عــن أساســها الموضوعي، ولا تؤمن بأن الأفكار الجديدة تتولــد بصــورة ســحرية. تتولــد ألأفكــار الجديدة كحل *لتناقض* موضوعي نشأ في المجتمع. فنحن نعلــم بــأن الــدافع علــى كــل تغيير هو التناقض (انظر الــدرس الخــامس). لأن نمــو التناقضــات داخــل مجتمــع معين يثير مهمة حلها عند اشتدادها. فتظهر حينئــذ الأفكــار الجديــدة كمحاولــة لحــل هذه التناقضات.

وهكذا فأن نمو التناقضات الخاصــة بــالمجتمع الإقطــاعي ــ أي الانفصــال بــين علاقات الإنتاج القديمة وقوى الإنتاج الجديدة ــ هو الــذي ولــد الأفكــار الثوريــة فــي الطبقة الصاعدة: فإذا بنا نشــهد ظهــور مشــاريع الإصــلاح الاجتمــاعي والسياســي بالمئات. ولقد حدث ما يشبه ذلــك فــي المجتمــع الرأســمالي، فقــد تولــدت الأفكــار الاشتراكية لحل التناقضات التي كان يشقى بهــا ملايــين الرجــال والنســاء والأطفــال.

ومما يميز كبار المجددين قدرتهم على حل المشـاكل التـي هـي انعكـاس لتناقضـات المجتمع الموضوعية، والتي تعترض وعي معاصري هذه المشاكل.

لأن الإنسانية لا تثير سوى المشـاكل التـي يمكنهـا أن تحلهـا، ولأن المشـكلة لا تبدو الا حيث توجد الظروف الماديـة لحلهـا أو أن هـذه الظـروف قـد أخـذت فـي الظهور[٢٠٧].

وتبدو هذه الجملة غير مفهومة لمن لـم يتعـرف علـى النزعـة الماديـة الجدليـة وهي تفسر كما يلي: أن من يقول بوجـود "مشـكلة" يقـول بوجـود "تنـاقض" يجـب حله. وما التناقض سوى نضال بين القديم *والجديد!* فإذا ما ظهـر تنـاقض مـا فمعنـى ذلك أن *الجديد قد وجد* بصورة جزئية ولو أنه لم يولـد بعـد. مثـال ذلـك أن الخطـر لا يمكن أن يهدد المجتمع الإقطاعي إلا حـين تأخـذ القـوى المتناقضـة فـي داخلـه، بالعمل، تلك القوى التي ستقضي عليه فيما بعد (وهي الصناعة والبرجوازية).

وكان حل هذه المشكلة هو انتصار هذا الجديـد الـذي كـان يبحـث عـن طريقـة للظهور.

د) ـ مَسْألة الآثار البَاقية

تتيح لنا النظرية التي عرضناها في هذا الـدرس أن نوضـح ميـزة مهمـة لتـاريخ الأفكار إلا وهي مسألة الآثار الباقية

فهناك *أثـر بـاق* حـين تسـتمر فكـرة فـي الأذهـان بينمـا زالـت الظـروف الموضوعية التي يقوم عليها وجودها.

وهناك نظرية أساسية في النزعـة الماديـة الفلسـفية تقـول بـأن الـوعي لاحـق للواقع المادي (الطبيعـة والمجتمـع). فـالوعي *يتـأخر* عـن الوضـع الموضـوعي.

---

207 ك. ماركس في "دراسات فلسفية" ص ٧٣. المطبوعات الاجتماعية.

وهكذا يعيش الحذّاء الذي تحدث عنه ستالين حياة عامل بصورة موضوعية بينما هو يحتفظ بعض الوقت بوعي برجوازي صغير.

وكذلك يتأخر الناس، الذين يعيشون في مجتمع يتغير، في إدراكهم لهذه التغيرات. حتى إذا ما ظهرت هذه التغيرات حاولوا البحث عن الحلول بين الأفكار القديمة التي احتفظوا بها من الماضي. وتقف هذه الأفكار الباقية من الماضي (وهي الأفكار التي ولدت في ظروف موضوعية قديمة) في وجه الأفكار الجديدة التي تتعلق بالظروف الموضوعية الجديدة. مثال ذلك: كان العمال الذين كانت تستغلهم البرجوازية الصناعية، في مطلع الرأسمالية، يبحثون عن حل لشقائهم في عودة خيالية إلى الصناعة اليدوية فأخذوا في تحطيم الآلات.

ولكن على الأفكار الباقية أن تتراجع كلما نمت التناقضات الموضوعية، فتبدو العودة إلى الماضي مستحيلة، بينما يقوى ساعد الأفكار الجديدة، التي تتفق مع القوى الموضوعية الصاعدة.

يمتد وجود الماضي في الوعي حتى يصبح الحاضر غير محتمل فتمس الضرورة للبحث عن الجديد فينتصر المستقبل عندئذ.

٤ – الخلاصَة

كان لعنوان هذا الدرس ما يبرره. إذ يجب علينا الاعتماد على حياة المجتمعات المادية لفهم حياتها الروحية، ونستخلص من ذلك بعض التعاليم ذات الأهمية العملية الكبيرة.

١ ـ المشاكل الوحيدة التي يمكن حلها في زمن معين هي تلك التي تثيرها حاجات المجتمع الواقعية. ولهذا يقيم الماركسيون عملهم على دراسة عميقة للظروف الموضوعية، في زمن معين، ولهذا كان عملهم مثمراً. فهم يعارضون في ذلك نزعة "بلوم" المثالية التي تنكر طابع الوقائع الاجتماعية المادي، ولا سيما

الوقائع الاقتصادية، فتجعل من الاشتراكية نزعة صــوفية، فيكــون بــذلك مصــير كــل عمل الفشل.

٢ ــ لا يجب على المناضل الثوري، فــي علاقاتــه مــع العمــال، أن يكتفــي بمــا يفكر به هؤلاء العمال. فالأفكــار شــيء والظــروف الماديــة شــيء آخــر. إذ يمكــن للعامل أن يخضع، على غير وعي منه، لتــأثير الأفكــار البرجوازيــة فتكــون أفكــاره محافظة.

فهل هذا مما يدهش؟ كلا. لأن الطبقة المسيطرة، في نفــس الوقــت الــذي تســتغل فيه العمال، تبذل كل جهدها لإقنــاعهم بــأن هــذا هــو الكمــال. (ذلــك لأن الأخــلاق الرسمية التي تلقن في المدارس لا تعلم النضال الطبقي بل الرضى بالواقع).

فلا يجب إذن مؤاخــذة هــذا العامــل لأن أفكــاره الخاطئــة تعبــر عــن الواقــع الموضوعي لمجتمع تسيطر فيه البرجوازية. وفــوق هــذا يعمــد الثــوري، بالإضــافة إلى تعدد الآراء التي تفرق بين العمال، إلــى التحليــل المــادي للظــروف الموضــوعية فيوضح *وحدة المصالح*.

وهكذا تقوم *وحدة العمــل*. وتصــبح وحــدة العمــل هــذه ممكنــة لأن مــا يحــدد ظروف النضال الطبقي ليست الأفكار بل ظروف النضــال الطبقــي هــي التــي تحــدد الأفكار. ولهذا توجه موريس توريز إلى العمال الكاثوليــك عــام ١٩٣٦ بقولــه: أنهــم عمال مثلنا نحن الشيوعيين. فلنتحد في النضال المشــترك مــن أجــل مصــلحة شــعبنا ووطننا[٢٠٨]".

٣ ــ دللنا في هذا الدرس على أن تغير الأفكار لــه أســاس مــادي. ولهــذا نتــائج مهمة في تربية العمال الثورية، إذ لا يمكن تمثــل الأفكــار الثوريــة إلا فــي *النضــال* وبواسطته في المصنع وفي المكتــب. ويجعــل النضــال الاجتمــاعي (وهــو ظــرف موضوعي) التغيرات المهمــة فــي وعــي العمــال ممكنــة. (وهــذا هــو الانعكــاس

---

208 راجع موريس توريز: "أبن الشعب" صفحات ١٠١ – ١٠٢ – ١٠٣.

الذاتي). وهكذا يقوم العمال، الذين لم يصبحوا ثوريين، *بتجربتهم* خلال نضالهم لحل تناقضات المجتمع الرأسمالي الموضوعية. فيكتشفون بمساعدة الطليعة الماركسية اللينينية حلول مصائبهم فيصبحون بدورهم ثوريين.

الدّرس الثالث عشر

تأثير الأفكار في الحَيَاة الاجتماعِيَّة وأهمّيتها

١ – مثال
٢ – خطأ النزعة المادية الساذجة
٣ – النظرة المادية الجدلية
أ) اصل الأفكار المادي هو الذي يضفي عليها القوة
ب) الافكار القديمة والافكار الجديدة
ج) عمل الأفكار الجديدة هو التنظيم والتعبئة والتحويل
٤ – الخلاصة

١ – مثَالٌ

هناك قول باطل شائع يقوم على الاعتقاد بأن النزعة المادية الماركسية لا تقيم أي وزن للأفكار ولا تعترف لها بأية أهمية أو أي عمل.

وسوف يدلل هذا الدرس على أن هذا خطأ وأن الماركسيين يهتمون بالأفكار والنظريات على السواء، ولقد برهن على ذلك ماركس نفسه. فلو أنه لم يعترف للأفكار بأي سلطان *لما كرس حياته لتكوين نظريته الثورية ونشرها*. كما برهن على ذلك زملاؤه من المناضلين الشيوعيين الذين هم أول من يضرب المثل في أحلك ساعات النضال، ويضحون، عند الضرورة، ببطولة، بحياتهم في سبيل *انتصار مثل الاشتراكية السامية*.

فلنعد إلى المثال الذي قدمنا به للدرس السابق، إلا وهو الفكرة التي اذاعتها الأونسكو والقائلة بأن الحروب تولد "في وعي الناس" وأنه تكفي تهدئة العقول للقضاء على الحرب. رأينا أن هذه الفكرة لا تصمد أمام امتحان مادي، لأن الحرب ــ وفكرة الحرب ــ تصدران عن واقع المجتمعات المادي.

وبالرغم من خطأ نظرية الأونسكو هذه فأن لها *أهمية* كبيرة مع ذلك. فهي، عمليا، تقوم *بدور* محدد جدا: فهي تعمل، من وراء ستار محاربة الحرب، على الحيلولة دون البحث عن أسباب الحرب الحقيقية! لأن هذه النزعة المثالية، بادعائها أن "وعي الناس" هو مصدر الحرب، تخفي مسؤوليات المجرمين الحقيقيين الواقعية ألا وهم المستعمرون. تحسن هذه النزعة المثالية القول ولكنها تسيء إلى قوى السلم وتحبذ قوى الحرب. إذ ليس "دعاة تهدئه العقول" الحقيقيون هم أولئك الذين يخفون عن العقول، تحت ستار من النزعة المثالية، أسباب الحرب الموضوعية، بل هم أولئك الماديون، الذين يحللون هذه الأسباب ويفضحون المستعمرين المعتدين.

ليس صحيحا إذن أن الماركسية تهمل قوة الأفكار. ويقول ستالين: *"لقد قلنا بأن حياة المجتمع الروحية هي انعكاس لظروف حياته المادية. أما فيما يتعلق بأهمية الأفكار والنظريات الاجتماعية، والآراء والمؤسسات السياسية ودورها في التاريخ فأن النزعة المادية التاريخية، بدلا من أن تنكرها، تشير، على العكس، إلى دورها وأهميتها الكبرى في الحياة الاجتماعية وفي تاريخ المجتمع"*[٢٠٩].

ولما كانت الفلسفة الماركسية *مادية* فهي تبحث عن أصل الأفكار الاجتماعية في حياة المجتمات المادية. ولما كانت *جدلية* فهي تدلل على أهميتها الموضوعية وتحدد دورها الحقيقي: وهذا موضوع درسنا الثالث عشر.

---

209 راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٥.

٢ – خَطَأ النزعة الماديَّة السَّاذجَة

أن من يأخذون على النزعة الماركسية إهمالها للأفكار يرفعون عليها دعوى باطلة عن قصد أو غير قصد. فهم ينسبون إليها خطأ النزعة المادية الساذجة. لأن نكران أهمية الأفكار موقف *ضد العلم* حاربته النزعة المادية الجدلية دائماً.

"يختلف تفكيرنا في القصر عنه في الكوخ" هذا القول لفورباخ وهو يدل على السذاجة والغموض. فهو ينسى أن من بين الظروف التي تحدد نظريات الإنسان *الأفكار البالية*. حتى أن ساكن الكوخ يمكنه أن تكون له مطامح أمير! كما يمكن للعامل أن تكون له مطامح البرجوازي الصغير! هل كان الحذّاء الجورجي الذي تحدث عنه ستالين يعتنق الأفكار الاشتراكية لو أن هذه الأفكار لم توجد ولم تقم بدورها في المجتمع؟

يضرب جاستون مونموسو في كتابه *La Musette de Jean Brécot* مثلاً حياً ــ أقرأ فصل " بقرة نبيل" ص ٨٤ ــ على هذه الحقيقة، وهي أن بعض الأفراد يمكنهم أن يحتفظو وقتا طويلاً بأفكار تتعارض مع ظروف معيشتهم المادية.

أن النظريات الآلية في النزعة المادية المعارضة للجدلية ــ ونسميها بالنزعة المادية الساذجة، معارضة للنزعة المادية العلمية ــ خطيرة جداً. لماذا؟ لأنها تخدم النزعة المثالية. لأن النزعة المادية الساذجة بإنكارها عمل الأفكار تترك المجال أمام الفلاسفة المثالين لاحتلال الميدان الذي تركوه لهم. فنجد أمامنا من جهة نزعة مادية تفقر الواقع؛ ومن ناحية أخرى "فيض النفس" الذي تحمله النزعة المثالية "للتعويض عن هذا النقص" فما هو موقف النزعة المادية الجدلية؟

بينما ترى المادية الآلية أن الوعي ليس سوى انعكاس *سلبي* للوجود المادي، فأن النزعة المادية الجدلية تعتقد أن الوعي الاجتماعي هو انعكاس حقا ولكنه انعكاس *فعال*.

ونحن نعلم أن الواقع هو حركة (القانون الثاني للجدلية، راجع الدرس الثالث)، *وأن كل مظهر من مظاهر الواقع حركة أيضاً*. والأفكار والنظريات، وأن كانت لاحقة على المادة، فهي مظاهر من الواقع بأكمله. فلماذا لا نعترف لها بالصفة الأساسية لكل ما هو كائن؟ لماذا لا نعترف لها بالحركة والنشاط؟ *الجدلية شاملة عامة*: فهي تظهر إذن الأفكار كما تظهر في الأشياء، في الوعي الاجتماعي كما تظهر في الإنتاج.

والنظرية التي لا تعترف للأفكار بأي قوة أو سلطان هي نظرية معارضة للجدلية بمعنى آخر: ونحن نعلم (القانون الأول للجدلية، راجع الدرس الثاني) أن الواقع هو *ترابط* جميع مظاهر الواقع، *وتأثير كل منها في الآخر*. ينتج عن ذلك أن حياة المجتمع الروحية، لما كانت مشتقة من الحياة المادية، فأنها لا تنفصل عن هذه الحياة المادية؛ فهي تؤثر *بدورها* على حياة المجتمعات المادية.

ولهذا فأن تطبيق قوانين الجدلية لا يظهر فقط أهمية الأفكار والنظريات الاجتماعية بل ينتج لنا فهم عملها.

ولقد عبر عن هذه العلاقة المتبادلة وتفاعل المجتمع الأفكار كما يلي:

الوضع الاقتصادي هو الأساس ولكن صور النضال الطبقي السياسية ونتائجها ـــ والدساتير القائمة بعد فوز الطبقة المنتصرة، والصور التشريعية وانعكاسات جميع صور هذا النضال الحقيقي في أدمغة المشتركين بها في النظريات السياسية والتشريعية والفلسفية والنظريات الدينية ثم تطورها فيما بعد إلى نظم عقيدية ـــ كل ذلك يؤثر في مجرى ألوان النضال التاريخي ويحدد صورته. فهناك فعل ورد فعل تقوم بهما جميع العناصر[٢١٠].

---

210 راجع انجلز "رسالة إلى جوزف بلوش" (٢١ أيلول ١٨٩٠) في ماركس انجلز: دراسات فلسفية ص ١٨٢ نخصص الدرس التاسع عشر لدرس العلاقات بين الأساس والبناء الفوقي.

كما كتب انجلز يقول: *"يا لها من فكرة بلهاء تلك الفكرة التي ينادي بها المفكرون تقول بأنه لما كنا لا نعترف لمختلف الأفكار التي تقوم بدور في التاريخ بأي نمو تاريخي مستقل فأننا لا نعترف لها أيضا بأية فعالية تاريخية. ويقول انجلز أن هذه فكرة غير جدلية عن السبب والنتيجة كأنهما قطبان معارض كل منهما للآخر بصورة شديدة"*[211].

كما يقول يبدو له بديهياً القول بأن وجهة النظر الفكرية تؤثر *بدورها على الأساس الاقتصادي ويمكن أن تغيره نوعاً ما، وحينما يدعي "بارت" أننا أنكرنا كل رد فعل للانعكاسات السياسية الخ، وانعكاس الحركة الاقتصادية على نفس هذه الحركة فأنه في ذلك يقف في وجه طواحين الهواء.*

أن ما ينقص هؤلاء السادة جميعاً هي الجدلية. لا يرون هنا سوى السبب ولا يرون هناك سوى النتيجة أما أن مجرى الأشياء يحدث بصورة فعل ورد فعل لقوى غير متساوية وأهمها وأشدها وقعاً الحركة الاقتصادية فأنهم لا يرون كل هذا[212].

ويعتمد بعض العاملين على تبسيط النزعة المادية على أن القوانين الاقتصادية هي أساس التطور التاريخي فيخلصون إلى نتيجة خاطئة وهي أنهم يعتقدون أنه يكفي أن ندع هذه القوانين تعمل بنفسها دون أن نقوم بأي عمل. وهكذا يدعون الإنسان إلى العجز والتقاعس. بيد أن التجربة تدلل على أنه كلما ازدادت معرفة الناس لقوانين المجتمع الموضوعية كلما ازدادت فعالية نضالهم ضد القوى الاجتماعية الرجعية التي تعترض سبيل تطبيق هذه القوانين لأنها تضر بمصالحهم الطبقية.

---

211 راجع انجلز: "رسالة إلى مهرنج" (١٤ تموز ١٨٩٣ نفس الرجع ص ١٤٠)

212 راجع انجلز: "رسالة إلى كونرادشمت" نفس المرجع ص: ١٣٣ – ١٣٥.

فكيف ننكر من ثم عمل *الوعي* الذي يعرف هذه القوانين؟ كيف ننكر قوته وهو يتمتع بهذه النتائج؟

فإذا كان الناس يعلمون قوانين التطور الاجتماعي استعانوا بهذه القوانين وإذا كانوا يجهلونها كانوا ضحيتها. وهكذا تساعد معرفة أسباب الحرب الاستعمارية العلمية على النضال بصورة *فعالة* ضد هذه الحرب. فإذا ما قال الماركسيون، مع ستالين، أن الحروب "لا يمكن تفاديها بين الشعوب الرأسمالية.. تستنتج النزعة المادية الساذجة بأن الحروب قضاء *مقدر*. فيشبهون في ذلك نزعة اللاهوتي المثالية الذي يعتبر الحرب عقابا إلهيا. والقول بأن الرأسمالية تجعل من الصعب تفادي الحروب[٢١٣] كالقول بأن الرأسمالية *بطبيعتها تولد* الحرب الاستعمارية. ولكن إذا كانت الرأسمالية السبب الضروري للحروب *فلا يكفي* وجودها لإشعال نار الحرب، لماذا؟ *لأنه يجب أن ترضى الشعوب أيضا* بخوض غمار هذه الحرب. يحتاج الرأسماليون إلى جنود. ومن هنا كانت *سياستهم* الحربية، *وفلسفتهم* الحربية التي تسعى *إلى إقناع الشعوب* بأنه يجب خوض *غمار* الحرب: ولهذا يسعون للعمل بشكل يتحقق معه قانون الرأسمالية لمصلحتهم. ولكن متى ناضلت الشعوب جنباً إلى جنب، دون أن تنتظر سياسة الحرب وفلسفة الحرب فأنها، تمنع الرأسماليين من تحقيق الظروف الممهدة للحرب. نرى من هنا أهمية الأفكار. لقد أصبحت فكرة امكانية التعايش السلمي بين نظامين اجتماعيين مختلفين حجر عثرة في وجه الحملة ضد الاتحاد السوفياتي. لماذا؟ لأن الجماهير قد أخذ يزداد تمسكها بهذه الفكرة. بينما الرأسمالية، التي هي بحاجة للحرب، (ولهذا كانت الحرب *ضرورية لها*) لا يمكنها ارضاء هذه الحاجة إذا قالت الشعوب، كلا (ولهذا كانت الحرب ليست قضاء *محتوما*).

---

213 راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" المؤلفات الأخيرة ص ٢٢٢.

٣ ــ النْظريَّة المَاديَة الجَدَليَّة

أ) ـ أصْل الأفكَار المَادّي هُو الذي يُضفي عَليهَا القوَّة

تؤكد النزعة المادية الجدلية إذن، في نفس الوقت الذي تؤكـد فيـه طـابع القـوانين الاجتماعيـة الموضـوعي ــ ولا سـيما القـوانين الاقتصـادية ــ *عمـل الأفكـار الموضوعي* (ممـا يتـيح للنـاس التعجيـل بعمـل القـوانين الاجتماعيـة أو تـأخيره، وكذلك تشجيعه أو اعاقته). وسوف يقول بعـض سـجناء النزعـة الماديـة السـاذجة: "هذا غير منطقي فإما هذا الأمر أو ذاك! امـا أن نقـول بقـوة "العامـل الموضـوعي" أو نقول بقوة "العامل الذاتي". يجب الاختيار بينهما. وهذا موقف ميتافيزيقي.

لا تجعل النزعة المادية الجدلية من المـادة والفكـر مبـدأين منفصـلين. بـل همـا مظهران وكل منهما واقعي كالآخر.

فهما من طبيعة واحدة أو مجتمع واحد، ولا يمكن تمثيـل كـل منهمـا علـى حـدة، فهما يعيشان وينموان معا وليس هناك ما يدعو إلـى القـول بـأن كـلا منهمـا ينفـي الآخر.

ويقول ستالين أيضـا: *"الطبيعـة واحـدة لا تنقسـم وهـي تبـدو فـي صـورتين مختلفتين: صورة مادية وصورة فكرية، وكذلك الحيـاة الاجتماعيـة واحـدة لا تنقسـم وتبدو في صورتين مختلفتين: صورة مادية وصـورة فكريـة: هكـذا يجـب علينـا إن ننظر لتطور الطبيعة والحياة الاجتماعية"*[٢١٤].

مع العلم بأن الصورة المادية سـابقة علـى الصـورة الروحيـة. ولهـذا لا تقـول النزعة المادية الجدلية بسلطان الأفكار علـى العـالم بـل هـي تجعـل هـذا السـلطان مفهوماً. وأما النزعة المثالية فهـي، علـى العكـس، تفصـل الأفكـار عـن مجمـوع الواقع فتجعل منها كائنات سرية غامضة فنتساءل عندئـذ كيـف يمكـن هـذه الأفكـار

---

214 راجع ستالين: "فوضوية ان اشتراكية؟" المؤلفات ج١ ص ٢٦١ – ٢٦٢

أن تؤثر في عالم (طبيعة أو مجتمع) لا علاقة لهـا بـه. لأن عزلـة الأفكـار الرائعـة تصيبها بالشلل.

وميزة النزعة المادية الجدلية هـي فـي أنهـا، بعـد أن اكتشـف *أصـل الأفكـار الاجتماعية* المادي، أصبح فـي مقـدورها فهـم فعاليـة تأثيرهـا علـى العـالم الـذي خرجت منه. وهكذا نرى أن أصل الأفكـار والنظريـات المـادي لا يضـر بأهميتهـا أو عملها بل يعيد إليها كل فعاليتها.

وليست النزعة المادية الجدلية هي التي تحتقر الأفكـار بـل هـي النزعـة المثاليـة التي تحولها إلى كلمات جوفاء، وتجعل منها أشباحاً لا قوة لهـا. امـا النزعـة الماديـة الجدلية فهي ترى في الأفكار قوة ملموسة لها نتائج مادية كقوى الطبيعة.

ويمكن لهذه القوة ـ بالرغم من أنها تصبح غيـر مفهومـة إذا نظرنـا إليهـا علـى حدة ـ أن تنمو بحركتها الذاتية. مثال ذلك: لقـد ولـد الـدين علـى أسـاس ظـروف المجتمع المادية والتاريخية. ولكن هذه المجموعـة مـن الأفكـار التـي تكـون الـدين ليست سلبية. بل لها حياتها الخاصـة فهـي تنمـو فـي أدمغـة النـاس لا سـيما وأن هؤلاء الناس ـ لجهلهم أسـباب الـدين الموضـوعية ـ يعتقـدون أن الله هـو الـذي يسيِّر كل شيء. يمكن إذن للأفكار أن تنتقل مـن جيـل إلـى جيـل بينمـا تكـون قـد تغيرت الظروف التي ولدتها. حتى إذا مـا طـال الـزمن أثَّـر مجمـوع هـذا الواقـع على هذا الجانب من الواقع الذي هو الفلسفة الدينيـة. للفكـرة تطـور مسـتقل نسـبياً، حتى إذا ما اشتد التناقض بـين الفكـرة والعـالم الموضـوعي انحـل لصـالح العـالم الموضوعي والافكـار التـي تعكـس هـذا العـالم الموضـوعي، فشـقت النظريـات الصحيحة طريقهـا فـي النهايـة وفرضـت نفسـها علـى الجمـاهير ضـد الأوهـام والأكاذيب.

ب) – *الأفكَار القديمَة وَالأفكَار الجَديدَة*

رأينا في دراستنا لأصل الأفكار (الدرس الثاني عشر المسألة الثالثة) أن التناقض بين الأفكار والنظريات يعكس تناقضاً موضوعياً في المجتمع.

فلننظر مثلاً إلى الأزمات الاقتصادية التي تولدها الرأسمالية سببها الموضوعي هو التناقض بين طابع ملكية وسائل الإنتاج *الخاص* وطابع عملية الإنتاج الاجتماعي[٢١٥]. فكيف نحل هذا التناقض؟

تجيب طبقة البروليتاريا الثورية بقولها: بواسطة جعل وسائل الإنتاج اشتراكية، وبواسطة الاشتراكية، فتزول عندئذ الأزمات، وتزدهر قوى الإنتاج في خدمة الجميع. وتجيب البرجوازية بقولها على ذلك، وهي المالكة لوسائل الإنتاج التي تستفيد منها أقصى الأرباح: فلنحدد قوى الانتاج لأنها تجلب الخطر على نظامنا، فننقذ بذلك علاقات الإنتاج الرأسمالية التي تضمن لنا إمتيازاتها. وإذا بنفس الطبقة، التي كانت بالأمس تتغنى بفضائل العلم، تلعن اليوم هذا العلم لأنها تعتقد أن الخطأ في تضخم الإنتاج أنما هو خطأ العلم. وأما البروليتاريا فهي، على العكس، تتغنى بمديح العلم فهي تعتقد أن سبب الأزمات ليس هو تقدم العلم بل هو النظام الاجتماعي والرأسمالية، ولهذا فأن العلم، في النظام الاشتراكي، يجلب الرخاء.

نرى أن هناك نضالا بين الأفكار على أساس تناقض موضوعي إلا وهو تناقض الرأسمالية.

فهناك من جهة الفكرة التي ينشرها المفكرون والصحفيون البرجوازيون القائلة بأن العلم شرير، يجب وضعه تحت المراقبة، وأن ما يحرزه من تقدم مصيبة، فيجب ربطه بالدين.

---

215 سوف ندرس بالتدقيق هذه المسألة في الجزء الرابع الدرس الثامن عشر (المسألة ٢ ب).

ولهذا نجد الجرائد والمجـلات تطفـح بالسـحر و "بـالعلوم الغيبيـة" إلـى جانـب مناهضة الشيوعية وصور فتيات الغلاف. وكذلك نجد وزيـر التربيـة الوطنيـة يـدعو في نص رسمي[٢١٦] إلى النزعة التجريبيـة، أي إلـى وسـائل البحـث التـي تخطاهـا العلم منذ أمد طويل.

ولهذا فليست هذه الدعاية الصاخبة الخفيـة ضـد العلـم والعـودة إلـى النظريـات الصوفية للقرون الوسطى مجرد صدفة.

وكذلك ليس مجرد صدفة أن نسمع اليوم البرجوازيـة تـردد بصـور مختلفـة أنـه ليس هناك قوانين موضـوعية، ولهـذا يجـب أن لا "نحـاول الفهـم". ولـيس مجـرد صدفة أن يسعى مشروع "إصلاح" التعليم، الذي قدمـه الـوزير اندريـه مـاري، علـى غرار فرنكو، إلى أفساد الثقافة العامـة. كـل هـذا (ومـا شـابهه مـن موضـوعات ظهرت في عهد فيشي الفاشستي) هـو التعبيـر الفكـري عـن مصـالح طبقـة حكـم عليها تطور المجتمعات وتود أن يعود التاريخ القهقرى.

فهناك أفكار قديمة ونظريات مضى زمانهـا تخـدم الآن مصـالح قـوى المجتمـع الزائلة. وأهمية هذه الأفكار هي في أنها تعيق تطور المجتمع وتقدمه[٢١٧].

ومـن البـديهي أن كراهيـة العلـوم واحتقارهـا يفيـدان فـي الوقـت الحاضـر البرجوازية لأن ازدهار العلوم السلمي يعرض نظام هذه البرجوازية للخطر[٢١٨].

تقوم البروليتاريا، وهي الطبقة الثورية، مقابل ذلك بنشـر الفكـرة القائلـة بوجـوب تشجيع تقدم العلوم.

وتتفق هذه الفكرة تماماً مع نمو قوى الإنتاج، ولا يمكـن أن يقـوم بهـذا التشـجيع سوى نضال البروليتاريا الثوري.

---

216 نشرة ٢٩ ايلول ١٩٤٢، التربية الوطنية، ٢ تشرين أول ١٩٦٢.

217 راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية، ص ١٦.

218 هذا لا يمنع البرجوازية من استخدام العلوم وأساليبها في صناعاتها الحربية على حساب أعمال السلم. ولكنها في نفس الوقت تقوي الفكرة القائلة بأن السلم لا يفيد.

فهناك قوى ونظريات جديدة تقف في الطليعة تخدم مصالح قوى الطليعة في المجتمع. وأهمية هذه الأفكار والنظريات أنها تسهل تطور المجتمع وتقدمه، وزيادة على ذلك تزداد أهميتها كلما عكست بصورة صادقة حاجات تطور حياة المجتمع المادية[٢١٩].

ولهذا توجد الطبقة العمالية، عند استلامها الحكم، الظروف المادية التي تساعد على ازدهار العلوم. وهي تشجع الفكرة القائلة بأن العلم ضروري لسعادة الناس. ولهذا فأن تطور علم الحياة (البيولوجيا) المتشوري في الاتحاد السوفياتي أصبح قضية الفلاحين الكولخوزيين الذين يشاركون في تكوين أنواع جديدة، وبهذا تزداد سرعة الوصول إلى الشيوعية. (انظر الشريط: صيف رائع).

الأفكار هي إذن قوى. والأفكار القديمة هي قوى رجعية، ولهذا تأخذ بها الطبقات الرجعية، وأفكار الطليعة هي قوى تساعد على تقدم المجتمعات ولهذا تشجعها الطبقات الصاعدة.

لا يجب أن نستخلص من ذلك أن الطبقات المتضاحنة توجد بصورة تلقائية الأفكار المطابقة لحاجاتها. الأفكار هي ثمرة عملية المعرفة. تتكون الأفكار في مجتمع يسيطر فيه تقسيم العمل (كحال المجتمعات المنقسمة إلى طبقات) كنظريات يقوم بوضعها أشخاص مختصون بهذه المهنة وهم الكهان، والفلاسفة والعلماء والفنيون والمربون والفنانون والكتاب، الخ... ولكن تستخدم هذه الأفكار الطبقية بأجمعها.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فأننا، *حين نتحدث عن الأفكار الجديدة، فلا يجب أن نفهم ذلك بصورة تخطيطية*. إذ يحدث أن تتخلى طبقة ما عن فكرة فتستخدمها فيما بعد طبقة أخرى في صور أخرى. وهكذا فقد قالت البرجوازية الثورية (ديدرو، كوندوسيه) أن العلم خيِّر. فقال بهذه الفكرة العامل الثوري وجددها،

---

219 ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٦.

ويمكنه أن يستخلص منها جميع النتائج العملية (في بنـاء الاشـتراكية) بينمـا عجـزت البرجوازية عن السير بهذه الفكرة حتى النهايـة. وهكـذا يمكـن أن تسـتخدم الطبقـات أفكاراً استُخدمت من قبل. وليس في هذا ما يبعث علـى الدهشـة. فلقـد تعلـم النـاس من التجربة قدرة الأفكار فلا تهمل طبقة ما، من بـين الأفكـار الموجـودة تلـك التـي تساعد على امتداد سلطانها. كما أنه يمكن لطبقة مـا أن تطـرد مـن أفكارهـا الفكـرة التي لا تناسبها. فإذا بالبرجوازية، اليوم، تطـأ بأقـدامها "علـم الحريـات الديمقراطيـة البرجوازية" التي جعلت الجماهير المضطهدة تتحالف معها ضد الإقطاع.

وتحاول هذه الطبقة، فيمـا عـدا ذلـك، أن تجعـل مـن الأفكـار القديمـة التـي تستخدمها أفكاراً "جديدة": مثال ذلـك أن هتلـر أراد أن يجعـل مـن النظريـة القديمـة عن العنصر أو الدم فكرة علمية. وكان هنـاك علمـاء آمنـوا بمـا قـال. كمـا كـان موسوليني يصرح أن الاشـتراكية البروليتاريـة هـي "أسـطورة قديمـة" وأن الفاشـية "أسطورة الجديدة"!

ولا يحكم على "الجدة" بالزمن بل بقـدرتها علـى حـل المشـاكل التـي تنشـأ فـي زمن معين. ولهذا فأن كتاب *"رأس المال"* لماركس هو أكثر جـدة مـن كـل مـا يُعلـم حديثا في الجامعات البرجوازية كاقتصاد سياسي.

وهناك ملاحظة أخرى. إذا كانت الأفكار دائماً فـي خدمـة طبقـة مـا أو مجتمـع معين تاريخياً فلا يجب أن نخلص للقول بأن الأفكـار جميعهـا تتسـاوى فـي قيمتهـا. فالفكرة القائلة بأن العلم مسيء هـي فكـرة *خاطئـة* ـ أي أنهـا تعـارض الواقـع لأن تقدم المجتمعات الإنسانية مستحيل بدون العلوم.

أما الفكرة القائلة بأن العلم خيِّر فهي فكرة صحيحة، تطابق واقع الوقائع. والبروليتاريا، وهي الطبقة الصاعدة، بحاجة للحقيقة كحاجة البرجوازية، الطبقة الزائلة إلى الكذب[220].

غير أن الأفكار الخاطئة هي قوة فعالة ولا تقل فعاليتها عن فعالية الأفكار الصحيحة. ويجب محاربتها بواسطة أفكار صحيحة تقدمية تعكس بصورة أصدق حاجات التطور الاجتماعي مما يضمن لها النصر الأخير وتزداد قيمتها يوماً بعد يوم حتى تصبح لا غنى عنها، وهذا ما يفسر امتداد انتشار هذه الأفكار.

ج) – تقومُ الأفكار الجَديدَة بالتّنظيم وَالتعبئَة وَالتَحويل

لا تظهر الأفكار والنظريات الجديدة الا حين يثير تطور حياة المجتمع المادية مهام جديدة أمام المجتمع. حتى إذا ما ظهرت هذه الأفكار والنظريات أصبحت قوة لها أهميتها الكبرى تسهل أتمام المهام الجديدة التي أثارها تطور حياة المجتمع المادية، كما أنها تسهل تقدم المجتمع. تظهر عندئذ أهمية عمل هذه الأفكار والنظريات الجديدة في التنظيم والتعبئة والتحويل، وكذلك أهمية عمل الآراء والمؤسسات السياسية الجديدة.

والحقيقة أن ظهور الأفكار الجديدة والنظريات الاجتماعية حق لأنها ضرورية للمجتمع، ولأن حل المشاكل الملحة التي يثيرها تطور حياة المجتمع المادية يصبح مستحيلا بدون عمل هذه الأفكار والنظريات في التنظيم والتعبئة والتحويل.

وبما أن هذه الأفكار والنظريات الجديدة قد أثارتها المهام الجديدة التي يولدها تطور حياة المجتمع المادية فأنها تشق طريقها وتصبح ملك الجماهير الشعبية

---

220 أما أن الطبقات الرجعية تريد بالقوة قتل الأفكار فهذا ما يعلمنا أياه التاريخ. كما قال بول اليوار: فلقد سيق الابرياء كالحيوانات وراحوا يبحثون عن الأعين التي ترى بوضوح في الظلمات كي يفقأوها.

التي تعبؤها وتنظمها ضد قوى المجتمع الزائلة فتساعد بذلك على قلب هذه القوى التي تعيق تطور حياة المجتمع المادية[221].

لهذا النص أهمية كبرى لأنه يوضح لنا الصور التي تتخذها الأفكار الجديدة في عملها:

ـــ فهي تعبىء الهمم أي أنها *تثير وتبعث* الحماس وتحرك الجماهير[222].

ـــ *وهي تنظم*، أي أنها تضفي على هذه الحركة الوحدة والانسجام الدائمين (مثال: فكرة النضال من أجل السلام ولدت جمعيات السلام التي *تنظم* حركة السلام).

ـــ *وهي تحول*، أي أنها لا تؤثر فقط على الوعي فتسمو به، بل هي تتيح حل المشاكل التي يعانيها المجتمع بصورة فعلية.

"تصبح النظرية قوة مادية متى ما آمنت بها الجماهير[223]*"*.

وفي التاريخ أمثلة كثيرة على هذا الدور الثلاثي للأفكار الجديدة.

فلقد عبأت، في عام ١٧٨٩، الفكرة التقدمية القائلة بأن الأمة سيدة مصيرها وأن عليها أن تضع لنفسها دستوراً يجعل جميع الفرنسيين متساوين أمام القانون ويقضي على الأمتيازات، عبأت هذه الفكرة الجماهير لأنها كانت جواباً على مشكلة العصر التاريخية، وأثارت اندفاع الشعب المنظم ضد النظام الإقطاعي القديم.

كما أتاحت، في تشرين ١٩١٧، الفكرة التقدمية القائلة بأنه يجب القضاء على حكومة كيرنسكي وتسليم السلطة إلى السوفيات لضمان تحرير القوميات المضطهدة، أتاحت هذه الفكرة تنظيم الجماهير وتعبئتها ومن ثم تحويل المجتمع.

---

221 راجع ستالين: "النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٦".

222 هل هذا قول مثالي؟ كلا. لأن الفكرة لا تستطيع اثارة الجماهير إلا إذا كانت تعكس الظروف المادية، وإذا كانت تصدر عن دراسة للوضع الموضوعي.

223 راجع ماركس: "نقد فلسفة القانون عند هيجل"

ويمكننا أن نعدد الأمثلة على ذلك، ولكن أليس هناك مثال يهم العمال الفرنسيين أكثر من غيره؟

لاحظ موريس توريز في تحليله للوضع الذي القاه في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي (حزيران ١٩٥٣) أن "الأمر الخطير في هذه الساعة هو تقدم فكرة الوحدة بين الجماهير الشعبية" فلماذا هذه الوحدة؟" أنها من أجل العمل على انتصار سياسة سلمية واستقلال قومي في بلادنا، سياسة حرية وتقدم اجتماعي". فكيف توصل العمال، الذين يزداد عددهم يوماً بعد يوم، إلى هذه الفكرة؟ لأن جميع التناقضات السياسية التي نشأت عن مشروع مارشال وعن ميثاق الأطلنطي قد ظهرت".

وهذه سياسة حرب واستعباد مرهقة، كما أنها سياسة فاشستية ورجعية اجتماعية. فلقد أدرك العمال أنه لا سبيل لتغيير ذلك الا بالاتحاد والعمل بفضل الاتحاد".

وهكذا استولت فكرة الاتحاد على الجماهير شيئاً فشيئاً فهي، تعبئهم وتنظمهم سواء كان ذلك في لجان الإضراب أم في لجان السلام أم لجان الدفاع عن الحريات.

وهكذا تتم التحولات المادية التي جعلها الوضع ضرورية. وذلك بفعل الجماهير الواعي.

كما يظهر خطر الأفكار الجديدة، التي تثيرها المهام التي يبعثها التاريخ، حين تتلقفها الجماهير التي تصنع التاريخ. فتعمل عندئذ كما تعمل القوى المادية. حتى أن اعداء التقدم مضطرون إلى خداع هذه الأفكار التي يخشونها في أيدي الرجال الشجعان. وذلك هو شأن البرجوازية وخدامها الزعماء الاشتراكيين. ويلاحظ موريس توريز أنه بلغ من خوف هؤلاء من اتساع حركة الوحدة "أنهم يحاولون التمسك بشعار الوحدة للنضال ضد الوحدة". ولكن الخداع لا يمكن أن يقف في

وجه قوة الجماهير الواعية التي تعرف إلى أيـــن تســـير، ومـــاذا تريـــد، ومـــاذا يجـــب عليها[٢٢٤].

224 نجد في الجزء الثاني ص ١٧٨ من "مؤلفات مختارة للينين" مثالا يدل بقوة على عمل الأفكار الجديدة المنظم والمحول، حين تستحوذ هذه الأفكار على الجماهير. فلقد علق لينين (في تشرين أول سنة ١٩١٧) على القرار الذي يلغي الملكية الثابتة الكبيرة ويعطي الأرض للعمال والفلاحين. ويشير القرار إلى أمر اصدره الاشتراكيون الثوريون في القرى (وكان تأثيرهم لا يزال قوياً على الفلاحين)، وهذا الأمر يشبه قرار البلشفيك في كل نقاطه. فيصرح لينين:
"ترتفع أصوات هنا قائلة أن القرار والأمر قد وضعهما الاشتراكيون الثوريون. فلنفرض ذلك لأن المهم ليس في من وضعهما. ولما كنا حكومة ديمقراطية فأننا لا نستطيع تجاهل ما تقرره الجماهير الشعبية بالرغم من عدم اتفاقنا معها: ولسوف يدرك الفلاحون بأنفسهم أين هي الحرية وذلك حين تطبيقها عملياً. وإذا واصل الفلاحون أيضا تأييد الاشتراكيين الثوريين ومنحوا هذا الحزب الأكثرية في المجلس التأسيسي فنقول: ليكن ذلك لهم. فأن الحياة هي خير حكم، إذ سوف تبرهن من هو المحق. فإذا ما حاول العمال حل المشكلة من طرف فسوف تحاول حلها من الطرف الأخر. ولسوف تحملنا الحياة على التقارب، في خضمها المشترك، من المحاولة الثورية لتكوين صور جديدة للدولة. يجب علينا أن نتبع الحياة ونترك الحرية المطلقة لعبقرية الجماهير الشعبية المبدعة. كانت حكومة كيرنسكي القديمة، التي أطاح بها الانقلاب المسلح، تحاول حل المشكلة الزراعية بواسطة الموظفين القيصريين القدماء الذين لم يفصلوا عن عملهم. ولكن بدلا من حل المشكلة أخذت البيروقراطية بمحاربة الفلاحين. فتعلم الفلاحون أشياء كثيرة خلال هذه الاشهر الثمانية من ثورتنا، فعقدوا العزم على أن يحلوا بأنفسهم المشاكل المتعلقة بالأراضي، ولهذا نعارض كل تعديل لهذا المشروع بقانون. ولا يمكننا الدخول في التفاصيل لأننا نضع قرارا وليس برنامج عمل. فروسيا كبيرة والظروف المحلية متعددة فيها. ولا نشك بان الفلاحين أنفسهم سيحلون المشكلة كما يجب. فهل سنستوحي في ذلك روح برنامجنا أم برنامج الاشتراكيين الثوريين؟ ليس هذا بالمهم. لأن المهم هو أن يتأكد الفلاحون أنه لم يعد هناك ملكيات غير منقولة في القرى وأن على الفلاحين أنفسهم أن يحلوا جميع المشاكل وأن يقوموا بتنظيم حياتهم".

٤ – الخلاصَة

أن أهمية الأفكار والنظريات الاجتماعية وعملها عظيم نخلص من ذلك إلى بعض النتائج:

١ ــ الأفكار قوى فعالة. ولهذا يسيء الثوري الذي يهمل محاربة وجهات النظر الخاطئة المنتشرة بين العمال إلى مجموع الحركة، فهو يسير على طريق النزعة المادية الساذجة السيء. ولا يسير عن طريق النزعة المادية الجدلية الصلب، وهي أساس الاشتراكية العلمية النظرية. مثال: أن ترك الصحافة البرجوازية، ومنها جريدة "الفرانك تيرور" تؤثر في العمال يعني ترك هؤلاء العمال فريسة للأفكار القديمة التي تعيق التقدم الاجتماعي.

ولقد غرس لينين عام ١٩٠٠ بواسطة جريدته الأسكرا بذور الأفكار الجديدة في وعي العمال. ونمت هذه البذور وترعرعت. وتبنى الثوريون هذه الأفكار فتولد عنها الحزب الذي قاد الثورة الاشتراكية فيها بعد. *فنضال الأفكار مظهر ضروري من مظاهر النضال الطبقي*. ولهذا فأن عدم محاربة الأفكار المفيدة لسيطرة البرجوازية يعني تقييد البروليتاريا.

٢ ــ الوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي، ولكن الوعي الاجتماعي يؤثر *بدوره* على المجتمع. وليس هذا التأثير ضرورياً فقط لتحقيق التغييرات المادية بل أن *الفكرة في بعض الأحيان، هي التي تقوم بدور خطير*. ويكون صدق الشعارات حينئذ حاسماً.

مثال: تنتقص البرجوازية الرجعية، في الوقت الحاضر، مصالح العمال والفلاحين والموظفين. فوحدة العمل إذن ممكنة *ماديا*. ولكن يجب أن يفهم هؤلاء ذلك! فيصبح عندئذ العنصر الفعال هي *فكرة إمكانية* تحقيق الوحدة. ولما كانت هذه الفكرة هي العنصر الفعال يردد الزعماء الاشتراكيون على مسامع العمال الاشتراكيين قائلين: "لا تصادقوا الشيوعيين"! كما يبدل المناضلون الشيوعيون ــ وهم أبطال الوحدة ــ جهودهم لحمل العمال الاشتراكيين على العمل المشترك.

يولد نجاح العمل المشترك عند هؤلاء المناضلين فكرة إمكانية الوحدة وحسن صنيعها، لأن هذه الفكرة تسهل أعمالا مشتركة جديدة، وهكذا دواليك حتى النصر المشترك.

مثال آخر: يولد ازدياد قوى السلام المادية بفضل (الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية وحركة السلم العالمية) وتضاؤل قوى الحرب المادية (كالاستعمار) ظروفا موضوعية تساعد على انتصار التفاوض العالمي، فتصبح عندئذ أرادة السلام، عند الملايين العديدة من الناس، *العامل الفاصل*، لأن هذه الإرادة إذا بذلت كل جهدها وجب أن تفضي إلى النتيجة الحتمية *لأن ظروف نجاحها الموضوعية قد توفرت*.

يدلل هذا المثال بوضوح على أن *الفكرة* تزداد قوتها كلما ازداد عكسها للوضع الموضوعي في ذلك الوقت، وأنها أقرب إلى إمكانيات ذلك الوقت الموضوعية. ويصبح العنصر الذاتي *فاصلاً كلما* عكس بصدق العنصر الموضوعي. ولهذا فالنزعة المادية الجدلية لا تقضي على الوعي بل هي تجعل له كل قيمته. والمادي الحقيقي ــ على عكس المادي الساذج الذي يتصور " الانعكاس الفكري" كثمرة جامدة لا نفع فيها فيقول: "الظروف الموضوعية حسنة. فلنستسلم لها وكل شيء يجري بسلام" لا يستسلم قط للظروف.

ولقد عبر ستالين في جملة مشهورة عن قوة الفكرة الفاصلة إذا ما توفرت أفضل الظروف الموضوعية لها بقوله: *سوف يبقى السلام ويقوى إذا ما تولت الشعوب قضية استقرار السلام ودافعت عنه حتى النهاية. ويمكن للحرب أن تصبح لا مفر منها إذا توصل صانعو الحروب إلى الهيمنة على الجماهير الشعبية بالأكاذيب وخداعها وجرها إلى حرب عالمية جديدة*[٢٢٥].

225 راجع ستالين: "تصريح حول قضية السلام" المحرر في جريدة البرافدا ١٧ شباط سنة ١٩٥١، أخر المؤلفات ص ٦٧.

٣ ــ يضطرنا عمل الأفكار والنظريات الاجتماعيــة الفعــال إلــى تكــوين نظريــة تتفق وحاجات المجتمع المادية اتفاقاً تاماً، كما تتفــق مــع حاجــات الجمــاهير الكادحــة التي تصنع التاريخ وتملك لوحدها القــوة القــادرة علــى تحطــيم مقاومــة البرجوازيــة المستغلة. ولهذا فأن احتقار النظريــة ــ كمــا يفعــل *الانتهــازيون* "أمثــال المنشــقين الروس وليون بلوم وجول موش ــ يعني حرمان الطبقة العاملــة مــن البوصــلة التــي تقود الحركة الثورية".

ولهذا قال لينين: *"لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية*[٢٢٦]*"* .

ومن فضائل الاشتراكية العلمية، وسنتحدث عن ذلــك فــي الــدرس الثــاني، أنهــا، باعتمادها على النزعة المادية الجدلية، تقدر تماماً أهمية عمــل الأفكــار. فهــي تضــع *إذن النظرية في المكانة السامية التي تستحقها وتــرى أن مــن واجبهــا اســتخدام كــل قوتها على التعبئة والتنظيم والتحويل*[٢٢٧].

226 راجع لينين: "ما العمل؟ ص ٢٦ ذكر في تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي" ص٤٥.

227 راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية ص ١٧.

الدّرس الرابع عشر

تكوين الاشتراكية العِلميَّة

أهميتها وتأثيرها

١ــ مصادر الماركسية الثلاثة.

أ) الفلسفة الألمانية.

ب) الاقتصاد السياسي الإنجليزي.

ج) الاشتراكية الفرنسية.

٢ــ الاشتراكية الخيالية.

٣ــ الاشتراكية العلمية.

أ) تكوينها.

ب) صفاتها.

٤ــ عمل الاشتراكية العلمية.

أ) دمج الاشتراكية مع الحركة العمالية.

ب) ضرورة الحزب الشيوعي ــ نقد (التلقائية

٥ــ الخلاصة.

بينما تعجز النزعة المثالية عن فهم مصدر الأفكار والنظريات الاجتماعية وعملها إذا بالنزعة المادية الجدلية تستطيع القيام بذلك، ولكنها تخضع بنفسها للقوانين التي تسيطر على ظهور الأفكار وعملها. ولهذا بينما لا تفهم النزعة

المثالية نفسها (لأنه لا يمكنها ذلك الا إذا لم تعد مثالية وأصبحت مادية) فأن النظرية الماركسية تستطيع أن تدرس تاريخها الخاص وأن تقدر أهميتها بصورة موضوعية.

وسنكرس هذا الدرس، الرابع عشر، للجانب الاجتماعي والسياسي للنظرية الماركسية الا وهو الاشتراكية العلمية، وسندرس تكوينها وعملها.

١ ـ مَصَادِر الماركسِيَّة الثَلاثة

إذا نظرنا للماركسية في مجموعها (النزعة المادية الجدلية، النزعة المادية التاريخية، الاشتراكية العلمية) لوجدنا أن الماركسية ليست ثمرة تلقائية للذهن الإنساني، فهي قد قامت على أساس التناقضات الموضوعية للمجتمع الرأسمالي، كما أنها تحل هذه التناقضات بصورة جديدة. وهي، من جهة ثانية، تنتمي لحركة فكرية تكونت في ظروف موضوعية أقدم منها وكانت هذه الحركة الفكرية تحاول الجواب على المشاكل التي أثارها تطور المجتمعات.

يدل تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم الاجتماعي، بوضوح، على أن الماركسية لا تشبه "النزعة الانطوائية" التي تمتاز بها العقيدة المنطوية على نفسها وقد انبثقت بعيداً عن مجرى تطور المدنية الشاملة. فأن ماركس، على العكس، يمتاز أنه أجاب على المسائل التي أثارتها الإنسانية في سيرها. فنشأ مذهبه على أنه امتداد مباشر لمذاهب أشهر ممثلي فلسفة الاقتصاد السياسي والاشتراكية[٢٢٨].

يشير هذا النص إلى ثلاثة مصادر نظرية للماركسية *في مجموعها* فيجب أن نسرع في وصف أهميتها.

228 راجع لينين: مصادر الماركسية الثلاث وأجزاؤها المكونة الثلاث في كارل ماركس ومذهبه، ص٣٧. المطبوعات الاجتماعية وباريس ١٩٥٣.

أ) ـ الفَلسَفَة الألمَانيَّة

الفلسفة الالمانية في مطلع القرن التاسع عشر مصدر للماركسية. وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً (المدخل والدرس الأول).

كما نعلم أن هيجل، وهو المعجب بثورة ١٧٨٩، أراد أن يقوم بثورة في ميدان الأفكار تشبه ما قامت به الثورة الفرنسية في ميدان الوقائع، ومن هنا كانت *الجدلية*: فكما أن الثورة الفرنسية قد قضت على النظام الإقطاعي الذي كان يظن أنه خالد، فكذلك قامت الجدلية بالقضاء على الحقائق التي كانت تظن نفسها خالدة: فهي ترى في التاريخ عملية محركها نضال الأفكار المتناقضة: هكذا كانت مطامح البرجوازية الألمانية تعبر عن نفسها فكريا في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. كانت ألمانيا مجزأة وكانت لا تزال تخضع للنظام الإقطاعي، كما كانت البرجوازية الألمانية الفتية تحلم بأن تقوم بما قامت به البرجوازية الفرنسية على الضفة الثانية للرين. غير أنها كانت ضعيفة فلم يكن بمقدورها القيام بهذه المهمة التاريخية. وهذا ما يفسر نقص فلسفة هيجل الأساسي: الا وهي *نزعته المثالية*. فالنزعة المثالية هي دائما انعكاس لعجز موضوعي: وهي تعبير نظري عن برجوازية تريد القضاء على الإقطاع ولكنها تعجز عن ذلك. فكانت فلسفة هيجل، حسب قول انجلز، "إجهاضا ضخما[٢٢٩]" وهكذا يظل التطور الجدلي تطورا *فكريا صرفا*. كما أنه، بالإضافة إلى ذلك، قد تحالف مع الدولة الاقطاعية البروسية[٢٣٠] فإذا به ينظر إلى هذه الدولة على أنها التعبير التاريخي الضروري عن الفكرة. وهكذا تحصر الجدلية نفسها في نطاق

---

229 راجع حول المعنى التاريخي لفلسفة هيجل: "لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية" الجزء الأول.

230 وعد رئيسه فرديك جيوم الثاني بإقامة ملكية تمثيلية لا يمكنه تغيير طابع الدولة الإقطاعي.

تجريد(idealisation) ما هو كائن... كما تقف حركتها عن السير لعجز طبقة لا يمكنها القيام بالثورة...الا في الذهن.

ومع ذلك فقد اضطر الفلاسفة البرجوازيون في الجيل الذي خلف هيجل (مات ١٨٣١) مباشرة ــ وقد حملهم على ذلك نضالهم ضد الإقطاعية الأكليركية ــ إلى أن يبحثوا عن السلاح النظري ضد عدوهم الطبقي في *النزعة المادية* الملحدة في القرن الثامن عشر. وتتمثل هذه المرحلة في لودفيج فورباخ. فلقد أعاد كتابه *"جوهر المسيحية"* (١٨٤١) "النزعة المادية إلى عرشها". كما أنه أثر في ماركس (ولد ١٨١٨) تأثيراً قوياً، وفي انجلز (ولد ١٨٢٠). وينحدر كلاهما من البرجوازية الألمانية المتحررة.

ولكن نزعة فورباخ المادية ظلت *ميكانيكية*، (راجع الدرس التاسع) إذ يرى فورباخ ــ وهو محق ــ في الإنسان ثمرة للطبيعة، ولكنة لا يرى أن الإنسان أيضاً *منتج* يحول الطبيعة، وأن هذا هو مصدر المجتمع وكان فورباخ يفتقد إلى نظرة علمية للتاريخ فاستعاض عنها بديانة غامضة تقوم على الحب، أي بعودة إلى النزعة المثالية. وهذا عجز يعبر عن عجز البرجوازية الألمانية التي لم تستطيع عام ١٨٤٨ القيام بثورتها ضد الإقطاعيين وتنتصر عليهم.

ونعلم أن ماركس قد أنشأ فلسفة علمية في وضعه للنزعة المادية الجدلية، وقد تخطت هذه الفلسفة جدلية هيجل المثالية، كما تخطت نزعة فورباخ المادية الميكانيكية[٢٣١] وقد عرض ماركس، لأول مرة ، للنزعة المادية الجدلية في *"أفكار حول فورباخ"* وقد كتبها ماركس عام ١٨٤٥. وتعبر الفكرة الحادية عشرة عن الانتقال من الفلسفة الكلاسيكية الألمانية إلى الماركسية فيقول:

---

231 راجع الدرس الأول. فلقد برهنا منذ الدرس الأول كيف استطاع ماركس أن يجعل للجدلية مضمونا ماديا لأنه اعتمد على العلوم الطبيعية. ولن نعود إلى ذلك.

"لم يفعل الفلاسفة سوى تفسير العالم بصور مختلفة بينما كان الواجب تحويله[٢٣٢]".

ب) ـ الاقتِصَادُ السِياسي الإنجليزي

كانت انجلترا، في مطلع القرن التاسع عشر، أكثر البلاد تقدماً في الاقتصاد. فلقد كانت البرجوازية الإنجليزية، في نهاية القرن الثامن عشر، أول من انتقل من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية. وهكذا نشأ الإنتاج الاقتصادي الكبير. وهو أساس المجتمع الرأسمالي، وهذا ظرف يساعد، موضوعيا، على ازدهار الاقتصاد السياسي. *وهو علم القوانين التي تسيطر على الإنتاج وتبادل الوسائل المادية للمعيشة في المجتمع الإنساني*[٢٣٣].

فلقد مهد الاقتصاديان الإنجليزيان الكبيران آدم سميت ودافيد ريكاردو الطريق لنظرية القيمة ــ العمل ولكنهما لم يستطيعا إدراك العلاقات الموضوعية بين الناس التي تتعدى تبادل السلع.

فعجزا إذن عن التدليل على أن قيمة كل سلعة تتحدد بمقدار زمن العمل الضروري لإنتاجها. وكان فضل ماركس أنه عرَّف طبيعة قيمة التبادل الحقيقية على أنها تبلور *للعمل الاجتماعي*. وبهذا تخطى ماركس حدود الاقتصاد السياسي الإنجليزي الذي عجز عن تحليل الرأسمالية تحليلاً كافياً، لأن المصالح الطبقية حالت دون ذلك. فقد كان الاقتصاديون يعتقدون أن الرأسمالية خالدة. فقفز ماركس بالاقتصاد السياسي قفزة فاصلة باكتشافه *فائض القيمة*.

فلقد دلل على أن تملك العمل الغير المدفوع أجره هو الصورة الأساسية للإنتاج الرأسمالي، واستغلال العمال الذين لا يمكن فصلهم عنه، كما دلل على أن

---

232 راجع: لودفيج فورباخ ص ٥٣٣، دراسات ص ٦٤

233 راجع: انجلز ضد دونج ص١٧٩.

الرأسمالي، في نفس الوقت الذي يدفع فيه أجر قوة العمال العملية بمعدل القيمة الحقيقية لهذه القوة كسلعة تباع في السوق، فأنه يستخرج من هذه القوة قيمة تفوق القيمة التي دفعها أجراً لها، وأن هذه القيمة الفائضة تكون مجموع القيم التي يتأتى عنها رأس المال الذي يزداد باستمرار ويتضخم في أيدي الطبقات المالكة. وهكذا فسر طريقة الإنتاج الرأسمالي وطريقة إنتاج الرأسمال[٢٣٤].

وكان على كتاب *"رأس المال"* (الذي يرجع تاريخ الجزء الأول منه إلى عام ١٨٦٧ وعمل ماركس فيه حتى وفاته ١٨٨٣) أن يكون رائعة الاقتصاد السياسي الماركسي.

ج) ـ الاشتِراكية الفرنسيَّة

يجب البحث عن بذرة الاشتراكية الحديثة، التي نشأت عنها الاشتراكية العلمية، في نزعة الفلاسفة الفرنسيين المادية. ولم يكن هلفتيوس وهولباخ اشتراكيين. غير أن نزعتهما المادية، وما تحتوي عليه من آراء حول طيبة الإنسان الطبيعية، وجبروت التجربة والعادة والتربية، وتأثير البيئة الطبيعية، *تتصل بالضرورة بالشيوعية الاشتراكية، فإذا كان الإنسان يتكون بتأثير الظروف فيجب تكوين الظروف بصورة إنسانية*[٢٣٥].

وكان جراشوس بابوف الذي كرس حياته للشيوعية (شنق عام ١٨٩٧ على يد البرجوازية الترميدوريه) زميلاً لفلاسفة القرن الثامن عشر[٢٣٦]. أما *الفلاسفة الخياليون* الذين سبقوا ماركس وهم سان سيمون وفوريه الفرنسيان واوين الإنجليزي فقد تمثلوا نزعة القرن الثامن عشر المادية تمثلا قويا.

---

234 راجع انجلز: الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية ص ٥٧.

235 راجع ماركس في ماركس انجلز: دراسات فلسفية ص ١١٦.

236 راجع بابوف: نصوص مختارة، قدمها ج: و س. ويلارد. المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٠.

وهكذا تحقق قول انجلز الذي قال بصدد الاشتراكية الحديثة: *كان على الاشتراكية الحديثة، ككل نظرية جديدة، أن ترجع لأفكار سابقيها المباشرين، وأن كانت جذورها في الواقع تنبت في أرض الوقائع الاقتصادية*[٢٣٧].

غير أن الاشتراكية السابقة على ماركس لم تكن علمية بل كانت *اشتراكية خيالية*. وتكون الاشتراكية الفرنسية أكبر جزء منها. كما تضم أيضاً بعض المفكرين الألمان والفيلسوف النظري الكبير الإنجليزي أوين.

٢ ـ الاشتِراكيَّة الخيَاليَّة

تكونت في ظروف التي أوجدها المجتمع الرأسمالي، فقد ناضلت البرجوازية ضد النظام الإقطاعي باسم الحرية والأخوة. غير أن حكم البرجوازية في فرنسا وانجلترا، جعل من المجتمع مأسدة. ولما كان نمو الصناعة، في نطاق الرأسمالية، يشرط استغلال العمال فقد شاهدنا نشوء إقطاعيات جديدة، هي إقطاعيات المال التي هيأت للبرجوازية الحاكمة الأبهة والسلطان، بينما كان شقاء الجماهير الكادحة، في القطب الأخر للمجتمع، يزداد بصورة مخيفة.

كانت نقطة انطلاق الاشتراكية الخيالية التشهير بهذا الوضع الذي كان الاقتصاديون البرجوازيون يقولون عنه بأنه وضع "طبيعي" لأنه كان يضمن نمو الصناعة. ولهذا قام الاشتراكيون الخياليون بنقد نظام قال عنه فورييه "يولد فيه الفقر من الازدهار نفسه".

ويلاحظ *سان سيمون* (١٧٦٠ – ١٨٢٥) أن الإنتاج ينمو في الرأسمالية بصورة مستبدة خلال نضال مرير من الصناعيين حتى يولد أعظم الآلام

237 راجع انجلز: الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية ص ٣٩ المطبوعات الاجتماعية، باريس ١٩٤٨.

للكادحين. وكان يعتقد بأن نمو الصناعة يجلب السعادة للإنسانية، ولهذا وصف فضائل تنظيم الإنتاج تنظيماً عقلانياً على يد رجال تشاركوا لاستغلال الطبيعة معاً، وهكذا يزول استغلال الإنسان للإنسان فننتقل من "حكومة الناس إلى إدارة الأشياء[٢٣٨]".

ولقد درس *شارل فورييه* (١٧٧٢ـــ١٨٣٧) أزمات الرأسمالية، وحارب نتائج المضاربة التي تحمل الخراب وشهر بمساوىء الاحتكار والتجارة.

ولما كان نصيراً للمساواة بين الرجل والمرأة فقد قام بنقد استغلال النساء على يد البرجوازية. وهو يرى في الدولة المدافع عن مصالح الطبقة الحاكمة، كما دلل كيف أن البرجوازية، بعد أن عادت إلى الدين المسيحي الذي ناهضته في الماضي تنشر الأفكار "الأخلاقية" التي تدعو للخضوع والاستسلام وتعمل من أجلها.

وهو يدعو إلى التعاونية لمداواة هذه الأمراض. فيشترك المالكون في ممتلكاتهم وعملهم ونبوغهم وينتظمون في طوائف صغيرة للإنتاج تضمن للإنسانية إمكانية ازدهار منسجم، وهكذا يزول الأجر وتصبح التربية بوليتكنيكية، وتعمل المنافسة في العمل من أجل الصالح العام، وتفتح مراكز العمل الكبيرة التي تستخرج خيرات الكرة الأرضية[٢٣٩].

"وكان *روبير أوين* (١٧٧١ – ١٨٥٨) مقتنعا، اقتناع الماديين في القرن الثامن عشر، بأن أخلاق الناس (من عيوب وفضائل) هي ثمرة للظروف، ولهذا فهو يرى بأن الثورة الصناعية التي حدثت في انجلترا توجد الظروف التي تساعد على تحقيق السعادة للجميع. فجعل من مغزلة ثيولنارك "*مستعمرة نموذجية لا*

---

238 راجع سان سيمون: نصوص مختارة، قدمها ج. دونرى. المطبوعات الاجتماعية. باريس ١٩٥١.

239 راجع فورييه: نصوص مختارة قدمها ف. أرمان. المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٣

تعرف الإدمان على شرب الخمر أو الشرطة أو السجن أو المحاكم أو الإغاثة العامة أو الحاجة للإنسان الخاص[٢٤٠]".

ثم يتحدث عن *الشيوعية* فيقول: "يجب أن تكون قوى الإنتاج التي نمتها الصناعة الضخمة ملكا جماعياً، كما يجب أن يستفيد منها جميع أعضاء المجتمع. وخيل إليه أنه يستطيع التمهيد للتنظيم الشيوعي للمجتمع بواسطة تعاونيات الإنتاج والاستهلاك (وهي عبارة عن جزر في الخضم الرأسمالي، وكان مصيرها الزوال).

كان لكبار الفلاسفة الخياليين فضائل كبيرة وقد أشار إلى ذلك كل من انجلز وماركس. فلقد شاهدوا الرأسمالية وهي في أوج ازدهارها، فوصفوا عيوبها وشهروا بها، كما أنهم تنبأوا بنهايتها في زمن خيل إليها فيه أنها خالدة. فأرادوا القضاء على استغلال الإنسان للإنسان. ولما كانوا أبطال تربية تقدمية فقد وثقوا بالإنسانية لاعتقادهم أن سعادتها ممكنة على هذه الأرض. ولهذا فهم يحتلون مكانة سامية في تاريخ الاشتراكية.

ومع ذلك عجزوا عن تغيير حال المجتمع . فلماذا؟ عاش كبار الفلاسفة الخياليين في الفترة الأولى للرأسمالية. ثم أخذت تناقضات الرأسمالية في الازدياد فنشأت عن ذلك الفوضى في الإنتاج وبؤس الجماهير. ولكن الرأسمالية كانت لا تزال فتية فلم تظهر في داخل نظامها القوة التي تستطيع أن تناضل موضوعيا ضد الرأسمالية، وأن تتغلب عليها، وأن تؤسس المجتمع الاشتراكي. هذه القوة هي *البروليتاريا* التي يولدها، بالضرورة، نمو البرجوازية الرأسمالية، لأن قوتها تعتمد باجمعها على استغلال البروليتاريا.

غير أن البروليتاريا كانت، في مطلع القرن التاسع عشر، لا تزال قليلة العدد، ضعيفة، قد جزأتها المضاربة. وكان نضالها الطبقي، ضد البرجوازية، لا يزال

---

240 راجع انجلز: "الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية ص ٤٧".

ضعيفاً: ولما كان هذا النضال غير منظم فلم يكن، في هذه المرحلة، يهدف الا لتحقيق مطالب مباشرة، ولا سيما تخفيض ساعات العمل. كما كان هذا النضال يقاسي آلاماً شديدة فلم يهتم بالمستقبل. وكانت البروليتاريا، فيما يتعلق بالسياسة، لا تزال تحت وصاية البرجوازية (التي كانت تستخدمها، في فرنسا، في نضالها ضد بقايا الإقطاع: وهكذا ساعد البروليتاريون في عام ١٨٣٠ البرجوازية لطرد آل بوربون ليحل محلهم ملك برجوازي هو لوي فيليب).

ولقد شاهد كبار الفلاسفة الخياليين، الذين انحدروا من البرجوازية، والألم يحز في قلوبهم، ما تعانيه البروليتاريا المستغلة من عذاب، وقد منعهم ذلك من رؤية القوى الضخمة التي تكمن في البروليتاريا والتي جعلت منها طبقة المستقبل بينما كانت البرجوازية تعتقد أنها خالدة[٢٤١].

الخلاصة: بما أن هؤلاء الفلاسفة الخياليين لم يجدوا، في مجتمع أيامهم، الوسائل الموضوعية للقضاء على هذا العذاب فأنهم لم يروا أمامهم سوى وضع مشروع فكري. فاستوحوا من أدمغتهم وصفاً تاماً لمجتمع كامل، قارنوه بالواقع المحزن. ولكنهم كانوا يجهلون قانون تطور المجتمع الرأسمالي فلم يستطيعوا اكتشاف العلاقة الموضوعية بين المجتمع الذي ينتقدونه والمجتمع الذي يحلمون به. ومن هنا كان وصف اشتراكيتهم بأنها "خيالية" ولهذا كانوا *مثاليين* وزملاء فلاسفة القرن الثامن عشر الذين كانوا يعتقدون أن "العقل" له القدرة على توليد مجتمع عادل، فنادوا بالعدالة والأخلاق.

---

241 لنشر بهذه المناسبة لمثال رائع في شراسة التناقض. نعلم (من الدرس السابع) أن لكل تناقض مظهراً رئيسياً ومظهراً ثانوياً. كان وضع البروليتاري يمثل، منذ البداية، تناقضاً داخلياً: يوجد من جهة الفقر المدقع تحت نير البرجوازية، ويوجد، من الجهة الثانية، القوة التي ستحطم هذا النير في يوم من الأيام. ولما كان المظهر الأول للتناقض، أيام الفلاسفة الخياليين، هو المظهر الأساسي، لم ير هؤلاء المظهر الثاني. غير أن المظهر الثاني للتناقض (قوة البروليتاريا الثورية) أخذ يصبح بدوره المظهر الرئيسي. وهذا ما أدركه ماركس.

ما هي الوسائل التي يقترحونها لتحقيق المجتمع الجديد؟ كان هؤلاء الفلاسفة لا يجهلون قوة النضال الطبقي المبدعة كما كانوا يخشون عمل الجماهير السياسي ويرون فيه مثال الفوضى فلم يكن أمامهم سوى التنبؤ. ولهذا فهم يحاولون في كتاباتهم أو بواسطة المجتمعات النموذجية أن يقنعوا الناس بصحة نظامهم.

ويؤكد سان سيمون بأن حزب العمال[٢٤٢] "سيتكون بعد ثمان وأربعين ساعة من ظهور منشوره" كما يقول أنه لا يجب "نبذ الدين لأن الاشتراكية نوع من الدين"

وهم يجهدون لضم البرجوازية إلى أفكارهم آملين أن تحقق لهم أفكارهم عن طريق السلطان الذي تتمتع به. وهذا وهم وخيال لأن مصالح البرجوازية الطبقية تتعارض مع الاشتراكية بصورة مطلقة.

ولهذا لم يستطع سان سيمون وفورييه وأوين أن ينجحوا. ومما يميز ماركس عن كبار الفلاسفة الخياليين، أنه، *بدلا من أن يتخيل مشروع مثالي، فقد أقام الاشتراكية على أسس علمية*. وبالرغم من أن نقد كبار الفلاسفة الخياليين للرأسمالية كان نقداً لاذعاً فأنهم لم يكونوا يملكون النزعة المادية التاريخية، وعلم المجتمعات الذي حقق لماركس انتصاراً نهائياً. ولهذا فهم، بالرغم من تأكدهم من نتائج الاستغلال الرأسمالي، فأنهم عجزوا عن إدراك عمله. كما عجزوا عن اكتشاف الدور الذي ستقوم به البروليتاريا في القضاء على الرأسمالية. فظهر عجزهم *النظري* في صور عجز عملي[٢٤٣].

242 لا يريد بذلك منظمة ثورية بل تعاونية اقتصادية واجتماعية تجمع بين الرأسماليين والعمال.

243 أدرك الثوري الفرنسي الكبير أوجست بلنكي (١٨٥١ – ١٨٨١)، على عكس الفلاسفة الخياليين" أهمية العمل السياسي. ولكنه عجز، مثلهم، عن درس المجتمع الرأسمالي دراسة علمية. وبالرغم من أن بلنكي قد حارب استغلال البرجوازية للبروليتاريا فأنه لم يكشف عن مصدر هذا الاستغلال الحقيقي. فهو يرى أن الصورة الأساسية للاستغلال هما الضريبة والربا (وهو بهذا يقترب من برودون). ولقد دلل ماركس على أن أساس الاستغلال الرأسمالي هو العمل غير المدفوع أجره (فائض القيمة ولم يتح هذا النقص النظري

فاحتل العلم، بفضل ماركس، مكان الخيال وأصبحت الاشتراكية التي يحلم بها الخياليون واقعاً محسوساً.

٣ ـ الاشتراكية العلمية

أ) ـ تكوينها

استفاد كل من ماركس وانجلز من ظروف موضوعية أفضل من ظروف كبار الفلاسفة الذين جاؤا قبلهما، إذ أن تناقضات الرأسمالية كانت أوضح حين تم نضج تفكيرهما؛ كما أن نضال البروليتاريا الثوري كان في أوج احتدامه.

ولقد نشبت أول أزمة اقتصادية كبرى للرأسمالية عام ١٨٢٥ ثم أخذت الأزمات تتوالى فإذا بالقوى الإنتاجية التي حشدها النظام الرأسمالي تنقلب ضده. وعلى هذا الأساس قامت البروليتاريا، وكان عددها يزداد شيئا فشيئا وقد جمعتها الصناعة الكبرى، بنضال ضخم منظم. فحدثت أول ثورة عمالية في ليدن عام ١٨٣٨ – ١٨٤٢ كما بلغت الحركة العمالية القومية في انجلترا الذروة.

ظهرت حرب الطبقات بين البروليتاريا والبرجوازية على مسرح تاريخ الشعوب التي تقرر مصير الإنسانية[٢٤٤].

كما نُصبت المتاريس في فرنسا عام ١٨٣٨ ضد البرجوازية حيث كانت الطبقة العمالية تدافع عن حقها في الحياة بقوة السلاح.

لبلنكي أن يكون نظرة صادقة عن النضال الثوري . فهو، بدلا من أن يرى في هذا النضال، نضالاً طبقيا ألا وهو نضال طبقة البروليتاريا في مجموعها، يكتفي بالنظرية القائلة بوجود "أقلية عاملة " (ورثها عن بابوف) وهي نظرية عزيزة على الفوضويين البرجوازيين الصغار ولا تتفق مع الاشتراكية العلمية.

244 راجع انجلز: الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية ص٥٦.

ولم يكتف ماركس وانجلز بمشاهدة هـذا النضـال، بـل كانـا مناضـلين ثـوريين، بعكس الفلاسفة الخياليين، فأشتراكا في هـذا النضـال شخصـياً فـي ألمانيـا وفرنسـا وانجلترا. وعملا علـى تنظـيم الحركـة العماليـة، وأسسـا عـام ١٨٤٨ أول اتحـاد عالمي للعمال.

تلك هي الظروف التي استمدت منها عبقريتهما الماركسية.

ب) ـ صِفَاتـهَا

يعرض لنا مـزورو الماركسـية علـى أنهـا أسـطورة تصـورتها مخيلـة نبـي متحمس يوحى إليه. كما أنه يخيل إليهم، في نفـس الوقـت، أنهـم يسـتطيعون تكييـف الماركسية حسب زيهم لخدمة مصلحة البرجوازية.

يجب إذن التأكيد بقوة على طـابع الاشـتراكية الماركسـية السـامي. فهـي ليسـت أسطورة ولا وحياً ولا نظاماً بين سائر النظم الفلسفية، بل هي *علم*.

والعلم هو معرفة موضوعية للواقع تمدناً بالوسـائل لتغييـر هـذا الواقـع. وهكـذا شأن الاشتراكية العلمية. وهي تعتمـد علـى اكتشـافين كبيـرين، وهـذان الاكتشـافان هما: *نظرية التاريخ الماديـة واكتشـاف سـر الإنتـاج الرأسـمالي بواسـطة فـائض القيمة*.

يرجع الفضل في هذين الاكتشافين لكارل مـاركس، ولقـد جعـلا مـن الاشـتراكية علماً من العلوم[٢٤٥].

نعلم أن ماركس وجد، في دراسة الفلسـفة والعلـوم الطبيعـة، نظـرة عـن العلـم وهي النزعة المادية الجدلية التي أدى تطبيقها على المجتمعـات إلـى ظهـور النزعـة المادية التاريخية.

---

245 راجع انجلز: الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية ص٥٧

فلقد اكتشف داروين قانون تطور الطبيعة العضوية بينما اكتشف ماركس قانون تطور المجتمع الإنساني[٢٤٦].

وهو قانون خارجي سابق على وعي الناس وارادتهم. لأن الإنتاج ــ أي النشاط الذي يضمن الناس بواسطته وسائل معيشتهم ــ هو الذي يكون العامل الأساسي في المجتمعات، ويتحكم في تاريخيها. إذ تتحدد العلاقات الاجتماعية والمؤسسات السياسية والأفكار بواسطة إنتاج السلع المادية.

وقد تسلح ماركس بهذه النظرة العلمية للمجتمعات فاستطاع القيام بدراسة مجتمع زمانه الا وهو المجتمع الرأسمالي فكتب يقول في مقدمة كتابه *"رأس المال"*:

"هدفنا النهائي هو الكشف عن القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث"[٢٤٧].

التحليل الموضوعي، إذن، هو الذي أدى بماركس إلى اكتشاف التناقض الذي ينبت وينمو في الرأسمالية حتى يفضي إلى نشوب أزمة يموت بسببها: وهو تناقض بين طابع قوى الإنتاج الاجتماعي (الصناعة الكبرى) تلك القوى التي نمتها الرأسمالية وبين طابع التملك الشخصي (الربح الرأسمالي). إذ ليست "العاطفة" هي التي أدت به الى اعتبار البروليتاريا الطبقة التي ستخلف البرجوازية بل هو تحليل الرأسمالية الموضوعي: فقد اكتشف ماركس أن الرأسمالية لا يمكن أن تعيش الا بفائض القيمة أي باستغلال البروليتاريا. التناقض بين مصالح البرجوازية والبروليتاريا جزء لا يتجزء من الرأسمالية،

---

246 راجع انجلز: مختارات من خطاب القاه على قبر ماركس (١٧ آذار ١٨٨٤) في "ماركس والماركسية" ص ٥٢ المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٥٣

247 ذكره لينين في "من هم أصدقاء الشعب؟" مؤلفات مختارة ج ٦ ص٨٧، رأس المال. الكتاب الأول ج١ ص١٩ المطبوعات الاجتماعية باريس ١٩٤٦.

ونضال هاتين الطبقتين ضرورة من ضرورات الرأسمالية. وهكذا نرى أنه من العبث أن نأخذ على ماركس "أنه اخترع النضال الطبقي[٢٤٨]".

وكل ما في الأمر أن ماركس لاحظ وجود هذا النضال[٢٤٩] فهو موجود منذ انحلال المجتمع القديم. هذا النضال هو العامل المحرك للتاريخ لأن التناقض بين قوى الإنتاج وبين علاقات الإنتاج ينحل بواسطته. وهكذا سيكون حال الرأسمالية: فأن نضال البروليتاريا، الطبقة المستغَلة، ضد الطبقة المستغِلة البرجوازية، سيحل التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الرأسمالية، فكيف يكون ذلك؟ بالملاءمة بين هذه العلاقات وتلك القوى، أو بجعل وسائل الإنتاج اشتراكية عن طريق الاشتراكية، وهي مرحلة ضرورية للتطور التاريخي (شأن الرأسمالية في الماضي).

ويخلص ماركس إلى تحويل المجتمع الرأسمالي، الذي لا مفر منه، إلى مجتمع اشتراكي معتمدا في ذلك على قوانين حركة المجتمع الحديث الاقتصادية٢٤٩ .

248 أي نضال البروليتاريا ضد البرجوازية.

249 لم يكن ماركس أول من لاحظ وجود النضال الطبقي، وهو يقول ذلك، ولا سيما في رسالة وجهها لفايدمير (١٨٥٢): أما فيما يتعلق بي، فلا يرجع الفضل لي باكتشاف وجود الطبقات ولا باكتشاف النضال بينها. فلقد وصف مؤرخون برجوازيون قبلي (أمثال تييري وجيزو) منذ زمن بعيد، تطور هذا النضال التاريخي، كما شرح اقتصاديون برجوازيون التركيب الاقتصادي. أما ما أحدثته أنا فهو: ١: برهنت على أن وجود الطبقات لا يرتبط الا باطوار التطور التاريخي الذي يحدده الإنتاج.

٢: أن النضال الطبقي يؤدي بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتاريا.

٣: أن هذه الدكتاتورية نفسها لا تكون الا مرحلة انتقال لألغاء جميع الطبقات والأنتقال لمجتمع بدون طبقات" ذكره ماركس "انجلز" دراسات فلسفية ص ١٢٦ المطبوعات الاجتماعية.

٢٤٩ راجع لينين: "كارل ماركس" في ماركس انجلز، والماركسية ص ٣٤ المطبوعات الاجتماعية باللغات الأجنبية موسكو ١٩٤٧.

من العبث الاعتقاد بأن ماركس، وهو البرجوازي الأصل، "يكره" البرجوازية، وأن هذا "هو السبب". فقد درس ماركس تاريخ البرجوازية الرأسمالية ولاحظ أنها قامت بنضال ثوري *موضوعياً*. وأنها هي السبب في ازدهار الإنتاج الضخم وهو الشرط الأساسي لتقدم المجتمعات. ولكن عمل الطبقة الثورية يعود الآن للبروليتاريا ضد البرجوازية التي تقف في وجه التقدم الاجتماعي. فإذا كان ماركس يحاكم البرجوازية الرأسمالية فذلك بقدر ما تضع هذه الطبقة مصالحها فوق كل شيء فترتكب أقبح الشرور للمحافظة عليها.

وإذا كانت البروليتاريا، منذ الآن، الطبقة الثورية الوحيدة فليس ذلك لأن ماركس قد قرر، جرياً وراء عاطفته، أنها يجب أن تكون كذلك، بل هي كذلك *موضوعياً* بسبب وضعها التاريخي داخل الرأسمالية[٢٥٠] فلماذا هي ثورة؟

لأنها ثمرة المجتمع البرجوازي (على عكس الطبقات الأخرى من صناع وفلاحين وصغار البرجوازيين) ولا يمكنها أن تؤمن معيشتها الا بمحاربة الطبقة المسيطرة وهي البرجوازية الرأسمالية. وذلك لأن تجمع الرأسمالية يقوي البروليتاريا ويزيد عددها. ولأن البروليتاريا، لما كانت لا تملك شيئا، فأنها لا تخسر في هذه الثورة سوى أغلالها. ولأنها لما كانت مرتبطة بأحدث قوى الإنتاج، فأن الوسيلة الوحيدة لتحريرها هي القضاء على علاقات الإنتاج الرأسمالية التي تجعل قوى الإنتاج تنقلب ضد البروليتاريا، ومصلحتها إذن هي في أن تنتزع وسائل الإنتاج والتبادل الضخمة من البرجوازية لتجعل منها ملكاً للجميع، في مجتمع خال من كل استغلال، يعني هذا أن لا أمل للبروليتاريا سوى الثورة الاشتراكية.

---

250 لا يعني ذلك أن وعي البروليتاريا على هذه الحال أيضاً. إذ تحتاج البروليتاريا، كي ندرك دورها التاريخي، لمساعدة العلم الماركسي. راجع المسألة الرابعة من هذا الدرس.

وقد درس ماركس هذا الوضع واستخلص منه النتائج. فإذا دعا البروليتاريا للنضال من أجل الاشتراكية فما ذلك الا اعتماداً على قوانين التاريخ. وليست هذه الدعوة باسم فكرة سابقة كالعدالة أو الحرية؛ وأن كان على الاشتراكية أن تحرر الناس وتقيم العدالة الاجتماعية.

ماركس "لا يعظ" الناس، وأن كان النضال في سبيل الشيوعية وانتصارها يولد أخلاقية جديدة، بل هو عالم يستخلص من دراسة المجتمعات النتائج العلمية مستقلا عن مزاجه الشخصي.

ذلك هو فضل الاشتراكية العلمية الذي لا مثيل له. فهو يقضي على النظريات الخيالية لأن الاشتراكية بواسطته تهبط من السماء إلى الأرض.

وهذا ما يفسر الأهمية العالمية الدائمة للمؤلف الذي عرض فيه ماركس وانجلز لأول مرة الاشتراكية العلمية ألا وهو: بيان الحزب الشيوعي (١٨٤٧).

٤ – تأثِير الاشْتراكية العِلميَّة

أ) ـ دَمجُ الاشتراكيَّة مع الحَركة العماليَّة

لم يوجد ماركس الحركة العمالية بل هي واقع موضوعي مستقل عنه وقد بعثها وجود الرأسمالية. ولكنه أمد هذه الحركة، بوضعه للاشتراكية العلمية، بالبوصلة التي تضيء طريقها وتجعلها منيعة لا تقهر.

وهكذا تم بواسطته دمج الاشتراكية مع الحركة العمالية، ذلك لأن البروليتاريا المضطهدة، التي شغلها النضال من أجل لقمة العيش، لم يكن لديها الوقت أو الوسائل لتكوين العلم الاجتماعي والاقتصادي السياسي. فجاءها هذا العلم من *الخارج* بفضل ماركس الذي تمثل أفضل ما أنتجه الفكر الإنساني فجاءت الاشتراكية العلمية تتويجا لهذا التمثل. وهكذا تكون الاشتراكية العلمية من عمل المفكرين البرجوازيين المتقدمين. ولكن هؤلاء البرجوازيين لم يستطيعوا النجاح

بمهمتهم الا بعد الانفصال عن طبقتهم. فلماذا؟ لم تكن البرجوازية، التي كانت قد دعمت ازدهار العلوم الطبيعية، ـ وكانت هذه العلوم ضرورية للتجديدات التقنية التي كانت تستفيد منها ـ لم تكن تستطيع ـ بعد الانتصار على الإقطاعية ـ أن تشجع العلم الاجتماعي بدون أن تسيء لمصالحها كطبقة مستغلة، لأن هذا العلم كان يفضي إلى زوال الرأسمالية المحتم! فأعلنت البرجوازية الحرب على العلم الاجتماعي وكانت حرباً ضروساً أدت بها إلى شكوى الماركسية أمام المجالس القضائية في شخص انصارها وهم الشيوعيون. كما حكمت الإقطاعية في الماضي على جاليله لأنه برهن على أن الأرض تدور حول الشمس.

لم يعد الأمر معرفة ما إذا كانت هذه الفرضية أو تلك حقيقة أم لا، بل معرفة ما إذا كانت تسر أولا الشرطة، وما إذا كانت مفيدة أم مضرة للرأسمال. وحل محل البحث المجرد التضارب المأجور كما حل محل البحث الخير سوء الظن والدعاية السخيفة[٢٥١].

وقد قطع كل من ماركس وانجلز علاقتهما بطبقتهما *وناديا بوجهة نظر البروليتاريا*. ولم تكن البروليتاريا، على عكس البرجوازية، معادية للعلم قط بل أن مصلحتها الطبقية كانت تتفق موضوعياً ومصلحة الاشتراكية العلمية. ولما كانت طبقة مضطهدة فقد وجدت في الاشتراكية العلمية تفسيراً لآلامها وإمكانية للقضاء عليها.

لا بد لكل نظرية من أن تؤكدها التجربة. ولقد برهنت التجربة للعمال على فضائل الماركسية التي لا مثيل لها. كما أثبتت النظرية الماركسية، منذ قرن من الزمن أنها *التعبير الوحيد عن مصالح البروليتاريا*.

---

251 راجع ماركس "تقديم الطبعة الألمانية الثانية لرأس المال" رأس المال الكتاب الأول ج١ ص ٢٥. المطبوعات الاجتماعية.

ب) – ضَرُورَة الحِزْب الشُيُوعي ـ نَقد التلقائية

كيف تحقق دمج الحركة العمالية بالاشتراكية العلمية؟ بتكون الحزب الذي يضم طليعة البروليتاريا وينظمها، والذي يتسلح بالاشتراكية العلمية فيقود نضال طبقة العمال وحلفائها الثوري.

ذلك هو حزب الشيوعيين الذي يحدد ماركس وانجلز مهمته في "البيان الشيوعي". يحمل الشيوعيون، في الميدان العالمي وفي كل بلد، *إلى البروليتاريا فهماً واضحاً لظروف الحركة البروليتارية وسيرها وغاياتها العامة*[٢٥٢].

وضرورة مثل هذا الحزب معطى أساسي من معطيات الاشتراكية العلمية، وهو يتفق مع تعاليم النزعة المادية الجدلية والتاريخية. فلماذا؟ لأنه إذا صح أن البروليتاريا التي تستغلها البرجوازية *مضطرة مادياً* للنضال ضدها فلا يعني ذلك قط *أن وعيها اشتراكي تلقائي*. لأن نظرية التلقائية معارضة للماركسية، والنظرية الثورية علم، وليس هناك من علم تلقائي[٢٥٣].

ولقد قام لينين في كتابه *"ما العمل؟"* بنقد كلاسيكي للتلقائية؛ ويجب أن نعود لهذا النقد لأن كثيراً من الذين يخيل إليهم أنهم شيوعيون يقولون بأن الماركسية ليست سوى "غريزة طبقية". وهذا يفضي إلى المساواة بين البروليتاري المثقف والبروليتاري الذي لا يعرف أين يسدد ضرباته لأنه لا يعي وعياً صحيحاً مصلحته.

فلماذا لا تكون الاشتراكية ثمرة *تلقائية* للبروليتاريا؟ لأن النظرية الفكرية التي تعرض تلقائيا للبروليتاريا في النظام الرأسمالي، هي النظرية الفكرية البرجوازية، كالدين مثلا أو الأخلاق اللذين يلقنان في المدرسة ويدعوان

---

252 ماركس انجلز: بيان الحزب الشيوعي (٢البروليتاريون والشيوعيون) ص٢١

253 للماركسية قيمة شاملة بسبب طابعها العلمي، ولا تقتصر النظرية الماركسية على البروليتاريين. فهي بمستوى أي إنسان يريد أن يسعى جديا لفهم تاريخ المجتمعات، ولهذا يضم الحزب الشيوعي، إلى جانب المناضلين من العمال، عمالا ينتمون لطبقات وفئات اجتماعية أخرى.

البروليتاريا إلى "التذرع بالصبر" لأنه لا بد "من ثواب الفضيلة" ولا تعتمد النظرية الفكرية البرجوازية على قوة التقاليد فقط بل تعتمد أيضاً على الوسائل المادية الضخمة التي تمتلكها البرجوازية الحاكمة.

يقولون غالباً: *"تسير البروليتاريا تلقائياً نحو الاشتراكية وهذا القول صحيح بمعنى أن النظرية الاشتراكية تحدد أسباب مصائب الطبقة العمالية، لأنها أعمق وأصدق من سائر النظريات، ولهذا يتمثلها العمال بسهولة إذا لم تستسلم هذه النظرية أمام التلقائية، وإذا ما أخضعت هذه التلقائية لها.. تنجذب الطبقة، العمالية تلقائياً نحو الاشتراكية. غير أن النظرية الفكرية البرجوازية هي التي تفرض نفسها تلقائياً على العامل"*[254].

ويلاحظ لينين أن حركة البروليتاريا التلقائية لا يمكن أن تؤدي بالبروليتاري إلى ابعد من مرحلة تأليف النقابات التي نضم العمال من مختلف المعتقدات السياسية، وتهدف للنضال من أجل رفع مستوى الحياة والأجور. ولكن ليس هناك من نقابة تستطيع، بصفتها هذه، أن تحمل للعمال ما يحمله الحزب السياسي الماركسي ألا وهو أمل الثورة والعلم الثوري. وبهذا تتضح جذور الاستغلال الرأسمالي. تستطيع الاشتراكية العلمية، إذن، بنضالها المرير ضد النظرية الفكرية البرجوازية المنتشرة في كل مكان أن تجد طريق طبقة العمال. وهي مهمة يستحيل تحقيقها بدون وجود حزب يعتمد على العلم الثوري، ويتصل بالجماهير الكادحة ويحمل لهذه الجماهير الوعي الاشتراكي. مصلحة البروليتاريا الثورية تأمرها بالدفاع عن الحزب الشيوعي ضد أي هجوم وتقويته، لأن وجوده ضروري لانتصارها. أما نظرية التلقائية فهي تضع البروليتاريا تحت حماية البرجوازية.

---

254 راجع لينين: "ما العمل؟" ص ٤٤ ملاحظة. المطبوعات الاجتماعية ١٩٤٧.

لأن نظرية التلقائية هي الأساس المنطقي لكل نزعة انتهازية[٢٥٥].

يفسر دور الحزب الثوري العلمي هذه الميزات التي حددها لينين منذ خمسين عاماً. ويعجز العمال الذين يتأثرون بالنظرية الفكرية البرجوازية عن إدراك هذه الميزات. وهاك بعض هذه الميزات:

أ) للخطأ صور وأشكال عديدة ولكن العلم واحد. ومن هنا كانت وحدة المبادىء التي تميز المناضلين الشيوعيين. وليس هذا تفكير القطيع. فلقد اتفق جميع الفيزيائيين على الاعتراف بقوانين الطبيعة. ولهذا كان من العبث ادعاء عالم بأن له علمه الخاص به. وكذلك لا يتعلق علم المجتمعات بمزاج هذا العالم أو ذاك[٢٥٦]. والنتائج التي يصل إليها مستمدة من التجربة، ولهذا فهي حقائق موضوعية تصح عند الجميع. وهذا ما يفسر "وحدة" الحزب الماركسي.

ب) أن *النقد والنقد الذاتي* اللذين يخضع لهما المناضلون الشيوعيون عملهم هما شرط مطلق لتقدم العلم.

ويجب على كل علم ــ ومنه العلم الاجتماعي ــ أن يراقب مناهجه ونتائجه. وهذا مهم جداً لنجاح النضال الثوري ولمصلحة العمال. ولهذا فأن محرري جريدة *"البوبولير"* حينما يسخرون من النقد الذاتي قائلين بأنه "يدنس" الذين يستعملونه، أنما يعبرون عن امتهانهم لمصلحة العمال.

---

255 راجع ستالين: مبادىء الفلسفة اللينية ص ٢٠. المطبوعات الاجتماعية. هذه النظرية أساس كل الأفكار المناهضة للشيوعية عند بعض زعماء النقابات. فهم، في دعوتهم العمال إلى "عدم الأشغال بالسياسة" للمحافظة على "استقلالهم" وأن النزعة النقابية تكفيهم، يحولون العمال عن البحث عن أسباب الاستغلال ومحاربته (وعن وسيلته السياسية الا وهي الدولة البرجوازية). فيساعدون بذلك على استمرار البرجوازية: تلك ميزة النزعة الانتهازية التي تتخذ في بعض الأحيان "طابعا يساريا" ولا سيما في جريدة فرانك تيرور).

256 راجع حول موضوعية قوانين المجتمع ستالين مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي آخر المؤلفات. المطبوعات الاجتماعية ١٩٥٣.

ج) *الإدارة الجماعية* ضرورة علمية أيضاً في جميع مستويات الحزب الثوري. ذلك لأن قراراً ما أو شعاراً ما لا يمكن أن يعكسا تماماً مصالح الحركة الا إذا كانا نتيجة لنقاش جماعي يشترك فيه جميع المناضلين فيحمل كل منهم معه التجربة التي استفادها من اتصاله بالجماهير ويعمم الحزب في مجموعه كل هذه العلاقات. *النظرية هي تجربة الحركة العمالية في جميع البلاد في صورتها العامة*[257].

أوليس من الطبيعي أن يكون هذا التعميم، الذي يعكس مختلف مظاهر الحركة لزمن معين، قانوناً لكل مناضل؟

٥ ــ الخلاصة

استطاعت الطبقة العاملة، منذ مئة عام، أن تقدر بُعد نظرة الاشتراكية العلمية وقدرتها على التنبؤ. كما أن العمال أخذوا يتمثلون بعمق هذا العلم وغذوه بتجربتهم. ويحفظ هذا الاتصال الدائم بين *النظرية والتطبيق العملي* الاشتراكية العملية من الشيخوخة. كما يظهر بهذا طابعها العلمي لأن العلم الحقيقي في تقدم مستمر.

وأن ما حققته الاشتراكية العلمية من تقدم في النظرية والتطبيق، بعد مضي قرن من الزمان، لمدهش حقا. وهكذا تتحقق جملة ماركس: "*تصبح النظرية قوة مادية متى ما تسربت إلى الجماهير*[258]."

ولقد عرف كبار خلفاء ماركس كانجلز ولينين وستالين كيف يسلحون الاشتراكية العلمية بتعميمات جديدة والاستغناء عن النظريات التي لم تعد تلائم

257 راجع ستالين: "من مبادىء الفلسفة اللينينية" ص١٨

258 راجع ماركس: نقد فلسفة القانون عند هيجل.

الوضع التاريخي مثال ذلك: دخلت الرأسمالية، في مطلع القرن العشرين، في طورها الاستعماري. فاعتمد لينين على مبادىء الاشتراكية وحلل الظروف الموضوعية التي سببها الاستعمار للحركة العمالية. واكتشف قانون نمو البلاد الاستعمارية غير المتساوي، وانتهى إلى هذه الخلاصة الجديدة: وهي إمكانية الثورة في أن تنتصر على جبهة الرأسمالية العالمية، في اضعف مواضعها، وهكذا تنتصر الاشتراكية، في بادىء الأمر، في بلد أو بضع بلاد[٢٥٩] كما حدث في روسيا عام ١٩١٧ ثم في بلاد أخرى فيما بعد.

ولقد تم بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ثم السير نحو الشيوعية بقيادة ستالين، وانتصارات الديمقراطيات الشعبية الرائعة، وهي صورة جديدة لدكتاتورية البروليتاريا ــ تم كل ذلك على ضوء الاشتراكية العلمية. وهو ضوء يرتجف منه سماسرة العالم القديم.

يجب أن نحصي، أمام هذا الإحصاء لألوان النضال والانتصار، أسماء الذين حاربوا الاشتراكية العلمية داخل الحركة العمالية.

بدأنا، في هذا الدرس، بالاشتراكية الخيالية، ودللنا على أن ماركس قد رفض نظريات الخياليين ليعتمد على الإلهام الاشتراكي. فكيف كان ذلك؟ بأنه جعل النضال الطبقي في المكان الأول وهو العامل في الانتقال إلى الاشتراكية.

ولقد قام أعداء الماركسية، منذ برودون وبلوم، بعكس ذلك تماماً. فقد كانوا عبيداً للبرجوازية، وظلوا يدعون البروليتاريا إلى التعاون الطبقي وأن لوحوا لها، لتخديرها، بنظرياتهم الخيالية، وهكذا أراد زعماء العالمية الثانية، في مطلع الاستعمار، الذين جعلوا من أنفسهم مصلحين للاشتراكية العلمية (ومن هنا نشأت اسم المصلحين) أن يقنعوا العمال بأن النضال الطبقي يمكن أن يزول لأن

---

259 كان الماركسيون يعتقدون حتى ذلك الحين أن الاشتراكية سوف تنتشر في جميع البلاد الرأسمالية دفعة واحدة.

الرأسمالية ستتحول من نفسها إلى اشتراكية ومن ثم كان على بلوم أن يقدم خضوعه للاستعمار الأميركي على أنه أول مرحلة من مراحل الاشتراكية.

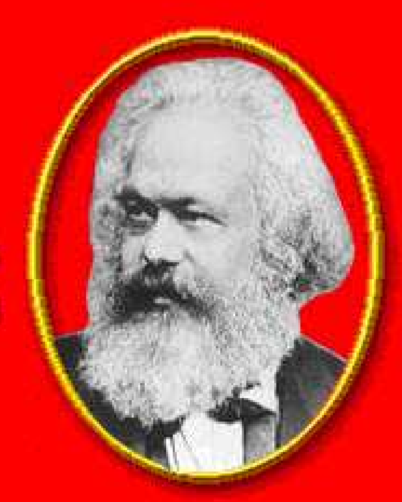
وفي الحقيقة فأنه في اليوم الذي تكونت فيه الاشتراكية العلمية فقد أصبحت كل اشتراكية خيالية رجعية. لأن عمل مثل هذه النظرية لا يمكن أن يكون الا عمل *الهاء* يهدف لفصل البروليتاريا عن النضال الطبقي. والطريق الثوري الوحيد هو طريق الاشتراكية العلمية. أما الأحلام الخيالية فلا يمكن أن تكون من ثم سوى سم ضد الثورة.

ومن هنا ظهرت حقيقة كبرى: كانت الانتصارات الضخمة التي حدثت بفضل الاشتراكية العلمية انتصارات لهذه الاشتراكية ضد أعدائها في الحركة العمالية. ولهذا فليس النضال القاسي ضد الأفكار المناهضة للماركسية مظهراً ثانوياً من نضال البروليتاريا العالمي. *بل هو مظهر ضروري* لأن عدم النضال لانتزاع العمال من تأثير نزعات برودون والإصلاح وبلوم القاتل هو وأد للمستقبل. ولقد ضرب كل من ماركس وانجلز المثل على ذلك: فلقد قاما، طيلة حياتهما، بحرب لا هوادة فيها ضد الاشتراكيين المزورين الذين هم أفضل حلفاء الرأسمالية.

فهرس

أصول الفلسفة الماركسية

تاليف
جورج بوليتزر
و
جي بيس
موريس كافين



تعريب
شعبان بركات
ليسانسيه في الآداب

الجزء الثاني

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

القسم الرابع

أصول الفلسفة الماركسية

المادة التاريخية

2

تأليف

جورج بوليتزر

جي بيس ، موريس كافين

تعريب

شعبان بركات

ليسانيه في الآداب

منشورات المكتبة العصرية

صيدا – بيروت

الدرس الخامس عشر

الإنتاج:

القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاجية

1 – ظروف حياة المجتمع المادية.

أ) البيئة الجغرافية.

ب) السكان.

2 – طريق الإنتاج.

أ)القوى الإنتاجية.

ب)علاقات الإنتاج.

3 – ملكية وسائل الإنتاج.

4 – تغير طريقة الإنتاج مفتاح تاريخ المجتمعات.

5 – الخلاصة.

1 – ظروف حياة المجتمع المادية

رأينا في القسم الثالث من هذا الكتاب ما هي نتائج النزعة المادية الجدلية إذا ما طبقناها على تاريخ المجتمعات و درسنا كيف تعكس حياة المجتمع الروحية ظروف حياته المادية. ولكن هناك سؤال يعرض لنا وهو: ماذا يجب أن نفهم، حسب نظرة النزعة المادية التاريخية، من "ظروف حياة المجتمع المادية" أن الظروف المادية أي الظروف الموجودة مستقلة عن إرادة الناس التي توفرها لنمو المجتمع، متعددة ومتفاعلة.

فما هي، بين ظروف حياة المجتمع المادية، القوة الرئيسية التي تحدد وجه المجتمع وطابع نظامه الاجتماعي، وتطور المجتمع من نظام إلى نظام آخر[1]؟

ادعى البعض أن هذه القوة الرئيسية هي البيئة الجغرافية، وقال آخرون أنها ازدياد السكان. فهي أما أن تكون القضاء المحتوم الناتج عن ازدياد السكان.

فليس أمام المجتمع، كي يعيش سوى حلين عند الحاجة:

أما أن يغير الأرض، كما تفعل القبائل الرحل فتغزو أراضي جديدة، وأما أن يقلل من عدد سكانه، مستخدما الخصي EUGENIME كما كان يفعل الإسبارطيون القدماء1 وأما باهلاك الأفواه التي لا فائدة منها كالعجز والمقعدين والمرضى والمجانين، كما كانت تفعل بعض القبائل البدائية.

وتجمع حرب الغزو والأفناء الجماعي للسكان بين هذين الحلين. فلقد كان الخصي وإفناء المعتوهين يصحبان عند الهتلريين، نظريا وعملياً، عقيدة "المجال الحيوي"

تزدهر نفس النظريات البربرية الآن في أمريكا 2 وتنحط هذه النظريات بالإنسان إلى مرتبة الحيوان، إذ حينما يعيش نوع حيواني على أرض ذات مساحة معينة ولها إمكانيات غذائية معينة، تنشأ "قوانين للإسكان" تسمح بالتنبؤ بتغيرات النوع. ويمكن لنقص الغذاء وضرورة استهلاك غذاء مختلف أن يؤديا إما لزوال النوع أو تحوله.

ولكن الإنسان يختلف عن الحيوان: فهو يعمل ويناضل ضد الطبيعة. ولا يجب أن ننسى الجدلية: فليس هناك الطبيعة من جهة والناس من جهة ثانية، الجغرافية من ناحية، والبيولوجيا من ناحية ثانية، فيؤثر كل منهما تأثيرا سيئاً.

يكذب هذه الفكرة التطبيق العملي للإنسانية التي حولت الأرض لخدمتها عبر آلاف السنين.

ا ـ البيئة الجغرافية

البيئة الجغرافية، بما فيها من طبيعة تحيط بالمجتمع ومناخ ومصادر طبيعة وسهولة مواصلات، وأراض، هي شرط ضروري دائم لحياة المجتمع المادية. ولهذا كان من البديهي أن تؤثر على نمو المجتمع: فهي أما أن تعمل على هذا النمو أو أن تعيقه. فلقد

[1] راجع ستالين: "النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية" 2، ص 19.

عملت سهولة استخراج الفحم الحجري في انجلترا على نمو الصناعة في هذه البلاد. بينما وجود المستنقعات التي تتطلب أعمال التجفيف، أو وجود الصحراء التي تحتاج للري أو فقدان البترول كل ذلك ظروف يمكن أن تعميق نمو منطقة من المناطق.

غير أن تأثير البيئة الجغرافية ليس *مبرماً*. والدليل على ذلك أن التغيرات في المجتمع تتم بصورة أسرع من التغيرات في البيئة الجغرافية. فلو أن البيئة الجغرافية تؤثر تأثير مبرماً على تاريخ المجتمعات لوجب أن تحفظ هذا التاريخ بنفس المعالم طالما أن البيئة الجغرافية لم تتغير تغيراً أساسياً. بينما عرفت أوروبا خلال ثلاثة ألاف سنة أربعة أو خمسة أنظمة اجتماعية مختلفة: نظام الكومون البدائي، ونظام الرق، والنظام الإقطاعي وأخيراً النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي. ولم تتغير ظروف أوروبا الجغرافية تقريباً خلال هذه الفترة من الزمن.

والنظام الاجتماعي، بالعكس، هو الذي يحدد تحول البيئة الجغرافية. إذ أن نظام الرق القديم استنفذ أرض حوض البحر المتوسط ودفع إلى غزو الجول وتسوية أرضها. كما أن البرجوازية التجارية الهولندية قد انتزعت، في فجر الأزمنة الحديثة جزءاً من بلادها من مياه البحر. ولقد حولت الرأسمالية القائمة على التبادل الحر حقول القمح الإنجليزية إلى مراع للقطعان، وكذلك قضت الرأسمالية على الغابات في مناطق كاملة من أوروبا، فعملت بذلك على انتشار الطوفانات، كما أفقرت الأراضي الزراعية وحولت مناطق بأجمعها في الولايات المتحدة إلى بواد قفراء. بينما تقوم ورشات العمل في روسيا الشيوعية، بإخصاب الصحاري وتحويل مجاري الأنهار، وتحسين المناخ. ولقد أوجد العلم التقدمي، بعد دراسته لقوانين نمو الأراضي، الزراعة القطبية، وأحيا "الأراضي السوداء" الشهيرة، كما اكتشفت قوانين تطور المناظر[2].

وكذلك قضت الديمقراطية الشعبية في الصين على مصائب فيضانات الأنهار الكبرى.

تحتج الطبقات الرجعية "بالبيئة الجغرافية" للتخلص من مسؤولياتها في المصائب العامة. فإذا كانت سدود هولندا قد تداعت عام 1953 فما ذلك ألا لأن البرجوازية الرجعية أبت أن تسحب فلساً من ميزانية الحرب لإصلاح هذه السدود.وإذا كانت الجماهير الفقيرة في

---

[2] راجع سامنوتوف: الأرض المزهرة. الجزء. الثالث "خلق الحياة الناشرون الفرنسيون المتحدون.

اليونان لم تحظ بالمعونة ضد الزلازل، وفي ايطاليا ضد الفيضانات فسبب ذلك سياسة البرجوازية الطبقية وليست "البيئة الجغرافية".

يدعي المؤرخون الاجتماعيون الديمقراطيون، الذين يريدون إخفاء العامل الحقيقي في التطور الاجتماعي، أنهم يفسرون التاريخ بواسطة "البيئة الجغرافية". وليس هدف هذه النزعة المادية الفجة إلا أن تقنعنا بأزلية "مدنية" غريبة أو أطلنطية مزعومة وتعارض "الشرق" و "الغرب" وتبرير الحرب الباردة.

ب ـ السكان

السكان، نموهم وكثافتهم، كل ذلك بدون شك عناصر ضرورية من بين ظروف حياة المجتمع المادية، إذ لا يمكن لأي مجتمع أن يوفر حياته المادية بدون حد أدنى من الناس وأن يقف في وجه قوى الطبيعة. وعدد السكان الفعالين من العناصر التي يجب أن نحسب حسابها لتقدير القوى الإنتاجية. لأن نمو السكان يؤثر في النمو الاجتماعين فهو يسهله أو يعيقه. وهكذا فأن تدفق الأيدي العاملة، التي هاجرت إلى الولايات المتحدة، قد ساعد على النمو السريع للصناعة الضخمة التي لم يمكن قد مضى قرن على وجودها. كما أن أفناء جزء من سكان أميركا الشمالية من الهنود على يد المستعمرين الانجلو سكسون، قد ساعد على ركود القبائل الباقية التقني والاقتصادي.

ولكن هذا التأثير نفسه ليس *فاصلا*، والدليل على ذلك أن نمو السكان نفسه لا يمكن أن يفسر لنا لماذا يخلف نظام اجتماعي معين نظاماً اجتماعياً ولا يخلفه نظام آخر، فخلف نظام الرق النظام الإقطاعي وهذا النظام الإقطاعي قد خلفه النظام الرأسمالي. فلو أن نمو السكان يؤثر تأثيرا قاطعا لكان على البلاد التي بلغت أضخم كثافة من السكان أن تتمتع بأفضل نظام اجتماعي. فقد كانت كثافة السكان في بلجيكا عام (1939) 26 مرة أعلى منها في الاتحاد السوفياتي، ومع ذلك لا تزال بلجيكا في مرحلة الرأسمالية بينما الاتحاد السوفياتي قد انتهى من هذا النظام.

والنظام الاجتماعي، على العكس، *هو الذي يفسر حركة السكان*. فليس من الصعب أن ندرك أن الرأسمالية في خفضها لقوة الجماهير الشرائية، وإفقار العمال، وفرض حياة

بائسة عليهم تزيد من نسبة الموت (ولا سيما بين الأطفال). وأما في الاتحاد السوفياتي، حيث تتعارض ظروف الحياة الاشتراكي مع ظروف الحياة الرأسمالية، فلقد ازداد عدد السكان بين 1949 – 1952 بما يقرب من العشرة ملايين، أي بما يساوي سكان بلجيكا والقطاع الشمالي معاً.

ولهذا فأن الاقتصاديين البرجوازيين، حين يعتمدون في تحاليلهم على حركة السكان ١، دون أن يدركوا أن هذه الحركة في الواقع هي نتيجة يرتكبون في ذلك خطأ جسيماً.

ولهذا فليست البيئة الاجتماعية ولا نمو السكان هما اللذان يحددان طابع النظام الاجتماعي وتطور المجتمع من نظام إلى آخر.

وترى النزعة المادية التاريخية أن بين ظروف حياة المجتمع المادية قوة أخرى مستقلة في وجودها عن أرادة الناس وهي القوة الرئيسية للتطور الاجتماعي. وتتكون هذه القوة من طريقة الناس في الحصول على وسائل معاشهم، ألا وهي الوسائل المادية الضرورية للحياة. وهذا ما يسمى *بطرية الإنتاج للوسائل المادية*.

2 – طريقة الإنتاج

ليس هناك شيء آخر سوى الطبيعة والناس. ولقد رأينا أن كلا من هذين العنصرين لا يمكن أن يفسر، لوحده نمو المجتمعات بل أن اتحادهما الجدلي هو الذي يمدنا بالجواب. وهذا الاتحاد الجدلي هو العمل *والإنتاج*. إذ لا يمكن للمجتمع أن يعيش أو ينمو بدون العمل والإنتاج. وليس هذا قضاء إليهاً محتوما بل هو الشرط الموضوعي لكل وجود إنساني.

وأمام المجتمع طرق عديدة للحصول على وسائل المعيشة الضرورية. فهو يمكنه مثلا أن يستخدم آلاف المصانع اليدوية أو يستخدم الآلات أو الحيوانات أو الأرقاء. ولهذا يجب أن ندرس الطريقة التي يتم بها الإنتاج أو طريقة الإنتاج.

يفهم البرجوازي الصغير، حين نتحدث عن طريق الحصول على الوسائل المادية الضرورية للعيش , الظروف التي نشتريها بها في السوق. ولكن هذا يتعلق *بالتوزيع*

والاستهلاك وليس بالإنتاج مطلقاً. ومن البديهي أنه لا يوجد توزيع أو استهلاك بدون الإنتاج.

ا ــ القوى الإنتاجية

يحتاج الإنسان إلى الغذاء والثياب والأحذية والمسكن والمحروقات في معاشه. ويجب أن ينتج المجتمع هذه الوسائل المادية لكي يستطيع الحصول عليها. ويحتاج المجتمع في إنتاجها لآلات خاصه، فيجب أن يعرف كيف يصنع هذه الآلات وكيف يستعملها.

يؤدي بنا، إذن تحليل القوى التي تساعدنا على الحصول من الطبيعة على معيشة المجتمع، إلى أن نميز بين:

- *آلات الإنتاج* التي تنتج بواسطتها وسائل الحياة المادية (ولا تحتوي هذه الوسائل على وسائل الأستهلاك بل آلات الإنتاج نفسها).
- *الناس* الذين يستخدمون الآلات (ولا سيما عددهم) والذين لا يمكن استعمال هذه الآلات بدونهم.
- *تجربة الإنتاج* التي اكتسبتها الأجيال المتتابعة: التقاليد المهنية، المعارف التقنية والعلمية. فمن الصعب مثلا أن نستغني، في وقت قصير، عن التجربة التي تجمعت في صناعة الحرير في ليون.
- عادات العمل الخاصة بكل عامل، صفته، مهارته إذا نظرنا إلى هذه القوى المادية في *مجموعها* وتفاعلها تكون لنا منها *قوى الإنتاج*.
- فما هو العنصر الأساسي الذي يسمح بتحديد حالة قوى الإنتاج؟ هي آلات الإنتاج. لأن طبيعة هذه الآلات هي التي تحدد عدد الناس الضروري لإتمام عمل معين، والمعارف التقنية الضرورية، وعادات العمل التي يكتسبها المنتج باستخدامه لها. كما أن طابع العمل اليدوي وطابعة الفكري يتعلقان بطبيعة وسائل الإنتاج.
- *ذلك لأن تطور قوى الإنتاج مشروط بتطور وسائل الإنتاج*، فقد كانت هذه الوسائل، في أول الامر، عبارة عن حجارة ضخمة بدائية، ثم أصبحت سهاماً

مما ساعد على الانتقال من الصيد إلى تأليف الحيوانات وتربية القطعان عند البدائي، ثم ظهرت الآلات المعدنية التي ساعدت على الانتقال إلى تطور الزراعة، وبعد ذلك حدثت اختراعات جديدة ساعدت على صنع المواد، كصناعة الخزف POTERIE وصناعة الحديد ثم تطورت المهن. وتم انفصالها عن الزراعة، ومن ثم ظهرت الصناعات اليدوية التي تمتاز بتقسيم العمل إلى مهام جزئية لصنع منتوج معين[3] ، وبعد ذلك تم الانتقال من وسائل إنتاج الصناعة اليدوية إلى الآلة التي ساعدت على التطور من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية والمصنع والصناعة الضخمة الإلية الحديثة بظهور الآلة البخارية والطاقة الكهربائية.

- ذلك هو عرض مختصر *لنمو قوى الإنتاج* على ممر تاريخ الإنسانية.
- ونلاحظ أن هذا النمو هو أصل *تقسيم العمل* بين الناس، ولا سيما التقسيم الأول الكبير للعمل بين الصيادين البدائيين وصيادى الأسماك وبين القبائل التي تقوم بتربية المواشي ثم الزراعة.
- وأما التقسيم الثاني للعمل *بين المهني والزراعة* فقد أدى بالضرورة إلى وجوب تبادل المنتوجات بين الزراع وبين العمال اليدويين المهنيين والبحث عن توزيع آخر غير التوزيع العائلي. وهكذا ظهرت في ظروف معينة، سنحددها فيما بعد السلعة[4] ، كما أن هذا التقسيم الثاني للعمل هو أصل الاختلاف التدريجي بين القرية والمدينة (وهذه الاخيرة ضرورية كمركز للإنتاج ومصدر للتبادل).
- وأخيراً أثر تطور وسائل الإنتاج على مظاهر قوى الإنتاج الأخرى: لا شك أن تطور وسائل الإنتاج وكما لها قد تما على يد الناس الذين لهم علاقة بالإنتاج ولم يحدث ذلك بعيدا عن الناس. ولهذا ففي الوقت الذي تغيرت فيه وسائل الإنتاج تغير *الناس – وهم العنصر الأساسي في قوى الإنتاج – أيضا وتطوروا.*

---

[3] هذه هو العمل الجماعي الذي يتالف من الجمع بين عدد كبير من العمال الذي يميز عصر الصناعة اليدوية. (ك. ماركس: رأس المال، الكتاب الأول2 ص 39).

[4] راجع الدرس الثاني، المسألة الثانية.

فتغيرت ذلك تجربتهم الإنتاجية وعاداتهم في العمل ومقدرتهم على استخدام وسائل الإنتاج وتطورت[5].

- فاضطرت البرجوازية الرأسمالية، تلبية لحاجات الصناعة الضخمة الحديثة، إلى تعليم العمال القراءة والكتابة والحساب، كما اضطرت إلى تنظيم التعليم الابتدائي *المجاني الأجباري* وفتح بعض المدارس المهنية.
- ولقد حاول ليون بلوم أن يدخل النزعة المثالية من جديد فادعى أن الآلات لا يمكن إتقانهاإلا بفضل اختراعات *الفكر* الإنساني، ولهذا فأن الفكر هو أصل تقدم قوى الإنتاج ولكننا نعرف كيف تتولد الأفكار من التطبيق العملي نفسه: وذلك أن أفكار الإتقان تتولد بفعل حاجات الحياة المادية فهي تظهر عند استعمال آلة من الآلات.
- والآلة هي الواسطة بين الإنسان والطبيعة، ووظيفتها أنها تساعدنا على تحويل الأشياء الطبيعية إلى أشياء يمكن أن يستعملها الإنسان. ولهذا تعكس الآلة متطلبات المادة التي يجب معالجتها (لا يعالج النحاس بنفس الآلات التي يعالج بها الصلب) ولتطلبات الإنسان الحياتية، أي صفات الشيء الذي يجب أن يقوم بخدمته و الذي يجب صنعه (ولهذا اختلفت الآلات باختلاف المهام).

تعبر الآلة، في المظهر الأول، عن خضوع الإنسان للضرورة الطبيعية، بينما هي تعبر في المظهر الثاني عن خضوع الطبيعة لحاجات الإنسان وعمله، أي *لحرية* الإنسان. تعبر الآلة إذن بصورة جدلية، عن النضال بين الإنسان والطبيعة.

وأما قوى الإنتاج فهي تعبر عن مسلك الناس نحو الأشياء وقوى الطبيعة التي يستخدمونها لإنتاج منتوجات مادية[6] *فبماذا ينتج الناس؟ هل ينتجون بواسطة المحراث البدائي أم بواسطة المحراث المتعدد السكك؟*

---

[5] راجع ستالين: النزعة المادية التاريخية 3 ت ص 23 – 24.
[6] راجع ستالين: نفس المرجع، 13 ص 20.

تلك هي المسألة الأولى التي يثيرها تحليل طريقة الإنتاج ألا وهي مسألة مستوى قوى الإنتاج.

ب ـ علاقات الإنتاج

الإنتاج هو نضال الإنسان ضد الطبيعة. ولكن الإنسان لا يناضل قط لوحده لأنه إن فعل ذلك فشل وعاد القهقرى إلى حالة الحيوان. ولهذا يناضل الناس سوية ضد الطبيعة. فمهما كانت الظروف فالإنتاج دائماً هو إنتاج *اجتماعي*. لأن المجتمع هو الذي جعل الإنسان ما هو عليه، وهو الذي أنقذه من حالة الحيوانية.

ولهذا فإن خطأ الاقتصاد السياسي البرجوازي الأساسي هو التحدث عن النشاط الاقتصادي عند رجل وحيد يشبه روبنسون كروزوه أو آدم، وهذا الإنسان لم يوجد قط، بل هو ضرب خيال ميتافيزيقي. ولهذا لم نبدأ نحن بالحديث عن المنتوجات المادية الضرورية للفرد بل عن المنتوجات الضرورية *للمجتمع* في مجموعة.

فإذا كان للإنتاج دائما طابع اجتماعي فلا بد من أن تنشأ بعض العلاقات بين الناس بصدد هذا الإنتاج. وليست هذه العلاقات علاقات أفلاطونية بل هي علاقات تتصل بالإنتاج وتخضع له. وليس هناك فقط علاقات الناس بالطبيعة (قوى الإنتاج) بل هناك علاقات الناس فيما بينهم خلال عملية الإنتاج، ونسمى هذه العلاقات بين الناس *علاقات إنتاج*.

ويمكن لعلاقات الإنتاج بين الناس أن تكون أنواعا متعددة:

يمكن للناس أن يجتمعوا بحرية للقيام معا بعمل مشترك كبناء بيت مثلا فتنشأ بذلك علاقات تعاون و تعاضد بين أناس أحرار من كل استغلال.

- ولكن يمكن لإنسان أيضاً، في بعض الظروف، أن يضطر أخاه الإنسان للانتاج من أجله: فيتغير بذلك طابع الإنتاج تغييرا سياسيا، فتصبح علاقات سيطرة وخضوع ويظهر استغلال عمل الآخرين.
- وأخيرا يمكن أن نلقى، عبر التاريخ، مجتمعات يوجد فيها هذان النموذجان: أحدهما في طريق الزوال والآخرة في طريق الاشتداد فتنشأ علاقات فترة انتقال من صورة لأخرى.

ولكن مهما كان نموذج علاقات الإنتاج فإن هذه العلاقات عنصر ضروري للإنتاج. ولنكتف الآن بمثال بسيط فنقول أن الإنسان الذي يعمل من أجل نفسه لا يعمل كالذي يشتغل من أجل الآخرين. ولقد بلغ من صحة هذا الأمر أن المستغلين يحاولون دائما تغطية الاستغلال تحت ستار تعاون مزعوم وإيهام المستغلين بأن علاقات الاستغلال هي علاقات تعاون "عائلي" وهذا ما يسمى Paternalisme فيقولون للعمال: "دافعوا عن مصالح صاحب العمل فسوف تنالون الأجر على ذلك في الآخرة!".

ولكن إذا كان طابع علاقات الإنتاج عنصرا أساسيا في الإنتاج، فإن هذه العلاقات لا تتفق *والفكرة* التي يمكن أن نكونها عنها. وكان ليون بلوم يقول، منافقا أنه لا يفهم بماذا تزيد العلاقات الاقتصادية بماديتها على سائر العلاقات. ونحن نعلم أن المادية تعني الوجود بعيدا عن إرادة الناس ووعيهم، والإنتاج بالنسبة للناس ضرورة موضوعية لا يمكن أن تتم إلا ضمن نطاق المجتمع كما هو كائن. مثال ذلك أن من لا يملك أي شيء من المنتوجات *المادية* الضرورية للحياة مضطر، ماديا، للعمل من أجل الآخرين، خاضعا ليسيطرة الاخرين و هكذا ليس الاستغلال ((فكرة)) و إنما هوً واقع موضوعي يؤثر في الإنتاج.

ولا يؤثر الناس في الإنتاج على الطبيعة فقط، بل يؤثر أيضاً كل منهم في الآخر. فهم لا ينتجون إلا بالتعاون بصورة معينة، متبادلين نشاط كل منهم فيما بينهم. فهم يقيمون في سبيل الإنتاج، علاقات معينة بعضهم مع بعض، ويتحدد تأثيرهم في الطبيعة، أي الإنتاج، في حدود هذه العلاقات الاجتماعية[7] .

لا يمكن، إذن، فصل قوى الإنتاج عن طابع علاقات الإنتاج، لأن قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج "مظهران" لا ينفصلان عن طريقة الإنتاج التي " تجسد" حسب تعبير ستالين، وحدتهما الجدلية في عملية إنتاج منتوجات المادية.

وإنه لمن الخطأ الأساسي أن نجعل من دراسة الإنتاج دراسة قوى الإنتاج فقط. ولقد ارتكب هذا الخطأ، مع ذلك، الذين يعتقدون أن الماركسية تقوم على تفسير

---

[7] راجع ك. ماركس: العمل المأجور والرأسمال، يتبعه الأجر والسعر والمربح.

تطور المجتمعات بواسطة تطور قوى الإنتاج فقط، ويتغاضون عن طبيعة علاقات إنتاج. ولهذا فإن تفسير العالم الحديث بواسطة آلة البخار وإهمال تحليل علاقات الإنتاج الرأسمالية لا يدل على إيمان بالمادية بل هو تشويه لها. كما أن تعليم أطفال المدارس التقدم التاريخي للوسائل التقنية والتغاضي عن تعليمهم ما هية الاستغلال الرأسمالي خداع لهم وتقرير الماضي والحاضر والمستقبل تقريراً خاطئاً لهم.

ويرتكب نفس الخطأ أولئك الذين ينسون التقدم الاجتماعي وتقدم علاقات الإنتاج فلا يرون في "التقدم" سوى التقدم التقني. ذلك كان وهم البرجوازية في القرن التاسع عشر.وبهذا نشأت خيبة أمل مريرة لأن التقدم التقني العلمي يمكن أن يخدم أعمال السلام كما يخدم أعمال الحرب، إذ أن الآلة يمكنها أما أن تقضي على العامل أو تحرره، حتى إذا ما أخذت الرأسمالية بالانحطاط، في عصر الاستعمار، وكشفت عن جروحها المزمنة من فقر واضطهاد وحرب، مستخدمة أحدث الوسائل في التقتيل، أعلن الخياليون من أنصار "التقنية" بإفلاس التقدم وحملوا الآلة مسؤولية المصائب التي يولدها رأس المال! ويكرس بعض علماء الاجتماع البرجوازيين أنفسهم لمثل هذه السفسطة ألا وهم دعاء "علم الاجتماع الصناعي" ولا سيما زعيمهم جورج فريدمان فيتبنون وجهة نظر "أصحاب العمل" ويتظاهرون بالبحث عن سبب موقف العامل "السلبي" في بلاد الرأسمالية، أمام العمل، فإذا به النزعة الآلية، بينما السبب الحقيقي هو استخدام الآلات الرأسمالي من أجل الإنتاج الرأسمالي وزيادة الاستغلال. يقول ماركس أن قوى الإنتاج لا تؤثر ألا في حدود علاقات الإنتاج. ولهذا فإن استخدام الآلة، في الاتحاد السوفياتي حيث زالت علاقات الاستغلال، لا يمكن أن يكون له سوى نتائج طيبة بالنسبة للعامل.

لا تختصر الآلات، في روسيا، العمل فقط، بل هي تسهل في نفس الوقت، العمل للعمال. ولهذا يستخدم العمال الآلات عن طيبة خاطر في عملهم لأنهم يعيشون في ظروف اقتصاد اشتراكي، على عكس ما يجري في ظروف الرأسمالية [8]

تنظر النزعة المادية التاريخية إلى طريقة الإنتاج في مجموعها وفي وحدتها: علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج. ولما كانت قوى الإنتاج لا تؤثر إلا في حدود علاقات الإنتاج فإننا نسمي، عادة مختلف طرق الإنتاج *بطابع علاقات الإنتاج التي تسيطر عليها*، حين نتحدث عن طريقة الإنتاج نريد بذلك القول بأن علاقات الإنتاج الإقطاعية كانت مسيطرة عليها، وكانت تطبع الحياة الاجتماعية بطابعها. ولا نعني بالضرورة القول بأنها كانت العلاقات الوحيدة. كما أنه ليس من العلم في شيء أن تسمى عصراً تاريخياً بالنسبة لحالة قوى الإنتاج كقولنا العصر الحجري والعصر المعدني وعصر الآلة البخارية أو العصر الذري.

3 – ملكية وسائل الإنتاج

رأينا، حين درسنا قوى الإنتاج (المسألة الثانية أ) أن وسائل الإنتاج هي العنصر الأساسي فيها. وذلك لأن طبيعة وسائل الإنتاج هي التي تحدد، في الحقيقة، *مستوى قوى الإنتاج*.

فلننظر الآن ما هو الأهم في علاقات الإنتاج. وما هو العنصر الذي يحدد طابعها؟

تلك هي *خاصية وسائل الإنتاج*.

من الواضح أن من يفتقد إلى هذه الوسائل لا يمكنه أن يعيش إلا إذا قبل سيطرة من يمتلكها.

---

[8] ج. مالنكوف "تقرير للمؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. كراسات الشيوعية 0عدد خاص) تشرين الثاني سنة 1952 ص 113.

ولا يجب أن نخاط بين وسائل الإنتاج وبين منتوجات الاستهلاك (كالأثاث، ومنازل السكن، والسيارة العائلة) ونعني بوسائل الإنتاج كل ما هو ضروري للإنتاج.

فما هي، مثلا، وسائل الإنتاج في المجتمع الحديث؟ أولا الخيرات الطبيعية (كالأرض والغابات والمياه وباطن الأرض، والمواد الأولية) ثم وسائل الإنتاج التي تساعد على تحويل هذه الخيرات الطبيعية، ثم المنشآت الضرورية للإنتاج كأبنية المصانع ومنشآت المناجم، ووسائل النقل والاتصال. يضاف إلى ذلك وسائل التبادل بين أعضاء المجتمع، كالمنشآت الضرورية للتوزيع وللتجارة (المستودعات. مخازن البيع) ومؤسسات القروض 0كالمصارف).

والسؤال الذي نسأله اذا ما أردنا تحديد طابع علاقات الانتاج هو السؤال التالي: *من يملك وسائل الإنتاج؟ هل هو المجتمع بأكمله؟* أم الأفراد أو الفئات التي تستخدمها لاستغلال أفراد آخرين وفئات أخرى؟والاجابة على ذلك هي توضيح حالة علاقات الإنتاج وحالة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الناس.

ندرك إذن أنه إذا كانت وسائل الإنتاج ملكا للمجتمع بأكمله يمكن أن تكون العلاقات بين الناس علاقات تعاون وتعاضد.

وأما الذين لا يملكون أية وسيلة للإنتاج فلن يستطيعوا العيش إلا إذا وضعوا أنفسهم في خدمة من يملكها. فيشتغل البعض ويستغل الآخرون هذا العمل. لأن التعاون لا يوجد إلا بين الذين يقومون بنفس الدور في الإنتاج فيكون *تعاونا طبقياً.*

ينقسم المجتمع، إذن إلى *طبقات اجتماعية متناقضة.*فتكون *الملكية الخاصة* لوسائل الإنتاج.

ونعني بالطبقة الاجتماعية مجموعة من الناس يقومون في الإنتاج بدور مماثل، وتجمعهم علاقات مماثلة بالنسبة للآخرين (لينين)[9] .

[9] سنعود إلى تفصيل القول عن فكرة الطبقة الاجتماعية في الدرس السابع عشر.

ليس لتعبير "الطبقة الاجتماعية" أي معنى إلا على *مستوى علاقات* الإنتاج إذ تتحدد هذه الفكرة بنموذج الملكية أو بانعدام الملكية. ولا يجب أن نخلط هذه الفكرة بالمقولات الاجتماعية، التي تتحدد بواسطة التقنيات، والمهن وأوجه النشاط الاجتماعي الضرورية لحياة المجتمع. مثال ذلك عامل المعدن، وعامل المنجم أو عامل القطار. أن يكون المرء "فلاحا" هو أن ينتهي لمقولة اجتماعية، غير أن هذا لا يحدد الطبقة التي ينتهي إليها. إذ يمكن أن يكون المرء ملاكا للأرض كبيرا رأسمالياً ("فلاح ذو أياد بيضاء") أو ملاكا مستغلا بمساعدة عمال زراعيين. أو ملاكا لاستغلال عائلي، أو عاملا زراعيا[10] الخ.

وكذلك ليس "صاحب العمل" في المصنع هو المدير أو المهندس بل هو الرأسمالي أو جماعي الرأسماليين ("الشركة") الذين *يملكون* وسائل الإنتاج.

حين تمتلك طبقة اجتماعية وسائل الإنتاج فإنها تتشخص فيها علاقات الإنتاج المناسبة لها، ولهذا فسوف نتحدث عن علاقات الإنتاج "الرأسمالية" أو علاقات الإنتاج "البرجوازية" حتى إذا ما سيطرت علاقات الإنتاج هذه فإن نفس التعابير تستعمل للدلالة أيضاً على طريقة الإنتاج. فنقول: الطبقة "الإقطاعية" وعلاقات الإنتاج "الإقطاعية"، طريقة الإنتاج "الإقطاعية" لأن البرجوازية ليست حينئذ الطبقة المسيطرة. يمكننا الآن أن نحدد فكرة علاقات الإنتاج.

تضم هذه العلاقات:

أ) صور ملكية وسائل الإنتاج،

ب) وضع مختلف الفئات الاجتماعية في الإنتاج وعلاقاتهم المتبادلة أو "تبادل أوجه نشاطهم" التي تتولد عن هذه الصور حسب *قول ماركس،*

ج) صور توزيع المنتوجات التي تتعلق بها. كل هذا يكون موضوع الاقتصاد السياسي[11]*.*

---

[10] نريد بقولنا "تحالف العمال والفلاحين" والفلاحين العمال (الملاكين الصغار، الذين يعملون في المزارع) والعمال الزراعيين.

[11] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 162.

صور الملكية إذن هي التي تكون العنصر الأساسي في علاقات الإنتاج. ومن البديهي أن الطبقة المستغلة تتخذ جميع الاحتياطات المفيدة من أجل حماية صور الملكية التي تضمن لها إمتيازاتها. وتكون علاقات الإنتاج، التي تحمل طابع نظام ملكية وسائل الإنتاج، الأساس الاقتصادي للنظام الاجتماعي بأكمله.
نملك الآن جميع الأفكار الضرورية لندرك أن طريقة الإنتاج تكون القوة الرئيسية في التطور الاجتماعي.

4 – تغير طريقة الإنتاج مفتاح تاريخ المجتمعات

يمتاز الإنتاج بهذه الخاصية وهي أنه دائم التحول والتحول والتطور، وأنه لا يقف فترة طويلة في نفس الوقت، بينما تظل البيئة الجغرافية في مجملها على ما هي عليه. لأن الناس يحاولون باستمرار الاستفادة، إلى أقصى حد، مما تقدمه الطبيعة لهم، كما يحاولون إتقان الإنتاج الذي يتطور دائما.
لو أن الإنسان لم يحاول دائماً أشباع حاجاته المادية بصورة أفضل، لما كان إنساناً واعياًن بل حيواناً خاضعاً للضرورة العمياء. غير أن الإنسان يجد في الإنتاج الوسيلة لاستخدام الضرورة الطبيعية لخدمته، ولهذا لا يتوقف الإنتاج فترة طويلة في نفس الوقت.
تكون هذه الحقيقة، بالنسبة للمثالي، موضوعاً للتشهير، فهو يرى فيها عطشا لا يرتوي نحو الخيرات المادية، كما ترى فيها المسيحية عملا من أعمال الشيطان والشر. ولكننا نعلم، أيضاً، أن هذه الموضوعات مخصصة للجماهير الكادحة، فتلقن الصيام والطهارة بينما تنعم الطبقات المستغلة بفيض من المنتوجات المادية. لأن ازدياد الإنتاج هو ضرورة موضوعية للمجتمعات الإنسانية. واستغلال الإنسان للإنسان هو الذي يحول دون أن يكون لهذه الضرورة نتائجها الطبيعية الخيرة.
وتغيير طريقة الإنتاج وحده يستطيع تفسير كيف أن نظاما اجتماعية يحل محل نظام آخر، ولماذا تتغير الأفكار الاجتماعية والآراء والمؤسسات السياسية، ولماذا

تتغير الأفكار الاجتماعية و الأراء و المؤسسات السياسسةو لماذا تمس الضرورة، في بعض الأحيان، لاعادة صهر النظام الاجتماعي والسياسي بأكمله.
ولقد بأن لأرسطو، منذ أمد بعيد، الصلة بين الرق و مستوى قوى الإنتاج.
يقول أرسطو، وهو أعظم فيلسوف قديم،: "لو أن كل آلة تستطيع القيام بوظيفتها بعد أمرها القيام بذلك، أو من تلقاء نفسها، *كروافع ديدال التي تتحرك من نفسها أو مقاعد آلة النار والمعدن فولكين التي تتحرك أيضاً من تلقاء نفسها لتقوم بعملها المقدس، لو أن مكاكيك الحائكين كانت تحوك من نفسها لما احتاج صاحب المصنع لمساعدين أو رئيس للعبيد*[12]. ولقد بررت الميتافيزيقية المسيحية، في القرون الوسطى، وجود النقابات المهنية التي تحد من انطلاق قوى الإنتاج وتساعد على استقرار النظام الإقطاعي. ولكن إذا كان هذا النظام يهدف في الأصل لضمان المجتمع ضد الفقر فقد ظهر على مر الأيام أن هذا الخوف من الحركة والتغير ليس سوى خوف الإقطاعيين أمام موجة البرجوازية الصاعدة حتى إذا ما استولت هذه على زمان الحكم أزالت القيود المفروضة على الإنتاج ومنعت النقابات المهنية.
وهكذا كان السلطان السياسي ضروريا لفرض القانون الجديد الذي هو انعكاس لطريقة الإنتاج الجديدة. كما كانت الأفكار الجديدة ضرورية لتبرير هذا السلطان الجديد وذاك القانون الجديد. فكانت الفلسفة سلاحاً فكريا ضد نظام الأشياء القديم. وضمنت البرجوازية المنتصرة حق الملكية البرجوازي في إعلان حقوق الإنسان، كما أقامت منظمات برلمانية برجوازية، ودعت لأخلاقها وأوجدت نظاماً جديدا للتعليم حذفت منه فلسفة القرون الوسطى كما حرمت الجمعيات العمالية لتحمي نفسها ضد نضال البروليتاريا المستغلة.
وهكذا فرضت على الأمة بأجمعها "نوع الحياة" البرجوازية والأفكار الخاصة بها لأن "لكل نوع من الحياة نوعا من الفكر[13]"

---

[12] ك. ماركس: رأس المال. الكتاب الأول، ج2 ص 91. المطبوعات الاجتماعية.
[13] راجع ستالين: النزعة الجدلية والنزعة المادية التاريخية، 3 ب ليس التعبير نفس تعبير فورباغ الميكانيكي: "نفكر في قصر بصورة تختلف عن تفكيرنا كوخ".

ولنقرأ من جديد صفحات القسم الأول من بيان الحزب الشيوعي الخالدة.

"لقد داست البرجوازية في كل مكان استولت فيه على السلطان، العلاقات الإقطاعية والبطريركية والغرامية بالأقدام. فحطمت بدون شفقة جميع الصلات المعقدة المتنوعة التي توحد بين الإنسان ورؤسائه الطبيعيين في عصر الإقطاع، ولم تبق إلا على علاقة الربح بين الإنسان والإنسان ومتطلبات الدفع نقداً القاسية. فإذا بها تغرق رعشات النشوة الدينية المقدسة والحماس الفردوسي والعاطفة البرجوازية في مياه الحساب الأناني المتجمدة. وجعلت من كرامة الإنسان قيمة بسيطة للتعامل، فأحلت محل الحريات العديدة حرية التجارة الوحيدة أي أنها أحلت محل الاستغلال الذي تخفيه الأوهام الدينية والسياسية استغلالا مفضوحاً مباشراً. جردت البرجوازية جميع ألوان النشاط، التي كان ينظر إليها على أنها مقدسة توجب الاحترام من هذه الهالة التي كانت تحيط بها. فجعلت من الطبيب والمشروع والكاهن والشاعر والعالم عمالا مأجورين.

كما مزقت البرجوازية ستار العاطفية الذي يخيم على العلاقات العائلية وحولتها إلى مجرد علاقات مالية[14].

ولهذا فإن عدم ادراك، أن البرجوازية ارادت أن تقوي بجميع الوسائل طريقة الإنتاج التي هي نفسها ثمرة لها، يمنعنا من إدراك الحوادث التاريخية التي وقعت، مثلا، فيما بين1789 – 1815.

يميز المؤرخون البرجوازيون أنفسهم بين عصر بدائي هو العصر القديم، والعصور الوسطى ثم الأزمنة الحديثة. فما هو الفرق بين هذه العصور؟الفرق الاساسي هو أنه كان يوجد في القديم الملكية المشتركة، ثم نشأت، عند فجر التاريخ والمدينة، طريقة الإنتاج التي تقوم على الرق، وقد سيطرت في العصر القديم، بينما سيطرة، في القرون الوسطى، الملكية الإقطاعية للأرض، وشاهدت العصور الحديثة نمو الملكية البرجوازية التجارية ثم انتصار البرجوازية الرأسمالية وأفول نجمها. ويقول المؤرخون المناهضون للماركسية أن هناك

[14]راجع البيان ص 31.

صفات مشتركة بين العصر القديم والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة. ولهذا فليس تفكير أفلاطون أو أحاديث شيشرون، مثلا، غريبة علينا. وهذا صحيح. وهاك تفسير هذه الصفات المشتركة، ولا سيما فيما يتعلق بالمؤسسات والأفكار.

1 – تمتاز نزعات الرق والقطاع والرأسمالية بصفة واحدة مشتركة، مهما شتد الخلاف بينها، وهي أنها جميعا تمثل علاقات إنتاج تقوم على استغلال طبقة على يد طبقة أخرى، كما تعتمد على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. النضال الطبقي إذن موجود في هذه النماذج الثلاثة للمجتمعات، وكل ما ينتج عنها على مستوى المؤسسات والأفكار.

2 – يوجد إلى جانب هذه الطرق الثلاث للإنتاج، طبقات عديدة للبرجوازية الصغيرة، (كالبرجوازية التجارية، والصناعية اليدوية، والزراعية، والفكرية).

يؤدي هذا الواقع التاريخي المستمر إلى تكوين سيكولوجية الإنسان المتوسط" وتغذيها، وهو إنسان فردي يتعلق بالملكية الخاصة، مليء بالتناقض، لأنه يقف موقفاً سلبياً من النضال الطبقي ويستسلم دائماً للطبقة الحاكمة المستغلة.

وبالرغم من أن هذه النظم الثلاثة تتشابه، فإنها في نفس الوقت تختلف نوعياً في أساسها الاقتصادي، فهي تؤلف أبنية اجتماعية مختلفة. وموضوع العلم التاريخي هو دراسة أوجه الاختلاف والتشابه فيما بينها.

5 – الخلاصة

النزعة المادية التاريخية هي النظرية العامة لطرق الإنتاج والاقتصاد السياسي هو العلم الخاص بالقوانين الموضوعية التي تسيطر على علاقات الإنتاج بين الناس.

وموضوع علم التاريخ هو العلاقات المتبادلة بين الطبقات التي تتمثل فيها هذه العلاقات للإنتاج ولا سيما علاقاتها السياسية.

وليس هناك من علم تاريخي إذا لم نتساءل في كل لحظة عن طابع علاقات الإنتاج، وطابع الملكية، والطبقات الاجتماعية *والربح الطبقي*.

ولهذا لا يمكن أن يقتصر علم التاريخ الحقيقي على دراسة أعمال الملوك وقواد الجيوش والغزاة لأن التاريخ هو تاريخ الشعوب.

إن تاريخ التطور الاجتماعي ... هو تاريخ منتجي المواد المادية، تاريخ الجماهير الكادحة التي تكون القوى الأساسية في عملية الإنتاج والتي تنتج المواد المادية الضرورية لوجود المجتمع[15].

والواقع أن قانون التاريخ هو الصلة الضرورية بين علاقات الإنتاج وبين قوى الإنتاج: ويعبر هذا القانون عن مصالح جماهير الإنسانية الحيوية.

ولهذا كانت الماركسية، حسب قول ستالين. "علم ثورة الجماهير المضطهدة المستغلة".

ولكن إذا كان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم، فإنهم يصنعونه "في ظروف معينة تحدد هؤلاء الناس"(ماركس) فلايجب البحث عن مفتاح التاريخ في أدمغة الناس وآرائهم وأفكارهم، بل في علاقات الإنتاج والقوانين الاقتصادية والموضوعية التي تعمل مستقلة عن إرادة الناس، متى ما أنتج هؤلاء بصورة اجتماعية، الذين يتعلقون بصورة ملكية وسائل الإنتاج، أي *بالأساس الاقتصادي*.

لا يمكن لعلم التاريخ أن يستغنى عن معرفة هذه القوانين، ولهذا لا يجب على حزب البروليتاريا، إذا أراد أن يسير بالطبقة العمالية لتحقيق رسالتها التاريخية,أن يدعو هذه الطبقة للعمل من أجل مصالحها فقط بل يجب عليه أيضاً أن يقيم برنامجه ونشاطه العملي على معرفة قوانين النمو الاقتصادي[16]

---

[15] راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية، ب ص 21.

[16] أن وضع برنامج الحزب الشيوعي الجديد في الاتحاد السوفياتي والتوجيهات العملية للانتقال إلى الشيوعية لم يكن ممكنا علميا بدون اكتشاف قوانين الاقتصاد الاشتراكي، وبدون دراسة علاقات الإنتاج الاشتراكية واكتشاف ظروف تحولها إلى علاقات إنتاج شيوعية. هذا ما كان يجهله لاروشنكو ورد عليه ستالين في أخر كتبه "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي.، أخر مؤلفات، لا سيما ص 146 وما يليها.

الدرس السادس عشر

قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج

وطابع قوى في الإنتاج

1 – قوى الإنتاج هي أكثر العناصر ثورية في الإنتاج.
2 – تأثير علاقات الإنتاج على قوى الإنتاج.
3 – قانون الترابط الضروري.
4 – تأثير عمل الإنسان.

رأينا في الدرس السابق أن طرق الإنتاج تتغير عبر التاريخ فهي ككل واقع تمر بتغيرات كمينة هي عبارة عن *تطور* يتبعه تغيرات كيفية يمكن أن تتخذ صورة ثورية حينما تعترض الطبقات الزائلة المفضلة سبيل التغيرات الضرورية.
ويدفع إلى هذه التغيرات، ككل واقع، تناقض داخلي فما هو التناقض النوعي لطرق الإنتاج عامة؟ التناقض بين الإنتاج وطابع قوى الإنتاج. وهذا هو موضوع هذا الدرس.

1 – قوى الإنتاج هي أكثر العناصر ثورة في الإنتاج

قلنا أن الإنتاج في تغير دائم. ولكن ما هو المظهر الذي يتغير أولاً؟ من البديهي أنه بينما يستمر الأساس الاقتصادي لبناء اجتماعي، يحدث أثناء ذلك تطور في التقنية. قوى الإنتاج، إذن، هي التي تتغير أولاً قبل تغير آلات الإنتاج. تلك هي الميزة الثانية للإنتاج[17].

[17] درسنا الميزة الأولى في الدرس الخامس عشر وهي أن تغير طريقة الإنتاج يحول شكل المجتمع باجمعه.

وهاك مثالا بسيطاً جدا: كلنا نعلم الطريقة التي تقوم على وضع قطعة ضخمة من الحجار، إذا ما أردنا نقلها، على قطار من الجذوع. وكلما إزداد استعمالنا لهذه الجذوع كلما ازداد صقلها من جراء هذا الاستعمال نفسه، فتصبح اسطوانات مستديرة تامة قبل أن ترد أية فكرة هندسية عن الأسطوانة على ذهن الناس[18]. كما أن النقل يصبح أسرع وأسهل فيوحي للإنسان بفكرة تحقيق هذا الصقل بنفسه بوسائط معينة. وإذا بخيال الإنسان، بمساعدة الحاجة، يعمل ويكتشف أن العمل سيزداد سهولة إذا كانت الإسطوانات، مع دورانها حول نفسها، حسب محورها، متصلة بقطعة الحجر أثناء النقل. فلا تمس الضرورة لوضعها من جديد أمام قطعة الحجر. حتى إذا ما مضت عشرة أو مئة أو ألف سنة طلع علينا (المحور) والدولاب والعربة.

وهكذا لا تظل قوى الإنتاج في مكانها، بل تكتمل فتسبق إرادة الإنسان وتدفعها معها. كما تنمو، في نفس الوقت، حاجات الإنسان، لأن الإنسان متى ما عرف العربة لن يكتفي قط بالإسطوانات كلما عرض له نقل حمل ثقل.وتتغير علاقات الإنتاج بدورها *تبعا لتغير* قوى الإنتاج. فهي وثيقة الصلة بطابع قوى الإنتاج.

ولنضرب على ذلك مثالا. يوجد، في فترة انحطاط مجتمع الرق، قوى للإنتاج جديدة مرت بتطور طويل في العصر السابق. كاتقان صنع الحديد الصب (la fonte) والحديد واستعمال مغزل اليد، وشيوع استخدام العربة، وتقدم الزراعة والبستنة وإنتاج الخمر والزيت والعسل، واكتشاف مطحنة الماء (340م)، ولكن هذه التقنيات الجديدة، التي كان الرومان يلاحظونها عند الشعوب التي كانوا يسمونها بالبربرية ويحاولون استخدامها، كانت تتعارض مع نظام الرق! إذ ليس للرقيق أية فائدة من العمل، فهو مهما عمل فسوف يعامل كما كان في السابق. ولهذا لا يشتر بأي ميل للعمل كما أن إنتاجه قليل. ولم يعد الأمر الآن القيام بأعمال ضخمة على يد قطعان الأرقاء تحت ضرب السياط. بل أن قوى الإنتاج الجديدة تتطلب من العامل أن يظهر بعض الاهتمام لعمله وإلا ذهبت هذه القوى سدى.

---

[18] تتولد الأفكار الرياضية إذن من التطبيق العملي.

ويدرك السيد ذلك، لا سيما وأن الأرقاء، وهم غالباً من البربر الأسرى، يقومون بالثورات ويهجرون أماكن العمل ويصبحون (قراصنة) فيتقنون صناعة الأسلحة والملاحة.
تتطلب، إذن، قوى الإنتاج الجديدة علاقات للإنتاج جديدة. ولهذا فإن مالك وسائل الإنتاج، الذي يتخلى عن رقيق ضعيف الإنتاج، يفضل الحصول على قين. لأن القين يملك ما يستغله لنفسه كما، يملك وسائل الإنتاج. فهو إذن مهتم اهتماما شخصيا بالعمل، وإن كان مرتبطا بأرض سيده. وهذا الاهتمام ضروري كي يزيد من إنتاجية في جميع الأعمال الزراعية، ويدفع قدراً من محصوله للإقطاعي. ولهذا فإن السيد، بدلا من إعالة رفيق لا يعمل شيئاً، ولو تحت سياط وكلائه فإن سيطلب نصيبه من المحصول من قين حر يعمل كما يريد، شريطة أن يطحن قمحه في مطحنة السيد ويخبز خبزه في فرنه وهكذا ولد نمو قوى الانتاج الجديد، ضمن علاقات الإنتاج في نظام الرقيق علاقات جديدة للإنتاج هي العلاقات الإقطاعية.
إن العلاقات الاجتماعية وثيقة الصلة بقوى الإنتاج. لأن الناس يغيرون طريقتهم في الإنتاج، وبتغييرهم لطريقة الإنتاج وطريقة كسب معاشهم، يغيرون جميع العلاقات الاجتماعية.وهكذا تؤدي مطحنة السيد لظهور السيد الإقطاعي بينما تؤدي مطحنة البخار لظهور مجتمع الرأسمالي الصناعي[19].

2- تأثير علاقات الإنتاج على قوى الإنتاج

إذا اقتصرنا على ملاحظة أن قوى الإنتاج هي أكثر العناصر حركة وثورة في الإنتاج، فإننا نقع في الميتافيزيقية وفي النزعة الميكانيكية. لأن طريقة الإنتاج تمثل وحدة قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الجدلية. وكل من هذين النقيضين يعمل ضد نقضيه في هذا التناقض الداخلي ولو أن أحدهما يتغير أولا. يجب علينا إذن أن ندرس تأثير علاقات الإنتاج المقابل على قوى الإنتاج.

---

[19] راجع ماركس: بؤس الفلسفة، ص 88 المطبوعات الاجتماعية.

لو عدنا إلى مثال الانتقال من مجتمع الأرقاء إلى المجتمع الإقطاعي لرأينا أن علاقات الإنتاج الإقطاعية قد عملت، بعد ظهورها، على نمو قوى الإنتاج التي كانت تقف في وجهها علاقات الإنتاج القديمة، لأن القين يهمه، بالرغم من أنه مستغل، أنه يعمل أكثر من الرقيق. وهكذا زال بالتدريج ما خلفته العصور القديمة، والقرون الوسطي الأولى من بؤس وشقاء.

وهناك مثال آخر رأيناه في الدرس السابق (2، أ) أن تقدم صنع المعادن والفخار أدى إلى تقسيم العمل بين الزراعة والحرف (metirs). وقد أفضى هذا التقسيم، في ظروف ملكية وسائل الإنتاج الفردية التي يتطلبها العمل اليدوي واستخدام الأرقاء، إلى بيع المنتوجات اليدوية والزراعية وشرائها في السوق، أي إلى ظهور *السلعة*. كما ولدت، في نفس الوقت، طبقة جديدة هي طبقة التجار المتخصصين في نقل السلع وتوزيعها.

ولما كانت مصلحة هذه الطبقة الخاصة في التجارة فقد أدى بها الأمر إلى تشجيع *الإنتاج التجاري*، وتوسيع هذه التجارة. وكان هذا أصل المستعمرات الفينيقية الأغريقية، مراكز التجارة حوض المتوسط. ومن البديهي أن الإنتاج التجاري قد عمل على نمو قوى الإنتاج، والتقنيات والفنون، وكذلك الملاحة فكانت المصنوعات الخزفية الاثينية تباع في جميع أنحاء المتوسط، كما وجدت في أثينا مصانع أسلحة يعمل فيها أكثر من مئة رقيق.

مثال آخر: كانت ثروة الإقطاعيين الأرض وما يقدمه لهم الإقنان من محصول الأرض، أما ثروة البرجوازيين، التي تقوم على التجارة والإنتاج الرأسمالي الحديث فهي تتكون من المال. ولهذا فإن الإقطاعي، الذي يريد أن يحصل على المنتوجات التجارية، سعيا وراء الأبهة ومنافسة لأغنياء البرجوازيين، يخسر ثروته بسرعة ولم يكن يحميه سوى الامتيازات الإقطاعية وازدياد حقوق الإقطاعيين. ولهذا كان نمو الإنتاج التجاري يهدد قوته الاقتصادية. فكان يحاول تنظيم هذا النمو بواسطة نظام النقابات.

وهكذا كان النظام الإقطاعي يعيق نمو قوى الإنتاج الجديدة. غير أن هذه القوى كانت تتطلب تعميم علاقات الإنتاج الجديدة (الرأسمالية).

ولهذا يجب علينا أن لا ننسى ما يلي: أن قوى الإنتاج، التي تتغير أولا، ليست مستقلة عن علاقات الإنتاج. وأن علاقات الإنتاج التي يتعلق نموها بنمو قوى الإنتاج تؤثر بدورها

على نمو هذه القوى. فهي أما أن تعيقها أو تزيد من نموها. وتصبح علاقات الإنتاج عائقا لنمو قوى الإنتاج حينما لا تساير ازدهار قوى الإنتاج.

وهي تصبح، على العكس، *دافعا* لهذا النمو فإن علاقات الإنتاج الجديدة هي القوة الأساسية التي تدفع بها نحو التطور.

ومن الخطأ القول بأن علاقات الإنتاج، في تاريخ المجتمع تقوم بدور العائق الذي يشل نمو قوى الإنتاج. وحينما يقوم الماركسيون بأن علاقات الإنتاج تقوم بدور العائق فإنهم لا يقصدون أي نوع من علاقات الإنتاج بل يقصدون علاقات الإنتاج القديمة التي لم تعد تتفق وتطور قوى الإنتاج فتعيقها عن النمو. ويوجد، إلى جانب علاقات الإنتاج القديمة، علاقات جديدة تحل محل العلاقات القديمة. فهل يمكن القول بأن دور علاقات الإنتاج الجديدة يقتصر على إعاقة الإنتاج؟ كلا. لأن علاقات الإنتاج الجديدة هي، على العكس، القوة الرئيسية التي تحدد نمو قوى الإنتاج في المستقبل وإلا كتب على قوى الإنتاج أن تظل بدون تأثير[20].

3 – قانون الترابط الضروري

ندرك، الآن، الجدلية الداخلية لعالم الإنتاج. تتقدم قوى الإنتاج تقدما محسوسا على أنها أساس اقتصادي، لفترة معينة من الزمن، وتصبح علاقات الإنتاج، التي كانت جديدة، في مطلع تاريخ هذه الطريقة في الإنتاج، قديمة. بعد أن كانت في أول الأمر القوة الرئيسية التي تحدد نمو قوى الإنتاج. حتى إذا لم تعد تتفق وازدهار هذه القوى أخذت تعيق هذا الازدهار.

ولا شك أن علاقات الإنتاج الجديدة لا يمكن أن تظل جديدة إلى الأبد، بل تأخذ بالقدم والتناقض مع نمو قوى الإنتاج اللاحق، فتفقد بالتدريج دورها كمحرك رئيسي لقوى الإنتاج وتصبح عائقا لهذه القوى[21].

---

[20] راجع ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي، أخر مؤلفات ص 150.
[21] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 151.

فما هو موقف الرأسمالية، مثلا، تجاه التقنية الحديثة؟ يدعى الرأسماليون أنهم أنصار التقدم التقني، ودعاة ثورة في هذا الميدان. ولا شك أأن الرأسمالية قد عملت على تقدم التقنية. لأن التقنية الجديدة تنقص زمن العمل الضروري للإنتاج، وتساعد على زيادة فائض القيمة[22] أي زيادة الربح.

ونعلم أيضا أن الرأسمالية فيها ظواهر ركود تقنية، فيظهر الرأسماليون في صورة رجعيين في الميدان التقني، فلا يريدون القيام بأي تحسين جديد، ويلجأون إلى العمل اليدوي أو العمل المنزلي. ذلك لأن إقامة المنشآت الجديدة يفضي إلى تجميد رؤوس الأموال، وازدياد الرأسمال المجد ينقص من نسبة الربح فلا يساعد على الحصول على الربح الأقصى في الرأسمالية في زمن زال فيه استقرار الأسواق الرأسمالية النسبي.

يفسر لنا، إذن، ظاهرة الركود قانون الرأسمالية الأساسي، ألا وهو تحقيق أقصى الأرباح، أي طابع علاقات الإنتاج القديمة.

تقف الرأسمالية إلى جانب التقنية الجديدة، متى لوحت لها بأعظم الأرباح. كما أنها تقف في وجه هذه التقنية الجديدة وتدعو للعودة إلى العمل اليدوي إذا لم تلوح لها التقنية الجديدة بأرباح أعظم.

ومع ذلك فإن تأخر علاقات الإنتاج عن اللحاق بتقدم قوى الإنتاج لا يمكن أن يستمر طويلا. وذلك لأنه مهما كانت الإجراءات التي تتخذها الطبقات التي تمثل علاقات الإنتاج القديمة التي قضى عليها التاريخ بالزوال، لإطالة أمد الأساس الاقتصادي، فإن هذه الإجراءات لا يمكنها أن تعيد التاريخ القهقرى. ذلك لأن نمو الإنتاج ضرورة مادية للإنسانية. لا يمكن "للذهن" أن يقاومها طويلا. يجب إذن أن تزول علاقات الإنتاج القديمة. ولا يمكن للاجراءات التي اتخذتها الطبقات الرجعية إلا أن تفضي، في النهاية، إلى القضاء على طريقة الإنتاج بأجمعها.

مهما كان إذن تأخر علاقات الإنتاج فإنه يجب عليها، إن آجلا أو عاجلا، أن تتلاءم مع طابع قوى الإنتاج الجديد. فكيف يتم هذا الانسجام بقلب صور ملكية وسائل الإنتاج التي

---

[22] يبدع العامل خلال ساعات العمل الأولى قيمة تساوى قيمة المنتوجات التي يسمح له اجره بالحصول عليها. أما في سائر ساعات العمل فهو يبدع قيمة إضافية هي فائض القيمة الذي يربحه الرأسمالي.

تكون، كما رأينا، العنصر الأساسي في علاقات الإنتاج. ولهذا فإن إقامة نظام جديد للملكية يساوي إقامة علاقات جديدة للإنتاج.

من الواضح إن استخدام الطاقة الذرية السلمي لخدمة المصلحة الوطنية، لا يمكن يتحقق على يد رأسماليين، لأنهم لا يستطعون الحصول على الربح الأقصى في حالة تقنية باهظة *كطلبات الدولة الحربية*. وكذلك شأن استخدام الطاقة الهيدرو كهربائية وكهربة العمل الزراعي.

أما الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج فإنها تستطيع تحقيق ذلك لأنها لا تخضع لقانون الربح. وهكذا يمكن القول إن قوى الإنتاج تولد علاقات الإنتاج التي تحتاجها لتحقيق نموها في المستقبل.

وبهذا تكون قوى الإنتاج العنصر الفاصل في نمو الإنتاج ذلك هو قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وبين طابع قوى الإنتاج. فكما تكون قوى الإنتاج يجب أن تكون علاقات الإنتاج[23].

تحل محل علاقات الإنتاج القديمة علاقات جديدة للإنتاج تكون المحرك الرئيسي لنمو قوى الإنتاج في المستقبل.

ويضيف ستالين إلى ذلك قوله:

تكون هذه الخاصية لنمو قوى الإنتاج – وهي كونها أولا عائقا لقوى الإنتاج ثم صيرورتها المحرك الرئيسي الذي يدفع هذه القوى إلى الأمام. ثم انتقالها من كونها المحرك الرئيسي إلى صيرورتها عائقاً لقوى الإنتاج – أحد العناصر الرئيسية للجدلية المادية الماركسية. وهذا ما يعرفه اليوم كل الشيوعيين المبتدئين[24].

يضاف إلى ذلك أن هذا القانون شامل، أي أنه يصح على جميع طرق الإنتاج مهما كانت قوانينها الاقتصادية الخاصة، فهو أساس كل تطور للمجتمعات الإنسانية.

---

[23] راجع ستالين: "النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية" ص 16

[24] راجع ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" في مؤلفات أخيرة ص 151.

4 – تأثير عمل الإنسان

قانون الترابط الضروري هو قانون موضوعي. إذ لا يختار أي إنسان طريقة الإنتاج التي يعيش فيها. فنحن لم نختر بأنفسنا أن نواد في عصر الصناعة الضخمة ولا عصر الرأسمالية الاستعمارية. ويفرض الإنتاج نفسه على الناس في جدلية متطلباته الداخلية. إذ لا يمكن لقوى الإنتاج أن تتقدم إلا في حدود بعض علاقات الإنتاج، وهذا الترابط الضروري هو نتيجة طبيعة قوى الإنتاج نفسها، وليس نتيجة لإرادة الناس. ولا يدلنا في ذلك. وليس هناك من رأسمالي يستطيع القضاء على هذا الواقع الموضوعي، وهو أن الرأسمالية الحاضرة تؤدي إلى توقف نمو قوى الإنتاج. وليس هناك أي إنسان يقف في وجه هذا الواقع وهو أن الاشتراكية تستطيع إقامة هذا الترابط الضروري.

لا يعني هذا أن عمل الناس لا يمكن أن يقوم، أو لا يقوم بأي دور في النمو الاجتماعي. ويظهر هذا العمل في شعورهم أو معرفتهم الصحيحة لضرورات الإنتاج الموضوعية، ولقانون الترابط الضروري. وإذا استشهدنا بمثال ذكرناه سابقاً فإن السيد الإقطاعي الذي يفضل أن يتعامل مع قين بدلا من التعامل مع الرقيق، لأن ذلك أفضل للإنتاج، يشعر بقانون الترابط ويعتمد عليه لمصلحته الطبقية حين يجعل من الرقيق قينا. فهل يعني عمل الإنسان هذا أنه ليس هناك قانون موضوعي كلا. بل يفترض، على العكس، موضوعية القانون. والدليل على ذلك أنه بقراره هذا يبلغ النتائج التي توخاها. فهو يستخدم القانون لمصلحته.

كما يشعر الرأسمالي، الذي يرى أن تقدم التقنية يهدد الربح الأقصى، فيتخذ لهذا الإجراءات ضد نمو قوى الإنتاج وضد العلم، يشعر بقانون الترابط الضروري. فهو يحس بالخوف من نمو قوى الإنتاج الذي يؤدي بالملكية الخاصة ووسائل الإنتاج. وهو كي يبعد هذه الإمكانية، لا يمكنه سوى محاولة القضاء على قوى الإنتاج التي تقلب أوضاع الإنتاج. على قانون الترابط الضروري، لخدمة مصلحته الطبقية، محاولا إزالة نتائجه الموضوعية فيعيق عمل هذا القانون.

يبدو إذن عمل الإرادة الإنسانية في *معرفة* الناس لهذا القانون معرفة صحيحة. فإذا ما عرفوا هذا القانون حاولوا الحيلولة دون عمله وتأخير الوقت الذي يعمل فيه. كما أنهم يستطيعون تشجيع هذا العمل وتقريب ذلك الوقت واتخاذ الإجراءات الملائمة للضرورات الموضوعية والتوفيق بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج.

ندرك إذن أن طابع قانون الترابط الضروري الموضوعي لا يقضي على *مسؤولية* الإنسان. إذ يمكن للإنسان أن يوجد، بواسطة عمله الواعي، الظروف التي تعيق عمل هذا القانون أو تساعده. فإذا ما استمر، الزعماء الأميركان، مثلا، في سياسة الحرب فليس ذلك بدون وعي منهم بل هم يريدون إعادة علاقات الإنتاج الرأسمالية حيثما حلت محلها علاقات اشتراكية، كما أنهم يريدون، بقضائهم على قوى الإنتاج إعاقة ازدهار هذه القوى لأنه يضر بمصالحهم.

ولكنه من المفهوم أيضاً أن إرادة الناس لا يمكن أن تعمل إلا في حدود عصرهم الموضوعية. فهم لا يستطيعون إعادة قوى الإنتاج إلى مستوى عصر القوافل، بالرغم من القول الرجعي الذي يدعي: "أن الناس ربما لم يكونوا فيه أسوأ حالا". كما أن *القدرة الفعلية على تغيير علاقات الإنتاج لا توجد دائما* بل هي تتعلق بحالة قوى الإنتاج وطبيعتها. ويردد الرأسماليون أن بناء الاشتراكية مستحيل وأن هذه التجربة ستفضي إلى الجوع، الخ.. ربما صح ذلك في عام 1848، ولكن ذلك لا يصح متى ما أصبح باستطاعة المجتمع أن يقيم قوى الطاقة الهائلة في القرن العشرين.

ولقد برهنت التجربة على ذلك فإذا بالرجفة تعتري الرأسماليين حين رأوا أنه يمكن منذ الآن بناء الاشتراكية، وأخيراً تتعلق قدرة الناس بطابع علاقات الإنتاج أيضاً: وذلك لأن عمل الطبقات، في مجتمع منقسم إلى طبقات متعادية، تهمها الملائمة بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، يصطدم بالعديد من العراقيل، وليس الحال كذلك حينما يخلو المجتمع من طبقة زائلة يمكنها تنظيم المقاومة.

لا يمكن لإرادة الناس، وهي العنصر الذاتي، أن تكون مجدية إلا إذا كان هدفها تسهيل تطبيق القانون الموضوعي. فالإرادة التي تأبى الاعتماد على الواقع الموضوعي هي عكس الإرادة. وليست *الإرادة* سوى مجرد كلمة إذا ما تجاهلت قدرتها.

ويلح ستالين على أهمية عمل الناس فيقول:

"استخدمت البرجوازية، في عصر الثورة البرجوازية، في فرنسا، مثلا، ضد الإقطاعية قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج، فقلبت علاقات الإنتاج الإقطاعية، وأوجدت علاقات إنتاج جديدة برجوازية، وجعلتها تتلاءم مع طابع قوى الإنتاج، التي نمت داخل النظام الإقطاعي. ولم تفعل البرجوازية ذلك بسبب مشاكلها الخاصة بل لأنها كانت ترى في ذلك مصلحة لها. وعارض الإقطاعيون ذلك لا عن غباء بل لأنه كانت تهمهم الحيلولة دون تطبيق هذا الثقانون[25].

ويلاحظ ستالين، في مكان آخر، أنه إذا كان السوفيات قد وقفوا ببناء الاشتراكية *فليس ذلك لأنهم قضوا على القوانين الاقتصادية الموجود "وأوجدوا بدلا منها قوانين جديدة" بل لأنهم اعتمدوا على قانون الترابط الضروري الاقتصادي بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج[26].*

وإذا كانت البرجوازية قد استخدمت جميع الوسائل لمقاومة تطبيق هذا القانون فلأنه كان يهمها عدم تطبيق هذا القانون.

نخلص إلى القول إذن أن عمل الإنسان، الذي يستخدم القوانين الاقتصادية لمصلحة النمو الاجتماعي، يجري في جميع التشكيلات الاقتصادية حسب الظروف . ولكن النتائج تكون أسرع حينما يكون هذا الاستخدام علميا، ولا يلقى مقاومة أية طبقة. وهذا ما يحدث في النظام الاشتراكي.

ونلاحظ أيضاً أن استخدام القوانين الاقتصادية، في مجتمع طبقي، له دائما دوافع طبقية، وأن طبقة الطليعة هي التي تدعو دائما إلى استخدام القوانين الاقتصادية لخدمة النمو الاجتماعي بينما تعارض الطبقات الزائلة ذلك، مهما كانت نتائج ذلك بالنسبة لسائر المجتمع، فتصبح بذلك عدوة المجتمع وتنطوي على كبريائها الطبقي.

ومما يميز البروليتاريا عن بقية الطبقات التي قلبت في الماضي علاقات الإنتاج أنه لا يمكنها بطبيعتها تطبيق قانون الترابط الضروري، دون أن تقضي على الملكية الخاصة

---

[25] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" ص 137 – 138.

لوسائل الإنتاج أي على كل صورة للاستغلال. تتفق إذن مصالحها الطبقية مع مصلحة الإنسانية الكادحة ومع مصلحة جميع المستغلين والمضطهدين.

نستخلص من دراستنا فكرة ماركسية رئيسية من أجل عملنا وهي أن الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ضمن ظروف معينة تحدد عملهم ولهذا يجب تقديرها. وهذا حقيقة أبدية. لأن صنع التاريخ هو التغلب على مقاومة الطبقات الرجعية التي تعارض التغيرات الضرورية في عالم الإنتاج. ولهذا فإن صنع التاريخ مهمة المستغلين والمضطهدين لأن التاريخ هو تاريخ منتجي المواد المادية، والجماهير المضطهدة المستغلة هي التي تصنع التاريخ، فالشعب هو الخالق الحقيقي للتاريخ. وتتضح هذه الحقيقة الأبدية في ظل الرأسمالية. ذلك لأن الرأسمالية بامتدادها إلى أنحاء العالم أجمع واستغلالها لأغلبية سكان بلد من البلدان، واستعبادها شعوب البلاد الأخرى، قد حركت، في مرحلتها الأخيرة. جماهير من الشعب أوسع من الجماهير التي حركتها النظم السابقة. وإن عصر الثورة البروليتارية وتحرير الشعوب المستعمرة هو عصر تظهر فيه الجماهير العالمية على مسرح التاريخ. وعمل الجماهير وحدة هو الذي يستطيع القضاء على مقاومة الرأسماليين. فلقد انتصرت هذه الجماهير عام 1917 في نانكين وشنغاي . ولا يخشى الماركسي، على عكس الرجعيين الذين يقدمون "العقل" و "التفكير" على عمل الجماهير. بل هو يسير على العكس، في مقدمتها، لأن الاشتراكية البروليتارية ليست مجرد عقيدة فلسفية، بل هي حسب قول ستالين: عقيدة الجماهير البروليتارية، و " شعارها"، فهو يثق ثقة لا تتزعزع بالجماهير وفعلها لأنه يعلم أنها متى تحركت أسرع التاريخ في سيره، كما يعلم نضال الطبقات هو محرك التاريخ.

[2]6 راجع ستالين: نفس المرجع، 3 ص 20.

الدرس السابع عشر

نضال الطبقات قبل الرأسمالية

1 – أصول المجتمع.
2 – ظهور الطبقات.
3 – مجتمعات الرقيق والإقطاع.
4 – تطور البرجوازية.

عرضنا لقانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج. ونعلم من جهة ثانية أن علاقات الإنتاج، حين تعتمد على الملكية الخاصة، تمتاز بالاستغلال الطبقي، أي بالنضال الطبقي. على هذا الشكل يظهر عمل الناس في التاريخ بصورة *تلقائية*.
ويجب الآن أن نبتعد عن خطأين: الاعتماد أنه، لما كان هناك قانون ضروري مشترك بين جميع المجتمعات، فإن عمل الناس لا فائدة منه ولا تأثير له في التاريخ، وفي تغير الأساس الاقتصادي للمجتمعات – أو الاعتقاد، عكس ذلك، أن النضال الطبقي يمكن أن يقوم بكل شيء وفي كل زمان.
تريد الطبقات المستغلة أن تقضي على الاستغلال. و*لا* يمكن هذا إلا في مستوى معين لنمو قوى الإنتاج. ولهذا لم يفض نضال الطبقات المضطهدة، حتى عهد الثورة البروليتارية، إلا إلى تغيير نظام الملكية الخاصة، وإحلال صورة للاستغلال محل صورة أخرى. يعكس نضال الطبقات التناقض الأساسي الموجود في *علاقات الإنتاج* بين المستغلين و المستغلين، ولكن لا يمكن لهذه النتائج أن تتخطى ما يسمح به قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وبين *قوى الإنتاج* في وقت معين.

غير أن نضال الطبقات يتخذ أهمية كبرى حين يوجد الاستغلال كمنهج لتطبيق قانون الترابط الضروري. وبهذا المعنى فقط يصبح محرك *التاريخ*.
وسوف ندرس في هذا الدرس هذه الجدلية في مراحل نمو المجتمعات الكبرى.

1 – أصول المجتمع[27]

ليس هناك ما هو أشد اختلاطاً واضطرابا من تفاسير المثاليين فيما يتعلق بالتقنيات الاجتماعية الأولية. وإذا ما ضربنا صحفاً على أسطورة آدم وحواء فإن أكثر النظريات شيوعاً تلك التي تعتبر العائلة كأنها خلية بدائية للمجتمع. بينما العائلة في الحقيقة، هي مؤسسة اجتماعية يتعلق نموذجها بعلاقات الإنتاج السائدة، أما علماء الاجتماع البرجوازيون فهم لا يهتمون بسوى التقنيات والمعتقدات البدائية فإذا بهم موزعون بين النزعة المادية الميكانيكية وبين النزعة المثالية. يضاف إلى ذلك أنهم ينظرون للنمو الاجتماعي من خلال امتداد "حجم"المجتمع. فهم يرون في ذلك انتقالاً "من القبائل إلى الإمبراطوريات".
والماركسية وحدها تعطينا تعريفاً علمياً للمجتمعات البدائية حين تدلل على أن لها *أساساً* ككل مجتمع.
فلقد كانت قوى الإنتاج، في ذلك العصر، ضعيفة في نموها. ولم تكن الآلات الحجرية والوتر والقوس، التي ظهرت فيها بعد وأصبحت السلاح القاطع، قوية بالقدر الذي يسمح للإنسان بالنضال لوحدة ضد قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة فحاول الناس. إذن، مجابهة هذا الوضع بتوحيد قواهم..
كان على الناس. كي يجنوا الثمار في الغابات، ويصطادوا السمك. ويبنوا المسكن أن يعملوا سوية، إذا لم يريدوا الموت جوعاً، أو أن يصبحوا فريسة للحيوانات المفترسة أو القبائل المجاورة[28].

---

[27] راجع فيما يتعلق بدراسة الاقتصاد بصورة تفصيلية منذ القدم حتى ظهور الرأسمالية: ج بابى. "أصول الاقتصاد السياسي" الجزء الأول. المطبوعات الاجتماعية باريس 1949.

وكانت نتيجة هذه الحالة أن أصبحت ملكية وسائل الإنتاج وأراضي الصيد، مثلا، وكذلك ملكية المنتوجات، مشتركة أيضاً بين جميع أفراد المجتمع، ولم يبق سوى بعض آلات الإنتاج، التي هي في نفس الوقت أسلحة للدفاع ضد الحيوانات المفترسة، ملكية فردية للذين صنعوها.

وهكذا تتعلق ملكية وسائل الإنتاج الجماعية بطابع قوى الإنتاج وتكون الأساس الاقتصادي لهذا البناء الاجتماعي الذي يسمى *بالكومون البدائي*.

يؤكد هذا الأساس الاقتصادي بدوره خواص فكرية مهمة: فإن الشعور بالملكية الفردية بها لم يوجدا بعد. كما أن الحقد الطبقي غير موجود لعد وجود الطبقات والاستغلال الطبقي، نرى، إذن، أنه على عكس ما يقوله المثاليون فأن الشعور عواطف أبدية خالدة في طبيعة الإنسانية، بل هي منتوجات تاريخية تتولد من الملكية الخاصة. ويمتاز الإنسان البدائي بالأخلاص لمصالح القبيلة، والوفاء والثقة نحو سائر أعضاء القبيلة، ومن عنا نشأت خرافة "الفردوس المفقود". ولكن هذه "الفضائل" لم تكن نتيجة للطبيعة" الغزيرة على نفس روسو بل كانت تعكس الأساس الاقتصادي، كما كانت شرطاً ضروريا للانتصار على القوى المعادية التي كانت تجاور القبيلة. وكان الإنسان البدائي يعيش، في نفس الوقت، فريسة الرعب والجهل لهذه القوى المعادية، ولهذا كان يعيش في جو من الخرافات.

ومن خصائص الشيوعية الأولية اعترافها بدور المرآة الكبيرة، ولم يكن عدم المساواة بين الرجل والمرآة ألا في تقسيم العمل بينهما، ولم يكن يعترف ألا بنسل المرآة لوحدها. فكانت المرآة تشرف على التربية كما كانت نصائح الجدة نافذة. ذلك كان عهد *سيطرة الأم*.

2 – ظهور الطبقات

فما الذي أدى إلى انحطاط الكومون البدائي، وظهور الطبقات؟ ليست هي طبيعة الإنسان الشرير كما تدعي النزعة المثالية بل هو نمو قوى الإنتاج كما تقول الماركسية.

[28] راجع ستالين: "النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية " 3، أ، ص 19.

الواقع أنه يجب على المجتمع أن يمتلك من الخيرات المادية أكثر مما كانت الكومون البدائية تمتلك من مصادر ضئيلة كي يستطيع الإنسان الحصول على هذه الخيرات بصورة خاصة فلقد كانت المصادر الضئيلة لا تكاد تسمح للمجتمع بالعيش. ولهذا كان الاحتكار، في مثل هذه الظروف، حكماً على الآخرين بالموت. لم يكن ذلك في مصلحة أحد لأن النضال المشترك وحده يساعد على مواجهة الأخطار المتعددة. ولكي توجد إمكانية الاحتكار فأنه يجب أن يكون لدى أعضاء المجتمع ما يقتاتون منه وأن يوجد لديهم فائض، أي أن تكون قوى الإنتاج قد تقدمت.

ولقد تم تقدم قوى الإنتاج (راجع الدرس الخامس عشر). (المسألة 2، أ) داخل الكومون البدائية، التي كانت تسهل آنذاك، إلى أقصى حد، النضال ضد الطبيعة. وكانت المراحل الأساسية هي: تأليف الحيوانات بفضل القوس والسهام وتقسيم العمل بين الرعاة والصيادين البدائيين، ثم الانتقال إلى الزراعة بفضل الآلات المعدنية كفأس الحديد وسكة المحراث ثم التفريق بين المهن والزراعة، يضاف إلى ذلك أن صناعة الخزف كانت تساعد على الاحتفاظ بالمؤن.

كان لهذا التقدم نتائج عظيمة. فلقد وفرت تربية الحيوانات والزراعة مصادر أكثر انتظاماً وغزارة مما يوفره الصيد البري، كما أن تأليف الحيوانان جعل للإنسان وضعاً اقتصادياً مفضلاً. فاستطاع أن يقلب القانون الوراثي وأن يقيم النسب الأبوي.

كان قانون سيطرة الأم أكبر انهزام تاريخي للجنس الأنثوي. فاستولى الرجل على السلطة حتى في البيت، وتخلت المرآة عن مكانتها واستعبدت حتى أصبحت أسيرة الرجل ومجرد وسيلة للتناسل. هذا الوضع الشائن للمرأة كما يظهر لا سيما عند اليونان في عصر البطولة وفي العصر الكلاسيكي، بالرغم من جميع المحاولات لاخفائه أو التقليل من حدته، لم يقض عليه قط[29].

ولقد حفظت لنا خرافة الأما زون ذكرى ألوان من النضال البطولي قامت به قبائل تخضع لسيطرة الأم وقد نجحت في كبت الجماح ضد قبائل يسيطر عليها الرجال.

---

[29] راجع انجلز: أصل العائلة، والملكية الخاصة والدولة، ص 57 المطبوعات الاجتماعية باريس 1945.

ولم يعد العمل، بعد ظهور تربية الحيوانات والزراعة، للحاجة المباشرة بل أصبح ينتج فائضاً: فيصبح التبادل ضرورياً وممكنا كما تتوفر إمكانية تجميع الثروات.
يملك الناس الآن بدلا من الآلات الحجرية، آلات معدنية، وأخيراً نرى ظهور تربية الحيوانات والزراعة، والمهن، وتقسيم العمل بين مختلف فروع الإنتاج عوضاً عن اقتصاد لا يتعدى الصيد البري البدائي، ولا يعرف تربية الحيوانات أو الزراعة. كما ظهرت إمكانية تبادل المنتوجات بين الأفراد والجماعات وإمكانية تجميع الثروات في أيدي فئة قليلة[30].
أصبح العمل الإنساني فائضاً عن الاستهلاك الأدنى، ولهذا أصبح من المصلحة ضم قوى جديدة للعمل. كان أسرى الحرب، في العصر السابق، أفواها غير مجدية، لأن العمل لم يكن يكاد يوفر قوت صاحبه. ولهذا لم يكن من المصلحة الاستيلاء على أسرى حرب بل القضاء على القضاء على القبيلة المعادية التي تحتل أرض الصيد. أما الآن فإن عمل الأسير يمكنه أن يوفر فائضاً، فكان من الطبيعي استخدامه، فأصبح الأسير رقيقاً.
جعل نمو الإنتاج، في جميع الفروع – كتربية المواشي، والزراعة، والصناعة البيتية – لقوة العمل الإنسانية المقدرة على إنتاج أكثر مما يلزم لمعيشتها، كما أنه زاد، في نفس الوقت، مقدار العمل اليومي الواجب على كل عضو من العائلة البطريركية أو الجماعة البيتية أو العائلة الزواجية. ولهذا أصبح من المستحسن الإستعانة بقوى جديدة للإنتاج. وجاءت الحرب بهذه القوى الجديدة: إذ تحول أسرى الحرب إلى أرقاء.
ولقد أدى التقسيم الأول الكبير للعمل، في ظروف التاريخية، بزيادته لإنتاج العمل، أي للثروة، وتوسيعه لميدان الإنتاج، إلى الرق حتما. فنشأ عن التقسيم الأول الكبير للمجتمع إلى طبقتين: الأسياد والعبيد، المستغلين والمستغلين.
وصلنا الآن إلى عتبة المدينة... لم يكن الناس، في الدرج الأسفل، ينتجون إلا مباشرة من أجل حاجاتهم الشخصية.وكان التبادل، الذي يجري بالمناسبة، منعزلا ولا يتعلق إلا بالفائض الذي يزيد صدفة[31].

---

[30] راجع ستالين: النزعة المادية والنزعة المادية التاريخية ج3، ص 24
[31] راجع انجلز. نفس المرجع ص، 147، 148، 151

وقد أصبح إنتاج الفائض، من ثم منظما. وأصبح بعض الأرقاء ملكا جماعياً للذين أسروهم، كما أصبح بعضهم ملكا خاصاً. ولم يكن الأرقاء على كل حال، يملكون شيئاً: فظهرت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ومن ثم إنقسهم المجتمع إلى طبقات، وزالت الشيوعية البدائية، كما تغير أساس المجتمع الاقتصادي، تم كل ذلك حسب متطلبات قوى الإنتاج الجديدة، وتحسين التقنيات داخل الكومون البدائية بدون إرادة الناس.

حينما أخذ بعض أعضاء الكومون البدائية بالانتقال تدريجياً من الآلات الحجرية إلى الآلات الحديدية، كانوا يجهلون النتائج الاجتماعية التي يفضي إليها هذا التجديد. ولم يكونوا يفكرون بذلك.

ولم يعوا ذلك، ولم يكونوا يدركون أن استعمال الآلات المعدنية يعني ثورة في الإنتاج، وأنه سيؤدي بالنهاية إلى نظام الرق. لم يكونوا يريدون سوى مجرد جعل عملهم أسهل، وأن يحصلوا على فائدة مباشرة محسوسة، فكان نشاطهم الواعي ضمن نطاق هذه الفائدة الشخصية اليومية الضيق[32]

تركت نهاية العصر البدائي ومطلع عصر الرق آثاراً عميقة في مخيلة الناس. ولما كانوا لا يدركون ضرورتها الموضوعية، رأوا فيها انتقاما إلهيا، وفقداناً "للبراءة" الولية، وثمرة "للشر" و "الكبرياء"، والشيطان. وهكذا صيغت "الفضائل" القديمة في أفكار، تولد عنها العديد من الموضوعات الأخلاقية. فاستمرت ذكرى وجود المرآة القديم في أسطورة سيبيل آلهة الخصب. كما نعى الإنجيل "سقوط" الإنسان، وتغني الشعراء القدامى أمثال هزيود وأوفيد "بالجيل الذهبي"الذي تنبأ المأثور بعودته المحتومة.

وذا كان العصر البدائي لم يعرف ضروب النضال الطبقي، التي مزقت المجتمع في العصر التالي، فلقد عرف حالة الإنسانية البائسة، التي كانت فريسة للأخطار الطبيعية المتعددة. وأنه لمن السخرية أن لا نعترف بأن الرق، الذي ظهر على أساس نمو قوى الإنتاج، قد انتزع القبائل المتأخرة من الحالة التي كانت تتخبط فيها، فكان بذلك خطوة إلى الأمام.

---

[32] راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية 3، ب ص 21.

يجب، إذن أن لا نجعل من العصر البدائي العصر المثالي. لأنه كان لا بد من ظهور الطبقات الذي يجعل نمو الإنتاج ممكنا. ومع ذلك لا يجب أن ننسى أنه يفتتح هذا العصر الفريد من تاريخ الإنسانية حيث نجد، حسب قول انجلز، أن كل خطوة إلى الأمام ينتج عنها خطوة إلى الوراء. لأن كل ازدياد في الإنتاج والرفاهية والمدينة عند فريق من المجتمع يشترط ازدياد استغلال سائر أعضاء المجتمع وازدياد شقائهم.

ولقد غير مجتمع الطبقات نفسية الإنسان تغييرا قويا، ولهذا لم يكن روسو مخطئا حينما جعل "المجتمع مسؤولا" عن "فساد الطبيعة الإنسانية" إذ أن نتيجة استغلال الإنسان للإنسان حرمان المستغل من الحصول على ثمرة عمله. وهكذا يفصل الإنسان عن عمله. ويحرمه المستغل من عمله ويستولي على هذا العمل. فإذا ما فصل الإنسان عن عمله، فصل بذلك عن نفسه، لأن النشاط الإنتاجي والمبادرة المبدعة أنما هما من خصائص الإنسان التي تجعله إنساناً وتميزه عن الحيوان. وبينما يحرم المستغل مما أنتجه يستولي المستغل على ما لم ينتجه. وهكذا ينفصل الوعي نفسه، لأنه يمكنه تحقيق غاياته بحرية، كما أن وعي المستغل ينفصل عن نفسه، لأن الكذب قد حل فيه، ولأنه لا يمكنه الاعتراف بغاياته بحرية. وكل من هذين الوعيين يعكس الاستغلال بطريقته. هذا الانقسام في الوعي على نفسه، هو ما يسمى بفقد "البراءة البدائية"أو ما سماه هيجل:"مصيبة الوعي".وهكذا ينعكس ظهور الطبقات، والاستغلال، وانقسام الإنسانية إلى جماعات متناقضة، في هذا الانقسام العميق الأساسي للوعي الإنساني الذي يتوزع من تلقاء نفسه إلى نزعات تتناقض بشدة وبدلا من أن يكون الإنسان نفسه غاية نشاطه المنتج، فإننا نجد على العكس أن الغاية و الوسيلة منفصل كل منهما عن الأخر و ذلك لأن الفئة التي تكون وسيلة الإنتاج (و هي الأكثرية)ليست غايةهذا الإنتاج بل إن غايةهذا الإنتاج (وهي الأقلية)ليست وسيلة.

يفسر هذا تناقض انحطاط الطبقات المستغلة الأخلاقي متى ما لم يعد نظامها الاستغلالي يتفق وحاجات نمو قوى الإنتاج وكلما ازداد الاستغلال زاد التفسخ في عالم المستغلين. فيظهر عندئذ، بوضوح أشد، طابع مجتمع الطبقات المفسد وضرورة الإصلاح.

ومثال ذلك أن الفلاسفة، في نهاية النظام القديم – وليس روسو وحده – قد قابلوا بمجموعهم " الفضيلة" بعيون الأستقراطية الزائلة. وصرح روبسبيير أنه يستعمل الرعب

في سبيل خدمة الفضيلة. كما توخى كوندرسيه وغيره من الثورة تجديد الجنس البشري. فلم يعتم النظام الإداري أولا (Le Directoire) ومن بعده النظام البرجوازي، أن خيبا الأمل مما ساعد على ظهور نزعة فورييه الخيالية.

وكان على ماركس وحده أن يدلل على أن الأحياء لا يمكن أن يأتي من الدعاية الأخلاقية أو فلسفة، ولا من تشريع اسبارطيء ولا من ثورة عامة، بل من إزالة الاستغلال الطبقي. ذلك لأن نهاية النضال الطبقي، وانقسام الإنسانية على نفسها، يستطيع إعادة الانسجام إلى الإنسان وحلول عهد الوعي السعيد. غير إن إزالةالنضال الطبقي لا يمكن أن تتم إلا بالاستمرار في النضال الطبقي حتى النهاية. ذلك لأن الثورة البروليتارية، ولا شيء غيرها، هي التي تعيد إلى الإنسانية وحدتها التي تتمثل في البروليتاريا والجماهير الشعبية، إذ يستعيد البروليتاريون وحلفاؤهم، في نضالهم الظافر ضد ظلم الطبقات المستغلة وانحطاطها، الإنسانية من أجلهم، ويحققون بذلك غاية الإنسان. و هكذا تصبح الوسيلة مماثلة للغاية . يمكن الأمل في عمل الجماهير الشعبية للأحياء لأن النضال وحده هو الذي يحول المناضلين.

ولهذا فإنا ثورة الاشتراكية هي فجر الإنسانية الحقة، لأنها من عمل رجال جعلهم النضال الثوري يبلغون ذروة الإنسانية. أما التعارض الميتافيزيقي، الذي يحاول المفكرون البرجوازيون إقامتة غاية الثورة ووسائلها، فهو مجرد سفسطة. لأن عملية تحويل. المجتمع الثوري هي عملية واحدة في جميع مراحلها. وتتمحي، في ظروف نضال الجماهير الثوري معالم سلب الإنسان (alienation) ومعالم الوعي الموزع، والإنسانية المفسودة، كما تتأكد في، ظروف هذا النضال، معالم إنسان المستقبل، الذي تظهر من عيوب مجتمع الطبقات والدليل الحي على ذلك تضحية الثوريين.

3 – مجتمعات الرقيق والإقطاع

دللنا، في درسنا لأصل استغلال الإنسان، بصورة بديهية، على طبيعة هذا الاستغلال: أن يستولي صاحب وسائل الإنتاج على الفائض، الذي يمكن أن تنتجه قوى الإنتاج، بالنسبة

للحد الأدنى الفردي لحياة العامل، الذي حرم من ملكية وسائل الإنتاج متى بلغت قوى الإنتاج مستوى معيناً في نموها:

يعرف التاريخ ثلاث صورة لاستغلال الإنسان للإنسان: استغلال الرقيق الاستغلال الإقطاعي والاستغلال الرأسمالي. وسوف نتحدث بسرعة عن خصائص الضربين الأولين. وسنخصص الدرس المقبل للحديث عن خصائص الضرب الثالث.

التناقض الخاص بعلاقات الإنتاج في استغلال الرقيق هو التناقض بين طبقة الأسياد، مالكي الرقيق، وبين طبقة الأرقاء. وليس نظام الرق، الذي أوجده النضال والحرب، من أجل حصول على الأرقاء، سوى تسخير أسرى الحرب، ولهذا كان هذا النظام، منذ بدايته حتى النهاية، مسرح نضال طبقي مرير.

وملكية سيد الأرقاء لوسائل الإنتاج وللعمل هي أساس علاقات الإنتاج، وهي تتفق مع حالة قوى الإنتاج. إذ يمكن للرقيق، وهو أسير الحرب القديم، أن يشتري ويباع ويقتل كالحيوان، فتتكدس وسائل الإنتاج بين يدي أقلية ضئيلة. انتهى بذلك عهد العمل المشترك الحر، ولم يبق سوى تسخير الأرقاء من جهة، وبطالة الأسياد الذين لا يهتمون بالإنتاج ولا يرون وسيلة لزيادة الإنتاج إلا في زيادة عدد الأرقاء. فسيد الأرقاء هو المالك الأول الرئيسي والمالك المطلق.

يشعر الرقيق بالاستغلال شعوراً قوياً: فهو يرى أن كل ثمرة عمليه يستولي عليها سيده، فلا يبقى له سوى جزء ضئيل يناله في صورة غذائه. غير أن صور نضال الأرقاء بدائية: كالسلبية أمام التسخير، وهجر مكان السيد، وتنظيم عصابات قطاع الطرق وأخيراً الثروات الجماعية.

وقد نشأت داخل مجتمع الرقيق طبقات أخرى. فقد ظهرت طبقة العمال اليدويين حينما انفصلت المهن عن الزراعة، ثم ولد ازدياد التبادل تبادل السلع.

ومن هنا نشأت تناقضات جديدة. ولما كانت طبقة التجار وسيطاً لا غنى عنه بين منتجين، فقد جمعت بسرعة ثروات ضخمة، وأصبح لها تأثير اجتماعي يناسب هذه الثروات. وأخذت تنافس الملاكين لتوجيه السياسة حسب مصالحها الطبقية (كنضال "الديمقراطيين" ضد "الأرستقراطيين" في اليونان (ونضال (plebeins) ضد (patriciens) في روما).

غير أن هذه التناقضات الثانوية لا يجب أن تخفي التناقض الأساسي: ذلك لأن الرق يساعد على زيادة الثروات، والإنتاج الذي تعيش منه التجارة. وتزيد زيادة الإنتاج قيمة قوة العمل الإنساني فيصبح من الصعب الاستغناء عن الرق الذي يصبح عنصراً أساسياً في النظام الاجتماعي.

لم يكن تناقض المصالح بين الأسياد والأرقاء ليهدد نظام الرق طالما أن تقدم التقنيات فيه يجعل له أفضلية على القبائل المتأخرة التي كان يردها إلى الرق. ولقد أصبحت علاقات الإنتاج في نظام الرق، بعد أن كانت القوة الرئيسية لنمو قوى الإنتاج، عوائق لقوى الإنتاج. مثال ذلك أن هيرون السكندري إكتشف في القرن الثاني بعد المسيح، مبدأ الآلة البخارية. ولكن لم يكن لهذا الاكتشاف نتائج عملية لأنه كان من الأفضل الحصول على أرقاء جدد بدلا من إدخال التقنيات الجديدة التي يجعلها عمل السخرة لا فائدة منها. وأخيراً حل محل الأفضلية التقنية جمود التقنيات وتقهقرها.

كما أن الحصول على الأرقاء كان يتطلب الحرب الدائمة، وإلا كان لا بد من تربية أطفال الأرقاء للحصول على أقاء جدد وأخيراً انهارت دولة الرق القديم والإمبراطورية الرومانية، تحت ضربات البرابرة، بعد فترة طويلة من النزع، تشابكت فيها التناقضات الموضوعية وضروب النضال الديني والسياسي. إنهارت الإمبراطورية في الوقت الذي لم يعد نقصها التقني وتناقضاتها الداخلية من اقتصادية و سياسية يسمحان لها بالإنتصار على البرابرة، والحصول بذلك على أرقاء جدد. لأن نضال البرابرة ضد الدولة الرومانية لم يكن سوى نضال ضد استعبادهم. ولهذا كانت الإمبراطورية الرومانية بفعل منطق نظامها، تحتل مركز المعتدي الدائم.

وهكذا أفضى تناقض نظام الرق بهذا النظام إلى الدمار، حينما أصبح هذا النظام نفسه مناقضاً لطابع قوى الإنتاج. فكان لابد من علاقات إنتاج جديدة لبناء الاقتصاد من جديد: فنمت هذه العلاقات الجديدة على أنقاض عهد الرق، وكان النظام الإقطاعي.

يمثل النظام الإقطاعي تطوراً في الملكية الخاصة. وأساسه الاقتصادي هو ملكية السيد القطاعي لوسائل الإنتاج، وكذلك ملكيته المحدوة للعامل القين لم يعد بامكان الاقطاعي أن يقتله و إن كان يمكنه أن يبيعه أو يشتريه. ولا يملك القين، سواء كان فلاحاً أو عاملاً

يدوياً، شخصياً ألا آلاته وما اقتصده على أساسي العمل الشخصي، وهكذا يمكنه أن يكون عائلة، ولهذا فإن الحصول على الاقيان يتم بوراثة الرق. وتتفق علاقات الإنتاج هذه مع حالة قوى الإنتاج.

يقوم جوهر الاستغلال هنا أيضاً على أن السيد الإقطاعي يستولى بصفة خاصة على فائض إنتاج القين. كأن يعمل اليقين، مثلا، ثلاثة أيام لنفسه و ثلاثة أيام للسيد.و لا يكاد الإستغلال يقل بالنسبة لعصر الرق، كما أن كلمة "قين"نفسها مشتقة من لفظ لا تيني يعني "الرقيق" ويتمتع السيد بجميع الحقوق. لأن السيد ينهب قيونه طالباً إليهم تقديم تضحيات ضخمة، زاعماً أنه "يحميهم" من غزو الأسياد المجاورين. وتظل صور نضال القيون بدائية: كالهرب من منطقة السيد، وتنظيم العصابات في الغابات، والقيام بالثورات لمحاولة القضاء على السجلات التي سجل عليها السيد ما يتوجب عليه.

وينزل الاضطهاد بالقيون[33]، ويستمر النضال الطبقي بين الملاك الإقطاعيين والقيون – وهو انعكاس للتناقض الخاص بعلاقات الإنتاج القطاعية – من بداية النظام حتى نهايته. يضاف إلى ذلك أن هذا التناقض ينمو في صورة جديدة تكون بداية منازعات جديدة: إذ تولد فئة القيون التي مارست الصناعة اليدوية ومن ثم التجارة، طبقة جديدة. ويزداد تناقض المصالح بين هؤلاء "البرجوازيين" إذ يجب على هذه البرجوازية الفتية أن تنمي قوى الإنتاج، وأن تكون قوة اقتصادية جديدة. وتصبح علاقات الإنتاج، الإقطاعية، التي كانت في البدء مطابقة لطابع قوى الإنتاج، عامل تأخر، فتتحول إلى عوائق لهذه القوى. ويبدو التناقض بين البرجوازية والأقطاعية، بعد أن كان ثانويا، قد تولد عن نمو قوى الإنتاج داخل نظام الرق، فيظهر على المسرح ليقوم في النهاية بالدور الرئيسي.

ذلك لأن نضال القيون القرويين يفضي إلى بعض التحسن في مصيرهم لخوف الأقطاعيين من أن تجد البرجوازية فيهم حلفاء لها. ولكن هذا النضال لا يستطيع بنفسه أن يؤدي إلى تصفية علاقات الإنتاج، لأن قوى الإنتاج الجديدة لم تكن تنمو في القرية بل في المدينة. ولقد قضت الثورة الديمقراطية البرجوازية على نظام القين. ولم يختف التناقض الخاص

---

[33] اقرأ بروسبير مريميه: (La iocquerie) مقدمة أراجون المكتبة الفرنسية، وانجلز: "حرب الفلاحين" في "الثورة الديمقراطية البرجوازية في ألمانيا" المطبوعات الاجتماعية.

بعلاقات الإنتاج الإقطاعية إلا متى تناقضت هذه العلاقات نفسها تناقضاً شديداً مع طابع قوى الإنتاج الجديد. ذلك لأن النمو الاقتصادي الجديد بحاجة لعلاقات إنتاج جديدة، فإرتفع بناء الرأسمالية على أنقاض النظام الإقطاعي.

4 – تطور البرجوازية

نستطيع أن نلاحظ بأن قوى الإنتاج الجديدة، التي ستؤدي إلى علاقات إنتاج إنتاج جديدة، لا تظهر خارج النظام القديم بعد زواله بل هي تظهر، على العكس، داخل هذا النظام. إذ يعمل كل جيل في الواقع، لتحسين التقنيات الموجودة التي تفيده مباشرة، وذلك لأنه يجب عليه أن يتلاءم مع ظروف الإنتاج الموجودة التي أبدعها عمل الأجيال السابقة. يضاف إلى ذلك أن كل جيل لا يعي النتائج الاجتماعية التي يمكن أن يؤدي إليها تحسين قوى الإنتاج على مر الأيام، فهو لا يفكر إلا بمصالحه اليومية. ولا تدرك الطبقات الحاكمة الخطر إلا بعد مضي فترة من زمن، فتوقف تقدم قوى الإنتاج. وهكذا يندفع كل جيل في سلسلة من الأسباب والنتائج التي لا يسيطر عليها. وليست علاقات الإنتاج الجديدة نتيجة عمل واع يقوم به الناس بل هي تنبعث على العكس من تلقاء نفسها مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم. وهي ليست اعتباطية، بل تنبعث ضرورتها من ظروف النظام القديمة التقنية والاقتصادية. وتلك خاصية مهمة لجدلية طرق الإنتاج. إذ أن ما يحدد طريقة الإنتاج إنما هي علاقات الإنتاج *المسيطرة*. ولنمعن النظر في تطور البرجوازية التي عاشت سبعة قرون داخل نظام الإقطاعي.

كان الإنتاج، في البداية، ضعيفاً، وكان يستهلك محلياً وكان التبادل قليلاً، وكنا نشعر بسيطرة القرية على المدينة الخاضعة للإقطاعيين، ثم ظهرت في المدن، حوالي القرن الثاني عشر، بفضل تقدم المهن الذي يسره نظام القين نفسه، ظواهر جديدة: إذ ظهر فائض الإنتاج في السوق. ومن هنا نشأت السواق، ونشأت معها طبقة تخصصت في *بيع السلع* وشرائها: وهؤلاء هم التجار طلائع البرجوازية.

وكان انطلاق البرجوازية هذا مصدر *الحركة المسماة بـــ "الكومونال"*، وهي أول صورة لنضال البرجوازية الطبقي ضد الإقطاعيين. فقد كان السيد يطلب بدلا من عتق القين حقوقاً تدفع عيناً، وكذلك اشترى البرجوازيون، بنفس الطريقة، حقوقاً سياسية مختلفة كبناء الأسوار حول مدنهم، أو سك العملة، أو بناء السجون أو تكوين مليشيا حربية، وانتداب ممثلين منتجين، أو إقامة مركز بلدية مع برج محصن. وكان الملك يقف إلى جانبهم ضد الأسياد أعدائه مقابل قرضه المال الضروري لتقوية الدولة الإقطاعية وتسيير شؤونها.

وقامت الحرب الصليبية بتنمية البرجوازية التجارية بفتحها طريق المتوسط. كما نمت في نفس الوقت طبقة أصحاب المصارف (في فلورنسا).

ولقد دلت حرب المئة عام على عجز الإقطاعيين[34] الحربي كما دلت على نهضة البرجوازية الإنجليزية والبلجيكية على يد بائع الأقمشة ارتيفلد وزميله أتيين مارسيل ولقد انحط التقدم التقني الحربي بالأسياد إذ بلغ من غلاء الأسلحة النارية أن الملك وحده يستطيع شراءها بأموال التجار التي كان يقترضها.

حدثت *الاكتشافات الكبرى*، في نهاية القرن الخامس عشر وكانت تهدف للاستيلاء على الذهب . كما كان لتدفق الذهب على السوق الأوروبي نتائج مدهشة: إذ تكونت سريعاً ثروات ضخمة، وارتفعت السعار، وأفلس الأسياد. وأصبحت العائلات البرجوازية الكبيرة كعائلة المدتشي ملوك العصر الحقيقيين الذين يملكون سلطة يحسب حسابها وقد منحت الملكية البرجوازية مقابل المساعدة المالية التي كانت تتلقاها منها بعض الاحتكارات.

أصبح من الممكن عندئذ ظهور *المصانع* لوجود رؤوس الأموال التي تكدست في العصر السابق، ولأن ازدهار التجارة قد بلغ حداً أصبح معه الإنتاج اليدوي، الذي يمتاز به عهد الإقطاع، لا يكفي. وهكذا تم الانتقال من الصناعة اليدوية إلى التجارة ومن التجارة إلى المصانع، فتتحققت بذلك خطوة جديدة قامت بها قوى الإنتاج. وأصبحت المراكز التجارية مراكز للمصانع مثال ذلك صناعة الحرير في ليون.

ويقوم المصانع على تجزئة صنع منتوج إلى مهمات جزئية يقوم بها عمال مختلفون. يعني ذلك إمكانية زيادة الإنتاج من أجل التجارة رأس المال. فأصبحت التجارة غاية توجد

[34] قام الملك جان في اليوم السابق على معركة بواتييه بتجريد الكومونات من السلاح.

لنفسها وسائل جديدة بعد أن كانت وسيلة وهكذا ظهرت البرجوازية الصناعية وسط *المجتمع الإقطاعي* كما ظهرت معها طلائع البروليتاريا. فحلت "العصور الحديثة" محل "القرون الوسطى[35] " فكان ذلك بداية علاقات جديدة للإنتاج تمتاز باستغلال الرأسمال لبروليتاريا مأجورة. وقد تكونت هذه البروليتاريا من الفلاحين المفلسين، بعد أن طردوا من أراضيهم، ومن الصناع اليدويين الذين قضت عليهم المضاربة، ومن مرتزقة الإقطاعيين، الذين لا عمل لهم، ومن جميع الذين يفرون من الاضطهاد الإقطاعي، فقد كانوا أحراراً ولكنهم جميعاً لا يملكون وسائل الإنتاج، فاضطروا كي لا يموتوا من جوع، إلى بيع قوتهم العملية إلى البرجوازي لأن البرجوازي،الذي ولد نفسه من الإنتاج التجاري، يعتقد أن كل شيء يشتري ويباع.

تتطلب قوى الإنتاج الجديدة من العمال أن يكونوا أشد ثقافة وذكاء من القيون الجاهلين، وأن يكونوا قادرين على فهم الآلة، وأن يعرفوا كيفية إدارتها كما يجب. ولهذا يفضل الرأسمالية التعامل مع عمال مأجورين متحررين من قيود القينونة ذوي ثقافة كافة لإدارة الآلات كما يجب[36].

فقد ساعدت علاقات الإنتاج الجديدة على نمو قوى الإنتاج التي تزيد الربح. وتم الانتقال من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية، ومن ثم إلى نظام الآلات بواسطة الآلة البخارية، وبد ذلك إلى الصناعة الآلية الضخمة الحديثة. وفي القرن الثامن عشر وقعت الثورة الصناعة" التي وصفها ماركس *بقوة في الجزء* الأول من "بيان الحزب الشيوعي".

كان من نتيجة ظهور هذه العلاقات الجديدة للإنتاج أن بدأ النضال الطيقي ضد الإقطاعيين. ولقد عرف هذا النضال تطورا طويلا منذ المعارك الأولى من أجل العتق.

وقد عبرت النهضة عن ذلك. فتصدت البرجوازية للكنيسة وهي حليف الإقطاعية الروحي، معتمدة على النظريات الفكرية في العصر القديم. وأخذت تمجد الطبيعة، والعلم، والفعل، وقوة التفكير الإنساني على يد ليونار دي فنشي واراسم ورابليه ومونتيني، كما انتقدت

---

[35] ليس لهذين التعبيرين سوى مضى على ضعيف جداً بيد أنهما يدلان على تغير حقيقي.

[36] راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية 3 جن ص 26.

تربية القرون الوسطى على يد رابلية ومونتيني. وقد عبرت الحروب الدينية عن هذا النضال صورة صوفية.

واشتد النضال في القرن الثامن عشر فاتجه ضد الدولة الإقطاعية التي تعيق نمو قوى الإنتاج وازدياد التبادل، وذلك بواسطة القوانين وتجزئة الأرض والإمتيازات والضرائب ولاشتداد النضال هذا مغزى كبير: إذ أخذت البرجوازية تدرك أنه يتحتم عليها، كي تزدهر، أن تصفي علاقات الإنتاج القديمة، وأن تؤمن للعلاقات الجديدة سيطرة تامة. *فأصبح بذلك النضال سياسياً.*

وهاك ما رأيناه حتى الآن: وجدت وسائل الإنتاج والتبادل التي قامت على أساسها البرجوازية داخل المجتمع الإقطاعي إذ لم تعد وسائل الإنتاج والتبادل هذه – بعد أن بلغت درجة معينة من النمو، كما لم تعد الظروف التي ينتج فيها المجتمع الإقطاعي ويتبادل، والتنظيم الإقطاعي للزراعة والصناعة اليدوية، أي النظام الإقطاعي للملكية – تتفق مع قوى الإنتاج في ذروة نموها، فأعاقت الإنتاج بدلا من العمل على تقدمه، فتحولت بذلك إلى قيود كان لا بد من تحطيمها فحطمت.

وحلت محلها المضاربة الحرة ضمن دستور اجتماعي وسياسي خاص وسيطرت الطبقة البرجوازية اقتصادياً وسياسياً.

ولا شك أن هذا الإدراك لم يتم بين عشية وضحاحا,

حينما أخذت البرجوازية الفتية، في أوروبا، في النظام الإقطاعي، ببناء المصانع الكبيرة إلى جانب مصانع العمال اليدويين الصغيرة، فساعدت بذلك على تقدم قوى الإنتاج في المجتمع، كانت تجهل حتما الاجتماعية التي يؤدي إليها هذا التجديد، ولم تكن تفكر بهذه النتائج كما أنها لم تكن تعي ولم تكن تفهم أن هذا التجديد "الصغير" سيؤدي إلى تجمع جديد للقوى الاجتماعية، وسوف ينتهي بثورة ضد السلطة الملكية، وضد طبقة النبلاء التي كان يحلم أفضل ممثلي البرجوازية بالانضمام إليها، وكانت تهدف إلى تقليل تكاليف إنتاج السلع وزيادة كمياتها في أسواق أسيا وأميركا التي كانت قد اكتشفت حديثاً، والحصول على

أرباح أعظم، وهكذا كان نشاطها الواعي لا يتعدى نطاق مصالحها العملية اليومية الضيق[37].

لم تكن البرجوازية تهدف، في أول الأمر، إلا لضمان مكان لها في المجتمع الإقطاعي. والنضال الطبقي هو الانعكاس الاجتماعي السياسي الفكري *للمصالح* الحقيقة المادية الاقتصادية وهذا واقع موضوعي، لأن البرجوازية نفسها تدخل ضمن نطاق التاريخ الموضوعي، فهي ثمرة القوانين الاقتصادية للإنتاج التجاري، كما أنها ثمرة للملكية الخاصة التي جاءت عناصرها الأولية للطبقة المستغلة عن طريق مؤسسة القينونة نفسها.

ثم جاء زمن أصبحت فيه الملكية الإقطاعية، كما أصبح النظام الإقطاعي كله عائقاً مباشرا التقدم قوى الإنتاج بعد أن أمسى التناقض بين علاقات الإنتاج القديمة وبين قوى الإنتاج الجديدة لا يحتمل. وذلك لأن الطبقة الصاعدة هي تلك التي تستطيع تنمية قوى الإنتاج الجديدة.

وازداد وعي النضال. كما أصبح نضالا منهجيا، بعد أن كان تلقائياً، فجعل من الطبقة ثورية. وأصبحت الوسيلة التي لا يمكن تطبيق قانون الترابط الضروري بدونها.وأصبح هدفها، منذ الآن ليس تهيئة مكان للبرجوازية في النظام القطاعي بل القضاء على هذا النظام.

ولهذا اشتد نضال القطاعيين واحتدم أيضاً، أولئك الذين لم يكونوا مهددين فقط بزوال سطوتهم الاقتصادية النسبية بل اصبحوا مهددين في وجودهم كطبقة، ولهذا ازدادت رجعيتهم.

نفهم الآن قول ماركس: نضال الطبقات مح*رك التاريخ* أي الوسيلة السياسية التي تنحل بواسطتها تناقضات الإنتاج، كما أنه الوسيلة التي تقدم بفضلها قوى الإنتاج والمجتمع بأكمله. ولكن إذا كان النضال يحل التناقض فليس هو الذي أوجده. إذ ليس وعي الناس هو الذي يلهو بإيجاد التناقضات. لأن هذا المحرك لا يدور في الهواء. بل هناك الإنتاج وقانون الترابط الضروري. فهو يساعد هذا القانون على الظهور تماما، كما أن المحرك يساعد طاقة المحروق على أن تظهر كل فعاليتها. حتى إذا ما أصبح الإنتاج يولد الطبقات

---

[37] راجع ستالين: النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية 3 د، ص 29.

المتناقضة حتى زوالها، فإن نمو المجتمع يتم بواسطة نضال الطبقات: نضال بين الطبقات المعادية، من جهة، لترابط علاقات الإنتاج الضروري مع قوى الإنتاج، وبين الطبقات المؤيدة، من جهة ثانية، لهذا الترابط، ولنلاحظ بهذا الصدد، أن الطبقة الثورية يمكن أن تكون في نفس الوقت مستغلة وأن الطبقة المغلوبة "كطبقة البرجوازية في عهد الإقطاع" ليست بالضرورة طبقة مستغلة.

تصبح الطبقة الصاعدة واعية لرسالتها التاريخية بمساعدة العلم الاقتصادي أو على الأقل بمساعدة التجربة الاقتصادية، وكلما تحدد هذا الوعي كلما ازدادت فعالية النضال الثوري، لأن هذا النضال يعتمد على معرفة قانون الترابط الضروري الموضوعي.

نخلص إلى القول إذن: *إن الإنتاج الاقتصادي والنظام الاجتماعي الذي ينتج عنه حتما يكونان، في كل عصر تاريخي، أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر،.. ولهذا فقد كان التاريخ "بعد زوال ملكية الأرض المشتركة في العصور البدائية" تاريخ نضال طبقي بين طبقات مستغلة وطبقات مستغلة، بين طبقات محكومة وطبقات حاكمة، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي*[38].

---

[38] راجع انجلز: مقدمة طبعة بيان الحزب الشيوعي عام 1883 انظر ص 19 من طبعة 1954. المطبوعات الاجتماعية.

الدرس الثامن عشر

تناقض المجتمع الرأسمالي

1 – علاقات الإنتاج الرأسمالية: تناقضها النوعي

كتب ستالين يقول، في وصفه المجتمع الرأسمالي الذي يتلو المجتمع الإقطاعي:

تكون، في النظام الرأسمالي، ملكية وسائل الإنتاج الرأسمالية أساس علاقات الإنتاج، بعد أن زالت ملكية المنتجين والعمال فلم يعد الرأسمالية يملك حق قتلهم أو بيعهم، لأنهم تحرروا من كل ارتباط شخصي معه، بيد أنهم محرومون من وسائل الإنتاج، ولهذا فهم

مضطرون، كي لا يموتوا جوعا إلى بيع قوتهم على العمل إلى الرأسمالي، والتردي في نير الاستغلال[39]يعني هذا أن العلاقات الرأسمالية تحتوي على تناقض أساسي بين مصلحة الطبقة المستغلة "البرجوازية الرأسمالية" ومصلحة الطبقة المستغلة "البروليتاريا". وهذا *التناقض خاص* بالرأسمالية. وذلك لأن وجود البرجوازية الرأسمالية ورخاءها لا يتوفران إلا بعمل البروليتاريا.

وهكذا ندرك، إذن، *أن نضال الطبقات* ملازم للرأسمالية، فهو يعبر عن فهو يعبر عن *التناقض الداخلي في علاقات الإنتاج الرأسمالية*،واستغلال الإنسان الرأسمالي لأخيه الإنسان، حتى إذا ما نشأت علاقات الإنتاج الرأسمالية – داخل المجتمع الإقطاعي نفسه – ظهر النضالى الطبقي الموضوعي بين البرجوازيين والبروليتاريين[40] ويستمر ذلك النضال على يدى تاريخ البرجوازية.

وسوف يتيح لنا تحليل علاقات الإنتاج الرأسمالية تحديد طبيعة تناقضها النوعي الذي يؤدي بالضرورة إلى نضال الطبقات.

كان الصانع اليدوي يبيع مصنوعاته اليدوية ليشتري لنفسه حاجات مادية ضرورية، والرأسمالي يشتري المواد الأولية لبيع منتوجات مصنوعة. هدف الإنتاج اليدوي هو الاستهلاك، بينما غاية الإنتاج الرأسمالي هي الفائدة. وهكذا

يصبح الانتقال من الشكل الأول لدوران المال إلى شكل دوران الرأسمال ممكنا، كما *وجدت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج*. وهذا ما يحدث في النظام القطاعي خاصة، كما يفسر لنا نشأة الرأسمالية في هذا النظام.

يتحول المال إلى رأسمال، في هذا النوع الجديد من دوران المال، وذلك لأن توظيف المال هو لزيادة إنتاج المال.

---

[39] راجع ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، الفصل الثالث صفحتين: 25 – 26.

[40] ولهذا من الخطأ الاعتقاد أن الفئة الثالثة (le tirs etat) كانت في عام 1789، أيام الثورة البرجوازية، كتلة واحدة خالية من تناقضات المصالح. فلقد كانت مصلحة جميع الطبقات التي تكون الفئة الثالثة، المشتركة في القضاء على الإقطاع: ولكنه كان يوجد في نفس الوقت تعارض في المصالح داخل الفئة الثالثة بين المستغلين والمستغلين، يضاف إليه تعارض المصالح بين البرجوازية الكبرى والبرجوازية الصغرى والخ...

بيد أنه يجب، كي يتحقق الربح من هذه العملية، أن يجد الرأسمالي في السوق بضاعة لها ميزة خاصة، ألا وهي إنتاج قيمة أكثر من القيمة الضرورية لتجديدها، وأن يملك الرأسمالي لوحده فائض القيمة هذه.

فما هي هذه البضاعة المفيدة للرأسمالي؟ إنها ولا شك *قوة العامل* على العمل، لأن العمل وحده يمكنه إن ينتج القيمة[41].

ويجب أن نفهم من القوة على العمل مجموع الصفات الحية التي يستخدمها لإنتاج أشياء مفيدة[42].

ماذا يجب كي يمتلك الرأسمالي القيمة المنتجة؟ ويملك جميع وسائل الإنتاج؟

ماذا يجب كي تصبح قوة العمل الإنسانية بضاعة؟ ويضطر الناس إلى بأنفسهم في الأسواق؟

يجب أولا: أن يملكوا هذه القوة تماما، أي أن يتحرروا من قيود الرق. ثانياً: يجب وجود الأسواق: حيث يوجد الشراء والبيع والإنتاج التجاري. ثالثا: أن لا يكون لدى الناس للبيع سوى قوتهم على العمل، أي أنهم لا يملكون هم أنفسهم أي وسيلة للإنتاج.

يوجد مثل هؤلاء الناس البروليتاريين وذلك أما بسبب ازدهار النظام القطاعي اقتصاديا، أو بسبب المضاربة التي تسيطر في الإنتاج التجاري وتقضي على صغار الصناع اليدويين، وصغار التجار.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن الرأسمالي، الذي يهمه استخدام العمال الأحرار الذين هم أرقى من الرقيق الجهلة، ويعرفون كيف يستخدمون الآلات الجديدة، يشجع بكل الوسائل نضال الرقيق من أجل تحريرهم.

ندرك الآن مصدر "الحرية" التي نادت بها الرأسمالية، وطبيعة هذه الحرية، هذه الحرية هي حرية التجارة والأعمال بالنسبة للرأسمالي، وحرية العمل عند الرأسمالي بالنسبة للبروليتاري.

---

[41] لا شك أن قوة الإنسان على العمل لا يمكن أن تنتج فائضا على القيمة ألا في مستوى معين من تطور قوى الإنتاج. كما رأينا في الدرس السابع عشر، 2.

[42] راجع كارل ماركس: الرأسمال، الكتاب الأول، الجزء الأول الفصل السادس ص 170. المطبوعات الاجتماعية.

وهذا ليس سوى قوة البروليتاري على العمل. ولكن كيف سيدفع أجر هذه القوة؟ كما يدفع ثمن كل سلعة، إذ تتحدد قيمتها بكمية العمل الضرورية لإنتاجها. وقيمة المنتوجات الضرورية لاستمرارها وتجددها، كي يعيش البروليتاري ويشب أطفاله فيحلوا محله. ولما كانت هذه القيمة ستحسم من القيمة التي ينتجها العامل خلال عمله اليومي، فإن الزائد، وهو *فائض القيمة*، سيزيد من رأس المال: "يكون القسم الأول *الأجر* بينما يتولد عن القسم الثاني *الربح*[43]".

ولهذا كانت مصلحة الرأسمالي في تمديد العمل اليومي، كما أن مصلحة البروليتاريا، في تقصيره. فإذا وجب ثلاث ساعات لإنتاج قيمة تساوي ما تتطلبه تغذية قوة العمل عند العامل، وإذا كان هذا العامل يبدأ عمله في الساعة السادسة صباحا، فإنه منذ الساعة التاسعة يعمل لمصلحة الرأسمالي. فإذا عمل بدون انقطاع وانتهى من عمله الساعة 14 فإنه يكون قد عمل خمس ساعات لمصلحة الرأسمالي. وإذا انتهى الساعة 19 "نفرض عملا متواصلا" فإنه يكون قد عمل عشر ساعات لمصلحة الرأسمالي.

وهكذا يتضاعف ربح الرأسمالي ما بين ثماني ساعات عمل يوميا وثلاثة عشر ساعة: "وكان هذا شائعا في مطلع الرأسمالية" بينما أجر العامل لم يتغير: فهو محدد بالقيمة لتغذية قوة العمل، وهي قيمة تكفي ثلاث ساعات لإنتاجها.

يخفي، طبعا، الرأسمالي، هذا الأمر حين يدفع أجر العامل، في نهاية اليوم، بعد انتهاء العمل المطلوب.

ولهذا يضطر البروليتاري، كي لا يموت من الجوع إلى العمل طيلة الوقت المحدد كي ينال أجره.

ويعني هذا أن الرأسمالي، مقابل أجر يمثل تماما ما يساوي أقل حاجات البروليتاري المادية، يستولي على منتوجات عمل البروليتاري. وهكذا ينقسم العمل اليومي إلى عمل يومي ضروري وعمل يومي بالمجان.

---

[43] "تتحدد قيمة قوة العمل بقيمة الأشياء الضرورية الواجبة لتوليد قوة العمل وحفظها واستمرارها". (ك. ماركس، الجر، السعر، والربح ص 18 العمل المأجور وراس المال. ص 95)

"وأما فائض القيمة، أي جزء القيمة الكلية للسلع التي تحتوي على فائض العمل، أي العمل غير المأجور الذي قدمه العامل فأسميه الربح" (نفس المرجع ص 23، 100)

يوجد إذن، في عهد الرأسمالية، كما وجد في عهد الإقطاع وعهد الرق، *تملك خاص للعمل غير المأجور*. غير أن البروليتاري لا يكتشف رأسا سر هذا الاستغلال، لأنه يخيل إليه أنه قد دفع إليه أجرة كل عمله عند نهاية اليوم. كان الرقيق يملك منتوجات اقتصاده الخاص، وكان يعرف أنه يعمل عددا من الأيام بالمجان في خدمة سيده.

أما البروليتاري العصري، فهو، كالعبد، لا يملك شيئا سوى "حريته"، أي قدرته على بيع قوته على العمل. وكان العبد ينال غذاءه من سيده، أما الرأسمالي فهو يعطي البروليتاري. في صورة أجر الضروري مما يحتاجه في غذائه، وربما عاد فاستولى على كل هذا الأجر في مستودع الأغذية أو عند دفع أجرة السكن: فالرأسمالية هي إذن العبودية المأجورة.

أتاح لنا هذا التحليل أن نتأكد أننا كنا محقين في قولنا أن مصالح الرأسمالي اقتصادية لا تتفق و مصالح البروليتاري في الاساس، ولا يمكن التوفيق بينها، وإن هناك تناقضا كامنا في الرأسمالية يكون جوهر علاقات الإنتاج الرأسمالية.

ينتج عن ذلك أن فكرة تعاون الطبقات والشراكة بين رأس المال والعمل هي سلاح لخدمة الرأسمالي. فهي تهدف إلى أبعاد البروليتاري عن النضال من أجل الدفاع عن مصالحه. ليس الاستغلال الرأسمالي نتيجة "استغلال رؤساء العمل الفاسدين". كما تدعي منشورات البابا، لأنه لا يوجد رأسمالية "صالحة" إذ أن كل رأسمالية مستغلة بطبيعتها ولهذا فأن القول بالقضاء على البروليتاريا، والقضاء على الاستغلال الرأسمالي مع المحافظة على الرأسمالية والملكية الفردية لوسائل الإنتاج إنما هو سخرية بعقول الناس، إذ يجب القضاء على الرأسمالية كي نقضي على البروليتاريا.

وتصح هذه الملاحظات بصدد "الاشتراكية" البرجوازية عند برودون التي لا تهتم بالقضاء على الرأسمالية بواسطة عمل الطبقات الثوري، بل "بتحسين مصير الطبقة العاملة".ضمن نطاق الرأسمالية بعد تعديلها[44].

---

[44] "لا تبلغ الاشتراكية البرجوازية صورتها الكاملة ألا حين تصبح مجرد صورة بلاغية. التبادل الحر من أجل مصلحة الطبقة العاملة! وحقوق تحمى أصحاب المصانع، من أجل مصلحة الطبقة العاملة!..

وهناك نتيجة أخرى لتحليلنا، وهي أن نضال الطبقات ليس من اختراع كارل ماركس. فهو موجود مستقلا عن إرادة الناس. ولهذا لا يستطيع البروليتاريون توفير أسباب عيشهم ألا بالنضال ضد المستغل، حتى إذا ما كفت البروليتاريا عن النضال، من أجل الأجور، انتهت بما الرأسمالية إلى حالة قريبة من حالة الحيوان.

غير أنه يجب أن نلاحظ أن التناقض بين الرأسمال والعمل ليس هو التناقض الوحيد الذي وجد منذ مطلع الرأسمالية. ولكن تناقض المصالح بين الرأسماليين المتنافسين ليس أساسيا بل يتبع التناقض النوعي للرأسمالية، وهو التناقض بين الرأسمالي المستغل وبين العامل المستغل: ولولا هذا التناقض لما كان هناك رأسمالية. وهكذا يكون قانون سيطرة الإنتاج في النظام الرأسمالي تابعا لقانون فائض القيمة الأساسي.

2 – قانون الترابط الضروري في المجتمع الرأسمالي

درسنا فيما سبق علاقات الإنتاج الرأسمالية: وذلك بتحليل تناقضها الداخلي ذلك التناقض الخاص بالرأسمالية.

وسوف تسمح لنا هذه الدراسة أن ندرك مصير قانون المجتمعات الأساسي، في المجتمع الرأسمالي، وهو قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج. وسوف نرى، في المرحلة الأولى، كيف أوجد تناقض الرأسمالية الخاص ظروفاً مواتية لعمل قانون الترابط الضروري، أي لازدهار قوى الإنتاج.

ثم سوف نرى، في مرحلة ثانية، أن تناقض الرأسمالية الخاص يوجد ظروفا مواتية لعمل قانون الترابط الضروري: ومن ثم ينشأ النزاع بين علاقات الإنتاج وبين قوى الإنتاج. فيعين ذلك نمو قوى الإنتاج.

تلك هي أخر كلمة للاشتراكية البرجوازية، وهي الكلمة الوحيدة التي قالتها جادة، لأن الاشتراكية البرجوازية تكمن كلها في هذا القول وهو أن البرجوازيين هم برجوازيون من أجل مصلحة الطبقة العاملة "ماركس – انجلز: بيان الحزب الشيوعي. ص 57)

ا ـ الترابط بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وطابع قوى الإنتاج

رأينا في الدرس الرابع "المسالة 4" أن طبقة البرجوازية تكونت وسط المجتمع الإقطاعي. ولما كانت مصالح الطبقة البرجوازية مرتبطة بازدهار قوى الإنتاج الجديدة(كالصناعات اليدوية، المصانع) فإنها لم تستطيع النمو إلا عن طريق النضال ضد علاقات الإنتاج الإقطاعية التي لم تنسجم مع قوى الإنتاج الجديدة. فكانت بذلك حجر عثرة في وجه قانون الترابط الضروري.

كانت مهمة الثورة الديمقراطية البرجوازية تصفية الإقطاع، فسيطرت علاقات الإنتاج الرأسمالية بفضل انتصار البرجوازية.

وهكذا أقبلت مرحلة تاريخية كانت فيها طريقة الإنتاج الجديدة تتفق تماماً مع متطلبات نمو الإنتاج. واستعاد قانون الترابط الضروري، الذي كان المجتمع الإقطاعي يعيق عمله، كل قوته في المجتمع الرأسمالي.

ويجب أن نلاحظ أن العلاقات الرأسمالية لا تتفق مع أية صورة أخرى لعلاقات الإنتاج. لماذا؟ تقوم الرأسمالية على الربح "راجع المسألة 1 من هذا الدرس" ولهذا كانت مصلحة الرأسمالية في زيادة الإنتاج باستمرار وبأسعار أقل. ولهذا تحتاج الرأسمالية إلى ضم قوى جديدة للإنتاج تقلل من الوقت اللازم للإنتاج، كما تحتاج إلى الحصول، بمختلف الوسائل، على أسواق جديدة. غير أن هذا الربح لا يمكن أن يأتي بربح أكبر إلا إذا استخدام في مشاريع صناعة، أو تجارية، أو زراعية جديدة. ولهذا كان على الملكية الرأسمالية أن تمتد إلى جميع وسائل الإنتاج بدون استثناء. وهكذا لا تستطيع الرأسمالية أن تسمح بوجود أية أخرى للملكية إلى جانبها. بل عليها أن تشمل الأمة بأجمعها، ومن ثم ما هو خارج من الأمة، فسعى منذ بدايتها إلى سيطرة عامة شاملة.

لا يمكن للبرجوازية أن توجد إلا بتطوير وسائل الإنتاج باستمرار، وهذا يعني تطوير ظروف الإنتاج وجميع العلاقات الاجتماعية. بينما كانت المحافظة على طريقة الإنتاج القديمة بدون أي تغيير، على العكس، الشرط الأول لوجود الطبقات الصناعة السابقة[45]. ولهذا يتميز عهد البرجوازية، عن جميع العهود السابقة، بهذا التطوير الدائم للإنتاج الذي

[45] في الصناعة التي تعتمد على الرقيق مثلا.

يؤدي إلى زعزعة مستمرة للنظام الاجتماعي بأكمله، وإلى اضطراب وعدم اطمئنان لا ينقطعان، فتزول جميع العلاقات الاجتماعية التقليدية مع ما يرافقها من نظريات وأفكار قديمة. وإذا بالشيخوخة تعتري العلاقات التي تحل محلها قبل أن يشتد ساعاها، فكل ما هو صلب دائم يصبح دخانا تذروه الرياح، كما يدنس كل ما هو مقدس، ولهذا يضطر الناس إلى النظر لأحوالهم المعيشية ولعلاقاتهم المتبادلة نظرة تنم على الخيبة واليأس[46].

ومع ذلك يعم قوى الإنتاج ازدهار عظيم. إذ تعتقد الرأسمالية، في هذه المرحلة، أن عليها أن تنمي قوى الإنتاج بصورة غير محددة.ومن هنا كان الإعتقاد "بالتقدم"اللانهائي داخل البرجوازية، وخلود الرأسمالية التي تبدو على أنها الصورة النهائية الكاملة للمدينة، فيعتقد، حينئذ، الاقتصاديون الرأسماليون أن الإنتاج الرأسمال ينمو بيسر، بعيداً عن التناقضات، فإذا بهذا العصر عصر "الانسجام الاقتصادي"

يخيل للرأسماليين عندئذ أنهم يخدمون مصالح المجتمع، ويزيدون من حجم السلع المستهلكة،و يوفرون العمل للجميع.

أما مشاغلهم "الاجتماعية" فهي، بالنسبة لفريق منهم، الأمل بعلاج الأمراض الاجتماعية، عن طريق تنمية الإنتاج، وبذلك تتوطد أركان النظام الرأسمالي والمجتمع البرجوازية. ويصبح مثل المصلحين البرجوازيين الأعلى، آنئذ، أن يجعلوا من جميع الناس ملاكين، لتكون البرجوازية بدون البروليتاريا. وقد ولد هذا الضرب من الإحسان المحافظ الجمعيات الخيرية المتعددة.

تعكس لنا هذه الأفكار أن الملكية الخاصة الرأسمالية لوسائل الإنتاج، في هذه الفترة، تساعد الإنتاج مساعدة قصوى.

لا شك أن العصر الذي تلى الثورة البرجوازية، حين قضت البرجوازية على علاقات الإنتاج الإقطاعية، وأحلت مكانها علاقات الإنتاج البرجوازية، قد مر بفترات كانت فيها علاقات الإنتاج البرجوازية حسب طابع قوى الإنتاج ، وإلا لما استطاعت الرأسمالية أن تنمو بسرعة، كما فعلت بعد الثورة البرجوازية[47].

---

[46] كارل ماركس: بيان الحزب الشيوعي ص 32.

[47] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 1.

وكانت علاقات الإنتاج الرأسمالية *القوة الرئيسية* التي تعمل على نمو قوى الإنتاج. بيد أننا قد برهنا في المسألة "1" من هذا الدرس أن العلاقات الرأسمالية هي علاقات استغلال، فإذا كانت قوى الإنتاج استطاعت أن تنمو في النظام الرأسمالي فما ذلك ألا نتيجة للاستغلال! لأن ازدهار الإنتاج كان بسبب وجود فائض القيمة الذي يولده العمل الإنساني، فاستولت البرجوازية على هذا الفائض. وهكذا *يكون استغلال البروليتاريين هو الذي عمل على نمو الرأسمالية*. فالبروليتاريون العصريون هم الذين أوجدوا روائع المدنية الحديثة، وعانوا البؤس المخيف الذي فتك بالرجال والنساء والأطفال، وكان من جرئه نمو قوى الإنتاج الرائع الذي أقامت عليه البرجوازية الرأسمالية بذخها وسلطانها[48]يعني هذا أن الإنتاج في المجتمع الرأسمالي تابع للربح الرأسمالي، وهو يقوم على استغلال الطبقة العاملة.

يحق لنا القول، إذن، أن التناقض الخاص بالرأسمالية – وهو التناقض بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة – أوجد ظروفاً مواتية لعمل قانون الترابط الضروري، وإن هذه الظروف مواتية أيضاً لازدهار قوى الإنتاج.

ولسوف نرى الآن كيف كان لنفس التناقض، في مرحلة ثانية (تبدأ نحو عام 1840) أثر معاكس لهذا الأثر.

ب ــ النزاع بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وطابع قوى الإنتاج

كان الرأسماليون، في عصر ازدهار الرأسمالية، يعتقدون أنه يمكنهم تطوير وسائل الإنتاج بصورة غير محدودة، كما كانوا يعتقدون أن الصناعة سوف تخفف الآلام، وتحل جميع المشاكل. ولم يتراء لهم أن تطوير هذه الوسائل يمكن أن يقف في وجهه أحدألا و هو الرأسمالية نفسها . وذلك بنفس الطريقة التي يصبح فيها تكبير حبات العدس محدوداً في الميكروسكوب، فتحدث عندئذ ظواهر ضوئية جديدة تمنع الرؤية، وتحول دون أي تقدم في الميكروسكوب القديم. كما أن ازدياد سرعة الطائرات يحدث ظواهر جديدة حين تبلغ سرعة الصوت، وكذلك يجب على نمو قوى الإنتاج – الذي يسرته الرأسمالية – أن يضر

---

[48] الرأسمال هو عمل ميت، يشبه الحيوانات التي تعيش على امتصاص الدماء، فهو لا يعيش ألا على امتصاص عمل الأحياء" ك ماركس:
رأس المال، الكتاب الأول، ج1. ص 229. المطبوعات الاجتماعية.

بالرأسمالية نفسها لأن تلك هي الجدلية في الطبيعة والمجتمع. فلقد اصطدمت الرأسمالية نفسها "بجدار الصوت" فكانت الأزمات الاقتصادية[49]. فما هو أساس هذه الأزمات؟
تستطيع الرأسمالية، بواسطة تطوير قوى الإنتاج أن تعرض في الأسواق كميات متزايدة من السلع بأسعار أرخص، فتزداد حمى المضاربة، وتقضي الرأسمالية بذلك على طبقة صغار الملاكين ومتوسطيهم. بينما تتجمع الثروة في أيدي آفة قليلة من الرأسماليين "المحتكرين". ويعم الفقر الأغلبية الساحقة "الطبقة المتوسطة، والفلاحين". وتزداد أهمية جميع هذه الطبقات، كلما تجمع رأس المال بين أيدي أقلية من المستغلين، كما تضعف قوتهم الشرائية، فإذا بالبيع في السوق يخف، وإذا بالكساد يحل، لأن أكثرية السكان تقتصر في استهلاكها على الضروري فقط. فيظهر الخلل عندئذ أكثر فأكثر بين الإنتاج والاستهلاك. وهذا ما يسميه الرأسماليون "فائض الإنتاج"، فتحدث حينئذ الأزمة.
وهكذا يولد الجري وراء الربح، وهو هدف الرأسمالية، عكسية: وهو توقف الربح. فإذا بغالبية المجتمع تتردى في البؤس، لأنها انتجث وسائل للعيش لا تستطيع شراءها.
فإذا بها تعاني الفقر بسبب كثرة الإنتاج!
يظهر التحليل الاقتصادي الماركسي أن التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، ونمو الإنتاج الاجتماعي بهدوء وانسجام لا يمكن أن يتحققا إلا إذا اعتبرنا مجموع حاجات المجتمع، سواء كانت سلع الاستهلاك أو وسائل الإنتاج. ولكن أنى للرأسمالي أن يعتبر هذه المتطلبات، بينما هدفه الوحيد هو مصلحته الخاصة وربحه الذي تحدده أحوال السوق؟
وليس الإنتاج، في النظام الرأسمالي، تابعا لحاجات الجميع بل هو تابع لأرباح الأقلية الرأسمالية. ولهذا لا يمكن تنمية الإنتاج، في الرأسمالية، بصورة منسجمة إذ ينقسم هذا الإنتاج بطابع استبدادي.
وهكذا نجد أن أساس الأزمات الاقتصادي، هو، النهاية، التناقض الذي نشأ بين مصالح الرأسماليين الخاصة بين متطلبات الإنتاج الاجتماعي، فلقد قضيت الرأسمالية، بتنميتها لقوى الإنتاج، على تجزئة الإنتاج الخاصة بالصناعة اليدوية، كما أدرت المضاربة القاسية بين الرأسماليين، في مطلع القرن العشرين، إلى التهام الأقوياء للضعفاء. فتكونت

[49] راجع بابى: المرجع المذكور، ص 253 - 254

الاحتكارات، وهي أشبه بإقطاعيات اقتصادية هائلة تمتد حبالها خارج حدود بلادها "كالاحتكار الأميركي المؤلف من شركة (standard oil) تحت إشراف روكفلر ملك البترول[50]".

لا تفرق الرأسمالية، في هذه المرحلة، بين الصناعات المختلفة من استخراج المواد الأولية حتى المصنوعات. وتقوم الاحتكارات الضخمة بالإشراف على مجموع اقتصاد بلد أو عدة بلدان من صناعة وتجارة وزراعة، فتسيطر على الاقتصاد أوليجارشية (oligaarchie) اقتصادية تملك رؤوس الأموال الضخمة اللازمة لسير الإنتاج.

وهكذا حمل تطور الرأسمالية الرأسمالية نفسها على التسرب إلى جميع مظاهر الحياة الاجتماعية. فإذا بالمصارف والاحتكارات تربط مختلف فروع الإنتاج بروابط متينة.

وإذا بعملية الإنتاج تتخذ طابعاً اجتماعياً.

ولكن من يستفيد من كل ذلك؟ حفنة من الرأسماليين تملك وسائل الإنتاج الكبرى، ويصبح الإنتاج اجتماعياً أكثر فأكثر، ولكنه لفائدة أقلية طفيلية.

وتبحث الاحتكارات المتعادية، التي تكون هذه الأقلية عن الربح الأكبر، مستغلة الطبقات الكادحة وصغار الرأسماليين. وذلك لأن الحصول على الربح الأكبر إنما هو. بالنسبة إليهم، ضرورة موضوعية يحتمها اتساع أعمالهم، ذلك هو القانون الأساسي للرأسمالية الحالية.

ويمكن صياغة معالم قانون الرأسمالية الاقتصادي الأساسي ومتطلباته بما يلي: تأمين الربح الرأسمالي الأكبر باستغلال غالبية سكان بلد معين وتدميرها وإفقارها، وكذلك باستعباد شعوب البلاد الأخرى ونهبها بصورة منظمة، ولا سيما البلاد المتأخرة، وأخيراً تسخير الاقتصاد القومي، بواسطة الحروب، للتسلح لاستخدامها في تأمين أكبر الأرباح[51].

يؤدي الجري، إذن وراء الربح الرأسمالي إلى نتيجة حتمية وهي بؤس الطبقات الكادحة المتزايد، واندلاع نيران الحروب. فلقد أعلنت الحرب الكورية على يد زعماء الرأسمالية

---

[50] يكون الانتقال من الرأسمالية الحرة إلى الرأسمالية المحتكرة أروع تعبير عن نزاع الأضداد. إذ تتحول المضاربة الحرة بين الرأسماليين إلى ضدها "الاحتكار" بإزالة الضعفاء. تظهر حينئذ صورة جديدة للنضال، هو النضال بين الاحتكارات على المستوى العالمي.

[51] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" في مؤلفات أخيرة ص 151

الأميركية: لأن هؤلاء الرأسماليين، وقد تملكهم الذعر من شبح الأزمة الاقتصادية، لا يستنكفون عن السعى بواسطة الحروب، عن طلبات تعود عليهم بالربح الوفير ولهذا صرح الرئيس ايزنهاور بقوله "رخاؤنا هو رخاء حرب".

تقف الرأسمالية، في المراحل الحالية، موقف المعتدي الدائم على الشعوب. وهذا هو الاستعمار.

غير أنه بوسع الرأسماليين إزالة التناقض الكامن في الرأسمالية، وهو التناقض بين مصالح الطبقة المستغلة ومصالح المجتمع بمجموعه. وبالرغم من إدراك البرجوازية لهذا التناقض فإنها لا تستطيع تضحية مصالحها الطبقية والنكوص عن أربحها. ولهذا تعمل على الحد من قوى الإنتاج حسب مصالحها. فتحمي بذلك علاقات الإنتاج الرأسمالية ضد تقدم قوى الإنتاج التي تهددها.

ويمكننا تعداد الأمثلة الكثيرة التي تظهر أن الرأسمالية، وقد تملكها الخوف من الأزمة الاقتصادية، تعيق تطور قوى الإنتاج، فتعود إلى العمل اليدوي، وتنتج سلعا سيئة، وتهمل المخترعات الجديدة، وتقلل أو تلغي الإعتمادات الضرورية للمختبرات الخ... يفسر لنا كل ذلك ركود الإنتاج الرأسمالي في مجتمع الميادين.

كتب ستالين يقول في وصف حال الرأسمالية:

تردت الرأسمالية في تناقضات يصب عليها حلها، لأنها نمت قوى الإنتاج بصورة هائلة. فهي، بإنتاجها كميات متزايدة من السلع وتخفيضها للأسعار، تزيد من خطورة المضاربة، وتقضي على طبقة صغار الملاكين ومتوسطيهم فتجعل منهم بروليتاريين، كما تنقص من قدرتهم على الشراء فتكون نتيجة ذلك استحالة تصريف السلع المصنوعة. وتجعل الرأسمالية، بتوسيعها للإنتاج وتجميعها لملايين العمال في مصانع ضخمة، لعملية الإنتاج طابعا اجتماعيا، كما أنها في نفس الوقت تهدم أساسها، لأن طابع عملية الإنتاج الاجتماعي يستدعي ملكية وسائل الإنتاج الإجتماعية ، غير أن ملكية وسائل الإنتاج تظل ملكية فردية رأسمالية لا تتفق وطابع عملية الإنتاج الاجتماعي.

تظهر هذه التناقضات المتنافرة بين طابع قوى الإنتاج وبين علاقات الإنتاج في أزمات فائض الإنتاج المستمرة.فيضطر الرأسماليون، لانعدام الشراء، بسبب القضاء على الطبقات

التي كانوا هم السبب في إفقارها، إلى حرق الحبوب وإفساد السلع الجاهزة وإيقاف الإنتاج، وتحطيم قوى الإنتاج بينما ملايين الناس يعانون البطالة والجوع، وليس ذلك بسبب فقدان السلع، ولكن بسبب كثرة هذه السلع.

يعني هذا أن علاقات الإنتاج الرأسمالية لا تتفق وحالة قوى الإنتاج في المجتمع فنشأ التناقض بينهما[52].

التناقض إذن بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وبين طابع قوى الإنتاج الاجتماعي هو أساس الأزمات التي تعتري الرأسمالية.

غير أن *هذا التناقض نفسه قد تولد من التناقض الخاص بتكوين الرأسمالية* "الذي درسناه في المسألة (1) من هذا الدرس".

وإذا ما أردنا أن نختصر المسألة (2) فماذا نجد؟

كان التناقض الخاص بالرأسمالية "حيث تقف البرجوازية المستغلة ضد البروليتاريا المستغلة" مواتياً أولاً لعمل قانون الترابط الضروري: وكان قانون فائض القيمة، وهو مصدر الربح الرأسمالي، يعمل على ازدهار قوى الإنتاج، تلك كانت مصلحة الطبقة البرجوازية.

ثم أدى نفس التناقض إلى نتيجة عكسية، إذ أصبحت المصلحة الطبقية حجر عثرة في وجه الإنتاج. لأن قانون فائض القيمة، الذي يتمثل اليوم في قانون الربح الأكبر، قد عمل على فشل قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج، غير أن قانون الترابط الضروري كما نعلم , هو القانون العام للمجتمعات الإنسانية الذي يشمل جميع صور الإنتاج. فلا، يمكن للمجتمعات أن تتقدم إلا في ظل هذا القانون.

وهكذا يعمل القانون الخاص بالرأسمالية" وهو قانون فائض القيمة الذي لا ينفصل عن الاستغلال البرجوازي" على فشل قانون المجتمعات الإنسانية العام. وهذا النزاع هو مصدر انحطاط الرأسمالية. ويعني هذا أنه قد نمت، داخل النظام الرأسمالي قوى إنتاجية لم يعد يستطيع كبح جماحها. كما يعني أن علاقات للإنتاج جديدة، وهي *العلاقات*

[52] ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية" الفصل 3، 1، ص 26 – 27.

الاجتماعية *sosyalist üretim*. أصبحت ضرورية، موضوعيا، لأنها الوحيدة التي تلائم قوى الإنتاج الحديثة.

تحمل الرأسمالية في أحشائها ثورة، وعلى هذه الثورة أن تحل محل ملكية وسائل الإنتاج الرأسمالية الحالية الملكية الاشتراكية[53].

وسوف نلاحظ أن الرأسمالية، بتنميتها لحصر وسائل الإنتاج. قد عملت. بالرغم عنها، ضد مصلحتها. لأن مجموع الإنتاج يتخذ طابعا اجتماعيا في مرحلة الاحتكارات ويصبح التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج وبين التملك الفردي الرأسمالي حاداً لا يطاق. كلما ازدادت سطوة الاحتكارات. فتكون البرجوازية قد حفرت بنفسها قبرها في عملها على ازدهار قوى الإنتاج. خدمة لمصلحتها الطبقية وحصرها لقوى الإنتاج أكثر فأكثر للحصول منها على الربح الأكبر. أما حفار القبور فهي الطبقة التي أتاح عملها وبؤسها للرأسمالية أيامها السعيدة: ألا وهي طبقة البروليتاريا.

3 – نضال طبقة البروليتاريا منهج لحل التناقض بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج.

أظهر لنا التحليل الجدلي للرأسمالية:

أ) وجود تناقض في علاقات الإنتاج يعمل على تعارض البروليتاريا المستغلة والبرجوازية المستغلة. وقد تبينا، من درسنا لهذا التناقض في المسألة "1" من هذا الدرس، أنه يدوم دوام الرأسمالية نفسها، لأنه التناقض الخاص بالرأسمالية.

ب) وجود تناقض بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وبين طابع قوى الإنتاج. وهو لا يظهر إلا حين تبلغ قوى الإنتاج، التي تنميها الرأسمالية، مستوى معينا (نحو عام 1840)– وقد درسنا هذا التناقض في المسألة "2" من هذا الدرس.

---

[53] المادية الجدلية والمادية التاريخية، ص 27.

فما هو أساس تغير طريقة الإنتاج وما هو سبب الثورة الاشتراكية؟ رأينا أسباب ذلك هو التناقض الثاني. *غير أن التناقض الأول هو الذي يولد التناقض الثاني*، لأن الاستغلال الرأسمالي، استغلال البروليتاريا على يد البرجوازية، هو الذي ساعد على ازدهار قوى الإنتاج. وهو ازدهار --- *الطبقة المستغلة* حتى *اليوم الذي أصبحت فيه قوى الإنتاج هائلة بالنسبة للرأسمالية.*

نستطيع الآن أدراك مهمة نضال البروليتاريا الطبقي التاريخية. وسنرى بأن هذه المهمة هي حل التناقض "ب" الذي ظهر بين علاقات الإنتاج الرأسمالية وبين قوى الإنتاج.

كانت البرجوازية تنمي البروليتاريا، في نفس الوقت الذي كانت تنمي فيه قوى جديدة للإنتاج، حسبما تقتضيه طبيعة علاقات الإنتاج الرأسمالية "راجع المسألة 1". وطبقة البروليتاريا هي الطبقة المستغلة، أي المناقضة للبرجوازية المستغلة. وكلما تجمعت وسائل الإنتاج بين يدي البرجوازية كلما ازداد عدد البروليتاريا وقوتها. وهكذا جمعت البرجوازية، من أجل الاستغلال الرأسمالي، عشرات الآلاف من العمال. ثم الملايين في مصانع واسعة أقامتها في المناطق الصناعية، كما أنها جمعت عشرات الآلاف من العمال الزراعيين لاستغلالهم.

غير أنه لا يمكن للعمال البروليتاريين أن يؤمنوا معيشتهم، كما نعلم، إلا بالنضال المستمر ضد الطبقة التي تستغلهم. وهكذا ولدت البرجوازية، بتوليدها نقيضها "البروليتاريا المستغلة"، جيشاً من الأعداء يقومون بنضال طبقي ضد المستغلين.

ولقد وصف كارل ماركس، في *بيان الحزب* الشيوعي مراحل هذا النضال الرئيسية، فنرجو من القارىء أن يعود إلى قراءة ما كتب[54]. سدد العمال، في مطلع الرأسمالية، ضرباتهم إلى الآلات التي كانت نذير البطالة، وذلك لجهلهم طبيعة النظام الذي يعانونه. فهم لا يميزون بين الآلة وبين كيفية استخدام البرجوازية لهذه الآلة، وهم يناضلون ضد قوى الإنتاج بدلا من النضال ضد الاستغلال.

[54] راجع أيضاً ماركس: بؤس الفلسفة ص 129 – 136

ثم إذا بهم يكتشفون شيئاً فشيئاً أن عدوهم الحقيقي ليس الآلة بل هو الرأسمالية. وذلك لأن الرأسمالية، باستعمالها للآلات، تخفض تكاليف الإنتاج فتنخفض قيمة قوة الإنتاج وتنخفض بذلك الأجور. ولهذا يقوم البروليتاريون بالنضال للدفاع عن أجورهم. حتى إذا رأوا أن الرأسمالي يحاول إثارة العمال بعضهم على الآخر (إذ يرضى البائسون منهم بأجور منخفضة جدا فيضطر من هم أتعس منهم إلى قبول أجور منخفضة أكثر من الأجور الأولى) *أدركوا مصالحهم المشتركة فيتحدون عندئذ* للنضال ضد عدوهم المشترك ألا وهو الرأسمالي.

هذه الصورة الأولى للنضال هي الإضراب الذي يهدف إلى الإبقاء على الأجر. وتقصير العمل اليومي". وكان الإضراب يعني. وهو السلاح الأول للبروليتاريا، وعي البروليتاريا الطبقي بأن مصالح العمال الفردية لا يمكن الدفاع عنها ألا بالتضامن الطبقي والنضال المشترك.

ذلك لأن الصناعة الكبرى تجمع في مكان واحد جمهوراً من الناس يجهل بعضهم بعضاً. فتفصل المضاربة بين مصالحهم. ولكن البقاء على الأجر، وهو مصلحة مشترك ضد رب العمل. يوحدهم في المقاومة والتحالف.

وهكذا تسعى المحالفة إلى هدف مزدوج: وهو إزالة المضاربة فيما بينهم للقيام بمضاربة عامة ضد الرأسمالي[55].

يؤدي التحالف العابر، من أجل الإضراب، إلى تحالف مستمر للوقوف في وجه الاضطهاد الرأسمالي وتلك هي *النقابة*.

التحالف العابر للإضراب والتحالف المستمر "للنقابة" هما صورتا النضال والتنظيم التلقائيين عند البروليتاريا، وهي تصل إليهما بدون مساعدة أية نظرية علمية عن طريق تجربتها الخاصة. وهكذا انتزعت الطبقة العاملة من الرأسماليين بعض الانتصارات الكبرى، كتحديد العمل اليومي بثماني ساعات.

غير أن البرجوازية الرأسمالية تسعى، بتأثير قانون الربح الصارم، إلى استعادة كل ما تنازلت عنه. فإذا ما تحدث الرأسماليون ورجالهم السياسيون، بحرارة، عن "تحسين

---

[55] ماركس: بؤس الفلسفة، ص 134

مصير الطبقة العاملة" فلا يجب الانخداع بذلك، إذ أن هذه التحسينات قد كسبها *العمال المنظمون* بعد نضال مرير. ولهذا تشن البرجوازية حربا ضارية على النقابات العمالية، فهي تتهم هذه النقابات بتكوين "إقطاعيات جديدة" كي تثير الطبقات المتوسطة والفلاحين المخلصين لذكرى 1789 ضد البروليتاريا المنظمة وهذا اتهام سخيف يتردد على أفواه "إقطاعيي" رأس المال الذين يلتهمون جميع ثروات المجتمع "ثروة صغار البرجوازيين والفلاحين".

حتى إذا ما تسرب علم المجتمعات، الذي أسسه ماركس وانجلز، بين صفوف البروليتاريا ارتفع مستوى النضال الطبقي بفضل *الحزب الثوري* [56]. لأن مهمة هذا الحزب الذي يضم تحت لوائه عناصر البروليتاريا الناهضة، أن يدخل *الوعي الاشتراكي* في الطبقة العاملة، وأن يقودها، هي وجميع الطبقات الكادحة المتضامنة معها، إلى دك صرح الرأس مالية فهو يناضل من أجل مطالب العمال العاجلة غير أنه لا يكتفي بذلك، بل يشرح لهم، بصورة عملية، مصدر الاستغلال، كما يظهر لهم أنهم لا يستطيعون التخلص من هذا الاستغلال إلا بالقضاء على المجتمع الرأسمالي والدولة البرجوازية التي تحميه، ويستعيض عن هذا المجتمع، بواسطة دكتاتورية البروليتاريا، بمجتمع لا يستغل فيه الإنسان أخاه الإنسان، ألا وهو المجتمع الاشتراكي. مثل هذا النضال يستحق وحده اسم النضال الثوري.

يهم البروليتاريا أن تقود هذا النضال حتى النهاية، وأن تقضي على علاقات الإنتاج الرأسمالية. ولقد رأينا أن البروليتاريا، نظرا لارتباطها بأحدث قوى الإنتاج، هي نتيجة ضرورية للاستغلال الرأسمالي. فهي لا تستطيع إذن التحرر من الاستغلال الطبقي إلا بالاستيلاء على وسائل الإنتاج من البرجوازية، الطبقة المستغلة، لتجعل من هذه الوسائل ملكا للجميع، في مجتمع لا يعرف المستغلين و لا المستغلين و بينما تسعى الطبقات المتوسطة "كصغار الصناع، وبائعي المفرق، والعمال اليدويين، والفلاحين الفقراء والمتوسطين" للعيش كطبقات من صغار الملاكين داخل الرأسمالية، فليس للبروليتاريا، وهي التي لا تملك سوى قوتها على العمل، من هدف سوى

[56] راجع الدرس الرابع عشر "المسألة 4، ب" حول صفات الحزب الثوري أي الحزب الشيوعي.

القضاء على الاستغلال الذي هي موضوعه، أي القضاء على نفسها *كطبقة مستغلة* لتبني المجتمع الذي لا يعرف الطبقات.

وكما تضامن الإقطاعيون القدماء في جميع بلدان أوروبا، ضد البرجوازية الغازية، تتضامن اليوم البرجوازية في مختلف البلاد الرأسمالية، ضد البروليتاريا الثورية. واشتد هذا الوضع، الذي استمرت معه التناقضات بين الرأسماليين الألداء، بصورة غربية، مع ظهور الاحتكارات.لأن الرأسمالية الكبرى عالمية. غير أن البروليتاريا تضامنت بدورها في جميع البلاد كطبقة ثورية مرددة النداء الذي يختم بيان الحزب الشيوعي: اتحدوا أيها العمال في جميع إنحاء العالم".

وهكذا نجد أن النزعة العالمية للبرو*ليتاريا هي نتيجة* وضع العمال الموضوعي مهما كانت جنسياتهم. لأن المستغلين في جميع البلاد لهم عدو مشترك هو الطبقة المستغلة مهما كانت جنسيتها.

ذلك هو النضال الثوري ضد الاستغلال.

ومع ذلك لن يفوز هذا النضال بالنصر، طالما أن علاقات الإنتاج الرأسمالية تتفق موضوعياً مع مستوى قوى الإنتاج، أي طالما أن الرأسمالية تنمو حسبما يقرر قانون الترابط الضروري، ولا يعني ذلك أن نضال البروليتاريا غير مجد حينئذ*، لأن البروليتاريا، بفضل هذا النضال، تعي قواها فتعمل على جمعها وتنظيمها، كما أن هذا النضال يربيها ويهذبها. ولا يستطيع نضال البروليتاريا، في هذه المرحلة، إزالة الاستغلال الرأسمالي بل يحد من تأثيره.*

حتى إذا لم تعد علاقات الإنتاج الرأسمالية مناسبة لقوى الإنتاج، بسبب إزدهار هذه القوى، أي حين تدخل الرأسمالية في نزاع مع قانون الترابط الضروري بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، تتوفر حينئذ الشروط الموضوعية الجديدة لنضال البروليتاريا[57].

[57] سنرى في الدرسين العشرين والواحد والعشرين أن التغيير الثوري في المجتمع على يد البروليتاريا يتطلب أيضاً شروطاً ذاتية سوف ندرسها.

ويسعى نضال البروليتاريا، من أجل تأميم وسائل الإنتاج، إلى تهيئة ظروف مواتية لعمل قانون الترابط الضروري الذي لم تعد الرأسمالية تحترمه. وهكذا يسير نضال البروليتاريا الثوري في اتجاه التاريخ، ولهذا كان واثقا من المستقبل لأن هذا النضال يسير حسب قانون المجتمعات الأساسي.

غير أن البرجوازية الحريصة على أرباحها كطبقة مستغلة. نستخدم كل وسيلة لتقف في وجه قانون الترابط الضروري، فينتج عن ذلك، كما رأينا أعظم الآلام للمجتمع.وليس هناك سوى قوة اجتماعية واحدة تستطيع التغلب على مقاومة البرجوازية لقانون الترابط الضروري، فما هي هذه القوة؟ خيل للخياليين من المفكرين أنهم يستطيعون تغيير المجتمع بواسطة قوة الأفكار. ويعود الفضل إلى ماركس وانجلز بأنهما اكتشفا أن الوسيلة الوحيدة التي تستطيع حل التناقض بين طابع قوى الإنتاج الاجتماعي وبين الملكية الخاصة "التناقض ب" (راجع ما سبق) هو نضال الطبقة العاملة الثوري معتمدة على تأييد ضحايا الاستغلال الأخرى. وذلك لأن البروليتاريا ليست وحيدة في نضالها، لأن نمو الرأسمالية – وانتقالها من المضاربة إلى الاحتكار – يؤدي إلى إفقار مختلف طبقات المجتمع. إذ لا تستطيع البرجوازية الكبرى أن تزدهر ألا بتعميم البؤس حولها. فيقف في وجهها لا محالة – عدا البروليتاريا الثورية عدوها الطبيعي – الطبقات المتوسطة التي افتقرت، والفلاحون العمال، والصناع اليدويون، وأصحاب الدكاكين، الخ.. وجميع الطبقات التي قضت عليها، فتجمع البروليتاريا جميع طبقاتها، بقيادة الحزب الماركسي اللينيني، وتؤلف جبهة واحدة للنضال ضد العدو المشترك، ألا وهو البرجوازية الكبرى المستغلة. وهكذا تقوم قوة اجتماعية جبارة لتحطيم العلاقات الرأسمالية وإقامة علاقات جديدة للإنتاج، ألا وهي العلاقات الاشتراكية المواتية لمستوى قوى الإنتاج الحديثة.

أما قدرة البروليتاريا على جمع أكبر الجموع للنضال ضد الأقلية المستغلة فهي تظهر بوضوح مهمتها القومية، وهكذا تقف الطبقة العاملة، كما أشار إليه كل من ماركس وانجل، في نضال الثوري، في مقدمة الأمة، بينما تنفصل عنها أوليجارشية رأس المال الكبير نظرا لمصلحتها الطبقية. وكلنا يعرف، اليوم في فرنسا، كيف انتقلت هذه

الاليجارشية إلى الخيانة المفضوحة للمصلحة القومية. وهي مستعدة لارتكاب كل شيء حباً بالبقاء، ولهذا سلمت البلاد إلى الاستعمار الأجنبي. وهذا وضع يشبه وضع الإقطاعيين عام 1789، حين تحالفوا مع إقطاعيي البلاد الأخرى ضد شعبهم أملا في استعادة السلطة في البلاد.

بينما تتفق، على العكس، مصالح البروليتاريا الثورية مع مصالح الأمة ضد البرجوازية الكبرى المستغلة التي لا تعرف لها وطنا.

وهكذا تصبح النزعة الوطنية البروليتاريا والنزعة العالمية البروليتارية مظهرين لا ينفصلان لنفس النضال الذي تقوم به الطبقة العاملة ضد البرجوازية الرجعية التي تضحي حياة الشعوب في سبيل الربح الأكبر.

4 – الخلاصة

تؤدي بنا دراسة تناقضات المجتمع الرأسمالي ونموها إلى عتبة مجتمع جديد لا استغلال فيه. وقبل أن نستمر في البحث يجدر بنا أن نمعن الفكر في بعض النتائج الفكرية للاستغلال الرأسمالي.

هناك نزعة إنسانية Humanisme برجوازية. إذا ما قلنا "إنسانية" عنينا الثقة بالإنسان، وحب الإنسان.

كانت البرجوازية الثورية، ولا سيما في فرنسا، تفخر باعتقادها بالأخوة الشاملة. لماذا؟ لأنها كانت تناضل موضوعياً لتعيد لقانون الترابط الضروري تأثيره الذي وقفت في وجهه الأقطاعية، وهكذا كان عملها يسير باتجاه التاريخ.

ولكن ماذا بقي اليوم من كل ذلك؟ أصبحت اليوم البرجوازية، نظراً مصلحتها الطبقية، حجر عثر في وجه عمل قانون الترابط الضروري بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج *وذلك هو الأساس الموضوعي! " اللا أنسانية البرجوازية" Inhumanisme* (التي تقوم على احتقار فاشيستي للإنسان وتكون موضوعاً للانحطاط.)

أن عقلية البرجوازية العالمية هي عقلية عصابة قطعت كل علاقة لها بالجنس البشري. أما فلسفتها الفكرية، التي تدعى حرمان كل معرض من ابسط حقوقه، فهي فلسفية فكرية تقوم على البطش والموت، كما أنها تبرر الجرائم المرعبة التي ترتكبها طبقتها من أجل خلاصها (كحرب كوريا مثلا).

بينما تكون الطبقة العاملة، التي تناضل لتعيد إلى قانون الترابط الضروري حقوقه، طليعة الإنسانية. ولما كانت الطبقة العاملة *طبقة ثورية*، فهي تقيم علاقات حية بين ماضي المجتمعات ومستقبلها. بين *الماضي*، لأنها تحتضن كل العوامل التي عملت على تقدم المجتمعات (ولهذا فهي تحيي النزعة الإنسانية البرجوازية بالرغم من معارضة البرجوازية الرجعية). وبين *المستقبل* لأنها تضع هذا المستقبل في نضالها الطبقي.

وهكذا تناضل الطبقة العمالية من أجل جميع الناس ولهذا كان نصرها الأول – ثورة تشرين الأول "أكتوبر"– أعظم حادث في تاريخ الإنسانية.

الدرس التاسع عشر

البناء الفوقي

1 – ما هو البناء الفوقي
2 – يتولد البناء الفوقي بواسطة الأساس.
3 – البناء الفوقي قوة فعالة.
4 – ليس البناء الفوقي مرتبطاً مباشرة بالإنتاج.
5 – الخلاصة.

1 – ما هو البناء الفوقي

درسنا في الدرس الثاني عشر والثالث عشر مصدر الأفكار ومهمتها في الحياة الاجتماعية: ولقد رأينا أن حياة المجتمع الفكرية *انعكاس* لحياته المادية. فهل من الصواب إذن أن نطلق كلمة البناء *الفوقي* (Superstructure) على جميع الأفكار والمؤسسات التي توجد في مجتمع معين؟

نستطيع الإجابة على هذا السؤال بدقة الآن، وقد عرفنا نظريات المادية التاريخية الأساسية.

يوجد في كل مرحلة من مراحل التاريخ، في جميع المجتمعات، جنبا إلى جنب، أفكار مختلفة متناقضة لأنها انعكاس لتناقضات المجتمع الموضوعية. ومع ذلك فلا تتساوى هذه الأفكار في القيمة. منها ما يصبو إلى الإبقاء على المجتمع في أوضاعه القديمة، ومنها ما يسعى إلى تجديد هذا المجتمع، وتكون حركة الأفكار المتعارضة *انعكاساً لنضال الطبقات* في المجتمعات التي يوجد فيها نضال الطبقات المتعارضة. كما يمكن

لنزاع الأفكار أن يتخذ شكلا قاسياً زجريا. وتخلو الاشتراكية من تعارض الطبقات، غير أن النضال بين القديم والحديث موجود وهو ينعكس في النزاع الفكري.

يدرك الناس المشاكل التي تنشأ في زمنهم من خلال نزاع الأفكار الذي يفتح الطريق لاكتشاف حلول يعرضها الواقع نفسه. ولهذا يعتقد المثاليون، كهيجل، أن جدلية الفكرة هي التي تولد الحركة التاريخية.

ولهذا من الخطأ القول بأنه وجدت عصور مباركة، لم تعرف نزاع الأفكار، وحل فيها الانسجام بين الأفكار والقلوب، كما اعتاد بعض المؤرخين تصوير الماضي بصورة ميتافيزيقية. فلقد وجدت أفكار معارضة قضت عليها الطبقات المسيطرة ولم يذكرها التاريخ الرسمي، فلقد هاجم العصر الوسيط، بعنف، الأكليروس والإقطاعيين في مؤلفاته الشعبية اللاذعة سواء كانت خرافات أم أغاني.

أما اضطهاد الأفكار الجديدة، ونزاع الطبقة المسيطرة الفكري المنظم، فهما من ميزات المجتمعات التي يوجد فيها استغلال الإنسان على يد أخيه الإنسان.

ولقد خيل للبرجوازية أنها تشتهر إذا ما أعلنت عن حرية النزاع الفكري، أما الواقع فهو أن الأمر لم يتعد حرية الرأي، *ضمن نطاق الفلسفة الفكرية البرجوازية*. وهذه حقيقة ستزداد وضوحا مع انحطاط هذه الطبقة.

ولا تستطيع سوى الطبقة القادرة على إزالة التناقضات الطبقية أن تكون رائدة النزاع الفكري الحر. ولهذا يستحيل، في المجتمع الذي *يسرع في تقدمه*، أي في الاشتراكية، أن لا ينمو النزاع الفكري *بشدة*.

والمادية التاريخية هي الوحيدة التي تعلم المناضل، كما تعلم العالم أن لا يضيع في معركة الأفكار، وأن يساوي بينها في القيمة، وأن يميز المصالح الطبقية التي تخفيها.

لا شك أن سلطات النظام الرأسمالي تقدم فكرة على أخرى عن طريق الصحافة مثلا. فإذا ما قرأنا في صحيفة أن عدد صغار التجار الكبير هو سبب الصعوبات الاقتصادية، يجب علينا أن نكتشف وراء هذه "النظرية" مصلحة رأس المال الكبير، فهو يسعى، مدفوعا بقانون الربح الأكبر، ميزة الرأسمالية الحالية، إلى تخفيض نصيب بائعي المفرق من فائض القيمة إلى أقصى حد. وإذا ما قرأنا أن أفضل نظام

للضرائب هي الضرائب الغير المباشرة، لأن جميع الناس يدفعونها، فأن هذا القول يخفي أيضاً المصالح الرأسمالية، لأن الضريبة الغير المباشرة، التي تفرض على الاستهلاك، تمس أصحاب الأجور والفلاحين والطبقات المتوسطة بصورة اشد مما تمس الرأسمالي.

غير أن هذه الأفكار لا تكتفي بفلسفة النظام الموجود. بل هي وسائل للنضال، فيسعى رأس المال بإذاعتها إلى المحافظة على الوضع المواتي له، كما أنه يهيء الأذهان لتقبل المقررات الجديدة من قوانين وإجراءات سياسية توطد أركان الرأسمالية.

وهكذا تعكس هذه الأفكار، التي تنشرها الطبقة المسيطرة، مصالحها كما أنها تخدم هذه المصالح. ابتدأنا ندرك ما نعنيه بالبناء الفوقي (Superstucture)

وما يصح على فكرة معينة تنشرها الصحافة يوميا، يصح أيضاً على النظريات الفلسفية.كتب انجلز يقول بصدد نظرية كلفن عن القضاء والقدر كانت العقيدة الكلفانية تتفق وحاجات البرجوازية في ذلك العصر. فقد كانت عقيدة القضاء والقدر تعبيرا دينيا إذ كان النجاح والفشل، في عالم المضاربة التجاري لا يتعلقان بنشاط الإنسان أو مهارته بل بظروف خارجة عن أرادته. لم تكن هذه الظروف تتعلق بإرادة الإنسان أو بعمله، بل هي تخضع لقوى اقتصادية عليا مجهولة.

وكان هذا حقا، لا سيما في عصر ثورة اقتصادية حل فيه محل مراكز التجارة القديمة والطرق مراكز وطرق أخرى، كما فتحت الهند وأميركا أبوابها للعالم، بينما أخذت أكثر سلع الثقة الاقتصادية احتراما، بسبب قدمها – كقيمة كل من الذهب والفضة – تنهار[58].

وهكذا أصبحت مجرد ظاهرة اقتصادية عمل الحكمة الإلهية التي تكتنفها الأسرار. ولقد عانت البرجوازية تجربة المضاربة، غير أن روح العصر الديني كان يخفي عنهم طبيعتها الاقتصادية الصرفة، كما أن فكرة "القضاء" نقلت إلى مستوى النظرة إلى العالم، وأخذت تتسرب إلى الديانة. وأخذ التجار يشكون من آثار المضاربة، وإن

[58] انجلز: دراسات فلسفية، ص 98

عاشوا بفضلها وأثروا. إذ كانوا يريدون المضاربة بدون أثارها. ولكنهم تعزوا عنها بالفكرة القائلة أن الناس يجب أن يعانوا قضاء مقدار عليهم من قبل.

وهكذا وطدت فكرة "القضاء والقدر" الإنتاج التجاري، بعملها على *قبول* أثار المضاربة في الفئة التي تعيش منها.

كان من الطبيعي أن لا يرضى الإقطاعيون، الذين كانت التجارة البرجوازية تحمل الخراب إليهم، بهذه العقيدة، ولهذا حرمتها الكنيسة الكاثوليكية، سيف الإقطاعية الروحي. غير أن الاقتصاد التجاري، بتنميته لقوى الإنتاج، كان تقدماً على الاقتصاد الاقطاعي. ولهذا قامت النظرية الكلفانية بدور *تقدمي* بالنسبة إلى عقيدة القرون الوسطى. بينما أصبحت هذه العقيدة، في أيامنا هذه، بالية، *لأن نزعتها للإيمان* بالقضاء والقدر تتعارض مع الفكرة الثورية القائلة بأن الإنسان سيد مصيره. ولما كانت فكرة كبار أصحاب المصارف البروتستنت فهي لا تسعى إلا لقبول "القضاء والقدر" في الأزمات الاقتصادية والاضطرابات الاقتصادية في الرأسمالية.

يظهر هذه المثال، بصورة بديهية، أنه يمكن لنفس الفكرة أن تحتل، حسب الظروف الاقتصادية، موضعين مختلفين: فهي تستطيع الإساءة، إلى صورة الاقتصادي السائد، وذلك شأن عقيدة "القضاء والقدر" في النظام الأقطاعي، كما تستطيع خدمة علاقات الإنتاج السائدة، وهذا شأن نفس العقيدة في النظام الرأسمالي، ولا نقول عن هذه العقيدة بأنها عنصر من عناصر البناء الفوقي (Ia Superstructure) إلا في الحالة الثانية. وهكذا لا ينطبق لفظ البناء الفوقي على أية فكرة أو مؤسسة، بل هو يتحدد بالنسبة إلى أساس المجتمع الاقتصادي. وهكذا يشمل البناء الفوقي الأفكار والمؤسسات التي تعكس علاقات الإنتاج السائدة فتسود هي أيضاً.

الأساس هو نظام المجتمع الاقتصادي في مرحلة معينة من نموه. أما البناء الفوقي فهو النظرات السياسية والقانونية، والمؤسسات السياسية والقانونية، وغيرها التي تتعلق بهذا النظام.

ولكل أساس البناء الفوقي، الذي يتعلق به ولهذا كان للنظام الرأسمالي بناءه الفوقي ونظراته السياسية والقانونية وغيرها مع المؤسسات المتعلقة به، كما كان للأساس

الرأسمالي البناء الفوقي الخاص به، وكذلك للأساس الاشتراكي بناؤه الفوقي الخاص به. حتى إذا ما تغير الأساس أو زال تغير معه البناء الفوقي أو زال، وإذا تولد أساس جديد تولد على أثره بناء فوقي يناسبه[59].

ولنلاحظ أن المؤسسات السياسية، أي الدولة. هي جزء من البناء الفوقي. وذلك لأن الدولة "تتعلق"، حسب قول ستالين، بالنظرات السياسية والأفكار السياسية السائدة، وهي تنتظم حسب المبادىء التي تعكس المصانع الطبقية. الدولة هي صورة تنظيم لسلطة الطبقة الأقوى، تلك التي تشخص علاقات الإنتاج السائدة. فالأساس الاقتصادي هو الأولى ثم تأتي الدولة. وهكذا يتولد التنظيم السياسي عن الأفكار السياسية وهي القوة المنظمة. وليست قوى الدولة، في آخر الأمر، سوى قوة الأفكار التي هي بدورها انعكاس لحيوية الأساس الاقتصادي. وتكمن القوة السياسية في السند الطبقي الذي توفره الأفكار السائدة الدولة، ويمكن تبرير هذا السند الطبقي أو لا يمكن: إذ يمكن للجماهير أن تخدع إلى حد ما من التطور التاريخي، فتكمن قوة سلطة الطبقات المستغلة في الكذب، حتى إذا ما ضعف هذا السند الطبقي ضعفت الدولة: وأصبح استخدام القوة الصريحة على يد الطبقة الحاكمة الدليل على ضعفها ونهايتها القريبة. لأن الأفكار التي تتملك الجماهير هي العامل الفعال[60]

2 – يتولد البناء الفوقي بواسطة الأساس

يتولد البناء الفوقي عن الأساس. ويزول معه ويكون مصيره مصيره. إذ تتولد الأفكار السائدة، في مجتمع معين من نموذج ملكية وسائل الإنتاج، التي تسيطر فيه. ليس البناء الفوقي، إذن، مجرد تراكم أفكار سياسية، تشريعية، فلسفية، دينية، الخ.. ذلك لأن لهذه الأفكار رابطاً داخلياً: فهي تعكس نفس الأساس. وهكذا يكون الأساس والبناء الفوقي كلا

---

[59] ستالين: "حول الماركسية في علم اللغة". أخر مؤلفات ص: 13 – 14.

[60] راجع بصدد دراسة عميقة للدولة كتاب لينين الكلاسيكي: الدولة والثورة. المطبوعات الاجتماعية. باريس 1947.

عضوياً. ولهذا فأن البناء الفوقي الأقطاعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً في جميع أجزائه بالأساس الإقطاعي. وتكون وحدة الأساس والبناء الفوقي الجدلية محتوى المفهوم الماركسي *لتكوين الاجتماعي.*

وهكذا يكون البناء الفوقي كلا.وليس هذا الكل أبديا ولكنه كل حي، يولد مع أساسه ينمو معه ويزول أثره.

يطبع وجود الدولة, في المجتمعات الطبقية. جميع حياة البناء الفوقي بطابع خاص. فهو عنصرها المنظم، فهو، مثلا، الذي ينظم التعليم الطبقي.

ويزول البناء الفوقي، ككل عضوي بعد زوال نظام اقتصادي معين. لا يجب إذن أن نخلط بين البناء الفوقي، كفكرة أساسية للمادية التاريخية، وبين أية فكرة أو مؤسسة في نفسها مفصولة عن بناء فوقي معين. لأن كل فكرة حين تدخل في نطاق بناء فوقي جديد، تتحول بعمق، ويصبح لها معنى جديد من الكل الذي أصبحت جزءاً منه. ونسيان ذلك يؤدي بنا إلى النزعة *الشكلية* (formalisme)

نجد مثالاً ذا مغزى على ذلك في المدرسة الطائفية. زالت عن مسرح التاريخ مدرسة القرون الوسطى، في الوقت الذي زال فيه البناء الفوقي الإقطاعي، على يد البرجوازية الثورية، بعد زوال الأساس الاقتصادي الإقطاعي.

ومن ثم شجعت البرجوازية الفرنسية، في القرن التاسع عشر، المدرسة الطائفية، خوفاً من تقدم البروليتاريا الثوري، ولأنها لم تعد تخشى عودة الإقطاعية، وذلك كي تستخدم هذه المدرسة في أغراضها المناوئة للديمقراطية. غير أنها أعادت إليها الحياة، كعنصر من البناء الفوقي البرجوازي ولهذا حولتها لتجعلها ملائمة لظروف المجتمع البرجوازي[61].

لا يعني هذا قط أن البناء الفوقي الإقطاعي قد استمر بعد زوال أساسه، بل أن البناء الفوقي الإقطاعي البرجوازي قد تحول باتجاه رجعي، في زمن كانت فيه علاقات الإنتاج الرأسمالية تقدمية فأصبحت رجعية. ولهذا كانت المدرسة العلمانية، التي ورثت السنة

---

[61] هذا هو مغزى قانون جيزو (Guizot) في عام 1833 الذي ظهر بعد عصيان 1831 وقانون فلو (Falloux) عام 1850 الذي ظهر بعد القضاء على العصيان العمالي في حزيران 1848.

الديمقراطية البرجوازية، في مثل هذه الظروف، أحد العناصر التي يمكنها أن تناضل الاتجاه الجديد لهذا البناء الفوقي. وعلى البروليتاريا أن تساندها في هذا النضال[62].

وهكذا لا يبدو الترابط بين البناء الفوقي وأساسه، في عصور انقلاب طريقة الإنتاج فقط، بل خلال مختلف مراحل النمو ودرجاته في فئة اجتماعية واحدة.

ترتبط الأفكار "التحررية" في السياسة والديمقراطية البرلمانية البرجوازية (Iiberales) في نظام الرأسمالي، بمرحلة التنافس الحر، بينما ترتبط الرجعية على طول الخط، بمرحلة الاحتكار: فتعلن البرجوازية المحتكرة ضرورة "الدولة القوية" كما تعتدي على شرعيتها الخاصة، وتلقى بالحريات الديموقراطية البرجوازية جانباً. ويلاحظ, في الميدان الثقافي، حركة مزدوجة تتعلق جوانبها المتناقضة بمرحلتي الازدهار والانحطاط في الرأسمالية. إذ نرى في المرحلة الأولى – منذ عصر النهضة حتى أواسط القرن التاسع عشر – الثقافة البرجوازية تنمو وتزداد غنى، بواسطة تمثل نقدي لكل تراث الفكر الإنساني ولا سيما الثقافة القديمة.

كما أنها تصبو لاتخاذ طابع الثقافة الشاملة النهائية. ونرى في المرحلة الثانية الثقافة البرجوازية تلفظ، شيئاً فشيئاً، جميع العناصر التقدمية العقلانية الإنسانية التي كانت تحتوي عليها، ثم تأخذ بالتحلل سريعا. فلا تعود تستطيع احترام ماضيها الخاص. يتلو إذن عملية التمثل *النقدي عملية لفظ كل ما تمثلته* (discrimination) فتتخلى عن مطامحها في الشمول وعن تراثها الخاص. وتخرج ديدرو من بين الفلاسفة، كما تخرج ميشليه من صفوف المؤرخين، وفيكتور هوجو من زمرة الشعراء "المحض".

نخلص إلى القول في هذا الصدد، أنه لا يجب ، كي نفهم بصورة صحيحة فكرة أو مؤسسة، نعرض لها في ذاتها مجرد عن بنائها الفوقي الذي تنتسب إليه والذي يعكس أساسا معينا. وهذا ضروري، ولا سيما، فيما يتعلق بالدولة، ولهذا كانت فكرة الاشتراكية الديمقراطية المثالية عن الدولة "الوسيط" التي "تعلو الطبقات"، وتجسد "الصالح العام" أكذوبة. كما يصور الديمقراطيون المسيحيون الدولة على أنها تجسيد " للخير المشترك".

---

[62] لا يعني هذا قط أن تستنكف البروليتاريا عن نقد محتوى تعليم هذه المدرسة: فهي تنقد هذا المحتوى بقدر ما يعبر عن الأفكار البرجوازية في الاستغلال.

بينما تظل الدول في الحقيقة – وهي ظاهرة ضرورية تاريخيا، ظهرت مع تقسيم المجتمع إلى طبقات متناحرة – في أصلها وطبيعتها دولة طبقة من الطبقات. ولهذا لا نستطيع التكلم عن ديمقراطية" على العموم وبصورة مجردة، دون أن نتردى في النزعة الشكلية، وهي خطأ علمي. ولهذا كان من الضروري أن نطرح هذا السؤال: ديمقراطية من أجل من؟ من أجل الرأسماليين أم من أجل الشعب؟

ملاحظة: الفوضوية (I’anarchisme) التي لا تزال تؤثر بعض التأثير في الحركة العمالية الفرنسية – هي عقيدة مثالية تجهل طبيعة البناء الفوقي ومهمته. فهي بهذا تجهل أصل الدولة الطبقي وعلاقتها الموضوعية مع الأساس الاقتصادي. بل هي ترى في الدولة ثمرة " لغريزة" السيطرة والقوة التي تكمن في أعماق الإنسان، بينما هي في الواقع ثمرة نضال الطبقات. ولهذا تنكر الفوضوية، في الميدان العملي، ضرورة عمل الطبقات السياسي والفكري لأنها لا ترى أن قوة الدولة الحقيقة هي دعم الشعب لها. وهكذا تؤدي الفوضوية، بتشجيعها عمل الفرد والأقليات، إلى المقامرة، وتصبح أداة للتحدي.

3 – البناء الفوقي قوة فعالة

يتولد البناء الفوقي عن الأساس. ولا يعني هذا أنه يكتفي بعكس هذا الأساس، وأنه سلبي محايد، لا يهمه مصير الأساس، ومصير الطبقات، وطابع النظام الذي يوجد فيه. بل هو، على العكس، لا يكاد يظهر إلى الوجود حتى يصبح قوة هائلة نشيطة، تساعد أساسها على التبلور والتوطد، فتتخذ جميع الإجراءات لمساعدة النظام الجديد للقضاء على الأساس القديم، والطبقات القديمة وتصفيتها.

ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. ذلك لأن البناء الفوقي يتولد عن الأساس لكي يقوم بخدمة هذا الأساس ومساعدته بنشاط كي يتبلور ويتوطد،و يناضل من أجل تصفية الأساس القديم البالي وبناءه الفوقي القديم. ويكفي أن يمتنع البناء الفوقي عن أن يقوم بدور

الاداة, كما يكفي أن ينتقل من موقف الدفاع النشيط عن أساسه ليتخذ موقف اللامبالي بإزائه، كما يتخذ موقفا مماثلا نحو الطبقات حتى يفقد ميزته فلا يعود بناء فوقيا[63].

نعلم الآن أن الأفكار هي قوى نشيطة عاملة. غير أن ستالين يلح هنا على القول بأن البناء الفوقي يتولد كي يخدم أساسه ويدافع عنه. حتى إذا ما كف عن خدمة أساسه فقد صفته كبناء فوقي.

البناء الفوقي هو أداة، وثمرة مخطط، ونشاط واع تقوم به الطبقة السائدة. لا تبدع هذه الطبقة الأفكار من العدم. بالأفكار هي انعكاسات.

غير أن كل طبقة تستخدم، عن قصد، الأفكار التي تفيدها.

وصفنا البناء الفوقي ككل منسجم. فما الذي يحدد انتماء فكرة أو مؤسسة إلى هذا الكل؟ فائدتها الطبقية ودورها في خدمة الأساس.

ليس هناك من صدفة في حياة البناء الفوقي، وفي نضال الأفكار، وفي تطور المؤسسات. إذ تنظم البرجوازية بناءها الفوقي حسب مخطط. وهاك مثالا: خطاب الكونت مونتلمبير Montalembert من على منصة المجلس إثناء مناقشة قانون فللو (Falloux) بعد مضي بضعة أشهر على حزيران 1848 قال:

"سأضيف كلمة واحدة كملاك يتحدث إلى ملاكين بصراحة تامة، لأننا اجتمعنا ها هنا، كما اعتقد، كي يقول كل منا الحقيقة للأخر بدون تورية.

ما هي المشكلة اليوم؟ أنها مشكلة بعث احترام الملكية في نفوس الذين ليسوا ملاكين. وأنا لأعرف إلا علاجاً[64] *لبعث هذا الاحترام، وجعل الذين ليسوا ملاكين يؤمنون بالملكية. ألا وهو جعلهم يعتقدون بالله! وليس هذا الإيمان باله مبهم كما تقول النزعة التلفيقية (électisme) أو أي مذهب آخر، بل الإيمان باله كتاب الصلوات (catéchisme)، الآله الذي أوحى بالتوراة، والذي يعاقب السارقين إلى الابد. تلك هي العقيدة الشعبية حقاً التي يمكنها أن تحمي بشكل فعال الملكية..*[65]

---

[63] راجع ستالين: نفس المرجع المذكور ص 14 – 15

[64] لاحظ هذه الكلمة التي تبرر تماما نص ستالين.

[65] خطاب ألقاه في المجلس الوطني، في كانون الثاني 1850.

ندرك هنا، على الفور، تكوين البناء الفوقي الواعي، وإضطرار البرجوازية إلى أن تضم مؤسسة قديمة إلى بنائها الفوقي الذي يزداد رجعية.

لم تحرم الكنيسة الكاثوليكية الرق. ولذلك وجد رقيق في أوروبا في القرن الوسيط، في المستعمرات حتى عام 1848، وفي الولايات المتحدة حتى عام 1864.

ولقد علمت الكنيسة الأرقاء أن يطيعوا سيدهم.واضطرت الأسياد المحاربين، حقا، إلى احترام "هدنة الله" وهددنهم بالنار الأبدية. ولكنها باتخاذها هذا الأجراء قد إنقذت. قبل كل شيء، المزروعات الضرورية لحياة المجتمع، كما حفظت الإنتاج وأمنت تفشي المجاعة، واندلاع نار الثورة. وهكذا تحمي، في النهاية، الإقطاعية ضد تصرفات الإقطاعيين "المغالية"، غير أن مطران ريمس كان ينادي قائلا:

"أيها الأرقاء! أطيعوا، في كل وقت، أسيادكم . ولا تحتجوا بقسوتهم أو بخلهم. أطيعوا، ليس فقط الصالحين المعتدلين، بل الذين لا يعرفون الصلاح أو الاعتدال".

تقول تعليم الكنيسة بلغة أولئك الذين يدفعون الرقيق إلى العصيان, ولا سيما أولئك الذين يعلمونهن المقاومة الصريحة[66].

يضاف إلى ذلك أن الكنيسة حاولت، بواسطة النشرات (Eneyclique) التي أصدرتها في نهاية القرن التاسع عشر، أن تحمي الرأسمالية من "مغالاة" الرأسماليين كانت في الماضي تدعو إلى ضرورة وجود الأسياد والأرقاء في المجتمع، فأصبحت اليوم تنادي بضرورة وجود الرأسماليين والبروليتاريا.

وهكذا لا يكون وجود الكنيسة، في عهد الرأسمالية، أثرا باقيا، بل يعني ذلك أن النظام البرجوازي المستغل المضطهد يستفيد من أفكار ومن مؤسسة تتعلق بتكوين اجتماعي أقدم منها كان يسوده الاستغلال والاضطهاد.

ولهذا رأينا البرجوازية، حينما شعرت بالتهديد، أعادت الدين عن قصد وتبنته، بعد أن سخرته لخدمة حاجاتها فقوته ودعمته وجعلته جزءاً لا يتجزأ من البناء الفوقي الرأسمالي ثم أعلنت أن التعليم الديني والتعليم العلماني يتمم كل منهما الآخر. إذ تنص التعليمات الرسمية عام 1887، فيما يتعلق بالمدرسة الابتدائية، على ما يلي:

---

[66] ذكره ج. بروها في تاريخ الحركة العمالية الفرنسية، ص 43، المطبوعات الاجتماعية ، باريس 1950

يتميز التعليم العلماني عن الدين دون أن يناقضه فلا يحل المدرس محل الراهب، بل يضيف جهوده إلى جهوده ليجعل من كل طفل إنسانا شريفا.

فإذا كانت البرجوازية لا تضع جميع بوضعها في نفس السلة فأنها، مع ذلك، تعرف كيف توفق بين كما ناتها!

يجب الإشارة هنا إلى ملاحظة أبداها ستالين: في الوقت الذي يستنكف فيه البناء الفوقي عن القيام بدور الأداة يفقد صفته فلا يعود بناء فوقيا. ولهذا حينما يستنكف أساتذة التعليم العام عن مقاومة أهداف البرجوازية الاستعمارية، تطرد هذه البرجوازية المدرسين الديمقراطيين. وحين لا نعود الشرعية البرجوازية تنطبق على متطلبات الاحتكارات السياسية ولا تعود أداة صالحة بين أيديها لتحقيق مصالحها، تسعى البرجوازية إلى التخلي عن الحريات الديمقراطية البرجوازية ولهذا كان على البروليتاري, عندئذ, أن يحمل لواء الحريات البرجوازية , وأن يتقدم به, لأنه يجد في الديموقراطية البرجوازية أفضل الظروف الممكنة، في النظام الرأسمالي, لنشر أراءه السياسية في الأمة ،.

لا يجب إذن أن نقدر المؤسسات والأفكار بصورة ميتافيزيقية، وإذا كان حقاً أن أصل هذه الأفكار والمؤسسات يحدد طابعها، فأن تغير الظروف التاريخية يحول دورها، بل يجب البحث دائما، بصورة جدلية: في خدمة أية طبقة يمكن لهذه الأفكار والمؤسسات أن تستخدم في وقت معين بسبب تغير الظروف الموضوعية؟

تبدو قوة البناء الفوقي الفعالة، ولا سيما قو ة الدولة، في مرحلة الرمق الأخير للرأسمالية. إذ لا تعود علاقات الإنتاج، في هذه المرحلة، تتفق وطابع قوى الإنتاج. فتقوم الدولة الرأسمالية باتخاذ جميع الإجراءات المفيدة لتثبيتها والوقوف في وجه تطبيق قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، ولمحاولة أطالة أمد وجود الرأسمالية إلى ما لا نهاية، تصبح الدولة البرجوازية، تساندها الأفكار المناسبة،العثرة الرئيسية لتقدم المجتمع.

ولا يمكن إزالة هذه العثرة من الطريق ألا بنشاط القوى الجديدة *الواعي*. نعلم من الدرس السابق "الدرس الثاني عشر. المسألة 3" أن هذه القوى الاجتماعية والسياسية تتكون بتحالف البروليتاريا مع الطبقات الكادحة في القرية والمدينة. ونرى الآن أن مثل هذا

النضال يهدف إلى تحطيم هذه العثرة، وهي الدولة البرجوازية وإقامة سلطة جديدة سياسية، هي سلطة البروليتاريا التي سيعمل دورها الفعال على تصفية الأساس القديم، والبناء الفوقي القديم. وإيجاد أساس جديد، وبناء فوقي جديد.
وهكذا تقوم الأفكار والمؤسسات، في بعض الظروف التاريخية، بدور فعال. تؤدي المادية الساذجة إلى "النظرية"الخاطئة القائلة بنمو المجتمع الآلي، "التلقائي"
وهي بذلك تبرر، عملياً، السلبية أمام العمل الذي تقوم به الدولة الرأسمالية لتمديد أجل أساسها. بينما الماركسية، على العكس، لا تهمل قط الدور الرئيسي الذي تقوم به مبادرة *الجماهير* الثورية، والواعي الاشتراكي. كما أنها لا تهمل قط النضال لتنمية النشاط *السياسي* ورفع مستوى الجماهير الفكري.

4 – ليس البناء الفوقي مرتبطاً مباشرة بالإنتاج

ليس البناء الفوقي مرتبطا مباشرة بالإنتاج ونشاط الإنسان الإنتاجي. فهو لا يرتبط بالإنتاج إلا بصورة غير مباشرة بواسطة الأساس. ولهذا لا يعكس البناء الفوقي التغيرات التي تحدث على مستوى نمو قوى الإنتاج بصورة مباشرة، بل أثر تغيرات الأساس، وبعد انعكاس تغيرات الإنتاج في تغيرات الأساس. يعني ذلك أن دائرة عمل البناء الفوقي ضيقة محدودة[67].

تحذرنا هذه الفرضية الماركسية من جميع الذين يهملون علاقات الإنتاج ونضال الطبقات، ويدعون أن "تطور التقنيات" يؤدي رأساً إلى تقدم الأفكار والمؤسسات.
ولقد اعتاد الفكر البرجوازي على ترديد القول بأن تقدم" المدينة الحديثة" المادي يجب أن يتبعه تقدم في الميدان الثقافي والفكري والأخلاقي. ويتيح التكذيب المستمر، الذي يقدمه الاستعمار، لهذا القول، الفرصة لشكوى المثاليين الذين ينتهزون الفرصة لمهاجمة تقدم التقنيات والعلوم.

---

[67]ستالين: المرجع المذكور ص 28

أن ما يحدد المستوى الثقافي والفكري و الأخلاقي لمجتمع ما هو أساسه الاقتصادي. ولا يستطيع تقدم المعارف التقنية والعلمية أن يغير شيئاً في هذا الأمر. فهو لا ينعكس في البناء الفوقي ألا بواسطة الأساس. وكما أن قوى الإنتاج تنمو في حدود علاقات الإنتاج الكائنة فكذلك يقدر التقدم التقني والعلمي حسب معايير النظرية الفكرية التي تعكس هذا الأساس، فتقدره كل طبقة حسب مصلحتها الطبقية.

مر زمن أعلنت فيه البرجوازية الصناعية أن تقدم العلوم يفضي إلى التقدم المادي والثقافي للإنسانية. وهي في هذا الإعلان إنما تعبر عن إمكانيات نمو الرأسمالية الصناعية في هذه الفترة. غير أن هذه الفرضية – التي كانت فرضية النزعة الموضوعية – في ذاتها خاطئة.

ليس العلم والتقدم التقني، في عهد الرأسمالية المنحطة في خدمة الحاجات الاجتماعية قط، لأنهما في خدمة الربح الرأسمالي، بل أن الأفكار العلمية لا يمكنها أيضاً أن تتسرب كفاية إلى الجماهير فتعمل على رفع مستواها الثقافي، فتسيطر الأفكار البرجوازية الرجعية على الجماهير، كما يحدد البناء الفوقي مستواها الثقافي، فيظل هذا المستوى. حتما، متأخرا عن تقدم المعرفة العلمية. ولهذا كانت نظرية "أ. كومت" التي تعتقد بأن تقدم المجتمع والمؤسسات يتعلق فقط بنشر المعرفة بين الجماهير، نظرية خيالية جاءت بها البرجوازية التقدمية: ولقد دلل تطور الرأسمالية فيما بعد على هلهلتها.

تدلل الماركسية، على عكس النزعة الموضوعية، على أن نضال الطبقات وتغير الأساس الاقتصادي هما اللذان يتيحان للبناء الفوقي الجديد عكس التقدم التقني والعلمي. والطريق الوحيد لرفع مستوى المجتمع الثقافي والفكري والسير نحو تقدم الأفكار والمؤسسات هو نضال الطبقات والثورة الاشتراكية. إذ ليس للإلة ولا للعلم، في ذاتهما، القدرة على *الانحطاط بالإنسان، كما أنهما لا يستطيعان الارتفاع به*. وهما لا يكفيان لتحديد "المدينة" ولهذا فأن التقدم التقني في الولايات المتحدة لا يمنع من أن تكون الأفكار السائدة، في هذه البلاد، بدلا من أن تعبر عن درجة عالية من المدينة فإنها تقدم كل الدلائل على البربرية الرأسمالية.

إما الاشتراكية، فهي ليست "مدنية تقنية"، ولا هي انتصار النزعة العلمية المغالية. وما سموها الأخلاقي إلا انعكاس للأساس الاشتراكية الذي يولد نزعة إنسانية سامية.ولا يحرم الإنسان الحق النضال الطبقي، بل هو يشارك فيه لأنه يعلم أن هذا النضال هو الوحيد الذي يؤدي إلى نظام اقتصادي واجتماعي يمكن أن تطبق فيه الانتصارات الجريئة التي فاز بها العمل والذهن والإنساني.

5 – الخلاصة

لا يمكن لمجتمع يمزقه تناحر الطبقات أن يعرف حقاً الوحدة الأخلاقية والثقافية. يمكن للطبق السائدة، ولا شك، أن تفرض أفكارها، وأن تتوصل إلى كتم أصوات المضطهدين. وتنعم "بالسلام" ولكنه سلام القبور الذي يضع حداً للحرب بعد أن يكون أحد الفريقين المتحاربين قد فني وزال! فالمجتمع الوحيدة الخالي من تناحر الطبقات هو الذي يعرف حقاً الوحدة الأخلاقية والروحية، فهو لا ينكر قط نضال الأفكار الضروري لتقدم المعرفة.

يوجد في مجتمع كمجتمعنا نوعان فقط من الأفكار متناحران: الأفكار التي تخدم مصالح البرجوازية، وهي جزء لا يتجزأ من البناء الفوقي، ومن جهة ثانية أفكار البروليتاريا التي لا تجد التعبير العلمي عنها إلا في الماركسية.

لا يمكن أن يضاف إلى هذين الضربين ضرب من "الأفكار المحايدة".

غير أن هناك أفكاراً برجوازية متأخرة عن متطلبات الاستعمار الأثيم الفكرية، ذلك الاستعمار، عدو الشعب، والأمم، والإنسان، تلك هي الأفكار البرجوازية العقلانية، المعادية للفاشية، ذات النزعة الإنسانية. حتى إذا ما تناقضت هذه الأفكار مع متطلبات الاستعمار، أعلنت البرجوازية الحرب عليها. فيتضح عندئذ أنه على الطبقة العاملة والقوى التقدمية، أن تحتضنها، وأن تبعث فيه القوة والنشاط، وأن تدفع بها إلى الأمام بتنمية محتواها الديمقراطي.

وهكذا ليس هذان النوعان من الأفكار جامدين ثابتين. بل أحدهما في طريق الإنحطاط، يزداد رجعية يوماً بعد يوم وهو أقل شمولا. بينما يقوى الآخر في نضاله من أجل نزعة إنسانية جديدة.

تقتبس البروليتاريا من الثقافة القومية في الماضي، حسب مصلحتها الطبقية التي لا تنفصل من المصلحة القومية، العناصر التقدمية التي تعكس بصدق الحياة وتكون تراثا من الفن لا يفنى. كما تصد البرجوازية، حسب مصلحتها الطبقية التي تعارض مصلحة الأمة، عن التراث القومي، وعن تراثها الديمقراطي وعن الإنسان نفسه. وليس هناك، ولا يمكن أن يكون، نظرية فكرية محايدة، بل هناك أفكار صنعتها البرجوازية خلال تاريخها الطويل، والأفكار التي تنتج عن النقد العلمي للأفكار الأولى والتي تدفع بها الماركسية إلى الأمام وتتبناها البروليتاريا. إما أن تستطيع هذه الفكرة أو تلك الانتقال من معسكر إلى آخر حسب تطورات نضال الطبقات التاريخي، فأن هذا يدل على أنها ليست محايدة، بل لها محتوى معين ولهذا ترفضها البرجوازية حين تتحول مصلحتها.

أما المهمة التي تقع على عاتق قوى الطليعة، في المجتمع، فهي إعادة تقييم كل التراث الفكري والثقافي. لأن الماركسية هي، في الأساس، نقد لا يترك حجرا على حجر في بناء الماركسية الفكرية. ولهذا لا يمكن أن يكون ماركسيا حقا من لم يتمثل، بصورة نقدية، حضارة الماضي.

الدرس العشرون

الاشتراكية

1 – التوزيع والإنتاج.
2 – أساس الاشتراكية الاقتصادية.
3 – الشروط الموضوعية للانتقال إلى اشتراكية.
4 – قانون الاشتراكية الأساسي.
5 – الشروط الذاتية للانتقال إلى الاشتراكية ولنموها.
6 – الخلاصة.

1– التوزيع والإنتاج

ما فتيء الناس، منذ ظهور الطبقات، يحلمون بنظام اجتماعي مثالي يخلو من استغلال الإنسان للإنسان ومن نضال الطبقات.

وهكذا نجد تاريخ الطبقات المضطهدة تجتاحه المطامح الشعبية، منذ الاعتقاد بعودة العصر الذهبي. ولم يتسرب اليأس قط إلى الشعب من مستقبل الإنسانية، فلقد قام الشراء والمفكرون، في جميع العصور، بترقب فجر العصور الحديثة والاحتفال به. كما فعل توماس كمبانيلا، الذي كتب في نهاية القرن السادس عشر *"مدينة الشمس"* وأمضى سبعاً وعشرين سنة. ولقد عملت الديانة المسيحية، خلال ألفي سنة، على ترديد القول إلى المضطهدين " ليس هذا الملكوت في هذا العالم". ولكن هذا لم يقض على أمل جماهير الشعب بالسعادة الأرضية، ولهذا جعل بتهوفن من *"سمفونيته التاسعة"* نشيد العصور المقبلة.

ومع ذلك لم تخرج الأفكار حول " المدينة المثالية"، قبل الماركسية، عن نطاق "الايتوبيا" الخيالية. فلقد رأى الفلاسفة الاجتماعيون أن الشر الأساسي يكمن في عدم المساواة في توزيع الخيرات بين الأفراد، لحرمانهم من معرفة القوانين الاقتصادية، فدعوا إلى المساواة في توزيع الخيرات، أو إلى الاشتراكية فيها، غير أنهم كانوا يجهلون تحليل الإنتاج بسبب جهلهم لقانون المجتمعات، وإظهار عملية الاستغلال الطبقي ولهذا نظر إليهم كفلاسفة حالمين، واستقر في ذهن البرجوازية الصغيرة والكبيرة رأي خاطيء يقول بأي الاشتراكية والشيوعية يستحيل تحقيقهما.

ولقد أدرك الاشتراكيون الخياليون، في القرن التاسع عشر، أنه يجب معالجة المشكلة من الطرف الأخر، أي ليس عن طريق الاستهلاك وإنما عن طريق الإنتاج، وأنه لا يمكن أن نطلب ازدياد السلع قبل أن نزيد الإنتاج. وهذا ما تساعد عليه الصناعة الآلية الحديثة. غير أنهم لم يروا بوضوح، ذلك بسبب افتقارهم إلى تحليل علمي لقوانين الإنتاج والاقتصاد، أن المسألة الفاصلة التي يجب حلها، إذا أردنا حقا زيادة الإنتاج، هي مسألة القضاء على *ملكية وسائل الإنتاج الخاصة الرأسمالية*. وليس هناك من مسألة غيرها لأن هذه الملكية هي التي تؤدي إلى جعل "زيادة الإنتاج" مصيبة اقتصادية. ولما كانوا يجهلون قوانين الرأسمالية، فقد خيل إليهم أن الإرادة الطيبة تكفي لوضع جهاز الصناعة الرأسمالية في خدمة حاجات المجتمع. ولقد رأينا أن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك، لأن ملكية وسائل الإنتاج الخاصة تقف في وجه ما يمكن أن تحققه الصناعة والعلم الحديثين.

ومع ذلك فقد استطاع الاشتراكيون الخياليون أن يوضحوا هذه الفكرة الثورية القائلة بأنه يجب استخدام قوى الإنتاج الهائلة التي حررها العلم والصناعة الحديثان لخدمة حاجات المجتمع المادية، وليس لتوفير الربح لفئة صغيرة من المستغلين. وذلك "بالاستعاضة عن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان باستغلال العالم على يد أناس متحدين، والاستعاضة عن حكم الناس بإدارة الأشياء". تلك كانت أهداف الاشتراكية حسب رأي سان سيمون.

ولقد أجابت الماركسية وحدها بصورة علمية على المشاكل التي أثارها تحقيق هذه الأهداف فأظهرت:

1 – أن العنصر الأساسي في علاقات الإنتاج هو ملكية وسائل الإنتاج.

2 – أنه لا يمكن القيام بتغيير وسائل الإنتاج إذا لم تعتمد على الجدلية الداخلية لنمو طريقة الإنتاج.
3 – أن القوة الوحيدة التي يمكنها التغلب على مقاومة الطبقات التي يضرها هذا التغيير هي نضال البروليتاريا وحلفائها نضالا طبقياً.
وهكذا تتيح لنا الماركسية تحديد:
(1) أساس الاشتراكية.
(2) الشروط الموضوعية التي يتطلبها حدوثها.
(3) "الذاتية لبنائها بصور علمية.

2 – أساس الاشتراكية الاقتصادي

دلت الماركسية، بإظهارها أن العنصر الأساسي في علاقات الإنتاج، في أي مجتمع، هو صورة ملكية وسائل الإنتاج، على أن الاشتراكية لا يمكن أن تقوم على اشتراكية" "الخيرات" (biens) عامة ولا تقسيم هذه "الخيرات" ولا على اشتراك رؤوس الأموال الخاصة، ولا على تركيز الرأسمالية وتنظيمها. لأن أساس الاشتراكية هو *ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية*، وهذا يعني حرمان الملاك الخصوصيين، ولا سيما ملاك وسائل الإنتاج الكبرى الحديثة التي يمكن أن تستعمل لخدمة الحاجات الاجتماعية. ولقد برهنت الماركسية على أنه يمكن تحقيق هذا الهدف، كما أنها دلت على الطرق المؤدية إليه. والبروليتاريا هي التي تستطيع موضوعيا تحقيق هذا التحويل التاريخي لطريقة الإنتاج، لأنها الضحية المباشرة للملكية الخاصة, كما أن ملكية وسائل الانتاج الاجتماعية تتفق ومصالحها كطبقة مستغلة. ولما كان الرأسماليون، خلال قرون طويلة، قد استولوا على ثمرة عمل الجماهير المعدمة، فأنهم بذلك قد سلبوها ما تملك، ولهذا تعمل الاشتراكية على استعادة ما سلبوا.
تؤدي ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية إلى القضاء على الأجور، وذلك لأن فائض القيمة الذي تتمكن قوى الإنتاج الحديثة من إنتاجه، في يوم، بالنسبة إلى القيمة الضرورية للقيام بحاجات قوة العامل على العمل، لا يعود الآن، إلى الرأسمالي، بل على الجماهير عامة،

ثم يوزع بين أعضائها حسب عمل كل عضو، كما يوزع في صورة فوائد اجتماعية متعددة. وهكذا تفقد أفكار فائض القيمة، والأجر، كثمن لقوة العمل، والربح، والرأسمال، والعمل الضروري، والعمل المجاني، معانيها.

ولهذا كتب ستالين يقول: *"أن الحديث عن قوة العمل كسلعة، وعن "أجور" العمال عبث في نظامنا. وذلك كما لو أن الطبقة العاملة, التي تملك وسائل الانتاج, تدفع الاجور لنفسها وتبيع إلى نفسها قوتها على العمل. وكذلك لا يقل غرابة الحديث عن العمل "الضروري" و "فائض العمل" كما لو أن عمل العمال الذي يؤدونه للمجتمع، من أجل توسيع الإنتاج، تنمية التعليم، والمحافظة على الصحة العامة، وتنظيم الدفاع القومي، الخ.. ليس ضروريا للطبقة العاملة، وقد أصبحت اليوم في الحكم، ضرورة العمل الذي يؤدي لتأمين حاجات العامل وحاجات عائلته الشخصية*[68].

الاشتراكية، كما تحددها الماركسية علميا، هي القضاء على *استغلال الإنسان لأخيه الإنسان*، والقضاء، في نفس الوقت، على طبقات المجتمع المتناحرة. وهكذا ينتهي أيضاً تناحر الطبقات على *المستوى الاقتصادي* بين المستغلين والمستغلين.

كما تؤدي ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية إلى القضاء على كل إمكانية في نشوء الأزمة الاقتصادية. وذلك لأن المضاربة بين المنتجين، من أجل الربح، تزول، ويزول معها استبداد الإنتاج الرأسمالي. كما أن قانون التراكم الرأسمالي، الذي يقوم على أن نمو قوى الإنتاج الهائلة يعتمد على شقاء جماهير العمال بسبب استملاك ثمرة العمل الاجتماعية بصورة فردية، يصبح بالياً. ينتج عن ذلك:

1 – يمكن التوفيق بين نمو إنتاج وسائل الإنتاج وبين نمو إنتاج وسائل الاستهلاك حسب قواعد الإنتاج التي وضعها العلم الاقتصادي الماركسي، وهكذا يحل محل استبداد الإنتاج قانون النمو الاقتصادي بصورة منسجمة.

2 – لا يمكن أن يؤدي ازدياد الإنتاج المتواصلة إلى "أزمة فائض الإنتاج" لأن ذلك يصحبه بالضرورة ارتفاع قوة الشراء عند جميع العمال الذين يزيدون من استهلاكهم، إذ

[68] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 151.

يأخذ كل منهم أجرا يناسب عمله. وهكذا لا يقع التنافر بين الإنتاج والاستهلاك، وما يصحبه من بطالة، وتدمير لقوى الإنتاج.

تعني الاشتراكية إذن انعدام الأزمات الاقتصادية، والقضاء على الاستعمار وزوال أسباب الحرب.

ولقد كتب ستالين يقول مختصرا ميزات الاشتراكية الأساسية:

تكون ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية أساس علاقات الإنتاج، في النظام الاشتراكي الذي لم يتحقق حتى الآن إلا في الاتحاد السوفياتي، إذ لم يعد يوجد في هذا النظام, مستغلون ومستغلون. بل توزع المنتوجات حسب عمل كل شخص، وحسب المبدأ القائل: "من لا يعمل لا يأكل". أما علاقات الناس في عملية الإنتاج فهي علاقات تعاون أخوي وتعاضد اشتراكي يقوم به عمال تحرروا من نير الاستغلال[69].

فكيف يمكن تحقيق ملكية *وسائل الإنتاج* الاجتماعية؟ إذا اتخذنا مثال الاتحاد السوفياتي فأننا نرى:

1) انتزعت ملكية *وسائل الإنتاج* في الصناعة وأعيدت إلى الشعب بأجمعه.
2) ضم صغار المنتجين الفرديين ومتوسطيهم بصورة تدريجية في تعاونيات للإنتاج، أي في مؤسسات *زراعية* كبرى هي الكولخوزات.
3) ظل الإنتاج التجاري "التبادل بواسطة الشراء والبيع" لفترة، محافظة على التحالف الاقتصادي بين المدينة والقرية وبين الصناعة والزراعة، على أنه الصورة الوحيدة المقبولة من الفلاحين للعلاقات الاقتصادية مع المدينة، كما نمت تجارة الدولة والتجارة التعاونية الكولخوزية بالقضاء على جميع أنواع الرأسماليين في السوق التجاري[70].

ينتج عن ذلك أنه يوجد في الاتحاد السوفياتي صورتان الملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية:

---

[69] راجع ستالين: المادية الجدلية والمادية التاريخية، الفصل الثالث ص 25

[70] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي"ص 106.

ترتدي الملكية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي إما صورة ملكية الدولة، وإما صورة ملكية تعاونية كولخوزية "وهي ملكية كل كولخوز، وملكية الاتحادات التعاونية".
(المادة5 من دستور الاتحاد السوفياتي).
فالأرض، وباطن الأرض، والغابات، والمصانع والفبارك، ومناجم الفحم والحديد، وطرق السكك الحديدية، ووسائل النقل المائية والجوية، والمصارف، والبرق والبريد" والمنشآت الكبرى الزراعية التي تنظمها الدولة "كالكولخوز ومحطات الآلات والتراكتورات، الخ.) وكذلك المنشآت البلدية، وبيوت السكن في المدن والمناطق الصناعية كل هذا ملك للدولة أي هو ملك الشعب بأجمعه (المادة 6).
والمؤسسات المشتركة في الكولخوز وفي التنظيمات التعاونية وما تملك من حيوان (cheptel) حيا أو ميتا وكذلك إنتاج الكولخوز والتنظيمات التعاونية ومبانيها المشتركة تكون ملكية مشتركة اشتراكية للكولخوزات والتنظيمات التعاونية (المادية 7).

وهكذا نجد أن التعاونيات الزراعية، في "الاتحاد السوفياتي" تعمل في أرض أعطيت لها، وهي تتمتع بخيراتها مجانا إلى الأبد، وهي ملك للشعب بأجمعه. كما أن الدولة تمد هذه التعاونيات بالتراكتورات والآلات الأخرى التي هي ملك للدولة، أما ما يملكه الكولخوز، عدا مؤسساته وأبنيته، فهو ثمرة الإنتاج الكولخوزي الذي هو مصدر دخله.

لكل عائلة كولخوزية، عدا دخل الاقتصاد الكولخوزي المشترك الأساسي، الحق بالتمتع بقطعة أرض صغيرة تملك عليها اقتصادا خاصا بها كبيت السكن والأغنام المنتجة والطيور ووسائل الزراعة البسيطة.

يسمح القانون، إذن، باقتصاديات صغيرة للفلاحين والصناع اليدويين ويمنع استغلال عمل الآخرين.

أما فيما يتعلق بوسائل الاستهلاك فللمواطنين الحق بالملكية الشخصية لما كسبوه وأدخروه بعملهم، وملكية بيت سكنهم واقتصادهم العائلي المساعد، وأدوات البيت

للاستعمال اليومي، أو الاستعمال الشخصي (كالسيارة مثلا)، كما لهم الحق في وراثة الملكية الشخصية.

يحتوي المجتمع الاشتراكي، إذن، على طبقتين: طبقة العمال[71]. وطبقة الفلاحين العمال الكولخوزيين، وهؤلاء لا يوجد بينهم أي تعارض لأن مصالحهم واحدة.

ويوجد أيضاً طبقة اجتماعية من رجال الفكر وهم رجال التقنية والمهندسون، ورجال التنظيم الاقتصادي، والعمال المفكرون، ورجال التعليم والفنانون، والكتاب. وهم يمتازون بميزة لا يعرفها المجتمع البرجوازي وهي أنهم ينتمون لجميع أصناف العمال. وقد لاحظ ستالين عام 1936 أن تكوين رجال الفكر قد تغير عما كان عليه في النظام القديم، وأن 80% – 90% منهم ينتمون لطبقة العمال والفلاحين الكادحة. ويقوم هؤلاء المفكرون بخدمة الشعب بأجمعه وليس بخدمة الطبقة المختارة.

ولهذا كان طابع التكوين الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي الأساسي هو أنه، بفضل القضاء على الاستغلال، أصبحت الفئات الاجتماعية المختلفة متحالفة متحابة تعمل لبناء مجتمع لا يعرف الطبقات، وجميعهم من العمال.وتوطد هذا الحلف في النضال: مثال ذلك أن العمال ساعدوا الفلاحين في نضالهم ضد طبقة الفلاحين الملاكين المستغلين (الكولاك)، فأرسلوا إليهم الآلات، بينما قام الفلاحون العمال بتأمين تموين مراكز العمال الذين أراد الكولاك تجويعهم.

وكذلك تغيرت العلاقات بين رجال الفكر والعمال في الإنتاج.

ولم يعد الآن العمال اليدويون ورجال الإدارة أعداء بل أصبحوا رفاقا وأصدقاء وأعضاء في جماعة واحدة من المنتجين الذين يهمهم جدا تقدم الإنتاج وتحسينه. ولم يبق شيء من العداء القديم[72].

ومع زوال استغلال الإنسان لأخيه الانسان زال أيضا التناحر بين القرية المدينة – تلك القرية التي خربها برجوازيو المدينة الرأسماليون واستولوا عليها. وكان هذا

---

[71] أن زوال الاستغلال يمنعنا من استعمال كلمة "البروليتاريا".

[72]راجع ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي، أخر مؤلفات ص 117.

التناحر بين العمال اليدويين وبين العمال المفكرين، صنائع البرجوازية المستغلة – سبب كره العمال اليدويين للعمال المفكرين واحتقار هؤلاء لأولئك.
يضاف إلى ذلك أن الإنتاج، في المجتمع الاشتراكي، يشرف عليه العمال ومنظماتهم، أشرافا ديمقراطيا، وهكذا نجد عمل المدير (الذي تسميه الدولة) يخضع لنقد جميع العمال. وكذلك تنتخب الإدارة، في الكولخوزات التي يشرف عليها جميع أعضاء الكولخوزات، بصورة ديمقراطية.
وأخيرا زال، بزوال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، استعباد المرآة، ووضعت أسس المساواة بين الرجل والمرآة. كما توفرت، بفضل الاشتراكية في وسائل الإنتاج وزوال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، الظروف المواتية، لظهور، قانون اقتصادي أساسي جديد خاص بعلاقات الإنتاج الاشتراكية غير المتناحرة، ويعكس هذا القانون عملية نمو الاقتصاد الاشتراكي، كما يعكس هدف اقتصاد لا يعرف الاستغلال والأزمات ووسائله – ولن يكون لمثل هذا الاقتصاد سوى تأمين إرضاء حاجات الجماهير المادية والثقافية إلى أقصى حد. ولنشر، قبل دراسة هذا القانون الخاص بالاشتراكية، إلى أن *الانتقال إلى الاشتراكية* يتطلب شروطا موضوعية معينة تطابق قانون المجتمعات الأساسي وهو قانون الترابط بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج.

3 – الشروط الموضوعية للانتقال إلى الاشتراكية

تحدد الاشتراكية، بتحديدها للاشتراكية بصورة علمية، الشروط المواتية لظهور المجتمع الاشتراكي وبنائه. ولا يمكن تغير طريقة الإنتاج إلا في ظروف موضوعية معينة. فما هو أساس تغيير علاقات الإنتاج؟ الأساس هو الخلاف بين هذه العلاقات وبين طابع قوى الإنتاج، وقد حدث هذا الخلاف في وقت معين.
ليس هدف الثورة الاشتراكية، إذن، هدفا ذاتيا. فهي لا تصدر عن الحسد والطمع كما تزيع البرجوازية التي تنسب هذه العيوب للطبقة العاملة – كما أنها لا تصدر عن طموح بعض المشاغبين الذين قرروا القيام بهذه الكارثة ذات مساء! لأن مهمة الثورة

الاشتراكية هي إيجاد الشروط المواتية لنمو قوى الإنتاج نموا غير محدود، وذلك بإزالة العقبة الوحيدة التي تعترض ذلك ألا وهي علاقات الإنتاج الرأسمالية، في الوقت الذي أصبح فيه هذا ممكناً, وذلك لأن الرأسمالية هي التي هيأت الأساس الموضوعي للثورة الاشتراكية، بتنميتها لقوة الإنتاج حتى الحد الذي ناقضت فيه الرأسمالية نفسها. فالقضاء الثوري على الملكية الفردية لوسائل الإنتاج الجديدة والاستغلال الرأسمالي يسمح بإقامة *الترابط* بين علاقات الإنتاج الجديدة وبين طابع قوى الإنتاج، في الوقت الذي أصبح فيه ذلك *ممكنا وضروريا.*

إذن تستحيل الاشتراكية بدون شروط موضوعية مرتبطة بمرحلة تاريخية معينة، ففي بلد، لم تنم فيه الصناعة نموا كبيرا كالصين، مثلا، لا تستطيع البروليتاريا، وقد أصبحت في الحكم، أن تفكر بإقامة الاشتراكية قبل إيجاد الأسس التي تقوم عليها، أي أيجاد صناعة قومية كبرى، ولهذا تظل طريقة الإنتاج الرأسمالية، لفترة معينة، جانبا من الاقتصاد.

يعني هذا أنه ليس بمقدور أي شخص أن يزيل قوانين الاقتصاد، إذ لا تنفع إرادة الناس، الذين تقودهم مصلحتهم الطبقية، إلا إذا اعتمدت على القوانين الموضوعية. ولهذا كانت "النزعة الإرادية" فلسفة خاطئة لأنها تعتقد بان إرادة الإنسان، التي تعمل خارج نطاق معرفة قوانين الطبيعة والاقتصاد، مطلقة.

ويذكر ستالين، في حديثه عن بناء الاشتراكية، لأن هذا الأمر كان صعباً معقدا، بالنسبة لسلطة السوفيات، ولكنهم مع ذلك قاموا به خير القيام.

وليس ذلك لأنهم أزالوا القوانين الاقتصادية الموجودة و "كونوا" قوانين جديدة، بل لأنهم اعتمدوا على قانون اقتصادي، هو قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وبين طابع قوى الإنتاج، وإلا لما استطاع السوفيات تحقيق هذه المهمة بدون هذا القانون والاعتماد عليه[73].

ثم يشير، فيما بعد، إلى أن المصلحة الطبقية هي التي كانت تشرف على استخدام هذا القانون استخدمت الطبقة العاملة قانون *الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وبين*

[73] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" في مؤلفات أخيرة ص 151.

طابع قوى الإنتاج فقلبت أوضاع علاقات الإنتاج البرجوازية، وأوجدت علاقات إنتاج جديدة اشتراكية وعملت على التوفيق بينها وبين طابع قوى الإنتاج ولم تستطيع القيام بهذا، بفضل مواهبها الخاصة، بل لأن ذلك كان مهما جدا، بالنسبة إليها[74].

4 – قانون الاشتراكية الأساسي

لا تستطيع الثورة الاشتراكية، مع ذلك، الاكتفاء باستخدام قوى الإنتاج التي تركتها الرأسمالية استخداما حقا. إذ يجب أن تقدر *أنه مهما كانت قوى الإنتاج التي نمتها الرأسمالية*، فهي لا تكفي لسد حاجات المجتمع الاشتراكي، وذلك لأن الرأسمالية، في مرحلتها النهائية، مهما كانت متقدمة تقنيا، تهدم قوى الإنتاج، كما أن نمو قوى الإنتاج في النظام الرأسمالي استبدادي تماما، وأخيرا فأن استهلاك جماهير الشعب ضعيف جداً في النظام الرأسمالي، فلا تستطيع سوى طائفة ضئيلة من المستغلين التمتع برغد العيش، وهكذا لا يمكن المقارنة بين كمية المنتوجات التي يستهلكها المجتمع الرأسمالي وبين حاجات الجماهير الحقيقة التي يسعى المجتمع الاشتراكي لسدها إلى أقصى حد، وذلك لأن الاشتراكية *ليست تعميم البؤس* بل هي *تعميم الرخاء*.

لا اشتراكية، إذن، بدون زيادة الإنتاج بصورة هائلة لا يمكن تخيلها في النظام الرأسمالي, وهذه ضرورة موضوعية, بيد أنه كي نستطيع إنتاج سلع للاستهلاك، بكميات كبيرة وزيادة حجمها باستمرار، لا بد من البدء بإنتاج وسائل الإنتاج بكميات كافية. والعمل على تبديلها وازديادها، ولهذا وجب أن *يبدأ* ارتفاع الإنتاج بازدياد إنتاج وسائل الإنتاج. وهذا يعني أن أحد شروط الاشتراكية الموضوعية هو إيجاد صناعة ثقيلة قوية تستطيع، مثلا، أن تمد الزراعة بكميات كبيرة من التركتورات. ونمو هذه الصناعة. وليس ازدهار قوى الإنتاج القوي ظاهرة أمكنت بزوال الملكية

---

[74] راجع ستالين: نفس المرجع، 3 أ ص 20.

الخاصة فقط، بل هي أيضاً، كما رأينا، *ضرورة موضوعية* تتطلبها قوى الإنتاج الاشتراكية الجديدة.

يعني هذا أن علاقات الإنتاج الجديدة قد أصبحت القوة الرئيسية التي تعمل على تنشيط نمو قوى الإنتاج إلى أقصى حد. وكانت قوى الإنتاج، *تتطلب*، قبل الثورة الاشتراكية، تغيير علاقات الإنتاج، فأصبحت علاقات الإنتاج الجديدة *تتطلب*، بعد الثورة الاشتراكية، نمو قوى الإنتاج.

غير أن نمو قوى الإنتاج لا يمكن أن ينحصر في زيادة معدات الطبقة العاملة أو زيادة كميات الإنتاج وآلاته. لأن ازدياد حاجات السكان، الذين لا يكفون عن التضخم، يتطلب ارتفاع إنتاجية العمل، بيد أن هذه الإنتاجية تتعارض مع أهداف الاشتراكية إذا كانت نتيجة لإرهاق العامل، "فيعمل كالعبد" كما لمح إلى ذلك ليون بلوم. ولا يمكن زيادة إنتاجية العمل وتخفيض وقت العمل وتعب العمال ألا بتقدم آلات الإنتاج نوعيا، وذلك باستخدام تقنية الطليعة، واستعمال الآلة في الأعمال الشاقة، الخ.. ومن ثم تعمل الاشتراكية، نتيجة لهذه القوانين *الموضوعية*، على تنمية العلم لا محالة، من علم الآلة (mécanique) حتى علم الحمضيات (agronomie) بمقادير لم تعرفها البلاد الرأسمالية، وكذلك تتطلب الاشتراكية ارتفاع صفة العامل بحيث يتسرب الفكر، شيئاً فشيئاً، إلى العمل اليدوي في اتصاله بتقنية عليا. تلك هي العناصر الضرورية لنمو المجتمع الاشتراكي. وينتج عن ذلك وجود قانون اقتصادي أساسي للاشتراكية، وهو قانون موضوعي مستقل عن إرادة الناس.

يمكن صياغة صفات القانون الاقتصادي الأساسي للاشتراكية ومتطلباته بما يلي تقريباً:

تأمين سد حاجات المجتمع المادية والثقافية، المتزايدة باستمرار، إلى أقصى حد، وذلك بتنمية الإنتاج الاشتراكي، وتحسينه باستمرار على أساس تقنية عليا.

ولهذا، فبدلا من تأمين أقصى الأرباح، نؤمن سد حاجات المجتمع المادية والثقافية إلى أقصى حد، وبدلا من تنمية الإنتاج مع فترات توقف – من الازدهار إلى الأزمة على الازدهار – نزيد، بدون توقف، الإنتاج، وبدلا من توقف التقدم التقني في فترات

معينة، مع ما يصحب ذلك من تخريب قوى المجتمع الإنتاجية، يستمر تحسين الإنتاج على أساس تقنية عليا[75].

من المهم أن ندرك جيداً أن التقدم الرائع في الصناعة والزراعة، الذي نشهده في المجتمع الاشتراكية، ليس هدفا في ذاته، فالتقدم التقني هو أساس نمو الإنتاج، كما أن هذا النمو مرتبط بضرورة موضوعية أساسية في الاشتراكية، ألا وهي سد حاجات جميع أفراد المجتمع المتزايدة باستمرار إلى أقصى حد. وهذه ضرورة موضوعية، لأن زوال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان يعني أن *العمال يعملون من أجل أنفسهم*. فهدف الإنتاج إذن، بالضرورة، هو سد حاجات المجتمع إلى أقصى حد، وذلك في أفضل ظروف للعمل. فما هي هذه الحاجات؟ الحاجات المادية، والحاجات الثقافية. هدف الإنتاج الاشتراكية، إذن، هو الإنسان وسد جميع حاجاته[76]". وهكذا ليست الاشتراكية "مدنية تقنية" تتلهف للقيام بأعمال مادية رائعة، دون أن تعبأ بالإنسان، كما يدعي المفكرون البرجوازيون. ذلك لأن الإنسان في تمام تفتحه هو مركز الاشتراكية، وليس لجميع الأعمال المادية من هدف سوى سد حاجات على أفضل وجه: كحاجته إلى المعرفة والثقافة، وحاجته إلى العيش الكريم، أي العناصر المختلفة لحياة *سعيدة*.فالاشتراكية هي تحقيق النزعة الإنسانية.

5 – الشروط الذاتية للانتقال إلى الاشتراكية ولنموها

لا تجعلنا الماركسية نعرف علميا فقط الشروط الموضوعية للاشتراكية ونموها بل هي تعرفنا أيضاً على الشروط الذاتية التي تتعلق بتأثير الناس في التاريخ تأثير واعياً.

فنحن نعلم أن الطبقة الرأسمالية تعترض بكل الوسائل فعل قانون الترابط الضروري، وأنها تحاول إنقاذ طريقتها في الإنتاج بفصل عمل الدولة، وأنه لا يمكن إزالة هذا السد، الذي تقيمه أمام التقدم، *ألا بعمل البروليتاريا الواعي* وحلفائها الذين يؤلفون

[75] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 230.
[76] توريز: تحية على المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

القوة الاجتماعية الضرورية للتغلب على مقاومة الرأسماليين " راجع الدرس التاسع عشر، المسألة 2".

أول شرط ذاتي لبناء الاشتراكية هو أن تكون البرليتاريا لنفسها حزبا ثورياً حقاً بعد أن اتحدت مصالحها مع مصلحة الأمة.

فالأم يجب أن يؤدي هذا العمل الجماهيري الثوري؟ إلى تحطيم الحاجز الوحيد الذي يختبيء وراءه الرأسماليون، الذين حكم عليهم التاريخ بالموت، ألا وهو الدولة البرجوازية، وتنظيم سلطة جديدة للدولة تستطيع القضاء على ملكية وسائل الانتاج الخاصة. هذه السلطة الجديدة للدولة هي ديكتاتورية البروليتاريا.

وديكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة التي لا يتم تغيير علاقات الإنتاج بدونها. فكل منا يدرك أنه يستحيل أن تقوم نقابات العمال فجأة بالأستيلاء على ممتلكات الرأسماليين، وتنظيم الإنتاج الاشتراكي، إنتاج العمال الذين اتحدوا في المنظمات وتقاسموا ثمرة عملهم ! لأنها لو فعلت ذلك لا خطأت في تقدير عمل الدولة البرجوازية السياسي العنيف، حامية الرأسمالية[77].

ولقد عبر ماركس عن مهمة دكتاتورية البروليتاريا الأساسية بوضوح فقال:

تستخدم البروليتاريا تفوقها السياسي لتنتزع، شيئاً فشيئاً، كل الرأسمال من البرجوازية، ولجعل وسائل لإنتاج بين يدي الدولة، أي بين يدي البروليتاريا، وقد تنظمت في طبقة مسيطرة، وزيادة قوى الإنتاج بأسرع ما يمكن[78].

والمرحلة التاريخية التي تقوم فيها دكتاتورية البروليتاريا هي مرحلة يبلغ فيها النضال الطبقي أقصاه. إذ يستمر النضال ضد بقايا الطبقات الزائلة وضد محاولات البرجوازية لإعادة الرأسمالية بعد مضي زمن طويل على قضاء الاشتراكية على التناقضات الاقتصادية، حتى تنتصر الشيوعية في معظم أجزاء الكرة الأرضية.

---

[77] يضاف إلى ذلك أنه لما كانت قوى الإنتاج الرأسمالية قد بلغت هذه المستوى من التقدم فأن ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية يجب أن تتحقق ضمن النطاق القومي، أي على يد سلطة الطبقة العاملة السياسية القومية لأنها الوحيدة التي تستطيع تحقيق ذلك

[78] ماركس وانجلز: بيان الحزب الشيوعي، ص 48.

وليست دكتاتورية البروليتاريا غاية نضال الطبقات بل هي استمرار له في صور جديدة. لأن دكتاتورية البروليتاريا هي نضال *البروليتاريا المنتصرة الطبقي بعد أن استولت على الحكم السياسي، ضد البرجوازية المغلوبة على أمرها وأن لم تفن وتختف ولم تكف عن المقاومة بل زادت من هذه المقاومة*[79].

وقد كتب لينين يقول:

من يعترف فقط بنضال الطبقات لم يصبح بعد ماركسيا، إذ يمكن أن يكون لم يخرج بعد من نطاق التفكير البرجوازي والسياسة البرجوازية. ولهذا فأن قصر الماركسية على عقيدة نضال الطبقات تشوية لها وجعلها مقبولة من البرجوازية، والماركسي هو الذي يعترف بنضال الطبقات كما يعترف بدكتاتورية البروليتاريا[80].

كما كتب يقول:

أن السبب الأساسي لعدم فهم الاشتراكيين لدكتاتورية البروليتاريا هو أنهم يذهبون حتى النهاية مع فكرة النضال الطبقي[81].

دكتاتورية البروليتاريا هي سيطرة طبقية. سيطرة على من؟ على الرأسماليين ومختلف فئات المستغلين، والمهربين والمقامرين الذين يعيشون على فساد الرأسمالية ويدعمون سلطتها كدولة.

وهكذا تكون دكتاتورية البروليتاريا سلطة دولة من نوع جديد تماما. فلقد كانت جميع السلطات السياسية التي عرفها التاريخ سابقا تمثل سيطرة طبقات مستغلة وسيطرة الأقلية على الأكثرية. أما دكتاتورية البروليتاريا فهي تمثل، لأول مرة، سيطرة المستغلين على المستغلين. ولهذا تحظى بعطف سائر الطبقات الاجتماعية الكادحة، المستغلة، المضطهدة، وتأييدها. فهي إذن تمثل سيطرة الأكثرية على الأقلية، وحكم العمال.

---

[79] لينين: ذكره ستالين: مسائل اللينينية، ج ا، ص 224

[80] لينين الدولة والثورة، ص 35.

[81] لينين: "حول دكتاتورية البروليتاريا" في "الدولة والثورة ص 145.

ولا يمكن لهذه السيطرة أن تقوم وتستمر وتتوطد ألا بفضل عمل الجماهير الكادحة الواعي المنظم، وبفضل نشاطها السياسي ومبادرتها المبدعة.

ولا تشعر هذه السيطرة بالقلق والحيرة بصدد "الشرعية" البرجوازية التي هي التعلة الفكرية للعهد السياسي والنظام الاقتصادي اللذين يجب القضاء عليهما وأزالتهما. ولهذا توجد الجماهير المتحركة شرعية جديدة تتفق ومصالح الأمة فتنمو بذلك الحريات الديمقراطية بشكل واسع.

ولا يمكن لهذه السيطرة أن تستخدم آلة الدولة البيروقراطية البرجوازية التي أقيمت بكل تفاصيلها لاضطهاد الأكثرية. ولهذا تحطم الجماهير المتحركة النزعة البيروقراطية التي فرضت عليها من عل وتقيم مكانها إدارة من نوع جديد تشرف عليها بنفسها وتعمل تحت أنظار الشعب.

ليست دكتاتورية البروليتاريا وسيلة فقط للسيطرة بل هي أيضاً وسيلة للتحالف بين البروليتاريا والفلاحين العمال والطبقات الوسطى. فهي ضرورية لتوجيه حلفائها في الطريق الذي يتفق والمصلحة القومية. ولما كانت دكتاتورية البروليتاريا هي سيطرة الأكثرية على الأقلية، فهي الديمقراطية بالنسبة للعمال والجماهير، لأنها نهاية النير السياسي الذي تفرضه البرجوازية على الجماهير، ولهذا فأن دكتاتورية البروليتاريا هي تحرير سياسي يقوم على الضغط السياسي للقضاء على الأعيب البرجوازية. وهكذا يتمتع الشعب، لأول مرة، بديمقراطية هي ديمقراطيته، وتقبل ملايين الناس لأول مرة على حياة إنسانية، فيرفع الفلاحون، في الصين، مثلا، رؤوسهم، في أقصى الد ساكر، بعد أن كانوا يعاملون كالبهائم، ويشعرون بأنهم مواطنون، وأنهم مسؤولون عن الممتلكات العامة. ذلك هو فضل دكتاتورية البروليتاريا العميم. فهي تهب حياة واعية نشيطة لهذه الجماهير الشعبية التي سدت في وجهها جميع السبل، ولما كانت دكتاتورية البروليتاريا، لأول مرة، ديمقراطية من أجل الشعب، فهي بذلك أسمى صورة للديمقراطية، هي تمثل مرحلة انتقال، إنتقال من الديمقراطية البرجوازية، ودكتاتورية رأس المال، إلى ديمقراطية بروليتارية أو شعبية، من ديمقراطية المضطهدين إلى ديمقراطية الطبقات المضطهدة. وأصبحت الدولة، التي كانت حتى

ذلك الحين القوة المخصصة لاضطهاد الأكثرية، التعبير عن قوة أغلبية الشعب العامة، وقوة العمال والفلاحين حلفائهم ضد المضطهدين.

إذ لا يمكن أن تتوفر "الحريات" الحقة للمستغلين ومشاركة البروليتاريين والفلاحين في إدارة البلاد مشاركة حقيقية، إلا في ظل دكتاتورية البروليتاريا[82].

ولما كانت الدولة، التي تقوم بوظيفة دكتاتورية البروليتاريا، لا تعتمد فقط على قوة خاصة للضغط، بل على قوة غالبية الشعب العامة، فقد تغير بهذا طابعها. فهي دولة من نوع جديد. ولهذا فأن تقوية هذه الدولة المستمر، الذي لا مفر منه طالما أن البرجوازية لم تقهر ولم يقض عليها كطبقة في العالم اجمع، يعني، قبل كل شيء، تقوية نشاط الشعب السياسي الواعي. إما "تقوية" الدول البرجوازية، فهي، على العكس، لا تعني سوى زيادة قوتها البوليسية، ومحاولة كتم نشاط الشعب السياسي. وهكذا نرى أن تقوية دكتاتورية البروليتاريا هي نقيض "تقوية" دول الطبقات المستغلة، ولهذا كانت تقوية دكتاتورية البروليتاريا هي، في نفس الوقت، اضمحلال حقيقي لعالم "الدولة" التقليدية، لأن مسلك الشرطة الشعبية، وعلاقاتها مع جماهير الشعب ، لا تقارن بمسلك وعلاقات شرطة الدولة البرجوازية إذا كان لنا أن نتحدث، في هذه الحالة الأخيرة، عن علاقات مع جماهير الشعب! كما لا يشبه مسلك جيش شعبي مسلك جيش استعماري: ولقد لاحظ ذلك العالم بأجمعه عند تحرير الصين. ولا توضع سياسة الدولة الجديدة في أوساط "المختصين"الضيقة المغلقة. بل هي تتكون وسط جماهير الشعب وطليعتها:فيظل النائب الكولخوزي عاملا في كولخوزه.

وتتنوع الصور التاريخية التي تتخذها ممارسة دكتاتورية البروليتاريا. وكانت أول صورة هي صورة كومون باريس (La Commune de paris). والديمقراطية الشعبية صورة أخرى لها.وأما الصورة التقليدية فهي سلطة السوفيات.

ظهرت سوفيات "أو مجالس" نواب العمال " في روسيا، أثناء ثورة 1905. ولقد أوجدت جماهير الشعب المتحركة هذه الصورة للسلطة السياسية، جعلت ثورة تشرين الأول سنة 1917 "كل السلطة للسوفيات". والسوفيات هي أوسع منظمة شعبية

---

[82] راجع ستالين: حول مبادىء الفلسفة اللينينية ص 37.

للبروليتاريا وجميع المستغلين" وهي المنظمة المباشرة لجماهير الشعب فهي تقرر، وتنفذ، وتراقب بنفسها تنفيذ قراراتها. وهي تملك، على عكس المجالس النيابية البرجوازية "القومية والمحلية" كل السلطة التنفيذية والتشريعية، فهي منظمات سلطة الدولة، المحلية والمركزية، ولما كانت أكثر أنواع الديمقراطية تقدما في العالم فأنه يمكن للناخبين تنحية أعضائها في كل لحظة.

ولقد كرس دستور ستالين، وهو انعكاس للأساس الاقتصادي الجديد، هذا الوضع، بقوله:

تنتمي كل السلطة في الاتحاد السوفياتي إلى عمال المدينة أو القرية، وذلك في شخص سوفيات نواب العمال "المادة 3".

ولهذا فليس في الاتحاد السوفياتي شخص يسمح له بالخروج على القانون. وإن كان هذا لا يسر المفكرين البرجوازيين الذين يجعلون من الاشتراكية مثيلا للفاشية. ذلك لأن الدكتاتورية الفاشية، التي أقامتها أكثر عناصر رأس المال الكبير رجعية، لا سلاح بين يديها سوى سلاح الاضطهاد والإرهاب، فهي تدرس بأرجلها الشرعية البرجوازية نفسها.بينما تستمد الديمقراطية الاشتراكية، على العكس، قوتها من تأييد العمال، فهي لا توجد إذن إلا إذا ضمنت لهم ممارسة حقوقهم الخاصة والعامة. وعلى الحكومة السوفياتية، كأي مواطن، أن تحترم الدستور وأن تلتزم بنصوص القوانين. وهي لا يمكنها أن تتصرف بصورة أخرى دون أن تفقد كل سلطتها.

وهكذا يكون مثل روسو الأعلى – الديمقراطية كتعبير عن الإرادة العامة – قد تحقق تماما بواسطة دكتاتورية البروليتاريا، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإلغاء تعارض الطبقات الاقتصادي.

مهمة الدولة السوفياتية، التي تعتمد على نشاط جماهير الشعب الواعي، ضخمة في بناء الاشتراكية. والسلطة الجديدة شرط ذاتي ضروري لظهور علاقات إنتاج جديدة، وذلك لأن سلطة البروليتاريا لها ميزة خاصة بها، وهي أنها تسبق، تاريخيا أساسها الاقتصادي، ولهذا كان عليها أن توجد أساسها الخاص بها. بينما كان على السلطة البرجوازية، أن توفق بين سيطرة البرجوازية السياسية والاقتصادية البرجوازية

الموجود سابقاً. يضاف إلى ذلك أنه كان على الثورات السابقة على الثورة البروليتاريا أن تحل صورة من الاستغلال "البرجوازية" محل صورة أخرى من الاستغلال "الإقطاعي" بينما تقضي الثورة البروليتارية على كل استغلال، وهذا يزيد في أهمية الدولة.حتى إذا ما وجد الأساس الاقتصادي الاشتراكي، كانت الدولة السوفياتية انعكاسا لأساسها الاقتصادي، وأمكن التعبير عن حقيقة الوقائع في صورة جديدة ألا وهي الدستور الستاليني لعام 1936.

ويمتاز الدستور السوفياتي بميزة خاصة به وهي أنه بدلا من إعلان حقوق مجردة مرجئاً إلى ما بعد إيجاد الظروف المادية التي تسمح بممارسة هذه الحقوق – كما تفعل الدساتير البرجوازية – فقد كرس وجود حقوق واقعية وجدت أسسها المادية، مثال:

للمواطنين في الاتحاد السوفياتي حق العمل، أي حق الفوز بعمل مضمون مأجور حسب كميته ونوعه.

وحق العمل مضمون بتنظيم الاقتصاد القومي الاشتراكي،ونمو قوى الإنتاج المستمر في المجتمع السوفياتي، وإزالة إمكانية الأزمات الاقتصادية والقضاء على البطالة "المادة 118"

فهل يعني هذا أن الدولة السوفياتية تكتفي بعكس أساسها الاقتصادي بصورة سلبي؟ كلا! فهي لا تكف، في أي وقت، عن أن تكون قوة فعالة تسرع في تنمية الاقتصاد الاشتراكي وتخطيطه بصورة مناسبة، معتمدة في ذلك على معرفتها بقوانين الاقتصاد الموضوعية.

هناك شيئان ضروريان للدولة السوفياتية للقيام بمهمتها وهما:

1 – معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع، أي العلم.

2 – تأييد الجماهير الواعية بعد أن تمثلت الأفكار الجديدة. فيزداد من جراء ذلك الدور الضخم الذي تقوم به الاشتراكية العلمية أثناء قيام سلطة البروليتاريا السياسية. ولهذا فأن النضال الواعي ضد الأفكار البرجوازية، ونشر الماركسية اللينينية بين

جماهير الشعب، وإيجاد ثقافة جديدة، قومية في صورتها، اشتراكية في محتواها، كل ذلك شروط ذاتية ضرورية لبناء الاشتراكية.

كلما تقدم بناء الاشتراكية كلما أزداد الدور التربوي والثقافي الذي تقوم به الدولة السوفياتية، وهي دولة من نوع جديد. ولا يعني ازدياد دور الدولة بازدياد "الضغط الاستبدادي" الذي يتحدث عنه أعداء الماركسية. هذا الدور الجديد للدولة لا تجهله تقريبا الدول البرجوازية أو الرأسمالية، التي لا يستطيع رفع مستوى الجماهير الثقافي والفكري بدون المخاطرة بمصير الطبقة المسيطرة! ولهذا تهتم الدولة الرأسمالية بصورة رئيسية، بمتطلبات الاضطهاد. بينما تصبح دولة العمال، على العكس، مع معرفتها كيفية الدفاع عن وجودها، المركز الموجه، شيئاً فشيئاً، لعمل الجماهير الخلاق، سواء في الميدان الاقتصادي أم الميدان الثقافي. فهي منظم الجماهير ومربيها، وليست عدواً لها ولهذا يعني ازدياد الدولة السوفياتية، هنا أيضاً اضمحلال صفات الدولة التقليدية"!

ولهذا تهتم الدولة نفسها بالثورة الثقافية، وإذاعة الأفكار والعلم التقدمي بين الشعب، وانتصار الأفكار الاشتراكية على الأفكار البرجوازية، وذلك حسب تعاليم المادية الجدلية حول مهمة الأفكار في الحياة الاجتماعية. بينما أوجد تحول علاقات الإنتاج الظروف لظهور وعي جديد في الجماهير، وذلك بإزالة الأسس الموضوعية للأفكار البرجوازية: وهي ملكية وسائل الإنتاج الخاصة. ولهذا لم يوجد الوعي الجديد الاشتراكي من العدم. ومهمة الدولة هي التوفيق, بقدر الامكان, بين وعي الجماهير وبين الظروف الجديدة الموضوعية، الاشتراكية، وأن تسرع في العملية التي تساعد على ظهور صورة جديدة من الوعي تتفق والمحتوى الجديد. وكذلك يجب دفع الوعي الاشتراكي، إلى الأمام، في نفس الوقت، وذلك بفضل معرفة قوانين المجتمع. حتى تستطيع معرفة سير النمو والتعجيل في النمو الاقتصادي وذلك بتأثيرها بدورها في الشروط الموضوعية. وهكذا نرى أن الشروط الموضوعية والشروط الذاتية، في المجتمع الاشتراكية، لا تتناقض بل تؤثر تأثيرا متبادلا وتدعم كل منها الأخرى. ولهذا يمكن للمجتمع الاشتراكي أن ينمو ماديا وثقافيا بشكل لا يعرفه المجتمع البرجوازي.

كما كان التنافس الاشتراكي مثالا على أهمية وعي الجماهير الجديد بالنسبة لنمو الإنتاج الاشتراكي. وعلى الأدب والفن أن يقوم بدور مهم في هذا التحويل للوعي: فيصبح الفنانون، حسب قول ستالين "مهندسي النفوس".
يتضح أخيرا أن جميع المهمات الملقاة على عاتق الدولة الاشتراكية لم يمكن تحقيقها – منذ الفوز بديكتاتورية البروليتارياحتى الثورة الثقافية – لو ـــ أن الطبقة العاملة وحلفاءها لم يكن على رأسها جماعة واعية منظمه، أي حزب سياسي، مرتبط بالجماهير، ومسلح بالنظرية الماركسية اللينينية عن المجتمعات وهو الحزب الشيوعي. يزداد دور هذه الطليعة، التي تضيء طريق المجتمع الاشتراكي وتوحد النظرية مع التطبيق، كلما ظهرت متطلبات جديدة، مادية أو ثقافية، وكلما أزداد دور الدولة السوفياتية.

6 – الخلاصة

القانون الاقتصادي السياسي للاشتراكية هو قانون موضوعي، وذلك لأن سد رغبات الجماهير المادية والثقافية إلى أقصى حد ليس ثمرة "الاختيار الحر" الحكومة، ولا يمكن أن يكون كذلك، بل هو النتيجة الضرورية لاشتراكية وسائل الإنتاج. ولا تستطيع سوى سلطة الطبقة العاملة أن تعطي للجماهير ما تعدهم به لأنها جعلت وسائل الإنتاج اشتراكية، ولأنها تعتمد على القانون الموضوعي الذي يميز علاقات الإنتاج الجديدة. ومما يميز النظرية الماركسية للاشتراكية عن النظرات الخيالية "الأوتوبية" (utopiques) أنها تجعل مطلب الجماهير الذاتي منذ آلاف السنين يتفق ومتطلبات القانون الاقتصادي الأساسي لنوع من الإنتاج قد حدد بصورة علمية. وهذا ما يفسر نجاح بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي بقيادة الحزب الشيوعي، وليس بسبب "اختيار حر" أو حظا سعيد بل لأنه كان ملماً بعلم المجتمعات".
ويرد أعداء الاشتراكية , وهي البرجوازية الرأسمالية بأن نجاح بناء الاشتراكية لا يمكن تحقيقه ألا باستعباد الفرد. فيزعمون أن الاشتراكية تقضي على الشخصية

الانسانية كما تقضي على الطاقة الشخصية والمبادرة الشخصية، وكذلك تقضي على طاقات الأفراد ومواهبهم وحقوقهم وحرياتهم، وأنها تسوي بين الحاجات والأذواق. والحقيقة هي أن الرأسمالية باستغلالها وتشويهها للعمال جسديا وفكريا تقضي على عالم من المصالح الروحية والمطامح والطاقات الإنسانية وتجعل من العامل تبعاً للإلة، وتشوهه في فرديته الجسدية والأخلاقية وتستعبده في العمل، تحت ظل نظام يقوم على الاضطهاد والمجاعة والبطالة، يبعث القلق في حياته ويجعل من الناس آلات متحركة (Robots). يقف الإنسان وحيدا أعزل أمام الرأسمالية، وليس هناك من وسيلة لتحريره سوى إتحاد المستغلين المضطهدين، والنضال الثوري. ولقد قال ستالين عام 1906: "الشعب هو حجر الزاوية في الماركسية" لأنه بدون تحرير جماهير الشعب لا يمكن تحرير الفرد: فهو الشرط الأساسي لتحرير الفرد.

ويؤكد أنصار الرأسمالية أن كل إنسان، في ظل الرأسمالية، ذي عزيمة وجرأة، يستطيع ولو كان معدما، أن "يخط طريقة" ويحتل مكانة تناسب كفاءاته. ويذكرون بأمثلة موفقة" عن ماسحي أحذية أصبحوا من أصحاب الملايين. ولكنهم لا يكشفون عن أن "نجاح" البعض أنما يدفع ثمنه آلاف العمال المستغلين. وتدل ضرورة "خط الطريق" في النظام الرأسمالي إن وضع الناس في المجتمع البرجوازي يحدده مدى الملكية الخاصة. ولا يحتل مراكز الإدارة إلا ممثلو الطبقات "العليا" وهكذا يتحدد وضع الناس حسب ثروتهم أو طبقتهم أو ملتهم أو أصلهم القومي، أو جنسهم، أو طائفتهم، أو محالفاتهم أو من يلوذون بهم، الخ.ذلك هو ((الوضع)) الذي يعتبره((مفكرو)) الرأسماليين ((أخلاقيوها)) خالدا" و "منطقيا" معقولا يمكن تصوره .. فيمتدحون "الطاقات الخلاقة" عند آل كروب، وستين، ومورجان، وروتشيلد، وروكفلر، وفارد، يبوساك للتدليل على أن لهم الحق في احتلال مركز رئيسي، غير أن كل واحد منا يعلم أن "الطاقات الخلاقة" عند الرأسماليين إنما ترجع لبراعتهم في سلب فائض القيمة من العمال المأجورين، وإن مقدار رأسمالهم فقط هو الذي يحدد وضعهم المسيطر. وهذا ما يحدد "قيمة" الإنسان في النظام الرأسمالي.

إما في الاشتراكية فأن ارتفاع قيمة الفرد، ونمو طاقاته ومواهبه الخلاقة يشترط ارتفاع طاقات جماهير الشعب الخلاقة، نفسها. ولقد برهن لنا قانون الاشتراكية الاقتصادي الأساسي على مهمة التقنية التقدمية، كما أشارت دراسة شروط الاشتراكية الذاتية إلى أهمية الوعي الاشتراكي الذي هو قوة هائلة نشيطة للمجتمع الجديد.

ويجب أن ندرك من هذه الدراسة المزدوجة أن الاشتراكية تنمي شخصية العامل في جميع جوانبها: فتجعل منه عاملا تقنيا (Technicien) مثقفا، كما تجعل منه إنساناً اجتماعيا يملك معرفة واسعة عميقة لمشاكل المجتمع، فهو بناء واع لحياة جديدة. وبدلا من أن يبقى نمو الفردية الإنسانية المتعدد، ونمو الطاقات الشخصية، ظاهرة وحيدة، كما هو الحال في الرأسمالية، يصبح ذلك في الاشتراكية ظاهرة شعبية منتشرة فالتنافس الاشتراكي دليل حي على الإمكانات التي تتاح للمبادرة الشخصية والذكاء الخلاق عند الجميع. ولهذا يعد في الاتحاد السوفياتي بالملايين، المجددون، والمخترعون والعمال المختصون، والمجربون في الزراعة، ومنظمو الإنتاج والاقتصاد، والمفكرون الذين انحدروا من الشعب، والرجال والنساء الذين يمارسون نشاطا اجتماعيا وسياسيا، والعمال الذين يمكنهم الاشتراك في نقاش علمي، أو مسابقة أدبية أو فنية، والعديد من أبطال العمل الاشتراكي، والفائزون بجائزة مالية، ولا يحتل الإنسان حقا مكانة تليق بمواهبه، بدون اعتبار للأصل أو الجنس أو الثروة، إلا في المجتمع الاشتراكي.

الاشتراكية هي حقا حكم الجماهير الشعبية،وملايين الناس الذين كانوا ضحايا الاضطهاد وحرموا، بواسطة الاستغلال، من كل نمو إنساني. هذه الجماهير الشعبية هي التي تصنع التاريخ، لأنها الوحيدة التي تستطيع القضاء على سلطة رأس المال. حتى إذا ما تحررت من نير الاستغلال أقامت لنفسها حياة جديدة، وهي، بازالتها لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، قد وفقت بين الفرد والمجتمع ووضعت في يد كل إنسان الوسائل كي يتفتح تماما.

من الاشتراكية إلى الشيوعية

1 – مرحلة المجتمع الشيوعي الأولى.
2 – مرحلة المجتمع الشيوعي العليا.
3 – قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في الاشتراكية.
4 – شروط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية.
5 – الخلاصة.

رأينا أن هدف الاقتصاد الاشتراكي، حسب قانون الاشتراكية الأساسي، هو سد حاجات المجتمع المادية والثقافية إلى أقصى حد. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك طالما أن الملكية الخاصة قد زالت.

ولا يعني هذا، مع ذلك، أنه يمكن لكل عضو في المجتمع أن ينال ما يحتاجه بصورة غير محدودة. إذ أن كل فرد، في المجتمع الاشتراكي، ينال حسب العمل الذي يؤديه، ولهذا يجب التمييز بين مرحلتين في نمو المجتمع القائم على الملكية الاجتماعية، مرحلة أولى وتسمى "الاشتراكية" ومرحلة عليا تسمى "الشيوعية". وقد أقام ماركس هذا التمييز بصورة علمية.

1 – مرحلة المجتمع الشيوعي الأولى

ليست الاشتراكية، التي درسناها – إذا نظرنا إليها بالنسبة للمجتمع الشيوعي الذي أتم نموه، سوى مرحلة أولى، وهي تقوم على المبدأ التالي: "على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته، وأن ينال حسب عمله". غير أن مبدأ الشيوعية هو "على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته، وأن ينال حسب حاجاته". ولا شك أن العثرة الرئيسية التي تحول دون أن ينال كل

فرد حسب حاجاته، في العالم الحديث، هي الاستغلال الرأسمالي الذي يبذر ثروات العمل الإنساني، والنتيجة الأولى لإزالة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان هي أن العامل يستطيع أن ينال حسب عمله الذي يؤديه دون أن يسلب جزءا من الثروة التي أنتجها، أما أن ينال كل فرد حسب أرادته وحاجاته فيجب أن يصل المجتمع إلى إنتاج كمية كافية من وسائل الاستهلاك. تحقيق هدف الشيوعية، إذن، هو السبب في الأجراءات الأولى التي تتخذها السلطة الجديدة،وهي تسعى لزيادة الإنتاج. غير أن حاجات الفرد اللامحدودة ليست هي التي يمكنها أن تمدنا، في هذه المرحلة، بمبدأ التوزيع. وذلك لأن كل زيادة للإنتاج، إذا أريد لها أن تعيش وتستمر، يجب أن تبدأ بزيادة إنتاج وسائل الإنتاج، إذ يجب، قبل سد حاجات الاستهلاك الفردي، أن نسد حاجات المجتمع المادية إلى وسائل الإنتاج، ولقد رأينا "راجع الدرس العشرين، المسألة 4" أن المجتمع الرأسمالي، في الغالب، يترك للاشتراكية وضعا سيئا جدا لا يتفق فيه إنتاج وسائل الإنتاج مع وسائل الاستهلاك. فلقد نمت الرأسمالية في تشيكوسلوفاكيا مثلا، صناعة خفيفة وفرت للبرجوازية في هذه البلادالتي سميت بالمصنعة" مستوى عالياً للمعيشة.غير أن هذه الصناعة الخفيفة كانت تعتمد في مجملها على الصناعة الثقيلة في البلاد الرأسمالية الكبرى.

يتفق قول الاشتراكية إذن: "على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب عمله" مع الواقع، وهو أنه، في المرحلة الأولى، للمجتمع الشيوعي يجب إيجاد مقياس للاستهلاك.

فأين نجد هذا المقياس؟ في العمل طبعاً. وذلك لأن كمية العمل الذي يؤديه كل فرد ونوعه هما اللذان يحددان القدر الذي يناله من الإنتاج الاجتماعي، وهذه هي الطريقة الوحيدة العادلة لتقدير حقه في الاستهلاك. يضاف إلى ذاك أن العمل هو الشرط الأساسي لازدهار قوى الإنتاج، أي ظهور الشيوعية فيما بعد. وهكذا يهيىء الأجر الذي يناله الفرد على عمله لمرحلة يصبح فيها هذا الأجر غير ضروري لتقدير استهلاكه الفردي!

ومع ذلك فأن مبدأ الاشتراكية " على كل فرد إن يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب عمله" يكون خطوة كبرى إلى الأمام بالنسبة إلى الرأسمالية المستغلة، حيث لا ينال العامل قط حسب عمله.

يجب على الأفراد، إذن، في المجتمع الاشتراكي، أن يحصلوا بواسطة الشراء على السلع الضرورية لمعيشتهم وهذا الشراء هو الصورة الوحيدة الممكنة لتوزيع سلع الاستهلاك. وبالاضافة إلى ذلك فأن حاجات الجماهير المادية والثقافية تسد إلى الحد الأقصى بواسطة الخدمات الاجتماعية – كمجانية العناية الطبية مثلا – والمؤسسات الثقافية التي لا تعرفها الرأسمالية.

ويجب كذلك أن نعرف لأنه لا يمكن ازدياد الإنتاج، الذي يسمح بتوزيع سلع الاستهلاك حسب حاجات كل فرد، بدون نمو التقنية الهائل. ويتطلب مثل هذا النمو التقني أن يبلغ تخصص العمال وثقافتهم درجة أسمى من الدرجة التي بلغوها في الرأسمالية، التي تحرم الجماهير من الثقافة والعلم. غير أنه طالما أن العمل لم يصبح بالنسبة للفرد حاجة طبيعية كحاجته إلى التنفس والمشي، فالوسيلة لتشجيع التقدم وتخصص العمال هي أن ينال كل فرد حسب نوع العمل الذي يؤديه.

ولهذا تصبح وعود الرأسمالية الخلابة، التي تريد أن تقنع العمال بأنها تستطيع رفع مستوى معيشتهم إذا حسنوا نوعية عملهم، حقيقة، في الاشتراكية، بسبب زوال الاستغلال.

ولهذا يجب، كي نفهم المرحلة الأولى للمجتمع الشيوعي، أن لا ننسى واجب المجتمع الشيوعي في تصفية تركة الرأسمالية الثقيلة في جميع المبادىء.

ولهذا يقول ماركس وانجلز: "نحن هنا أمام مجتمع شيوعي لم ينم حسب الأسس الخاص به، بل على العكس، كما ولد في المجتمع الرأسمالي، وهو مجتمع يحمل لذلك في الميادين الاقتصادية والأخلاقية والفكرية سمات المجتمع القديم الذي خرج من صلبه[83]*.*

ونحن حين نقول بأن *المجتمع الاشتراكي يعطي لكل فرد حسب عمله*، لا نعني بذلك أن كل فرد يأخذ فرديا ومباشرة نتيجة عمله كاملة – لأن ذلك وهم البرجوازية الصغيرة، وذلك لأننا إذا نظرنا إلى مجموع إنتاج العمل الاجتماعي يتضح لنا أنه يجب أن نحتفظ بقسم منه من أجل تنمية الإنتاج وبقسم أخر لتجديد الآلات البالية، الخ... وإذا نظرنا لوسائل الاستهلاك رأينا أنه يجب أن نحتفظ بقسم منها لتغطية مصاريف الإدارة، وبقسم آخر من أجل المدارس والمستوصفات وملاجيء الكهول، الخ...

---

[83] ماركس انجلز: نقد برنامج غوتا وارفورت ص 23. المطبوعات الاجتماعية باريس 1950.

يساعدنا كل ما سبق على فهم أهمية المادة 12 من الدستور السوفياتي.

العمل بالنسبة لكل مواطن كفء للعمل فرض ومسألة شرف حسب المبدأ القائل: "كل من لا يعمل لا يأكل".

ولهذا كانت المساواة، في المجتمع الاشتراكي، هي في أن تعطي كل فرد حسب عمله، أي بصورة غير متساوية بين الأفراد، بعد أن يؤمن لكل فرد أسباب معيشته "بفضل إزالة الاستغلال". ولهذا لا يجب مساواة الاشتراكية بنزعة خيالية للمساواة بين الناس.

كتب موريس توريز يقول: *"أما فيما يتعلق بنزعة المساواة التي تقوم على قياس الناس بنفس المقياس فهي استحالة اجتماعية لأن هناك تفاوتا طبيعيا بين الناس، سببه كفاءاتهم البيولوجية والنفسية. أما التفاوت، الذي يسعى الشيوعيون لإزالته، فهو التفاوت الذي ينشأ عن وجود الطبقات، إذ أن الأفراد في المجتمع الرأسمالي، لا يتمتعون بفرصة متساوية لنمو شخصياتهم، فالمليونير والعامل الذي يقاسي البطالة متساويان أمام القانون وكلاهما حر. غير أن هذه الحرية تؤدي بأحدهما إلى فنادق الريفيرا الفخمة بينما تؤدي بالآخر إلى المبيت تحت الجسور. لن يكون رجل المستقبل "إنسانا آليا" (Robot) بل شخصية حرة قوية، تتفتح طاقاتها وقواها تفتحا واسعا*[84].

يقوم "التفاوت" في المجتمع الاشتراكي على أن الأفراد الذين تتشابه حاجاتهم، وتتفاوت كفاءاتهم، ينال كل منهم حسب عمله، ما يؤديه للمجتمع، أي بصورة غير متساوية، فالعامل الستاخانوفي (Stakthanoviste) ينال أكثر من غير الستاخانوفي، وليس ذلك تمييزا له عن غيره "لأنه لا يوجد تمييز في مجتمع خال من الطبقة المستغلة" بل لأنه عامل ممتاز مجدد، يؤدي أكثر من غيره للمجتمع أي لكل فرد من أعضاء هذا المجتمع[85].

وإما التفاوت فهو، *على العكس*، يقوم في المجتمع الشيوعي على أن الأفراد الذين يختلفون في كفاءاتهم ويؤدون بسبب ذلك، للمجتمع عملا يتفاوت "في الكمية والنوعية" ينالون

---

[84] موريس توريز: أبن الشعب ص 234

[85] ليس رفع هذا الأجر للعامل الستاخانوفي تمييزا له بل هو نتيجة للقانون الاشتراكية، ولقد لاحظ لينين "أن كل قانون يقوم على تطبيق قاعدة واحدة على أناس مختلفين، ليسوا في الواقع متماثلين أو متساوين الدولة والثورة ص 84".

بصورة متساوية، كل حسب حاجاته القصوى. لماذا؟ لأن ارتفاع الإنتاج بصورة كافية يسمح بذلك.

يوجد في المجتمع الاشتراكية، إذن، مراقبة شديدة لمقدار العمل ومقدار الاستهلاك. فالعمل واجب، وكل فرد ينال حسب العمل الذي يؤدي. ولهذا لم يعد هناك محظوظون ولا مستغلون، بل العمل يصبح هو سيد الجميع.

لا يزال، في المجتمع الاشتراكية، شيء من التفاوت في الممتلكات، غير أنه لا يوجد في المجتمع الاشتراكي قط بطالة ولا استغلال ولا اضطهاد للقوميات. وعلى كل فرد، في المجتمع الاشتراكي، أن يعمل، وأن كان لا ينال بعد على عمله، حسب حاجاته بل حسب كمية العمل الذي يؤدي ونوعه، ولهذا لا يزال يوجد أجر متفاوت ومختلف. ولن نستطيع القول بإتمام بناء المجتمع الشيوعي إلا متى نجحنا في إيجاد نظام ينال فيه الناس من المجتمع على عملهم حسب حاجاتهم، وليس حسب كمية عملهم ونوعه[86].

2 – مرحلة المجتمع الشيوعي العليا

حين يبلغ المجتمع الشيوعي مرحلته العليا، وتزول تبعية الأفراد الذليلة لتقسيم العمل، كما يزول التعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي، فلا يعود العمل وسيلة للحياة فقط، بل يصبح الحاجة الأولى الحياتية, وتزداد قوى الإنتاج مع نمو الأفراد وتفيض مصادر الثروة الجماعية، يمكن حينئذ تخطي حدود القانون البرجوازية الضيقة، ويستطيع المجتمع أن يعلن عاليا: "على كل فرد أن يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب حاجاته[87].

"حجة" البرجوازية الرئيسية فيما يتعلق بما تدعيه من "استحالة تحقيق" الشيوعية أن المجتمع لن يستطيع أن يقدم لكل فرد "حسب حاجاته" أي مجاناً دون يحاول كل فرد، عندئذ، أن يعمل "أقل ما يمكن" وهكذا يأتني الفقر بسرعة! تعتقد البرجوازية أن الإنسان، وهو فريسة الخطيئة الأصلية"، كسول، بطبيعته، لا يعمل إلا إذا أجبر على العمل وحمل

---

[86] ستالين: "تصريح إلى روا هورد" كراسات الشيوعية عدد 11 19580"، ص 325.

[87] ماركس. انجلز نقد لبرنامج غوتا وارفورت ص 25.

عليه، فيحاول الاستفادة إلى أقصى حد من عمل غيره. تعكس البرجوازية، بهذا الاعتقاد، نظرتها الخاصة "للعمل"! أما العقلية التي تكتفي "بحدود القانون البرجوازية الضيقة" وتحسب كما فعل شيلوك [88] فتقول: "لا يجب أن أعمل نصف ساعة زيادة عما عمل غيري، ولا أنال أجراً أقل منه[89]" فهي ليست سوى نتيجة لشروط الاستغلال الرأسمالي. ولهذا يمكن فهمها تماماً.

ذلك لأن شروط استغلال الإنسان لأخيه الإنسان أوجدت، منذ آلاف السنين، كراهية العمل الشديد المرهق. ولهذا جعل نمو قوى الإنتاج الضعيف، حتى وقت متأخر في عهد الرأسمالية، وعدم الاهتمام بتخفيف مهمة العمال بواسطة تقنية خاصة، كل ذلك جعل من العمل مهمة شاقة – كما كرس تقسيم العمل، الذي كان في البدء شرطاً لتقدم قوى الإنتاج, كل إنسان في عمل يزاوله مدى الحياة – ولا سيما في الصناعة الحديثة حيث أصبح كل إنسان أسير عمل جزئي بقوم به، يضاف إلى ذلك أن تقسيم العمل إلى فكرية ويدوي قد حرم العامل اليدوي من كل نشاط خلاق، وجرد العامل اليدوي من كل إمتاع. لهذه الأسباب جميعا أصبح العمل شاقا.

غير أن هذا الوضع ليس أبديا. فهو وليد ظروف مادية معينة ولهذا يزول بواسطة ظروف مادية أخرى. فقد كان هلفتيوس يعتقد أن النشاط المنتج المتعدل السليم ضروري، بصورة حياتية، للإنسان وسعادته إذ أن الشرور، في نظره، لا يمكن أن تأتي إلا عن الكسل والعمل المرهق. كما حيا فورييه "العمل المغري" الذي يتفق وميول العمال وكفاءاتهم ومواهبهم على أنه من نصيب المجتمع المقبل. ويعطينا النشاط العلمي والفني، في المجتمع المنقسم إلى طبقات، صورة عما يمكن أن يكون عليه عمل *كل إنسان* في المجتمع الشيوعي, فهو ليس شاقا بل متعة وتفتحا. كما أنه يجب أن نلاحظ أن المقارنة ناقصة لأن الفنانين والعلماء في المجتمع الرأسمالي ليسوا دائماً في منجى من العوز والفاقة، فإذا بهم يجدون جهدهم الخلاق محدوداً بنظام الاستغلال.

---

[88] شخصية من شخصيات شكسبير وهو مرابي.

[89] لينين: الدولة والثورة.

تمزج التقنية التقدمية، في المجتمع الشيوعي، العمل اليدوي بالعمل الفكري، كما أنها تسمح بتخفيض ساعات العمل، فتتيح للعامل الفراغ لتحسين تخصصه إذ تمكنه من أن لا يكون طيلة حياته أسير نفس المهمة، ولهذا فلن يشوه العمل شخصية الإنسان بل سوف يكون أسمى تعبير عن هذه الشخصية. إذ به ينمي كل منا مواهبه، ويصبح العمل، بعد تحرره من الاستغلال، *الحاجة* الأساسية لكل فرد.

وسوف يعطي كل منا حسب *طاقاته*. وتعجز العقلية البرجوازية" هنا أيضا، عن أن تدرك ذلك لأنها تعتقد أن الدافع لكل نشاط إنساني هي المصلحة الخاصة التي تعارض المصلحة العامة. غير أنه كلما تقدم المجتمع الشيوعي كلما توطد *الوعي الاشتراكي* الذي يعتقد أن المصلحة الشخصية والمصلحة العامة صنوان. ويصبح إدراك مصلحة المجتمع بأكملها عادة "طبيعية" كحساب شيلوك الدقيق في الرأسمالية وكما أن الملكية الخاصة قد تسربت الآن إلى العادات، فكذلك تتسرب الاشتراكية والشيوعية. وسوف يعتاد الناس على مراقبة قواعد الحياة الاجتماعية الأساسية ويعملون بإرادتهم وضميرهم حسب طاقاتهم ويأخذون بحرية من وسائل الاستهلاك حسب حاجاتهم.

ليست الثورة الاشتراكية، كما نرى، سوى بداية تحول طويل للمجتمع والناس.

ويهمنا أن نرى إلى أي حد تكذب الفكرة البرجوازية السائدة، التي تقول بان الاشتراكية شيء ميت جامد لا يتطور، مع أن الحقيقة هي أن الاشتراكية بداية حركة تقدم سريع حقيقية في مجتمع ميادين الحياة الاجتماعية والخاصة" حركة شعبية حقا تشترك فيها الأغلبية في أول الأمر ثم تعم جميع السكان[90].

غير أن الشيوعية تفترض زوال "برجوازي *اليوم* الصغير، القادر... على تبذير" "الثروات العامة والمطالبة بالمستحيل بدون طائل[91]". ولا شك أن هذا البرجوازي الصغير يعتقد أنه خالد. فهو واثق بغباء أن أنانيته وضيق تفكيره ينحتان وجه الإنسان الخالد. فإذا ما قال

---

[90] لينين: الدولة والثورة، ص 90.

[91] نفس المرجع ص 92.

نشر على القارىء للإطلاع على نقد عقلية البرجوازي الصغير بقراءة قصة غوركي: البرجوازيون الصغار "مطبوعات النقد الجديد" وكذلك مؤلفات ما ياكوفسكي الشعرية.

الماركسيون أن الإنسان يتحول وسوف يتحول مع المجتمعات، هز كتفيه ساخراً وعدّ ذلك القول وهما وخيالا. والخيال في الحقيقة هو الاعتقاد أن أفكار البرجوازي الصغير سوف تستمر إلى ما لا نهاية بعد زوال الظروف الاجتماعية للمعيشة.

ومع ذلك فأن "نظام المصنع" الذي سوف تخضع له البروليتاريا الظافرة المجتمع بأكمله ليس المثل الأعلى ولا هو الغاية النهائية بل هو "خطوة ضرورية لتخليص المجتمع من أوزار الاستغلال الرأسمالي، وضمان السير إلى الأمام في المستقبل[92].

ولقد عدد ستالين، مستخلصا تعاليم كتب ماركس وانجلز ولينين، ميزات المجتمع الشيوعي كما يلي:

أ) لن يكون هناك ملكية خاصة لآلات الإنتاج ووسائله بل ستكون ملكية اجتماعية جماعية.

ب) لن يكون هناك طبقات ولا سلطة دولة[93]، بل سيكون هناك عمال في الصناعة والزراعة يديرون أنفسهم بأنفسهم اقتصاديا كجمعية حرة للعمال.

ج) سيعتمد الاقتصاد القومي، المنظم حسب مخطط موضوع، على تقنية عليا سواء في ميدان الصناعة أو ميدان الزراعة.

د) لن يوجد فرق بين المدينة والقرية، بين الصناعة والزراعة.

هـ) ستوزع المنتوجات حسب مبدأ الشيوعيين الفرنسيين القدماء، وعلى فرد أن يؤدي حسب طاقاته وأن ينال حسب حاجاته".

و) سيستفيد العلم والفنون من ظروف مواتية كفاية لبلوغ تفتحهما الكامل.

ز) سيصبح الفرد حراً حقاً بعد أن تخلص من هم خبزه اليومي، ولن يحاول إرضاء "جباري هذا العالم[94]".

ويضيف ستالين إلى ذلك قوله: "الخ" ولقد عرض ستالين، في آخر سنة من حياته، بصورة رائعة، الأفكار التي بسطها ماركس وانجلز ولينين، متعمدا على التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، كما حدد شروط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية.

---

[92] لينين: الدولة والثورة ص 92.

[93] حين تخلب البرجوازية، كطبقة، في العالم أجمع.

[94] ستالين: حديث مع أول بعثة من عمال أميركا" في لينين مؤلفات مختارة، ج1 ص 45

3- قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في الاشتراكية

بين الاشتراكية والشيوعية قرابة قوية: وهي ملكية وسائل الإنتاج الاجتماعية الجماعية. ويدلل قانون الاشتراكية الأساسي تماما على هذه الصلة المستمرة بين مرحلتي الشيوعية إذ أن هدف الإنتاج، في المرحلة الأولى، هو سد *الحاجات* إلى أقصى حد، ليس هناك سد "كجدار الصين" بين المرحلتين. ومع ذلك تتخذ الملكية الإجتماعية أشكالاً متعددة , فقد رأينا أنه يوجد، في الاشتراكية كما تحققت في الاتحاد السوفياتي صورتان للملكية الاجتماعية. ولا يمتاز المجتمع الشيوعي فقط بعدم وجود التعارض بين الطبقات، بل يمتاز أيضاً بزوال هذه الطبقات تماما. فليس هناك، إذن، سوى صورة واحد للملكية الاجتماعية، وهي ملكية الشعب الجماعية بأكمله، نرى أنه يوجد اختلاف بين مرحلتي الشيوعية، ليس في المبدأ الذي يشرف على توزيع المنتوجات فقط , بل في علاقات الإنتاج التي يجب عليها أن تساعد على نمو قوى الإنتاج بشكل يمكن من نشر الرخاء بين كل الناس. غير أنه، كي تتغير علاقات الإنتاج، يجب أن تكون قد تغيرت قوى الإنتاج أولا. وهذا ما نعلمه.

فهل تجري الأمور هكذا بالنسبة للاشتراكية؟ أجل! لأن قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج هو قانون شامل يصح في جميع طرق الإنتاج بدون استثناء. ولهذا فأن الفعل المتبادل بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج هو الأساس الموضوعي للانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية. ولا يمكن لأي شيوعي أن يعتقد غير هذا فيقول بان المجتمع الاشتراكي ينتقل إلى الشيوعية في أية لحظة ! نعلم أن علاقات الإنتاج الجديدة ,وهي علاقات نعلم أن علاقات الإنتاج الجديدة، وهي علاقات اشتراكية، هي الواقع للأساسي لنمو قوى الإنتاج. غير أن علاقات الإنتاج، فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي، تمتاز بأنه يوجد. إلى جانب ملكية الدولة،. وهي ملكية الشعب بأكمله، الملكية الاشتراكية الكولخوزية: إذ يملك الكولخوز منشآته ومبانيه وإنتاجه.

الصورة الأولى للملكية تتفق تماما وطابع قوى الإنتاج، إذ تستطيع الدولة الاشتراكية، كما يشهد الواقع، أن تقوم بالأعمال الهائلة كري الصحاري وتحويل مناخ المناطق القاحلة! بينما الصورة الثانية للملكية لا تستطيع القيام بذلك تماما: فلنفرض أن كولخوزا يريد كهربة الأعمال الزراعية كالتراكتورات والآت جز صوف الأغنام وحلب الأبقار، الخ... لا شك أن المصلحة تقتضي بناء مركز كبير لتوزيع الكهرباء يمد أربعة أو خمسة كولخوزات بالكهرباء بدلا من بناء مركز صغير لا يمد سوى كولخوز واحد يكلفه مصاريف باهظة. فإذا لم يقم الكولخوز بالانضمام إلى الكولخوزات المجاورة، كان ذلك سبباً في عدم بناء المركز الكهربائي. يعني هذا أنه لا يمكن استخدام التقنية سواء كان في العلم الحياة الزراعية أو في الآلات الزراعية، لمصلحة الكولخوزات الصغيرة. وأن كانت هذه التقنية قد نمت وتطورت *بفضل علاقات الإنتاج الاشتراكية*[95]. ولقد علمنا ماركس أن قوى الإنتاج لا تنمو إلا في حدود علاقات الإنتاج. وليست الشيوعية عبارة عن تنظيم لقوى الإنتاج. بل هي تتطلب منا دراسة علاقات الإنتاج، أي دراسة الاقتصاد. غير أن الملكية الاجتماعية الكولخوزية التي أتاحت نمواً هائلاً للزراعة الاشتراكية تبدو كأنها عائق في وجه نمو قوى الإنتاج في القرية فيما بعد. وازدهار الزراعة وتربية المواشي ضروريان لازدياد سلع الاستهلاك، أي لبناء الشيوعية. يجب إذن أن تتسع الملكية الاشتراكية الجماعة، وأن تجتمع لكولخوزات من جديد لتكون كولخوزات أكبر. وألا تعيق علاقات الإنتاج – أي الكولخوز – التي ساعدت قوى الإنتاج حتى الآن ازدهارها ويبدأ النزاع بينهما. وهكذا تبقى علاقات الإنتاج مطابقة لطابع قوى الإنتاج.

وليس هذا كل ما في الأمر. فطالما أستمر تنقل السلع – بواسطة الشراء والبيع – بين القرية والمدينة، أمكن للكولخوزات أن تبيع إنتاجها. وأن تتصرف كما تشاء بدخل هذا الإنتاج. ليس من السهل إذن *التنبؤ بعملياتها*. ولهذا يستحيل تعيين نسبة دقيقة بين إنتاج وسائل الإنتاج ووسائل الاستهلاك، في الوقت الذي يزداد فيه إنتاج وسائل الاستهلاك، ووضع مخطط كامل للإنتاج حسب إحصاء لمجموع الحاجات.غير أن هذا الإحصاء أساسي إذا أردنا الانتقال إلى الوفر في المنتوجات. ولهذا فأن تنقل السلع "البيع والشراء"

---

[95] راجع قصة ج: نيولاييفا: الحصاد.

ربما أصبح عائقا لنمو قوى الإنتاج حسب المخطط الموضوع لها. وعلى العكس فإن وجود نظام للتبادل بواسطة العقود بين الدولة والكولخوزات يساعد على هذا التخطيط ويعود بالفائدة على الكولخوزيين الذين يتلقون من الدولة المنتوجات التي هم بحاجة إليها بكميات أكبر وبأسعار ارخص.

وهكذا يكون الفعل المتبادل بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، أي الجدلية الداخلية لطريقة الإنتاج، أساس التغييرات التي تحدث. *غير أن قانون الترابط الضروري، في المجتمع الاشتراكي، يمكن أن يشق طريقه دون أن تعمل الطبقات الرجعية للوقوف في وجه خدمة لمصلحتها. فليس هناك تعارض بين الطبقات.* مصلحة العمال والكولخوزيين الطبقية إذن هي في نمو قوى الإنتاج، وزيادة الإنتاج، والإنتقال إلى الشيوعية والرخاء. ولهذا يمكن ألا يؤدي الخلاف- النسبي – بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج إلى نزاع، كما يمكن للتناقضات أن لا تتطور إلى تعارضات شريطة أن تتبع سياسة عادلة قائمة على علم التناقضات.

ولا ينتهي الأمر، في النظام الاشتراكي، عادة إلى النزاع بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، لأنه يمكن للمجتمع أن يوفق في الوقت المناسب، بين علاقات الإنتاج المتأخرة وبين طابع قوى الإنتاج. يمكن للمجتمع الاشتراكي أن يفعل ذلك لأنه لا يضم، في داخله، طبقات في طريق الزوال يمكن أن تقف في وجه ذلك، لا شك أنه سيوجد في المجتمع الاشتراكي أيضاً قوى متأخرة لا تدرك ضرورة تحويل علاقات الإنتاج، غير أنه من السهل القضاء عليها دون أن يؤدي الأمر إلى النزاع[96].

أما الدولة السوفياتية فهي بدلا من أن تكون عائقا لتحول علاقات الإنتاج كالدولة الرأسمالية، لأنها تعكس مصالح العمال والفلاحين المتحدين، فتقف في وجه تأثير قانون الترابط الضروري، فأنها تتخذ جميع الإجراءات المفيدة لتشق أمامه الطريق وتسرع في تحول علاقات الإنتاج. وهنا يظهر دورها الضخم في انتقال الاشتراكية إلى الشيوعية. "فالشيوعية، كما يقول لينين ,هي سلطة السوفيات مع كهربة جميع البلاد" إذا كانت الدولة ليست عائقا في وجه التغييرات الضرورية بل تشجعها فأن الانتقال من الاشتراكية إلى

[96] ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 140.

الشيوعية – على عكس الانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية – لا يحدث بصورة مباغتة. ومع ذلك فهو تغيير نوعي في علاقات الإنتاج، لأننا سننتقل بواسطته من صورتي الملكية إلى صورة واحدة، ومن مجتمع ذي طبقتين إلى مجتمع لا يعرف الطبقات. غير أنه انتقال نوعي بالتدريج بتراكم الجديد وزوال القديم تدريجيا.

يجب أن نقول للرفاق الذين يتحمسون للانفجاريات أن القانون الذي يسيطر على الانتقال من النوعية القديمة إلى نوعية جديدة بواسطة الانفجارات لا يمكن تطبيقه دائما فقط على تاريخ نمو اللغة بل كذلك لا يمكن تطبيقه دائما على ظواهر أخرى اجتماعية تتعلق بالأساس... فهو ضروري لمجتمع منقسم إلى طبقات متناحرة. وليس هو ضروريا فقط لمجتمع لا يضم طبقات متناحرة[97].

لا يشترط الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية قلب حكم طبقة على يد طبقة معارضة، والانتقال من الغد إلى القطب المعارض، بل يشترط زوال الفروق بين طبقتين بالتدريج، فليس هناك أي داع لأن يحدث ذلك بالانفجار. فحيث لا يوجد تعارض بين الطبقات لا يعود نضال الطبقات محرك التاريخ.

ليس هناك إذن محرك قط، ومن الخطأ الاعتقاد بذلك.

أن مصلحة العمال هي في الانتقال إلى الشيوعية بالاعتماد على قوانين الاقتصاد. هناك إذن فئة واعية من المجتمع تمثل قوى الطليعة الجديدة، بينما هناك عناصر رجعية، بسبب العادة أو أي عامل آخر، لا تدرك ضرورة تغيير علاقات الإنتاج فتعيق بذلك التغير وتمثيل القوى القديمة، محرك التاريخ هنا أيضاً هو إذن النضال: النضال بين قوى التقدم هذه والقوى المحافظة، بين الجديد والقديم.

ليس الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية قصة غرامية[98]. ولهذا كان النقد والنقد الذاتي القوتين الحقيقيتين اللتين تدفعان بالمجتمع السوفياتي: نقد من أجل الوصول إلى تغييرات حقيقية، موضوعية، مباشرة، ونقد ذاتي لأن النضال بين القديم والجديد يجري أيضاً داخل الفرد نفسه، ولأنه يجب استئصال آثار الرأسمالية الباقية في وعي الناس.

---

[97] ستالين: حول الماركسية في علم اللغة" أخر مؤلفات ص 35.

[98] يصور لنا الفلم الروسي الرائع: "الفارس ذو النجمة الذهبية هذا النضال، داخل كولخوز، للانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية.

لا يجري النضال في مجتمعنا السوفياتي، حيث زالت الطبقات المتعارضة، بين القديم والجديد، ومن ثم، لا يجري التطور من الأسفل إلى الأعلى، بصورة نضال بين طبقات متعارضة أو بصورة هزات كما هو الحال ففي النظام الرأسمالي بل في صورة نقد ونقد ذاتي هو القوة الحقيقية المحركة لنمونا، وهو سلاح قوي بين يدي الحزب. وهذا ضرب جديد من الحركة ونموذج جديد للنمو وقانون جديد جدلي[99].

ترى أن الظروف الذاتية في الانتقال إلى الشيوعية ليست أقل أهمية منها في بناء الاشتراكية، وأن تأثير الأفكار والوعي الاشتراكي على الظروف المادية عظيم.

يجب على كتابنا ورسامينا أن يحاربوا الرذائل والأخطاء والظواهر السيئة التي توجد في المجتمع، وأن يظهروا في الشخصيات الايجابية رجال من مثال جديد في روعة كرامتهم الإنسانية فيعملوا بذلك على تكوين أخلاق وعادات في أساس مجتمعنا خالية من الجروح والشرور التي ولدتها الرأسمالية... نحن بحاجة إلى أمثال جوجول وشتشدرين سوفياتيين الذين يحرقون بنار هجومهم كل ما في الحياة من سلبي وفاسد وميت، وكل ما يعيق حركة التقدم إلى الأمام. Dip notlara dikkat

إذا ما قدرنا مهمة الدولة السوفياتية ومهمة الأفكار في الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية، أدركنا أن هذا الانتقال لا يمكن أن يتم بنجاح بدون القيادة السياسية والفكرية التي ينهض بها حزب العمال السوفياتيين، مسلحاً بالنظرية العلمية، يجب على الشيوعيين أن يكونوا أكفاء لتحمل المسؤوليات المتزايدة: هذه الضرورة التاريخية تعكسها القرارات الجديدة التي اتخذها، في تشرين الأول سنة 1952 الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

4 – شروط الانتقال من الاشتراكية على الشيوعية

ندرك الآن الشروط الثلاثة الرئيسية الضرورية لتحقيق الانتقال إلى الشيوعية وتهيئة تحقيق الانتقال الحقيقي وليس الانتقال الوهمي، التي حددها ستالين بوضوح في آخر كتاب

[99] أ. جدانوف: "خطاب إلقاء خلال نقاش جرى حول كتاب ج. الكستدروف، عن الأدب والفلسفة والموسيقى، ص 62 – 63. مطبوعات النقد الجديد، باريس 1950.

له. يتعلق الشرط الأول، حسب تعاليم الماركسية، الإنتاج، بيمنا يتعلق الشرط الثاني بالأساس الاقتصادي، ويتعلق الشرط الثالث بتحويل المجتمع الثقافي.

1 – يتعلق الشرط الأول *الإنتاج*. نعلم أن الماركسية، على عكس النظريات البرجوازية الصغيرة، "كالاقتصاد التوزيعي" أو "شيوعية الاستهلاك" أو "اقتصاد الرخاء"، لا تفصل قط بين الاستهلاك والإنتاج، فإذا أرادنا أن نستطيع سد "حاجات كل فرد"، فإنه لا يكفي أن نتحمس للهدف بل، يجب اتخاذ الوسائل للوصول إليه. *لهذا كان من الضروري ليس ضمان "تنظيم عقلاني" أسطوري لقوى الإنتاج، بل ازدياد مستمر لكل الإنتاج الاجتماعي مع أفضلية نمو إنتاج وسائل الإنتاج*[100].

نلاحظ أنه، فيما يتعلق بالإنتاج، من الخطأ تماماً أن نعتبر التنظيم والتخطيط غاية في ذاتها. لأن الهدف هو زيادة الإنتاج. وهذا الهدف متعلق نفسه بهدف أخر إلا وهو سد الحاجات إلى أقصى حد، أي حاجات الإنسان. وليس قانون النمو المنسجم في الاقتصاد، الذي يتيح التخطيط، هو القانون الأساسي في الإقتصاد الإشتراكي,بل أن قانون الإشتراكية الأساسي هو قانون سد الحاجات المادية والثقافية لجميع أفراد المجتمع إلى أقصى حد.

نعلم أن ازدياد الإنتاج يحدث في الاشتراكية على أساس تقنية عليا تتيح رفع إنتاجية العمل بصورة لا تجعل من الممكن فقط زيادة الإنتاج، في نفس مدة العمل، بل تخفيض هذه المدة. يضاف إلى ذلك أن هذه التقنية العليا العلمية تمحو بالتدريج الفروق بين العمل اليدوي والعمل الفكري. وهذه ميزة من ميزات الشيوعية، فالوسيلة هنا أيضاً غاية، ذلك لأن إنسان الشيوعية الذي يكون مع كل حاجاته، الهدف النهائي، هو نفسه موجود في الإنسان الذي يمهد للشيوعية وتنمى كل مواهبه. ولا نجد مثالا، في أي مكان آخر على الحقيقة الجدلية التي تقول بتماثل الهدف والسائل أفضل، كما أننا لا نرى في مكان أخر، كما نرى هنا، أن الإنسان هو بداية الشيوعيةو نهايتها وأنه "أثمن رأسمال لها".

يعني ازدياد الإنتاج، أيضاً، أنه بعد القضاء على تعارض الطبقات، فأن النضال الذي يحتل مكان الصدارة – وأن كان لا يجري إلا ضمن حدود علاقات الإنتاج، وضمن حدود النضال بين القديم والجديد – هو نضال ضد الطبيعة: إذ يجب تحويل الطبيعة للتمهيد

[100] ستالين: مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي أخر مؤلفات، ص 155.

للشيوعية، وتحويل سطح الأرض، والمناخ، وإصلاح الشبكة المائية، والغابات، وتجفيف المستنقعات، وإزالة الصحاري، وإحياء الأراضي، أيجاد أنواع جديدة من الحيوانات، والنبات، ومد وسائل الاتصال، وإدخال الآلة في الأعمال الشاقة، الخ...

وما مشاريع الشيوعية الضخمة ألا دليل على هذا النضال العظيم ضد الطبيعة.

غير أنه، كي نستطيع مواصلة تنمية قوى، يجب تحويل علاقات الإنتاج. ومن هنا كان:

2 – الشرط الثاني يتعلق بالأساس *الاقتصادي*، ونظام الملكية. لهذا من المهم، بعد كل ما رأيناه، أن نرفع بالملكية الكولخوزية، على مستوى الملكية القومية،و ذلك على مراحل تدريجية، *مع توفير الربح للكولخوز أي لجميع المجتمع، وأن نستعيض عن تداول السلع بنظام لتبادل المنتوجات، على مراحل تدريجية أيضاً حتى تستطيع السلطة المركزية، أو أي مركز اجتماعي اقتصادي أخر، التصرف بجميع منتوجات الإنتاج الاجتماعي لمصلحة المجتمع*[101].

يتحقق، بواسطة هذه الوسائل، على أكمل وجه، وفي كل مرحلة من مراحل النمو الاجتماعي، الترابط التام بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، ولهذا انخفض عدد الكولخوزات بين أول تموز 1950 وتشيرين الأول 1952 من 240000 إلى 98000 يمهد إذن تجمع الملكية الكولخوزية بواسطة دمج الكولخوزات – أي بدون سحب ملكيتها – لزوال الفرق الأساسي بين الصناعة والزراعة – وهو فرق يتعلق بطريقة الملكية الاجتماعية – ويبشر بميلاد المجتمع الخالي من الطبقات، حيث لن يسيطر بعد الآن سوى الملكية الإشتراكية للشعب بأكمله,كما أن دائرة تداول السلع – بعد أن ضاقت بالتدريج – قد يحل محلها نظام لتبادل المنتوجات. غير أنه يجب كي نصل إلى هذه المرحلة انتصار وعي جديد على الوعي القديم. ومن هنا كان.

3 – الشرط الثالث يتعلق *بالثقافة*. لأننا نعلم أن الشيوعية لا يمكن أن توجد إلا أصبح العمل حاجه حياتية وأصبحت القواعد الأساسية لحياة المجتمع عادات. *ولهذا وجب الوصول إلى ازدهار ثقافي للمجتمع، يضمن لجميع أعضائه تنمية مواهبهم الجسدية والفكرية، في جميع الميادين، حتى يستطيع أعضاء المجتمع تلقي قدر كاف من ثقافة*

---

[101] ستالين: مشاكل الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 156.

ليعملوا بنشاط على نمو المجتمع، ويستطيعوا اختيار مهنة لهم بحرية فلا يضطروا، بسبب تقسيم العمل، إلى ممارسة مهنة واحد طيلة حياتهم[102].

يتفق تحويل كل مواطن إلى عامل نشيط *في النمو الاجتماعي تماماً* مع النظرة السامية التي تنظرها الماركسية إلى تأثير الأفكار على حياة المجتمع المادية، كما يتفق مع نظرية الماركسية السامية أيضاً إلى تأثير الناس في التاريخ، وإلى حرية الإنسان كمبدع. يتضح أنه – إذا لم يصبح الإنسان عاملا نشيطا، واعيا للنمو الاجتماعي،و إذا لم يكن حرا في اختيار عمله – فأن الملكية الاجتماعية لن تصبح قط عادة ولن يصبح العمل حاجة.

ماذا يجب كي نصل إلى هذه النتيجة؟ يجب "تغييرات جدية في حالة العمل" (ستالين).

أ) تخفيض ساعات العمل اليومي إلى 6 ساعات على الأقل. ثم إلى 5 ساعات. مما يسمح لكل فرد أن يكون لدية متسع من الوقت لتلقي ثقافة شاملة، غير أنه يجب من أجل ذلك:

ب) جعل الثقافة البوليتكنيكية جبرية كما تنبأ بها فورييه وماركس، إذ يجب على كل فرد من المجتمع أن لا يعرف بصورة سطحية بل بصورة علمية "لما كانت النظرية والتطبيق العملي غير منفصلين قط" مبادىء في فروع التقنية الصناعة التقدمية الكبرى، وأن يتمثل العلوم الاجتماعية وأفضل ما في الحضارة الشاملة. وهكذا يستطيع كل فرد أن يختار بحرية مهنة له فلا يظل طيلة حياته يمارس نفس النشاط. ومع ذلك، يجب أيضاً، لتحقيق أفض الظروف للدراسة.

ج) تحسين ظروف السكن بصورة جذرية وأخيرا

د) مضاعفة أجر العمال الحقيقي، وربما زيادته فوق ذلك، وذلك برفع الأجر مباشرة وتخفيض سعر السلع الكثير الاستهلاك مما يمهد للرخاء الشيوعي.

ولنلاحظ أن إنشاء لتعليم البوليتكنيكي، الذي بدأه مشروع الخمس سنوات، يمهد لزوال الفرق الأساسي بين العمل الفكري والعمل اليدوي، العمل الصناعي والعمل الزراعي. فتقف عملية تقسيم العمل القديمة التي تشوه الشخصية الإنسانية.

---

[102] نفس المرجع ص 157.

كتب ستالين، مختصرا الشروط الثلاثة الأساسية، يقول:
متى تحققت فقط جميع هذه الشروط اللأزمة في مجموعها نستطيع أن تأمل في أن يصبح العمل في أعين أفراد المجتمع "حاجة الحياة الأولى" (ماركس) وليس مهمة شاقة، وبدلا من أن يكون العمل عبئاً ثقيلا يصبح غبطة و فرحا" (انجلز)" كما ينظر جميع أعضاء المجتمع إلى الملكية الاجتماعية على أنها الأساس الأول لوجود المجتمع.
متى تحققت جميع هذه الشروط اللأزمة في مجموعها، نستطيع الانتقال من الصيغة الاشتراكية القائلة: "من كل فرد حسب كفاءاته ولكل فرد حسب عمله" إلى الصيغة الشيوعية القائلة: "من كل فرد حسب كفاءاته، ولكل فرد حسب حاجاته".
وسوف يكون ذلك هو الانتقال التام من اقتصاد، هو اقتصاد الاشتراكية، إلى اقتصاد آخر سام هو اقتصاد الشيوعية[103].

5 – الخلاصة

ليست الشيوعية عصر سيادة تقنية يعترف بها أعداؤها على أنها سامية حقا، ولكنهم يصورونها على أنها لا تأبه بالإنسان بل تعاديه. ليست الشيوعية قط "تنظيمها عقلانيا لقوى الإنتاج" بل هي سيادة الإنسان الذي أصبح أخيراً سيدا لمصيره بفضل معرفة قوانين الطبيعة والمجتمع الموضوعية.
فالإنتاج مرتبط بالإنسان وحاجاته. وليس هدف الشيوعيين توزيع البؤس بالتساوي، بل سد حاجات الجميع.
والتقنية هي لتخفيف تعب الناس وإزالته. وهكذا استخدام، في الاتحاد السوفياتي، خلال ثلاث سنوات، 1600 نموذج جديد من الآلات لتخفيف الجهد الإنساني.

[103] ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" أخر مؤلفات ص 158.

الشيوعية هي الإنسان وقد تحرر من أوصاب الملكية الخاصة ومن عبودية الماضي الروحية. ولما كانت واثقة، من طريق التجربة، بأنها لا تعمل من أجل أقلية من المستغلين، بل من أجل خير المجتمع، فأنها تحقيق أعظم المشاريع.

تولد الشيوعية كنتيجة لعمل ملايين العمال الواعي الخلاق. ولهذا كانت نظرية التلقائية القائمة على إطلاق الحرية laisser – aller غريبة على تكوين الاشتراكية الاقتصادي[104].

يفوز كل إنسان بواسطة الشيوعية، بالحرية الملموسة، التي هي "قوة ايجابية لتقرير فرديته الحقة" (ماركس – انجلز). ولما كان الإنسان يشترك مع أمثاله في ممارسة الديمقراطية التامة، فإنه يشترك بذلك، بصورة واعية في تكوين مستقبله.

فهو في الوقت الذي يصبح فيه، بواسطة استخدامه للآلة، "سيداً للطبيعة ومالكا لها" – كما يريد ديكارت – فأنه يحول حياته الخاصة ويصبح سيد نفسه ومالكا. فيعكس كل فرد أجمل معالم الإنسانية الكاملة.

يجعل أعداء الاشتراكية، وعملاؤهم من كل نوع من الاشتراكية نظاما يقضي على الفرد. وليس هناك من نظرة أكثر بدائية ولا أكثر سذاجة من هذه النظرة، فلقد أصبح واضحا أن النظام الاشتراكي قد ضمن تحرير الشخصية الإنسانية، وتفتح الإبداع الفردي والجماعي، وأنه أوجد الظروف المواتية لنمو المواهب التي تملكها الجماهير الشعبية في كل الميادين[105].

هذه الفكرة هي التي أوحت لأليوار هذه الأبيات:

نلقي بحطب الظلمات في النار ونحطم أفعال الظلم الصدئة فسوف يقبل الناس لا يخافون أنفسهم لأنهم واثقون من جميع البشر فلقد زال العدو في صورة الإنسان وحسب قول انجلز، الذي أشار إليه موريس توريز في المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الفرنسي، فإن النضال من أجل الحياة الفردية ينتهي بواسطة

---

[104] مالنكوف: تقرير إلى مؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ص 63 – 64.

[105] نفس المرجع ص 58.

الاشتراكية والشيوعية. فيخرج الإنسان عندئذ من مملكة الحيوان، ليتجلى عن ظروف الحياة الحيوانية وينعم بظروف إنسانية حقاً.

القسم الخامس

النظرية المادية عن الدولة والأمة

تساعدنا النزعة المادية الجدلية والنزعة المادية التاريخية على توضيح مسائل علوم الطبيعة وعلوم المجتمع. ولا يمكن بحث ذلك في نطاق هذا الكتاب.

ومع ذلك يهم كل واحد منا أن يقف، قبل أن يغلق هذا الكتاب، أمام الحل العلمي لمسالتين قدرنا سابقا أهميتهما "ولا سيما في الدروس الثامن عشرو التاسع عشر والعشرين" ألا وهما مسألة الدولة ومسألة الأمة.

ولهذا رأينا من ضروري أن نخصص لهما الدرس الخاص التي ستقرأها. وإن كان لا يجب قط عن البحث في النزعة المادية التاريخية.

الدولة[106]

1 – الدولة و "المصلحة العامة"

تقول عقيدة رجال السياسة البرجوازيين الدائمة عن الدولة بأن الدولة الجمهورية هي لخدمة المصلحة العامة.

---

[106] لم نعالج مسألة الدولة في الدرسين الثاني عشر والثالث عشر بصورة خاصة. بل أحتفظنا بذلك إلى هذا الدرس. ومع ذلك يجب الرجوع إلى الدرسين الثاني عشر والثالث عشر، وإلى الدرس التاسع عشر والعشرين والواحد والعشرين خاصة فيما يتعلق بدكتاتورية البروليتاريا، وانحلال الدولة.

غير أن تجربة التاريخية تكذب هذه "النظرية"، إذ يكفي المواطنين أن يذكروا الحكومة بمتطلبات المصلحة العامة، كأن يعترضوا، مثلا، ضد إعادة تسليح النازيين، أو أن يحتفلوا بذكرى الاستيلاء على الباستيل، حتى يصطدموا بصفوف شرطة الدولة الجمهورية. وإذا أراد العمال الدفاع عن قوتهم، سواء كان في الصناعة الخاصة أم المصالح العامة وجدوا قمع الشرطة واستخدام الأسلحة على يد ممثلي الدولة الجمهورية.
تستثني "المصلحة العامة" إذن في التطبيق العملية مصلحة البروليتاريا والطبقات الشعبية. إذ أن لهذه "المصلحة العامة" حدود طبقية!
كما أن الدولة لم تعد قط المدافع عن "الشرعية". فلنفترض أن العمال قد أضربوا احتجاجا على خرق قانون العمل، ولكي يحافظوا على المبدأ الشرعي القائل: "لكل عمل أجرة"، وأنهم طالبوا بمساندة السلطات العمومية لهم، لحماية هذه الوسيلة الدستورية، التي هي الإضراب، ضد خرق الشرعية على يد صاحب العمل. لا حاجة إلى التساؤل عن موقف الشرطة منهم، مع أن السلطات العمومية هي، في المبدأ لخدمة القانون!
كما أن عدم تطبيق قانون الموظفين يدل على أن الدولة تضع نفسها فوق القانون بعد إقراره بالإجماع!
غير أن الدولة، في بعض الظروف التاريخية، تصبح في خدمة المصلحة العامة. وهذا شأن الاتحاد السوفياتي. وهكذا تكون الدولة تارة في خدمة وتارة لا تكون كذلك . يجب إذن أن نخلص على القول بأن المعيار الذي تقاس به المصلحة العامة ليس معيارا علميان فهناك البعض الذين يجدون من مصلحتهم أن يحددوا الدولة بصورة مناقضة للعلم.
وهكذا مر زمن وقامت بلاد كانت فيهما الدولة شيئاً خارقاً للطبيعة: كضرب من القوة يمكن للإنسانية أن تعيش بدونها، تحمل إلى الناس شيئاً لا يصدر عن الإنسان، تلك كانت دولة الحق الإلهي، كما كان الحال أيضاً في البلاد اليابان، في عهد الميكادو المطلق. أما هتلر فكان يقول: ألله معنا". كما أننا نعلم، منذ عهد ترومان وايزنهاور، أن البيت الأبيض يمثل العناية الإلهية على الأرض، وهذا من شأنه أن يسيء إلى العناية الإلهية في نظر المؤمنين!

كانت الدولة، لأمد طويل، كما ستظل بالنسبة لكثير من الناس، موضع "احترام خرافي". ومن هنا نشأ الضيق عند تحديدها. إذ أن مسألة الدولة تخلط في أغلب الأحيان بالمسألة الدينية. حتى أن أوجوست كومت، ذا النزعة الموضوعية نفسه، الذي كان يتبجح بأنه قد نفض يديه من كل ما هو خارق للعادة، قد ربط "السلطة الزمنية"، في المجتمع، "بالسلطة الروحية". إذ أنه حينما تعلم كنيسة من الكنائس أن السلطة هي حق الهي، فإن هذا يدل، عادة، على عبودية تامة أمام الدولة. مثال ذلك إسبانيا في عهد فرنكو. فلقد لقنت الكنائس تابعها احترام الدولة دينيا. ولهذا كانت الصعوبات، التي نلقاها، لنفهم جيداً مسألة الدولة، ترجع أصولها إلى بقايا النزعة المثالية الدينية.

أفلست، في فرنسا مثلا، منذ زمن بعيد، نظرية الحق الإلهي. وهناك كثير من العلمانيين الذين يعتقدون بأنهم في منجى من كل عدوى فكرية من هذه الناحية، فالدولة، بالنسبة إليهم وبالنسبة للرسميين، تجلي المصلحة العامة. وهو تجل غريب! فالدولة فوق الطبقات، والمصالح الخاصة، والأحزاب، كما يقولون، غير أن الدولة إذا كانت فوق النضال الطبقي، أي إذا كانت مؤسسة للتوفيق بين الطبقات، يتضح من ذلك أن الدولة لا يمكن أن تتولد من المجتمع نفسه، بل هي تتولد من مصدر فوق المجتمع، فإذا لم يكن ذلك المصدر هو الله فأنه سيكون الروح! وهكذا ليست فرضية المصلحين سوى صبغ نظرية القرون الوسطى عن الحق الآلهي بصبغة علمانية، تلك هي النزعة المثالية الساذجة، التي هي صورة لبقة عن الديانة.

يجد الاشتراكيون، هنا، وزعما الحركة الجمهورية الشعبية والرجعيون من كل نوع، مجالا للتفاهم: ألا وهي سيطرة "الروح"، والنزعة المثالية عن الدولة، التي ترتكب بأسمها الجرائم الدامية ضد الشعب، كما تنتهك العدالة فيطلق سراح مجرمي الحرب. فإذا كانت الدولة حقا تجسدا "للروح" فأنها تجسد للروح البرجوازية" والأفكار البرجوازية!

أعلن وزير خارجية الدولة الأميركية فوستر دالس، في حديثه عن مخطط الولايات المتحدة الذري، بأنه يتمنى "أن تقوم النزعة المثالية بالأشراف على القوة الهامة الكامنة في المادة". غير أن موقعي نداء ستوكهولم قد زج بهم في السجون في الولايات المتحدة!

كانت مسألة الدولة، خلال تاريخ الفلسفة، ومسألة استغلال الطبقات، من أكثر المسألة تعقيدا. ذلك لأنها كما يقول، لينين، تمس، أكثر من أية مسألة أخرى، مصالح الطبقات السائدة. والماركسية اللينينية هي الوحيدة التي تسمح لنفسها بالموضوعية فيما يتعلق بهذه المسالة.

لهذه المسالة أهمية خاصة بالنسبة للبروليتاريا، في المرحلة التي تتحول فيها الرأسمالية الاحتكارية. إذ يصبح العمال، عندئذ، مضطهدين *مباشرة على أنهم منتجون* "وليس فقط كمواطنين" على يد الدول التي ترتبط أكثر فأكثر بالفئات الرأسمالية القوية، فتصبح البلاد الرأسمالية، في الاقتصاد

الحربي – منذ وقت السلم – معسكرات حربية للعمال. فتواجه البروليتاريا في نضالها – الاقتصادي – من أجل الخبز، مسألة والمسألة السياسية. بينما تتعلل البرجوازي، على العكس، بالحرب للقضاء على منظمات البروليتاريا للنضال الاقتصادي ألا وهي النقابات كما حدث عام 1939 – 1940.

كتب لينين يقول:

يصبح لمسألة الدولة، في الوقت الذي تنتصر فيه الثورة في بعض البلاد، كما تزداد فيه حدة النضال ضد الرأسمال العالمي، أهمية كبرى وتصبح أشد المسائل خطورة، ومحط جميع المسائل وكل المناقشات السياسية المعاصرة[107].

2 – الدولة ثمرة تعارضات الطبقات المتنازعة

دلتنا دراسة النزعة المادية، ولا سيما في الدرس الثاني عشر، على أن الدولة لا يمكن أن تأتي من خارج المجتمع، من "الروح" أو من "الله". كما يشير المنهج الجدلي، من ناحية ثانية، إلى أنه يجب دراسة الدولة، في نموها، بصورة تاريخية.

غير أن كل هذا يظل كلاما عاما جدا. كما يدعي علماء الاجتماع الوضعيون البرجوازيون أنهم يعالجون، أيضاً، مسألة الدولة بصورة علمية: فهم يعتقدون أن تعقد الحياة الاجتماعية

[107] لينين: "حول الدولة" وفي "الدولة والثورة". ص 121 المطبوعات الاجتماعية، باريس 1947.

المستمر، وانتقال فئات صغيرة من الناس المنعزلين إلى مجتمعات أضخم، و "تنوع الوظائف الاجتماعية" مما يجعل الدولة ضرورية. وهكذا تكون الدولة نظام المجتمع العصبي. إذ كلما تعقد الجسم كلما ازداد دور الدماغ. فتؤدي الدولة "مهمة التنظيم" في المجتمع، وسنرى ماذا يجب أن نعتمد بهذا الصدد.

ا-أصل الدولة[108]

أول ما يجب أن ننظر إليه هو أن الدولة لم توجد دائما.

لم يكن يوجد، في عصر المجتمع البدائي، حين كان الناس يعيشون أحياء وقبائل وعائلات يسيطر فيها الأب أو الأم[109]، جهاز خاص لممارسة السلطة بصورة منظمة. ومثل هذا الجهاز هو ما يسمى بالدولة.

لا شك أنه كانت توجد عادات وتقاليد مثل سلطة الرئيس واحترامه واحترام سلطانه، وكذلك احترام سلطة النساء، غير أنه لم يكن يوجد قط رجال همهم الوحيد حكم الآخرين، ولهذا يسيطرون على القوة المسلحة باستمرار.

هل يجب أن نستنتج من ذلك أنه لم يكن يوجد نظام ولا تنظيم في العمل؟ كلا. لأن قوة العادة والتقاليد، وسلطة القدماء أو النساء، والاحترام الطبيعي كان يكفي.

ومع ذلك وجدت الأسلحة. إذ ما كانت توجد الأدوات أي ما كاد الإنسان يظهر، حتى وجدت، طبعا، إمكانية استخدامها كأسلحة. لأن العمل هو "اعتداء" على الطبيعة يتضمن إمكانية الاعتداء على الإنسان. ولم تكن هذه الأسلحة مع ذلك، تمثل أي خطر على المجتمع. إذ أن رجال القبيلة المسلحين لم يكونوا يوجهون أسلحتهم هذه بعضهم ضد البعض. كانت الأفكار السائدة في المجتمع البدائي، الذي تحدثنا عنه بعض الشيء في الدرس السابع عشر، "المسالة"1"، تكفي لتنظيم الحياة الاجتماعية، حتى إذا ما فكر بعض الأفراد في الخروج على القاعدة المتبعة، كانوا يحملون على العودة لاحترام النظام بتأثير

---

[108] يجب موازنة هذا المقطع بالدرس الثاني عشر.

[109] راجع الدرس السابع عشر، المسألة 1، 2.

عمل الرجال المسلحين الجماعي. ولم يكن هناك أي شخص مختص بهذه المهمة لعدم وجود الدولة.

فلماذا لا يمكن، اليوم، تأمين القيام "بوظيفة التنظيم" الغالية على نفوس علماء الاجتماع، كما حدث في الزمن الغابر، بواسطة تنظيم الشعب التلقائي، فيقوم بتأمين النظام في العمل وفي الحياة الاجتماعية، وبواسطة مركز لتخطيط النشاط الاقتصادي يشرف عليه هذا التنظيم؟

أم هل يكون العصر الذهبي الذي تحدثت عنه الخرافة القديمة قد ولى أثر الخطيئة الأصلية؟

نلاحظ أن الاحترام القديم، لم يعد في وقت من أوقات التاريخ، كافيا للمحافظة على نظام العمل. فأصبح من الضروري الاستعاضة عن قوة العادة والتقاليد وعن السلطة القائمة على التجربة بقوة خاصة طبيعية تمارس الجبر وتوحي بالخوف. ومست الضرورة لإنشاء احتكار للأسلحة واستخدامها لمصلحة فريق من الناس رفعوا إلى مركز خاص أو تميزوا عن سائر الناس. فلماذا فرضت هذه التغييرات نفسها؟

تلك هي المسألة الحقيقية التي يهمل علماء الاجتماع معالجتها. إذ أنه إذا كان الاحترام القديم للسلطة الطبيعية قد زال، وإذا كان تنظيم الشعب التلقائي المسلح قد أصبح خطراً فحرم استخدامه، فما ذلك ألا لأن التعاون في العمل قد انتهى، وحل محل علاقات الإنتاج القائمة على الملكية المشتركة علاقات جديدة للإنتاج قائمة على الملكية الخاصة واستغلال الإنسان للإنسان. فالنزعة المادية التاريخية هي الوحيدة، إذن، التي تستطيع الإجابة علميا على مسألة أصل الدولة.

وهكذا ندرك تماما كيف أن السلطة القديمة القائمة على الاحترام الطبيعي قد انهارت يوم أن بدأ استغلال الإنسان للإنسان، وحلت محلها السلطة القائمة على الخوف. ومنذ ذلك اليوم توقف تنظيم جميع السكان التلقائي بالأسلحة، لأن أسرى الحرب قد جردوا من سلاحهم بعد أن أصبحوا أرقاء. ولم يعد يملك السلاح سوى الأسياد الذين يملكون وسائل الإنتاج. ولهذا نرى في هذه الأيام، في البلاد

الخاضعة للاستعمار، في مدغشقر، وتونس، ومراكش، والجزائر الخ. المستعمرين يتسلحون بأنفسهم ضد الرقيق المستعمرين[110].

ولم تقبل قط القبائل التي تقدس الأب أو الأم، من تلقائها، الرق. ولم يرض العبيد قط أن يساقوا إلى أسواق النخاسة.

ولهذا وجب اكراه الرقيق للحصول على العمل المرجو منهم. يضاف إلى ذلك أنه إذا أراد الأسياد ضمان الاستقرار الضروري لكل إنتاج في النظام الاجتماعي، كان من المناسب إقناع الرقيق أن مثل هذا النظام عادل، وأنه يمثل الاستقرار، كما وجب وضع القواعد التي لا تنتهك لتحديد سلوك الناس في علاقاتهم الاجتماعية، مما يضفي الخلود على علاقات الإنتاج الجديدة. وهكذا تولدت الفكرة الميتافيزيقية عن حق الأسياد المطلق على رقيقهم، تلك الفكرة التي نشأت من حق المنتصر القديم على المقهورين. وأصبح من الضروري – لتمثيل مصلحة طبقة الأسياد كطبقة مستقلة عن إرادة الأفراد الذين يؤلفونها – إقامة القوانين التي تحدد واجبات المستغلين وحقوق المستغلين. وتكون هذه القوانين أساس الاضطهاد، كما تضمن له تحققا غير مشروط، بعيداً عن "أطوار" نضال الطبقات وعدم استقرار القوة المؤقت. وهكذا يمكن التعويض عن ضعف قوة الطبقة السائدة المادي لعابر بالخوف من القوانين.

كما كان يجب أن تحترم هذه القوانين لذاتها. ولقد أشار مفكر قديم هو كريتياس (Critas) إلى أن الناس قد سنوا قوانين *لنشر العدالة، لم تبلغ هدفها سوى جزئياً. وكانت هذه القوانين تمنع من ارتكاب الظلم علنا، ولكنها لم تمنع ارتكاب بالخفية. وهنا فكر حكيم مجرب بأن يوحي إلى الناس خشية الآلهة التي تعلم كل شيء. حتى إذا ما أقنعهم أنه حتى أسوأ المشاريع التي تحاك في السر تعلمها الآلهة أيضاً، كف خرق هذه القوانين*[111].

[110] نتحدث هنا عن قضية السلاح، ويجب أن نشير إلى أن الاضطهاد الاستعماري يمتاز بان الشرطة، والجيش، والعدالة والإدارة والتعليم هي في خدمة المستعمر ضد المستعمر.

[111] ذكره Sextus Empiricus / x , 54 في "Sisypne"

يعكس قول كريتياس حقيقة عميقة: أصبح للآلهة التي كانت المخيلة الإنسانية تفسر بها قوى الطبيعة وتقلب المصير، وظيفة جديدة بظهور الطبقات: إذ أصبحت هذه الآلهة قائمة على حفظ النظام الاجتماعي، والضامنة للفروق الطبقية، والقضاء الذين يحاكمون المضطهدين في الآخرة، وأن كان هؤلاء القضاء شركاء الظالمين المضطهدين. ويقوم هؤلاء المضطهدين بتلقين الشعب الخوف من الآلهة، ويؤكدون الخرافة القائلة بأنهم على اتصال غريب بهذه الآلهة.

وهكذا يتم الحق – القوة ويكرسها، كما أن الذين يتم الحق ويكرسه. فإذا ما نمت طريقة الإنتاج الذي يعتمد على الرقيق وقام مجتمع الرقيق، وحملت الخرافات والأوهام الرقيق على الطاعة فأصبحت لهم بفضل اعتيادهم على العبودية، كما يقول روسو، عقلية الرقيق، قامت شراذم خاصة من رجال المسلحين، فكان منها رجال الشرطة المكلفون بمعاقبة الأرقاء الفارين، وحل هؤلاء الرجال المسلحون محل تسلح الملاك الدائم. ومع ذلك لم يتخل قط الملاك عن حقه في أن يكون له حرسه الخاص المسلح. وهكذا نرى، اليوم، كبار الرأسماليين الأميركان لهم شرطتهم الخاصة في أماكن الاستغلال القطنية والزراعية.

ينتج، إذن، من استعراض الوقائع التاريخية، أن الدولة، في جميع المجتمعات الطبقية المتناحرة، تصبح جهازاً لحكم المستغلين، خرج من المجتمع الإنساني ثم تميز عنه تدريجيا. وهو يفترض وجود فئة خاصة من الناس، وهم رجال السياسة، همهم الوحيد الحكم، ولهذا يستخدمون جهازا وضع "لإخضاع أرادة الآخرين للقوة[112]". ويحتوي هذا الجهاز على الشرطة والجيش الدائم، والسجون والمحاكم، يضاف إلى ذلك أجهزة الضغط الفكري: وهي التعليم والصحافة والإذاعة، الخ..

ومجمل القول:

1 – لم توجد الدولة دائماً.

---

[112] لينين: "حول الدولة" في "الدولة والثورة" ص 113.

2- لا يظهر جهاز الدولة إلا في المكان والزمان اللذين يظهر فيهما، في المجتمع، تقسيم المجتمع إلى طبقات متناحرة، كما يظهر الاستغلال الطبقي.

كتب انجلز يقول:

ليست الدولة، إذن، سلطة فرضت من الخارج على المجتمع، وليست هي "حقيقة الفكرة الأخلاقية"، أو "صورة حقيقة العقل"، كما يدعي هيجل. بل هي ثمرة المجتمع في مرحلة معينة من نموه، وهي الدليل على أن هذا المجتمع يتخبط في تناقض مع نفسه يستعصي على الحل، بعد أن أنقسم إلى أضداد لا يمكن التوفيق بينما ويعجز عن السيطرة عليها، ولهذا مست الحاجة، كي لا تفني الأضداد، وهي الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتعارضة، والتي هي في نضال مجدب[113] *مع المجتمع، إلى سلطة، تنمو في الظاهر على المجتمع، لتغطية النزاع وحصره ضمن حدود "النظام"، وهذه السلطة التي ولدت من المجتمع، ولكنها تسمو عليه وتصبح غريبة عنه، هي الدولة*[114]*.*

وقد اختصر لينين في صيغة موجزة النظرة العلمية لأصل الدولة، *قال: الدولة هي ثمرة التعارضات الطبقية المتناحرة ومظهره*[115]*ا*

يجب إذن، كي ندرك أصل الدولة، أن ننظر في قوانين الإنتاج الموضوعية، التي تولد، في مرحلة من مراحل نمو قوى الإنتاج، الملكية الخاصة واستغلال الإنسان للإنسان، وبالتالي ضرورة توطيد دعائم هذه الملكية الخاصة. الدول، إذن هي نتيجة تاريخية ضرورية لنمو المجتمع الاقتصادي، وهي لا تفسر قط "بالخطيئة الأصلية" و "الأرادة الآلهية" والفكرة الأخلاقية" و "ووظيفة التنظيم".

وهذا ما لا يفهمه الفوضويون، أسرى النزعة المثالية على المستوى النظري. وكما أن أنصار الدولة البرجوازية يدعون بأن الدولة ضرورية لحصر رداءة الإنسان وخبثه الأصليين، وكذلك يرى الفوضويون في الدولة ثمرة قوة شريرة،

---

[113] يدل قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج على أن استغلال الإنسان للإنسان يقوم، بعض العصور، بمهمة تاريخية.

[114] انجلز: اصل العائلة، والملكية والدولة، ص 155، 156. المطبوعات الاجتماعية باريس 1954.

115لينين:الدولة والثورة ص 12

وغريزة السيطرة". فهم يفصلون الدولة عن أساسها الطبقي، ويعتبرونها قوة مستقلة تعمل لمصلحة الذين يتوصلون إلى السيطرة والاستيلاء عليها. فهم ينكرون أصل الدولة التاريخي وضرورة ظهورها الموضوعية في فترة معينة.

يؤدي ذلك إلى نتيجة مهمة على المستوى العملي: إذ يفصل الفوضويون النضال ضد الدولة البرجوازية عن النضال الطبقي والنضال الشعبي. فهم يقيمون في وجه الدولة – في – ذاتها الفرد، ويدعون إلى طريقة في النضال تقوم الأعمال الفردية. فتكون النتيجة السياسية لذلك أن تصبح الفوضوية سريعاً تعلة سهلة لعملاء البرجوازية المشاغبين في الحركة العمالية. كما تؤدي، من جهة ثانية، المعارضة الفوضوية للدولة – في – ذاتها، أي معارضة الفرد والجماهير، إلى معاداة السلطة الاشتراكية وهي سلطة العمال والفلاحين. فتكون النتيجة السياسية لذلك أن تستخدم الفوضوية كتعلة للإرهاب المناهض للسوفيات. وهكذا تلتقي، بالرغم من الظواهر، "نظريات" المؤرخين البرجوازيين الذين يرون، في حرب 1914، مثلا، نتيجة "لإرادة القوة في الدولة"، والتغني" بالثورة من أجل الثورة في كتاب "كامو" *"الإنسان الثائر"* المناهض للسوفيات.

ولنشر مع ذلك، إلى أن هذا التقديس الذي يجعل من الدولة قوة قائمة بنفسها، وتجسيدا "للفكرة"، كما تقول الفكرة الخاطئة المثالية، يعتمد على ميزة خاصة أشار إليها انجلز في النص المذكور أعلاه. ولنذكر أن قوة الدولة المادية، لوحدها، لا تكفي. وهذا ما برهنت عليه جميع الثورات الكبرى. فقد أثارت، في وضح النهار، مشكلة العلاقات بين "شرازم الرجال المسلحين الخاصة" وبين تنظيم الشعب بالسلاح من تلقاء نفسه". فدلت على أن نهاية النضال ا، في مثل تلك الحال، سريعة وليست في صالح الطبقة المستغلة. إما إذا كانت قوة الدولة، على العكس، يساندها قسم من الشعب، فإن التاريخ يدلنا على الحروب الأهلية التي يحوم الشك حول نهايتها. وهذا يعني أنه إذا اعتبر المستغلون الدولة كما هي، أي أداة لاستبعادهم، فإن هذا يزعزع سيطرة المستغلين بصورة خطيرة. لا يحتاج هؤلاء المستغلون، إذن، لسلطان جهاز الدولة فقط بل إلى أظهار هذا

الجهاز على أنه جهاز الدولة الأسمى، وإلى إثارة الخوف منه. يجب أن تضع الدولة نفسها، في الظاهر، فوق المجتمع، وفوق ألوان النضال الاجتماعي. كما يجب أن تبتعد أكثر فأكثر عن المجتمع، وأن تحيط نفسها بهالة من الأسرار، فتبدو كأنها قوة سماوية تحلق فوق جبل من الغيوم والبروق، يركع أمامها كل الناس. وفي كل مرة يحدث فيها مثل ذلك، تقوم الطبقات السائدة بتأييد رئيس الدولة. حتى إذا لم يعد ذلك ممكنا تعللت "بالمصلحة العامة" الغريبة التي لا يدركها عقل عامة الناس! ذلك هو عماد النظريات المثالية عن الدولة. ويدل الحاح الطبقات السائدة على تصوير الدولة كأنها تجسيد قوة عليا، على أن هذه الطبقات تعلم جيداً أن قوة الدولة الحقيقية إنما تقوم على دعم الرأي العام لها وعلى ما لها من رصيد أمام الجماهير وما تتمتع به من ثقة، أي أن قوة الدولة تقوم على أفكار. ولنستمع إلى "لانييل" الرأسمالي ورئيس الحكومة، كيف خاطب المضربين في آب سنة 1953:

"علي أن أخاطبكم الآن بلغة الدولة، لأن الدولة، والدولة وحدها، هي التي يجب أن تحكم في الخصومات بين المصالح الخاصة، في الديمقراطية".

وهكذا تصبح مصالح الرأسمالي "لانييل" الخاصة هي التي تدافع عنها الدولة. وهو يعترف بذلك في دعوته إلى "تحكم" الدولة. أولا تعبر مطالب ملايين العمال المشروعة إلا عن مصالح خاصة، كما لو أن مصلحة الذين يعملون ليست أصدق تعبير عن المصلحة العامة. يبحث "لانييل" في قلبه لعناصر المشكلة، عن مساندة الجماهير له أو قسم منها، لأنه بدون هذه المساندة لا يمكن أن يستمر حكم الطبقة السائدة. ولهذا كان من ضروري أن تدافع الدولة الرأسمالية عن مصالح الرأسماليين الخاصة باسم المصلحة العامة، ولكي تكف الجماهير عن مساندة الدولة البرجوازية يجب شيئان:

1 – أن تدرك هذه الجماهير أن "المصالحة العامة" المزعومة التي تدافع عنها الدولة ليست ألا مصلحة الرأسماليين.

2 – أن تفهم أن مصلحة الرأسماليين لم تعد، منذ أمد طويل، تتفق مع مصلحة الأمة.

ب ـ مهمة الدولة التاريخية[116]

تحدثنا عن مهمة الدولة في حديثنا عن أصلها. هذا ما تطلبه الجدلية لأن الدولة ولدت، على التحقيق، لمواجهة مشكلة ظهرت في المجتمع، ولكي تقوي سيطرة المستغلين الاجتماعية، ونظام الملكية الذي يضمن لهم امتيازاتهم. الدولة هي انعكاس الأساس الاقتصادي، ولكنه ليس انعكاساً سلبياً، بل هو انعكاس فعال. ولهذا كان من المفيد، كما هو الحال في دراسة الأفكار في الحياة الاجتماعية، أن لا نخلط مهمة الدولة وأصلها دون أن نفصل بينهما. ذلك لأن الدولة، فيما يتعلق بالأصل، مشتقة بالنسبة للاقتصاد، ولكنها فيما بالمهمة، فإن هناك حالات تصبح فيها أهمية الدولة أساسية، لها أثر فعال. ولهذا لا يجب أن يؤدي القول بأن الدولة هي انعكاس للاقتصاد.إلى التقليل من قيمة تأثيره على الإقتصاد.

يقول انجلز أن مهمة الدولة هي "تخفيف النزاع بين الطبقات" وأن تحصر هذا النزاع ضمن "حدود النظام" ولا يعني هذا، كما دلل لينين، أن الدولة هي منظمة للتوفيق بين الطبقات بل هذا العكس!

فلو أن "التوفيق بين الطبقات" كان ممكنا، لم تمسس الحاجة قط إلى الدولة.

ويعني القول: "تخفيف النزاع بين الطبقات" تخفيف حدة هذا النزاع، أي حرمان الطبقات المستغلة من وسائل النضال التي تسمح لها بالتخلص من مستغليها. نحن هنا، إذن، أمام كتم نضال الطبقات المستغلة. وكيف يكون ذلك؟ بترك الميدان أمام عمل المستغلين، وبتوسيع الاضطهاد وتنميته وتقويته، ولا سيما عندما لم تعد علاقات الإنتاج تتفق وحال قو الإنتاج.

ذلك هو مأزق الطبقات الرجعية: ملء السجون "لترتاح" ونزيد من ملء السجون أيضاً حتى تقضي على الخوف الذي نثيره فيها السجون الملأى! ذلك

---

[116] يجب مقارنة هذا المقطع بالدرس الثالث عشر.

هو "النظام" و "السلام"في نظرها، هو نظام يجعل الاضطهاد شرعياً، وقد أقيم هذا "النظام" لتوطيد الاضطهاد فإذا به يزعزعه. فيؤدي تخفيف النزاع إلى زيادة خطورته[117].

والخلاصة أن الدولة، حسب *رأي ماركس، هي منظمة للسيطرة الطبقية، ولاضطهاد طبقة على يد طبقة أخرى[118].*

تمثل الدولة القوة القائمة المنظمة الشرعية. وهي أداةلا للتوفيق بل للنضال الطبقي.

وهنا يخطر لنا سؤال وهو: من هي الطبقة التي تستطيع في كل مرحلة من مراحل النمو التاريخي، إيجاد هذه الأداة وتغذيتها واستخدامها؟ كل طبقة مستغلة بحاجة للدولة ولكنها لا تستطيع تغذيتها دائماً.

يجيب انجلز على ذلك بقوله *أنه لما كانت الدولة قد ولدت من الحاجة إلى لجم تعارضات الطبقات، وكما أنها ولدت وسط نزاع الطبقات، فهي دولة الطبقة الأقوى، تلك التي تسيطر من ناحية الاقتصادية والتي تصبح بفضل هذه السيطرة الاقتصادية الطبقة المسيطرة سياسياً، فتحصل بذلك على وسائل جديد لكبت الطبقة المضطهدة واستغلالها[119].*

على العلم التاريخي، إذن، في كل مرحلة، أن يجيب بجواب محسوس.

مثال: الدولة الحديثة بحاجة إلى مصروفات تنفق على الجيش والشرطة والموظفين.

ولا تستطيع الطبقة السائدة أن تحتفظ بهذه الأداة واستخدمها إلا بقدر ما تسمح علاقات الإنتاج التي تمثلها، والتي تريد إنقاذها، بالصرف عليها، ولهذا كانت الطبقة المسيطرة سياسيا هي الطبقة المسيطرة اقتصاديا. ومن هنا كانت بعض النتائج:

---

hs[117] نفهم عندئذ مغزى تحذير ستالين المشهور بصدد الفاشية، وهي دليل على ضعف الحركة العمالية النسبي، ولكنه دليل أيضاً على قوة هذه الحركة وضعف الرأسمالية العام.

[118] لينين: الدولة والثورة ص 13.

[119] انجلز: أصل العائلة. ص 157.

1 – حين تبلغ طبقتان متناحرتان شيئاً من الاتزان من الناحية الاقتصادية، يمكن للدولة أن تتمتع، بعض الوقت، *بشبه* من الاستقلال نحو هاتين الطبقتين. كانت تبدو ملكية لويس الرابع عشر المطلقة أنها تستطيع أن تكون الحكم بين الإقطاعيين المستغلين للرقيق وبين البرجوازيين، فكان الملك يمكنه القول: "*الدولة أنا*".

وكان هذا يعني، في الواقع، أنه قد أصبح للبرجوازيين بعض التأثير في الدولة الإقطاعية لأنهم كانوا يصرفون عليها، ولأنهم كانوا يقرضون الملك المال، ولكنهم، مقابل ذلك، لم يكونوا يستطيعون، بدون حماية الدولة الإقطاعية، تنمية التجارة والصناعة اليدوية، و هكذا حصل البرجوازيون, مقابل دعمهم المالي للنظام الإقطاعي، على امتيازات تجارية حملت في أحشائها بذرة نهاية النظام الإقطاعي!و قد اتخذ النضال بين الطبقتين المستغلين، في ذلك الوقت، طابع حاجة كل منهما للأخرى، وكان الحال في سنة 1789، بعد مضي قرن يختلف عن ذلك.فقد أصبحت البرجوازية مسيطرة اقتصاديا فقطعت الأرزاق عن الدولة الاقطاعية، وعملت على إسقاطها. ولا يجب أن ننسى، مع ذلك، أن التفاهم الموقت بين النبلاء والبرجوازيين كان دائما يتم على ظهر الفلاحين وهم الطبقة المستغلة.

2 – الدولة، بين يدي الطبقة المستغلة، هي *وسيلة إضافية* لاستغلال الطبقات المضطهدة. ولهذا كانت الضرائب، والجزاوات، ومصاريف العدالة، الخ... وسائل لحمل المضطهدين على دفع مصاريف اضطهادهم، في صورة مشاركة في مصاريف المجتمع العامة. ويتضح هذا أكثر في أيامنا حيث نرى ميزانية فرنسا الحربية الضخمة تعني أن الأمة تدفع مصاريف حرب (حرب الفيتنام[120]) وتسلح (ضمن نطاق ميثاق الأطلنطي الإعتدائي) كل ذلك لمصلحة البرجوازية المستعمرة وحدها. كما أن الشعب هو الذي يدفع أجور الشرطة التي تنهال عليه بالعصي باسم المصلحة العامة. وهكذا تضرب الدولة العمال "لمصلحتهم"....

[120] وحرب الجزائر مؤخرا (المعرب).

وعلى نفقتهم! ومع ذلك لا يمكن لهذا الاستغلال الإضافي أن يكون ألا في دولة الطبقات المستغلة وينتج عن الاستغلال نفسه.

ليس الاستغلال، على عكس ما كان يعتقد بلنكي الضريبة بل هو الاستملاك الخاص للعمل غير المدفوع أجره.

3 – تبدأ الطبقة الحاكمة بالخوف على سيطرتها السياسية متى ما أصبت علاقات الإنتاج التي تمثلها، والتي أصبحت بفضلها مسيطرة اقتصاديا، قديمة، أي حين يظهر الخلاف بين علاقات الإنتاج وطابع قوى الإنتاج. حتى إذا ما تفاقم هذا الخلاف نشأت مشكلة الدولة بصورة حادة. وتظهر عندئذ الإمكانية المادية على سلطة الدولة قد أفلتت من أيدي الطبقة المسيطرة.

ولهذا فنحن حين نتحدث عن الطبقة الأقوى اقتصادياً فلا يجب أن يفهم هذا القول بصورة تخطيطية. فالطبقة "الأقوى" هي الطبقة التي تستطيع أن تدفع بنمو قوى الإنتاج إلى الأمام، والتي تمثل علاقات الإنتاج الجديدة. حتى إذا لم تعد البرجوازية تستطيع تنمية قوى الإنتاج لم يعد بالإمكان القول بأنها "قوية" اقتصادياً، كما لم يعد بالإمكان القول أن اقتصاد الرأسمالي، الذي يسيطر على المجتمع، سليم. بل هو، على العكس، اقتصاد منحط، وهذا يعني أن سيطرة البرجوازية الاقتصادية أو السياسية تقارب نهايتها.

غير أنه يظهر عندئذ، في وضح النهار، تأثير الدولة على الاقتصاد. إذ لا تقف الدولة موقفا سلبيا أمام المصير الذي تردى فيه أساسها بل هي تقف موقفا فعالا فتدافع عنه بشدة.

حين تكون علاقات الإنتاج متفقة مع طابع قوى الإنتاج تسعى سياسة الطبقة الحاكمة، التي تمثل هذه العلاقات، إلى نمو الإنتاج وتوسيع الصناعة، مثال ذلك نضال البروليتاريا من أجل التبادل الحر.

حتى إذا لم تعد علاقات الإنتاج تتفق وطابع قوى الإنتاج، فإن سياسة الطبقات المستغلة الاقتصادية تسعى إلى تعطيل عمل قانون الترابط الضروري، وذلك باتخاذ إجراءات تعيق نمو قوى الإنتاج.

وهكذا حاول رأس المال، في مرحلة انحطاط الرأسمالية، وهو المشرف على الدولة التي لم تكن سوى أداة بين يديه، أن يحل مشكلة الرأسمالية الاقتصادية بصورة تتفق ومصالحة، مضحياً من أجل ذلك بمصالح الأمة. فإذا بالدولة، وهي التابعة للاحتكارات، تحاول أن تسيطر على الحياة الاقتصادية، وليس ذلك لإمكانية تخطيط "الرأسمالية" بل من أجل حماية مصالح الأوليجاوشية المالية، وقد استولت هذه على فوائد ضخمة. فالدولة التي تشرف عليها تضمن لها احتكار إصدار عملة الدولة، كما أن الدولة تكلفها بإعداد التسلح وتقديم العدد الحربية كما تعفيها من الضرائب، وتحدد لمصلحتها أسعار الجملة والمفرق، وتبيعها بثمن بخس منتوجات الصناعة المأممة (الكهرباء والفحم)،
وتتخذ الإجراءات للقضاء على منافسها، وتمدها بالإعانات،و تتلاعب بالعملة، وتفاوض لحسابها مع البلدان الأخرى، وأخيراً تحدد الأجور كما تريد، حتى أن كل بروليتاري يصطدم بالدولة في طريقة خلال نضاله من أجل العيش.
تهتدي الدول، في عصر الاستعمار، في عملها، بضرورة انقاذ الرأسمالية ولا سيما تأخير ساعة الأزمة الاقتصادية. الدولة هي الأداة الرئيسية لخراب غالبية سكان البلاد وإفقارهم واستبعاد البلاد المستعمرة ونهبها بصورة منظمة، ونضال الرأسماليين المحتكرين ضد الرأسماليين غير المحتكرين، وهي أخيرا أداة النضال بين المستعمرين الألداء، ووسيلة للحروب وإخضاع الاقتصاد القومي للتسلح. ولكي تستطيع الدولة القيام بكل هذه الأعباء تظل لاضطهاد البروليتاريا والطبقات العاملة.

وهكذا تصبح الدولة سداً يحمي الطبقة المستغلة، وهي تقوم بدور فعال للدفاع عن طريق الإنتاج البالية. كما تصبح الدولة. التي كانت أداة لسيطرة الطبقة الأقوى اقتصادياً، وسيلة للمحافظة على هذه القوة الاقتصادية. بينما تقوضت هذه القوة في الأساس بتناقضات طريقة الإنتاج. وإذا كانت شروط تغير طريقة الإنتاج متوفرة، فإن عمل الطبقة المستغلة. التي تعارض في تطبيق قانون الترابط الضروري، وعمل الدولة البرجوازية، يصبحان العائق الأساسي للتغيرات

الضرورية. ولهذا وجب القضاء على هذا العائق، غير أنه يجب، من أجل ذلك، توفر *شروط ذاتية*، وهي نضال الطبقة العاملة السياسي لتنظيم سياسياً في حزب طبقي وتنظيم الجماهير الشعبية، وتدافع عن *الحريات* الديمقراطية وتوسع من نطاقها، وأخيراً كي *توجد سلطتها الخاصة كدولة.*

ولا تملك هذه الدولة في أول عهدها، أي أساس اقتصادي خاص بها اشتراكية، ولهذا يجب عليها أن توجد أساسها الخاص بها. يضاف إلى ذلك، أنها لا تستطيع أن تقوم إلا بتأييد الجماهير العاملة الواعي. ولهذا يجب على الأفكار السياسية الجديدة، التي تتقدم بها الطبقة العاملة، أن تكون قد سيطرت على *غالبية الشعب*، أي أن غالبية الأمة لم تعد تؤيد السياسة البرجوازية أو تثق بها. ولهذا تجعل الماركسية، بحق، مسألة الدولة من ضمن الشروط *الذاتية* لتغير طريقة الإنتاج.

هذا ما تعلمنا لياه الجدلية، وهو أن الدولة، ومع أنها دائما *انعكاس* لأساس اقتصادي معين، فإن حل مشكلة الدولة والمشكلة السياسية يجب، في حالات معينة، أن *يسبق تاريخيا* بناء الأساس الاقتصادي الذي سيكون *خاصاً* بالدولة الجديدة.

وهذا ما لا يمكن أن تدركه النزعة المادية الساذجة: فهي إذ تعتمد على الفكرة القائلة بأن الدولة ثمرة نمو المجتمع الاقتصادي، فأنها تستنتج من ذلك أن التناقضات الاقتصادية يجب أن تكون ميكانيكية، وأن تؤدي، حتما، إلى تغيير طريقة الإنتاج وأن الاشتراكية ستولد تلقائية من "تحلل الرأسمالية". وهي بهذا تنسى أن عمل الناس يمكنه أن يعيق تطبيق القوانين الاقتصادية، وأن البرجوازية يمكن أن تمدد، بتأثيرها السياسي وبما تملكه من وسائل ضخمة تضعها الدولة الحديثة بين يديها، فترة زوال الأساس الاقتصادي، ولهذا فهي بهذا تخدم البرجوازية. ويؤدي التيار الاقتصادي، في الحركة العمالية، إلى نفس النتيجة بإنكاره ضرورة نضال البروليتاريا السياسي ضد الدولة البرجوازية، وهو بهذا يغذي النزعة الانتهازية، ويجعل الطبقة العمالية تبعاً للبرجوازية، كما أنه، في نفس الوقت، يقف في وجه سلطة الطبقة العاملة السياسية ويتردى في النزعة

المناهضة للسوفيات. ولهذا يشجع هذا التيار صنائع البرجوازية في الحركة العمالية، وزعماء الاشتراكية الديمقراطية المصلحين.

والخلاصة من كل ذلك هي ضرورة *النضال السياسي* الماسة. غير أنه لا ننسى، من ناحية ثانية، ما رأيناه سابقاً: وهو أن الدولة لا يمكنها أن تقوم بدورها إلا إذا قبلت الجماهير (وخدام الدولة) الفترة القائلة بأن الدولة فوق الطبقات، وآمنوا بهذا الوهم. تعتمد قوة الدولة المادية في النهاية على عنصر *فكري*، ألا وهو تقليل الجماهير من شأن قوتها. وقد اعترف نابوليون بأنه يمكننا أن نفعل ما نشاء بالحرب شريطة أن يكون الرأي العام من جانبنا، ومهما كانت وسائل الضغط التي تملكها الدولة البرجوازية، كالرشوة مثلا، فإن التجربة التاريخية قد دلت على أن هذه الوسائل تعجز أمام صمود الجماهير المسلحين فكريا، والشيء الذي يعتد به، أخيرا، هو أن تعي الجماهير بوضوح ألاعيب أعدائها، وأن لا ينجح هؤلاء في خداعها. ولهذا تجعل الماركسية المؤسسات السياسية من بين ظواهر حياة المجتمع الروحية: وليست قوة هذه المؤسسات سوى قوة الأفكار. ويمكن لهذه القوة أن تصبح مادية شريطة أن تتملك هذه الأفكار الجماهير وتسيطر عليها.

وبالنتيجة فأن النضال السياسي يتضمن بالضرورة *النضال الفكري*، وهو النضال ضد الأفكار التي تؤيد سياسة العدو الطبقي، والنضال من أجل إزالة العراقيل الفكرية التي تمنع الجماهير من الاتحاد في النضال السياسي ضد الدولة البرجوازية.

يبرهن هذا التحليل، مرة ثانية، على أنه يجب أن يقود نضال البروليتاريا الطبقي طليعة واعية منظمة في شكل قوة سياسية مستقلة، هي الحزب السياسي الذي يعتمد على نظرية فكرية طبقية، للنضال الثوري، الذي يعكس بصورة علمية، مصالح الطبقة العاملة الحيوية المباشرة ومصالح المجتمع بأكمله.

3 – محتوى الدولة وصورتها

من بين الوسائل الرئيسية، التي يستخدمها مفكرو الطبقات المسيطرة والمستغلة لتشويش مسألة الدولة، الخلط بين صورة الدولة ومحتواها. فهم، حين يعرفون مختلف نماذج الدولة، يعتمدون دائما على عدد الناس الذين يمارسون امتيازات السلطة: فيميزون بين الدولة الملكية، والدولة الأرستقراطية، والدولة الديمقراطية. فهم يحصرون النقاش بمسائل الصورة، وبطبيعة المنظمات التي تمارس السلطة، كوجود مجلس نواب، مثلا، و "فصل السلطات" و "استقلال القضاء" الخ... فيظهرون بذلك أنه يحرم التعرض لمحتوى الدولة.
أما بالنسبة للماركسية فأن المسألة التي تعلو على كل المسائل الأخرى هي المسألة الثانية: لمصلحة من وضد من تمارس هذه السلطة؟ تمييز الماركسية بين محتوى الدولة الاجتماعية وبين صورتها.

ا – *محتوى الدولة الاجتماعي*

تكتسب الدولة طابعها بفضل محتواها الاجتماعي الحقيقي، أي محتواها الطبقي. فالدولة أما أن تكون دولة رقيق أو دولة اقطاعية أو برجوازية أو رأسمالية، أو بروليتارية أو اشتراكية – وكل دولة هي *دكتاتورية طبقية*: ينتج ذلك أصلها ومهمتها. ويمثل المحتوى جوهر الدولة، وهو يسبق صورتها ويحددها. وتختار كل طبقة مسيطرة الصورة التي تناسب دكتاتويتها الطبقية.و لنذكر هنا بعض الأمثلة التاريخية:
هل كانت الدولة القديمة دولة رقيق؟ أجل. مهما كانت صورتها لأن الرقيق لم يكن فيها قط مواطنا.
هل كانت الدولة في القرون الوسطى دولة إقطاعية؟ أجل. ومهما كانت صورتها لأن الرقيق فيها لم يكن له أي حق سياسي. أما البرجوازيون فقد فازوا بحريتهم بنضالهم.

هل الدولة الفرنسية، منذ عام 1789، هي دولة البرجوازية الرأسمالية؟ أجل. ومهما كانت صورتها لأن البروليتاريا فيها لم تتمتع بأي حقوق سياسية سوى الحقوق التي انتزعتها من البرجوازية بالنضال، وهي تفرض احترام هذه الحقوق بنضالها المستمر.

هل الدولة السوفياتية هي دولة العمال والفلاحين؟ أجل. لأن أساس الاتحاد السوفياتي السياسي يتكون من سوفيات نواب العمال الذين ازداد عددهم وتوطدت أركانهم بعد قلب سلطة كبار الملاكين والرأسماليين، وبفضل الاستيلاء على دكتاتورية البروليتاريا (المادة 2 من دستور الاتحاد السوفياتي)

كل السلطة في الاتحاد السوفياتي بين يدي عمال المدين والقرية الممثلين في شخص سوفيات نواب العمال (المادة 3 من دستور الاتحاد السوفياتي).

ولهذا فالسؤال الأول الذي يجب طرحه لتقدير طابع دولة من الدول في أيامنا هو هذا السؤال: هل نحن أمام دولة برجوازية رأسمالية أم أمام دولة اشتراكية للعمال والفلاحين؟ ولا يمكن أن يطرح السؤال بصورة أخرى، إذ لا يمكن للدولة أن تكون دولة رجل، أو حزب. بل هي دائماً دولة طبقة.ولقد رأينا أن الدولة لا يمكن أن تستقر بدون أساس اقتصادي ونعلم أن الأساس الاقتصادي يمتاز بملكية وسائل الإنتاج.والقوة الاجتماعية التي تمثل الملكية وتمتلكها وتستخدمها ليست رجلا أو حزبا بل هي دائما، وفي كل مكان، طبقة، فهي هنا طبقة البرجوازيين الرأسماليين وهناك طبقة العمال المتحالفين مع طبقة الفلاحين العمال.

نعرف إذن محتوى الدولة الاجتماعي بالجواب على هذا السؤال التالي: هذه الدولة في خدمة أية علاقات إنتاج، وأية صورة للملكية (خاصة أو اجتماعية) وأية طبقة؟

يجب طرح هذا السؤال بصدد كل الأفكار السياسية.

سطر لينين بسرعة، مثلا، بصدد الحرية، الملاحظات التالية "الحرية" حرية مالك السلع.

حرية العمال المأجورين الحقيقية – حرية الفلاحين:

حرية المستغلين.

الحرية من أجل من؟

الحرية بالنسبة لمن وبالنسبة لماذا؟

الحرية في أي شيء؟[121]

كما سطر بصدد المساواة:

"المساواة". انجلز في "ضد دورنج" (وهم إذا أردنا بذلك أكثر من إزالة الطبقات).

مساواة مالكي السلع.

مساواة المستغل والمستغل.

مساواة الجائع والشبعان.

مساواة العامل والفلاح.

مساواة من؟ ومع من؟ وبأي شيء.[122].

وسائل حكم الدولة هي وسائل الطبقة التي تسير الدولة، وبهذا تكون هذه الوسائل ذات مغزى لأنها تدل على محتوى الدولة. هذه الوسائل رأسمالية بالنسبة للدولة الرأسمالية وأولى هذه الوسائل المال.

كتب انجلز بهذا الصدد يقول: *لم تعد الجمهورية الديمقراطية تعترف، رسمياً، بفوارق الثروة. إذ أن الغني يؤثر فيها بصورة غير مباشرة ولكنها أكيدة. وذلك بصورة رشوة الموظفين مباشرة، من جهة، ونجد في أميركا مثالا كلاسيكيا على ذلك، وبصورة تحالف بين الحكومة والبورصة من جهة ثانية، ويتم هذا التحالف بسهولة لأن ديون الدولة تزداد باستمرار، كما أن الشركات المساهمة لا تحصر بين يديها وسائل النقل فقط بل الإنتاج نفسه، كما تلتقي هذه الشركات في البورصة*[123]*.*

---

[121] لينين: "حول دكتاتورية البروليتاريا"، في "الدولة والثورة" ص 149.

[122] لينين: الدولة والثورة ص 150.

[123] انجلز: أصل العائلة، ص 158.

وليست سيطرة الثورة جميعها، في الجمهورية البرجوازية، في أيامنا هذه، باقل ظهوراً. وبالرغم من أنه لا يوجد أي تشريع قانون يحفظ لأعضاء الأوليغارشية المالية مراكز القيادة في الدولة فان "تبعية جهاز الدولة للاحتكارات[124]" حقيقة واقعة. فمن جهة، تستطيع المئتا عائلة أن تعين بعض أعضائها في جهاز الدولة كموظفين كبار: ومهما كانت القواعد لتعيين هؤلاء الموظفين، فأننا نعلم أن عامل المودة" هو الذي يقرر القبول في دوائر "الدولة الكبرى" كمراقبة الاقتصاد وغيرها. ومن جهة ثانية تنظم الأوليغارشية المالية هجرة منظمة لكبار الموظفين نحو القطاع الخاص مما يسمح لها أن تؤمن تعبئة مستمرة لملاكاتها، وهي تسعى بواسطة الطموح والتلهف على الربح، والرشوة لمراقبة كل نواحي الإدارة. تتضح هذه الرشوة في فضائح الدولة الرأسمالية بين حين وآخر. كما أنها تتخذ طابع توزيع المراكز المباشر في مجالس إدارة الشركات على النواب والممثلين السياسيين واللواءات الخ.....

ولقد رأينا فيما سبق دور الدولة التاريخي في خدمة رأس المال. وهكذا وجدت الدولة الفرنسية نفسها، بواسطة قروض مشروع مارشال، تابعة للاحتكارات الأميركية، وأصبحت بعض دوائرها كوزارة الخارجية مثلا تحت مراقبة عملائها. كما تملك البرجوازية الكبرى أيضاً "الأزمة الاقتصادية" كوسيلة للتأثير على المجلس النيابي. إذ أن ازدياد ديون الدولة عملية سياسية رابحة لها. لأن التهويل المالي، الذي كان وسيلة للضغط على الملوك، يظل نافعاً للتأثير على دولة البرجوازية والدولة الأجنبية التي تتخبط في الصعوبات.

ويبدو دور الثروة السياسي، في الدولة البرجوازية أيضاً، في سلسة من وسائل وهي: ليس محتوى حرية الصحافة سوى أن الرأسماليين الذي يمكنهم ماديا تأسيس جريدة وتمويلها لديهم المجال لخلق هذا المحتوى؟ – ليس محتوى حق الجميع في التعلم سوى أن إمكانية التعلم الحقيقية لا توجد ألا للطبقات الاجتماعية التي تستطيع دفع مصاريف التعليم._ وما تحتوي حرية الرأي والطرق السياسية

---

[124] راجع ستالين: "مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي" ص 37.

سوى أن الإمكانية الحقيقية لتقديم مرشحين لا توجد إلا للفئات الرأسمالية التي يمكنها أن تمول معركة انتخابية. ولا ننس أن وجود حزب مستقبل للطبقة العاملة ليس ثمرة النزعة المتحررة البرجوازية بل هو ثمرة تضامن الجماهير الفعال.

وتبدو معالم الدولة الطبقية بوضوح في مسألة العدالة. ولنشر أولا إلى أن العدالة لا تؤدي بل هي تباع على يد البرجوازية: وإذا كانت العدالة نظرياً بالمجان فأن هذه العدالة لا تؤدي ألا لمن يستطيع دفع مصاريف الدعوى، فكيف يمكن لعامل أن ينال التعويض عن حادث وقع له أثناء العمل؟ كيف يمكنه أن يستأنف أمام مجلس الدولة ضد لا شرعية الإدارة؟ وتؤدي العدالة بلغة لا تفهمها الجماهير الشعبية، وهي ترجع إلى مطلع البرجوازية. وأخيراً فأن المباديء التي تهتدي هذه العدالة بهديها هي مباديء الحق البرجوازي الذي يقوم على الدفاع عن الملكية، والدفاع عن رأس المال، وما قمع لصوص الممتلكات الشخصية سوى تعلة لقمع العمال في نضالهم ضد المستغلين، وتتعدد وسائل ضغط الدولة البرجوازية، في القضايا السياسية، على القضاء من التلويح بالترقية حتى للتهديد، الذي يكاد لا يخفى، بواسطة عملاء للاستفزاز، حتى أن النظرية الفكرية البرجوازية تخلتف في تقديرها الجرائم إذا ارتكب هذه الجرائم فقير معدم أو إبن عائلة "محترمة" وأخيراً يجعل فساد البرجوازية المنحطة العدالة عاجزة عملياً أمام المهربين ورجال العصابات التي تلوذ بدوائر المجتمع "العالية".

ينتج محتوى الحق عن وظيفته في تخليد نظام الملكية القائم، والحق ليس تجسيداً لمباديء خالدة ولا "لقوانين طبيعية" أو إرادة "الوعي"، بل هو عنصر مكون للبناء الفوقي، انعكاس لصورة الملكية المسيطرة التي يحاول تخليدها ليجعلها مطلقة، كما يبررها "بمبدأ" مزعوم أبدي، ولهذا كان التفكير التشريعي البرجوازي أفضل مثال على تطبيق المنهج الميتافيزيقي.

ومثال واحد يدلل على محتوى الحق الطبقي. يجبر القانون الأولاد على القيام بأود والديهم، عند الضرورة، كما يجبر الوالدين بتربية أولادهما. أو ليس من الواضح أن هذه القاعدة تعمم في المجتمع واجبا لا معنى له ألا ضمن نطاق

العائلة البرجوازية المالكة، وأن هذا التعميم الجائر يعفي المستغلين، أي البرجوازية، من واجبهم نحو عناصر البروليتاريا العاجزة عن العمل: وهم كهول العمال، والمقعدون، والمرضى، وأولاد البروليتاريا؟

وتمتاز الدولة البرجوازية "الديمقراطية" أيضاً بالميزات التالية:

- *البيروقراطية*: يشرف على الإدارة من عل تعاليم البرجوازية الكبيرة الخفية، وهكذا كانت الإدارة العليا غير مسؤولة، عملياً، تراقبها مباشرة الأوليغارشية المالية ويكون كبار الموظفين "جماعات" متخصصة مغلقة، تحتكر "الكفاءات" أي تجربة طبقة البرجوازية القديمة، ولا تخضع هذه الإدارة لمراقبة الجان البرلمانية عن طريق "السر المهني" وتشرف إدارة المحافظة على المجالس المحلية وتجعل قراراتها تابعة لمصالح طبقة البرجوازية الكبيرة [125].
- *النزعة العسكرية*: تهدف مدة الخدمة العسكرية الطويلة، وهي ثمرة الاستعمار الذي لا يرى في السلم سوى هدنة بين اعتدائين، إلى تنشئة الشباب على خدمة الدولة البرجوازية خدمة عمياء، وقد وضع النظام كطاعة سلبية لا تقبل النقاش، مفروض من عل، لأن البرجوازية لا تستطيع الاعتراف صراحة بأهدافها الطبقية إلى جنودها.
- *النزعة البرلمانية*: نظمت الانتخابات بشكل يجعلها تقرر فقط كل أربع أو خمس سنوات من هو الرجل الذي تثق به البرجوازية سيمثل الشعب في البرلمان ويضطهده، وممثلو الشعب لا يمكن الناخبون تنحيتهم، كما أنهم لا يملكون

---

[125] استشهد موريس توريز" في تقريره إلى مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي التاسع (أرل 1937)، على جبروت هذه البيروقراطية في ميدان السياسة الخارجية فقال ذاكرا مجلة أسبوعية ديمقراطية: "دخل السيد ليجيه الأمين العام لوزارة الخارجية إلى الكي دورسيه في عام 1914 وفي عام 1916 كان في شنغاي. وفي عام 1921 عاد إلى باريس وبقي فيها من عام 1921 – 1927. في عام 1929 كان مديرا للشؤون السياسة التجارة.ومنذ هذا التعيين حل السيد بريان، محل السيد بريان، والسيد لافال محل السيد بريات، والسيد تريديو محل السيد لافال والسيد هيريو محل السيد ترديو، و السيد بولس بونكور محل السيد هريو, والسيد دالادييه محل السيد بونكور ,والسيد بارتو محل السيد دالادييه , والسيد لافال محل السيد بارتو ، والسيد فلاندين محل السيد لافل، والسيد أيفون دلبوس محل السيد فلاندين، غير أن السيد ليجيه ظل أمينا عاما لوزارة الخارخية، "فمن هو وزير الخارجية الحقيقي؟ من يمثل فرنسا في نظر ممثليها في الخارج؟ السيد دلبوس؟ كلا بل السيد ليجيه هو الوزير الدائم" :م توريز: مؤلفات ج 14، 269. المطبوعات الاجتماعية، باريس 1945.

السلطة التنفيذية والإدارية بفضل المبدأ البرجوازي عن "فصل السلطات"، وتعرف النزعة البرلمانية هي أن المجالس المنتخبة لا تشرف بنفسها على تنفيذ قراراتها وتطبيقها: فهي ليست مجالس فعالة.

- وأخيراً نأتي لظاهرة أحدث في فرنسا وهي أن رجال السياسة يختارون مباشرة من بين الرأسماليين أمثال "بيني" و "ماير" و "لانييل"، الذين لا يكتفون بالإشراف على السياسيين، بل يقومون هم أنفسهم بإدارة الحكومة. وهذه الظاهرة أقدم في الولايات المتحدة وأشد اتساعاً. إذ نرى اللواءات والممثلين السياسيين والقضاء، من بين الرأسماليين، يقومون بأنفسهم بهذه الوظائف.
- نرى الآن ما معنى أن كل دولة هي دكتاتورية طبقة من الطبقات، ويعني هذا أن حقيقة السلطة في يد طبقة تمارسها لخدمة مصالحها,مستخدمة في ذلك وسائلها الخاصة.يمكن للدولة البرجوازية أن تكون ديمقراطية بالنسبة للرأسماليين، ولكنها دكتاتورية بالنسبة للطبقة العاملة، بينما الدولة الاشتراكية، على العكس، هي ديمقراطية بالنسبة للعمال ولكنها دكتاتورية بالنسبة للطبقات القديمة المستغلة الزائلة. وكان لينين يقول: الدكتاتورية، التي هي نفي للديمقراطية، من أجل من؟[126].
- من الخطأ، إذن تعريف الفاشية بأنها "دكتاتورية حزب. لأن الفاشية هي "دكتاتورية أشد العناصر الرجعية إرهابا واستعمارا في رأس المال" (ديمتروف). وما الحزب الواحد إلا أداة هذه الدكتاتورية الطبقية.
- أما ثرثرة الاشتراكيين الديمقراطيين عن "تسرب العناصر البروليتارية" في الدولة الحديثة,التي تجعل لهذه الدولة شبه طابع "وسط" لأنها "ليست بروليتارية تماماً" ولا "برجوازية تماما" فأنها لا يمكنها أن تخفي ما يلي: وهو أنه إذا وجب على البروليتاريا أن تهدم، بمشقة، بعض قلاع الدولة الرأسمالية الأمامية، فهل يمنع ذلك من أن تظل هذه الدولة رأسمالية أو لا يبرهن، على العكس، أنها رأسمالية؟

[126] نفس المرجع ص 149.

ب – صورة الدولة

صورة الدولة هي التعبير عن محتواها الاجتماعي الحقيقي، وهي تتحدد بنمو نضال الطبقات.

يميز لينين بين عدة صور للدولة ظهرت منذ القدم:

- الجمهورية كدولة ليس فيها سلطة غير منتخبة.
- الملكية كسلطة فرد واحد.
- الأرستقراطية كسلطة أقلية محدودة نسبيا.
- الديمقراطية كسلطة الشعب.

وتمتزج هذه الصور بعضها مع بعض، فيمكن للجمهورية، مثلا، أن تكون أرستقراطية أو ديمقراطية، تضم في نفس الوقت بقايا الملكية.

ولا تستقر صورة الدولة، غالبا، على حال، فهي تتأخر غالبا، عن المحتوى، وتعبر بطريقتها عن تناقضات المجتمع الداخلية.

كانت جميع صور الدولة، في القدم، لها محتوى يعتمد على الرقيق. ومع ذلك فإن الانتقال من صورة الجمهورية الأرستقراطية إلى الجمهورية الديمقراطية، في روما، مثلا كان يعكس، بالضرورة، مرحلة جديدة من نضال الطبقات بين الملاكين والتجارة.

وقد تنوعت صور الدولة، في عهد الإقطاع. فوجدت جمهوريات أرستقراطية كان الإقطاعيون فيها ينتخبون رئيس الدولة، وهو الإمبراطور، وقد تحول بعضها إلى ملكيات وراثية.فكان شارلمان يجمع,كل سنة برلمانا من البلاد الكارولنجيين, وهو بقايا للعادات "الجمهورية" عند الفرانك. كما كان الكابيتيون الأوائل منتخبين، كما انتخب الإمبراطور في نعض مراحل الإمبراطورية المقدسة على يد كبار الإقطاعيين. ولكن محتوى الدولة، كان في جميع هذه الأحوال، إقطاعيا.

وكانت "المجالس العامة" في عهد القديم مؤسسة ذات طابع "جمهوري" لأنها كانت تتكون من مندوبين منتخبين وهم في نفس الوقت أرستقراطيون لأن الإقطاعيين كانوا يتمتعون فيها بأكثر الثلثين[127]: كما أنها كانت بذلك مؤسسة إقطاعية تخدم مصالح الإقطاعيين!

---

[127] كان لكل من النبلاء والكهنوت والطبقة الثالثة صوت فكان الكهنوت يضم صوته عادة إلى صوت النبلاء.

حتى إذا ما أصبح للبرجوازية تأثير على الدولة الملكية الإقطاعية بواسطة وسائلها المالية وقفت في وجه هذه المؤسسة الإقطاعية، ألا هي مؤسسة *المجالس العامة* حيث كانت أقلية فيها. ولهذا لم تجتمع المجالس العامة في عهد الملكية "المطلقة" أيام لويس الرابع عشر وكولبير – البرجوازي.

غير أن نزعة الملكية المطلقة، التي كانت، اثر الفروند (Fronde) موجهة ضد الإقطاعيين، قد انقلبت على البرجوازية، في القرن الثامن عشر، بسبب تقدم البرجوازية الذي أخذ يهدد النظام الإقطاعي.

ففكرت البرجوازية، عندئذ، في استخدام *المجالس العامة*، إذ أن الوضع كان تغير، ويمكن لهذه المجالس، بعد شيء من الإصلاحات، أن تخدم البرجوازية! كانت طبقة النبلاء معزولة في البلاد، وكان الكهنوت منقسما بالنضال الطبقي بين طبقة الكهنوت المنحدر من الشعب، وكانت البرجوازية الطبقة التي تعتمد عليها ثروة الاقتصاد القومي: فقامت بحملة بين الجماهير لمضاعفة عدد نواب الطبقة الثالثة (وكان هذا العدد عادة مساويا لعدد نواب كل من الطبقتين الأخريين)، كما دعت لانتخاب يجري داخل المجالس، على أساس الفرد و ليس على أساس الجماعة. وهكذا تضمن البرجوازية، بمساعدة نواب الكهنوت الشعبي، الأكثرية المطلقة في المجالس العامة! حتى إذا ما اجتمع نواب الطبقة الثالثة، دعوا نواب الكهنوت إلى الانضمام إليهم وأعلنوا أنفسهم مجلسا قوميا.

وهكذا نرى أن البرجوازية عرفت كيف تستخدم، حسب تطورات النضال الطبقي، المؤسسات الملكية في الدولة الإقطاعية، (الملك) تارة، والمؤسسات "الجمهورية" *(المجالس العامة)* تارة أخرى.

وقد أتاح نمو النضال الطبقي لهذه المؤسسة الإقطاعية محتوى جديدا برجوازيا، ارتدى المحتوى الجديد، لمدة من الزمن، صورة قديمة وحدد تحولاتها. ولنشر أخيرا إلى أن التطور النوعي، وهو ازدياد قوة البرجوازية، في البلاد، قد أفضى جدليا إلى تغير نوعي في صورة المؤسسات، ألا وهو تحول المجالس العامة إلى مجلس قومي، وإلى قلب تام للوضع السياسي العام، إلى الثورة السياسية. كل ذلك حدث على أساس نمو النضال الطبقي.

وقد استخدمت البرجوازية، بدورها، بعد أن أصبحت طبقة مسيطرة، مختلف صور الدولة.

- الملكية الدستورية التي لم تخرج عن نطاق جمهورية غير ديمقراطية، لا ينتخب فيها سوى "المواطنين العاملين" الأغنياء الذين يمكنهم دفع ضريبة معينة.
- الجمهورية المقصورة على دافعي الضرائب.
- الجمهورية الديمقراطية التي تقوم على الانتخاب العام "الشامل".

وتكون الصورة الأولى للدولة حلا وسطا مع النظام القديم في الأوقات التي كان ذلك فيها ضروريا.

ولقد حظيت الصورة الثانية بتفصيل البرجوازية لأنها كانت تتفق تماماً مع الأساس الاقتصادي للعهد فكانت جمهورية الملاك.

وقد أصبحت الصورة الثالثة ضرورية حين نما نضال البروليتاريا الطبقي، ووجب تغطية الدكتاتورية الطبقية "للتخفيف من حدة النضال الطبقي" وتهدئه اندفاع البروليتاريا الثوري.

وكان يهم البرجوازية أن تغرس في العقول الفكرة القائلة بأن الجمهورية الديمقراطية هي صورة الدولة المثالية النهائية، وهي أسمى ما وصل إليه "تقدم الوعي"، والمدينة والنزعة الإنسانية، وأنها تجسيد "الحق الطبيعي" ونهاية التاريخ بمعنى ما. وهكذا كانت تأمل تخليد حكم رأس المال.

غير أن تناقضات الرأسمالية، وتأزم النضال الطبقي، والأزمات الاقتصادية، والاستعداد للقيام بالفتوحات الاستعمارية، وبدء أزمة الرأسمالية العامة، كل ذلك لم يمكنها من ذلك. فاضطرت البرجوازية إلى أن تلقي قناع الديمقراطية، وأن تعتدي على شرعيتها، لتبقى سيطرتها الطبقية. وهي تتأرجح على أساسها الاقتصادي الفاسد، وأن تستعد للحرب، فكشفت عندئذ عن وجه الفاشية الكريه، وعن دكتاتورية رأس المال في وحشيتها المفترسة. ودلت بذلك على أن محتوى الدولة الطبقي أهم من صورة، وأن الجمهورية الديمقراطية كانت صورة تاريخية للدولة، وهي صورة وقتية تابعة لمصالحها الطبقية، وهي ليست مقدسة ولا خالدة. كما برهنت بنفسها على كذب تصريحاتها عن حبها المجرد للحرية والمدينة!

4 – نضال الطبقات والحرية

ا – البرجوازية و "الحرية"

كان لنضال البرجوازية التاريخي من أجل "الحرية" محتوى طبقي.

فإذا كانت البرجوازية، في زمن الثورة البرجوازية قد جعلت من نفسها نصيراً للحرية فذلك:

أ) لأنها كانت بحاجة إلى أن تجد في السوق يداً عاملة حرة قد تحررت من قيود الإقطاع، لا تتعلق بسيد، يمكنها أن تضمها إلى صناعتها أو تنبذها في البطالة حسب حاجات الإنتاج الرأسمالي.

ب) لأن نمو قوى الإنتاج الجديدة يتطلب حرية التجارة وحرية الأعمال، وإزالة قيود الاقتصاد الإقطاعي.

ج) لأن "الحرية الفردية" هي الصورة القانونية السياسية التي تعبر أفضل تعبير عن صورة الملكية الخاصة، التي هي أساس البرجوازية، وهي الثروة قد تمثلت بالمال الذي يزيل كل علاقة شخصية بين أعضاء المجتمع. وأساس فكرة الحرية الفردية هي الملكية الخاصة البرجوازية، وأن كانت البرجوازية تريد أن توهم الناس، على العكس، بأن فكرة الفرد المطلقة هي التي تبرر الملكية الخاصة!

د) لأن البرجوازية بنصرتها للحرية، توجد أساساً فكريا للتحالف السياسي مع طبقات الشعب الأخرى التي تناضل ضد الإقطاعية: كالفلاحين وفئات متعددة من البرجوازية الصغرى، فكانت الثورة الديمقراطية البرجوازية هي الطريقة الوحيدة للنجاح في نضال ضد الإقطاعية.

ولنلاحظ أن هذه البرجوازية التي تعلن عن نفسها بأنها "متحررة" هي نفسها التي ترفض حق الانتخاب "للمواطنين السلبيين"، كما ترفض حق الشراكة للعمال عام 1791!

وهكذا تكون حدود نزعتها المتحررة هي حدود مصالحها الطبقية تماماً.
توجد البرجوازية، المنقسمة على نفسها، بسبب خواص الرأسمالية والمضاربة إلى فئات تختلف مصالحها، صوراً لتنظيم السياسي خاصة: وهي تعدد الأحزاب البرجوازية، والنزعة البرلمانية.
ولما كانت المصالح الخاصة بفئة من البرجوازية يجب أن تظل تابع لمصالح الطبقة العامة الدائمة، فإن البرجوازية تحدد حقوق البرلمان، وتفصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية، وتحول دون إشراف البرلمان على إدارة الدولة.
وإذا كانت البرجوازية اتجهت فيما بعد نحو الانتخاب العام الشامل "في أواسط القرن التاسع عشر" ونحو النزعة البرلمانية الديمقراطية، فلهذا أسباب واضحة.
نما النضال الطبقي، وأخذت البروليتاريا تطالب بحقوقها السياسية، وأخذت أهمية الرأي العام تزداد لأنها امتدت إلى طبقات جديدة نشيطة قد نمت بتأثير الصناعة الكبرى، فإذا بالجمهورية الديمقراطية تخفي حينئذ سيطرتها الطبقية، كما أن الأجر المدفوع في نهاية اليوم يخفي الاستغلال الطبقي.يضاف إلى ذلك أن الجمهورية الديمقراطية لم تصبح بعد خطراً على البرجوازية، لأن البروليتاريا لم تكن في هذه الفترة، مستقلة فكريا. فمن السهل إذن الحصول على أصواتها بواسطة دعاة البرجوازية، فتزول نتيجة الانتخاب العام الشامل بطريقة خاص للانتخاب. وهكذا ألا يلزم قدر من الثقافة حتى يصبح المرء نائبا، ولهذا تمتنع البرجوازية "الديمقراطية" عن أن تأتي بأي عمل لتثقيف الجماهير، سياسيا، بصورة ديمقراطية! كما أن مهمة المدرسة الابتدائية الإجبارية هي تنشئة هذه الجماهير على الاحترام البرجوازية.
كما أن السياسيين البرجوازيين يجرون على قاعدة وهي التناقض بين وعودهم وأعمالهم في البرلمان، ويعكس هذا التناقض تعارض المصالح بين الشعب والبرجوازية.
وعلى كل حال فقد كانت فوائد الانتخاب العام، في هذه الفترة، بالنسبة للبرجوازية أكثر من مضاره. فإذا منحته وثقت علاقاتها بالجماهير وأصبحت شعبية عندها فزادت بذلك قوتها السياسية.

ألم يعتد كافور، البرجوازي الكبير المتحرر، على القول:

أسوأ المجالس أفضل من أسمى المجتمعات خارج هذه المجالس"

"La pire des Chambres –

vaut mieux la meilleuredes anti-chambres"

مشيراً بذلك إلى مصلحة البرجوازية في أقامة واجهة برلمانية لتأييد الرأي العام. كما كان يؤكد قائلا:

لم اشعر قط بضعفي كما كنت أشعر أثناء عطل المجالس ولقد كتب

لينين يقول:

تزداد ثقة الثروة في الجمهورية الديمقراطية كلما كانت لا تتعلق بغطاء سياسي سيء للرأسمالية، وهكذا بعد أن يستولي رأس المال على هذا الغطاء، وهو الأفضل، يقيم سلطته بشكل متين فلا يستطيع أي تغيير للأشخاص، أو المؤسسات أو الأحزاب، في الجمهورية الديمقراطية البرجوازية، أن يزعزع هذه السلطة[128].

ويعني هذا أن الانتخاب العام في الدولة البرجوازية، يعجز عن أن يعبر تماماً عن إرادة أغلبية العمال، وأن يضمن تحقيق هذه الأرادة. حتى لو أنه أصبح قادراً على ذلك فأن البرجوازية تسرع في القضاء على تأثيره، فتلغي، مثلا، التمثيل النسبي، وتأتي بالانتخاب القائم على الأكثرية أو القائم على"الولاء" وكل هذه أساليب للتزوير برع فيها دي جسبيري في ايطاليا وأيدناور في ألمانيا. إذ كل شيء حسن لمنع الانتخاب العام من التعبير عن إرادة الشعب.

يظهر، في أكثر الدول الرأسمالية ديمقراطية، التناقض باستمرار، بين الشرعية التي تعترف بها القوانين، والشرعية التي تلغيها الوقائع، بين الدساتير، التي تمنح الشعب الحريات الديمقراطية، وبين الفقر الذي يمنعه من استخدمها كاملة، بين الحرية الصورية والتبعية الفعلية[129].

---

[128] الدولة والثورة" ص 18.

[129] موريس توريز: كراسات البلشفية" أول تشرين أول سنة 1936. تصريح لصحافي في جريدة "الزمن" الكتاب الثالث، الجزء الثالث عشر، ص 101.

ولا يعني هذا قط، كما سنرى، أن على البروليتاريا أن لاتأبة لطالع الدولة البرجوازية الديمقراطي، كما أدعى زعماء الاشتراكية الديمقراطية الانتهازيون، صنائع الفاشية.

ب ـ البروليتاريا والحريات

يشتد اهتمام البرجوازية للقيام بحروب الاعتداء، في فترة أزمة الرأسمالية العامة، حين تزداد تناقضات الاستعمار عمقاً. يضاف إلى الاستعداد للحرب، بين الدول الرأسمالية، تهيئة الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، وضد البلاد التي قامت فيها سلطة الطبقة العاملة. ولا يمكن للرأسماليين ألا أن يريدوا الحرب، على أن لا تتعرض فيها الرأسمالية إلا لأقل الأخطار طبعاً، وذلك كوسيلة لإنقاذ الرأسمالية، وكحل للأزمة وتناقضات النظام الرأسمالي. ولكن إذا كان صحيحاً أن الاستعمار هو السبب الموضوعي للحروب، فأن القيام باعتداء يتطلب شروطاً ذاتية. ولهذا كان على البرجوازية أن تهيء جنود المستقبل للاعتداء، وأن تستميل، إلى جانب قضية الاستعمار، أغلبية الأمة. فكان من الضروري أن تسكت القسم الواعي، في الطبقة العاملة، التي تناضل من أجل السلم، وتقف في وجه الاستعمار، وتدافع عن بلد الاشتراكية. ولا يمكن لأية برجوازية، في تلك المرحلة، أن تندفع في الحرب بدون أن تضمن مؤخرتها، وأن تلجم طبقتها العاملة والشعوب المستمرة التي تضطهدها وتعتمد عليها كمعين لها. وما الفاشية ألا نتيجة لهذا الضرورة.

فهي، بالإضافة إلى ذلك توفر وسائل سياسة اقتصادية تقوم على محاولة أنقاذ الرأسمالية بالتعجيل في التجمع الرأسمالي، فتقع على كاهل البرجوازية المتوسطة نتائج الأزمة الاقتصادية وتمنعها بقسوة من استخدام أية وسيلة للتعبير السياسي ويغذي القضاء على البرجوازية المتوسطة دعاية اجتماعية غوغائية، إذ تدعى الفاشية، أمام الطبقة العاملة أنها ثورية تناهض الرأسمالية، ولكنها تقدم للطبقات المتوسطة التي هدمتها، تعويضاً، بواسطة الحرب، والتوسع الاستعماري و"المجال الحيوي"، كما تقدم الدعاية القومية الغوغائية.

ولهذا تدعي الفاشية، في جميعها لهاتين الدعايتين، أنها قومية اشتراكية، وما النزعة المناهضة للسامية سوى رحيق هاتين الدعايتين، لأنها تمزج الدعاية الغوغائية المناهضة للرأسمالية بالكراهية القومية والعنصرية.

تمثل الفاشية حكم الأولغارشية المالية غير المنازع. و "دكتاتورية أشد عناصرها رجعية وتعصباً واستعماراً، وهي دكتاتورية إرهابية واضحة". ولا يفرض هؤلاء أوامرهم على الطبقة العاملة فقط، بل على كل الاقتصاد الرأسمالي. والبرجوازية، حين تفتتح هذه الصورة للدولة أنما تسعى لتمديد أجل الرأسمالية في نزعها الأخير، وذلك بفضل تأثير الدولة على الاقتصاد. ويبدو هذا التأثير، بصورة أساسية في الحرب الوحشية التي تهدم قوى الإنتاج. الفاشية هي تهيئة الحرب، وهي الحرب ذاتها[130]. الفاشية هي تصفية الديمقراطية البرجوازية منذ فترة الاستعداد للحرب. والدولة الفاشية هي الحاجز "الذي لا يقهر" الذي تود البرجوازية أقامته في وجه قوى المجتمع الصاعدة، حتى تفرض عليها قبول الحرب، أمام أمرين لا بد منهما في آخر مراحل الرأسمالية: أما الانتقال إلى الاشتراكية أو معناة الحرب الاستعمارية الدورية.

ولقد قال موريس توريز: *طأن الفاشية هي الإرهاب الدامي ضد الطبقة العاملة، والقضاء على المنظمات العمالية، وحل النقابات الطبقية، ومنع الأحزاب الشيوعية، وتوقيف المناضلين العمال الثوريين، وتعذيب أفضل أبناء الطبقة العاملة واغتيالهم. الفاشية هي اندفاع الحيوانية، والعودة مظاهرات القرون الوسطى المعادية لليهود, والقضاء على كل ثقافة، وسيطرة الجهل والهمجية،هي الحرب الكريهة*[131].

والاستعانة بالفاشية دليل على أن البرجوازية تشعر أنها ستفقد الأكثرية بين الجماهير، وهي شرط لا تستطيع بدونه إعلان الحرب. ولهذا كانت الاستعانة بالفاشية دليلاً على ضعف البرجوازية، وأنها بدلا من تعتمد على رصيد مغتصب، أصبحت لا تملك سوى الإرهاب. غير أن انتصار الفاشية يعني أن البرجوازية قد توصلت إلى عزل

---

[130] أعلنت البرجوازية، منذ عام 1914، حل النشاط البرلماني العادي كي تكون حرة في أدارتها للحرب الاستعمار.

[131] موريس توريز "خطاب في المؤتمر السابع للعالمية الشيوعية"3 آب 1935. مؤلفات كتاب 2، ج 9، ص 121.

الطبقة العاملة، وأنها نجحت في مناورتها السياسية، وأنها نظمت إرهابها الطبقي، وأنها سوف تستطيع إعلان الحرب. وتأخير ساعة سقوطها سنوات طويلة.
للدولة الديمقراطية البرجوازية والدولة الفاشية نفس المحتوى الطبقي، غير أنهما ترتبطان بمراحل مختلفة من نمو تناقضات الرأسمالية ونضال الطبقات. ولهذا تحاول الفاشية، كي تستميل إليها الجماهير، أن تتقنع بقناع الثورة القومية الاجتماعية. فكان موسوليني يقول: "الاشتراكية البروليتارية أسطورة قديمة، والفاشية أسطورة جديدة" وإذا كانت البرجوازية تلجأ إلى الفاشية، فلأنها في ضعفها تجد في الفاشية أفضل وسيلة لإنقاذ نظامها. ولهذا كان لدور الدولة الفاشية أهمية رئيسية بالنسبة لها. وكما كان على الطبقة العاملة أن لا تمكنها من اصطناع هذه الأداة لاستعبادها ولهذا لا يمكن للطبقة العاملة أن لا تهتم بصورة الدولة البرجوازية. "ويحاول زعماء الاشتراكية الديمقراطية معتمدين على نزعة مادية ساذجة، أن يذيعو الفكرة القائلة بأن صورة سيطرة الطبقة لا تهم الطبقة العاملة ألا قليلا، لأنها "على كل حال" مسيطر عليها. غير أن الطبقة العاملة يهمها أن تنتهي من هذه السيطرة في أسرع وقت. ويحاول وزعماء الاشتراكية الديمقراطية بحججهم الواهية، أن يضعفو الطبقة العاملة، أمام الفاشية المعتدية، فهم يعملون لحساب البرجوازية.
كان موريس توريز هو الذي وقف، في فرنسا، في وجه التقليل من أهمية الصور التي ترتديها دكتاتورية البرجوازية فلقد أظهر، في الخطاب الذي ألقاه في المؤتمر السابع للعالمية الشيوعية، أهمية الديمقراطية البرجوازية، بالنسبة للطبقة العاملة، بالرغم من طابعها الضيق:
الديمقراطية البرجوازية هي أقل ما يمكن من الحريات التي لا تنفك البرجوازية الحاكمة من تضييقها، ولكن هذه الحريات تمكن، مع ذلك، الطبقة العاملة والفئات الكادحة من أن تعبيء نفسها وتنظمها ضد الرأسمالية[132].
ولعله من الخطأ الاعتقاد بأن النضال من أجل الديمقراطية يمكنه أ، يميل بالبروليتاريا عن رسالتها التاريخية. ولقد أشار لينين *إلى أن الجمهورية الديمقراطية بالرغم من*

---

[132] م. توريز: مؤلفات، الكتاب 2 الجزء 9 الصفحة 121

أنها لا تقضى قط على سيطرة الرأسمالي ولا على اضطهاد الجماهير ونضال الطبقات، فأنها تؤدي حتما إلى امتداد النضال واندفاعه ونموه وتازمه فتتضح عندئذ إمكانية تحقيق مصالح الطبقات المحرومة الأساسية، ولا بد من أن تتحقق هذه الإمكانية في دكتاتورية البروليتاريا حتما[133].

وهذا مثال رائع على الجدلية، يدل على حالة "تتحول فيها الكمية إلى كيفية" وقد تحققت تماماً وبصورة منهجية فأصبحت الديمقراطية بروليتارية بعد أن كانت برجوازية[134].

ولهذا كانت "الرسالة حول الوضع السياسي ومهمات الحزب الشيوعي الفرنسي" التي أقرها المؤتمر الثلث عشر للحزب تذكر في المسألة 15 تعاليم لينين:

لا يمكن للبروليتاريا أن تستعد لقهر البرجوازية، دون أن تقوم بالنضال في جميع الميادين، نضال ثوري من أجل الديمقراطية[135].

ويجب أن ننتبه، في أيامنا هذه، لجميع الصور التي ترتديها تصفية شرعية البرجوازية. ولما كانت البرجوازية مضطرة، بتأثير الجماهير، إلى الإبقاء على الصورة الديمقراطية فأنها تهتم بحرمانها من نتائجها. وهذا ما يسمى بصبغ الدولة بالفاشية.

هذا السهم موجه ضد الطبقة العاملة ولما كانت البرجوازية ترغب في أن تتجنب حكم الرأي العام فأنها تتآمر. حتى إذا حلت الانتخابات قامت بتنظيم محكم لكبح الطبقة العاملة. وتتعدد صور هذا الكبح التاريخية من مثل: فرض الضريبة، أو اعتماد انتخاب الدورتين، أو انتخاب اللائحة بالأكثرية أو انتخاب الفرد بالأكثرية، أو البالوتاج، أو التنازل، أو الانتخاب بالولاء، أو تعديل المناطق الانتخابية، أو تزوير اللوائح الانتخابية، أو زيادة مصطنعة للأصوات، أو تدخل المحافظ، أو منع الجرائد الديمقراطية، أو اتهام المرشحين، الخ...

---

[133] لينين: مؤلفات مختارة ج 2 ص 218

[134] لينين: مؤلفات مختارة ج 2، ص 194

[135] لينين: مؤلفات كاملة، الطبعة الروسية الرابعة ج 22، ص 132 - 134

ونحن لا نزال نذكر الحجج الواهية لتأجيل دعوة المجلس الوطني عام1954 حين طلب العمال المناضلون ذلك. وقد أصبحت دعوته واجبة دستوريا بعد طلب ثلثي نواب المجلس:

أ – قرر رئيس المجلس، منذ تقلى طلب الفريق الشيوعي، بأن هذا الطلب لا قيمة له أنه يجب التقدم بطلبات فردية.

ب _ قررت أغلبية مكتب المجلس، في 21 آب بعد أن وصلها 229 طلبا، الطلبات المرسلة باللاسلكي ملغاة (لم يكن المحافظون يعتبرون أوامر القمع المرسلة لاسلكيا من الوزارة ملغاة).

ج – وصل في 24 آب 211 طلباً فرفضت أغلبية المكتب اعتبار أربعة امضاءات مما جعل عدد الطلبات أقل من 209 وهو العدد المطلوب.

د – جمع في 5 أيلول 219 طلباً جديداً، فأكتشف المكتب عندئذ فجأة أن أعمال الترميم في المجلس تضطره إلى تأجيل دعوة المجلس شهراً، أي إلى صبيحة عودة المجلس العادية. وهناك أمثلة أخرى: منع الطلبة من التقدم لامتحان دخول مدرسة الإدارة الوطنية بسب ميولهم أو أصلهم الجزائري. بينما تقرر مقدمة الدستور قائلة: "لا يمكن لأي شخص أن يرزء في عمله أو خدمته بسبب أصله أو آرائه أو معتقداته"،

وهذا ما يدلل على فكرة "التسرب" المشهورة في الدولة البرجوازية، تلك الفكرة العزيزة على قلب القادة الاشتراكيين الذين يدعون بأن الطبقة العاملة يمكنها أن "تتسرب"إلى الدولة البرجوازية.

يضرب العمال مستخدمين حقا دستوريا لهم! فترسل الحكومة لهم في زمن السلم أوامر غير شرعية بمصادرتهم، بموجب قانون وضع لزمن الحرب، ولكن الشرع يختلف فيما يتعلق بمصادرة المساكن!

فإذا كانت القوانين تمس مصالح البرجوازية أمتنعت حكومة البرجوازية عن تطبيقها، كما أنها تقف إلى جانب أصحاب العمل الذين لا يطبقونها: وكذلك شأن الأجور والمعاشات وقانون المصلحة العامة، وقوانين التأمين الاجتماعي

تستخدم البرجوازية، في صبغها للدولة بالصبغة الفاشية جميع الوسائل فهي تنظم تزوير الانتخابات، كما تؤجل، لأجل غير محدود، المناقشات البرلمانية، وتحاول وضع جميع الموظفين تحت حماية محافظيها، وتقوم برشوة الشرطة، وتطالب بتعديل الدستور، بصورة رجعية، تحمى نشاط المغامرين، أنصار أعمال القمع العسكرية، وتفتتح نظام مراسيم القوانين.

وأخيراً تنتقل للتآمر ضد الطبقة العاملة ومنظماتها، فتحاول أن تعميق عملها الشرعي، معتمدة على "المبدأ" القائل بأن الضمانات الشرعية لا تطبق على الطبقة العاملة، وهي تلغي تأمين أشخاص المواطنين، وتقوم بالتوقيف الاحتياطي، بدون اتهام، وبدون ملف للقضية، كما تقوم بالتفتيش في غياب من يعنيهم الأمر، كما تسرق أوراق الأشخاص الموقوفين، وتخترع التهم أثناء التحقيق! وفي نفس الوقت تحيط منتخبي الطبقة العاملة بجو من التهديد برفع الحصانة النيابية، وتدعى جر المدنيين أمام المحاكم العسكرية، وتقوم بالتهويل على القضاء، وتحمي مرتكبي الاغتيالات ضد القضاء! كما كان باربوس يقول: "لقد سقطت من يديها وثيقة حقوق الإنسان منذ أمد طويل[136]".

نرى إذن أن نضال الطبقة العاملة، في مثل هذه الظروف، ضد الدولة البرجوازية، ومحاولاتها الفاشية، يتفق مع النضال من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية البرجوازية، تلك الحريات التي داستها البرجوازية بأقدامها، بينما تملك الطبقة العاملة القوة للعمل على احترامها إذا ماتحدت. مثال ذلك أنه كان يستحيل في 21 آب 1953، على مكتب المجلس أن يعارض في دعوة البرلمان لو أن القادة الاشتراكيين الديمقراطيين للنقابات المنشقة لم يوجهوا، قبل بضع ساعات ضربة قاضية للإضراب فأعلنوا استئناف العمل. حتى إذا ما اتحدت الطبقة العاملة أصبحت لديها القوة لتنمية نشاطها في جميع الميادين، بفضل الشرعية الديمقراطية البرجوازية.

للطبقة العاملة أسباب طبقية مبدأية للدفاع عن الحريات الديمقراطية البرجوازية، ضد الدولة البرجوازية. كحرية إنشاء النقابات التي فازت بها والتي لها أهميتها الرئيسية

---

[136] هـ. باربوس: أحاديث مناضل، ص 24.

في نضالها الاقتصادي، وحرية تنظيم نفسها في قوة سياسية مستقلة، تستطيع أن تستمر في سياسة تلائم رسالة البروليتاريا التاريخية.

المشكلة التي تشغل، اليوم، ملايين العمال الذين يعيشون في ظروف الرأسمالية، هي تحديد موقفهم من الصور التي ترتديها سيطرة البرجوازية في مختلف البلدان: نحن لسنا فوضويين، كما أننا لسنا غير مبالين بمشكلة معرفة نوعية النظام السياسي القائم في بلد ما. هل هي دكتاتورية برجوازية في صورة ديمقراطية برجوازية ولو كانت تتمتع بأضيق الحقوق والحريات الديمقراطية، أم هي الدكتاتورية البرجوازية في صورتها الفاشية المفضوحة؟ ولما كنا أنصار الديمقراطية السوفياتية[137] فأننا ندافع عن كل شبر من أرباحنا الديمقراطية التي انتزعتها الطبقة العاملة، خلال سنوات طويلة من النضال العنيد، كما أننا نناضل بعزم لتوسيع هذه الأرباح.

كم من تضحيات تجشمتها الطبقة العاملة في انجلترا قبل أن تنال حق الإضراب، والاعتراف بوجود النقابات شرعياً، وحرية الاجتماع، وحرية الصحافة، وتوسيع حق الانتخاب الخ.. كم من عشرات آلاف العمال بذلوا أرواحهم في المعارك الثورية التي نشبت، في فرنسا في القرن التاسع عشر، لينالوا الحقوق الأولية وإمكانية تنظيم قواهم للنضال ضد المستغلين! لقد بذلت البروليتاريا، في جميع البلدان، الكثير من الدماء لتفوز بالحريات الديمقراطية البرجوازية. ولهذا ندرك عزمها على النضال بكل قواها للمحافظة عليها[138].

لقد ضمنت البروليتاريا نموها السياسي بفوزها بالحريات الديمقراطية البرجوازية، مع أن البرجوازية قد تصورت هذه الحريات لاستعمالها الخاص.

كتب لينين يقول: *أحرزت الجمهورية الديمقراطية، كما أحرز الانتخاب العام تقدما ضخما بالنسبة للرق: فلقد مكنا البروليتاريا من الوصول إلى هذا الاتحاد، وهذا التكاتف اللذين تتمتع بهما الآن، وأن تكون صفوفها المنظمة التي تقوم بنضال منظم*

---

[137] أو أية صورة من صور الديمقراطية التي تقوم على انتصار البروليتاريا وانتقال غالبية الشعب الساحقة على طريق الاشتراكية.

[138] ديمتروف: "المؤتمر السابع للعالمية الشيوعية (13 آب 1935)" مؤلفات مختارة، ص 136 – 137، المطبوعات الاجتماعية" باريس 1952.

ضد رأس المال ولولا النزعة البرلمانية والانتخاب لاستحال نمو الطبقة العاملة بهذا الشكل[139]

لهذا كان قول الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين، بأن الماركسيين اللينينيين ينهجون سياسة الأسوأ، ويفضلون الفاشية على الجمهورية، غيبة ونميمة. لقد رأينا، عدة مرات الأهمية التي تعلقها الماركسية على دور الأفكار التي تتسرب إلى الجماهير، وتصبح قوة مادية، وتسمى عاملا فعالا في التغيرات السياسية الضرورية للتحول الاجتماعي، متى تحققت الظروف الموضوعية. ولكن هل يمكن إذاعة هذه الأفكار الماركسية بين الجماهيرإلا بواسطة الدعاية الصريحة لهذه الأفكار، تلك الدعاية التي تسمح بتعبئة الجماهير وتنظيمها من أجل العمل السياسي؟ أفضل الشروط إذن بالنسبة للبروليتاريين الثوريين هي، في المجتمع الرأسمالي، ظروف الجمهورية الديمقراطية، التي يستطيع بفضلها حزبهم أن يشرح صراحة للجماهير الفقيرة سياسته:

والماديون الساذجون، الذين يجعلون الجدلية، ولا يعرفون دور الأفكار وأهميتها. يمكنهم أن لا يعبأوا، مع الفوضويين بصورة الدولة البرجوازية.

كتب لينين يقول، معلقاً على ملاحظة لانجلز في نقده لمشروع البرنامج الاشتراكي الديمقراطي لعام 1891:

يكرر انجلز هنا، مع توضيحها، الفكرة الآساسية التي تضع خطأ أحمر على جميع مؤلفات ماركس، وهي أن الجمهورية الديمقراطية هي أقصر الطرق المؤدية إلى دكتاتورية البروليتاريا[140]*.* Dip not yok

يلاحظ ديمتروف، في تتمة النص المذكور آنفاً، أن موقف الطبقة العاملة من الديمقراطية البرجوازية تفرضه أسباب طبقية، وأن هذا الموقف يحدده موقف القوى المناهضة للثورة من الديمقراطية البرجوازية. وهو يلاحظ أن الثورة الفاشية المناوئة هي التي تهاجم، اليوم، الديمقراطية البرجوازية، محاولة إخضاع العمال لنظام الاستغلال والإرهاق البربري.وعلى الجماهير العاملة أن تختار، اليوم، في عدد من

---

[139] لينين: "حول الدولة" في "الدولة والثورة" ص 136

[140]

البلاد الرأسمالية، ليس بين دكتاتورية البروليتاريا والديمقراطية البرجوازية، بل بين الديمقراطية البرجوازية والفاشية[141].

ولقد أختصر موريس توريز تعاليم الجدلية الماركسية حول هذه المسألة في عام 1934 في المؤتمر القومي للحزب الشيوعي الفرنسي في الكلمات التالية:

يناضل الشيوعيون ضد جميع صور الدكتاتورية البرجوازية حتى ولو ارتدت هذه الدكتاتورية صورة الديمقراطية البرجوازية. غير أن الشيوعيين لن يهملوا قط[142]*الصورة التي يرتديها النظام السياسي للبرجوازية. فهم يكشفون القناع عن عملية انحطاط الديمقراطية البرجوازية الرجعي، ممهدة الطريق أمام الفاشية. لقد دافعوا، ويدافعون، وسوف يدافعون، عن جميع الحريات الديمقراطية التي فازت بها الجماهير نفسها، وأولاها جميع حقوق الطبقة العاملة.*

توجد الطبقة العاملة، في نضالها ضد الفاشية للدفاع عن الحريات الديمقراطية البرجوازية، أساساً للتحالف مع الطبقات المتوسطة وطبقة الفلاحين العاملين، تلك الطبقات التي ترتبط بالحريات الديمقراطية وتذهب ضحية دكتاتورية رأس المال الكبير. فهي تعمل على فصل هذه الطبقات عن البرجوازية الكبرى، وعزل البرجوازية، وحرمانها من انصارها بين البرجوازية الصغرى. يدعم النضال ضد الفاشية، إذن، قوة تحالف البروليتاريا، والفلاحين والطبقات المتوسطة، تلك القوة التي بدونها لا يمكن الخلاص من ذلك السد الذي تقيمه القوى الرجعية في وجه التقدم الاجتماعي.

ولا تنسى الطبقة العاملة، في نضالها من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية، أنها تناضل أيضاً من أجل حرية أسمى، هي حرية العمال، وقد تحرروا من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أن يمارسوا سلطة دولة من نوع جديد، فهي التعبير عن أرادة غالبية الأمة العظمى، وأن يجعلوا الدولة تقوم بتطبيق واع لقوانين الطبيعة والمجتمع لمصلحة المجتمع.

---

[141] ديمتروف: المرجع المذكور ص 137.
[142] توريز: مؤلفات، كتاب 2، ج 6 ص 170 - 171

تناضل الطبقة العاملة من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية والبرجوازية وتوسيعها. لهذا النضال، إذن، محتوى اجتماعي يختلف نوعياً عن نضال البرجوازية من أجل "الحرية".

ولا يمكن إيجاد علاقات إنتاج جديدة اشتراكية، تعمي انتقال الإنسان إلى الحرية الفعلية، ألا بازدهار الديمقراطية بأوسع معناها.

ندرك الآن الصلة بين المسألة السياسية لنضال طبقة العمال، من أجل الحرية الديمقراطية، وبين المسألة النظرية لتطبيق قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، كما ندرك الصلة بين آخر مؤلف نظري لستالين (مشاكل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفياتي) وبين هذا المقطع من خطابه، في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي:

كان للبرجوازية، في الماضي، أن تتظاهر بالنزعة المتحررة، فكانت تدافع عن الحريات الديمقراطية البرجوازية فتوجد هكذا شعبية لها. أما الآن فلم يبق أي أثر للنزعة المتحررة. ولم تعد توجد" الحريات الفردية" المزعومة، ولا يعترف اليوم بحقوق الفرد ألا لأولئك الذين يملكون رأس مال بينما سائر المواطنين يعتبرون مواد إنسانية خام صالحة فقط للاستغلال. لقد ديس بالأقدام مبدأ المساواة في الحقوق بين الناس والأمم، وحل محل المبدأ الذي يعطي كل الحقوق للأقلية المستغلة، وحرم غالبية المواطنين المستغلين من حقوقهم.

لقد القي براية الحريات الديمقراطية البرجوازية.وأعتقد أن عليكم، يا ممثلي الأحزاب الشيوعية والديمقراطية، أن ترفعوا هذه الراية وتحملوها وتتقدموا بها إلى الأمام، إذا أردتم أن تجمعوا حولكم غالبية الشعب. وليس أحد غيركم يستطيع رفع هذه الراية[143].

[143] ستالين: آخر مؤلفات، ص 187، 188. المطبوعات الاجتماعية باريس 1953.

الدرس الثالث والعشرون

الأمة (1)

1 – الأمة والطبقة الاجتماعية.

2 – النظرية العلمية للأمة.

أ) ما هي الأمة؟

ب) بعض أخطاء يجب تجنبها.

3 – البرجوازية والأمة.

أ) تكوين الأمم البرجوازية.

ب) البرجوازية على رأس الأمة.

ج) البرجوازية خائنة للأمة.

4 – الطبقة العاملة والأمة.

أ) النزعة العالمية البروليتارية.

ب) النزعة الوطنية البروليتارية.

1 – الأمة والطبقة الاجتماعية

ليس هناك من مشكلة تشغل الناس، في الوقت الحاضر أكثر من المشكلة القومية. ويمكن القول سواء كان ذلك بصدد نضال الشعب الفرنسي من أجل استقلاله، ووجوده، أم بصدد نضال شعوب الفيتنام المظفر، أم نضال شعب مراكش أم شعوب الشرق الأوسط، الخ، إن

المشكلة القومية ازدادت أهميتها مع الأيام. غير أنها مشكلة صعبة جداً، ولا يمكن التعرض لها وحلها إلا على أساس المادية التاريخية.

كان لينين يقول، وهو يتجول عام 1902 في شوارع لندن، تلك المدينة التي يرجع الفضل في قوتها إلى الرأسماليين "هنا تعيش أمتان" مشيراً إلى الفرق بين شوارع الأحياء البرجوازية الفخمة وبين الأزقة الضيقة البائسة التي تتكدس فيها الطبقة العاملة. وكانت البرجوازية تريد أن توهم الناس أن التاريخ قائم فقط على النضال بين الأمم، محاولة بذلك إخفاء اضطهادها الطبقي، وأن تقنع العمال أن مصالحها هي مصالح جميع الأمة. غير أن المادية التاريخية، باكتشافها أن التاريخ يحركه نضال الطبقات، قد دللت على أن انقسام الناس إلى طبقات متعارضة أشد عمقاً من انقسامهم إلى أمم , بواسطة نضال الطبقات، وبمحتوى الأمم الطبقي.

ولا يعني تفضيل الماركسيين للطبقة الاجتماعية قط أنهم لا يعبأون بالأمة. فالأمة *حقيقة* تاريخية ظهرت وتنمو على أساس طبقي. كما سنرى. وسوف تزول في المجتمع الخالي من الطبقات. غير أنها. خلال الفترة الطويلة التي توجد فيها، تقوم بدور كبير أهمية الحركات القومية في نظر الماركسيين ولهذا كانت النظرية القائلة بنفي حقيقة القومية مضادة للمادية ويقول بهذه النظرية أعداء الحركة العمالية، وأولهم زعماء الاشتراكية اليمينيون الذين يدعون العمال إلى التخلي عن السيادة القومية لحساب الاستعمار الأميركي، بينما يؤيد الماركسيون الحقيقيون، على العكس، وهم المخلصون للمادية التاريخية، بقوة، حركات التحرر القومي في الشعوب المضطهدة التابعة. ولكنهم لا ينظرون إلى المشكلة القومية في ذاتها: بل هم يربطونها بنضال البروليتاريا الثوري، وبمسألة تحرير البروليتاريا من النير الطبقي.

2 – النظرة العلمية للأمة

ا- *ما هي الأمة؟*

الأمة هي حقيقة موضوعية. ولقد دفع الهتلريون ثمن عقيدتهم، بأنه يمكنهم إزالة الأمم عن سطح الكرة غالياً وأدركوا أن هذه الحقيقة موجودة، وأنها تتمتع بقوة عظيمة للمقاومة.

فما هي صفاتها؟

1 – وحدة اللغة.

يتكلم أعضاء الأمة الواحد لغة واحدة، هي اللغة القومية ولهذا حاول الغزاة الفاتحون الذين أرادوا، عبر التاريخ، القضاء على قومية ما، أن يفرضوا عليها لغة الدولة المنتصرة. فالتمثل اللغوي، إذن، هو صورة من الاضطهاد القومي. وقد استعمل قياصرة روسيا القديمة هذا التمثل في الشعوب الصغيرة المستعمرة. وكذلك يفعل الاستعماريون الفرنسيون في إفريقيا الشمالية: غير أنه لا يمكننا فرض لغة على شعب ما: لأن اللغة الوحيدة التي يعترف بها هي لغته الأم.

حيث يرشف ويرشف الحروف

التي يتلألأ فيها الوطن ويخفق[144]

نضال الأمم المضطهدة من أجل استقلالها، هو، إذن، أيضاً نضال من أجل لغتها. ذلك هو شأن الشعوب الناطقة باللغة العربية التي استعمرها الاستعماريون الفرنسيون.

اللغة أداة قوية للثقافة القومية.. ولهذا شجعت الحرية التامة التي أعطيت لمختلف اللغات القومية, في الاتحاد السوفياتي، منذ عام 1917، التفتح الثقافي للشعوب التي اضطهدها الاستعمار أيام روسيا القيصرية.

اللغة هي ملك الأمة في مجموعها وليست ملك طبقة معينة. وإلا فكيف يستطيع التفاهم أعضاء الطبقات فيما بينهم؟ يحارب ستالين في كتابة الرائع: حول الماركسية في علم اللغة[145] النظرية المضادة للماركسية التي يقول بها الذين يعتمدون على تعدد الطبقات

---

[144] أراجون "جندي القرى المئة" في – ديانا الفرنسية.

[145] ستالين: "حول الماركسية في علم اللغة" في أخر مؤلفات.

فينتهون إلى تعدد اللغات في أمة معينة، لا شك أنه يمكن أن يوجد لهجات تستعملها فئات من الطبقة المحظوظة، تلك الفئات التي تريد، بأي ثمن، التميز عن غيرها: (وهكذا كانت الشبيبة الذهبية" أيام ردة الفعل الترميدورية، تتظاهر بأنها لا تتكلم كالشعب) غير أن بعض التعابير، والاستعمالات الغريبة لا تكفي لتكوين لغة. فاللغة هي ثمرة تاريخ شعب، فهي لا تتغير إلا ببطء شديد، ويظل تركيبها ذاته، خلال النظم الاجتماعية المختلفة، وإن كانت الفاظها تزداد غنى شيئاً فشيئاً (بفضل تقدم التقنيات خاصة). ويستعمل كل أعضاء الأمة، مهما كانت طبقتهم، نفس اللغة، وإن كانت كل طبقة تحاول استمال اللغة لصالحها. مثال: ضمنت البرجوازية، بإيجادها للمدرسة الإجبارية، في مطلع الجمهورية الثالثة، انتشاراً واسعاً للغة الفرنسية، لا سيما بين الفلاحين، وكانت تلك مصلحتها الطبقية، لأنه كان على دافع الضرائب أن يعرف قراءة أوراق الضرائب التي فرضتها الدولة البرجوازية، كما كان على الفلاح، إذا ما دعي لحمل السلاح، أن يفهم أوامر رئيسه. غير أن البروليتاريا، التي كانت تتكلم أيضاً اللغة الفرنسية، لغة جميع الأمة، عرفت كيف تستفيد من هذا الانتشار للغة، ليس فقط لأن دراسة اللغة الفرنسية قوت نضالها الطبقي الخاص، بل لأن انتشار اللغة الفرنسية سهل التحالف الثوري مع طبقة الفلاحين العاملة: فهذا الفلاح الفتى الذي كان يتعلم في الصف قراءة اللغة الفرنسية كان يستطيع أن يقرأ أمام العائلة والأصدقاء الجريدة الثورية المطبوعة في المدينة[146].

ولا تعني أهمية اللغة، كعنصر مكون للأمة في مجموعها، أن اللغة *تكفي* لتكوين الأمة: إذ يمكن لأمم *مختلفة* أن تتكلم *نفس* اللغة: وهكذا يتكلم الإنجليز والأميركيون الشماليون نفس اللغة، ومع ذلك يكونون أمتين مختلفتين وقد نمت هاتان الأمتان على أساس بلدين مختلفتين[147].

2 – وحدة الأرض

---

[146] راجع الصفحة الرائعة التي كتبها موريس توريز في "أبن الشعب" ص 23، 27، حول أهمية دراسة اللغة القومية في تكوين المناضل الثوري.

[147] أما سويسرا فهي تجمع، على أرض واحدة قوميات مختلفة، تتكلم كل منها لغتها الخاصة، ولقد أتاح نمو هذا البلد التاريخي، والتقاليد الديمقراطية القروية، وكما يقول ستالين في "الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية (ص 49. المطبوعات الاجتماعية، باريس 1950). "النزعة الديمقراطية العالمية"، كل هذا أتاح للقوميات التي تكون سويسرا أن تعيش بحرية جنبا إلى جنب.

إذا كانت الأمة وحدة لغوية فإنها أيضاً وحدة أرض،إذ أن كل أمة هي ثمرة التاريخ، فهي تستحيل بدون حياة طويلة مشتركة: ولهذا تعتبر الشعوب كل ضم لجزء من أرض الوطن اعتداء على الأمة.

ونلاحظ أن حرب كوريا لا يمكن تقديرها بصورة صحيحة إلا إذا أدركنا أهمية الأرض كعنصر من العناصر المكونة للأمة تكون كوريا الجنوبية وكوريا الشمالية دولتين، ولكنهما أمة واحدة. ولهذا كانت النظرية، التي دافعت عنها الدبلوماسية الروسية في الأمم المتحدة– داعية "إلى عدم التدخل لأن حرب كوريا قضية داخلية، وحرب أهلية" – عادلة. فقد كانت هذه الحرب داخل أمة واحدة. كما كان إرسال الجيوش الأميركية عملا عدائياً ضد الأمة الكورية في مجموعها.

ويمكننا أن نلاحظ أن وحدة الأرض تجعل مشكلة القومية مسألة حساسة جداً بالنسبة للفلاحين: ففي بعض الحالات تصبح مسألة الفلاحين في مقدمة المشكلة القومية، لأن الفلاحين قد حرموا أرض الأجداد (مثال ذلك الشعوب المستعمرة).

غير أن وحدة الأرض، مهما كانت أهميتها، لا تكتفي لتكوين الأمة. فلقد وجدت، في القرون الوسطى، الظروف الاقتصادية لتكوين ارض قومية، ولكنها كان ينقصها وحدة الحياة الاقتصادية التي ترتبط مختلف الأجزاء. إذ يجب، لتكوين الأمة، هذه الرابطة الاقتصادية الداخلية بين مختلف أجزاء ارض الوطن.

3 – وحدة الحياة الاقتصادية

الأمة سوق

كانت فرنسا الإقطاعية مجموعة من المقاطعات، لكل منها حياتها الاقتصادية الخاصة، وعملتها، ومقاييسها، وأوزانها تفصلها سلسلة من الجمارك التي تعميق التبادل بينما. ولم يكن ليتم توحيد الأمة الفرنسية عام 1789 إلا بإزالة هذه العوائق في وجه الوحدة (ولا سيما الجمارك الداخلية).

وكذلك هيأ توحيد ألمانيا الاقتصادي توحيدها السياسي ذلك لأن *السوق* يضمن التبادل بين المنتوجات القادمة من مختلف أنحاء أرض. وتزداد قوة الحياة الاقتصادية المشتركة (مع توحيد العملة) بنمو طرق الاتصال ووسائله.

تلك هي *الأسس* المادية التي بدونها لا يمكن وجود أية أمة. ولهذا جهد الهتلريون , عام 1940 , والبرجوازية الفرنسية الكبرى لاستعباد بلادنا، وتحطيم وحدة حياتها القومية: فقسموا أرض الوطن إلى منطقتين"، وتألبوا على صناعتنا القومية محاولين تحويل فرنسا إلى بلد زراعي فقط، تابع لألمانيا الصناعية.

ويسعى، اليوم، أصحاب مشروع شومان (للفحم والفولاذ) لتحقيق نفس الهدف: فهم يريدون تصفية الصناعة القومية الفرنسية، التي هي أساس استقلال بلادنا، وذلك لمصلحة الاستعمار الأميركي وكبار الصناعيين في الرور.

ولنلاحظ أن ازدهار الديمقراطية الشعبية القومية، كرومانيا، وبلغاريا، مشروط، على العكس، بتقدم صناعتها القومية الهائل.

ملاحظة:

لا يناقض النضال بين الطبقات، داخل أمة من الأمم، قط وحدة الحياة الاقتصادية، لأن وجود الطبقات يعتمد على واقع اقتصادي ممتاز هو الإنتاج.

فطالما وجدت الرأسمالية طالما ظلت البرجوازية والبروليتاريا مرتبطتين معاً بجميع روابط الحياة الاقتصادية، كجزئين مكونين لمجتمع رأسمالي واحد. فلا يستطيع البرجوازيون العيش والإثراء إذا لم يتوفر لهم العمال المأجورون ، كما لا يستطيع البروليتاريون العيش إذا لم يعملوا عند الرأسماليين . ويعني قطع الروابط الإقتصادية بينهما توقف كل إنتاج، وتوقف كل إنتاج يؤدي إلى موت المجتمع، وموت الطبقات نفسها. ولهذا ندرك أن ليس هناك من طبقة تريد الهلاك. ولا يمكن للنضال الطبقي، مهما اشتد، أن يؤدي إلى انحلال المجتمع[148]*.*

4 – وحدة التكوين النفسي والثقافي

تتيح لنا المادية الجدلية لأن ندرك أن وحدة الظروف الحالية الدائمة تؤدي إلى خواص نفسية مشتركة بين أعضاء أمة من الأمم.

[148] الماركسية والمسالة القومية والاستعمارية، ص 13. المطبوعات الاجتماعية.

فالأمة هي وحدة تكوين نفسي. فهناك خلق قومي يميز كل أمة عن الأمم الأخرى، وأصل هذا الاختلاف أن كل شعب يحيا، منذ أمد طويل، في ظروف خاصة, كما يجب أن نشير إلى أن وحدة اللغة تولد بالضرورة، مع مرور الزمن، خواص نفسية مشتركة.
ويجب أن لا نخلط بين الأمور *الفكرية* والأمور *النفسية* إذ أن الطبقات، التي تناضل فيما بينها، نظريات فكرية متعارضة، ولكنه يوجد مع ذلك، معالم خلقية خاصة بالفرنسيين، في مجموعهم. كحدة الذهن، مثلا، والميل للأفكار الواضحة. كما أن حب الحرية قوي بين الشعب الفرنسي ويفسر هذا بتقاليدهم الثورية القديمة.
تجد وحدة التكوين النفسي أسمى تعبير عنها في وحدة الثقافة. إذ لكل أمة تراث ثقافي يعكس صورتها. ولتوجد هذه الوحدة الثقافية رابطة قوية بين أعضاء الأمة.
تعترف الشعوب بقيمة التراث الثقافي كعنصر من عناصر الوحدة القومية. فانجلترا هي شكسبير، ونيوتن، وكبار الرسامين. وفرنسا هي فولتير، وباستور، والكاتدرائيات، وقصور اللوار. وألمانيا هي جوته، وسمفونيات بتهوفن. وروسيا هي بوشكين، وتولستوي، وبافلوف، وغوركي.
وتدافع كل أمة، في محافظتها على ثقافتها، عن وجودها المادي كأمة بصورة غير مباشرة. وهكذا يقف إشعاع باريس وروما الثقافي حجر عثرة في وجه "الحرب في أوروبا" التي يحلم بها زعماء واشنطن. لأنهم لا يعرفون ولا يحبون سوى الدولار، بينما يتفق ملايين الناس، من مختلف المعتقدات، في جميع أنحاء العالم لمنع حرب تقضي على روائع وما وباريس، ومن هنا ندرك كيف أن البرجوازية الكبرى الرجعية، في إيجادها لظروف مادية تناقض نمو الثقافة الفرنسية، تناضل موضوعياً، ضد وجود الأمة نفسها.
يجعلنا هذا نرى أنه لا يمكننا التكلم عن وحدة ثقافية مطلقة، خارج العلاقات الطبقية حتى إذا ما بلغ النضال الطبقي درجة عالية يضطر الطبقة المستغلة إلى التنكر للمصلحة القومية، نجد أن هذه الطبقة تخرج، عندئذ، وحدة الثقافة. ذلك هو الحال في فرنسا. فلقد خاصمت البرجوازية الرجعية أفضل تقاليد بلادنا الثقافية وتنكرت للمصالح القومية. رأينا ذلك بمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر القومي الكبير فكتور هوجو: فلقد سعت إلى حصر نطاق الاحتفالات بهذه الذكرى لأن أثار فكتور هوجو الصخمة الشعبية في خدمة الحرية

والأخاء والسلم، تظهر مخازيها. فلقد رأينا في باريس، عند ساحة فكتور هوجو، سيارة فورد تحل محل تمثال الشاعر. والطبقة الثورية، أي طبقة العمال، هي التي تحافظ على التراث الثقافي.

5 – وحدة مستقرة، تكونت تاريخياً

هذه العناصر المتعددة (وحدة اللغة، وحدة الأرض وحدة الحياة الاقتصادية، وحدة التكوين النفسي والثقافي) لم توجد دائماً. بل تكونت على مدى التاريخ. لأن الوحدة القومية هي *ثمرة تاريخية*. ولهذا كان أعوان هتلر بين سنتي 1940 – 1944 يشوهون تاريخ شعبنا لإضعاف وعيه القومي.فكانوا يدعون، مثلا، إلى كراهية ثورة 1789، التي لا يمكن فهم التاريخ القومي بدونها، كما أن ذكراها رابط قوي بين الفرنسيين.

وسوف نعود، في القسم الثالث من هذا الدرس , للحديث عن تكوين الأمة التاريخي.

يجب، مع ذلك، كي توجد الأمة، يجب أن تكون الوحدة، التي تكونت تاريخياً *مستقرة*. ولهذا لم تكن امبراطورية نابوليون الأول أمة، بل كانت مجموعة من الجماعات العابرة التي ترتبط فيها بينما برباط واه" (ستالين). وكانت هذه الإمبراطورية تمتد خارج حدود فرنسا فتشمل ألمانيا وايطاليا وإسبانيا، الخ... هذه الإمبراطورية التي قامت بالسيف زالت بالسيف. غير أن الكوارث الحربية التي قضت عليها لم تقضي على الأمة الفرنسية , ولم يكن بإمكانها أن تقضي عليها وكذلك شأن الأمة الألمانية، إذا أن انهيار هتلر لم يكن يعني نهاية هذه الأمة، كما أن مطالبها بالوحدة شرعية. نستطيع الآن أن ندرك تعريف ستالين المشهور للأمة:

الأمة وحدة مستقرة، تكونت تاريخياً، في اللغة، والأرض، والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي، تظهر في وحدة الثقافي[149].

ب – بعض أخطاء يجب تجنبها

(ا) – تتفاعل العناصر المكونة للأمة. وليس هناك من عنصر يكفي وحده، لتكوين الأمة، ولهذا فأن قصر الأمة على أحد جوانبها موقف ميتافيزيقي. كموقف ارنست رينان، مثلا

[149] الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية ص 15.

الذي كان يقول: "الأمة نفس[150]" فكان يجهل الأسس المادية التي بدونها تخلو الأمة الحياة الروحية. وهذا أيضاً موقف النظريين الاشتراكيين الديمقراطيين أوتوبور وسبرنجر الذي حاربه ستالين، فهما يدعيان بأن الأمة تنحصر في وحدة الثقافة. فينكران وحدة الأرض واللغة. ولو أن هذه النظرة المثالية سيطرة لأدت إلى إبعاد الناس عن النضال من أجل الأسس المادية لوجودهم.

(ب) – بعض العناصر في تحديد الأمة المادية: الجنس والدولة. ليس الجنس عنصراً مكونا للوحدة القومية.

الجنس هو جماعة مهمة من الناس لهم أخلاق جسدية مشتركة متوارثة (كلون الجلد والعينين وشكل الوجه) فهو إذن عنصر بيولوجي غير أنه ليس هناك من عنصر بيولوجي يستطيع القيام بدور فعال في تطور المجتمعات لا يمكن فهمه إلا بالوقائع الاجتماعية (كالإنتاج ونضال الطبقات، الخ...) ولهذا نرى أن شعوباً مختلفة بيولوجيا (الروس والصينيون) لهم نمو تاريخي مماثل منذ المجتمع البدائي حتى الرأسمالية والاشتراكية.

يكون اليهود جماعة *جنسية*، ولكنهم مع ذلك ليسوا أمة. إذ يعيش اليهود الفرنسيون، واليهود الألمان، واليهود الأميركان، الخ... فوق أراض مختلفة، ويتكلمون لغات مختلفة، ويشاركون في وحدات اقتصادية وثقافية مختلفة فهم إذن أعضاء في أمم مختلفة. أما دولة إسرائيل، فهي ليست "دولة يهودية" لأنها تضم عدداً كبيراً من العرب.

الأمة الفرنسية مزيج من أجناس متعددة، وقد مثل هذا المزيج عيد "الاتحاد" في14 تموز سنة 1790، فقد اعترفت العناصر الجنسية المختلفة (النورمان، الباسك، التريتون، البرفنسيون) بأنها أعضاء من وحدة قومية هي ثمرة للتاريخ. ولقد قام الإقطاعيون" أعداء الأمة، بالحديث عن الدم ضد الوطن، للمحافظة على امتيازاتهم. ولم يكن لهذه الامتيازات ما يبررها سوى الوراثة. ويمكن القول أن ثورة 1789، في فرنسا، كانت انتصاراً للحقيقة القومية على المبدأ العنصري.

العنصرية هي عدوة الأمم. ولقد دلل على ذلك الهتلريون، الذين كانوا يدعون أنهم شعب مختار" ويدوسون بأرجلهم استقلال الشعوب، بصورة دموية. وسار على غرارهم

---

[150] رينان: "ما هي الأمة؟" خطب ومحاضرات.

الأميركيون في كوريا. وتنمي البرجوازية الكبرى الاستعمارية، في البلاد الرأسمالية، الأفكار العنصرية، محاولة تبرير سياستها العدائية، ولكي تؤلب الشعوب كل منها ضد الآخر. وهذا هو شأن الدعايات الاستعمارية: فهي تريد أن توهم العمال الفرنسية، كي تبرر استغلال الشعوب المضطهدة، أن الإفريقيين الشماليين وسكان مدغشقر والفيتناميين، الخ... هم من أقل الأجناس. غير أن العمال الفرنسيين يلاحظون أن أولئك الذي يأبون على المراكشيين أو الجزائريين والفيتناميين استقلالهم هم أنفسهم الذين يضحون باستقلال الأمة الفرنسية من أجل الأميركان الاستعماريين.

وليست الدولة عنصراً مكوناً للأمة، فقد قلنا سابقاً أن إمبراطورية نابوليون (أي دولة نابوليون في الواقع) كانت مجموعة غير مستقرة، عابرة – كما أن وحد الدولة المستقرة لا تكون الحقيقة القومية، فقد كانت دولة القياصرة قوية مستقرة خلال قرون عدة، ولكن الأمم التي كانت تحكمها كانت متعددة، وكانت أكثر استقراراً منها، لأن الدولة القيصرية قد زالت، بينما ظلت هذه الأمم، داخل دولة جديدة، متعددة القوميات، وهي الدولة السوفياتية. يمكن إذن أن توجد دولة مكونة من عدة أمم.

كما يمكن أن توجد دولتان لأمة واحدة: فقد وجد في فرنسا، عام 1871، وجها لوجه، سلطتان للدولة: الكومون، وهي سلطة العمال، ومجلس فرساي، وهو سلطة البرجوازية (ليرجع القاريء إلى الدرس الثاني والعشرين، بصدد محتوى الدولة الطبقي). تدافع الدولة، في مجتمع منقسم إلى طبقات متعارضة، عن مصالح الطبقة السائدة، وأن ادعت أنها تتكلم باسم "المصلحة العامة".

أن إدخال الدولة في تحديد الأمة، يعني حرمان الأمة المضطهدة (أي التي تفتقر إلى دولة مستقلة) من لقب الأمة. (ويفضي بنا هذا إلى تبرير الاضطهاد الذي تذهب ضحيته البلدان التابعة والمستمرة). كما أن إدخال الدولة في تعريف الأمة يعني رفض لقب الأمة لمختلف الأمم التي تكون الاتحاد السوفياتي: فقد أقامت هذه الأمم لنفسها دولة مشتركة دون أن تسيء بشيء إلى أصالتها القومية:

من المهم جداً إذن أن لا نخلط بين الدولة والأمة. فإيجاد "وحدة سياسية أوروبية" لن يستطيع توليد "أمة أوروبية"!

وإذا كانت الدولة ليست عنصراً مكوناً للأمة، فانها مساعد قوى على نمو الأمة، ولهذا تطالب الأمة التي يضطهدها المستعمرون بدولة قومية ضد الدولة الاستعمارية الأجنبية.

3 – البرجوازية والأمة

تتخذ المسألة القومية عدة أوجه حسب الطبقات التي تثيرها والوقت الذي تثيرها فيه. فيجب، كي تفهم هذه الأوجه المتعددة، أن تدرس الأمة كحقيقة تاريخية.

ا – *تكوين الأمم البرجوازية*

لم تهبط عناصر الأمة – وهي اللغة، الأرض، ووحدة الثقافة – من السماء، بل تكونت شيئاً فشيئاً منذ العصر السابق على الرأسمالية. وقد وجدت هذه العناصر بصورة بدائية، وكانت تكون في أفضل الأحوال، عوامل فعالة كاملة لتكوين الأمة المستقلة، مع توفر بعض الظروف الملائمة. لم تتحول هذه القوة الكامنة إلى حقيقة إلا في عصر الرأسمالية الصاعدة، بأسواقها القومية، ومراكزها الاقتصادية والثقافية[151].

قامت السوق إذن بدور فعال في نشوء الأمة، وهكذا نجد عند أصل الأمة نمو طريقة الإنتاج الرأسمالية، ووفرة المنتجات المعدة للتبادل، وازديادها، فكان لا بد من توفير الظروف الملائمة للتبادل المستمر، أي كان لابد من إيجاد السوق. كان يهم البرجوازية التاجرة تكوين الوحدة القومية. وهكذا ندرك الرابطة الموضوعية بين الطبقة والأمة. كتب لينين يقول:

لم يكن إيجاد هذه الروابط القومية سوى إيجاد الروابط البرجوازية[152].

نسمي أمماً برجوازية الأمم التي ولدت في عصر الرأسمالي الصاعدة، ونميزها عن *الأمم الاشتراكية* التي سوف نتحدث عنها في الدرس الرابع والعشرين.

ترفض المادية التاريخية القول بنظرية علماء الاجتماع البرجوازيين الذين يصورون الروابط القومية على أنها استمرار لعلاقات القبيلة وتعميم لها. إذ ليست القبيلة سوى

---

[151] ستالين: الماركسية والمسالة القومية والاستعمارية ص 321.

[152] لينين: من هم "أصدقاء الشعب" مؤلفات مختارة، ج1، ص 106، مطبوعات باللغات الأجنبية، موسكو 1946.

مجموعة عائلات، وهي تتعلق بمستوى منخفض جداً لقوى الإنتاج. غير أنه وجب ازدياد هائل للإنتاج، لخلق سوق قومي، وقد تطلب ذلك نمواً متزايداً منظماُ للتبادل المناطق المنعزلة بعضها عن الآخر، والتي كانت تستهلك إنتاجها الضعيف لوحدها. ولا يمكن أن يكون هذا السوق إلا من عمل طبقة تعيش من التبادل، وهي البرجوازية التاجرة، تلك الطبقة الجديدة التي ظهرت داخل النظام الإقطاعي القديم.

ولقد دلل كل من كارل ماركس وفردريك انجلز، في القسم الأول من بيان الحزب الشيوعي , كيف أن نمو الإنتاج التجاري (الإنتاج المخصص للسوق) وعلاقات الإنتاج الجديدة داخل المجتمع الإقطاعي القديم، هما أصل الأمم. تجمعت في أمة واحدة مقاطعات مستقلة، متحالفة فيما بينها، *لها مصالح وقوانين وحكومات، وتعريفات جمركية مختلفة، فأصبحت لها مصلحة قومية طبقية واحدة كما أصبحت لها جمارك واحدة*[153].

ب – البرجوازية على رأس الأمة

أن تكون الأساس الاقتصادي للأمم البرجوازية هو، في الأساس، عملية تلقائية، غير أن تكون هذه الأمم نفسها ليس تلقائياً. ذلك لأن الطبقة الصاعدة، وهي البرجوازية، هي التي قادت، عن معرفة وعلم، تكون الوحدة القومية، ولم تكن جماهير الفلاحين الواسعة، التي لم تتضامن مع طريقة الإنتاج الجديدةـــ تستطيع أن تقوم بدور الرائدة، غير أنها، لما كانت مرتبطة بالأرض، عصب الأمة، فقد ساندت البرجوازية لماذا؟ لأن تكون الوحدة القومية لمصلحة البرجوازية كان يضعف الطبقة الإقطاعية التي كانت تستغل الفلاحين.

قامت البرجوازية، التي تنظمت طليعتها في أحزاب سياسية، بنضال طبقي ضد الإقطاعيين، الذين كانوا يدعون للتجزئة، وكان هذا النضال يهدف إلى قلب الحواجز الجمركية الداخلية في البلاد وإقامة التبادل الحر بين مختلف مناطق البلاد، وتوحيد أرض الوطن وتوسيعها. ولقد وضعت أحزاب البرجوازية كما وضع فلاسفتها، من أجل ذلك، نظرية فكرية تطالب "بوحدة الأمة فوق الملك" مستبدين "بحب الوطن". ولهذا قامت الثورة البرجوازية في فرنسا، ضد علاقات الإنتاج الإقطاعية، وعلا الهتاف "تحيا الأمة". ولما

---

[153] كارل ماركس وفردريك انجلز: بيان الحزب الشيوعي، القسم الأول. ص 32. المطبوعات الاجتماعية، باريس 1904.

كان النظام الإقطاعي قد أصبح لا يطاق بالنسبة لغالبية الشعب العظمى – من فلاحين، وصغار البرجوازيين والصناع اليدويين، والمثقفين، الخ... – فقد عزلت الإقطاعية وهزمتها، بعد أن عبأت جميع قواها، وأشرفت على توجيهها، فاستطاعت، بعد ذلك، أن توسع بدون عائق، صور الملكية البرجوازية (فتشمل الأرض مثلا) كما بعثت في الاقتصاد البرجوازي انتفاضة كبرى (الإنتاج والتجارة).

كانت البرجوازية الفرنسية تجسد، في هذا العصر، ضد الإقطاعيين الرجعيين، مصالح أغلبية الأمة. ولهذا كانت البرجوازية مخلصة للوطن أمام خيانة الإقطاعيين الذي أعلنوا الحرب على الأمة، آملين باسترجاع سيطرتهم المفقودة (مثال ذلك مهاجرو كوبلانس، والمؤامرة التي حاكها ضد الشعب الفرنسي لويس السادس عشر وماري أنطوانيت بالتحالف مع كبار إقطاعيي أوروبا). ولهذا ندرك أن نشيد الماركسيين (ولد سنة 1793) بمجموعه هو *نشيد الثورة* (ضد الإقطاعيين في الداخل) كما هو نشيد الاستقلال القومي (ضد استعباد الإقطاعيين البروسيين والنمساويين). كما ندرك أيضاً إعلان البرجوازية الثورية لحق الأمم في أن، تستقل بأمورها. وكان هذا دعوة إلى جميع البرجوازيين، في مختلف البلدان، في تحطيم نير الإقطاع في كل مكان.

غير أنه يجب أن لا ننسى – وهذا هو الشيء الأساسي – أن نضال البرجوازية القومي كان له دائماً أسباب طبقية. بيد أن، الطبقة البرجوازية هي بالضرورة طبقة مستغلة. ينتج عن ذلك أنه إذا كانت البرجوازية الثورية قد استطاعت أن تجسد مجموع مصالح الأمة فإن وطنية البرجوازية لا يمكن أن تكون إلا جانباً موقتاً من نضالها. إذ أن الجانب الرئيسي الدائم لنضال البرجوازية القومي هي *النزعة القومية*.

وقد أخذت تزداد أهمية هذا الجانب كلما عظمت، في وجه البرجوازية المستغلة، الطبقة المستغلة , ألا وهي البروليتاريا. *النزعة القومية البرجوازية* تتفق ومصالح الطبقة البرجوازية، إذ أن هذه النزعة لا تهتم بالفروق الطبقية داخل الأمة، وهي تدعو "للاتحاد المقدس" أي ربط مصالح جميع الطبقات بمصالح الطبقة المسيطرة وهي البرجوازية.تهدف إذن إلى فصل البروليتاريا عن نضالها الثوري ضد البرجوازية، ولهذا لا تستطيع البروليتاريا أن تتحرر من الاضطهاد الطبقي إذا لم تحارب النزعة القومية،

وإذا تركت الأفكار القومية تنخر صفوفها. لأن البرجوازية، كي تخلد سيطرتها، تفرض على جميع الأمة أفكارها. وعندما يجب القول: "المصلحة البرجوازية" تقول: "المصلحة القومية". ولكن التحليل المادي يكشف عن الحقيقة وراء المظهر.

ج – البرجوازية خائنة للأمة

يؤدي نمو نضال البروليتاريا الطبقي، داخل الأمة بالبرجوازية إلى تحقيق جبهة واحدة مع البرجوازية الأجنبية، ضد البروليتاريا، وهو تحالف جديد مقدس يذكرنا بالتحالف الذي عقدته سابقاً الدول الإقطاعية ضد الثورة البرجوازية.

نجد مثالا نموذجياً على ذلك في سنة 1871 عند البرجوازية الفرنسية. فقد قضت على كومون باريس بالتحالف مع بسمارك، ولكن *النزعة القومية* البرجوازية تظهر بمظهرها الحقيقي في مرحلة الرأسمالية النهائية، المرحلة الاستعمارية.

بضاعة الأمم البرجوازية الحديثة، فيما يتعلق بالأفكار الاجتماعية السياسية، هي السلم الطبقي، داخل الأمة، باسم "الاتحاد القومي"، وتوسيع أرض قوميتها بواسطة غزو أراضي الأمم الأجنبية، الشك والكراهية نحو الأمم الأخرى، القضاء على الأقليات القومية، وتأليف جبهة موحدة مع الاستعمار.

وتستخدم البرجوازية قوة فكرة الوحدة القومية على التعبئة للقيام بحروب السلب والنهب. وهذا ما حدث عام 1914، مثلا، للبرجوازية الفرنسية والبرجوازية الألمانية، ومن هنا نشأ قول اناتول فونس المشهور: "يعتقد الجندي أنه يموت من أجل الوطن بينما هو يموت من أجل الصناعيين" تستعين البرجوازية الاستعمارية بكل شيء لإثارة عواطف الكره نحو العمال الأجانب والمستعمرين في قلب البروليتاريا التي تستغلها. وهي تحاول بذلك أن تعيق تجمع البروليتاريا كطبقة واحد".

كلما اشتد الاستعمار كلما ازداد البون بين مصلحة برجوازية الاحتكار الكبرى، وبين فئات الشعب، ذلك لأن الاستعمار هو إعلان الحرب على الشعوب.

بعد أن كانت الرأسمالية، في نضالها ضد الإقطاعية، محررة للشعوب، أصبحت الرأسمالية الاستعمارية أكبر مضطهدة للشعوب. وتحولت الرأسمالية من رأسمالية تقدمية إلى

رأسمالية رجعية، فقد نمت قوى الإنتاج بشكل لم يبق معه، أمام الإنسانية إلا أن تنتقل إلى الاشتراكية أو أن تقوم، خلال سنوات أو عشرات السنوات، بتجربة نضال "الدولة الكبرى" المسلح للمحافظة على الرأسمالية، بصورة اصطناعية، بواسطة المستعمرات والاحتكارات والإميتازات واضطهاد القوميات في جميع أشكاله[154].

بلغت أزمة، الرأسمالية العامة، التي بدأت عام 1917 بظهور أول دولة اشتراكية، بمناهضة البرجوازية الاستعمارية للقومية، الذروة، إذ أن دفاعها اليائس عن مصالحها الطبقية أدى بها إلى *خيانة* مصالح الأمة *بصورة مفضوحة مستمرة*.

ترزح البرجوازية الفرنسية الكبرى تحت عبء ملف مفعم بالاتهام، فهي بعد أن ساعدت بنشاط، في ألمانيا، على القضاء على القوى الشعبية ونهضة النزعة الحربية من كبوتها" فإنها، في فرنسا، تعارض نضال العمال من أجل الخبز، والحرية، والسلم بشعارها المخزي: "هتلر ولا الجبهة الشعبية!". كما أنها تقوم بتمثيل دور الوطنية وتعمل على خداع الطبقات بدعاية "قومية" ("فرنسا للفرنسيين") وهي تسلم ألمانيا الهتلرية الحديد الفرنسي، والألمنيوم الذي تحرم منه طيراننا. وقد تأكد، في مونيخ عام 1938، تحالفها مع النازيين، ضد الشعب الفرنسي والبلاد الاشتراكي، حليف فرنسا. وبينما تزج في السجون، بمعاونه الزعماء الاشتراكيين بلوم، سورال، الخ... المناضلين الشيوعيين، الذين فضحوا الخيانة الطبقية، سلمت فرنسا إلى الطيران الألماني. وحل رعب الاحتلال وخزي النظام فيشي الفاشي. وقد قضى هذا النظام، الموالي للرأسماليين الألمان والشركات الفرنسية، على الاقتصاد الفرنسي وسخره لخدمة الحرب الهتلرية، وأجبر العمال على العمل، وأعدم المواطنين بالرصاص وجوع السكان.

حتى إذا ما أقبل التحرير، وانتصر الشعب، عملت نفس البرجوازية الكبرى على تخريب نهضة البلاد. ولما كان هتلر قد اندحر، فقد وضعت نفسها في خدمة الحماة الجدد وهم الاقتصاديون الأميركان ووقفت ضد العمال الفرنسيين يحاول الاستعمار الأميركي، طبقاً لقانون الرأسمالية المعاصرة الأساسي، أن يضمن لنفسه أقصى الأرباح بنهب البلاد المقيدة

---

[154] لينين: مؤلفات "بالروسية" ج 21، ص 273 ذكره ج. كونيو حقيقة الأمة. ص 46، المطبوعات الاجتماعية باريس 1950.

بمشروع مارشال وبواسطة حرب الغزو الاعتداء. وتمد البرجوازية الكبرى "الفرنسية" يد العون لنجاح هذه السياسة.

أما نتائج ذلك، بالنسبة للأمة الفرنسية، فهي خطيرة، وإذا كنا نعرض للعناصر المكونة للحقيقة القومية واحداً واحداً فلكي نلاحظ أن البرجوازية تسعى للقضاء عليها.

الأرض؟ وأصبحت بين يدي الجيش الأميركي، وقد أقيمت مناطق حرة للمحتل. وسلبت ملكية الأرض من الفلاحين، وتتطلب الستراتيجية الأطلنطية تهديم فرنسا في حالة الحرب (فرنسا " ابن العم الذري").

الاقتصاد؟ خرب الاقتصاد القومي لمصلحة صناعات الحرب، وحل الفقر المنظم بالزراعة الفرنسية (مليون مزرعة عائلية مهددة بالزوال)، وذهب السوق الفرنسي ضحية مصالح الشركات الأميركية (مشروع مارشال) والألمانية (مشروع شومان) وأغلق عدد من آبار المناجم في الشمال والوسط، كما تسير أعادة البناء ببطء فاضح، الخ... ولا ننس ما أصاب البحث العلمي والأعداد المهني.

اللغة؟ ظهرت مشاريع ازدواجية اللغة الأميركية والفرنسية، لسد حاجات المحتل الأميركي، واختصار اللغة الفرنسية Besic-Franch ولقد لاحظ السيد الفريد سوفي بحسرة في جريدة الموند (5 آب سنة 1953) قائلاً:

من المؤلم أن نسمع من يقول بأننا لا ندافع بصورة صحيحة من تراثنا وأنا مستعدون للتخلي عنه.

إذ أن كل شيء منظم بشكل يجعل الأجانب المقيمين في فرنسا لا يتعلمون اللغة الفرنسية.

والدليل على ذلك أنه لم تعد تذكر الولايات المتحدة، ولا مختصر إسمها بالفرنسية E , U بل يذكر المختصر باللغة الإنجليزية U , S , A سوف تقول أن هذا شيء بسيط. غير أن الاستعاضة بالمختصر الإنجليزي بدلا من المختصر الفرنسي أليس نتيجة لإغراء الدائن للمدين، والوالي للمولى؟

ويشعر السيد سوفي بالخوف أمام "اتساع" هذا التسرب الواسع. ثم يضيف، بعد ذكر عدد من الأمثلة" قائلاً:

لا تؤدي هذه الأمثلة من الضعف[155] *إلى إفساد اللغة الفرنسية، بل تساعد بقوة على زوالها لأن التبعية اللغوية تؤدي إلى التبعية الثقافية.*

الثقافة؟ تخريب الجامعة بصورة منتظمة، والمدرسة العمومية. والسينما الفرنسية، الخ..، والتخلي عن قصر فرساي. واحتقار التقاليد الإنسانية الكبرى التي تغنت بفصائل البرجوازية الصاعدة. وكذلك انتشرت أسوأ المجلات القادمة من أميركا أو المستوحاة منها، وعم التمجيد "لطريقة الحياة الأميركية" الخ.. وكانت البرجوازية، إلى جانب ذلك، تغذي حملة تهدف إلى إقناع الفرنسيين بأن بلادهم قد ولت، وأن عهد التاريخ القومي قد انقضى، وأنه قد ذهب الأمل بوجود فرنسا مستقلة:يتم هذا الانتقاص من الحقيقة القومية تبعية الدولة الفرنسية لمطالب ضروب الاستعمار الأجنبية.

فكيف تبرر البرجوازية، في نظر الجماهير، مثل هذه السياسة المناقضة للمصلحة العامة؟ رأينا في مناسبات عدة، كيف أن الطبقة الرجعية تضطر، كي تمد في أجل حكمها، لأن تقيم من الكذب عقيدة لها ومذهباً. وهذا هو الحال هنا: فلكي تبرر استعباد الشعوب، تنشر البرجوازية الكبرى العالمية نظرية فكرية خاصة هي النزعة العالمية (Cosmopolisme)

وتتكون هذه الكلمة من كلمتين يونانيتين تعنيان: "مواطن العالم". في الوقت الذي كانت البرجوازية فيه – ولا سيما في القرن الثامن عشر – تدافع ضد الإقطاعيين، عن حقوق المستقبل الإنساني، وقد حمل بفخر لقب "مواطن العالم" بعض المفكرين. وكان هذا يعبر عن رغبة في تحطيم الأسس الواهية لمجتمع قديم وإيجاد علاقات اجتماعية جديدة في كل مكان. بهذا المعنى يتحدث جان جاك روسو، في نص يرجع لعام 1755، *عن هذه النفوس الكبيرة العالمية التي تخطت الحواجز الخيالية التي تفصل الشعوب والتي... تشمل النوع البشري كافة برعايتها*[156]..

حتى إذا مازالت علاقات الإنتاج الإقطاعية، عادت البرجوازية إلى موضوعات النزعة العالمية، وليس ذلك لخدمة الآمال الكريمة بل لحساب مصالحها الطبقية المستغلة. وقد

---

[155] نحن في الحقيقة بصدد مشروع مخطط أكثر منا أمام "ضعف (ج. ب، م. ك).

[156] ذكره ب. هازار: الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، ج1، ص 339، مطبوعات بوافين. باريس.

فضح كل من ماركس وانجلز، منذ عام 1845، ذلك، وفسرا كيف أن النزعة العالمية أنما تنبع من المضاربة بين البرجوازية في مختلف البلاد وأنها لا تهدف لتفتح جميع الناس بل لاستغلال العمال العالمي، ولهذا كتب ماركس يقول:

أن تسمية الاستغلال في صورته العالمية باسم الإخوة الشاملة فكرة لا يمكن أن تولد إلا في قلب البرجوازية[157].

ومع ذلك فقد اتسع نضال البروليتاريا الثوري منذ ذلك العهد بشكل هائل وأدرك العمال، شيئاً فشيئاً، بفضل انتشار الاشتراكية العلمية، بأن مصالحهم، في مختلف البلدان متحدة ضد عدو طبقي مشترك. ولما كانت البرجوازية الاستعمارية لا تستطيع القضاء على هذه المعتقدات، فأنها لا يمكنها إلا أن تحاول الإنتقاص منها، وهذه هي مهمة الأفكار العالمية: إقناع العمال أن حكم الاحتكارات العالمية سيحقق آمالهم العالمية! وهكذا تستعير نزعة الشركات العالمية وجه النزعة العالمية البروليتاريا كآخر كذبة تدعيها.

ما هو الطابع الرئيسي، في الظروف الحاضرة، لهذه الأفكار العالمية التي هي تشويه للنزعة العالمية البروليتاريا؟ التأكيد الكاذب بأن سبب الحروب الحديثة هو وجود الأمم. ثم تخلص إلى القول بأنه يجب القضاء بسرعة على الأمم وتحطيم سيادتها، لأن هذه السيادة "رجعية" "بالية". وهكذا يأملون في إقناع العمال بأنهم، إذا أرادوا السلم، فيجب عليهم القضاء بأيديهم، على حقيقة الأمة والتنكر لأوطانهم.

غير أن التحليل المادي للمجتمع المعاصر[158]يدل على أن سبب الحروب العالمية ليس وجود الأمم، بل وجود طبقة، البرجوازية الاستعمارية، التي لا تستنكف، في سبيل إنقاذ حكمها المهدد، عن استبعاد الأمم والقضاء على الشعوب.

وهكذا تبدو النزعة العالمية في وضح النهار: فهي بدلا من أن تسعى لتحرير الناس في جميع البلدان، تهدف – في ادعائها جعل كل عامل "مواطنا للعالم" – إلى استغلال تلك الأشباح الإنسانية التائهة المجهولة[159] على نطاق "عالمي" بشكل وحشي معيب.

---

[157] ماركس خطاب حول مسألة التبادل الحر "1848"، ذكره جورج كونيو: حقيقة الأمة ص88.

[158] راجع لينين: الاستعمار أسمى مراحل الرأسمالية.

[159] جورج كونيو: حقيقة الأمة، ص 88 – 89.

ندرك المغزى التاريخي للمحاولات الحالية لإيجاد "أوروبا موحدة" إذا اعتمدنا على هذه المعطيات المبدأية، فهي تسعى لتوطيد استغلال مختلف شعوب أوروبا الرأسمالية، برعاية الرأسماليين الأميركان، وأول هذه الشعوب شعبنا.

وسوف يكون من نتيجة توحيد السوق الأوروبي، على أنه الخطوة الأول نحو اقتصاد اشتراكي، تخفيض مستوى معيشة الفرنسيين. كما سيكون من نتيجة إزالة السيادة القومية، على أنها تقدم للديمقراطية، وضع فرنسا تحت رحمة الطيران الألماني، الذي أعيد بناؤه تحت شعار "أوروبي إذ أن إعادة تسليح النازيين سيجعل منهم أدوات طيعة للإضطهاد المناهض للعمال.

ولقد كتب لينين منذ عام 1915 أن *الولايات المتحدة الأوروبية، في النظام الرأسمالي، أما مستحيلة وأما رجعية*[160]

لما كانت النزعة العالمية تزويراً للنزعة العالمية البروليتارية فهي، إذن، في خدمة الرأسمال العالمي. ولهذا كانت، اليوم، نظرية زعماء الاشتراكية الديمقراطية الفكرية، الذين يأخذون على عاتقهم، أمثال جي موليه،أ، فيليب، لوبالى، خداع العمال. فهم إذن، متضامنون مع قادة الحركة الجمهورية الشعبية، (روبير شومان، جورج بيدو) الذين كانوا دعاة الـــ (C. E. D) لأنهم خدام الفاتيكان الموالي للسيطرة الأميركية، وهم يرتدون رداء "الروحية" المسيحية لتجهيز ألد أعداء الجنس البشري[161] بالسلاح، فيما وراء الرين.

ومع ذلك، لا يمكن للاستعمار أن يخلو من التناقضات، بالرغم مما يبذل من جهود. ولهذا كان *للنزعة البرجوازية* أخ توأم هو *النزعة القومية الأوروبية*.

وهناك مثالين على ذلك:

---

[160] لينين: "حول شعار الولايات المتحدة الأوروبية" في مؤلفات مختارة، ج1، ص 753، موسكو، مطبوعات باللغات الأجنبية 1946.

[161] وهكذا نرى أن موضوع "أوروبا المتحدة"، ليس إلا خدمة ترددها أفواه الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين والحركة الجمهورية الشعبية. إذ هم يعملون على دوام انقسام أوروبا وألمانيا بدلا من أن يسعوا للتفاهم الفعلي بين جميع بلاد أوروبا مهما كان نظامها الاجتماعي. وهذا يخدم أغراض النازيين في الدعوة إلى الحرب الذين يخشون المفاوضات العالمية ونتائجها الطيبة. الا وهي توحيد ألمانيا السلمى، والأمن الجماعي لجميع البلاد الأوروبية.

تبالغ الشركات الاحتكارية، التي تدعو إلى النزعة العالمية في أوروبا، أمام الشعوب التي تريد استعبادها، بالنزعة القومية في الولايات المتحدة، وتستخدم جميع الوسائل لتردد على مسامع الشعب الأميركي أنه "الشعب المختار" الذي أرسلته "العناية الآلهية" لقيادة العالم.
تتبع البرجوازية الكبرى الفرنسية، التي تعدل من "طبخة" النزعة العالمية لتلائم الأذواق في أوروبا، سياسة نزعة قومية دامية على حساب الشعوب المستعمرة. فهي تأتي باسم "المصلحة الفرنسية" لقب الأمة على المراكشيين، والفيتناميين الذي يناضلون من أجل استقلالهم.
فكيف لا نلاحظ الفارق الفظ بين "النزعة العالمية" التي يتزيا بها البرجوازيون الرجعيون وبين نزعتهم القومية الوحشية نحو شعوب الاتحاد السوفياتي التي يحلمون بإعادتها عن طريق الحرب، إلى السوق الرأسمالي.
هذه التناقضات هي أحد مظاهر الضعف في المعسكر الاستعماري.

4 – الطبقة العاملة والأمة

ا ـ النزعة العالمية البروليتارية

لا يمكن حل المسألة القومية حلا صحيحا إلا كجزء من مجموع ألا وهو النضال الطبقي أو لثورة البروليتارية.
فلقد رأينا أن الحقيقة القومية البرجوازية تقوم، في المرحلة الاستعمارية، على اضطهاد الأمم. فكيف لا تعرض المسألة القومية، من ثم للطبقة المعارضة للبرجوازية وهي طبقة البروليتاريا؟
يرتبط موقف البروليتاريا من المسألة القومية، بمصالحها وما يجب عليها كطبقة ثورية، فهو إذن موقف مبدأي، وقد حدده ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي (1848) الذي ينتهي بالشعار المشهور:
"اتحدوا يا بروليتاريي جميع البلاد!"

هذه هي *النزعة العالمية البروليتارية*.B başlığı yok.

ولقد رأينا في الدرس الثالث (د) أن للنزعة القومية البرجوازية أساساً موضوعياً هو مصلحة الطبقة المستغلة. إذ أن البرجوازية الرأسمالية لا تقنع باستغلال بروليتارييها وشعبها الخاص بل هي تجندهم (وتضحي بهم) لاستعباد البروليتاريا وشعوب البلدان الأخرى... باسم "المصلحة القومية". وهذه خدمة تخفي المصلحة البرجوازية. إذ أن مهمة النظرية الفكرية القومية أن تؤلب عمال مختلف بلدان العالم بعضهم على بعض.

غير أن للنزعة العلمية البروليتارية، هي أيضاً، أساساً موضوعياً، كما اشرنا إلى ذلك (في الدرس الثامن عشر) – وهو أساس طبقي. إذ أن للبروليتاريين، في جميع بلاد العالم، نفس المصالح التي تجعلهم يتألبون على الطبقة المستغلة. لأنهم أعضاء في نفس الطبقة المستغلة. وليست النزعة العالمية صفة عابرة للنضال البروليتاري الطبقي. بل هي صفة أساسية. ولهذا كان مبدعا الاشتراكية العالمية، وهما ماركس وانجلز، أيضاً مؤسسي الجمعية العالمية للعمال. (أيلول 1864). كما أن بيان الحزب الشيوعي، الذي يدعو البروليتاريين إلى النضال المنظم ضد المستغلين في كل مكان، كان وسيظل، المشعل الهادي للثورة العالمية.

لاحظنا أن النزعة القومية والنزعة العالمية هما المظهران الفكريان للحرب الطبقية التي تقودها الرأسمالية. وتتيح لنا النزعة البروليتارية أن نتبينهما في كل وقت، كما أنها تحاربهما.

تحارب النزعة القومية البرجوازية لأن العمال، بواسطة النزعة العالمية البروليتارية، يعترفون بتضامنهم الطبقي، ويأبون مد يد المساعدة للمعتدين من برجوازيتهم على البلاد الأخرى. وهذا هو الحال ولا سيما حينما يناضل بروليتاريو البلاد المستعمر لتحرير البلاد المستغمرة القومي.

وتحارب النزعة العالمية البرجوازية لأن عمال جميع البلاد، نظراً لإخلاصهم للنزعة العالمية البروليتارية، يؤلفون جبهة قوية طبقية ضد الاحتكارات، كما أنهم يناضلون، في نفس الوقت، لتحرير وطنهم ووطن إخوانهم المضطهدين. مثال: يساعد العمال الفرنسيون، في نضالهم ضد مشروع مارشال في فرنسا على يد الاستعمار الأميركي، إخوانهم

الأميركيين في نضالهم الطبقي ضد الرأسمال الكبير الأميركي الذي يدي بهم على البؤس، والفاشية، والحرب.

وندري أن مصالح العمال، في كل بلد، تتطلب تضامنهم العالمي الطبقي، فكل ما يسيء للنزعة العالمية البروليتارية يسيء في نفس الوقت إلى العمال في كل، بلد كما أن كل تقدم للنزعة العالمية البروليتارية مفيد للبروليتاريين في أي بلد.

ويلبي البروليتاريون الثوريون، نداء بيان الحزب الشيوعي، فيعلنون مساواة العمال في كل البلاد في الحقوق ضد النزعة القومية والنزعة العالمية، ويقومون، من بلد لآخر، بالتضامن الطبقي الأخوي.

نستنتج عدة نتائج من النزعة العالمية البروليتارية كموقف مبدأي لا يتزحزح:

1 – إذا وجد، في دولة أقلية من العمال لها خواصها القومية (مثال: الألزاسيون في فرنسا) فلا يجب أن يوجد ألا حزب بروليتاري يضم جميع العمال، وهكذا يضمن، بالتعاضد الطبقي، الدفاع عن حقوق الأقليات القومية.

2 – لا تستطيع الدولة الاشتراكية ضمان استقلال القوميات التي تضمنها إلا إذا وفرت لها المساواة. وكذلك شأن الدولة السوفياتية.

3 – حجر الزاوية في النزعة العالمية البروليتارية هو تعلق جميع البروليتاريين غير المشروط بالدولة الاشتراكية، وقد وجدت مثل هذه الدولة، وهي الاتحاد للسوفياتي، منذ سبع وثلاثين سنة.

فلماذا هذا التعلق غير المشروط بالاتحاد السوفياتي؟

إن البروليتاريين، في تحقيقهم لحلم رجال الكومون الباريسيين عام 1871، الذين أوجدوا، في تشرين الأول 1917، أول جمهورية اشتراكية، قد بدأوا عهداً جديداً. إذ أن الدولة السوفياتية تكون منذ تشرين الأول 1917 بالنسبة لجميع البروليتاريين في جميع البلدان الندي العام للتعبير عن مطامح الطبقات المضطهدة وإرادتها وتجسيم هذه الأرادة وتلك المطامح[162].

[162] مسائل اللينينية، ج 1 ص 191. المطبوعات الاجتماعية، باريس 1947.

ذلك لأن الدولة الاشتراكية، لما كانت تختلف كل الاختلاف عن جميع الدول الرأسمالية لأنها تقوم على إزالة الاستغلال الطبقي، تكون الحصن الأمامي، لجميع الطبقة البروليتارية العالمية، وهي مرمى البرجوازية العالمية الدائم. فإذا دافع عنها البروليتاريون فأنهم يدافعون عن طليعتهم، فهم يناضلون، إذاً, من أجل أنفسهم , ومن أجل مستقبلهم ,"من أجل بناء مجتمع مشابه للمجتمع السوفياتي، يهديهم سواء السبيل في عقر وطنهم".

فالتبجح بخدمة البروليتاريا، مع القيام بمحاولة أول دولة أقامتها البروليتاريا لنفسها، هو حمل البروليتاريا العالمية على تضحية أفضل مناضليها وضرب عرض الحائط بالمثل الرائع الذي يقدمونه لها منذ تشرين الأول 1917، ولهذا كانت المطالبة "باستقلال الطبقة العاملة" ضد الاتحاد السوفياتي هي ربط هذه الطبقة بعربة الرأسمالية.

لا يمكن أن نحمل اسم الماركسي، في الظروف الحاضرة، إذا لم نؤيد، علانية وبدون أي تحفظ، أول دكتاتورية بروليتارية في العالم[163].

ويكفي، كي نقدر أهمية الدولة السوفياتية، كأساس للنزعة العالمية البروليتارية، أن نلاحظ ما يلي:

أ – لم تكف البرجوازية، في جميع البلدان الرأسمالية، منذ تشرين الأول 1917، عن القول ببرنامج مشترك هو النزعة المناهضة للسوفيات[164].

ب – أن قادة يوغوسلافيا المغامرين، برفضهم لمبدأ الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي، قد جروا بلادهم على طريق الفاشية، وجعلوا منها دولة تابعة للاستعمار الأميركي وجلبوا الشقاء للعمال اليوغوسلافيين.[165]

ج – إن الزعماء الاشتراكيين، صنائع البرجوازية في الحركة العمالية، كانوا، في كل وقت، أبطال النزعة المناهضة للسوفيات. كما كانوا دعاة النزعة القومية البرجوازية.

---

[163] ستالين: مسائل اللينينية، ج 1، ص 192.

[164] من المفيد أن نلاحظ أن الزعماء الاستعماريين العالميين، في عصرنا" مهما كانت التناقضات التي تؤلب بعضهم على البعض الأخر، يشيرون إلى الاتحاد السوفياتي على أنه العدو الأول، ويقفون موقفا يشبه جداً موقف الإقطاعيين الأوروبيين الذين كانوا، في عام 1789، جبهة مشتركة ضد الثورة الفرنسية، الثورة الديمقراطية البرجوازية , بينما رجال أوروبا المتحررون أيدوا فرنسا الديموقراطية ضد إقطاعي بلادهم. فإذا ما دافع العمال الثوريون، اليوم في كل مكان، عن بلد الاشتراكية المنتصرة" ضد الرجعية البرجوازية، فأنهم يصلون بذلك أواصر تقاليد قديمة.

[165] تغير موقف يوغوسلافيا فيما بعد (المعرب).

ولهذا دعا قادة العالمية الثانية عام 1914 بروليتاريي ألمانيا و فرنسا للقتال من أجل "للدفاع عن الوطن" البرجوازي فلا يمكن، إذن، تقدير النزعة العالمية البروليتارية حق قدرها إذا لم نقتلع النظرية الاشتراكية الديمقراطية (القومية والاستعمارية).

د – يضاف إلى الملاحظات السابقة الملاحظة التالية:

أن الناس الذين يحاربون، في كل وقت، الاتحاد السوفياتي، خدمة لمصلحتهم الطبقية، يقومون في كل وقت بتصفية المصلحة القومية التي تدافع عنها الطبقة العاملة. بينما كانت السياسة الخارجية التي اتبعها الاتحاد السوفياتي دائماً، لأنه دولة اشتراكية، مطابقة لمصالح العمال في مختلف البلدان، ولا سيما عمال فرنسا. نرى ذلك في الوقت الحاضر بصدد المسألة الألمانية، التي من مصلحة فرنسا الحياتية حلها حلا سلمياً. والمقترحات السوفياتية مواتية لمثل هذا الحل، بينما السياسة التي تتبعها البرجوازية الفرنسية تحاول أبعاد مثل هذا الحل[166].

ب – النزعة الوطنية البروليتارية

النزعة العالمية البروليتارية هي التعبير عن المصالح الطبقية المشتركة بين بروليتاريي جميع البلدان.

وليس للثورة الاجتماعية، وهي هدف البروليتاريا، طابع قومي في الأساس، فمحتواها محتوى طبقي. غير أننا رأينا أن الرأسمالية قد نمت في الإطار القومي، ولهذا يرتدي

---

[166] أما فيما يتعلق بميثاق عدم الاعتداء الذي عقده الاتحاد السوفياتي مع ألمانيا الهتلرية في آب سنة 1939، فأنه يخدم مصالح السلم العالمي، ولهذا تغتابه البرجوازية جداً، تلك البرجوازية التي كانت لعام خلا، قد حطمت الأمن الجماعي الأوروبي لمصلحة المعتدي الهتلري ولم تعبأ بالتحالف الفرنسي السوفياتي . . ولو أن البرجوازية الفرنسية والإنجليزية، بعد آب 1939، لم ترفض المفاوضات التي عرضها الاتحاد السوفياتي عليها، لتحققت الشروط التي تشل ألمانيا الهتلرية في الغرب "بالتحالف الفرنسي السوفياتي، كما كانت مشلولة في الشرق بواسطة ميثاق عدم الاعتداء الألماني السوفياتي. ولأدى هذا الحصار بهتلر إلى العجز. اقرأ حول المغزى التاريخي لحوادث أب 1939، ج. بوفييه وج, جاكون: الحقيقة حول 1939. المطبوعات الاجتماعية. باريس 1951.

نضال البروليتاريا الثوري ضد البرجوازية طابعاً قومياً. إذ لا يمكن للبروليتاريا، في بلد معين، أن تنتصر على برجوازيتها إلا إذا حاربتها في عقر دارها، وانتزعت منها القيادة السياسية. ولهذا يجب عليها، حسب قول ماركس، "أن تجعل من نفسها طبقة قائدة للأمة، وأن تصبح هي نفسها الأمة[167]".

تعني الوطنية البروليتارية أن البروليتاريين في بلاد مختلفة يناضلون لانتزاع قيادة الأمة من يد البرجوازية في بلدهم وبناء أمة "حرة، قوية، سعيدة" فهو إذن نفس النضال الطبقي ضد نفس العدو العالمي الطبقي. تتخذ النزعة العالمية البروليتارية إذن، طابع الوطنية البروليتارية. ويرجع هذا لوجود الحقيقة القومية الموضوعي، حيث يجري النضال الطبقي وإذا لم يجر مثل هذا النضال على المستوى القومي، أصبحت النزعة العالمية البروليتارية صيغة فارغة، ولم يعد للبرجوازيات المختلفة ما تخشاه من البروليتاريا في بلادها، من عدوها المباشر.

هل تستطيع البروليتاريا أن تقوم بهذا النضال وتنتصر؟ تجيبنا الوقائع على ذلك.

رأينا (في الدرس الثامن عشر) أن البرجوازية الرأسمالية تقيم رخاءها على بؤس الجميع. وبهذا تتوفر الشروط لتقوم البروليتاريا الثورية بتنظيم تجمع واسع يضم مختلف طبقات الشعب الكادح: من فلاحين عمال، وطبقات متوسطة، وصناع، وحانوتية، الخ... ضد البرجوازية الكبرى المستغلة، وتقوم البروليتاريا بقيادة هذه الحركة الشعبية، لأنها، لما كانت طبقة ثورية، المدافع الأكيد من بين جميع ضحايا الرأسمالية. والشروط الضروري لتجمع البروليتاريا الأمة حولها هو أن تحقق هي وحدتها الطبقية الخاصة. ندرك هكذا الأهمية التاريخية للنضال المستمر الذي يقوم به، في فرنسا موريس توريز والشيوعيون ضد الاشتراكية الديمقراطية التي تهدف لمنع الوحدة بين العمال.

وليس إتمام هذه المهمة القومية موافقاً لمهمة البروليتاريا الثورية فقط، بل هو شرط أساسي لنجاح الثورة في وطنها. وجميع الذين يخلطون بين النزعة القومية البرجوازية والنزعة الوطنية البروليتارية –أمثال الفوضويين النقابيين–كما أن الذين يقولون للعمال: "قضية الأمة ليست قضيتهم، بل قضيتكم هي الثورة" كل هؤلاء يعملون ضد مصلحة

[167] ماركس وانجلز: بيان الحزب الشيوعي، القسم الثاني" ص 46.

البروليتاريا الثورية، وهم ينكرون واقع الأمة المادي، لأنهم مثاليون، بينما الطبقة العاملة لا يمكنها أن لا تعبأ بالشروط الموضوعية التي ينمو فيها نضالها الثوري، لأنها تحفظ تعاليم لينين، ومن بين هذه الشروط الحقيقة القومية، وهي وحدة أرض، ولغة" واقتصاد، وثقافة، ولهذا لا تسلم قيادة الجماهير الشعبية لمن يجهل هذه الحقيقة التاريخية. كما أنهم، لما كانوا ماديين سذجاً، يجهلون قوة الشعور القومي على التنظيم والتعبئة، وإلا فلماذا ظهرت الطبقة العاملة الفرنسية، بالرغم مما نالها من الاضطهاد النازي، في عام 1944، اشد قوة وأكبر احتراماً من ذي قبل؟ لأنها عرفت كيف تقود الأمة بأجمعها ضد الفاشية الهتلرية وأنصارها من البرجوازية الكبرى المناهضة للقومية إذا كانت النزعة العالمية تقوم على أساس من احترام سائر الشعوب، فإننا لن نكون عالميين إذا لم نحترم شعبنا ونحبه[168].

رأينا في هذا الدرس (3 ، ج) أن البرجوازية الرجعية لا يمكنها المحافظة على امتيازاتها الطبقية إلا باستعباد الأمة على يد الاستعمار الأميركي، بينما تدافع البروليتاريا الثورية على العكس، عن مصلحة الأمة في مجموعها (والطبقة الخائنة تطرد منها) حين تتبع سياسة فرنسية مستقلة. الطبقة العاملة هي الطبقة الوطنية لأنها طبقة صاعدة، فهي مسؤولة عن حياة الأمة وعن مستقبلها.

دلل موريس توريز[169]، في استنتاجه لخلاص مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي الثالث عشر (حزيران 1954)، كيف أن نضال الطبقة العاملة، في كل وقت، ضد البرجوازية بقيادة الشيوعيين يتفق والمصلحة القومية... وكذلك شأن النضال ضد معاهدة فرساي "التي تحتوي على جميع البزور لازدياد النزعة العسكرية وروح الثأر في ألمانيا، وكذلك كان شأن النضال القمع والحرب الاستعمارية (في مراكش، والهند الصينية)، والنضال ضد الاستسلام في مونيخ والحرب السخيفة، والاحتلال الهتلري وأنصاره، وتخريب النهضة الفرنسية. وكذلك الشأن، اليوم، حين تقود الطبقة العاملة المعارضة القومية لإعادة تسليح سفاكي دماء شعبنا، و "تقوم بحراسة السلم لمصلحة فرنسا الكبرى". كيف يمكن للطبقة

---

[168] جدانوف: حول الأدب، والفلسفة، والموسيقى، ص 78. المطبوعات النقد الجديد، باريس 1950.

[169] كراسات الشيوعية، حزيران- تموز 1954، رقم 6 – 7، ص 624 – 625.

العاملة، وقد ناداها التاريخ لتحرير بلادنا من الاستغلال الرأسمالي، أن تؤدي بنجاح هذه المهمة الثورية إذا لم تقم بدور القائدة في النضال الحالي للمحافظة على وجود الأمة ضد البرجوازية المناهضة للقومية؟

وبينما تتنكر البرجوازية الكبرى، التي تجعل شبح الموت يخيم على مستقبل فرنسا، لماضي شعبنا، تتغنى الطبقة العاملة، على العكس، بفخر بكل تقدم تاريخ بلادنا، نحو رفع مستوى الحياة والحرية.

حبنا لبلادنا، هو حبنا لأمجد تقاليدها، وعزمنا على إعادتها لهذه التقاليد كحاملة للمشعل. حبنا لبلادنا، هو حبنا لشعبنا الذي نريده حراً سعيداً، وأن تكون فرنسا للفرنسيين، وليست لأولئك الذين خرجوا من الوحدة القومية بكبريائهم وشرهم وخسة نفوسهم.

وطنية المساكين، وطنية جان دارك الفلاحة الفرنسية التي ودعها ملكها وإحراقها الإنجليز، تجتاز كل تاريخ كشهاب ساطع.

كتب لا بروبير، حول مصير الأرقاء البائس، يقول: "لا وطن مع الاستبداد".

ولقد جهد ديمقراطيو الثورة الفرنسية الكبرى، لنيل استقلال وطنهم وكان يلهب نفوس جماعات "صانعي القباقيب والخياطين" الذين ربحوا معركة فالمي، وهم يرددون "تحيا الأمة". نفس من الوطنية الثائرة[170]*.*

فضل الحزب الشيوعي، الذي يقوده موريس توريز، إذن، هو أنه أعاد "ألوان فرنسا" إلى شعبنا، الذي خانته البرجوازية المنحطة[171]*. فهو الداعي إلى اتحاد الأمة الفرنسية من أجل الخبز والحريات الديمقراطية، والاستقلال والسلام. وهكذا يتفق مع نضالهم أكبر ماركسي في عصرنا، وهو ستالين الذي صرح في المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (تشرين الأول 1952) بقوله:*

كانت تعتبر البرجوازية، في الماضي، رأس الأمة، فكانت تدافع عن حقوق الأمة واستقلالها، وتضع هذا الاستقلال وتلك الحقوق "فوق كل شيء" وأما الآن فلم يبق شيء

---

[170] موريس توريز: ابن الشعب، ص 118.

[171] تساعد قراءة قصة ارجون: "الشيوعيون" من يريد أن يفهم. دور الشيوعيين القومي، في تمام مغزاه التاريخي. وهذا ما يتغنى به أراجون في بعض قصائد الجميلة، اقرأ "من الشاعر إلى حزبه" في – ديانا الفرنسية – (الناشر: سيجيه) و "العيون والذكرة – (الناشر: جاليمار)

من "المبدأ القومي" بل تقايض، الآن، البرجوازية حقوق الأمة واستقلالها بالدولارات، وتلقى جانباً براية الاستقلال القومي والسيادة القومي. لا شك انه عليكم، يا ممثلي الأحزاب الشيوعية و الديمقراطية ، أن ترفعوا الراية و تتقدموا بها إذا أردتم إن تكونوا وطنيين ، و أن تصبحوا القوة التي تقود الأمة ، إذ ليس من شخص آخر يستطيع رفع هذه الراية[172].

اتمام هذه المهمة على يد الطبقة العاملة مرحلة ضرورية على طريق الاشتراكية التي سوف تصفي الاستغلال البرجوازي

[172] ستالين: أخر مؤلفات، ص 188.

الدرس الرابع والعشرون

الأمة (2)

1 _ مسألة الاستعمار. حق الأمم في أن تكون سيدة نفسها.

2 _ الأمم الاشتراكية.

أ) المسألة القومية و الثورية الاشتراكية.

ب) ميزات الأمم الاشتراكية.

3_ مستقبل الأمم .

ملاحظة حول الألزاس والموزيل.

رأينا (في الدرس السابق، 3 ج) أن الاضطهاد البرجوازية الطبقي، في ظروف الاستعمار، يرتدي شكل الاضطهاد القومي.

بعد أن كانت الرأسمالية محررة للأمم، في النضال ضد الإقطاعية، أصبحت أكبر مضطهدة للأمم[173]*.*

ولهذا يتخذ النضال ضد الاستمار شكل نضال من أجل الاستقلال القومي. وتضم هذه الحركة الاستقلالية، في بلد معين، جميع الطبقات الاجتماعية المسلوبة أو المهددة بالاستعمار الأجنبي. وهكذا نفهم، مثلاً، أن فئات مهمة من البرجوازية شاركت، في الصين، إلى جنب البروليتاريا والفلاحين، في النضال من أجل التحرير القومي، كما أن قسماً من البرجوازية (التي يمثلها تشان كاي شك) كانت قد ربطت مصالحها بمصالح الاستعمار الأجنبي المضطهد المعتدي، غير أن هذا الاستعمار قد اعتدى على مصالح عناصر أخرى من البرجوازية (كالصناعيين، مثلاً) فاشترك هؤلاء في حركة الاستقلال.

[173] لينين: ذكره جورج كونيو: حقيقة الأمة، ص 46.

وكذلك نجد أن الاستعمار الأميركي إذا كان يجد، في الوقت الحاضر، في فرنسا، تآمر البرجوازية الكبرى الرجعية، والمحتكرين، وتجار المدافع إلى جانبه، فأنه يسيء لمصالح فئات أخرى من البرجوازية: وهكذا يشل مشروع مارشال، الذي فرضه الاستعمار الأميركي على الاقتصاد الفرنسي، ازدهار فروع بأكملها من الصناعة القومية، ويحرمها من أسواقها في بلاد الشرق. ومن هنا أزداد الاستياء عند كثير من الصناعيين.

وتثير سياسة إعادة تسليح ألمانيا، الذي يؤدي إلى التقليل من شأن فرنسا ويسيء إلى سيادتها القومية، معارضة مختلف الطبقات، في البرجوازية نفسها، تلك الطبقات التي تخشى السيطرة الألمانية. وتشير الفكرة، التي تبناها المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي الفرنسي (حزيران 1954 [174]، إلى أن مصالح فئات اجتماعية عديدة بعيدة جداً عن الطبقة العاملة ومعادية مبدئياً للحزب الشيوعي قد أصيبت نتيجة للسياسة الأطلنطية. ولهذا تقف بعض الدوائر السياسية البرجوازية، مهما كان تعلقها بالرأسمالية، إلى جانب الشيوعيين ضد استعباد فرنسا.

وهكذا قامت جبهة قومية متحدة ضد الاستعمار الأميركي والبرجوازية الكبرى الرجعية التي تسانده، للدفاع عن استقلال فرنسا، وهي تضم – عدا الفلاحين الكادحين والبرجوازية الصغرى والطبقات المتوسطة – فئات البرجوازية التي تخشى نتائج السياسة التي يفرضها الاستعمار الأميركي على فرنسا. وهذا لا يقضي قط على النضال الطبقي في داخل بين البروليتاريا والبرجوازية، ولهذا سلمت البرجوازية الرجعية البلاد للاستعمار الأجنبي خدمة لمصلحتها الطبقية. لا تستطيع، إذن، البروليتاريا الفرنسية أن تفصل نضالها من أجل الاستقلال القومي عن نضالها الطبقي.

وسنرى اعتماداً على الطابع المناهض للقومية الذي اتخذته الرأسمالية الاستعمارية، كيف يطرح الماركسيون اخطر مسائل عصرنا وكيف يحلونها ألا وهي مسألة الاستعمار.

[174] كراسات الشيوعية. حزيران – تموز 1954 عدد 6 – 7 ص 922 – 923، المسألتان: 21 - 22

1 – مسألة الاستعمار: حق الأمم في أن تكون سيدة نفسها

أنهت أقوى الدول، في عصر الاستعمار، تقسيم الكرة الأرضية في أفريقيا وآسيا فيما بينها. واستغلت الشركات الاحتكارية المستعمرات والمحميات التي نشأت عن هذا التقسيم. ويشمل الاضطهاد الاستعماري جميع نواحي الأمة: فيحتل الأرض، ويفرض اللغة الأجنبية على حساب اللغة القومية، وينهب الثروات الاقتصادية، ويستعبد الثقافة القومية ولا شك أن النزعة الإمبراطورية الاستعمارية تقوم بقمع لا يعرف الشفقة كي تحفظ "حقوقها" المزعومة كقوة محتلة، ويأبى على الشعوب المستعمرة حقها في أن تنشيء لنفسها دولا خاصة بها.

نعرف قول ماركس المشهور: *"لا يمكن للشعب الذي يضطهد شعوباً أخرى أن يكون حراً[175]."*

واستغلال شعب من الشعوب هو من صنع البرجوازية الكبرى والرجعية والاحتكارات التي تستولي على الشعوب الضعيفة، بحثاً وراء الربح الأقصى، فتسلبها خيراتها. من الواضح أن هذا العمل مناقض لمصالح البروليتاريين في البلد المستعمرة. فلماذا؟

أولا: لأن عدوهم الطبقي، أي البرجوازية الرجعية، هو يقوى باستعماره شعوباً أخرى. حتى ولو أن استغلال الشعوب المستعمرة (كما حدث في انجلترا) يتيح للبرجوازية الاستعمارية أن تتكرم ببعض الخيرات على البروليتاريا في بلدها من تلك الأرباح التي تنتزعها من العمال في المستعمرات. وتستعيض عن ذلك بازدياد قوتها التي تستمدها من الاستقلال الاستعماري. ولا تستخدم البرجوازية هذه القوة ضد العمال في المستعمرات فقط بل ضد البروليتاريا في الدولة المستغلة. لأن الاضطهاد الطبقي في *الخارج* يقوي الاضطهاد الطبقي في *الداخل*

---

[175] راجع بهذا الصدد لينين: "الثورة الاشتراكية وحق الأمم في أن تكون سيدة نفسها" في: ماركس، انجلز، والماركسية، المطبوعات باللغات الأجنبية، موسكو، 1947 ص 283.
"كان ماركس يجعل في المقام الأول، دون أن ينسى مصالح نضال طبقة البروليتاريا في البلاد المتقدمة، المبدأ الأساسي للنزعة العالمية الاشتراكية وهو: "ولا يمكن للشعب الذي يضطهد شعوباً أخرى أن يكون حراً".

ثم أن البرجوازية تدفع بالبروليتاريا في بلدها ضد العمال الأجانب لضمان نجاح مشاريعها الاستعمارية. *وهي تبتز أرباحها الهائلة من دم هؤلاء وأولئك*. فتعمل، لبلوغ هذه الغاية، على أقناع العمال في البلد المستعمر أن الاضطهاد الاستعماري يتفق ومصالحهم. ثم تعلم أطفال الشعب، في الكتب البرجوازية أن حرب النهب "دفاع عن المدينة"، فتختفي مصالح الشركات الاحتكارية (التي تستغل الشعب الفرنسي, كما تستغل الشعوب المستعمرة)وراء ((المصالح الفرنسية)). وكلما خدع العمال الفرنسيون والإنجليز بهذه الأكاذيب، جلبوا على أنفسهم أكبر الضرر، وخدموا أغراض الطبقية التي تضطهدهم، وأضعفوا نضالهم كطبقة مستغلة، *فأضعفوا بذلك وحدة البروليتاريا العالمية*.

تقودنا هذه الملاحظة الأخيرة إلى حل مسألة الاستعمار. ذلك لأن *النزعة العالمية البروليتارية* تضع بيدنا مفتاح حل هذه المسألة.

فمصالح عمال البلد المستعمر ومصالح عمال البلد المستعمر متضامنة ضد البرجوازية الاستعمارية عدوهم المشترك.

فما رأي النزعة العالمية البروليتاريا بهذا الصدد؟

أ – يؤكد عمال البلد المضطهد حق *الأمم في أن تكون سيدة نفسها*. يعني هذا، عملياً، أنهم يعترفون للأمم المضطهدة بحقها في أن تنفصل عن الدولة المستعمرة لتنشيء دولتها الخاصة، المستقلة. فالحديث عن "حرية تقرير المصير" ورفض الحق في الانفصال هراء كاذب، لأن ذلك يعني أن تمنع بيد ما تعطيه باليد الأخرى.

ولهذا وجب على عمال البلد المستعمر أن يطالبوا بحق الانفصال للبلاد المستعمرة. والتخلي عن ذلك (بحجة أن الشعوب المستعمرة ليست "ناضجة للاستقلال") موقف رجعي، لا تفيد منه إلا البرجوازية المستعمرة التي تزيد بذلك من سيطرتها.

مثال ذلك: الهند الصينية. الموقف الوحيد العادل من النضال القومي ضد الاستعمار الفرنسي بقيادة شعوب الفيتنام واللاوس والكمبودج هو التأكيد على حق هذه الشعوب المطلق في الانفصال والاستقلال كدولة، ومساندة هذه الشعوب الفعلي في فرنسا نفسها.

ب – كما يؤكد، من ناحية ثانية، عمال البلد المضطهد وحدتهم العالمية الطبقية مع البروليتاريا في البلد المستعمر، ولهذا تحارب الأحزاب الثورية، في البلاد المستعمرة، في

نفس الوقت الذي تحارب فيه النزعة الأمبراطورية المضطهدة" نزعة البرجوازية القومية في بلادهم. يقول القوميون البرجوازيون في البلد المستعمر لعمال هذا البلد: "كل الفرنسيين أعداء لكم"، فيجيب العمال الذين نشأوا على روح النزعة العالمية البروليتاريا: "كلا! شركات الاحتكار الاستعمارية الفرنسية هي عدوة لنا، بينما العمال الفرنسيون أصدقاء لنا".

وهكذا يناضل بروليتاريو البلد المستعمر، باسم النزعة العالمية، النزعة القومية البرجوازية الاستعمارية، كما يحارب بروليتاريا البلد المستعمر، باسم النزعة العالمية، النزعة القومية البرجوازية في بلدهم[176]

يجدر بنا، أن نذكر أقوال لينين القيمة:

يجب أن يقوم مركز الثقل في تربية العمال العالمية في البلاد المضطهدة، على الدعاية والدفاع عن حرية البلاد المضطهدة في الانفصال، إذ بدون ذلك لا توجد النزعة العالمية. لنا الحق أن نصف بالاستعماري الحقير كل اشتراكي ديمقراطي، في أمة تضطهد، لا يقوم بهذه الدعاية. وهذا مطلب مطلق، وأن كان مثل هذا الانفصال لا يمكن "تحقيقه " قبل حلول الاشتراكية ألا بنسبة واحده بالألف.

بينما يجب، على الاشتراكي الديمقراطي، في أمة صغيرة، على العكس، أن يجعل محور الثقل في نشاطه حول القسم الأول من شعارنا "اتحاد الأمم اتحاداً حراً"، فهو يستطيع أن يقف إلى جانب استقلال أمته السياسي وأنضمامها إلى دولة مجاورة، دون أن يتنكر لواجباته كصاحب نزعة عالمية. ولكنه يجب عليه، في كل الحالات، أن يناضل ضد

---

[176] ومع ذلك لا يرفض بروليتاريو البلد المستعمر، في نضالهم من أجل الاستقلال القومي، التحالف مع البرجوازية القومية، غير أنهم لا يربطون عملهم بمصالح البرجوازية القومية لأن هذه البرجوازية، وأن كانت تعارض البرجوازية الأجنبية الاستعمارية، تظل عدوة لطبقة العمال، طالما أن برجوازية الأمة المضطهدة تناضل ضد الأمة التي تضطهد، طالما نحن دائما معها. لأننا أكثر أعدا، الاضطهاد جراة: وطالما أن برجوازية الأمة المضطهدة تقف إلى جانب نزعتها القومية البرجوازية طالما نحن ضدها، نناضل ضد امتيازات الأمة التي تضطهد وجبروتها، ولن نسمح بنيل أي امتياز على ظهر الأمة المضطهدة... يوجد، في كل نزعة قومية برجوازية في أمة مضطهدة، محتوى ديمقراطي عام ضد الإضطهاد، ونحن نؤيد هذا المحتوى بدون تحفظ، وأن كنا نضع جانبا النزعة إلى التعصب القومي":
لينين: حول حق الأمم في أن تكون سيدة نفسها، ص 53 – 54، المطبوعات الاجتماعات، باريس 1952.

النزعة القومية الضيقة التي تميل للاتفاق والعزل لينظر إلى هذه الحركة العالمية في مجموعها وشمولها فيربط بذلك المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة.

ويجد الذين لم يتعمقوا هذه المسألة أنه من "التناقض" أن يلح الاشتراكيون الديمقراطيون[177] *في الأمم المضطهدة على "حرية الانفصال"، كما يلح الاشتراكيون الديمقراطيون، في الأمم المضطهدة على "حرية الاتحاد". غير أنه يكفينا قليل من التفكير لنرى أنه، في هذا الوضع، لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد، طريق آخر نحو صبغ الأمم بالصبغة العالمية ودمجها بعضها بالبعض*[178]*.*

أكد موقف لينين هذا، موريس توريز، في فرنسا، عدة مرات:

كان علينا، نحن البروليتاريين، في بلد استعماري يضطهد عشرات الملايين من العبيد في المستعمرات، أن نرفع الصوت عاليا مطالبين بحق هذه الشعوب بتقرير مصيرها، ومن ذلك حق الانفصال عن فرنسا. وكان علينا أن نحارب في بلادنا كل نزعة استعمارية، تاركين لرفاقنا الشيوعيين في البلد المستعمر أمر مقاومة كل نزعة قومية ضيقة في بلادهم، وأن يعلنوا الفائدة التي يجنيها شعبهم إذا تضامن في النضال مع البروليتاريا الفرنسية ضد نفس المضطهدين الاستعماريين. قال لينين: "الحق في الطلاق لا يعني وجوب الطلاق[179]*.*

يبدو هنا جانب مهم من للحق في تقرير المصير. يفسره البعض بصورة ساذجة فيقولون بأن "الحق" يماثل "الواجب" فإذا كان البروليتاريون في البلد المستعمر يعلنون، بالاتفاق مع البروليتاريون في البلد المستعمر، حقهم في الانفصال فلا يعني ذلك أنهم ينادون بالانفصال في كل وقت، وأنهم يجدونه مفيداً في كل حين.

ولنضرب لذلك مثلاً: كانت روسيا القيصرية تضطهد عدة شعوب في آسيا (أهالي جورجيا، الأرمن) وكانت تأبي عليهم حقهم في إنشاء دول مستقلة. وكان الماركسيون

---

[177] تعني هنا "الاشتراكية الديمقراطي"معناها القديم وهو الاشتراكي الماركسي – وليس المعنى الذي يعنيه قادة العالمية الثانية بمسلكهم وهو: الانتهازية.

[178] لينين: مؤلفات "باللغة الروسية" ج 19، ص 261 – 262 ذكره ستالين في "الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية"، ص 225.

[179] م. توريز: كراسات الشيوعية كانون الثاني 1950، ص 29.

الروس والجورجيون والأرمن ينادون بالحق في الانفصال ضد النزعة القيصرية. ثم وقعت ثورة تشرين الأول 1917. فماذا حدث؟

لقد حرر قيام الاشتراكية الجورجيين والأرمن من نير الاستعمار. ومع ذلك لم ينفصلوا عن الأمة الروسية، بل تكونت دولة متعددة الأمم، على أساس المساواة بين جميع الأمم التي تكون هذه الدولة.

فلماذا لم يمارس الجورجيون والأرمن حقهم في الانفصال؟لماذا، بعد أن نالوا الحق في الطلاق، لم يمارسوا هذا الحق؟ لسبب بسيط هو أنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا فريسة سهلة للبلاد الرأسمالية، عدوة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي فقد كانت مصلحة عمال المستعمرات القيصرية القديمة الطبقية في عدم الانفصال عن الشعب الروسي، وأن تتحد معه ومع الأمم السوفياتية، داخل الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات على أساس طبقي.

نرى، إذن، أن *المصلحة الطبقية* هي التي تقرر في النهاية فيما يتعلق بالأنفصال أو الاتحاد[180]

غير أن الاختيار يرجع للشعب المعنى بالأمر (الشعب المستعمر أو الأقلية القومية).

وهكذا يجب على الشعب الفرنسي أن يحترم طموح الشعوب المستعمرة إلى الاستقلال، ولا سيما الفيتنام. إذ أن لهذا الشعب الحق المطلق في أن ينفصل عن فرنسا، وهذا ما تأباه عليه البرجوازية الاستعمارية، لأنها تزيد الاستمرار في استغلال الهند الصينية، بينما يساند العمال الفرنسيون حق الفيتنام في نضالهم ضد الحرب الجارية، في إرجاع الجيش

---

[180] يمكن أن يحدث أن لا يكون الانفصال مرغوبا فيه. وقد رأينا مثالا على ذلك. وهاك مثالا أخر في وضع يختلف عن الوضع السابق. "كان ماركس في سنى 1840 – 1850 مع حركة التشك السلاف الجنوبيين القومية. فلماذا؟ لأن التشك والسلاف الجنوبيين كانوا، عندئذ، شعوبا رجعية" وكانوا – مراكز روسية أمامية – في أوروبا، فكانوا بذلك مراكز أمامية للاستبداد. وكان تأييد حركة التشك والسلاف الجنوبيين القومية يعني، وقتئذ، تأييد القيصرية بصورة غير مباشرة، وهي ألد أعداء الحركة الثورية في أوروبا"، (ستالين: الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية، ص 119 – 220) يظهر هذا المثل أنه لا يجب قط النظر إلى المسألة القومية في ذاتها، بل في علاقتها بمتطلبات النزعة العالمية البروليتارية الأساسية. وقد استغل هتلر، في نفس الوقت، قبل الحرب العالمية الثانية" نضال السوديت (وهم أقلية ألمانية في تشيكوسلوفاكيا) ضد الدولة التشيكوسلوكية وضد السلام العالمي، وضد مصالح البروليتاريا العالمية: "ليست مختلف مطالب الديمقراطية، ومنها حق الأمم أن تكون سيدة نفسها، مطلقة، بل هي جزء من مجموع الحركة الديمقراطية (وهي اليوم اشتراكية) العالمية. ويمكن،

إلى فرنسا. هذه الحرب *ظالمة* لأنها تهدف لاستمرار اضطهاد شعب. بينما *الحرب التي تشنها الأمة الفيتنامية ضد الاستعمار المضطهد حرب عادلة ككل حرب تحرير قومي.*

في بعض الحالات. أن يناقص الجزء الكل، فيجب عندئذ رفض الجزء" (لينين: مؤلفات" باللغة الروسية"، ج 19، ص 257 – 258)، ذكره ستالين ص 220). وهذا الرفض لا يعني فصله بل وضعه في المحل الثاني لفترة من الزمن. نجد هنا مثالا على الميزة الأولى للجدلية. وهي أن كل شيء مرتبط بالأخر.

نفهم بذلك أنه يمكن للبروليتاريا العالمية أن تساند حركة قومية معادية للاستعمار في بلد معين، وأن كانت هذه الحركة لا تقودها عناصر بروليتارية. فقد ساند البروليتاريون، قبل الحرب العالمية الثانية في جميع البلاد نضال الحبشة ضد جيش موسوليني وأن كان الشعب الحبشي يقوده إقطاعيون. لأن مثل ذلك النضال كان يضعف الفاشية العالمية العدو الرئيسي للبروليتاريا.

حتى إذا ما تحررت الأمة الفيتنامية من نير الاستعمار، كان من حقها أن تقرر بشأن علاقاتها مع فرنسا.

ويعتبر العمال في فرنسا وعمال الفيتنام، منذ الآن، أنه يستحسن، لمصلحة البلدين، قيام سياسة تبادل اقتصادية وثقافي. غير أن هذه السياسة تتطلب الفصل بين الأمتين والمساواة المطلقة بين الدولتين.

نرى إذن أن مبدأ النزعة العالمية البروليتارية يسمح لنا نظرياً وعملياً بحل المسألة القومية والاستعمارية، ونجد أنفسنا، إذن، مرة أخرى، أمام النضال الطبقي.

تتطلب مصالح الحركة البروليتارية في البلاد المتقدمة، وحركة التحرير القومي في المستعمرات، أن يتحد هذان الجانبان للحركة الثورية في جبهة مشتركة للنضال ضد العدو المشترك وهو الاستعمار[181].

[181] تقرر إيقاف أطلاق النار في الهند الصينية بعد كتابة هذه السطور. فكان ذلك انتصار للعمل المشترك بين الشعبين الفيتنامي والفرنسي وانتصارا للنزعة العالمية البروليتارية.

2 – الأمم الاشتراكية

ا – المسألة القومية والثورية الاشتراكية

ساعد على نجاح الثورة الاشتراكية في تشرين الأول سنة 1917 تأليف هذه الجبهة المشتركة. ولما أمكن انتصار البروليتاريا الروسية على البرجوازية الاستعمارية لولا اتحاد الشعوب التي تستغلها هذه البرجوازية نفسها في إمبراطورية القياصرة الواسعة. وهكذا تكون ثورة تشرين الأول قد ضربت الاستعمار في قلبه وفي مؤخرته.

حطمت ثورة تشرين الأول، بقلبها لكبار الملاكين والرأسماليين، قيود الاضطهاد القومي والاستعماري التي نجت منها جميع الشعوب المضطهدة، بدون استثناء، في دولة شاسعة، إذ لا يمكن للبروليتاريا أن تحرر بدون أن تحرر الشعوب المضطهدة. وتمتاز ثورة تشرين الأول بأنها لم تقم بهذه الثورات القومية والاستعمارية، في الاتحاد السوفياتي، تحت لواء الحقد القومي والمنازعات بين الأمم، بل تحت لواء ثقة متبادلة وتقارب أخوي بين العمال والفلاحين في القوميات التي تقيم في الاتحاد السوفياتي، ولم تقم بها باسم النزعة القومية بل بأسم النزعة العالمية[182] ولم يكن قادة العالمية الثانية، بالرغم من خطبهم عن المساواة بين الأمم، ليهتمون بالشعوب المستعمرة: بل كانوا يأبون عليها أي إمكانية للعمل الثوري. وكل ما كانوا يعترفون لها به هو حقها "في الاستقلال الثقافي"، وأن يكون لها مؤسساتها الثقافية، وذلك داخل الدولة المستعمرة.

بينما يعني الماركسيون اللينينيون بحرية تقرير المصير الحق في الانفصال، وفي إنشاء دولة مستقلة. ولما كان نضال الأمم المضطهدة من أجل استقلالها موجهاً ضد البرجوازية الاستعمارية، العدو المباشر للبروليتاريا "الأم" Métropoitain كان لهذا النضال طابع ثوري.

المسألة القومية جزء من مسألة الثورة البروليتارية العامة، وهي جزء من مسألة الثورة البروليتارية العامة وهي جزء من مسألة دكتاتورية البروليتاريا[183].

---

[182] ستالين: "طابع ثورة تشرين الأول العالمي" في مسائل اللينينية ج1، ص 188.

[183] ستالين: "حول مبادىء اللينينية" نفس المرجع، ص 55.

تضخم حركة التحرير القومي الهائل في البلاد المضطهدة كأفريقيا وآسيا منذ عام 1917، وانتصار الشعب الصيني على الاستعمار وسيره نحو الاشتراكية، كل تلك وقائع لها أهمية كبرى بالنسبة للنضال الثوري العالمي.

ولقد أقبل زمن ثورات التحرير في المستعمرات وفي البلاد التابعة, زمن يقظة البروليتاريا في هذه البلاد، زمن سيطرتها في الثورة[184].

ب – ميزات الأمم الاشتراكية

ابتدأت الثورة الاشتراكية، بتحريرها للشعوب المضطهدة، مرحلة جديدة في تطور الأمم. وظهر نموذج جديد من الأمم، بفضل انتصار البروليتاريا، ألا وهي الأمة الاشتراكية.

رأينا في الدرس السابق أنه يجب أن نفهم من "الأمم البرجوازية" الأمم التي نشأت بقيادة البرجوازية في نضالها ضد الإقطاعية. وكان انتصار البرجوازية انتصار لعلاقات الإنتاج الرأسمالية. ومن هنا نشأت ميزات الأمة البرجوازية.

تقوم الأمة البرجوازية بالضرورة على عدم المساواة بين أفرادها، لأن الطبقة المسيطرة تستغل البروليتاريا.

الأمة البرجوازية عدوة لسائر الأمم البرجوازية لأن برجوازيات مختلف البلدان الرأسمالية تتنافس فيما بينما سعيا وراء الربح. ومن هنا كانت النزعة القومية.

وأخيرا، تخضع الأمة البرجوازية، في مرحلة الاستعمار، لها الشعوب المتأخرة في نموها الاقتصادي.وهكذا يتم الاستغلال في الداخل بواسطة الاستغلال في الخارج. نذكر مرة أخرى بقول لينين: "أصبت الرأسمالية الاستعمارية أكبر مضطهدة للأمم".

وتختلف عن ذلك ميزات الأمة الاشتراكية.

يقول ماركس وانجلز في بيان الحزب الشيوعي: *"الغوا استغلال الإنسان للإنسان تلغوا استغلال أمة لأمة أخرى. فمتى زال تعارض الطبقات داخل الأمة، زالت العداوة بين الأمم*[185].

---

[184] نفس المرجع، ج1، ص 189.

[185] ماركس وانجلز: بيان الحزب الشيوعي ص 46.

فقد أوجدت الثورة الاشتراكية، بقلبها للبرجوازية المستغلة، وإزالتها للاضطهاد الطبقي، علاقات جديدة داخل الأمة الواحدة وبين الأمم المتعددة.

وقد برهن قيام الاتحاد السوفياتي وازدهاره على صحة ذلك.

فزوال الطبقات المستغلة، السبب الرئيسي للاصطدام بين الأمم، وزوال الاستغلال الذي يغذي الريبة المتبادلة ويؤجج الأهواء القومية، ووجود الطبقة العاملة، في الحكم، وهي عدوة كل استعباد، تدافع بإخلاص عن أفكار النزعة العالمية، وتحقيق التعاون المتبادل، بصورة عملية، بين الشعوب في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وأخيراً ازدهار الثقافة القومية لشعوب الاتحاد السوفياتي، وهي ثقافة قومية في الصورة، اشتراكية في المحتوى: كل هذه العوامل وما يشبهها غيرت طابع شعوب الاتحاد السوفيتي بصورة جذرية وعملت على زوال شعور الريبة بينها، ونمت عاطفة صداقة متبادلة، فنشأ، بذالك، تعاون أخوي حق بين الشعوب داخل الدولة الاتحادية الواحدة[186].

تلك هي نتيجة انتصار الطبقة العاملة. كانت البرجوازية، بتحطيمها للاضطهاد الإقطاعي، قد صنعت أغلالاً جديدة. وأما الطبقة العاملة،فأنها بتحررها قد حررت جميع الناس. فزال النير الطبقي كما زال النير القومي.

كانت إمبراطورية القياصرة "سجنا للشعوب" حتى إذا ما تحررت القوميات المختلفة من الاضطهاد نالت حقها في تقرير مصيرها. وقد رأينا أن ممارسة هذا الحق لها وجهان: أما الانفصال وأما الاتحاد الحر[187].

ولقد اختارت القوميات المذكورة، آنفا، الاتحاد مع الشعب الروسي.

وهكذا نشأت دولة اشتراكية متعددة القوميات.وتحتفظ القوميات، التي تتكون منها هذه الدولة، بحقها في تقرير مصيرها: فهي تستطيع، أذن، إذا شاءت أن تنفصل عن الاتحاد.

ما هو طابع العلاقات الأساسي بين الأمم الاشتراكية، التي يقارب عددها الستين؟ المساواة في الحقوق. وقد قال للينين: "لا أمتياز لأمة على أخرى... ولا أقل أضطهاد أو ظلم للأقليات القومية". ليس هناك، أذن، أمة مسيطرة في الاتحاد السوفيتي، بل جمهوريات

---

[186] مسائل اللينينية، ج2 ص217.

[187] هذان الوجهان المتعارضان يكونان حق تقرير المصير . وهذا مثل لوحدة الأضداد "راجع الدرس الخامس".

متحدة بحرية "جمهورية روسيا، جمهورية أوكرانيا، جمهورية كازافي، جمهورية استونيا، الخ..." فإذا ما وجد، داخل الجمهورية المتحدة، أقليات قومية، كونت جمهوريات مستقلة "مثال: يوجد داخل الجمهورية المتحدة الروسية جمهورية تارتاري وجمهورية بشكيري، وجمهورية داغستان. الخ." كما يوجد شعوب صغيرة، ومناطق مستقلة، وأقاليم قومية.

تقوم الدولة الروسية المتعددة القوميات بالدفاع عن المصالح المشتركة بين جميع القوميات التي تكونها. كما أنها تشرف على تخطيط الاقتصاد الاشتراكي وإدارة السياسة الخارجية، والجيش، والتنشئة الثقافية.

غير أنها تخضع من أسفل إلى الأعلى، بواسطة السوفيات، لأشراف جميع المواطنين المتساوين في الحقوق، مهما كانت قوميتهم أو جنسيتهم. فيستطيع، مثلاً، جميع المواطنين، تولى جميع الوظائف الدولة السوفياتية من أصغر وظيفة إلى أعلى وظيفة، ويتولى الحكومة أناس من القوميات وأجناس مختلفة.

أما المصالح الخلاصة بكل قومية، فأنها من اختصاص الجمهورية المتحدة أو المستقلة التي تتمتع، ضمن الدستور السوفياتي، بدستورها الخاص، وقوانينها الخاصة.ويعكس هذا الدستور. كما تعكس هذه القوانين، الخواص القومية "الاقتصادية، والثقافية، والتاريخية" لكل شعب.

وهكذا يتحقق ازدهار القوميات في كل الميادين، على عكس ما يجري في النظام الاستعماري القيصري.

ولنضرب على ذلك مثلا: انشأ الشعب الأوزبكي، الذي أستغل قبل الثورة، جمهورية اشتراكية لها دستورها، وسوفياتها، ومجلس وزراؤها، داخل اتحاد الجمهوريات السوفياتية، وازدهر اقتصادها القومي، الصناعة، الزراعة، تربية الماشية، ازدهاراً هائلاً، بفضل مشاريع الخمس سنوات. فلقد تضاعفت الصناعة الثقيلة خمس عشرة مرة منذ عام 1913. فهناك مركز حراري ومائي. وتنتج الزراعة الآلية بكثرة الأقطان المتنوعة. وتقوم مراكز تربية أغنام أستراكان الرئيسية في أوزبكي. أما تحسين مستوى المعيشة والتقدم الثقافي فهما يناقضان مناقضة شديدة البؤس والضغط الثقافي اللذين تفرضهما البرجوازية الرأسمالية على مستعمراتها، فبينما يوجد في منطقة "القبلي" في الجزائر طبيب لكل 30

ألف شخص "حسب الإحصاء الرسمي" يوجد في أوزبكي طبيب لكل 895 شخصاً وكذالك أقل من 10% من الأطفال المسلمين، في مراكش، يدخلون المدارس. بينما، زالت الأمية، في أوزبكي، بعد أن كانت عامة في عهد القياصرة "98% أميون"، وكذلك يتردد 81% على معهد ثانوي عال "في فرنسا 1000/36 فقط".

ولغة التعليم هي اللغة الأم، التي هي رسمية. وهذا شأن جميع القوميات التي تكون الاتحاد السوفياتي.

كما أن جرائدها ومطبوعاتها بالغة القومية. وبذلك سهلت نهضة التقاليد الأدبية والفنية لكل شعب[188].

فقد أنشيء، عام 1943، والحرب دائرة الرحى ضد هتلر، مجمع العلوم الأوزبكي، فلم يمض عليه عشر سنوات حتى أصبح يضم 25 مؤسسة علمية، يعمل فيها 1500 باحث. وهكذا لكل جمهورية سوفياتية ملاكاتها الخاصة "من علماء، ومهندسين ومهندسين زراعيين، وأطباء، ومربين، الخ".

ونستطيع ضرب الأمثلة الكثيرة على ذلك. غير أن أصدق الأمثلة هي تلك التي نجدها عند شعوب بعض المناطق المستقلة التي أودت بها النزعة الإمبراطورية إلى موت مؤكد، فإذا بالاشتراكية تنقذها من هذا المصير.

يسكن في سيبيريا، على ضفاف نهر(Haut-jenissei9) ورافده(Abakam) شعي الهاكاس (Hakasse) وقد قام المونغول، منذ أكثر من عشرة قرون، بغزو هذا الشعب الذي كان من أقوى شعوب أسيا وأكثرها ثقافة، فكان مصيره الخراب. حتى أنه فقد أحرفه الكتابية، وزادت النزعة الإمبراطورية في خطورة الحال فأخذ شعب الهاكاس بالأقوال رويداً رويداً. كان أذن في وضع يشبه وضع الهنود الحمر على يد المستعمرين الأمريكان. بيد أن الثورة الاشتراكية أعادت الحياة لهذا الشعب. فأصبح يعد أكثر 50ألف مواطن، يقيمون في منطقة مستقلة، ويتمتع هذا الشعب باقتصاد مزدهر "فحم حجري، ذهب، معدن

[188] أما اللغة الروسية فقد جعلت منه الظروف التاريخية لغة مشتركة لجميع شعوب الاتحاد السوفياتي, ولغة مساعدة في الميدان العلمي. فهي تستعمل إذن بهاتين الصفتين.

الحديد، غابات، أقنية" وفيه 350 مدرسة، و3 مدارس تقنية، معهد تربوي. كما له صفحة وادبه ومسرحه.

وكان الشعب "النّنت" (Nenets)، في شمالي سيبيريا، يخضع لاضطهاد موظفي القيصر الوحشي، والتجار الروس الذين كانوا يستولون على ثرواته "من فرو، وأسماك"وكبار مربي الوعول (Rennes). كان هذا الشعب في طريق الانحلال فبلغ عدده 16 ألف نسمة عام 1899، و2000نسمة عام 1913.

وقد غيرت الثورة الاشتراكية هذه الحال. فكون هذا الشعب مقاطعة قومية وعادت إليه القوة والحياة. فبلغ عدده عام 1939، 12 ألف نسمة. وأزدهرت صناعته من صيد بحري وبري، وظهرت زراعة صناديق الزجاج (Serres)وأصبح عدد المدارس 56. منها سبع مدارس ثانوية ومدرسة تقنية لتربية الوعول، وثلاثة مراكز للبحث العلمي... كل ذلك في هذه المنطقة التي كان يخيم عليه الجهل والخرافات .

هكذا يضمن الاتحاد السوفياتي ازدهار مختلف الشعوب التي يتكون منها. فاستعادت قوميات قديمة مضطهدة استقلالها واستطاعت شعوب خاملة. بفضل الاشتراكية، أن تكون أمما. كما استطاعت شعوب ذات اقتصاد بدائي وعقلية قديمة "كالننت" أن تنتقل في بضع سنوات إلى طريقة الحياة الاشتراكية.

وهكذا ندرك كيف أن العلاقات بين الأمم "كبيرة وصغيرة" قد تغيرت تغيراً كلياً في مثل هذه الظروف.

فحل محل الريبة والعداوة الثقة المتبادلة والتعاون الأخوي. ولهذا ذهبت جهود الغزاة الهتلرية سدى. أولئك الذين كانوا يأملون تحطيم العلاقات التي أقامتها الاشتراكية بين الشعوب السوفياتية بالقوة، كانوا يعتقدون، مثلا، أنهم يستطيعون تأجيج العواطف القومية القديمة من جديد في أوكرانيا ضد الشعب الروسي، فلم يحدث شيء من ذلك.وبينما نرى الحرب العالمية الثانية قد أضعفت كثيراً النظام الاستعماري الذي أقامته الرأسمالية، إذا بإتحاد الأمم الاشتراكية يقوى في نضالها المشترك ضد النازية العنصرية، عدوة الشعوب.

وهكذا تحققت صحة وجود وطنية سوفياتية تعارض النزعة الوطنية المتعصبة البرجوازية.

لا تقوم قوة الوطنية السوفياتية على المعتقدات العنصرية البالية أول المعتقدات القومية، بل هي تقوم على إخلاص الشعب وولائه العميق لوطنه السوفياتي، وعطف جميع العمال، المقيمين في بلادنا، الأخوي.
تشترك في الوطنية السوفيتية، بانسجام، تقاليد الشعوب القومية ومصالح عمال الاتحاد السوفياتي الحياتية المشتركة. والوطنية السوفياتية، بدلا من أن تفرق، تجمع على العكس، جميع الأمم والقوميات في بلادنا ضمن عائلة واحدة أخوية، من هنا تظهر أسس الصداقة المتينة التي لا نتزعزع بين شعوب الاتحاد السوفياتي، كما أن شعوب الاتحاد السوفياتي، من ناحية ثانية، تحترم حقوق شعوب البل الأجنبية واستقلالها. فقد أظهرت دائما رغبتها في أن تعيش بسلام وصداقة مع الدول المجاورة. وهذا هو أساس العلاقات التي أخذت تنمو بين دولتنا وبين الشعوب المحبة للحرية[189]
رايات الدولة الاشتراكية هي رايات الصداقة بين الشعوب التي كونت هذه الدولة، كما أنها رايات الصداقة مع جميع شعوب العالم، ومن الشعوب التي لا تزال ترزح تحت نير الرأسمالية. ولهذا كان من العبث الحديث عن "استعمار روسي": ذلك لأن الثورة الاشتراكية، بإزالتها للبرجوازية الإمبراطورية، قد اجتثت النزعة الإمبراطورية من جذورها. فالاتحاد السوفياتي مسالم، في أساسه، لأنه اشتراكي. والوطنية السوفياتية على نقيض النزعة القومية البرجوازية، فهي حب يحمله العمال السوفياتيون لبلاد الاشتراكية، وهي أروع مظهر للنزعة العالمية البروليتارية.
نستطيع الآن أن نخلص للقول بأن الاشتراكية، في نفس الوقت الذي توفر فيه ازدهار كل أمة ماديا وأخلاقياً، تعجل في التقارب السلمي بين جميع الأمم. ولما كانت الاشتراكية محررة للأمم فأنها تمهد لاتحادها.

3 – مستقبل الأمم

دللنا في الدرس الثالث والعشرين على أن الأمم لم توجد دائما بل أن الأمم حقيقة تاريخية كونتها البرجوازية على أساس سوق واحدة.

---

[189] ستالين: حول حرب الاتحاد السوفيات الكبرى، ص 155.

حتى إذا ماحطمت الطبقة العاملة، وبواسطة الثورة، النير الطبقي، حطمت في نفس الوقت، النير القومي: وهكذا تضمن الاشتراكية لجميع الأمم ازدهارا منسجما تاما.
وليس هذا الازدهار نفسه سوى بداية ازدهار أشد روعة هو الازدهار الذي ستوفره الشيوعية للإنسانية جمعاء متى انتصرت في كل مكان.
إذ سيكون من نتيجة انتصار الشيوعية الشامل تكوين اقتصاد عالمي واحد. وهو شرط ضروري لتقديم قوى الإنتاج المطرد. ومن ثم تفقد الحدود الأرضية مغزاها. إذ سوف يقرب ازدياد التبادل المادي والثقافي بين الشعوب. فتسير نحو لغة عالمية واحدة، غنية جداً، لأنها سوف تتولد من اندماج عدة لغات قومية بصورة تدريجية.
متى زالت النزعة الإمبراطورية وولت الطبقات المستغلة، وانقضى عهد الاضطهاد القومي والاستعماري، وحل محل العزلة القومية والريبة المتبادلة، الثقة والتقارب بين الأمم، وظهرت المساواة في الحقوق بين الأمم في الحياة، وماتت سياسة الاضطهاد وتمثل اللغات، وتنظيم تعاون الأمم وأمكن اللغات القومية، في تعاونها، أن تغذي بعضها بعضاً... لا يمكن، في مثل هذه الظروف، الحديث عن اضطهاد واندحار بعض اللغات وانتصار البعض الاخر... سنجد أنفسنا أمام مئات اللغات القومية التي سينفصل عنها أولا، بتأثير تعاون اقتصادي وسياسي وثقافي طويل الأمد بين الأمم اللغات الخاصة بكل منطقة من مناطق العالم، ثم سوف تندمج هذه اللغات في لغة واحدة عالمية مشتركة، لن تكون طبعاً الألمانية أو الروسية أو الإنجليزية بل سوف تكون لغة جديدة قد تمثلت أفضل عناصر اللغات القومية ولغات المناطق العالمية[190].

[190] ستالين: "حول الماركسية في علم اللغة" أخر مؤلفات ص 58" يتفق هذا مع نمو الشعوب الموضوعي، فسوف تتكون اللغة الوحيدة بواسطة عملية تاريخية بطيئة، في ظروف الشيوعية العالمية الاقتصادية والاجتماعية. وسوف تكون وسيلة ناجعة نشر الثقافة لأنها ثمرة عملية طويلة الأمد" وسوف اللغة لا تشبه بشيء هذا الخليط الاصطناعي أي الأسبرنتو: لأن الأسبرنتو – وأن كان الكثير من أنصارها دعاة – تسعى لتحويل الشعوب عن النضال الثوري. ويقول دعاتها أن تحرير الشعوب سيتم بتعميم الأسبرنتو ... وهذه وجهة نظر البرجوازية الصغرى. غذ مهما تكلم الرأسمالي والبروليتاري الأسبرنتو، فأن هذا لن يزيل الاضطهاد الطبقي. فالطريق الثوري الوحيد أمام الجماهير هو النضال الطبقي العالمي.

سوف تكون اللغة الواحد وسيلة ثقافية مشتركة، في محتواها من العواطف والأفكار، وفي صيغتها وتعبيرها، من أجل أولئك الناس الذين أدركوا، في كل مكان. أسمى مرحلة في تطورهم التاريخي وأصبحوا أفرادا في وطن واحد هو وطن الشيوعية الشاملة.

وهكذا نجتاز الحدود القومية.

غير أن المشكلة، في الأيام، ليست مشكلة تجاوز الأمم، بل أن مشكلة الشعوب، اليوم، هي مشكلة تحريرها من النير الرأسمالي وازدهارها الاشتراكي، أجل ازدهارها الاشتراكي، لأن الماركسية حين تتحدث عن "توحيد الأمم" لا تعني بذلك قط فنائها، والطريق إلى الاتحاد هو الازدهار الذي يشترط الانتقال إلى الاشتراكية.

يجب أن ندع الثقافات القومية تنمو وتكشف عن قواها الكامنة لتتوفر الظروف التي تسمح بصهرها في ثقافة واحدة مشتركة، ذات لغة واحدة مشتركة. ويحدث ازدهار هذه الثقافات القومية في صورتها، الاشتراكية في محتواها... من أجل انصارها في ثقافة واحدة اشتراكية "في صورتها ومحتواها، ذات لغة واحدة مشتركة متى انتصرت البروليتاريا في العالم أجمع، وتسربت الاشتراكية إلى العادات. هذه هي جدلية الطريق اللينينية في طرح مشكلة الثقافية القومية[191].

ملاحظات حول الألزاس والموزيل

يساعدنا مبدأ النزعة العالمية البروليتارية، لوحده، على حل مشكلة الأقليات القومية بصورة صحيحة.

وهذا هو حال سكان مقاطعات ثلاث: الرين الأسفل، الرين الأعلى، والموزيل.

لا يوجد "أمة" ألزاسية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. ولكنا، إذا رجعنا إلى تعريف الأمة العلمي، نلاحظ أن هذه المقاطعات لها وضع خاص.

لا يمكن أن نتحدث عن "وحدة لغوية" مع فرنسا، متى وجدنا البالغين، فوق الأربعين "ما خلا بعض المناطق" والشبان بين 16 – 20 سنة لا يعرفون تقريبا اللغة الفرنسية، كما أن الذين تعلموا الفرنسية لا يتكلمون أن يكتبونها ألا بصعوبة لقلة الممارسة – لأن لغة

[191] ستالين: الماركسية والمسألة القومية والاستعمارية ص 337 - 337

التخاطب في العائلة وفي العمل هي لهجة أصلها ألماني. ويكفي أن نقارن بين ما تطبعه صحف اللغة الألمانية وبين ما تطبعه صحف اللغة الفرنسية لنتأكد من ذلك.

أما التكوين النفسي، فيصعب علينا أن ننكر أنه يختلف عن التكوين النفسي الفرنسي بسبب الاختلاف اللغوي ولا سيما الاختلاف في تطور الألزاس التاريخي

إذ أن سلسلة من التجارب التاريخية التي قامت بها الأمة الفرنسية بين عامي 1870 – 1919 "فصل الكنيسة عن الدولة وقضية دريفوس مثلاً" لم تنطبع في وعي سكان الألزاس واللورين انطباعها في وعي سائر الأمة. كما لا يمكننا أن ننكر أن فترة 1940 1945 عاشها الشعب في الألزاس واللورين بطريقة تختلف عن سائر الناس في فرنسا.

وكذلك لا توجد وحدة قومية بين ألمانيا والألزاس لنفس الأسباب التاريخية بالرغم من وجه القرابة اللغوية، ولهذا فأن تجربة الثورة الفرنسية الكبرى أو تجربة 1936 قد أثرتا تأثيرا قويا في الألزاس بينما هما لم تؤثر في الشعب الألماني.

نلاحظ إذن وجود خواص قومية في الألزاس واللورين، فهل هي لا تخلو من القيمة؟ أو ليست مصدراً لعدد من المطالب؟

أجل. وتجاهل هذه المطالب على يد الحكومات الفرنسية سبب شعوراً بالنقص وأثار الاستياء بين صفوف سكان الألزاس واللورين.

وهذا بديهي فيما يتعلق بالمطالب المادية الخاصة... كالضمان الاجتماعي، وكساد المحصول الزراعي "الخمر التبغ"، والفروق في الضرائب، ووضع الموظفين، وضحايا الحرب... الخ.

وهذا بديهي أيضاً فيما يتعلق بمشاكل اللغة: فاستعمال اللغة الفرنسية فقط في النشرات الأدارية "ما عدا أوراق الضرائب" وأمام المحاكم، وفي مجالس الشركات يؤدي إلى مظالم عدة يشعر الناس كأنها عقاب لهم.

كما أن تعليم اللغة الفرنسية لوحدها يؤدي، من جهة، إلى أن الأطفال الألمان الذين يتخرجون من المدرسة الابتدائية لا يعرفون اللغة الألمانية الأدبية كما أنهم يعرفون اللغة الفرنسية عند دخولهم إلى المدرسة في السادسة من عمرهم، كما يتكلمونها في الشارع،

وفي العائلة، بينما على صغار الألزاسيين – الذين يتكلمون لهجتهم الخاصة خارج ساعات الدرس – أن يتعلموا اللغة الفرنسية بأكملها.

ومن جهة ثانية فأن تعليم اللغة الفرنسية فقط يؤدي إلى أن الشاب الألزاسي الذي يبتعد لسبب ما "كالعمل أو الخدمة العسكرية"، عن عائلته، لا يستطيع مراسلتها باللغة التي يفهمها والداه أو جداه، كما يجد صعوبة في قراءة رسائلهم باللغة الألمانية[192].

تمثل الألزاس .اللورين على المستوى التاريخي، واللغوي، والفني، والثقافي، الاقتصادي شخصية أصلية بالنسبة للأمة الفرنسية والأمة الألمانية على السواء.

وتنكر البرجوازية الفرنسية هذه الصالة. وهي تناقض، لا سيما، مطلب العمال الألزاسيين الواضح بازدواجية اللغة "الألمانية والفرنسية" في المدرسة الابتدائية وهي تدعي أن مثل هذا المطلب لا أساس له بالرغم من الوقائع البدائية. "حتى إذا وجب معاقبة جزاري أورادور عارضت بذلك بحجة أن بعضهم الزاسيون".

غير أن ينبغي أن نلاحظ أن نفس هذه البرجوازية، بعد أن شجعت في الألزاس واللورين عمل صنائع هتلر، سلمت الألزاسيين واللورينيين إلى عام 1940 بدون أية صعوبة.

وهي تغمرهم اليوم، بالرغم من رفضها لسد مطالب العمال الألزاسيين "لا سيما فيما يتعلق بالغة" بدعاية "أوروبية" ضخمة، فهي تود لو يقع العمال الألزاسيون في فخ "أوروبا المتحدة"، على أمل أن تعطيهم "أوروبا" أخيراً ما رفضته فرنسا. وهكذا تريد البرجوازية الفرنسية، مرة أخرى، تحول عمال الألزاس واللورين إلى طيارين في الطيران الألماني.

فهل هناك موقف أكثر تعارضا مع مصالح عمال فرنسا ومصالح عمال الألزاس؟

بينما يختلف موقف الطبقة العاملة الفرنسية. فهي تعترف، حسب النزعة العالمية البروليتارية، بمطالب القلية الألزاسية القومية كما تعترف لها بحقها في تقرير مصيرها. "أي حق الأنفصال".

غير أن الحق في الطلاق ليس وجوب الطلاق.

---

[192] من رسالة وجهتها أمانة الحزب الشيوعي الفرنسي، 22 أيار 1950، إلى شيوعي (Saint . Louis Hunenigne . Hegenheim) (الرين – الأعلى)، كراسات الشيوعية نيسان 1950، ص 58. راجع أيضاً في كراسات الشيوعية، أذار 1950 بحث ف. بيو " مسؤوليات شيوعي الألزاس واللورين الكبرى".

إذا كان على شيوعي فرنسا أن يلحوا في القول على الحق في الانفصال، ضد النزعة الأمبرطورية المضطهدة، فأن على شيوعي الألزاس واللورين أن يوضحوا الاتحاد الحر الذي رضيته شعوب الألزاس واللورين مع العمال فرنسا، مخافة التردي في النزعة القومية الضيقة[193].

ليست مصلحة عمال الألزاس واللورين، الحالية، في الانفصال. بل مصلحتهم في الدفاع عن مطالبهم القومية في اتحادهم الوثيق مع *عمال فرنسا*. وهذا ما حدث في عام 1936 حينما حارب عمال الألزاس الجبهة الشعبية. كما حدث أثناء الاحتلال النازي، فقد ناضل عمال الألزاس واللورين، متحدين مع الطبقة العاملة الفرنسية، ضد الهتلريين "وأعوانهم". وسائق القطار الشيوعي فولدي هو رمز بطولة هذا النضال الموحد ضد العدو المشترك.

ومصلحة عمال الألزاس واللورين، اليوم، هي في النضال مع عمال فرنسا ضد البرجوازية الرجعية من أجل الحريات الديمقراطية والتقدم الاجتماعي، وضد بعث النازية في ألمانيا، وضد اديناور وجيشه.

---

[193] م. توريز: "حق شعوب الألزاس واللورين في تقرير المصير" صحيفة الأومانيتي 20 تشرين الثاني 1934 مؤلفات، كتاب 3، ج 7، ص 140

الفهرس